

● المحور الأول: التأصيل الإسلامي للحوار:

١ - الحوار في القرآن والسنة، وأهدافه

د. سعد بن علي الشهراني (المدير التنفيذي للملتقى العالمي للعلماء والمفكرين المسلمين).

٢ - الحوار في القرآن والسنة الأسس والمنطلقات

د. أسعد السحمراني (مسؤول الشؤون الدينية بالمؤتمر الشعبي اللبناني).

٣- تجارب من الحوار الحضاري عبر التاريخ .

د. جواد الخالصي (رئيس الجامعة الخالصية - العراق).



الحوار في القرآن والسنة وأهدافه

د. سعد بن علي الشهراني
المدير التنفيذي للملتقى العالمي
للعلماء والمفكرين المسلمين





مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الأمين وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الإسلام دين الحوار، فلقد أرسى قواعده، وقيَّد ضوابطه، وبيَّن آدابه، في نصوص متكاثرة في كتاب الله تعالى تضمنت أروع البيان، وأصول المناظرة، وآداب المحاورة، وفي سنة نبيه المصطفى ﷺ القولية والعملية، ما يعين المحاور، فلقد دعا المصطفى ﷺ إلى الله وحاور، وناظر، وباهل، فكان خير أسوةٍ للمتحاورين.

والمحاور المسلم لا ينطلق في حواراته من فراغ، بل له أهداف سامية معلومة؛ إذ إن أهداف الحوار هي ثمرته وغايته المطلوبة، وبتحديد هذه الأهداف تتضح موضوعاته وأساليبه وأهدافه، وعليه فإن الحكم على الحوار حرمةً وجوازاً، وتقويمه نجاحًا وفشلاً، قوةً وضعفًا، إنما يكون بمعرفة أهدافه، فالقاعدة الشرعية تنص على أن الأمور بمقاصدها، وبدون تحديد هذه الأهداف يبقى الحوار ضياعًا للوقت، وهدراً للطاقات، وإشغالاً للأمة بما لا يرتجى منه فائدة.

وسيجد المتتبع لحوارات النبي ﷺ سواء مع أصحابه أو مع المشركين أو اليهود والنصارى، أو الملوك والأمراء، أن لها أهدافًا عظيمة ربانية، ترتقي وتترفع عن الأهداف الأرضية المادية التي يسعى لها بعض البراجماتيين والنفعيين.



ومما يؤسف له أنه دخل باسم الحوار والدفاع عن الإسلام من ليس مؤهلاً لذلك، فتصدّر هؤلاء لهذه الحوارات، وسكت المؤهلون، عن تمثيل الإسلام في المحافل ووسائل الإعلام.

والدعاة إلى الله مطالبون بإقامة الحجة، وإبلاغ الرسالة للناس كافة، فلا بد لهم أن يتسلحوا بعلم « المحاورة وآداب المناظرة » ويحذروا من الوقوع في شِراك المحاورات الجدلية التي لا طائل منها.

ولذلك حاولت في هذا البحث المتواضع أن أقدم أهدافًا مشروعة للحوار مع الغرب، يضعها المحاور المسلم نصب عينيه، ومحاذير يتجنب الوقوع فيها، فقد وقع فيها ثلة من المحاورين بعلم أو بجهل أو بتأويل غير سائغ، فلا هم للإسلام نصروا، ولا لشبهات الغرب دحضوا، بل خذلوا وأضروا أكثر مما نفعوا.

والحوار الذي أعنيه، ليس حوار التقريب بين الأديان المحرم والمحذور، وإنما هو حوار التعايش الحضاري بيننا وبين الغرب.

وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد فيما ذكرت من أهداف ومحاذير..

سائلاً المولى تعالى أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم..

وهو حسبي وبه توفيقي، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

كتبه

د. سعد بن علي بن محمد الشهراني

مكة المكرمة



تعريف الحوار

الحوار في اللغة: أصله من الحَوْر وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء[١].

قال الجوهري: حار يحور حوراً وحؤوراً: رجع، يقال: حار بعدما كار، والمحار: المرجع، والمحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب[٢].

وقال الفيروز آبادي: « وتحاوروا تراجعوا الكلام بينهم، والتحاور التجاوب »[٣].

وقال الراغب الأصفهاني: « الحَوْرُ التردد إمّا بالذات وإما بالفكرة ... والقوم في حَوَار في تردد إلى نقصان ... والمحاورة والحَوَار: المرادَّة في الكلام ومنه التحاور، قال الله تعالى:﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ (المجادلة:١)[٤].

إذاً فالحوار في اللغة هو تراجع الكلام والتجاوب فيه بالمخاطبة.

والمعنى الاصطلاحي لا يختلف عن المعنى اللغوي، فمصطلح الحوار من المصطلحات الحادثة والجديدة.

يقول د/ عبدالعزيز التويجري: « مفهوم الحوار في الفكر السياسي والثقافي المعاصر، من المفاهيم الجديدة، حديثة العهد بالتداول، ولعل مما يدل

(١) لسان العرب (حور) (٤/ ٢١٧).
(٢) الصحاح (حور) (٢/ ٦٤٠).
(٣) القاموس المحيط (حور) (٢/ ١٦).
(٤) المفردات ص(١٣٤).



على جـدة هذا المفهـوم وحداثتـه أن جمـيع المواثيق والعـهـود الدوليـة التي صدرت في الخمسين سنة الأخيرة، بعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة، تخلت عن الإشارة إلى لفظ الحوار»[١].

ومصطلح «الحوار» قد يُراد به «حوار التقريب بين الأديان»، وقد يراد به «حوار التعايش» بين أتباع الأديان، فهو بالمعنى الأول مذموم مطلقًا، وبالمعنى الثاني يخضع للسياسة الشرعية للأمة، وللأهداف المرسومة لهذا الحوار[٢]. وهذا ما أردته في هذا البحث.

وثمة ألفاظ استخدمت بدلاً عن الحوار منها (المناظرة، الجدال، المحاجّة).

وهذه المصطلحات كلها تشترك مع الحوار في أنها مراجعة الكلام ومداولة له بين طرفين، فهي تدخل في معنى الحوار من هذه الجهة، ثم تفترق المناظرة في دلالتها على النظر والتفكر، كما أنها تعتمد على الصرامة العلمية، والقواعد المنطقية، أما الجدال والمحاجة فتفترق عنها في دلالتها على المخاصمة والمنازعة[٣].

---

(١) الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي ص(٧).

(٢) انظر: دعوة التقريب بين الأديان (٤/ ١٦٦٣).

(٣) انظر: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى زمزمي: ص(٢٦-٣١)، ثقافة الحوار في الإسلام: ص(١٩-٥٦)، وفيها عرض موسع للفرق بين الحوار والمصطلحات المقاربة له.



أهمية الحوار في الإسلام

الإسلام دين الحوار، ولا توجد ملّة من الملل أعطت للحوار أهميته، ووضعت له قواعده وضوابطه وآدابه كملّة الإسلام، ولن يعدم المحاور قاعدة منطقية للحوار إلا وجد دليلها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهذا يؤكد على حيوية وواقعية الإسلام وقدراته على كونه ديناً لكل الأزمنة والأمكنة[١]، رغمًا عن أنف المتشدقين، الغافلين عن عظمة هذا الدين وشموليته وكماله.

والقرآن الكريم حفل بالعديد من المواقف الحوارية، التي بلغت قرابة مائة وعشرين موقفًا حوارياً، شغلت نحو ألف آية من كتاب الله، أي ما يعادل سدس آي القرآن، هذا سوى الآيات الخطابية المصدرة بـ(يا أيها الناس) و(يا أهل الكتاب)، و(يا أيها الذين آمنوا)، وسوى آيات المساءلة والمحاجّة التي لا يعقبها جواب، وآيات الإخبار عن المقالات التي لا تتضمن مراجعة في الكلام، وإن كانت هذه جميعاً ذات طبيعة الحوار ولو جرى حسبانها جميعاً لصار القرآن كله كتاب حفل بالعديد من آيات الحوار[٢].

وقد يقول قائل: إن كلمة حوار لم ترد في القرآن الكريم إلا في ثلاث آيات[٣]، فكيف يقال إن القرآن الكريم كتاب حوار ؟!

---

(١) انظر: ثقافة الحوار في الإسلام، د/ عبدالقادر الشيخلي: ص(٧-٨).
(٢) الحوار في القرآن والسنة: أسسه وأهدافه، د/ أحمد القاضي: ص(١٨٨).
(٣) في سورة الكهف موضعين الآية رقم (٣٤)، والآية رقم (٣٧)، وفي سورة المجادلة آية رقم (١).



فالجواب إضافة إلى ما سبق ذكره أنه وإن لم تستعمل كلمة حوار بكثرة، فقد استخدم ما يتفق معها في المعنى وهو مادة (القول) التي وردت في (١٧٢١) موضعًا، والملفت للنظر هنا أن كل كلمة تكلم بها الآخرون ردّ عليها الله تعالى في القرآن الكريم وطالب النبي ﷺ بأن يرد على شبهاتهم ودعاويهم، فكل كلمة (قالوا) في القرآن الكريم يوجد مقابلها كلمة (قل).

وقصص القرآن الكريم عن الأنبياء وأقوالهم إنما هي في الحقيقة حوارات أنموذجية للمسلم الداعية في كل زمان ومكان ليتعلم منها كيف يحاور الآخرين[١].

كما أن تعرض القرآن الكريم للحوار جاء بأساليب مختلفة متعدّدة، ففي بعض الآيات تظهر الدعوة إلى الحوار أو إلى شيء من مستلزماته وأصوله، وفي نصوص أخرى حث على التزام آداب عامة للحوار، وفي قسم منها بيان آداب خاصة من آداب الحوار، وفي قسم آخر نماذج وأمثلة للحوار[٢].

فمن النصوص العامة التي وضعت مقومات الحوار وأصوله وشروط الانتفاع به قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦).

وتأتي هذه الآية رداً على المشركين الذين طعنوا في النبي ﷺ دون تدبّر أو تفكير فاتهموه بالكذب تارة وبالسحر تارة أخرى كما في الآيات قبلها.

---

(١) الحوار في الكتاب والسنة مبادئه وأهدافه، د/ بسام عجك: ص(١٨٨).

(٢) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، د/ يحيى زمزمي: ص(٤٨).

فأقام الله عز وجل هذه الموعظة العظيمة التي من أخذها بجميع مقوماتها فلا بد أن يصل إلى الحق، وهذه المقومات هي:

١ - القيام لله تعالى: ﴿أن تقوموا لله﴾ وهو الإخلاص والتجرد في طلب الحق، وهو شرط أساسي لكل عمل، ويندرج تحت هذا الأصل آداب كثيرة للحوار منها: تصحيح النية، وحسن الاستماع، والتسليم بالخطأ، والرجوع إلى الحق، والتواضع وتجنب الكذب والمراوغة، والأمانة، والإنصات، والعدل، والهدوء، وضبط النفس، وعدم الغضب، وتجنب الاستهزاء والسخرية بالطرف الآخر .. وغير ذلك.

٢ - مراجعة النفس على انفراد أو مع الآخرين ﴿مثنى وفرادى﴾، والالتزام بهذا الشرط يقضي على عامل مهم من العوامل التي تغطي الحق أو تشوّه وجهه، وذلك في مثل الأجواء الجماعية والجماهير الجاهلة، والتي غالباً ما تتصف بالغوغائية والتقليد الأعمى واتباع كل ناعق من رؤوس الضلال، مما قد يؤدي بطالب الحق المخلص إلى اتباع الأكثرية من الناس، متهماً نفسه، ظاناً أن الحق مع الأكثرية.

وهذا الأصل أيضًا يدخل تحت عدة أمور تجب مراعاتها، كمراعاة الجو المحيط بالحوار، والظروف النفسية والاجتماعية للطرفين والتعارف قبل الحوار، والتحدّي والإفحام، والمحافظة على هدف الحوار والوصول إلى نتيجته.

٣ - التفكير فيما يقوله المخالف ﴿ثم تتفكروا﴾، وهذا الأصل هو الوسيلة الأساسية للوصول إلى الحق بعد الالتزام بالشرطين السابقين، فالتفكير



والعلم وإمعان الرأي هو المتمّم لهذا المنهج الإلهي للوصول إلى الحق، وتبين الهدى من الضلال، لأن أداة التفكر الأساسية هي العلم بحال القضية المختلف فيها ومعرفة ملابساتها، والمقصود بالتفكّر هو البحث عن الأدلة الشرعية العلمية والتحقّق من ثبوتها ودلالتها على المراد، والجاهل بذلك كله لا يستطيع الوصول إلى الحق فيوجهه التقليد الأعمى دون فكر أو نظر.

ويدخل تحت هذا الأصل عدد من الآداب العلمية كالبيان وحسن العرض والتثبت والتوثيق، والبدء بمواطن الاتفاق وطلب الدليل والمبادرة به، والتسليم بالحق والبدء بالأهم[١].

ولا يسع المقام البسط عن حديث القرآن عن الحوار، أما السنة النبوية فهي عامرة بالمواقف الحوارية الرائعة، والمناظرات المقنعة، وسيرته العملية ﷺ في دعوة كفار قريش وأهل الكتاب: من يهود المدينة، ونصارى نجران، ومكاتباته لملوك الأرض، خير دليل على ذلك، وعلى أثره درج أئمة السلف من الصحابة والتابعين في محاورة المخالفين.

---

(١) الحوار آدابه وضوابطه، د/ يحيى زمزمي: ص(٤٩-٥١) باختصار.



الأهداف المشروعة في الحوار في الغرب

في الحوار مع الغرب طرفان ووسط، أما الطرف الأول فيرى المنع والتحفّظ على هذه الحوارات لارتباط الحوار بالتنصير كما يقولون[١]، وارتباطه بالتهيئة للاستعمار، ونحو ذلك، - يرى بعض الباحثين أن هذه حجج وقتية، قد لا ترقى إلى العلمية الموضوعية[٢] - ، وهذا الرأي وجيه إذا كان المقصود بالحوار حوار التقريب بين الأديان، أما إذا كان حوار التعايش السلمي ففيه مبالغة وتجوز.

أما الطرف الثاني: فهو الذي يرى جواز الحوار مع الغرب مطلقًا دونما أهداف معلومة، وضوابط مشروعة، فأصبح مجرد الحوار هو الهدف، والموقف الاعتذاري الانهزامي هو الطابع لهذا الطرف[٣]، ولا يمكن أن نسمي هذا حواراً؛ بل نسميه اعتذاراً أو دفاعاً أو تبريراً ونحو ذلك[٤].

أما الوسط: فهو يرى الحوار مع الغرب، وله أهداف سامية معلومة، وضوابط شرعية معتبرة، يحافظ على الثوابت، ولا يقدم التنازلات، ولا يقف موقف الضعيف المنهزم، بل يقف موقف القوي المعتز بدينه والمتمسّك بثوابته

(١) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي: ضرورة المغامرة، سعود المولى: ص(١٢٧-١٣٦).
(٢) وهو رأي د/ علي النملة انظر: الشرق والغرب منطلقات العلاقة ومحدداتها: ص(١٤٤).
(٣) انظر: نماذج من هذا الموقف الانهزامي الاعتذاري: نحن والغرب حوارات مع حمادي الصيد، وسهيل إدريس، والطاهر لبيب، وعبدالمجيد الشرفي، ومحمد الطالبي، إعداد: كلثوم السعفي، وانظر أيضاً: أوهام الإسلام السياسي، عبدالوهاب المؤدب: ص(٢٣١).
(٤) الشرق والغرب منطلقات العلاقة ومحدداتها، علي النملة: ص(١٤٤).



وقيمه، فهو يحاور بلا ضعف ولا عنف.

والنصوص الشرعية في الكتاب والسنة تؤيد هذا الرأي، يقول ابن تيمية رحمه الله: « فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقّه ولا وفّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين »(١)، ومثله كلام الإمام ابن القيم عند ذكره للفوائد من قصّة وفد نجران فقال: « ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجّة عليهم ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجّة فليولّ ذلك إلى أهله وليخلّ بين المطي وحاديها والقوس وباريها »(٢).

وسنأتي إلى ذكر أهم الأهداف المشروعة للحوار:

أولاً: الدعوة إلى الله تعالى:

إن الحوار الحضاري مع الغرب يعد تطبيقًا لمبدأ جهاد الدعوة، وهو أحد أنواع الجهاد التي ذكرها النبي ﷺ: «جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم»(٣).

فالحوار يندرج تحت الجهاد باللسان، وهو مجال عظيم، ومناخ مناسب

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٠/ ١٦٤-١٦٥).
(٢) زاد المعاد: (٣/ ٦٣٩) بتحقيق الأرناؤوط.
(٣) رواه النسائي ح (٣١٩٢).



يمكن للمسلمين أن يستفيدوا منه لتحقيق أحد فرائض دينهم، وهو الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

والدعوة إلى الله وبيان محاسن هذا الدين وفضائله من أسمى أهداف الحوار وأجلها، وهي وظيفة الأنبياء والرسل جميعًا، والآيات الدالة على ذلك في كتاب الله تعالى كثيرة.

كما أمر الله تعالى نبيه محمد ﷺ بدعوة أهل الكتاب ومحاورتهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وقد أرسل الرسول ﷺ الكتب إلى ملوك أهل الأرض -ومنهم أهل الكتاب- تلبية لأمر الله تعالى يدعوهم إلى الإسلام مثل رسالته ﷺ إلى هرقل وهي: «من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤) رواه البخاري[١].

ومن تأمّل حوارات النبي ﷺ وأصحابه وجد أن غايتها هذا الهدف

(١) صحيح البخاري: (١/ ٦).



السامي، ومن ذلك أنه سمع بعض نصارى الحبشة بمبعث النبي ﷺ ، فقدموا إلى مكة -وكان ذلك قبل الهجرة- وكانوا عشرين رجلاً فأتوا النبي ﷺ فوجدوه عند البيت الحرام فجلسوا إليه وكلموه، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره(١).

وعندما أسلموا أنزل الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾ (المائدة: ٨٢-٨٥)(٢).

وعندما هاجر الصحابة إلى الحبشة تحاوروا مع النجاشي، وقرأ جعفر بن أبي طالب صدراً من سورة مريم فأسلم النجاشي(٣) ومات على الإسلام سنة تسع، وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب(٤)، ولما قدم النبي ﷺ المدينة

(١) السيرة النبوية لابن هشام: (٢/ ٢٨-٢٩).
(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٨٥).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: (١/ ٢٩٠)، الشريعة للآجري: ص(٤٤٩-٤٥١).
(٤) صحيح البخاري: (٤/ ٢٦٤)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري: (٧/ ١٩١).



أتى إليه عبدالله بن سلام وحاور النبي ﷺ فأسلم رضي الله عنه [(١)].

فهذا الهدف هو أسمى الأهداف وأعلاها؛ لأنه فيه تبليغ دعوة الله إلى الناس، وإنقاذهم مما هم فيه من الشرك والجهل » [(٢)].

«وقد وجّه الله تعالى رسوله ﷺ وأمته جميعًا إلى مجادلة أهل الكتاب ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بأسلوب القصر الذي لا تخيير فيه، حين يتعلق الجدل (بأَهلَ الكِتاب) بالذات؛ لأن لديهم علماً سابقًا قد يغرّهم ويغريهم بالجدل، ولديهم تحريفًا هائلاً ورثوه عن أسلافهم قد يضلهم ويجعلهم يتصلبون على باطلهم، لذلك يحتاجون أكثر من المشركين إلى غاية الملاطفة والمحاسنة، حتى يسمعوا كلام الله وهديه في هدوء وروية، رجاء أن يهتدوا إلى الحق الذي يصدق ما معهم من الحق، ويصحح ما ورثوه من الباطل»[(٣)]، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

ولا يعني الأمر بمجادلتهم بالتي هي أحسن، والموعظة الحسنة تقديم التنازلات، أو الإفراط في اللين والتساهل في قبول الحق، أو المجاملة على حساب الحق، وقد يعد بعض المحاورين ذلك من الكياسة أو السياسة المقبولة

---

(١) صحيح البخاري: (٤/ ٢٦٨).

(٢) الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه في الكتابو السنة، د/ خالد القاسم: ص(١١٣-١١٤). انظر نماذج من حوارات النبي (في: حوار الحضارات وطبيعة الصراع بين الحق والباطل، د/ موسى الإبراهيم: ص(٢٥٥-٢٧٠).

(٣) آفاق الحوار بين الحضارات والثقافات، أ.د/ عبدالستار السعيد: ص(٨٨).



دينًا، وهذا خطأ ؛ لأن هذه الأمور هي وسائل وأساليب لتوصيل الحق واضحًا إلى الناس، والحق ذاته ليس محلاً للجدل أو المساومات والتنازلات خاصة في الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، والاستسلام لشريعة الله، لذلك يوصي الله تعالى باللين والحكمة والبصيرة، مع الثبات التام على الحق الذي علمنا إياه، ولذلك ختم الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾؛ لأن مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، لا ينبغي أن تنسينا أصل القضية في توحيد الله، وإسلام الوجوه والقلوب لله الواحد القهار، وأهل الكتاب قد حرفوا هذا الأصل تحريفًا هائلاً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠-٣١).

ولذلك أيضًا ختمت الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فهذا تنزيه لله تعالى عن الشرك والنقص، وإعلان واضح بأننا موحدون لا نقبل الشرك والشركاء، مع التزامنا التام بالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، وتمسكنا بآداب الحوار وأصوله[١].

فالداعية المحاور يجادل بالتي هي أحسن، متمسكًا بثوابته وأصوله، واضعًا نصب عينيه الهدف الأسمى لهذا الحوار وهو هداية الخلق والحرص على اتباعهم الحق. وتتمة هذا الهدف في التالي:

---

(١) المصدر السابق: ص(٨٩-٩٠).



ثانياً: بيان الباطل:

وذلك لإقامة الحجة وإظهار الباطل على حقيقته، ولتستبين طرق الضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٥)، ولكي يختار كل واحد أحد الطريقين عن بينة ووضوح، كما قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٢).

وقد بيّن الله عز وجل أن كتمان الحق وتلبيسه بالباطل هو شأن اليهود والنصارى، وقد نعى عليهم ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٤٢)(١).

والآيات القرآنية في بيان باطل أهل الكتاب كثيرة جداً، وقد طبّق النبي ﷺ بسيرته العملية هذا المنهج الرباني، ومن أعظم ما ورد من هذه المحاورات؛ تلك المحاورة الرائعة التي وقعت بين رسول الله ﷺ ووفد نصارى نجران، والتي أنزل الله في شأنها فوق ثمانية آيات من سورة آل عمران.

وهي قصة جديرة بالتأمل والدراسة(٢)، لأنها مثال عملي تطبيقي يشتمل على جملة من القواعد، والأصول، والحكم، والمعاني، والمعاملات الحسنة، والصبر الجميل في الحوار والمناقشة. ومنها على سبيل الاختصار ما يلي:

١ - أن النبي ﷺ حاور وجادل هذا الوفد طويلاً، مطبقاً معايير القرآن في

---

(١) نظر: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، د/ يحيى زمزمي: ص(٤٥)، والحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة، د/ خالد القاسم: ص(١١٤).
(٢) كتب د/ أحمد علي عجيبة، بحثاً مستقلاً بعنوان (نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة).



ضبط الجدل بالأحسن، وغيره من الشروط.

٢- كان الحوار في أصل الأصول وهو التوحيد، وتأليه غير الله وقد حاورهم طويلاً، ورد أباطيلهم، ولم يساوم أو يتنازل عن شيء من الحق، وإذا جاز الحوار في هذا فكل ما عداه أهون منه؛ لأن الحوار هو طريق الفهم والبيان، وإقامة حجة الله تعالى على الناس.

٣- أن النبي ﷺ أنزلهم في مسجده، وتركهم وما يدينون فلم يكرههم على شيء، وبعد أن تصلبت عقولهم عن قبول البرهان والدليل دعاهم للمباهلة.

٤- بعد أن اتضحت الحقائق، وتقررت العقائد، وظهر الحق جليًا لم يمنعه ذلك من (التعايش) السلمي معهم على ما هم عليه، وقد قبلهم في دولته، وعقد معهم صلحاً على غاية العدل والفضل، راعى فيه حقوقهم وحقوق المسلمين، وهذا هو الأساس في قبول غير المسلمين في دولة الإسلام، وعدم انتقاض حقوقهم بسبب الخلاف في الدين، مع تجلية العقائد وأحكام الدين، وعدم المداهنة فيها، أو تمييع حقائقها.

٥- من هذا وأمثاله كثير يتقرر أن الحوار الواسع، ثم التعاون حتى بعد الاختلاف، وهو عندنا -نحن المسلمين- ليس قضية سياسية تخضع للتقلبات، وإنما هو دين ملتزم، مقرر بنصوص القرآن، وعمل الرسول ﷺ، وأن الأمة الإسلامية مكلفة به، وملتزمة بتطبيقه في كل العصور ضرورة أنه وسيلتها العظمى في الدعوة والإبلاغ(١).

(١) آفاق الحوار بين الحضارات والثقافات، أ.د/ عبدالستار السعيد: ص(٩٥-٩٦).



ثالثاً: رد الشبهات وكشف زيفها، وتحصين الآخرين من الوقوع فيها:

لأن الشبهة إذا استقرت في قلب صاحبها منعته من قبول الحق والإذعان له.

وقد اعتنى القرآن بهذا الهدف فذكر شبهات الكفار من أهل الكتاب والمشركين، وردّ عليها بأوضح برهان، وهذا من الحكم في إنزال القرآن مفرقًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٢-٣٣).

قال ابن كثير: « ولا يأتونك بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلاّ أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم، قال ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول» [(١)].

والشواهد في كتاب الله تعالى على إيراد الشبهة والجواب عنها كثيرة جداً.

«ومن شبههم التي ردّ عليها القرآن إنكارهم للرسالة بحجّة أن محمداً ﷺ يمشي في الأسواق ويأكل الطعام كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ٧)، فردّ الله عليهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ..﴾ (الفرقان: ٢٠)، ومن ذلك محاجة

(١) الحوار مع أهل الكتاب، د/ خالد القاسم: ص(١١٦).



موسى وفرعون، فكان فرعون يطعن في رسالة موسى، وكان موسى عليه السلام يرد على شبهة فرعون، ومن ذلك ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣-٢٤)، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ (الإسراء: ١٠١-١٠٢)، وفي الردّ على الشبه إسكات للطاعنين، وبيان للحائرين.

ولكن يشترط على من تولّى الرد على شبهة أهل الكتاب إحكام الرد لئلا يقرر الشبه ويعجز عن الرد، وذكر ابن تيمية: أن بعض الذين قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالاً، وأجابوا عنها بأجوبة لا تصلح أن تكون جواباً في المسائل الظنية، بل هي إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين، وهم كما مثلهم الغزالي وغيره بمن يضرب شجرة ضرباً يزلزلها به، وهو يزعم أنه يريد أن يثبتها[(١)] » [(٢)].

وقد يضطر المحاور المسلم للخوض في رد شبهات يطرحها عليه المعارض، لا يرتجي من ورائها كبير فائدة سوى تحصين السامعين والمشاهدين من تلقف هذه الشبهات، وربما كانوا أعداداً غفيرة حول العالم كما يحصل في بعض

---

(١) الجواب الصحيح، لابن تيمية: (١/ ٧٦-٧٧).

(٢) الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه، د/ خالد القاسم: ص(١١٦).



المناظرات الفضائية، فيتعين بيان الحق وكشف الشبهة[١].

قال الآجري: « إن من صفة العالم العاقل، الذي فقهه الله في الدين، ونفعه بالعلم، ألا يجادل، ولا يماري، ولا يغالب بالعلم إلا من يستحق أن يغلبه بالعلم الشافي، وذلك يحتاج إليه في وقت من الأوقات، إلى مناظرة أحد من أهل الزيغ ليدفع بحقه باطل من خالف الحق، وخرج عن جماعة المسلمين. فتكون غلبته لأهل الزيغ بركة تعود على المسلمين، على جهة الاضطرار إلى المناظرة، لا على الاختيار»[٢].

رابعًا: إصلاح الصور النمطية المشوّهة عن الإسلام في الغرب:

فلقد أضحى الإسلام في عقلية الغربي دينًا دمويًا إرهابيًا، وشوّهت معالم هذا الدين، وأخفت محاسنه، وأصبحت هذه النظرة السوداء للإسلام من القضايا البدهيّة عند الغرب[٣]، وذلك بسبب الترسانة الإعلامية الغربية وسيطرة الصهيونية عليها، والتي تستهدف تشويه الإسلام والمسلمين، وأيضاً من التهم الباطلة التي توجه إليهم مثل التخلف الحضاري، والهمجية، والدموية والإرهاب .. ونحو ذلك.

ولهذا كان الحوار لإزالة هذه الغشاوة عن أعين الغربيين الجاهلين بحقائق ومحاسن هذا الدين واجبًا على المسلمين، ولا بدّ أن تتخذ عدّة وسائل وآليات يتم عن طريق هذا الحوار مثل:

---

(١) انظر: الحوار في القرآن والسنة: أسسه وأهدافه، د/ أحمد القاضي: ص(١٦٩).
(٢) أخلاق العلماء، للآجري: ص(٥٦).
(٣) نظر في بيان ذلك: الإسلام وتهمة الإرهاب، أ.د/ حسن عزوزي.



١- إنشاء قنوات فضائية باللغات الأجنبية، وكذلك الإذاعات ونحوها من وسائل الإعلام المرئية والمقروءة لعرض الصور الصحيحة عن الإسلام.

٢- تبادل الأساتذة والباحثين المنصفين بين الجامعات العربية والأوروبية للاحتكاك المتبادل والتعرّف عن كثب.

٣- صياغة عدّة مشاريع بحثية حول «حوار الحضارات» يشارك فيها باحثون من المسلمين والغربيين المنصفين الباحثين عن الحق، لا الكائدين المغرضين.

٤- عقد ندوات ومؤتمرات دولية حول هذه الموضوعات المتعلّقة بالإسلام والغرب وتكون المشاركة فيها من الطرفين، ويتم نشر هذه البحوث بعدّة لغات وعبر القنوات الإعلامية.

٥- الردّ على المستشرقين وعلماء الأنثروبولوجيا الثقافية وعلماء الإنسان، والكشف عن منشأ هذه الصورة الظالمة عن الإسلام والتي أصبحت أحكاماً شائعة عند الناس.

٦- تكثيف وزيادة مواقع الإنترنت، التي تعرض الصورة الصحيحة المشرقة عن الإسلام، بعدّة لغات عالمية.

ولا شك أن للحوار الهادف دوره البارز عبر هذه الوسائل لإظهار الصورة الحقيقية للإسلام دين الله وشريعته الخاتمة، ويأتي هدف إظهار سماحة الإسلام هدفاً سامياً من أهداف الحوار، وهذا سيتضح بإذن الله تعالى في الهدف التالي.



خامساً: إظهار وبيان سماحة الإسلام:

من أهم أهداف الحوار: الكشف عن سماحة الإسلام، وإظهار عظمة هذا الدين الرباني، ولو عرف الغربيون ما في هذا الدين من سماحة واحترام لحقوق الإنسان، لدخلوا في دين الله أفواجاً، ولكن الحقيقة مغيبة عنهم.

إن الإسلام رغم كونه دين الله حقًّا، وقد قامت على صحته وسلامته من العوج البراهين النقلية والعقلية، إلا أنه لا يريد أن يفرض نفسه بالقوة والإكراه، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩).

والآيتان تقرّران بصراحة تامة أن دين الله هو الحق المتفرد، ومع ذلك لا يجوز إرغام أحد على دخوله، وعلى كل عاقل أن يختار، ثم يتحمل مسؤولية اختياره في الحالين، شريطة ألا يحادّ الحق أو يعاديه باللسان أو باليد.

ويقول تعالى مخاطبًا رسوله وأمته من بعده حاكمين ومحكومين: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

ولذلك عاشت في ظل دولة الإسلام العالمية كل الأجناس بأديانها



ومذاهبها، اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم قرونًا متطاولة، لا يُرغمون على ترك دينهم أو عوائدهم رغم تفرد المسلمين -يومئذ- بالسلطان والسيادة العالمية، بل حفظت لهم دماؤهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأديانهم بأمر الله عز وجل ، لا من باب المناورات السياسية، أو المصالح الوقتية.. إلخ.

ودليل ذلك: أن الله تعالى قد أكد الوصية بالتزام الحوار، والدعوة، والبلاغ والبيان، الذي يتم به التعليم والتفهيم، حتى بعد فرض (الجهاد)، وبعد أن أصبح للإسلام قوة حربية مؤثرة، لما يعلمه سبحانه وتعالى من أن الحوار هو مدخل الإيمان، لذلك فتأثيره أبقى وأقوى، بل إن القوة الحربية نفسها هي لتوفير الأمان للناس ليتحاوروا بلا إكراه، لذلك ظل القرآن الكريم بعد فرض (الجهاد) يتنزل بالدعوة والبلاغ، والحوار والبيان، خاصة مع (أهل الكتاب) السابقين.

وقد تقدّم كيف حاورهم الرسول ﷺ ، حتى في التوحيد الذي هو أصل الأصول الدينية، بعد فرض الجهاد، وقد قال تعالى خطاباً لنبيه ﷺ في هذه المرحلة: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ..﴾ (آل عمران: ٢٠).

أي فالواجب عليك -إن عصوك- البلاغ، وليس الحرب؛ لأن مجالها هو ردّ العدوان، وليس فرض الإيمان[١].

(١) آفاق الحوار بين الحضارات والثقافات، أ.د/ عبدالستار السعيد: ص(١١٢).



ولا بد من الإشارة إلى تنبيه هام، فالبعض حين يحاور الغرب عن سماحة الإسلام يقدم التنازلات عن بعض الثوابت والمسلمات، كالجهاد، والحدود، وغيرهما من القضايا التي تعاني من هجوم صارخ من منظمات وهيئات وأفراد.

فلا تعارض في الحوار لإظهار سماحة الإسلام، والتمسك بهذه الثوابت التي إنما فرضت لترسخ سماحة الإسلام وحرصه على الأمن الشامل في كل مفهوماته(١).

سادساً: المعذرة إلى الله في أداء الأمانة والشهادة على الناس:

إنّ المؤمن الصادق يعمل في الدعوة إلى الله راجيًا الثواب من الله لا يريد من أحد جزاءً ولا شكوراً، ولا يضيره ألا يجد لعمله ودعوته أثراً في الحياة الدنيا، بل يكل أمر النتائج إلى الله تعالى، ومن هنا فالداعية يدعو ويحاور لأنه يؤدي واجبًا يعذر بأدائه أمام الله رب العالمين، ولو لم يؤدّه كان محاسبًا بين يدي الله تعالى .قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤).

ويقول الرسول ﷺ: « لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى، من أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين»(٢).

وبهذا يتميز سلوك المسلم الحضاري، الذي يحرص على هداية الناس لا

(١) انظر: الشرق والغرب منطلقات العلاقات ومحدداتها، أ.د/ علي النملة: ص(١٥٢-١٥٣).

(٢) رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري.



طلبًا لربح مادي أو مصلحة شخصية، ولا يدور في فلك عصبية أو قومية أو حزبية، وإنما هو صاحب مبدأ وفكر ورسالة[١].

وهي رسالة هذه الأمة الوسط التي أشهدها الله تعالى على الناس، والتي زكاها الله تعالى فربيت على أصدق العقائد، وأرقى الأخلاق والآداب والفضائل، وهي -بهذه المواصفات التي استخلفت في الأرض مكان العصاة البغاة من بني إسرائيل، أو عبدة المسيح[٢].

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ...﴾ (البقرة: ١٤٣).

«وإذا كان تعبير الشهادة على الناس تعبيراً غنياً جداً بجملة من المعاني، فإن المعنى المباشر الأبرز من بين تلك المعاني هو معنى البيان الذي يتجه به المسلمون إلى سائر الناس على سبيل التبليغ لما يتضمنه دينهم من قيم روحية ومادية»[٣].

سابعاً: إقامة العدل ودفع الظلم:

إن العدل في الإسلام عماد الخير والصلاح، وعماد النظام وتمام الملك والسلطان، وهو الأساس الذي أقام الله عليه الكون، ليس الإنسان مع

---

(١) انظر: حوار الحضارات وطبيعة الصراع بين الحق والباطل، د/ موسى الإبراهيم: ص(٢١٤-٢١٥).

(٢) آفاق الحوار بين الحضارات والثقافات، أ.د/ عبدالستار السعيد: ص(٨٠).

(٣) الآفاق الحضارية للوجود الإسلامي بالغرب، أ.د/ عبدالمجيد النجار: ص(١٠٤).

وانظر للتوسع: مصطلح الشهادة على الناس في القرآن الكريم وأبعاده الحضارية، د/ عبدالمجيد النجار.



الإنسان فقط، وإنما الإنسان مع ربه ونفسه وأمته ومع البشر جميعًا، بل مع ما في الكون من نبات وحيوان وجماد، وكثيراً ما حكى علينا الله في القرآن مصير الأمم التي حرمت من إدراك العدل وتفشي فيها الظلم حتى أدركها الفناء والهلاك.

وإن من أعظم أهداف الحوار تحقيق العدل ورفع الظلم، فلا يمكن للبشر وللعالم أن ينعم بالأمن والاستقرار مع غياب العدل.

وما نجده اليوم في العالم من سفك للدماء وانتهاك للأعراض والأموال إنما هو ناتج عن عدم العدل، وللأسف أكثر من يصطلي بالدمار والقتل هم المسلمون، وما يحدث في فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها من بلدان المسلمين لا يخفى على ذي بصيرة وعقل.

وإن هذه الأحداث لتولّد في نفوس المسلمين الكراهية والبغضاء نحو الغرب، لأنه يقف وراء هذا الظلم، والغريب حين يتغابى بعض مفكري أمريكا فيتساءلون لماذا يكرهوننا ؟!

ومن مظاهر العدل في الإسلام: أن الله تعالى يأمرنا بأن لا نحكم على أهل الكتاب بحكم واحد، بل نفرق بين الظالم والمكابر والمعاند، وبين المنصف والعادل وأصحاب المروءة والحريص على الوفاء بالوعد وأداء الأمانة، فلا ينبغي أن نصدر حكمًا عامًا يشمل الظالم والعادل، والمنصف وصاحب الهوى.

قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ



وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣-١١٤)

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٥).

ولهذا من أهم ما يتحاور فيه مع المنصفين من الغرب هو رفع الظلم عن إخواننا المظلومين في شتى بقاع الأرض، وبحث كافة السبل والآليات لمساعدتهم في استعادة حقوقهم.

« ولقد نص إعلان حقوق الإنسان على أن من حق الإنسان مقاومة الظلم، لكنه لم يرسم لذلك نظرية ولا وضع له الخطط والآليات، كما أنه يجعل ذلك مجرد حق، بينما يرتفع به الإسلام إلى مستوى الوجوب»[١].

ثامناً: الفهم المتبادل بين الإسلام والغرب:

العيش على رقعة واحدة يفرض التضامن من أجل تحقيق سعادة الإنسانية جمعاء، ومبنى هذا الأمر على فهم الآخرين على ما هم عليه في حقيقة الأمر، وهذا من معاني الشهادة على الناس، فالشاهد لا بدّ أن يكون عارفًا بحال المشهود عليهم ليستعين بذلك على تبليغهم.

---

(١) مقومات النظام السياسي الإسلامي وصياغة علاقته مع الآخر، أ.د/ أحمد عامر: ص(٧٧).



وتأسيس الفهم المتبادل موضوعياً يستدعي القراءة المتأنية لموقف المخالف وفق ما هو عليه في مصادره ووفق آليات الفهم والتبليغ التي يتبناها، وتحقيق هذا الغرض يفرض تجاوز مجموعة من المعوقات، يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

١- قراءة المخالف في ضوء مصادره، وبهذا نقطع الطريق على الوساطة في التبليغ، ونمنع التوظيف السياسي والإيديولوجي للأفكار من قبل الأفاكين والمعاندين لهذه الفكرة أو تلك، فقد كان الوسطاء -بجميع أصنافهم- وما زالوا سبباً في منع الفهم المتبادل بغرض التسييس وتذكية الصراع، وقد تبنى هذا المسلك بعض كبار المثقفين المندرجين في إطار رؤية كونية خاصة، تعمل على توظيف الأفكار توظيفاً اقتصادياً وحضارياً يناقض طبيعة البشرية والحضارات الإنسانية، ويعرضها إلى التفتت والتشرذم بسبب تأسيسها النظري للتناحر كونها مخرجاً مهماً للأزمة الحضارية الراهنة، وقد يتلبّس الصراع بأسماء مختلفة، كنهاية التاريخ، كأنه يمثّل منتهى الخبرة الإنسانية في عالم الأفكار، فلا مزيد عما جادت به قرائحهم، وبالتالي يجب التوقّف عن التفكير في مصير الإنسانية.

فهل في عالم الأفكار رجعية كهذه؟ وهل في عالم الحضارة جبرية أسوأ منها؟

٢- بناء القراءة على ما يتبنّاه السواد الأعظم من المجموعة المدروسة، وبذلك نقطع الطريق على المتصيّدين للتشويه من أقوال القلة القليلة، أي الابتعاد



عن التأصيل لفكرة بما نقل عن المجموعات الفرعية الشاذة منها، إذ القاعدة في الفكر الإنساني أن الشاذ يحفظ ولا يقاس عليه، قال أحد أسلافنا « القاعدة الكلية لا تقدح فيها قضايا الأعيان ونوادر التخلّف»[١].

٣- أن تكون المقارنة بين القضايا المتجانسة، فلا يجوز موضوعياً أن نقارن أصلاً في مجموعة حضارية بفرع عند مجموعة حضارية أخرى، ذلك أن الموضوعية تفرض أن يقابل الأصل بالأصل والفرع بالفرع، والنظري بالنظري والعملي بالعملي، وهكذا دواليك في سائر مضامين أفكار المتحاورين، ويسجل بهذا الصدد -للأسف- التعدي على هذه القاعدة بشهادة العقلاء قاطبة، وخاصة حين تعلّقه بقضايا المستضعفين على تنوّع انتماءاتهم الحضارية والثقافية.

٤- أن تكون القضايا المتحاور حولها متجانسة من حيث الطبيعة، فلا يقارن أمر نظري بآخر عملي أو العكس، إذ يتضمن تبني هذا المسلك مؤشرات الإقصاء والمكابرة من جهة، والقصد في التلبيس بالنظر إلى المآل أو الحال من جهة أخرى.

فإذا تيسّرت هذه الظروف أمكن بعدها الحديث عن الحوار الموضوعي الذي يتوخى منه أصحابه الفهم المتبادل، فكلما تحقق الفهم المتبادل المعترف به من قبل أطراف الحوار أمكن صناعة جو إنساني مستعد للتفاهم[٢].

---

(١) الموافقات للشاطبي: (١/ ٢٥١)، وانظر أيضاً: (٢/ ٦٣-٦٤).

(٢) حوار الحضارات ومؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل الإنساني، أ.د/ عمار جيدل: ص(٥٠-٥١).



تاسعًا: التعاون لتحقيق مصالح مشتركة، والدفاع عن القيم والمباديء الفاضلة:

إذا تحقق التفاهم المتبادل بين أطراف الحوار، أمكن حينئذٍ التعاون لتحقيق المصالح والمنافع المشتركة للجميع.

ولقد نفذ الرسول ﷺ مبدأ التعاون الدولي عندما جاء إلى المدينة فعقد مع اليهود حلفًا أساسه التعاون على البرّ، وحماية الفضيلة ومنع الأذى، وأكد ذلك بالمواثيق، ولكن اليهود نقضوا حلف التعاون، ودبّروا الأمر مع المشركين ضد النبي ﷺ ، وكان أساس هذا التعاون أن يتضافروا على دفع الاعتداء وإقامة الحق، أو بعبارة عامة ما يسمى في هذا العصر بـ« التعايش السلمي » .

وكان النبي ﷺ يعقد المعاهدات مع القبائل العربية لإيجاد تعاون إنساني لإعلاء المعاني الإنسانية، وكان يحث على كل تعاون على الخير ويؤيده، وينهى عن التعاون على الشر ويحاربه، وقد كان ﷺ من مبادئه التعاون على نصرة الضعيف، وقد حضر وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره حلفاً لبعض أشراف قريش عقد في دار عبدالله بن جدعان تعاقدوا فيه لينصرن الضعيف على القوي، فسرّ ﷺ لذلك سروراً ظهرت آثاره من بعد، فقد قال الهادي الأمين:

« لقد حضرت بدار عبدالله بن جدعان حلفًا ما يسرني به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت ».

ويؤكد الشيخ بهجة البيطار الدمشقي -رحمه الله- على ضرورة التعاون فيقول:



« كنت أدعو إلى التعاون بين المسلمين والمسيحيين ... لأننا ننشد من ورائه الخير العميم لهذه البشرية المهددة بالفناء بما أحدثت المدنية المادية في الشرق والغرب من القنابل الذرية والهيدروجينية وغيرهما، وإن الحرب إذا وقعت - لا قدّر الله- يكون وقودها هذا العالم المعذب، وتكون من ورائها النهاية الأخيرة لعالمنا هذا، وإن أول عمل يدعونا إليه الواجب الإنساني الخالص، هو نصرة الضعفاء والمظلومين في الأرض، وهذا لا يتم إلا بالتضامن والتعاون بين أهل الملل السماوية »(١).

نعم إن هناك تحديات ومخاطر تهدد الجميع، كالإباحية والفساد الخلقي، والذي أدى إلى انتشار أمراض جنسية فتاكة كالإيدز وغيره من الأمراض القاتلة.

كما أن هناك تحديات تواجه كيان الأسرة وتماسكها، وكذلك المخدرات بكل أنواعها تفتك بالشباب في شتى البقاع فأين ندوات الحوار مع الغرب حول هذه القضايا التي تشكل خطراً على جميع الدول.

إن هناك موضوعات أخرى جديرة بالحوار مثل الحفاظ على البيئة، ومكافحة البطالة، والفقر، والجهل، والفتن الطائفية، وحروب الإبادة، والتطهير العرقي،

وذاك الوافد الجديد باسم العولمة، ونحو ذلك من الموضوعات والتي تعتبر هماً مشتركاً بين الجميع.

---

(١) انظر: الإنجيل والقرآن في كفي الميزان، بهجت البيطار: ص(٢٣).

«والواقع يفرض على المفكرين في مصير الإنسانية الاتفاق على الحد الأدنى من عناصر التوافق الإنساني يكون أشبه بالكمنولث الحضاري، والأمر ليس مستبعداً وخاصة في ظل الرغبة الجامحة في فرض العولمة في طبيعتها الأمريكية المجسدة للصدام والصراع كمرحلة ضرورية في تاريخ الإنسانية»(١).

عاشراً: درء المفاسد عن المسلمين:

يواجه المسلمون في بلدان شتّى حملات تنصيرية كثيفة، تدعمها الدول الغربية، مستغلة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تلك الدول، فيأتي الحوار لدعم المسلمين معنوياً تجاه هذه الحملات الشرسة، فيولد ضغطاً على المنصرين وفضحاً لأساليبهم وطرقهم في تنصير المسلمين، أو تخفيفاً لنشاطهم التنصيري، وكشفاً لعقيدتهم الباطلة التي يخدعون البسطاء والعوام بها.

وقد نجح بعض الدعاة المتمرسين في الحوار مع المتنصرين في كسر شوكتهم، وكشف عقائدهم، وإفحامهم في مناظرات حاشدة مشهودة، فكان في ذلك إعزازاً للمسلمين وتثبيتاً لهم في دينهم، وتحصيناً للمنخدعين.

وفي كتاب الله تعالى تحذير لأهل الكتاب من الصد عن دين الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ

---

(١) حوار الحضارات ومؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل الإنساني، أ.د/ عمار جيدل: ص(٥٥).



تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ٩٩).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧١).

كما يستهدف المحاور المسلم تحييد خصمه إذا لم يتمكن من كسبه، وهذا بلا شك من المكاسب الكبيرة، فإن من لم يستطع كسبه ليكون عوناً على الخير، فلا أقل من إخماد شرّه وكفّ أذاه وفساده[١].

---

(١) انظر: الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه، د/ خالد القاسم: ص(١١٧).



محاذير الحوار مع الغرب

تمهيد:

إن المسلم المحاور الحصيف لا يمكن أن يخاف من الحوار، ما دام متحليًا بمواصفات المحاور ومحققًا لشروط الحوار وضوابطه وآدابه، والمقصود أننا لا نخشى من الحوار؛ لأن لدينا الشريعة الخاتمة الصالحة لكل زمان ومكان، والحضارة التي جربتها البشرية عبر قرون عديدة، فوجدتها شريعة العدل والإحسان، فليس في ديننا ما نخشى عليه من الحوار، إنما الخوف من الأخطاء التي يقع فيها المحاورون باسم الإسلام حين تصدر منهم هذه المحاذير بعلم أو بجهل، فحمَّلوا الإسلام ما لا يحتمل، فلا هم الإسلام نصروا ، ولا شُبهات الغرب كسروا، ولا على تساؤلاته ردوا !.

أما الإسلام فهو عزيز بعزّة الله، وحفظه؛ لأنه دينه الذي ارتضاه، فلا يتطرق إليه الضعف ولا الخوف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وسأذكر فيما يلي أهم هَذه المحاذير التي ينبغَي على منَ يدخل في الحوار الحذر من الوقوع فيها:

أولاً: الولاء للغرب وعدم البراءة من الكفر:

إن معتقد الولاء والبراء من العقائد اليقينية، التي دلت عليها النصوص المستفيضة القطعية في الكتاب والسنة، وأجمعت عليها الأمّة.

كما أن هذا المعتقد مرتبط بأصل الإيمان، فلا إيمان بتاتًا بغير "ولاء" ولا



"براء"، ولا يمكن أن يوجد إسلام أو مسلمون بغيرهما.

فالولاء والبراء في معتقد أهل الإسلام هو حب الله تعالى، ورسوله ﷺ، ودينه، والمسلمين، ونصرتهم، وبغض الطواغيت التي تُعبد من دون الله، والكفر، والكافرين، وعداوتهم[١].

ومن أخطر المحاذير التي وقع فيها من يدعو للحوار مع الغرب: الوقوع في الولاء مع من يحاورهم، والتعبير بالحب والودّ لهم، يقول الشيخ أحمد كفتارو: « ليتحابب أهل الأديان السماوية، ويناصر بعضهم بعضاً»[٢].

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: «إن المودّة ليست واجبة بالنسبة لأبناء الأمة الواحدة، بل هي واجبة للمخالفين في الدين، ما داموا لم يعتدوا على المسلمين ولم يعادوهم ... وإذا كانت المودّة هي الرابطة التي تربط بين الإنسان، بحكم الإسلام وسائر الأديان، فإن الرحمة تنبعث منها »[٣].

ووجه الوقوع في هذا المحذور هو عدم الجمع بين النصوص الشرعية التي تأمر بالبر والقسط والإحسان إلى أهل الكتاب، والسماحة معهم، وبين النصوص الشرعية الأخرى التي تأمر بالبراءة من الكافرين وعدم مودتهم.

---

(١) أقوال السلف في بيان أهمية الولاء والبراء كثيرة معلومة، وقد ألفت رسائل علمية منها: الولاء والبراء في الإسلام: د/ محمد سعيد القحطاني، والموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية: محماس بن جلعود، ومن الأبحاث الرصينة والتي خرجت مؤخراً بحث (الولاء والبراء بين الغلو والجفاء في ضوء الكتاب والسنة) د/ حاتم بن عارف الشريف.

(٢) الدعاة والدعوة الإسلامية المنطلقة من مساجد دمشق: (١/ ٥٢٩) نقلاً عن: دعوة التقارب بين الأديان، د/ أحمد القاضي: (٤/ ١٤٤٦).

(٣) نظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة: ص(٥١).



إذ لا تعارض بينهما، فطالما أن الولاء والبراء من أسس الإسلام العظام، فلا بد أن تصطبغ بصبغة الإسلام الكبرى، وهي الوسطية والسماحة والرحمة، فمع أمر الله تعالى بعدم مودّة الكافرين جاءت النصوص الشرعية تأمر بما يلي:

١- لا يجبر أحد من الكفار الأصليين على الدخول في الإسلام.

٢- حفظ العهد الذي بيننا وبينهم، إذا وفّوا بعهدهم وذمتهم.

٣- أن لأهل الذمة التنقل في أي البلاد شاؤوا، إلا الحرم، ولهم سكنى أي بلد شاؤوا من بلاد الإسلام أو غيرها، حاشا جزيرة العرب.

٤- حرمة دماء أهل الذمة والمعاهدين، إذا وفوا بعهدهم وذمتهم.

٥- الوصية بأهل الذمة، وصيانة أعراضهم وذمتهم، وحفظ كرامتهم.

٦- أن اختلاف الدين لا يلغي حق ذوي القربى.

٧- أن البر والإحسان حق لكل من لم يقاتل المسلمين أو يظاهر على قتالهم(١).

كل هذا يبين مدى سماحة الإسلام مع المخالفين في الدين، لكن لا يعني هذا مودّتهم ومحبتهم لكفرهم.

يقول سيد قطب: «إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته»(٢).

---

(١) انظر للتوسع في ذلك: الولاء والبراء بين الغلو والجفاء في ضوء الكتاب والسنة، د/ حاتم الشريف.

(٢) في ظلال القرآن: (٢/ ٩٠٩).



ولهذا لا بدّ لمن يدخل في هذه الحوارات أن يتمثّل بوسطية الإسلام[1] دون إفراط أو تفريط، حتى يؤتي هذا الحوار ثماره التي تعود على الإسلام والمسلمين بالعزّ والتمكين.

ثانياً: الحذر من الوقوع في "دعوة التقريب بين الأديان":

فلقد دلّت النصوص الشرعية القاطعة على بطلان «دعوة التقريب بين الأديان»؛ لأن دين الله واحد هو الإسلام الذي ابتعث الله به محمداً ﷺ، وما سواه إما باطلٌ أو منسوخ. فمن رام التقريب بينه وبين غيره، فقد رغب عن ملة إبراهيم، وابتغى ديناً غير دين الإسلام، وطعن في صدق محمد ﷺ وعموم رسالته، وأنكر هيمنة القرآن على الكتب السابقة، ونسخه لأحكامها، وخالف إجماع المسلمين، واتبع غير سبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين، ووالى أعداء الدين، واتبع أهواءهم، وسقط في الفتنة عن بعض ما أنزل الله، وداهن في دين الله، ولبّس الحق بالباطل، ووقع في الصدّ عن سبيل الله. وكلها لوازم لا محيد لدعاة التقريب عنها. وفسادها معلومٌ من الدين بالضرورة. وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم، وبطلان الفرع يعود على الأصل بالإبطال.

وقد دلّ الواقع العملي المشاهد خلال دعوة التقريب بين الأديان في العقود الأربعة المنصرمة على ظهور بعض النتائج والآثار الملموسة، الناجمة عن تجربة التقريب، كالتسوية بين كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين

---

(١) انظر في بيان شيء من هذه الوسطية: الوسطية مرتكز راشد لحوار الثقافات، أ.د/ حامد بن أحمد الرفاعي: ص(٢٧) وما بعدها.



يديه ولا من خلفه، القرآن، والكتب المحرفة المنسوبة إلى أنبياء الله، التي بأيدي اليهود والنصارى اليوم، ووصفها جميعًا بـ«مقدسة» و«سماوية» و«كلام الله». وكذلك التسوية بين بيوت الذكر والرحمة؛ المساجد، وبيوت العذاب والشرك، من معابد اليهود والنصارى والمشركين، ومشاركتهم في صلواتهم، واحتفالاتهم الدينية والثقافية، وإقامة المؤسسات البحثية المشتركة بين الأديان، بغرض تنقية المناهج الدراسية، والوسائل الإعلامية من النقد المتبادل، ورفع الأحكام العقدية والشرعية في شأن أهل الكتاب، واستلال اعترافات صريحة وضمنية من نظرائهم المسلمين على صحة دينهم وكتبهم، وإعادة عرض الإسلام بصورة مشوهة خداج، كالتصوف الباطني. ومع ذلك كله، لم يحد النصارى قيد أنملة عن معتقداتهم، فلم ينتهوا عن قولهم «ثلاثة»، ولا عن غلوهم في الدين، وأصرّوا على إنكار نبوة محمد ﷺ، وعلى المضيّ في تضليل الخلق بما يسمونه «التبشير»، مستغلين الفاقة المعيشية، والصحية، والأمنية، لكثير من شعوب العالم الثالث -وغالبيتهم مسلمون- ولتحقيق مكاسب جديدة، ومواطئ أقدام لمنصريهم، وإقامة كنائسهم، تحت شعار التقارب والحوار والتسامح. وفي الوقت ذاته لا يكفون عن موالاة بعضهم بعضاً وموالاة اليهود والمشركين على الظلم والعدوان ضد المسلمين، وإحياء مطامعهم القديمة في القدس. وكل هذه الآثار والنتائج الواقعية، ثمار فجّة لدعوة التقريب، شواهدها ماثلة لا يمكن إنكارها[١].

---

(١) دعوة التقريب بين الأديان، د/ أحمد القاضي: (٤/ ١٦٣٦-١٦٣٨)، وانظر: فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية رقم (١٩٤٠٢) في ٢٥/ ١/ ١٤١٨هـ، وتنص على تحريم الدخول في مؤتمرات "وحدة الأديان" .



ثالثًا: استعلاء المحاور الغربي وشعوره بالفوقية وشعور المحاور المسلم بالدونية:

إنَّ التفوق التقني والعلمي والعسكري والاقتصادي للغرب جعله يبدو أكثر تقدمًا وتحضراً على معظم شعوب العالم الإسلامي، بيد أن التقدم الفكري والحضاري حقًا هو للإسلام عقيدة وشريعة، ولو تمسك المسلمون بهدي دينهم لمكّن الله لهم في الأرض ونصرهم نصراً مبيناً.

هذا التقدم التقني والعلمي والعسكري والاقتصادي جعل بعض المحاورين الغربيين يتحدث ويحاور بمنطق القوة والإملاء والوصاية، بينما كان موقف بعض المحاورين المسلمين، ضعيفًا ودونيًا.

وينبغي على المحاور المسلم، أن يكون معتزاً بدينه وحضارته، ولا يقف موقف الهوان كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٣).

والعلو هنا مرتبط بالإيمان، لا العلو المرتبط بالغطرسة والعرقية والعنصرية، بل العالي هنا هو المؤمن أينما يكون، وكيف يكون، ومتى يكون، وإذا تحقق الإيمان الصادق لدى المحاور تحقق لديه العلو الذي يفرض نفسه على الآخرين[١].

إن وجود التكافؤ بين الطرفين من أهم عوامل نجاح الحوار، فإذا كان أحد

---

(١) انظر: الحوار في القرآن الكريم، محمد كمال المويل: ص(٢٥٦).



طرفي الحوار يملي على الآخر الشروط والمطالب والآخر يستمع، فلا شك أن هذا ليس حواراً، بل استسلام وانبطاح، وذلة وهوان، وحينئذ يكون هذا الحوار محذوراً، لأن الذي يمثل الإسلام فيه غير مؤهل لأن يتكلم باسم الإسلام، حيث إنه غير مقتنع بالإسلام منهجًا للحياة، أو أنه ليس لديه التصور والعلم بشرائع الإسلام وعقائده، فيقنع به الآخرين، ويرد على إشكالاتهم والشبهات التي ترد عليه، فهو كالذي يخوض في يمٍّ لا يحسن السباحة فيه !

ومن المظاهر الجلية مؤخراً في شعور الغرب بالفوقية والاستعلاء، هو ذلك الخطاب الذي كتبه ستون من كبار المثقفين الأمريكيين، حيث أصدروا في فبراير ٢٠٠٢م على إثر أحداث (١١ سبتمبر) بيانهم المشهور تحت عنوان: « لماذا نخوض الحرب؟» وهو عبارة عن رسالة موجهة إلى المسلمين خاصة، ادَّعوا فيه أنّ القيم الأمريكية أفضل القيم وأحقها بالكونية[١]!!

رابعاً: تقديم التنازلات عن الثوابت والمسلمات:

إذا كان المحاور الذي يتحدث باسم الإسلام ضعيفًا منهزمًا، أو غير مؤهل للحوار، فإنه لا يستغرب منه أن يقدم التنازلات، وسأجمل فيما يلي أبرز المحاذير:

١ - التنازل عن شيء من الدين أو أخذ شيء من دينهم لإتمام ديننا. يقول

---

(١) انظر: تحليلاً نقدياً لهذا الخطاب في: « الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري » طه عبدالرحمن، الفصل الثالث منه بعنوان: « تفضيل القيم الأمريكية » : ص(٩٩-١٢٥).
ومن الأجوبة السديدة والحكيمة: جواب د/ سفر الحوالي منشور على موقعه على الإنترنت.



جمال الدين الأفغاني في خاطراته بعنوان "نظرية الوحدة":

«وجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان أن أديان التوحيد الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، وإذا نقص في واحد منها شيء من أوامر الخير المطلق استكمله الثاني !! .. وعلى هذا لاح لي بارق كبير أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتّحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها»(١).

وقد ظهر هذا بشكل واضح في مؤتمر الحوار بلبنان عام ١٩٧٠م إذ كتب مسيحي في التقارير في نهاية الحوار:

«وفي الحوار يكتشف الشخص المنتمي إلى عقيدة معينة وعلى الرغم من التزامه الديني أنه في احتياج إلى بعض النقاط التي تؤكد عليها بالأكثر عقيدة أخرى – وأوضح مسلم بعد ذلك– إن الإسلام وقد بدأ تاريخه من مركز قوة وانتصار يحتاج اليوم إلى الفكرة المسيحية عن الألم الذي هو طريق الانتصار»(٢).

٢ – ومن التنازلات مشاركتهم فيما هم فيه من العبادات، وهذا ليس أمراً جديداً، فقد عرض هذا النوع على النبي ﷺ كما روى ابن إسحاق أن الأسود ابن عبدالمطلب والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي –وكانوا ذوي أسنان في قومهم– اعترضوا رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا

(١) دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، مصطفى فوزي: ص(٢٤٧).
(٢) الحوار بين الأديان، سليمان وليم: ص(٥٣-٥٤).



منه، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾الكافرون: ١-٦)[١].

وفي مؤتمر الحوار الذي عقد بلبنان عام ١٩٧٠م وحضره ثلاثة من الهندوس وأربعة بوذيين وثلاثة مسلمين وثمانية وعشرون مسيحيًا، كانت هناك فترات للعبادة المشتركة بقيادة واحد من الحاضرين[٢].

٣ – المداهنة في دين الله، وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه فقال:﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(القلم: ٩)، قال ابن جرير الطبري: « معنى ذلك: ودّ هؤلاء المشركون يا محمد، لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتيهم، فيلينون لك في عبادتك إلهك»[٣].

ومن صور هذه المداهنة إقرارهم على دينهم وتصحيحه لهم، أو مدحه باعتباره دينًا صحيحًا، أو مساواته بالإسلام.

ومن هذه النماذج للمداهنة قول الشيخ محمد كفتارو: « ولئن ذهب بعض الناس إلى تأليه المسيح، فذلك لشدّة انعكاس نور الله في قلبه، كما تعكس المرآة الصافية نور الشمس»[٤].

ولكفتارو قول آخر ظاهر في المداهنة حيث يقول: «قال لي قداسة البابا يوحنا بولس الثاني في أحد لقاءاتي الحوارية معه: إنني أقرأ القرآن كل يوم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: (٢/ ١٠).

(٣) الحوار بين الأديان، سليمان وليم: ص(٤٩).

(٣) جامع البيان، للطبري: (٢٩/ ٢١-٢٢).

(٤) سلام للبشر، كفتارو: ص(٥٨) نقلاً عن دعوة التقريب بين الأديان: (٤/ ١٤٥٦).



فكان جوابي له: وأنا أحفظ الإنجيل»[١].

٤ - تبديل وتعديل مناهج التعليم الديني في العالم الإسلامي، وحذف آيات الجهاد والولاء والبراء وأمثالها من المقررات الدراسية، في محاولة شرسة لإخراج أجيال مبتوتة الصلة بدينها وتاريخها، وتذوب في ثقافتهم الفاسدة.

بل قد بلغ بهم الحقد على هذا الدين في محاولات عديدة لتغيير الإسلام ذاته، وتحريف أصوله ومصادره من القرآن الكريم والسنة النبوية، ليتلاءم مع أهوائهم ورغباتهم، وما قصة القرآن الذي زعموه وافتروه وأسموه زوراً وبهتاناً «الفرقان» عنا ببعيد، ولا تزال حملاتهم لتبديل الإسلام مستمرة[٢].

خامساً: عدم الجهر بالحق وبيان حقائق الإسلام ومبادئه العظام:

إن الحوار الموضوعي والحضاري ينبغي أن يجهر فيه بالحق، وأن لا يؤدي إلى المداهنة والدبلوماسية التي تغطي على الحقائق وعلى الخلافات، وتعمل على ترميمها ظاهرياً، وتلفيق اتفاق زائف[٣]، وقد ذم الله تعالى من يعمل على كتمان حقائق الدين فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩).

---

(١) المصدر السابق: (٤/ ١٤٥٧).

(٢) كتب الكثير عن حملات أعداء الإسلام لتبديله، ومن هذه الأبحاث الرصينة الجادة: «الإسلام والمسلمون في مواجهة الحملات المعاصرة» أ.د/ عبدالستار السعيد: ص(٤٩) وما بعدها.

(٣) انظر: الحوار مع أصحاب الأديان مشروعيته وشروطه وآدابه، أ.د/ أحمد سيف الدين تركستاني: ص(٢٧).



إن من الأخطاء الفادحة التي يقع فيها بعض المحاورين باسم الإسلام هو التنصل والانسحاب من بعض حقائق هذا الدين العظيم مثل الجهاد، وعقيدة الولاء والبراء، وتشريع الحدود، وقوامة المرأة ونحو ذلك من الموضوعات التي يستشكلها الغرب.

فالاعتذار عن هذه المسلمات مزلق عقدي خطير على عقيدة هذه المحاور، لأنها مما يُعلم من دين الإسلام باضطرار وفي تشريعها رحمة للعالمين لأنها جاءت من لدن أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين.

سادساً: حصر الاهتمام بالحوار مع الغرب وإغفال الشعوب والأمم الأخرى:

من محاذير الحوار مع الغرب أن نوجه كل طاقاتنا وإمكاناتنا للحوار مع الغرب، من أجل رد الهجمة الشرسة ضد الإسلام والمسلمين التي يقودها الغرب الآن، وننسى شعوباً ودولاً أخرى نحن مكلفون بإقامة الحجة عليها، وإبلاغها بمحاسن هذا الدين، كما أن بعض هذه الشعوب مرشح للتفوق المادي في المستقبل القريب مثل: الصين وكوريا واليابان والنمور الآسيوية، ودول أمريكا اللاتينية.

من الواجب ألا يشغلنا ردّ الفعل عن التفكير الاستراتيجي الأكثر اتساعاً، فالعالم اليوم ليس قاصراً على الغرب، والأيام دول، كما يجب أن نتوجه بخطابنا إلى الشعوب الأخرى التي لم تأخذ حقها في الحوار معنا وسماع صوتنا، وذلك تحقيقاً لعالمية الإسلام من جهة، ولمصالح مجتمعاتنا المسلمة من جهة أخرى(١).

(١) انظر: تصحيح صورة الإسلام في الغرب، أ.د/ نبيل السمالوطي: ص(١١٢).



خـاتمـة

الإسلام دين الحوار، ولكنه حوار بلا «عنف» ولا «ضعف»، حوار وسطي لا إفراط ولا تفريط، حوار بلا «عنف» يوغر الصدر، ويصد الخصم عن الفهم، وينفر العقلاء عن الاستجابة.

وكذلك بلا «ضعف» من المسلم، يؤدي إلى التنازلات عن المسلمات أو إقرار الأخطاء، أو انتقاص الحقائق، أو محاولة الوصول مع الخصم إلى أنصاف الحلول فيما لا يقبل التجزئة، لأنه خداع وكذب من جانب، وإضرار بالخصم نفسه حينما تقدم له الحقيقة ناقصة مبتورة لرغبة أو لرهبة.

إنّ الغرب اليوم أحوج ما يكون لبيان حقائق الإسلام ومحاسنه العظام، فلقد أرهق نفسه روحيًا بهذا الدين المحرف والمبدّل والذي لم يشبع خواءه الروحي، ولم تفلح تلك المناهج العلمانية والمذاهب الفكرية المادية في سدّ رمقه، فهو بحاجة إلى من يلقي إليه طوق النجاة لكيلا يغرق.

ومن واجبات ديننا العظيم إنقاذ هؤلاء الغرقى، فيأتي الحوار وسيلة من أنجع الوسائل الدعوية وأقواها تأثيراً، لكن هذا الحوار ينبغي أن يحقق أهداف مشروعة حاولت في هذا البحث المتواضع أن أذكر أبرزها وهي:

١- الدعوة إلى الله تعالى .

٢- بيان الباطل وزهقه.

٣- رد الشبهات وكشف زيفها، وتحصين الآخرين من الوقوع فيها.

٤- إصلاح الصورة النمطية المشوهة عن الإسلام في الغرب.

٥- إظهار وبيان سماحة الإسلام.

٦- المعذرة إلى الله في أداء الأمانة، والشهادة على الناس.

٧- إقامة العدل ودفع الظلم.

٨- الفهم المتبادل بين الإسلام والغرب.

٩- التعاون لتحقيق مصالح مشتركة، والدفاع عن القيم والمباديء الفاضلة.

١٠- درء المفاسد عن المسلمين.

ثم عطفت على هذه الأهداف بذكر المحاذير التي ينبغي للمحاور المسلم ألا يقع فيها وهي:

١- الولاء للغرب وعدم البراءة من الكفر.

٢- الحذر من الوقوع في « دعوة التقريب بين الأديان ».

٣- الاستعلاء وشعور المحاور الغربي بالفوقية والمحاور المسلم بالدونية.

٤- تقديم التنازلات عن الثوابت والمسلمات.

٥- عدم الجهر بالحق، وبيان حقائق الإسلام ومبادئه العظام.

٦- حصر الاهتمام بالحوار مع الغرب وإغفال الشعوب والأمم الأخرى.

وختامًا أسأل الله تعالى أن أكون وفقت فيما ذكرت من أهداف ومحاذير.

والله ولي التوفيق.





• المحور الرابع: أسس الحوار وموضوعاته:

١ - الحوار في ضوء المباديء الأساسية للعلاقات البشرية:

د. عبدالرحمن الماحي (رئيس جامعة الملك فيصل - تشاد).

٢- صراع الحضارات والسلم العالمي:

د. محمود أحمد غازي (أستاذ كلية الدراسات الإسلامية - مؤسسة قطر).

٣- المرجعية القيمية للحماية من الأخطار البيئية:

د. مصطفى الزباخ (رئيس الأمانة العامة لاتحاد جامعات العالم الإسلامي).

٤ - الأسرة والأخلاق في المشترك الإنساني:

د.علي بن شاكر أوزك (رئيس وقف دراسات العلوم الإسلامية - تركيا).





الحوار في ضوء المبادئ الأساسية للعلاقات البشرية

د.عبد الرحمن بن عمر الماحي
رئيس جامعة الملك فيصل
تشاد





تمهيد:

لقد عاشت كلمتا (الحوار .. والجدل) في حياة البشرية ووعيها منذ أن بدأ الإنسان يواجه الحياة الاجتماعية التي تختلف فيها الآراء، وتتنوع عندها الأفكار، لتجسد المعنى الذي تنطلق فيه أفكاره في مجال العرض والطلب، وفي ميادين التدافع البشري في معترك الحياة.

فكلمة الجدل توحي لنا بمعاني الحوار الذي يعيش في أجواء الخلاف الفكري والعقيدي الذي تهمين عليه أجواء التوتر الفكري والنفسي والكلامي من أجل الوصول إلى الغلبة، إن كان هناك مجال للغلبة، أو إلى التفاهم، إن كان هناك سبيلاً إليه..

بينما توحي لنا كلمة الحوار بأوسع من ذلك، ونحن لا نجد لها ذكراً في القرآن الكريم إلا في آيات ثلاث، جاءت اثنتان منهما في سورة الكهف في معرض الحديث عن قصة صاحب الجنتين وحواره مع صاحبه الذي لا يملك كثيراً من المال أو غيره . قال الله تعالى : ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ (الكهف: ٣٧). وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (الكهف : ٣٧).

أما الآية الثالثة ، فقد جاءت في سورة المجادلة ، قال تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١).

أما كلمة الجدل فقد جاءت الإشارة إليها في القرآن الكريم في سبع



وعشرين موضعاً في القضايا الخاصة والعامة، ولهذا لجأ الإسلام إلى الجدل القائم على الحوار المباشر الذي ينطلق من طرح الفكرة في ميدان التدافع من أجل شغل الساحات بعلامات الاستفهام التي يطرحها الإسلام مع أجوبتها، ليوفر على المتحاورين جهد البحث عن سؤال، قد لا يجدونه جاهزاً في أفكارهم، وربما يواجهون صعوبة في العثور عليه. كل ذلك من أجل أن تدخل الفكرة الصحيحة في وعي الإنسان بعمق، وتقتحم أفكاره وحواره الذاتي إلى جانب جداله مع مجتمعه، ومع الفئات التي يتمثل القوة المعارضة والمعاندة في كل زمان ومكان[١].

يعيش المجتمع البشري في كل زمان ومكان في حاجات متضادة وأفكار متباينة ومشاعر مختلفة، ويقف أفراده ليتحاسدوا، وليتحاربوا، وليتقاتلوا كأسلوب من أساليب التعبير عن ذواتهم فيما يريدون وفيما لا يريدون، وكان الحوار هو الأسلوب الأمثل الذي اتخذه الأنبياء والرسل ــ صلوات الله عليهم ــ في أداء رسالتهم الإلهية إلى البشرية لإخراجهم من الظلمات إلى النور، فتحرك الإنسان في الاتجاه المعاكس أو السلبي، حيث أنكر الرسالة، وتمرد عليها، وكفر بها، وحاربها، بينما صبر الأنبياء والرسل من موقع الوعي الرسالي بطبيعة الدعوة، وشعروا أنهم نجحوا في إفساح المجال لهذا الإنسان لأن يشك وينافس ويعيش الحيرة والقلق في داخله، وإن حاول أن يوحي بالإرادة المضادة[٢].

---

(١) محمد حسين فضل الله ، الحوار في القرآن الكريم ، ج ١ ، ص ,١٧

(٢) الدكتور عبد الرحمن عمر الماحي، الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل، ص ٤٥ .



بدأ الإنسان يحاور الأنبياء والرسل حواراً عنيفاً يبرز تمرده عليهم وعلى الرسالة التي جاءوا بها من ربهم.

ووقف الأنبياء والرسل يحاورونه حواراً يخفف من تمرده. فكانت الكلمة الطيبة تقابل الكلمة الخبيثة الحاقدة، كانوا يريدونه أن يسمع إلى الكلمة الطيبة ليتعلمها لتبقى في وعيه ليمارسها ولو بعد حين، وكانوا يدللونه بتسامحهم ليعرف كيف يتحول التسامح إلى ممارسة عملية تتجسد في موقف النبي المرسل.

كان الإنسان يريد أن يهزم رسالاتهم عن طريق كلماته الخبيثة ، ومواقفه العنيدة، وكانوا يعملون على أن ينتصر الإنسان على نفسه في ضوء الانتصار على رواسب العناء في داخله، فيتصبرون ليعلموه كيف يكون الصبر على النوازع الذاتية وعلى التحديات المضادة وعلى الوقوف مع الحقيقة بقوة، وعلى روح الحوار التي توحي له بالانفتاح الرحب على كل ما في الحياة الدنيا من قضايا ومشكلات بشرية[١].

كانت تلك الدروس في الحوار بواسطة الأنبياء والرسل وأممهم ، وكان القرآن الكريم خاتمة الكتب السماوية التي جاءت لتعلم الناس كيف يكون الحوار طريقاً لمعرفة العقيدة الصحيحة، والفكر البناء والعمل الصالح المثمر، وجاء الإسلام في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ليكون دين الحوار الذي يحث الإنسان أن يفكر في كل شيء، وليحاور الآخرين على أساس الحجة والبرهان والدليل والآيات البينات، ليعلمهم كيف يصلون إلى قناعته بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

---

(١) الدكتور عمر الأشقر ، الرسل والرسالات ، ص ٤٣ ـ ٤٥ .



وانتشر الإسلام وانتشرت معه تجارب الحوار ، وعرف المسلمون كيف يحاورون العالم عن طريق نشرهم لرسالة الإسلام في أجواء الحوار التي تخدم الإنسان الذي يختلف معها لتقوده إلى الإقرار بمبادئها من موقع الاحترام للأصل البشري والكلمة الطيبة والموقف الإيجابي والمصير المشترك مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٥) .

بسط الموضوع:

إن قضية الحوار بين الناس هي إحدى الهموم الكبيرة للعاملين في الدعوة إلى الله لنشر الخير، وللعاملين في السياسة لنشر الوئام والسلام.

فإثارة روح الحوار في نفوس العاملين للإسلام للتحاور مع الآخرين، أمر دعوي في خطواته القرآنية، وفي خطواته النبوية، ولذلك فإن عليهم أن يبذلوا كل ما في وسعهم من طاقات إيمانية وفكرية ومادية ليدفعوا إلى أجواء الحوار، ليجعلوا منه مجالاً منتجاً في رحابته الإيمانية، وفي عمقه الفكري، وفي الوقت نفسه لابد لهم من التعمق في الدراسة والبحث والتأمل، لأن الحوار الدائر الآن يفرض على أطرافه أن يبلغوا المستوى العالي في العلوم الشرعية، وعلوم الثقافة العامة التي تتحرك في أكثر من اتجاه، لأن المشكلات المطروحة على الساحة لا تنحصر في أفق واحد، بل تتنوع آفاقها ومنطلقاتها حسب تنوع المناطق والأمم التي تتحرك فيها، ومعالجة مشكلات الحياة في جوانبها المختلفة المتنوعة من خلال إثارة المفاهيم العامة بين الإيجابيات والسلبيات في عملية مقارنة منفتحة واعية.



إن المجتمع المسلم المعاصر عليه أن يعمل في حواره مع الآخرين في اتجاهين: الاتجاه الأول يعمل ضد سوء الفهم الخاطئ والسيئ للإسلام الذي عانينا ولا نزال نعاني منه كثيراً كنتيجة طبيعية للممارسات الفكرية الخاطئة أو العرض السيئ للإسلام.

والاتجاه الثاني : يعمل ضد التحديات التي يثيرها الآخرون حول الإسلام وحلوله لمشاكل الحياة وقضايا الفكر والعقيدة والأخلاق والعلاقات البشرية في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى الحوار الإيجابي بينهم وبين المسلمين، حوار يبرز نقاط الاتفاق ليجعل منها منطلقاً للتعاون البناء الجاد لخير البشرية كافة.

يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وينهى الله عز وجل عن الحوار السلبي بين المسلمين وأهل الكتاب، الذي يبرز نقاط الاختلاف ويهمل نقاط الائتلاف ، لأن ذلك الحوار لن يكون في مصلحة البشرية، لن يؤدي إلا إلى التنافر والتناحر.

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وعلى الرغم من ذلك يزعم عديد من قادة الغرب وساسته وإعلامييه ومفكريه أن الإسلام لا يهتم بالحوار مع الآخرين، ويعتبرون الإسلام الخطر



الأكبر على الغرب وحضارته ويستنفرون شعوب الغرب للتكتل في وجه الإسلام والمسلمين .. ولا يخفي كثير من قادة الغرب النظرة العدائية للإسلام والمسلمين .. حتى أن أميناً عاماً سابقاً للحلف الأطلسي وهو (ديلي كلايس) أعلن بوضوح : أنه بعد سقوط الشيوعية وانتهاء الخطر الأحمر، فإن على الغرب مواجهة الإسلام والمسلمين (أو ما سماه بالخطر الأخضر)(١).

ولهذا يتساءل مفكرون مسلمون عن جدوى الحوار مع الغرب إذا كانت هذه هي النظرة تجاه الإسلام والمسلمين، ويرون أن الحوار في ظل هذه الرؤية الغربية هو حوار يستهدف إملاء الإرادة والسيطرة على الشعوب الإسلامية وخيرات بلادها الطبيعية ، بينما يرى مفكرون مسلمون آخرون أنه لا مانع من الحوار بين العالمين الإسلامي والنصراني من أجل الوئام والسلام، حتى تتبدد الغشاوة ويتوقف التشويه والتشكيك ضد الإسلام والمسلمين في أنحاء العالم(٢).

وتزايد الاهتمام بموضوع الحوار في الآونة الأخيرة في أعقاب ظاهرة العولمة وظاهرة توقع الصدام بين الحضارتين النصرانية والإسلامية، وظاهرة الاعتداء على مسيرة نبي الرحمة والحوار محمد ﷺ في العالم النصراني.

ويرى المفكر الألماني المسلم الدكتور / مراد هوفمان : (إن العداء الغربي للإسلام ليس سببه الاختلاف الديني بين المسيحية والإسلام ، وإنما سببه العداء العنصري للهويات غير الوطنية في أوروبا .

ويؤكد ضرورة توضيح الصورة الكاملة والصحيحة عن الإسلام في الغرب..

(١) وكالة الأنباء القطرية ، الدوحة ، نوفمبر ٢٠٠٠م.
(٢) وكالة الأنباء القطرية ، الدوحة ، نوفمبر ٢٠٠٠م.



وينبه إلى ضرورة فهم العقلية الأوروبية والغربية قبل التحاور معها).

إن الحوار بين المسلمين والنصارى لتقريب وجهات النظر في مسيرة الحياة في حالة الضعف، أو في حالة القوة، في حالة الحرب ، أو في حالة السلم، في إطار المبادئ والقيم الإنسانية المشتركة التي تحقق العدل والإحسان والأمن والسلام والتعايش السلمي بين الشعوب أمر ضروري.

ولذلك ستتناول بالشرح بعض المباديء الأساسية للعلاقات البشرية التي يمكن أن يكون الحوار في ضوئها مثمراً وناجحاً بين الأطراف المتحاورة.

لقد تطورت العلاقات البشرية بين المسلمين والأمم والشعوب الأخرى تطوراً واكب طبيعة العصر ومتطلبات الحياة التي اقتضت التبادل التجاري والحوار الإيجابي والبعثات السياسية والتعليمية والدعوية ، ولقي غير المسلمين في البلاد الإسلامية كل عناية ورعاية وتسامح وحياة هانئة وهادئة في ضوء تعاليم الإسلام وحضارته.

وكان لهذه العلاقات مباديء وأسس تقوم عليها وتنطلق منها.

ونذكر من هذه المباديء والأسس ما يلي:

أولاً: التوحيد

وهو أولوية يفرضها الشرع ويؤيدها العقل البشري، وهو أهم وأعظم ما يوجه إلى غير المسلمين، لأن التوحيد هو دعوة كل الأنبياء والرسل، مصداقاً لقول الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).



والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك بكل صوره هو ما دعا إليه نبينا ورسولنا وسيدنا محمد ﷺ أهل مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة، ثم فرضت أركان الإسلام الأخرى تباعاً (الصلاة والزكاة والصوم والحج) لنجد أرضية إيمانية في نفوس البشر ترتكز عليها وتنتشر في ضوئها. ولا تلقى الدعوة إلى التوحيد لغير المسلمين معارضة كبيرة في العصر الذي نعيش فيه ، فقد كفلت المواثيق الدولية ذلك، مثل ميثاق حقوق الإنسان الصادر سنة ١٩٤٨م ، والاتفاقيتين الدوليتين الصادرتين عن الأمم المتحدة سنة ١٩٦٦م الخاصتين بالحقوق المدنية والاقتصادية والسياسية للإنسان، ولا تعترض الدول على حق الاعتقاد والتدين إلا إذا كان يشكل خطراً أمنياً أو صحياً أو أخلاقياً، بينما تملك الدول جميعاً الاعتراض على ممارس العمل السياسي أو الاجتماعي خارج الضوابط التي تضعها كل دولة.

ولذلك ينبغي أن يراعى الحوار مع غير المسلمين عدم سب عقيدتهم، حتى لا يؤدي الأمر إلى التخوف من الإسلام والمسلمين، مصداقاً لقول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

فقد نهى الله عز وجل سب الأصنام والأوثان التي يعبدها المشركون حتى لا يسبوا الله عدوا بغير علم، فكيف بأهل الكتاب الذين جاء فيهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).



ويكفي الداعية المسلم أن يعرض أركان الإسلام ومقاصد الشريعة الإسلامية وقيم وآداب الإسلام، وأن يستند في ذلك على ما ورد من نصوص في القرآن الكريم والسنة النبوة المطهرة(١).

وتجدر الإشارة إلى أن دائرة قانون غير المسلمين لا تحتوي أو تتسع للقيم والأخلاق الإسلامية، لأن الهدف من القانون الوضعي ليس للرقي بالإنسان أو تزكية النفوس، بل الهدف الرئيسي هو حفظ الأمن بين طوائف المجتمع البشري وأفراده، فهدف القانون عندهم اجتماعي بحت، وليس أخلاقياً أو دينياً. فيجب أن يراعي الداعية المحاور لغير المسلمين هذه الظروف وما يترتب عليها من إيجابيات وسلبيات اجتماعية وسياسية واقتصادية، وعليه أن يلتزم بمعيار الشرع في كل الأحوال، ولا يجوز له أن يترك هذا المعيار لأي معيار آخر، فالحق أحق أن يتبع دون اللجوء إلى الإدانة والتهكم، بل بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة، حتى يكون الحوار ناجحاً بين بني آدم عليه السلام لأداء الوظيفة التي خلقوا من أجلها بسلام وهي عبادة الله وعمارة الأرض في ضوء ما جاء في الكتاب والسنة النبوية المطهرة، من مبادئ وأسس للعبادات والمعاملات والعلاقات بين الناس.

ثانياً: وحدة الأصل البشري

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١).

---

(١) الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، تأليف نخبة من الباحثين والكتاب، ص ٢٩٩ وما بعدها.



ويزداد المبدأ وضوحاً في قول النبي محمد ﷺ ((لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى))(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام : ((والناس بنو آدم وآدم من تراب))(٢).

إن هذه الآية الكريمة والأحاديث الشريفة جاءت لتؤكد وحدة الأصل البشري وتحطم الفوارق التميزية بين البشر، فكل البشر من نفس آدم، وهم أمام خالقهم سواء في المسؤولية والجزاء والحساب والعقاب مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (الحج: ١٠).

ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ (الروم: ٢٠).

ثالثاً: كرامة الإنسان

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠).

وهذا التكريم ليس خاصاً بإنسان دون غيره، ولا بلون دون آخر، إنما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث ا بن أبي نضرة.

(٢) أخرجه الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



الجميع سواسية في حق التكريم، فالخطاب لبني آدم ، ومعيار التفاضل بينهم هو التقوى والعمل الصالح.

يقول الله عز وجل : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾ (الإسراء: ١٨ـ١٩).

وبعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (الإسراء:٢٠).

فعطاء الآخرة لا يعلمه إلا الله عز وجل، وأما عطاء الدنيا فيظهر في أن نور الشمس يضئ لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم، والماء والهواء للجميع أيضاً، وعناصر الكون: من سماء وأرض وجبال ومعادن ونباتات وأنعام وطيور وحيتان وزواحف وحشرات وغير ذلك من هذه المخلوقات، لا دخل للبشر في وجودها في الكون، والعلاقة بين هذه المخلوقات وبين بني آدم هي علاقة تسخير ، مصداقاً لقول الله عز وجل : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (لقمان:٢٠).

وهناك أمور عديدة تمثل كرامة الإنسان ــ في التشريع الإسلامي والعلاقات البشرية ــ أصدق تمثيل ، مثل صلة الأرحام، وحسن الجوار ، ورعاية الأيتام، وحقوق الوالدين والزوجين والأبناء، وإقامة العدل في المعاملات بين الناس ، وتحريم الظلم والرشوة والربا والاحتكار، الأمر الذي يتفق عليه العقلاء في كل مجتمع بشري على ضرورة ووجوب تجنبه.



ونحن نعلم أن الربا والاحتكار كانا وراء تمكن تجميع الثروات وحرمان الفقراء والمساكين من تلك المردودات التي تجني من تلك الاستثمارات وفي ذلك انتهاك لكرامة الإنسان، في حين يحرم الإسلام الربا والاحتكار لكونهما وسائل غير مشروعة لاستثمار المال، وذلك حفظاً لكرامة الإنسان من الذل والهوان، وكرامة الإنسان مبدأ مشترك بين المسلمين وغيرهم للدعوة والحوار، والاقناع والاقتناع من أجل حياة أفضل في المجتمع البشري.

رابعاً: التعاون البشري

إن التعاون هو قوام الأسرة وقوام الأمة، وهو مبدأ عام في كل الجماعات البشرية، قرره القرآن الكريم ، ودعا إليه، قال الله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢).

ودعا إليه نبينا ورسولنا محمد ﷺ في أحاديثه ومعاهداته بين القبائل العربية والأمم الأخرى، حيث يقول : ((الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه)) أو كما قال عليه الصلاة والسلام. ولاشك في أن التعاون هو كفيل بتحسين العلاقات وينمو التعاون بين الدول.

فبالتعاون البناء بين البشر في عصرنا يسود العدل ويعم الخير في ظل المحبة والمودة والرحمة والتسامح بين الناس، فيختفي مبدأ التناحر على البقاء الذي جر على العالم كله الويلات والدمار والهلاك، والتعاون على البر والتقوى مبدأ مشترك للدعوة والحوار بين المسلمين وغيرهم من البشر.



خامساً: التسامح

يدعو الإسلام إلى التسامح بين الأفراد والجماعات والأمم، كما يدعو إلى بناء العلاقات البشرية السوية في غير استسلام للشر مع ضرورة دفع العداوة بالتي هي أحسن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

وإذا كان ما يوجب عقاب المسيء، فإن العقاب يجب أن يكون في دائرة الأخذ بالحق من غير اعتداء، وإذا كان الصبر ممكناً يكون أولى بالاتباع، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦).

سادساً: الحرية

هذه الكلمة السحرية التي تناولها عدد كبير من الكتاب والمفكرين، وأعطوها تعريفات متعددة، لا يعنينا منها إلا المضمون الأساسي للحرية، وهو أن الحرية هي المظلة المعبرة عن العدل لتطور الحياة البشرية فهي التي توفر قدراً معيناً من النشاط البشري الهادف، وتساعد في نشر الوعي الفردي والجماعي بين الأمم والشعوب.

وأن الحوار مع الآخر يحتاج إلى مساحة واسعة من الحرية التي توفر جواً خالياً من الخوف يساعد المتحاورين على طرح الأفكار والآراء المتباينة من أجل الوصول إلى الهدف المنشود الذي يؤدي إلى التفاهم والتعاون والتضامن والوحدة والوئام والسلام بين الناس.



وأن الاختلافات الفكرية والمذهبية والطائفية ما هي إلا نتاج طبيعي لتوسع حركة الإنسان بحرية في معترك في ضوء الرصيد الحضاري للحضارة البشرية عموماً، والحضارة الإسلامية على وجه الخصوص.

وأن الحرية الشخصية الحقيقية للإنسان تبدأ بتحرير النفس من سيطرة الأهواء والأغراض الذاتية، أما الحرية في المفهوم الإسلامي، فتكمن في مقاصد الشريعة وهي : " حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ المال وحفظ النسل " وهذه المقاصد قضايا مشتركة بيننا وبين الطرف الآخر للدعوة والحوار والعلاقات البشرية والجزاء من جنس العمل.

سابعاً: الفضيلة

إن من أسس العلاقات البشرية في الإسلام التمسك بالفضيلة سواء أكانت بين الأفراد أم بين الجماعات وسواء أكانت العلاقة في حال الحرب أم في حال السلم، ولا يصح للمسلم أن يجاري الأعداء في مآثمهم وما يرتكبون ضد الفضيلة . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:١٩٤).

فالفضيلة هي من القيم العظيمة التي يجب أن تتحلى بها النفس البشرية في الحياة الاجتماعية فالحلم والعفة والشرف والتواضع والتسامح والحوار البناء والإيثار، من الفضائل التي دعا إليها الإسلام ورغب فيها وهي من القيم التربوية والأخلاقية التي ينبغي أن نجسدها في حياتنا العملية وفي علاقاتنا وحوارتنا البشرية.

فبالفضيلة يمكننا أن نتحاور، وأن نتفاهم ,وأن نتجاوز التحديات النفسية



والسياسية والاقتصادية والمذهبية والطائفية نحو بناء علاقات بشرية متينة سمحة ومتوازنة ، بعيدة عن التكبر والتجبر والتعالي والسيطرة والإذلال والإهانة والظلم وسوء الفهم والغرور فقد تحدث كثير من العلماء والمفكرين في الفضيلة ومعناها وإبراز دورها في إصلاح شأن الأفراد والجماعات والأمم والشعوب لأنها قيمة في ذاتها ومنطلقاتها الإنسانية في حياة البشر وهي من المبادئ المشتركة للحوار مع الآخر.

ثامناً: العدل

تقوم العلاقات البشرية في الإسلام على العدل واعتبار الناس جميعاً سواء من أصل واحد ,وإن كان ثمة تفاضل فبالأعمال ، والجزاء عليها إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر، وقد صرح القرآن الكريم في كثير من آياته بأن أساس الأحكام الإسلامية المنظمة لعلاقات الناس بعضهم مع بعض أفراداً وجماعات هو العدل، وذكر أيضاً أن العدل هو الشريعة التي قامت عليها رسالة نبينا محمد ﷺوقامت عليها الرسالات السماوية السابقة لها ، فالعدل قيمة عليا في الإسلام وهو عماد الخير والرحمة والصلاح، والنظام، وهو تمام الملك والسلطان، فلا نظام إلا بالعدل، ولا أمانة إلا بالعدل، ولا حوار مع الآخر إلا بالعدل، ولا حكمة إلا بالعدل.

فالعدل هو غاية الغايات وهو الأساس الذي أقام الله عليه الكون، ليس في الإنسان مع الإنسان فحسب، وإنما في الإنسان مع نفسه وأسرته وأمته، وفي الإنسان مع ربه، ومع كل ما في الكون من مخلوفات.

ولا ريب في أن الانحراف عن العدل أشد ما يقطع الصلات بين الناس،



ويغرس الأحقاد ، ويثير أعاصير الكيد والانتقام، ويهدد المجتمع بالأخطار التي تحمل الناس ما لا طاقة لهم باحتماله من آثار الخصومات والضغائن والمكر.

فبالعدل تتطور الأمم وتزدهر العلاقات البشرية في السياسة والاقتصاد، والحياة الاجتماعية ، والحوار البناء بين الشعوب.

ولذا حث عليه القرآن الكريم في الأقوال والأفعال والأعمال وممارسته في واقع الحياة البشرية كلها، حتى تسود روح التعارف والتآلف والتعاون والمحبة والمودة والرحمة بين بني آدم عليه السلام، وتتجسد قيمة العدل في حركة الإنسان في معترك الحياة.

فقد قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالأُحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

ويتشعب عن العدل مبدأ المعاملة بالمثل في التعامل البشري بين الأفراد والجماعات والأمم سواء أكان من يعامله مسلماً أم غير مسلم لقول النبي محمد ﷺ "لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" .

ولا يتنافى ذلك مع مبدأ العدل ولا مع الفضيلة ، أو الحرية ، لأن التسامح يجب إلا يؤدي إلى شيوع الظلم، إذ شيوع الظلم فيه شيوع الفساد، والله لا يحب المفسدين ، والعدل لا ينافي الرحمة، بل أنه يلازمها ، فحيث كان العدل كانت الرحمة والمعاملة بالمثل.

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّه شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).



تاسعاً: الوفاء بالعهد

إن الوفاء بالعهد لا يختص بعلاقة المسلم بأخيه المسلم ، وإنما يتجاوز ذلك إلى مختلف العلاقات البشرية ، فهو مبدأ عام فرضه الله على المسلمين وأن المعاهدات بين الناس لا تستمد قوتها من نصوصها بل من عزيمة عاقديها على الوفاء بها. ولذلك حث القرآن الكريم على الوفاء بالعهد واعتبر الوفاء بالعهد قوة إيمانية وقوة سياسية واجتماعية واقتصادية والنكث فيه ضعف في الإيمان والسياسة وجبن في الشخصية . قال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء: ٣٤) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ (النحل: ٩١).

ويقول النبي ﷺ ((ألا أخبركم بخياركم؟ خياركم الموفون الطيبون))(١).

فصلاح الأمة في الوفاء بعهودها ومواثيقها، وفساد الأمة يكمن في عدم الوفاء بعهودها ومواثيقها، لأن في الوفاء استمرار للعلاقات البشرية وتماسكها وترابطها، وفي ذلك احترام للإسلام ودعوته القائمة على الصدق والوفاء والحوار البناء مع الآخر.

عاشراً: المودة ومنع الفساد في الأرض

إذا كان الأصل البشري واحداً والناس أمة واحدة، فإن الأخوة الإنسانية ثابتة يجب وصلها ولا يصح قطعها، وقد أمر الله تعالى بأن توصل القلوب بالمودة، وأن الإسلام لا ينهى عن بر كل من لا يعتدي على المسلمين، ويصرح

---

(١) أخرجه أبو يعلى ح (١٠٥٢).



بذلك القرآن الكريم في كثير من آياته، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٨،٩).

فالإسلام لا ينظر إلى حماية الدولة الضعيفة من الدول القوية فحسب، بل إنه يعمل على حماية الشعوب التي أرهقها الظلم والطغيان، وحث الإسلام على منع الفساد بكل أشكاله الظاهرة والباطنة، ودعا إلى العمل الصالح لنفع البشرية بشتى الوسائل. قال الله تعالى : ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة: ٣٢).

وإذا كان العالم اليوم يعيش في مفهوم العولمة، بعد أن هوت نظم وتكتلات ، وأفلست نظريات وشعارات، فإن الذي يجب أن يرتقي إليه الناس كافة بكل شجاعة وإخلاص هو الإسلام، مصداقاً لقول الله تعالى:﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وقوله تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: ٨٣).

إن المرحلة التي يمر بها العالم اليوم تحتاج إلى بذل جهود كبيرة في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بعيداً عن الغلو والجفاء، ورد الشبهات التي أثيرت ضد الإسلام والمسلمين بالتي هي أحسن مصداقاً لقول الله عز وجل : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ



قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٣-٣٥).

ولاستحالة الجمع بين الحسنة والسيئة، وبين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان، وبين المعروف والمنكر، يطلب من الأمة الإسلامية أن تجعل من العلاقات البشرية والتواصل الحضاري بين الأمم والشعوب أداة للتأثير وليس للتأثر حتى ترتفع إلى مستوى الخيرية التي ذكرها الله في القرآن الكريم : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ (آل عمران: ١١٠).

إذ لا يجوز أن تلتمس الأمة الإسلامية الحلول الاجتماعية والاقتصادية في الفلسفات المنحرفة والأفكار الضالة ، فالأمة التي تغض النظر عن الالتزام بتعاليم العقيدة التي تؤمن بها تفتقد كثيراً من عوامل التضامن والتعاون والأمن والسلام. كما تفتقد أيضاً شخصيتها وهويتها والشعور بمسؤوليتها أمام الله وأمام الأمم والشعوب.. فالإسلام لا يعادي أحداً من البشر، لأنه جاء إلى الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها.. فكيف يعاديهم وهو السلام ، وتحيته السلام، وجاء إليهم رحمة بهم لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وخلاصة القول:

إن المباديء الأساسية للعلاقات البشرية آنفة الذكر، وهي التوحيد، ووحدة الأصل البشري، وكرامة الإنسان ، والتعاون البشري ، والتسامح، والحرية ، والفضيلة، والعدل، والوفاء بالعهد، ومنع الفساد في الأرض، تلقي الضوء على



الأساليب الحكيمة التي يريد الله للبشر أن يستخدموها في الحوار والتعايش السلمي.

وإذا كانت قضية الحوار تستهدف الطريق المستقيم، فإن الضعف يتجسد في أي أسلوب يفتقد فيه الإنسان عنصر المبادرة من أجل الوصول إلى الهدف المنشود .. بينما تكمن القوة في الأخذ بالمبادرة في كل الأحوال، وأن القوة والضعف من القضايا النسبية التي تختلف باختلاف مجالاتها في السلم والحرب، فلا يهتدي الإنسان إلى حقيقتها إلا ببذل جهد فكري وعملي، مصداقاً لقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

ومما سبق فإن الحسنة تعبر عن الأسلوب السلمي، بينما تعبر السيئة عن الأسلوب العنيف ، ونحن لن نحتاج إلى جهد كبير لنعرف أن الحوار بالتي هي أحسن يتمثل في اتباع أفضل الأساليب وأحسنها في إقناع الخصم أو المعاند بالفكرة التي يدور حولها الحوار، بحيث يظل المحاور في ملاحظة واعية لكل الأساليب المطروحة المعروفة وغير المعروفة ليختار منها الأسلوب الأحسن، أو الطريق الأفضل ، سواء أكان ذلك في الكلمات التي يستخدمها أم في المعاني التي يعبر عنها.

فنحن لا ننكر ما صح مما يؤمن به النصارى من كتاب وما يعتقدونه من رسالة لأن المسلم يؤمن بكل الرسالات السماوية وبجميع الأنبياء والرسل، وبالعبودية لله وحده لا شريك له.

وعلى هذا الأساس يبدأ الحوار مع غير المسلمين من مبادئ مشتركة يمكننا أن نقف عليها معاً بحيث نشعر بإمكانية اللقاء في القضايا الأخرى، بعد تحقيق اللقاء في القضايا الأساسية للعلاقات البشرية.



وختاماً:

يعد الحوار وسيلة سلمية من وسائل التعامل البشري في معترك الحياة، ويستعمل لغرض ودي في الغالب الأعم، وقد يكون مباشراً أو غير مباشر، أي قولي أو عملي أو فعلي.

وتكمن العناصر التي يجب توفرها في عملية الحوار في النقاط التالية:

- موضوع الحوار والهدف منه.
- معرفة المتحاورين للموضوع وأبعاده وآفاقه.
- الجو المناسب والهادئ للحوار.
- الأسلوب العلمي للحوار.
- الاحترام المتبادل بين الأطراف المتحاورين.
- الثقة بشخصية المحاور الذي يدير عملية الحوار أو الشخصيات المتحاورة.
- نتيجة الحوار وما يترتب عليها من أعمال بشرية في معترك الحياة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.





أهمية الحوار بين الحضارات في تحقيق السلام العالمي

د.محمود أحمد غازي
مدير الجامعة الإسلامية العالمية
بباكستان - سابقاً



مقدمة

إن قضية السلام العالمي أصبحت في عالمنا المعاصر من أهم القضايا التي تهم البشرية كلها. فعلى السلام العالمي وتوازن القوى وتحقيق العدل والالتزام بمباديء العدالة يتوقف مستقبل البشرية، فإن أسلحة الدمار الشامل التي أعدتها القوى العالمية الكبرى تكفي لتدمير الكرة الأرضية عدة مرات.

ويزداد الوضع خطورة عندما نرى بعض المسؤولين وكبار رجال الثقافة والمعرفة في الدول الكبرى يهددون الأمم والحضارات، ويتنبؤون بصدام عالمي بين الحضارات، صدام إذا حدث - لا قدر الله - فسوف يؤدي إلى القضاء على كثير مما حازت عليه البشرية من تقدم ورخاء وعلوم ومعارف منذ ألفين وخمسمائة سنة.

ويبدو أن مصدر هذه الأفكار المبنية على أسوء نوع من التشاؤم منشؤها هو التخوف من الإسلام الذي رفع لواءه بعض المغرضين في العالم الغربي الذين يريدون أن تكون سياسات البلاد الكبرى في الغرب حسب شهواتهم وأغراضهم.

وتحاول هذه الأقلية المغرضة أن تلقي العالم كله في الذل والهوان، والهلاك والدمار.

ولا يمكن إنقاذ البشرية من هذا المصير إلا عن طريق الحوار السلمي المستمر بين الحضارات وأتباع الديانات، كما لا يمكن معالجة كثير من المشكلات والقضايا التي تواجهها الإنسانية بأسرها إلا عن طريق حوار يتمتع بالحرية والمساواة بين المتحاورين.



فالحوار هو السبيل الوحيد للتعاون بين الحضارات، والتعايش الاجتماعي والاقتصادي، والمساهمة في السلام العالمي والاسهام في حل الإشكاليات العالمية.

ومن أهم هذه الإشكالات تحديد قيم إنسانية مشتركة؛ في عالم تسود فيه روح رفض القيم، وقامت فيه دعوات تنادي إلى اللاقيمية وإلى نسبية المثل الأخلاقية التي لا تؤدي إلا إلى التخلي عن كل القيم والمثل في نهاية المطاف.

والحقيقة أن العوامل التي تفكك أواصر الأسرة عروة عروة، وظاهرة الإرهاب العالمي، وانتشار المخدرات كلها نتيجة التنازل عن مبادئ الأخلاق والإصرار على نسبيته.

وهكذا تتجلى أهمية الحوار بين الحضارات الكبرى التي تمثل الحصيلة المشتركة للبشرية في مجالات المعرفة والثقافة وإنجازات العلوم والتقنية.

ما هي الحضارة

قبل أن ندخل في صلب الموضوع ينبغي أن نشير إلى أن كلمة الحضارة تطلق على معان متعددة مختلفة في سياقات مختلفة.

ولكننا نعني ًبالحضارة في سياق هذا الحديث الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة والفكر ومظاهر الحياة في جميع أنماطها المادية والمعنوية، فيدخل فيها الرقي العلمي والتقدم الفني والتطور الأدبي والنهضة الاقتصادية والسلوك الاجتماعي والرفاهية المادية التي تحققها وتحصل عليها أمة من الأمم، وينطبق هذا التعريف العام على جميع الحضارات القديمة و المعاصرة بما فيها الحضارات المبنية على الديانات السماوية والحضارات المبنية على النظريات المادية.

ولكن لا تتأتى هذه المظاهر المادية لحضارة من الحضارات وثقافة من

الثقافات ومدنية من المدنيات إلا إذا كانت وراءها مجموعة من العقائد والنظريات التي تحدد وجهة الحضارة المنبثقة منها، وتوفر لها حيويتها، وتضمن لمظاهرها وأجزائها وحدة متكاملة، لا تتخلى أمة ذات حضارة وثقافة من روح حضارتها وحياة ثقافتها المتمثلة في عقيدتها المتجسدة في نظريتها نحو الكون.

فالمعالم الرئيسية لكل حضارة هي التي تمثل الصلة بين العقائد والنظريات وبين المظاهر الحضارية لأمة من الأمم، فكأن هذه المعالم هي الأعمدة للبناء الحضاري، والتي تقف على قواعد الدين والعقيدة، ومنها تستمد قوتها، ومنها تستلم حيويتها، ومنها تستوحي ديمومتها وبقاءها.

فالعقيدة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف و قواعد الشريعة الإسلامية كما وردت في القرآن الكريم الذي تواطأت عليه الأمة الإسلامية بجميع مذاهبها وطوائفها وتعاقبت عليها الأجيال المسلمة وتعامل بها المسلمون في كل العصور والدهور هي قواعد الحضارة الإسلامية وأسسها التي تبتني عليها حضارة الإسلام ، ومزايا هذه النظرية والمعالم الحضارية هي العالمية والروحانية والأخلاقية والإنسانية والشمول.

وكذلك الحضارة الغربية المعاصرة لها قواعد وأسس تستند إلى الخلفية الإغريقية التي تستمد منها مجموعة من نظرياتها وعقائدها، وإلى خلفيتها الرومانية التي تستلهم منها عديدا من آرائها القانونية واتجاهاتها الفكرية، ثم إلى عقائدها المسيحية وميولها المادية، كل ذلك يمثل قواعد الحضارة الغربية وأسسها التي تقوم عليها معالمها، وهذه المعالم تختلف عن معالم الحضارة الإسلامية في



أمور، و تجتمع معها في أمور أخرى فمن أهم معالمها نظرية العلمانية التي يعتبرها الغرب من أحب قواعد حضارته وأهم معالمها وأثمن ثرواتها.

وكذلك نجد في الحضارات الأخرى قواعد ومعالم لا تتنازل عنها الأمم، بل تدافع عنها بكل ما لديها من الوسائل والطاقات، وبالدفاع عنها تبقى الحضارات، وبالإصرار عليها تزدهر، وفي بقائها بقاء الأمم.

وباضمحلالها تضمحل الحضارات. فالحضارات لا تتصارع بطبيعتها، بل تتحاور وتتبادل الآراء والأفكار ويتعلم بعضها من بعض فما من حضارة إلا وتعلمت من الحضارات الأخرى كما يدل على ذلك تاريخ الحضارات والأمم وكانت الحضارة الإسلامية في مقدمة الحضارات التي لم تتعصب في الإفادة من غيرها وأخذ كل ما يفيد البشرية في حياتها الفردية والاجتماعية بدون أن يمس ذلك العنصر المستفاد عقيدتها وأسس دينها ومعالم حضارتها ومظاهر ثقافتها، فلم يتردد علماء الإسلام في تعلم المنطق وقواعد الفكر المنطقي من أئمة اليونان ولم يستنكفوا أن يتعلموا علوم الرياضة من الهنود وكذلك علم الطب وغيرها من العلوم المفيدة، ولم يبخل علماء الإسلام في تعليم ما لديهم من العلوم والمعارف لأبناء الأمم شرقا وغربا ولم تزدهر حضارة في تاريخ البشرية إلا بالأخذ من غيرها من الحضارات والتفتح والانفتاح على كل معرفة حقيقية واكتشاف علمي ولم تمت حضارة ولم تذبل ثقافة إلا عندما أغلقت أبوابها على الآراء الجديدة والأفكار البناءة.

ولم تزدهر الحضارة الغربية المعاصرة إلا بعد أن تعلمت الكثير والكثير من الحضارة الإسلامية وذلك من روافد كثيرة ومتنوعة، منها التواجد الإسلامي



الطويل في جنوب أوروبا وشرقها والاستفادة الطويلة من المعارف الإسلامية في مراكز الغرب العلمية في مجالات الطب والعلوم التجريبية والفلسفة وحتى في مجال الفكر الديني فقد أثبت عديد من الباحثين المنصفين تأثير الحضارة الإسلامية العميقة في عديد من المجالات الفكرية والثقافية والحضارية للغرب.

كانت العلاقات بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى في الماضي علاقات حوار والأخذ والعطاء وعلى الرغم من كثير من الحروب التي بدأ بها الصليبيون كانت صلات المسلمين مع اليهود والنصارى في بلاد الإسلام صلات المواطنة بالأمن والسلام وكان طلبة العلم يردون مراكز المعرفة في العواصم الإسلامية من كل بلاد الغرب والشرق، وكان هذا الحوار الحضاري الطويل حواراً مثمراً للغاية فتمكن من الحفاظ على رصيد كبير من المعارف القديمة كما يعترف به المؤرخون في الشرق والغرب؛ كما أدى إلى تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارات الشرقية والغربية، فتأثرت الحضارة الهندوسية -على الرغم من عدائها الشديد للإسلام والمسلمين - بتعاليم الإسلام ومظاهر الحضارة الإسلامية.

ولم ينحصر هذا الأخذ والعطاء بين الحضارة الإسلامية وبين هذه الحضارات الكبيرة بل لم يتردد المسلمون في أخذ كل عادة سليمة وأسلوب مفيد ومعرفة مبنية على الحكمة من جميع الحضارات والثقافات التي تم احتكاكهم بها فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، ولم يتردد علماء المسلمين في تعليم أبناء البشر كل ما كان لديهم من العلوم والمعارف والفنون والآداب والصنائع والخبرات والتجارب بدون أي تعصب عرقي أو جغرافي.

كل ذلك يدل على أن الحوار العلمي والثقافي والأخذ والعطاء في باب



الحكمة والمعرفة من مزايا الحضارة الإسلامية ولكن الاستعمار الطويل والهيمنة الغربية كانت سببا لوضع العوائق في استمرار هذا الحوار الحضاري الذي لابد من إحياء روحه والرجوع إليه من جديد.

أهمية الحوارات الداخلية

قبل أن ندخل في الحوار الحضاري مع الحضارات الأخرى ينبغي أن نبدأ سلسلة من الحوارات الداخلية بين الاتجاهات المختلفة في العالم الإسلامي سواء مثلت هذه الاتجاهات وجهة نظر الطوائف والمذاهب الإسلامية المعتدلة أو آراء المذاهب المنحرفة والاتجاهات الهامشية وذلك لأن إغلاق الشبابيك وسد الأبواب والنوافذ في وجوه هذه الاتجاهات لم تعد مجدية.

اسمحوا لي أن أصارح بأن معالجة هذه الاتجاهات التي تمثل الآراء الشاذة والطوائف الأقلية معالجة كافية مفيدة مثمرة لا يمكن بالأساليب التقليدية، فكانت فتاوى العلماء في السابق أسلوبا من الأساليب المؤثرة في معالجة الاتجاهات المنحرفة ولكن العصر الحاضر فتح أبواب الإعلام وتناقل الآراء بطريقة تمكن بها كل من أراد أن ينشر آراءه من نشرها من أقصى الأرض إلى أقصاها بين عشية وضحاها ولا تصل فتاوى العلماء والمشائخ إلى معشار ما تصل إليه هذه الآراء الشاذة والمشوهة.

ثم إن لغة الفتوى وأسلوبها لا يؤثران في كثير من الأحوال في إقناع الأجيال المثقفة بالثقافة العصرية فأصبح دور الفتوى في توجيه الناس وترشيد الشعوب وتثقيف الشباب يتقلص يوماً فيوماً.

وهذه الدعوات والنداءات التي ظهرت من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية



المختلفة لإعادة النظر في النصوص الدينية بما فيها النص القرآني وإعادة تعبيرها وتفسيرها كنص تاريخي إنساني ليست ببعيدة فعلى الرغم من ضعفها علمياً وضآلتها محتوى وتفاهتها دليلاً انتشرت في أنحاء العالم الإسلامي وترددها الصحافة والإعلام ويناقشها الشباب والسيدات وتتناقلها الأقلام ولم يعبأ كثير من الناس بالفتاوى التي صدرت بشأنها من المرجعيات الدينية المعنية.

وهذا كله يدعو إلى أن ندرس إمكانية اتخاذ تدابير أخرى لكي نضيفها إلى التدابير والوسائل الموجودة وفي رأيي أن الحوار يعتبر من هذه الوسائل الممكنة التي يمكن أن يستخدمها أصحاب الخطاب الإسلامي المتزن الذين يمثلون جماهير الأمة الإسلامية من أهل السنة والجماعة وأصحاب المذاهب الفقهية المعروفة مع أصحاب الخطاب اللبرالي الذي يعتني به الغرب اعتناء بالغاً ويحاول أصحاب القرار والنفوذ في العواصم الغربية أن يتضامنوا مع ممثلي الخطاب الليبرالي في العالم الإسلامي ويوفروا لهم كل دعمهم وتأييدهم كما تدل عليه التقارير الصادرة من بعض الجهات الهامة

ولابد كذلك من أن تبدأ القيادات الإسلامية حكومات وجماعات ومرجعيات إسلامية ومؤسسات علمية حواراً مع أصحاب الخطاب اليساري والخطاب "الأصولي" والخطاب الطائفي الذي يستغله أعداء الإسلام لتكثيف الخلافات بين أبناء الأمة ولتوسيع فجوة النزاعات بين الاتجاهات الموجودة داخل دار الإسلام

ولا ريب في أن وجود هذه الاتجاهات في كثير من البلاد الإسلامية حقيقة واقعية لا يمكن تجاهلها والتغافل عنها ولا شك أيضا أن وجود هذه الاتجاهات



المتنازعة فيما بينها يمثل ثغرة يمكن استغلالها من قبل أعداء الإسلام خاصة إذا تجاهلت القيادات الإسلامية وجودها وإمكانية استغلالها وكانت لازالت النزاعات العقائدية والطائفية والعنصرية القائمة بين هذه الاتجاهات والطوائف من أهم أسباب الإخلال بالاستقرار الداخلي في كثير من البلاد الإسلامية.

والواضح أن الاختلال في الاستقرار الداخلي يؤدي إلى عدم الاستقرار في المجتمع والمنطقة وعدم الاستقرار في مجتمع أو دولة أو منطقة يؤدي إلى اختلال أنظمة الأمن والقضاء في البلاد.

والاختلال في أنظمة الأمن والقضاء يؤدي إلى حالة الفوضى التي تزداد فيها محاولات المغرضين وأصحاب الشهوات للنيل من أعراض الناس وأموالهم ودمائهم، وهذا كله يؤدي إلى إخلال بالأمن داخلياً والسلام عالمياً، فالحوار المتواصل الدائم داخل العالم الإسلامي وبين الأمة الإسلامية من أهم ما تحتاج إليه الأمة الإسلامية، ثم هذا الحوار الداخلي والبيني بالإضافة إلى تقليل أسباب النزاع وتخفيف التوتر بين طوائف الأمة يكون نوعا من النقد الذاتي الذي لابد منه في هذه الآونة الأخيرة.

الصراعات الحضارية

إن الحديث عن الصراعات الحضارية أصبح الشغل الشاغل وحديث النوادي والمحافل بعد ظهور المقالات التي كتبها المفكر الأمريكي صمويل هنتنجتون، وكان قد نشر مقالة في المجلة الأمريكية المعروفة، وهي الشؤون الخارجية Foreign Affairs ثم أتبعها بكتاب مفصل شرح فيه نظريته عن صراع الحضارات وأنذر العالم الغربي مما يتوقعه (أو يريده) من صراع كبير



يؤدي إلى حرب كبرى بين الحضارة الغربية التي يمثلها العالم الغربي وتتزعمها الولايات المتحدة وبين مجموعة من الحضارات الشرقية التي يظن المؤلف اليهودي الأمريكي أنها سوف تتحالف ضد سيطرة الحضارة الغربية وسوف تكون عليها يدا واحدة، وهذا التحالف المزعوم في ظنه سوف يضم الحضارة الإسلامية التي تمثلها الدول الإسلامية التي تمتلك وسائل النفط أو التي تمتلك قوى عسكرية كبيرة كما يضم الحضارة البوذية التي تمتاز بكثرة عدد أتباعها.

ويرى المؤلف الأمريكي أن الحضارة البوذية تمثلها الصين الشعبية بكل وسائلها الهائلة ويدعو المؤلف الأمريكي العالم الغربي ليستعد لهذا الصراع المحلق على رؤوسهم والمحدق بهم قبل أن يفوتهم الأوان ليضمن العالم الغربي بقاء سيطرته على العالم كله سياسيا وعسكريا والحفاظ على هيمنته على الكرة الأرضية اقتصاديا وماديا ويقترح للعالم الغربي خطوات متعددة يجب الأخذ بها لتحقيق هذا الهدف

على الرغم من أن الهدف الحقيقي الذي يحاول المؤلف الأمريكي تحقيقه هو إعداد العالم الغربي لهذه المحاربة المتوقعة إعدادا نفسيا، ولكنه يحاول أن يبرر هذه المحاولة بفكرة جديدة في تاريخ الحضارات والتطور الحضاري للبشرية في المرحلة المعاصرة، ومع أنه يدعو إلى تشكيل نظام عالمي يبتني على تعدد الحضارات وتعدد الثقافات، ولكنه يبدو وكأنه لا يريد أن يسمح للحضارة الإسلامية أن تلعب دوراً قيادياً رياديأً في العطاء الحضاري للبشرية والمستقبل الذي يراه، وهو في ظنه مستقبل تسود فيه الثقافة الغربية وتسيطر فيه الحضارة الغربية وتكون الهيمنة فيه للأنظمة الاقتصادية الغربية وتكون



الكلمة المسموعة فيه للولايات المتحدة.

هذه هي الفكرة الخطيرة التي دعت أصحاب العلم والفكر في العالم أن يدرسوها دراسة علمية نقدية ويبدوا آراءهم فيما تحتوي عليها من مضامين خطيرة وما يترتب عليه من نتائج بعيدة المدى لمستقبل العالم بصفة عامة ومستقبل العالم الإسلامي بصفة خاصة لأن الغرض كما يبدو من وراء ترويج هذه الفكرة هو سد الطريق في وجه الدعوة الإسلامية التي تنتشر بسرعة فائقة في العالم الغربي والشرقي وبدأت الجاليات الإسلامية ذوات العدد والنفوذ في بلاد الشرق والغرب تظهر وتثبت وجودها في مجالات الحياة المختلفة.

وقد ثبت عند كثير من أهل الفكر والخبرة في العالم الغربي أن سد الطريق في وجه المد الإسلامي المتزايد لم يعد بإمكان الغرب بالطرق السلمية البحتة ولا بد لذلك من سياسة عنيفة ومن اتخاذ خطوات غير تقليدية.

ويدل على هذه الفكرة ما جاء في كتابات الزعماء الأمريكيين من أمثال هنري كسنجر والرئيس الأمريكي السابق نكسون غيرهما من الذين صرحوا بضرورة اتخاذ خطوات غير تقليدية لسد الطريق في وجه المد الإسلامي وضمان الهيمنة الحضارية والاقتصادية للعالم الغربي وكل هذه الكتابات المطبوعة والمقالات المنشورة والآراء المعبرة عن نواياهم في مناسبات مختلفة إن دلت على شيء؛ فإنما تدل على أن هناك اتجاهاً قوياً في العالم الغربي للدخول في مرحلة خطيرة من مراحل الصدام العسكري بين القوى الغربية التي تتزعمها الولايات المتحدة وبين غيرها من القوى.

ويبدو أن مصطلح صراع الحضارات ستار وضع على الوجه الحقيقي لهذا



الصدام العنيف الذي يهدف إلى السيطرة الكاملة على الوسائل العالمية والقضاء على كل قوة صغيرة وكبيرة تستطيع أن تناهض وتتحدى الهيمنة الغربية، وليست محاولات السيطرة على العراق وأفغانستان والمشكلات القائمة في السودان والصومال إلا مظاهر لهذه السياسة الجديدة وخطوات في سبيل تطبيقها وتنفيذها وما هي فكرة العولمة ومؤسساتها وآلياتها إلا ساحة من ساحات هذا الصدام الاقتصادي والصراع الحضاري.

العولمة ودورها في صراع الحضارات

ولا يسعنا هنا إلا أن نذكر أن العولمة طبعة جديدة لفلسفة الحكومة العالمية التي يسعى من أجلها الصهاينة منذ أمد بعيد وذلك لأن مقاليد الأمور في النظام العولمي الذي يحاولون إقامته وتشكيله تكون بأيدي الرأسماليين القلائل الذين يديرون السوق العالمية والذين أغلبيتهم من الصهاينة أو من الموالين للصهاينة ويهدفون بذلك إجحاف مؤسسة الدولة بأسرها في وجه سلطته المطلقة وفي نهاية المطاف تسيطر هذه المجموعة من أصحاب الشركات العالمية على الدول الوطنية والتي لن تجد بُداً من أن تخضع لحركة السوق ومصالحها فحكومة العولمة لا تكون إلا عبارة عن حكومة رجال الأعمال والمال. ودستور العولمة لن يختلف عن قانون الأقوى الذي تعاني منه البشرية منذ بدايتها.

يقول أحد الكتاب الغربيين: إن العولمة عندما تصل غايتها المنشودة وتحقق هدفها المطلوب يكون في العالم مجتمع موحد له قواعد ومثل موحدة ثم تكون هناك ثقافة موحدة في هذه الكرة الأرضية ولا تكون هناك حكومة مركزية لتنظيم هذه الأمور، فتنعدم حينئذ الحدود الجغرافية وتتلاشى الفوارق الحضارية

والاجتماعية والدينية بين البشر ولا تبقى قواعد ثابتة لتنظيم الثقافة ويظهر مجتمع عولمي بدون ثغور سياسية وحدود اجتماعية وقواعد دينية ثابتة وهذا لا يعني في نظرنا نحن المسلمين إلا فوضى حضارية تتلاشى فيها الديانات السماوية والثقافات العريقة والحضارات القائمة على مثل إنسانية وقيم أخلاقية.

يقول كاتب غربي آخر وهو "روبرتسون" أن العولمة ليست ظاهرة جديدة إنما هي فكرة قديمة قدم الاستعمار الغربي ومرت بخمس مراحل قبل أن تصل إلى المرحلة الراهنة.

وإذا نظرنا إلى العولمة من هذه الناحية رأينا أنها تحتوي على جذور استعمارية قوية أكثر خطورة من الاستعمار السابق وذلك لأن القوى الاستعمارية الغربية في السابق كانت تحاول أن تحقق مصالحها السياسية في العالم الإسلامي للوصول إلى مصالحها الاقتصادية، فالشركة الهندية الشرقية مثلا كانت مؤسسة تجارية في حقيقة أمرها وبداية نشاطها، وقد خرجت من بلدها ومركزها أصلاً وبداية لتحقيق المصالح الاقتصادية ولم تتدخل في سياسات البلاد الشرقية إلا عندما اضطرت إلى ذلك لخدمة اقتصادها وتجارتها .

أما الآن فقد جاءت القوة الاستعمارية الغربية بمشروع استعماري جديد يضم مصالح ثقافية واجتماعية وعسكرية وحضارية جديدة بالإضافة إلى المصالح السياسية والاقتصادية القديمة، فالعولمة القديمة كانت عبارة عن صورة من الاستعمار الغربي.

أما العولمة الحديثة فهي عبارة عن الهيمنة الأمريكية الكاملة والمطلقة في كل مجالات الحياة ويمكن أن نقول بأن العولمةالجديدة عبارة عن أمركة الكون كله.

إن المؤسسات الغربية بما فيها المؤسسات الأمريكية والكتاب الغربيون



والصحافة الغربية كلهم يؤكدون على التنوع والتعددية عندما تكون القضية متعلقة بالأقليات غير المسلمة داخل العالم الإسلامي ولكنها تنسى كل دعاويها للعولمة والتعددية إذا كانت القضية متعلقة بوضع سياسة وطنية عامة في وطن إسلامي يريد أن يؤكد انتماءه إلى الشريعة الإسلامية ويحاول أن يضمن استمراريته في سياسة الاحتكام إلى الشريعة، فعندئذ يتناسى الغرب كل دعاوى التنوع ومطالب التعددية عندما تأتي قضية العالم الإسلامي وحقوقه الثقافية ومكانته الحضارية هذه الثنائية في السياسة وازدواجية المعايير تسبب كثيراً من المشكلات والتوترات فيما يتعلق بصلة العالم الإسلامي بالعالم الغربي .

فالخلاصة أن العولمة اسم جديد لمصطلح "النظام العالمي الجديد" الذي نادى به زعماء الغرب وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الأب بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وزوال الشيوعية وقبل خوضه في حرب الخليج الأولى.

ومن المعلوم أن حرب الخليج الأولى كانت بداية لتنفيذ خطة مدروسة لتغيير النسيج الاجتماعي والثقافي والحضاري للأمة الإسلامية ولذلك لا يشك المفكرون المطلعون في أن العولمة ليست إلا امتدادا لهذه السياسة المدروسة فنرى المفكر الإسلامي المعروف وهو الدكتور محمد عمارة يعرف العولمة بأنها الاجتياح الغربي بزعامة أمريكية لصب العالم كله في قالب الحضارة المهيمنة.

فالعولمة عملية جبارة يقوم بها زعماء العالم الغربي لأحداث تغييرات جذرية أساسية في أنظمة البلاد والشعوب خاصة ما يسمى بالدولة الوطنية وذلك بتغيير القواعد والمبادئ التي تنظم علاقات الناس والتنظيم الاجتماعي والأساس الفكري والثقافي والحضاري للمجتمع، ولذلك لم يتردد بعض



المنصفين من الكتاب الغربيين في تسمية العولمة نوعا جديدا من الاستعمار.

والعجب العجاب أنه على الرغم من هذا كله يرى بعض الناس من أصحاب القلم والقرار في العالم الإسلامي أن العولمة سوف تأتي بنظام عالمي جديد يسوده العدل وتحكمه قواعد المساواة والعدالة وتوفر فيه لكل بلد وشعب فرص المنافسة الحرة ... لكن الواقع المر - كما لا يخفى على كل مطلع خبير - أن العولمة لم تأت بإحلال أي عدل أو مساواة أو تحقيق أي هدف أخلاقي أو لإنقاذ البشرية أو الشعوب الفقيرة من فقرها الاقتصادي وتخلفها المادي والعلمي أو للقضاء على الظلم والاستغلال وعدم المساواة أو لتمهيد الطريق للدول المتخلفة لتحقيق آمالها في الرقي الاقتصادي أو لتذليل الصعوبات أمام الدول المسلمة الفقيرة لتسير في مجال التطور المادي والنهضة الاقتصادية.

إن العولمة جاءت لتحقيق أهداف أخرى تختلف عن هذه التوقعات والآمال تماماً.

إن الحقيقة المؤلمة أن دأب الغرب وديدن المستعمر أنه يستخدم شعارات جذابة ويضع عبارات خلابة لاستجلاب الرأي العام في العالم الشرقي بصفة عامة وفي العالم الإسلامي بصفة خاصة، وذلك لتخفيف المعارضة في سبيل تحقيق أهدافه، ولكن هذه العبارات الخلابة والشعارات الجذابة في أغلبية الأحوال كلمات حق يراد بها الباطل، فدعاوى الحرية والتنافس الحر والمساواة وسيادة القانون والاحترام لحقوق البشر وصيانة سيادة الدول والحفاظ على ثقافات الشعوب وغيرها من الشعارات التي ترفع على المنابر العالمية لم تعد (على الأقل بالنسبة للعالم الإسلامي) بأي ثمرة فعلية وأي



عائد حقيقي، ومن ذا الذي يعرف حقيقة هذه الشعارات التي نسمعها من أفواه الكتاب الغربيين ونقرأها في كتاباتهم منذ أكثر من قرنين أكثر منا نحن الذين عانينا من الاستعمار الطويل ونعاني منه الآن في فلسطين والعراق وأفغانستان والبوسنة والهرسك وقبرص وكشمير وجنوب الفلبين والصومال وجنوب السودان وغيرها من بلاد العالم.

والجدير بالذكر أن بعض الكتاب الغربيين الذين تنبؤوا بنهاية التاريخ في نهاية القرن الماضي يعتبرون العولمة المرحلة الأخيرة قبل أن ينتهي التاريخ بوصول الحضارة البشرية مرحلتها الأخيرة والنهائية الكاملة نضجا وتطورا ورقيا وذلك لأن العولمة عندهم عبارة عن انتصار النظام الرأسمالي انتصاراً كاملاً، وهذان هما الهدفان الرئيسيان للعولمة وهذا ليس رأي بعض علماء الاجتماع الغربيين الذين ينظرون إلى الأمور من الناحية النظرانية البحتة فحسب، ولكنه تفكير عام يشترك فيه أهل الغرب كلهم من الزعماء السياسيين وأصحاب القلم والقرار وأساتذة الجامعات وأعضاء المجالس الانتخابية فهذا الرئيس الأمريكي السابق بل كلنتون يصرح بأن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشري "وإننا نستشعر أن علينا التزاماً مقدساً لتحويل العالم إلى صورتنا".

وهذا الالتزام المقدس يذكرنا بالتزام مقدس آخر قام به الغربيون لتثقيف الإنسان الشرقي وتحضيره، وهو الالتزام الذي كان يسمى بمسؤولية الإنسان الأبيض.

والمعلوم أن مسؤولية الإنسان الأبيض تجلت وتحققت في عالم الواقع في صورة استعمارية بشعة سفكت دماء الملايين من الأبرياء من أقصى العالم الإسلامي إلى أقصاه وقضت على آلاف المراكز العلمية وطمست على كثير



من المعالم الحضارية والثقافية وأدت إلى سرقة ملايين الكتب والمخطوطات والتحف الأثرية التي نجدها اليوم في مكتبات الغرب ومتاحف أوروبا. وهذا كل ماجاء به الالتزام المقدس القديم ولا نعرف ماذا يأتي به هذا الالتزام المقدس الجديد في جرائه للعالم الإسلامي.

وينبغي أن لا ننسى أن عديدين من الكتاب الغربيين الذين كتبوا عن العولمة يحاولون تقدمتها في صورة ايجابية رشيقة ولكنهم أيضا يشيرون إلى هذه الجوانب السلبية بإشارات صريحة وواضحة، فهذا المفكر الاسترالي مالكوم واترز مؤلف أحد الكتب الواسعة الانتشار عن العولمة يقول: إن ظاهرة العولمة تتصل بصلة جوهرية فعلية بالأساليب وأنماط النهضة الاقتصادية كما تشبعت في مجالات السياسة والثقافة.

ويقول مفكر غربي آخر: إن العولمة لا تعني أن يتغرب العالم كله، وفي جميع أموره، بل هي تعني على الأقل تفضيل الإمكانيات الرأسمالية والمثل الغربية ويوضح مالكوم واترز في كتابه هذا أن فكرة التحديث والحداثة كانت سلفا لفكرة العولمة وكانت فكرة ذات صلة بها فكلاهما تهدفان إلى بث الثقافة الغربية ونشر المثل الغربية وتأسيس مجتمع رأسمالي.

ويقول: إن العولمة نتيجة منطقية مباشرة لتوسعة الثقافة الأوروبية في أنحاء الكرة الأرضية وذلك عن طريق إقامة مستعمرات غربية في بلاد العالم والاستعمار المباشر للبلاد الشرقية ثم عن طريق فرض تقليد المثل الغربية ومحاكاة العادات الأوروبية على المجتمعات الشرقية.

على الرغم من اهتمام العولميين بالجانب الثقافي والحضاري للحياة البشرية



فإن الحقيقة أن مشروع العولمة أصلا وحقيقة مشروع اقتصادي، وتحتل المصالح الاقتصادية والتجارية للغرب بصفة عامة، والولايات المتحدة بصفة خاصة، مكانة الصدارة والصميم في كل ما يتعلق بالعولمة كان نظام بريتون ودس الذي قامت به القوى الغربية الاقتصادية الكبرى بتأسيسه في وسط القرن العشرين للحفاظ على مصالحهم التجارية والحفاظ على مكانتهم القيادية الرئيسية في النظام الاقتصادي العالمي واستمرار هذا النظام لعدة عقود يحقق لمؤسسيه مصالحهم وأهدافهم. ولكنه عاد ضعيفا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وظهور الصين واليابان على ساحة الملعب الاقتصادي العالمي.

وهذه الظاهرة هي التي أدت إلى سقوط نظام بريتون ودس. وهذا السقوط هو الذي دعا إلى ظهور العولمة التي تضمن هيمنة مطلقة وكاملة لنمط الإنتاج الرأسمالي وانتشاره في الصميم مضافا إلى انتشاره في الظاهر.

ومما يدل على كون هذه الهيمنة واسعة وشاملة أن علماء الغرب وخبراء العلوم الاجتماعية والإنسانية قاموا بمحاولة علمية جبارة لإعادة النظر في الدراسات الاجتماعية والإنسانية التي بدأت تدخل مرحلة جديدة في تدوينها وإعادة بناء أسسها في ضوء الفكر العولمي الشمولي فيقول أحد المفكرين الغربيين أن العولمة أصبحت إطارا مرجعيا لكل الدراسات الاجتماعية والإنسانية منذ عقد التسعينات.

لاشك أن سقوط النظام الشيوعي وانهيار الاتحاد السوفيتي وظهور القطب الواحد وانتهاء الثنائية القطبية وسقوط النظام المالي العالمي الذي كان يمثله نظام بريتون ودس من أهم أسباب استقرار العولمة.



ولكن بالإضافة إلى هذه الأسباب هناك أسباب أخرى ساعدت في تمكين هذه النظرية وتكوين نظام عولمي جديد. وهذه الأسباب هي أيضا أهم الآليات التي توفر الأجهزة العملية للنظام العولمي.

وتتجلى هذه الأساليب في التطورات السريعة سرعة بالغة في مجال تقنية الاتصالات وتوسعة نطاق المعلوماتية وسرعة المواصلات. وهذه المعلوماتية الالكترونية السريعة من أهم آليات ما يمكن أن نسميه بالإمبرالية الثقافية، والتي سماها بعض الكتاب الغربيين باليونبرتية الالكترونية. هذه اليونبرتية جعلت الإنسان حيواناً مستهلكاً يتهافت على كل جديد ولذيذ.

ضرورة الحوار مع الحضارات الأخرى

ولاشك أن هذا الوضع الذي يدعو في ظاهره إلى التشاؤم يقتضي القيام بهذا الحوار المطلوب، ليس فقط مع الحضارات والثقافات الأخرى، بل أيضاً مع المجموعات الإسلامية المختلفة والطوائف المذهبية والدينية داخل العالم الإسلامي، علماً بأن هذا المستوى الثاني من الحوار أصبح أمراً متحتماً على قادة العالم الإسلامي الفكريين نظراً إلى توتر العلاقات بين الطوائف الإسلامية والمذاهب الكلامية الموجودة في بعض بلاد العالم الإسلامي. والحوار كان من أهم خصائص الثقافة الإسلامية وأكبر مزايا الحضارة الإسلامية منذ البداية.

فنجد في القرآن الكريم صوراً رائعة من الحوار الديني والدعوة إلى الحوار. ثم قام النبي ﷺ بحوارات عديدة مع أهل الكتاب وغيرهم وتبعه كبار المجتهدين الذين قاموا بعملية جماعية للاجتهاد عن طريق الحوارات



الفقهية بين الأستاذ المجتهد وتلاميذه الفقهاء.

وكان من آثار وبركات هذه الطبيعة الحوارية للحضارة أن ظهر علم مقارنة الأديان على أيدي عباقرة أهل العلم من أمثال البيروني والشهرستاني وابن حزم وغيرهم.

إن الإسلام يختلف عن التيارات الفكرية التي تظهر من حين لآخر، ولا يمكن أن تذوب هويته في بوتقة الثقافات الأخرى إذا كان المسلمون على علم وبصيرة من دينهم.

فالعالمية والإنسانية من خصائص الإسلام ولا يمكن للإسلام أن يخشى على هويته واستقلاليته من أي شي عالمي أو إنساني فالإسلام لم يتأثر بالتيارات الوافدة التي ظهرت في الماضي والتي يكثر ظهورها في هذه الأيام ولكن نخشى على الشباب وغير المثقفين من جماهير المسلمين أن يتأثروا بها.

إن الحوار ينبغي أن يكون من أهم السمات الحضارية للعولمة. ولا خلاف فيه من حيث المبدأ. ولكن لابد أن نضع قواعد علمية للحوار البناء المثمر فلا يجدي أي حوار بين ضعيف وقوي إلا أن يكون على أساس العدل وبالمبادئ المشتركة.

وينبغي أن لا ننسى أن هدفنا هو الحوار مع الشعوب والحضارات وأتباع الديانات، وليس بين الديانات. فالحوار بين الحق والباطل لا معنى له ونرفض أي حوار يتعامل مع الحق والباطل تعاملا متساوياً، فلا نقبل حواراً يسوي بين الكفر والإيمان والوحي والطغيان، والحق والبطلان.



أزمة الحداثة

ينبغي أن لا ننسى أن الحداثة الغربية التي اكتسحت العالم من أقصاه إلى أقصاه من أهم ما تواجه الأمة الإسلامية من مسائل وقضايا. ولا بد أن تكون هذه القضايا من أهم موضوعات الحوار الداخلي بين الاتجاهات الموجودة في الأمة وبين العالم الإسلامي وأصحاب الحضارات الأخرى.

إن هذه الحداثة تظهر في باديء أمرها وفي مظاهرها كأنها من أكبر معطيات الحضارة الغربية ولذلك يدعو كثير من أبناء الأمة إلى الأخذ بها بكل حذافيرها ويرون أنها لا تأتي إلا بخير مادي غزير، ولا تؤدي إلا إلى رفع المستوى المعيشي للأمم والشعوب التي تحتضنها. فنراهم يتهافتون عليها تهافت العطشان على الماء.

ولكننا عندما نمعن النظر فيها ندرك أنها من أهم أسباب عدم الاستقرار في البلاد الإسلامية والاختلال الذي يؤدي أحياناً إلى الإخلال بالأمن والسلام. إن أسس الحداثة تتلخص فيما يلي:

١ - الفردانية.

٢ - العقلانية.

٣ - الاهتمام المتزايد بالعلوم المادية.

٤ - التركيز المتزايد والعناية البالغة بالتقنية والفنون التجريبية.

٥ - الاهتمام بالواقع الموجود.

٦ - الأخذ بنظرية تقدم التاريخ من مرحلة إلى مرحلة.



إن كل واحد من هذه العناصر والمكونات يحتوي على عناصر غير متناغمة مع قواعد الشريعة الإسلامية وروح العقيدة ورسالة الإسلام. فالفردانية عبارة عن الاهتمام بمصالح الفرد المادية وتحقيق حاجاته ومنافعه بغض النظر عن واجباته ومسؤولياته نحو خالقه ونحو الأمة التي ينتمي إليها ونحو حياته بعد مماته. وهذه الفردانية تخلق في عقول الناس روحاً من الحرص والشح بحيث تؤثر ذلك على سلوك الفرد الاجتماعي والأخلاقي الذي تريده منه رسالة الإسلام، وهذا الوضع يؤدي إلى صدام عاطفي متواصل بين هذه النزعة المادية وبين مقتضيات رسالة الإسلام.

وليس دور العقلانية في تقوية التوتر بين المصالح المادية والمقتضيات الشرعية بأقل من دور النزعة الفردانية. ثم إن هذه العقلانية البحتة التي تدعو وتنادي وتصر على التخلص من كل متطلبات الدين ومقتضيات الروح ومطالب الأخلاق تسربت إلى العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية وإلى مقررات التعليم ومناهج الدراسة في مؤسسات التعليم.

والجيل الذي يتخرج من هذه المؤسسات يبتعد في كثير من الحالات عن المعايير المطلوبة في مجتمع إسلامي. فكل جيل يتخرج من المؤسسات التعليمية الغربية والمتغربة يؤدي إلى توسيع الفجوة الموجودة بين طوائف الأمة المختلفة كما يؤدي إلى تكثيف التوتر القائم بين أصحاب الاتجاهات المختلفة في العالم الإسلامي.

وكذلك الحال مع العناصر الأخرى للحداثة الغربية. وروح كل هذه العناصر هي الاحتكام إلى العقل البشري الذي ينظر إلى العالم كله وإلى



الكون بأسره بنظرة مادية نفعية بحته في كل ما يتعلق بمصير الإنسان ودوره في هذا الكون، مع الإصرار على إبعاد الدين والمصادر الإلهية.

إن العالم الإسلامي ليس الوحيد الذي يعاني من هذه الأزمة الحضارية التي جاءت بها الحداثة والتي وسعت كل جوانب الحياة الأخلاقية والأدبية والثقافية والاجتماعية ولكن هذه الأزمة الحضارية التي تولدت من بطن الحداثة الغربية وما يسمى بنظريات ما بعد الحداثة تعاني منها الحضارات كلها. وهي من أكبر أسباب تهديد الأمن والحرية الإنسانية بما فيها الحضارة الغربية نفسها.

ويرى بعض المفكرين المسلمين المعاصرين أن أزمة الحضارة الغربية الراهنة لا يمكن القضاء عليها وحل القضايا و المشاكل التي سببتها من داخلها فقط، خاصة بعد أن وصلت إلى مرحلة متطرفة من الاستعلاء وإنكار الحضارات الأخرى وثقافاتها، حتى وصل الأمر ببعض المفكرين إلى النحو الذي يعبرون عنه بنظريات النهاية.

فمنهم من أعلن نهاية الدين، ومنهم من أعلن نهاية الأيديولوجية، ومنهم من أعلن - والعياذ بالله - موت الخالق، ومنهم من أعلن نهاية التاريخ. وهذه النظريات التي يتبناها كبار مفكري الغرب وفلاسفته إن دلت على شيء؛ فإنما تدل على روح الكبر والاستعلاء والإعجاب بالنفس التي يعاني منها علماء الغرب.

إن هذه الروح التي تعبر عما يعاني منه فلاسفة الغرب من الإعجاب بالنفس والاستعلاء والاستكبار والغرور بما وصل إليه الأوروبيون من مظاهر جذابة من الرقي المادي والتقدم التقني هي التي تدعوهم من حين لآخر إلى التنبؤ بنهاية التاريخ ونهاية الحضارة ونهاية الرقي البشري.

وفي هذه الدعاوى دليل على عدم قدرة هؤلاء المفكرين على إدراك

الإمكانات الهائلة التي أودعها ربنا سبحانه وتعالى في خليفته في الكون، الخليفة الذي سجدت له أقوى القوى الموجودة في الكون المتمثلة في الملائكة. وكأن في ذلك إشارة إلى أن الإنسان منح مكانة من الكرامة عالية من ربه، وأنه كلف بحمل الرسالة الإلهية ونشرها بين أبناء جنسه حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

وليست هذه الدعاوى هي الأولى والأخيرة من نوعها فقد ادعى المؤرخ المعروف والمفكر البريطاني الشهير أرنولد توينبي قبل حوالي ثمانين سنة من الآن في بداية القرن العشرين أن الحضارة الإسلامية هي من بين الحضارات التي تعاني من سكرات الموت تحت وطأة الإبادة والاحتواء من قبل الحضارة الغربية.

وكان هذا التنبؤ صدر عنه في وقت كانت الإمبراطورية البريطانية في إبان ازدهارها، ولم تكن تغرب عنها الشمس وكانت أغلبية بلاد العالم الإسلامي في تلك الحقبة من الزمن تحت سيطرة الاستعمار الغربي فظن المؤرخ البريطاني –متناسيا كل ما قرأه من التاريخ ومتجاهلا كل ما درسه من أسباب سعادة الأمم وشقائها وعن قيام الحضارات وسقوطها– أن هذا الوضع سوف يستمر كما كان عليه في بداية القرن العشرين.

فادعى ما ادعى وبسط على دعاويه وآماله ستاراً من العلم والبحث والتحقيق.

ولكن سرعان ما انكشف الغطاء وتقلص الاستعمار البريطاني وتقوقعت مرة أخرى في جزيرتها التي لا تكاد تشرق فيها الشمس. وشاءت مشيئة الله أن يعيش توين بي ويشاهد تكذيب تنبؤاته بأم عينيه.



إن هذه الأزمة بين العالم الإسلامي وبين الغرب اشتدت بسرعة فائقة منذ نهاية الثمانينات، السنوات التي تبين فيها للعالم الغربي أن الاتحاد السوفيتي لم يستطع أن يقوم في وجه المجاهدين الأفغان الذين قاوموا الهجوم السوفيتي على بلادهم بكل ما لديهم من الوسائل الضئيلة والعزيمة الأفغانية المعروفة والطاقة الإيمانية.

وقد بدأ الغرب يدرك طاقات العالم الإسلامي الكامنة و الحيوية الموجودة في نظرية الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى. فبدأ يستعد لمواجهة المد الإسلامي الذي كان من المتوقع أن يكتسح العالم الإسلامي بعد الفتح الأفغاني.

ومن جانب آخر لم يشأ الاستكبار الغربي أن ينسب انهيار النظام الشيوعي وسقوط الاتحاد السوفيتي إلى عزيمة شعب الأفغان وانتصار القوى الإسلامية المتمثلة في المجاهدين الأفغان والحق يقال إن القيادات الجهادية الأفغانية أيضا لم توفر فرصة حسن الظن بهم خلال السنوات التي تلت جلاء القوى السوفياتية، فالمحاربات الدامية الطويلة التي جرت بينهم خلال عشر سنوات من سقوط النظام الشيوعي أساءت إلى سمعة القيادات الجهادية خاصة، وإلى صلاحية القيادات الإسلامية عامة.

فاعتبر العالم كله أن انهيار النظام الشيوعي وسقوط الاتحاد السوفيتي عبارة عن انتصار كبير للأنظمة الغربية والحضارة الغربية. وبدأ العالم الغربي يعتبر هذا الانتصار مبررا كبيرا لكل ما يقوم به من محاولات جلية وخفية ومساعٍ ظاهرة وباطنه، لفرض أنظمته على العالم كله بما فيه العالم الإسلامي.

وينسى أو يتناسى ويتجاهل كثير من الغربيين أن انهيار النظام الشيوعي



ليس إلا انهياراً لنظام من الأنظمة الغربية وليس سقوطه إلا سقوطا لدولة استعمارية غربية، فالشيوعية بأسرها كانت نظاما غربيا وإنتاجا فكريا أوروبيا ولم يكن للشرق أي دخل في وضع فلسفتها ولم يكن للفكر الشرقي أي دور في تجديد أسس الشيوعية وقواعدها.

إن كون النظام الشيوعي نظاما غربيا بحتا وكون الاتحاد السوفيتي امتدادا للقوة الروسية الاستعمارية التي سيطرت على مناطق شاسعة من بلاد الإسلام أمر معلوم من التاريخ العالمي المعاصر بالضرورة.

وتشترك الشيوعية في عديد من خصائصها وتصوراتها مع الفلسفة الديمقراطية المتحررة فكل من النظامين الديمقراطي الغربي والشيوعي الأوروبي- علماني بحت، يؤمن إيمانا كاملا بفصل الدين عن الدولة، وعزل تعاليم الدين والأخلاق من المجتمع، وكل منها لا يقبل أي دور للمثل الأخلاقية والقيم الروحية في النشاط الاقتصادي فكل من النظامين مركز على المصالح المادية، ويعنى بمقاصد اقتصادية فقط وكل واحد من النظامين أوروبي الأصل ألماني البذرة.

وبمجرد أن تبين ضعف النظام الشيوعي وقبل أن يتم انهياره وجلاء قواته من أفغانستان بدأت المعسكرات الغربية تتوحد من جديد، وبدأت الاستعدادات لتوجيه قوة الغرب الجماعية نحو هدف آخر. وبدأت النعرات والدعوات لاتخاذ الإسلام عدوا للغرب تظهر.

وأعلن رئيس المجلس الوزاري الأوروبي الذي كان يتحدث باسم الحلف الأطلنطي أن الإسلام حل محل العدو الشيوعي، وأصبح يعتبر عدوا للغرب



بالرقم الأول. والجدير بالذكر أن هذا الحلف الأطلنطي الذي تقودها الولايات المتحدة هو من أكبر الآليات العسكرية الغربية التي تم تأسيسها لمحاربة الشيوعية.

وهذا الإعلان جاء بمثابة إعلان للحرب على العالم الإسلامي. فبدأت الصحافة الغربية والإعلام الغربي- حتى المجلات العلمية الجامعية- تشن الحرب على العالم الإسلامي، فظهرت أعداد خاصة لعديد من المجلات الغربية المعروفة عن العالم الإسلامي، تمهيداً للأرضية وإعداداً للعقول والنفسيات.

ويبدو كأن الوقائع التي ظهرت على مسرح السياسة والاقتصاد في التسعينات وبداية القرن الواحد والعشرين لم تكن إلا مسلسلات متتالية لهذه الرواية الطويلة

فهذا الرئيس الأمريكي السابق نيكسون الذي يعتبر من كبار المفكرين وتعتبر كتاباته من الكتب الاستراتيجية المهمة يقول بصراحة ووضوح، وبأسلوب دبلوماسي لطيف كل ما صرح به المفكر اليهودي صمويل هنتنجون في عبارة صريحة ويقول الرئيس نكسون في كتابه "الفرصة السانحة" أن العدو الأول هو الإسلام الذي يسميه بالأصولية الإسلامية.

ثم يشرح الأصولية الإسلامية ويعرفها بالنظرية التي تدعو إلى استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والتي تنادي بأن الإسلام دين ودولة، والتي تعتبر ماضي المسلمين مصدر هداية لمستقبلهم.

وتحقيقاً لهدف محاربة الأصولية الإسلامية دعا الرئيس نيكسون إلى تحالف جديد يضم الولايات المتحدة، وأوربا، وروسيا ليتمكن هذا التحالف



الجديد لمواجهة البعث الإسلامي الجديد، والعمل على فرض نمط علماني على العالم الإسلامي، نمط يقلد أتاتورك الذي وضع نموذجاً علمانياً منحازاً نحو الغرب وساعياً إلى ربط المسلمين بالغرب سياسياً واقتصادياً.

ولم ينته الأمر هنا بل أصبحت الصحافة العالمية تتناقل تصريحات القادة الغربيين والوزراء الأمريكيين المليئة بالسب والشتم للمسلمين والشخصيات الإسلامية المحترمة وصرحوا في هذه التصريحات عن كل نواياهم فيما يتعلق بمستقبل العالم الإسلامي، فقال أحد القادة الأمريكيين الذي كان مرشحا للرئاسة الأمريكية : إن الهجوم على أفغانستان والعراق عبارة عن حملة غربية لفرض القيم والمثل، وليس فقط لفرض السياسات. وإنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التي تراها ضرورية. ثم يقول: إن الشعارات التي أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهي عند الحدود الأمريكية بل تتعداها إلى الدول الأخرى.

ولم تتخلف القيادات الأوربية عن أصدقائهما وزملائهما الأمريكيين في هذا التصريحات. فقالت مارغريت تاتشر رئيسة وزراء انجلترا السابقة مشيرة إلى المعارك القائمة بين الغرب وبين العالم الإسلامي بعد أحداث أفغانستان أنها معركة القيم والمصالح، وقالت: إن المسلمين يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب.

ثم قالت إن المسلمين يمثلون إيديولوجيا عدائية لأمريكا والغرب فهم مثل البلشفية في الماضي. ودعت إلى تبني إستراتيجية طويلة المدى ليتسنى للغرب هزيمة المسلمين كما تمكن من هزيمة الشيوعية والبلشفية.



هذه هي النوايا التي لا يخفيها أهل الغرب وهذه هي مقاصدهم وأهدافهم فيما يتعلق بمستقبل العالم الإسلامي. وليست البحوث العلمية والمقالات البحثية التي نشرها أمثال فوكوياما وهنتنجتون إلا أصداء ظهرت في لغة علمية لما باح به السياسيون في لغة دبلوماسية والصحفيون في لغة صحافية.

في هذه الخلفية ظهر المقال المعروف الذي نشره هنتنجتون في المجلة الأمريكية في عددها الصيفي لعام ١٩٩٣م.

وأثارت هذه المجلة جدلا كبيرا ونقاشا واسعا ليس له نظير في تاريخ المجلة منذ عام ١٩٤٠م على حد قول رؤساء تحرير المجلة. وقام أهل العلم والخبرة من جميع القارات ومن مختلف بلاد العالم بالرد والتفنيد لما جاء في هذا المقال.

وعلى حد قول المؤلف كان المقال سؤالا وجه إلى الأوساط العلمية العالمية، وادعى المؤلف أن الكتاب الذي ظهر في نفس الموضوع بعد ثلاث سنوات من نشر المقالة كان جوابا مفصلا علميا موثقا مدروسا على هذا التساؤل.

ومن أهم القضايا التي أثارها المؤلف في هذا الكتاب وقبله في المقالة تشمل القضايا الآتية:

- فكرة الحضارة والحضارات، هل يمكن ظهور حضارة عالمية؟
- الصلة بين القوة والثقافة.
- التغيير في توازن القوة بين الحضارات.
- ظاهرة التركيز على إعادة بناء الثقافات في بيئات تشريعية على أسس محلية.
- أهمية الصراعات التي أثارتها الاتجاهات العولمية في الحضارة الغربية.
- قضية التعسكر الإسلامي والإصرار الإسلامي على هوية المسلمين وشخصيتهم.



- قضية الإصرار الصيني على هوية الصينيين.
- ما هي الإجابات الغربية وردود فعل الغرب على النهضة الصينية.
- مستقبل الغرب وعالم الحضارات.

وأثار المؤلف قضية أخرى تهم مستقبل العالم الإسلامي، وهي قضية يتجاهلها كثير من المسلمين،وهي قضية ازدياد عدد السكان في بعض المناطق وتأثير هذا الازدياد على توازن القوة في العالم.

والجدير بالذكر أن المقال لم يشر إلى أخطار هذا الصراع ولم يتطرق إلى نتائجه وعواقبه، فإن صراع الحضارات وصدامها لا يأتي إلا بعواقب وخيمة ونتائج سلبية بعيدة المدى على الإنسانية كلها، ولكن أشار المؤلف إلى هذه الناحية إشارة خفيفة في تمهيد كتابه وفي الجملة الأخيرة من الكتاب، حيث يقول المؤلف: إن هذا الصراع من أشد العوامل خطورة على السلام العالمي، وإن أحسن الضمانات وأكبرها في وجه حرب عالمية هو (تأسيس) نظام عالمي جديد مبني على الحضارات.

هذا هو الوضع الفكري، وهذه هي الأرضية النفسية التي ندرس فيها الحوار بين الحضارات وانقسم العالم الإسلامي في قضية الحوار مع الحضارة الغربية خاصة إلى فئتين : فئة تتسم بالتشاؤم واليأس الكامل عن جدوى الحوار، وذلك لأسباب واضحة ظاهرة، فترى هذه الفئة أن الضغوط السياسية المتزايدة على العالم الإسلامي من قبل القوى الغربية والتدهور الاقتصادي الذي يعاني منه عدد كبير من دول العالم الإسلامي ومحاولات فرض العولمة من قبل العالم الغربي لتحقيق مصالح الغرب الاقتصادية والسياسية، كل



ذلك لا يترك مجالا لظهور نتائج إيجابية من هذا الحوار.

ثم تفوق الغرب التقني والعلمي بالإضافة إلى تقدمه الكبير في القوة العسكرية لا يوفر أرضية متساوية للفريقين للدخول في الحوار ثم استسلام عدد كبير من القيادات الفكرية في العالم الإسلامي استسلاما فكريا أمام الغرب وخضوع عدد كبير من زعماء المسلمين خضوعا سياسيا أمام الغرب لم يترك مجالا لتحقيق أي هدف إيجابي وكل ذلك في وقت اتفقت فيه كلمة الغرب بأهمية فرض القيم الغربية على العالم الإسلامي بكل الوسائل المتاحة.

ولا شك أن فوكوياما يمثل العقلية الغربية عندما يقول : إن الحداثة التي تمثلها الولايات المتحدة الأمريكية والديمقراطيات المتطورة ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية، وإن المؤسسات التي تجسد مباديء الغرب الأساسية ستستمر في الانتشار عبر العالم، ويشير إلى إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي لديها مشاكل أساسية مع الحداثة.

ويبدي فوكوياما استياءه عن رفض العالم الإسلامي مبدأ العلمانية قائلاً: إن الحركات الأصولية الإسلامية لا ترفض السياسات الغربية فحسب، بل ترفض المبدأ الأكثر أساسية للحداثة وهو العلمانية نفسها، فالمسألة ليست ببساطة حربا على الإرهاب وليست المسألة الحقيقية هي السياسات الخارجية الأمريكية في فلسطين أو العراق ثم يلخص رأيه قائلاً: إنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي، ألا وهو علمانية الدولة. وهذا يمثل تحديا أكبر بكثير من التحدي الشيوعي.

ولكن على الرغم من هذه الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى التشاؤم



واليأس الكامل من جدوى الحوار؛ إلا أن هناك فئة تتحمس للحوار وهي متفائلة تفاؤلاً كبيراً، وترى في الحوار الخير للعالم الإسلامي والأمن والسلام للجميع، وذلك لأن العالم الغربي والشرقي على الرغم من هذه السلبيات يتعطش إلى دعوة الإسلام وإلى الرسالة المحمدية، فنرى انتشار الإسلام بسرعة فائقة في مشارق الأرض ومغاربها بما فيها العالم الغربي، وبدأ الإسلام ينتشر بسرعة فائقة في بلاد أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية حتى أصبح من الأديان المعترف بها في بعض البلاد الأوروبية، ثم هناك عدداً كبير من المسلمين الذين إما ولدوا في البلاد الغربية وأصبحوا مثل أبناء هذه البلاد لغة وتجنسا ومعيشة وتكيفوا من عادات البلاد وأصبحوا مثل السكان الأصليين، أو هم من السكان الأصليين للبلاد من المسلمين الجدد الذين يزداد عددهم وتتزايد نسبتهم بمضي الوقت وهؤلاء الأعداد الهائلة تمثل قوة لا يمكن تجاهلها للحكومات وأصحاب القرار وأصحاب النفوذ.

فهذه الأعداد المتزايدة للمسلمين في بلاد الغرب والشرق تقتضي أن يكون هناك حوار شامل دائم للحفاظ على مستقبل هذه البلاد ومستقبل الغرب نفسه يتطلب هذا الحوار إن عدد المسلمين بلغ في الولايات المتحدة عشرة ملايين وفي فرنسا إلى سبعة ملايين وفي روسيا إلى عشرة ملايين وفي كل من ألمانيا وبريطانيا إلى ما يتجاوز أربعة ملايين هذا بالإضافة إلى ما يتجاوز مائة مليون مسلم في الصين ومائتي مليون مسلم في الهند.

فهذا الوضع المتوتر القائم والذي يدعو إلى تكثيفه واستمرار يته بعض المتحمسين في الغرب والشرق لا يؤدي إلا إلى نتائج سيئة جدا للجنس البشري كله ويتوقف الأمن والسلام في كل هذه المناطق إلا بالحوار المكثف



البناء ذوي الأبعاد بين الحضارات التي تمثلها هذه البلاد.

ثم الدول الإسلامية تمثل ثلث أعضاء الأمم المتحدة والقرارات العالمية التي تؤثر في مستقبل البشرية تصدر أغلبيتها من الجمعية العمومية للأمم المتحدة التي تمثل ثلثها دول العالم الإسلامي.

إن إصرار المسلمين على التزامهم بمبادىء الإسلام وتعاليم القرآن وطموحهم لإحياء دولة الإسلام تطبق فيها شريعة الإسلام وتعاليم القرآن يعتبر عند بعض المفكرين الغربيين عقبة في سبيل علاقات المسلمين بين الحضارات كما أشرنا إليها، ولكن ينبغي أن لا تكون هذه الطموحات الإسلامية والأماني والآمال الإسلامية موضع اعتراض وتردد وتحفظ عند هؤلاء المفكرين فإن عددا منها لا تختلف في حقيقتها ومغزاها عن الفكرة التي جاءت في إعلان الاستقلال الأمريكي الذي يعترف بأن القانون الطبيعي مصدره خالق الكون والحقوق الأساسية للإنسان جاءت من خالق الكون ولا يجوز العدول عنها.

وليس الطموح الإسلامي الذي يسمى بالأصولية عند الغرب إلا رجوعاً إلى هذا المبدأ بالذات وإصراراً على نفس الفكر وما يسمى بالأصولية ليست إلا محاولة جماهيرية ديمقراطية سلمية للرجوع إلى قانون قرآني مصدره خالق الكون والذي يتضمن حقوقا وأحكاما وفرائض وواجبات أصدرها خالق الكون.

وأما استياء بعض الكتاب الغربيين بطموح المسلمين بتحقيق قيمهم وإعادة مثلهم فينبغي ألا يكون أيضاً مانعاً من حوار حضاري شامل، لأن هناك استياءات يعبر عنها بعض الكتاب الغربيين عن استعلاء القيم الأمريكية وفرض

السياسة الأمريكية والإرادة الأمريكية على دول أوروبا حتى قال بعض الكتاب الفرنسيين: إن الحضارة الأمريكية تشكل خطرا على الحضارة الفرنساوية.

والتحفظات الألمانية والفرنساوية حول السياسة الأمريكية الهيمنية أمر معروف فإذا كان العالم الغربي تمكن من وضع سياسة مشتركة فيما يتعلق بمصالحه المشتركة على الرغم من هذه الخلافات والتحفظات فلا مانع لنا من الدخول في حوار مكثف مع الغرب خاصة ومع الحضارات الأخرى عامة.

إن العالم الإسلامي لا يريد أن يستبد بالقرارات في مصير الأمم ومستقبل العالم ولم يتخذ هذه السياسة في ماضيه ولن يتخذها في المستقبل لأن المبادئ والأسس التي تبتني عليها هذه السياسة -سياسة التدخل والاستبداد- متعارضة مع أحكام الشريعة الإسلامية التي تعلن بصراحة : لست عليهم بمسيطر -فأمرنا أن نترك الناس خارج الأمة الإسلامية وما يدينون، فلا يريد العالم الإسلامي انطلاقا من تعاليم دينه أن يبعد الناس عن موكب الحياة حسب ثقافتهم ونظرياتهم، ولكن العالم الإسلامي لن يسمح أيضا أن يبعده أحد عن موكب الحياة. وإن حاول ذلك أحد وأصر على هذه المحاولة تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

وجل ما تهفو إليه الأمة الإسلامية أن تساهم في بناء مستقبل حضاري للبشرية، مستقبل مبني على مباديء الأخلاق والعدالة مستقبل يسوده جو الإيمان وتغشاه سحابة من العواطف الروحانية وتريد أن تكون مشاركتها مشاركة فعالة ريادية مع الحفاظ ليس على هويتها فحسب بل على هوية الآخرين، علما بأن الشريعة الإسلامية تهتم بالحفاظ على الهويات



والشخصيات التي جعلت وسيلة للتعاون بين البشر.

وهذا يتطلب حوارا متواصلا بين الحضارات والثقافات. ولا بد لذلك من الخروج عن إطار الحوارات التقليدية التي تتركز على العقائد وعلى تعاليم الدين التي لا يمكن أي تساهل أو مداهنة فيها فالمناقشات المستمرة في باب العقائد وأسس الدين لا تأتي بشيء يذكر ولم تأت بكبير فائدة، فيجب التركيز على الحوار الحضاري لتشكيل مستقبل حضاري أفضل للبشرية.

أسس الحوار

إن العدل جماع كل ما وردت به الشريعة من مقاصد وأهداف بل الشرائع الإلهية والرسالات السماوية كلها جاءت لتحقيق العدل الحقيقي الكامل بين أتباعها فقال عز من قائل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥)، ولا شك أن هدف تحقيق العدل من أهم ما يمكن أن تجتمع عليه الأمم والشعوب في العالم المعاصر الذي كثر فيه الظلم و تنوعت فيه أنواع الاستغلال من القوي للضعيف، فلا تعاني الأمم الضعيفة والبلاد الفقيرة من آفة ومصيبة أخرى، كما تعاني من الظلم والاستغلال والاضطهاد ومن المصائب والويلات التي تأتي من جرائه من الفقر والبطالة والأمراض والأوبئة والتخلف.

والحقيقة أن مانراه اليوم من تكاتف المشكلات السياسية والاقتصادية والبيئية وترادف كثير من القضايا التي تواجه الدول المتخلفة يرجع سببها الى اختلال توازن العدل في توزيع الوسائل والثروات وعدم الأخذ بمعايير العدالة في المعاملات الاقتصادية والعلاقات الدولية.



وينبغي لذلك أن يتم أولا الحوار مع القوى الشرقية والجنوبية التي تعاني من نفس المعاملة، وتعبر عن نفس الشكاوي التي تشكو منها دول العالم الإسلامي، وذلك ليكون موقف المظلومين والمضطهدين متقاربا إن لم يكن موحدا في حوارهم مع العالم الغربي، ثم هناك مجموعة من المثقفين النقديين في العالم الغربي، الذين يرفعون أصواتهم من حين لآخر ضد الهيمنة الغربية التي تمثلها كتلة مغرضة مكونة من مجموعة من زعماء بعض الدول الغربية ومجموعة من أصحاب الشركات العالمية ذات الجنسيات المتعددة والقيادة الصهيونية، فالتحالف والتضامن مع هذه العناصر المعتدلة التي لا يندر وجودها في الشرق والغرب يتوقع أن يكون من مبشرات الخير في تحقيق أهداف الحوار.

والجدير بالذكر أن الأغلبية الغالبة من الشعوب الغربية لا تشعر بالعداء ضد الإسلام فلا ينبغي بل لايجوز لنا أن نعتبر كافة أهل الغرب من صفوف الأعداء والمعارضين كيف وهم أمة الدعوة ويتوقع من كل منهم أن يصبحوا إخوانا وأعضاء في أمة الاجابة.

أما العداء والحقد الذي يظهر أحيانا في سياسة مجموعة من زعماء الغرب فلا تمثله إلا أقلية ضئيلة لأصحاب الأغراض والأهواء وبينهما مجموعة تأثرت بالدعاية وأنواع المكر والكيد التي اتخذتها هذه الأقلية المغرضة.

ثم الحفاظ على البيئة قضية لها أهميتها لمستقبل البشرية وحضارتها ويمكن أن تكون هذه القضية من الموضوعات المشتركة المعنية عند جميع الحضارات الكبيرة، ويمكن أن يتم اتفاق عالمي على مبادئ مشتركة للحفاظ على البيئة علما بأن الشريعة الإسلامية ورد في أحكامها وقواعدها العامة ما يعالج



مشكلات البيئة وقضية التلوث البيئي، ويمكن إزالة عديد من الإشاعات الفاسدة والأغاليط المغرضة والأباطيل الواهية التي نشرها أعداء الإسلام عن الشريعة الإسلامية بتقديم حلول إسلامية عملية متزنة لقضايا البيئة والتلوث البيئي الذي قد يؤدي إلى التلوث الحضاري.

ويبدو أن الظاهرة الحضارية التي شاهدتها القرون المتوسطة في صقلية والأندلس وجنوب إيطاليا وشرق أوروبا قد تتجلى مرة أخرى في مجالات جديدة. كانت ظاهرة التعاون الحضاري والأخذ والعطاء فيما يتعلق بالعلوم والمعرفة والثقافة في مجال علوم الطب والفلسفة والفكر والعلوم التجريبية كما يعترف به عدد من الكتاب المنصفين في الشرق والغرب.

وقد يكون المجال لتجلي هذه الظاهرة ولتحقق نتائج هذا الحوار الحضاري في مجال الأخلاق والمثل الاجتماعية والقيم الروحانية وتصحيح العقائد، والجدير بالذكر هنا أن الإقبال في العالم الغربي على التراث الإسلامي في المجال التربوي وكتب التزكية أكبر بكبير مما كان عليه في القرون السابقة وهذه الظاهرة بدأت باستغلالها بعض الطوائف المنحرفة والجماعات المغرضة وأتباع الفكر الباطني بنشر الأدب الباطني والدعوة الى الفكر الباطني المنحرف. فيجب علينا نحن المسلمين ألا نترك هذا الفراغ خاليا من الأدب التربوي الإسلامي المتزن .

ثم ما يزعمه بعض الناس في الشرق والغرب أن الحوار بين الحضارة الإسلامية المبنية على أسس دينية وقواعد شرعية وبين الحضارة العلمانية لا يؤدي إلى نتائج وثمرات ليس على إطلاقه ولا ينطبق في جميع الأحوال لأن



الحضارات الكبيرة كلها قامت على أسس من الدين.

وتشكل العقائد الدينية ركنا هاما من البناء الحضاري في كل أمة فالدين كان ولا يزال من أهم مكونات الحضارات بما فيها الحضارة الغربية المعاصرة. فعلى الرغم من المظاهر العلمانية للحضارة الغربية فإن المسيحية والعقائد الدينية للأمم الأوروبية من أهم مكونات الحضارة الغربية ولذلك يسمى كثير من الكتاب الغربيين حضارتهم بالحضارة المسيحية.

وتأثير العقائد المسيحية وتعاليمها لا ينحصر في المظاهر الحضارية بل يتعداها إلى أمور كثيرة. فالفلسفة الغربية تأثرت وأخذت الكثير مما كتبه الآباء المسيحيون ورجال القانون في الغرب أخذوا كثيرا من بقايا تعاليم الدين المسيحي والقانون الدولي الغربي الذي يعتز به العالم الغربي ويعترف بكونه مستمدا من التعاليم المسيحية، وكانت الآداب والتعاليم المسيحية من أهم عناصر هذا القانون وأحكامه لقرون طويلة حتى إن كثيرا من الكتاب الغربيين الذين كتبوا عن القانون الدولي الغربي خلال العقود الأولى من القرن العشرين ذكروا الديانة المسيحية والأخلاق المسيحية من بين مصادر القانون الدولي وكل ذلك يدعو إلى التفاؤل في جدوى الحوار بين الحضارة الإسلامية التي لم تتنازل ولن تتنازل - إن شاء الله - عن قواعدها الدينية وتعاليمها الشرعية وبين الحضارة التي انبثقت من تعاليم الدين المسيحي والتي بدأت تتضايق بذكر الديانات والتعاليم الدينية في المعاملات الدنيوية، على الرغم من أن التعصب الديني الشديد يملي كثيرا من سياسات الدول والحكومات المنتمية إلى هذه الحضارات .



العوامل المخلة بالسلام

هذه هي الوضعية الفكرية والحضارية التي نعيش فيها الآن.

ونجد أن هناك أسبابا كثيرة تهدد السلام العالمي والأمن الداخلي في كثير من البلاد الإسلامية. ويرى الكتاب الغربيون ويحاولون أن يقنعوا الجهات المعنية في العالم الإسلامي بأن التوازن بين القوى العسكرية والاقتصادية العالمية هو الذي يضمن السلام العالمي.

وإذا اختل هذا النظام العالمي يختل التوازن العالمي، وعندما يذكر الكتاب الغربيون القوى العسكرية أو القوى العالمية فيعنون بذلك الدول الغربية الكبيرة التي سيطرت على وسائل العالم وثرواته بتفوقها الفني والتقني وتقدمها المادي وقوتها العسكرية ويهتم كثير من الكتاب الغربيين وأتباعهم الشرقيين بالخلل الاقتصادي كأهم أسباب اختلال السلام العالمي. فيهتمون بالتطور الاقتصادي على النمط الغربي، وينادون بالأخذ بالأنماط الغربية للأنشطة الاقتصادية والانتاج والتصنيع وبناء البنية التحتية وما إلى ذلك.

على الرغم من أهمية النشاط الاقتصادي وعلى الرغم من ضرورة تكثيف النشاط الاقتصادي فإن التركيز على الجانب الاقتصادي على النمط الغربي يؤدي إلى غض النظر عن الأسباب والعوامل الأخرى الأكبر أهمية والأكثر تأثيرا في الإخلال بالسلام العالمي وفرض العبودية والاستسلام على العالم الإسلامي. فأهم الأسباب التي أدت إلى الإختلال بالسلام العالمي هي تتلخص فيما يلي :-



١-الحكر العلمي الذي اتخذته الدول الراقية من أهم قواعد سياستها التعليمية والتربوية، واحتكار العلم والمعرفة ومنع البشر من الورود على مناهل العلم والمعرفة من أكبر الجرائم الحضارية فكانت الحضارات حتى بداية القرن العشرين تفيد بعضها من بعض وكان الأخذ والعطاء الحضاري من أهم مزايا التعامل البشري الذي يميز الإنسان من أبناء جنسه من الحيوانات الأخرى.

ولم تمانع الحضارة الإسلامية من أن يستفيد من علومها ومعارفها المشارقة والمغاربة. ولكن الحضارة الغربية المعاصرة جعلت العلم والفن وسيلة للاستيلاء والسيطرة على العالم وأغلقت كثيرا من أبواب المعرفة أمام أبناء الشرق الإسلامي لأن العلم والمعرفة أصبحت عند الغرب بضاعة تجارية ووسيلة لاستغلال الأمم. فيقال إن تسعين بالمئة من الخبراء في العلوم التجريبية يهتمون بمجالات تمكن البلاد الغربية من الحفاظ على سيطرتها وتكثيف هيمنتها على العالم وإعداد أسلحة الدمار الجماعي والهلاك الشامل.

٢- ارتكاز وسائل العلم وثروات الكوكبة الأرضية عند أقلية من البشر وحرمان أغلبية البشر من هذه الثروات والوسائل أيضا من أهم الأسباب التي أخلت بالسلام العالمي فيقال أن أكثر من أربع وثمانين بالمئة من الوسائل الكونية والثروة الكوكبية تحت تصرف وسيطرة مجموعة قليلة من البشر لا تتجاوز نسبتها عن ٢٩ بالمائة.

وأما الثروة والوسائل المتبقية وهي ٦١ بالمائة فهي في تصرف ٨١ بالمائة من البشرية. وهذا النصيب الضئيل الذي بقي في أيدي الأغلبية الغالبة من الأجناس البشرية فينتقل أيضاً بسرعة هائلة إلى البلاد الغربية، وذلك عن



طريق النظام المصرفي العالمي وعن طريق الشركات العالمية ذات الجنسيات المتعددة وعن طريق قواعد العولمة الجديدة، وكل هذا يؤدي الى تقليل الوسائل والثروات في العالم المتخلف وتكثيفها وازديادها في العالم الغربي وليست قلة الموارد الغذائية في كثير من بلاد العالم الإسلامي من الأمور التي حدثت صدفة. وليست هي نتائج لمجرد سوء الإدارة.

٣- استغلال الوسائل العالمية والمحلية والوطنية لتحقيق مصالح القوى العالمية سبب كبير من أسباب اختلال السلام، وهذا ما نرى مظاهره في كل بلاد العالم بما فيها بلاد العالم الإسلامي.

٤-ظهور النعرات القومية في العالم الإسلامي على أيدي كتاب مسيحيين وعلى أيدي المستشرقين وأتباعهم ثم استغلالها من قبل الاستعمار لتفتيت البلاد الإسلامية الكبيرة من الأسباب القديمة للإخلال بالسلام والحروب المتواصلة في كثير من البلاد، وكانت هذه النعرات بتأثير مباشر من الثقافة الغربية والتعليم الغربي وأدت إلى انقسام البلاد الإسلامية الى دويلات صغيرة وذلك بتأييد كامل وتمويل ودعم أدبي ومادي من الدول الغربية.

٥-استغلال المنظمات العالمية من قبل الدول القوية وعلى رأسها الولايات االمتحدة لتحقيق مصالح الاستعمار كان حافزا كبيرا في شن الحروب خلال العقود الأخيرة خاصة.

ويبدو أن الهدف الحقيقي من وراء تأسيس عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى وتأسيس منظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية على أيدي الفاتحين في كل واحدة منها كان الغرض الرئيسي منه هو الحفاظ على مصالح



الفاتحين والضمان على توزيع الغنائم فيما بينها واستمرارية نفوذهم في قضايا مصيرية للعالم كما يدل عليه نظام الأمم المتحدة والجدير بالذكر أن المفكر الإسلامي العلامة محمد إقبال كان قد علق على عصبة الأمم عند تأسيسها قائلا: " أنا لا أعلم أكثر من أن مجموعة من النباشين أسسوا جمعية لتوزيع القبور فيما بينهم " .

ويدل على صدق هذا التعليق أداء الأمم المتحدة وقبلها عصبة الأمم في القضايا التي تتعلق بالعالم الإسلامي فكان دور هاتين المنظمتين دور المراقب المحايد. وكان دورهما في قضايا أخرى دور مشارك فعال فكانت محاولات التطهير العرقي في قلب أوروبا على مرأى ومسمع من القوى الأوروبية والأمم المتحدة التي تنادي كل منها بمباديء رفيعة ونعرات خلابة ودعوات جذابة كانت مستمرة لمدة تجاوزت سنوات طويلة وتدل هذه المحاولات التي سببت ضحايا بشرية لا مثيل لها في أراضي أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية على ارتياح القيادات الأوروبية على هذا التطهير وتدل على أن هناك أناسا في الغرب لا يهمهم السلام العالمي، ولا حقوق الإنسان، ولا كرامة البشر، ولا الحوار الحضاري.

٦- فرض النموذج الحضاري الغربي على العالم الإسلامي وهو من أهم أسباب الاختلال في السلام العالمي.

٧-التسلح المتزايد من قبل بعض الدول المجاورة للبلاد الإسلامية الكبيرة من أكبر اسباب الخلل في السلام العالمي، فالتسلح النووي عند كل من إسرائيل والهند منذ أكثر من أربعين سنة بدون أدنى اعتراض وتحفظ من



العالم الغربي، وبدون أي تدخل من المؤسسات العالمية المعنية واتخاذ سياسة مغايرة تماما فيما يتعلق بباكستان والعراق وإيران يؤدي إلى خلل دائم في السلام العالمي.

٨- ثم محاولات الهيمنة على بلاد العالم من الدول الغربية من أهم هذه الاسباب.

٩- استخدام وسائل الضغط استخداما جليا وخفيا لمواصلة هذه الهيمنة.

١٠- وأخيراً لا آخراً التعاون بين الكيان الصهيوني الغاشم وبين الاستعمار العالمي.

معالجة هذه الأسباب

لاشك أن هذه الأسباب كلها تؤدي إلى الإخلال بالأمن والسلام، ولابد من معالجتها للسلام العالمي، ويمكن لمعالجتها اختيار استراتيجيتين مختلفتين للقضاء على أسباب الحروب وبواعث انتفاض السلام العالمي.

استراتيجية البناء من فوق وهي من اختصاصات الدول والحكومات وتتلخص هذه الاستراتيجية في وضع سياسات الدول وقرارات الحكومات على المستوى الوطني وتنفيذها على نطاق الدولة وهذه الاستراتيجية تعنى بإزالة أسباب الخلاف والقضاء على حالات الظلم والإستقلال وعدم المساواة في الدولة وخارجها وكل ذلك بإعادة توزيع الثروة وضمان الأمن الداخلي واستقلال القضاء وسياسة القانون ودستور البلاد والعمل للسلام العالمي.

استراتيجية البناء من تحت وهي تشتمل على خطوات تبدأ من المجتمع



ومن الأفراد والجماعات العاملة في المجتمع وهذه الاستراتيجية هي التي تعنينا لمعالجة القضايا التي نحن فيها وقضية الحوارات بين الحضارات وبين أتباع الديانات يشكل جزءا هاما من هذه الاستراتيجية.

والخطوة الأولى في تحقيق هذا الحوار فيما يتعلق بالحوار العالمي الحضاري أن يتم الاعتراف بتعدد الحضارات وحقيقة التنوع الثقافي والتعدد الحضاري. وهذا يتطلب أن يجتنب أتباع حضارة عن فرض قيمهم على أتباع حضارات أخرى.

والجدير بالذكر أن منظمة الأمم المتحدة بمؤسساتها المختلفة أصبحت لعبة ووسيلة في أيدي مجموعة من أتباع الحضارة الغربية فيريدون فرض قيمهم وعاداتهم ومظاهر ثقافتهم على العالم كله مستغلين في ذلك منابر الأمم المتحدة ومؤسساتها كما تبين بجلاء ووضوح من مؤتمرات القاهرة وبكين.

ونحن نشعر بأن هذه المحاولات نوع جديد من الاستعمار والتنصير فالعالم الإسلامي لايمانع من الاستفادة من تجارب الغرب في مجالات العلوم والتقنية والاكتشافات الكونية ورفع المستوى المعيشي، ولكن هذه الاستفادة لا تعنى الأخذ بالحداثة الغربية بحذافيرها فالحداثة تشتمل على إيجابيات وسلبيات ومن الصعب جداً التمييز بين ايجابياتها وسلبياتها وذلك لأن الحداثة ذات صلة قوية بالتغريب التي هي عبارة عن تصبيغ البيئة والمجتمع والثقافة والحضارة والتعليم بصبغة غربية كاملة بكل قضها وقضيضها، فالتغريب متداخلة مع الحداثة ولازم لها والتغريب جذورها عميقة في التنصير والتبشير المسيحي والتنصير هو الخطوة الأولى للاستعمار



الغربي، فالاستعمار الغربي دخل في كثير من البلاد الشرقية والجنوبية باسم التبشير المسيحي، والتبشير المسيحي مهد الطريق لدخول الاستعمار باسم التجارة والصناعة. ثم كلما استقرت تجارته وصناعته في بلد من البلاد امتدت جذوره وتمكن من جره إلى البلاد.

فلا بد لذلك أن نُصرَّ على الاعتراف بالتنوع الحضاري وحرية الرأي والفكر للجميع، وتنوعَ الآراء وأن اختلاف الكلمة حقيقة كبرى في تاريخ الأفكار والحضارات. وهو أمر لا بد منه في حوار الحضارات. والتبادل الحضاري يجب أن يتم بعد قرار حكيم حر من الطرف المستفيد. ففرض التجارب الخاصة بقوم دون قوم على جميع البشرية وإصدار النماذج والأنماط المختصة بحضارة دون حضارة لا يسمى تبادلاً حضارياً، بل يسمى نوعاً من الاستعمار العقلي والاستعباد الفكري.

ثم لابد لهذا الحوار من إعداد قيادات حكيمة واعية متعمقة الجذور في حضارتنا وثقافتنا من بين العلماء والمشائخ ومن بين الجامعيين ومن بين أصحاب الثقافة والإعلام أما أصحاب العقليات المنهزمة وذوو اللهجات الاعتذارية الذين وصلوا إلى مناصب عالية في بعض البلاد الإسلامية لا يستطيعون الدفاع عن الإسلام في حوار حضاري حر، لأنهم هم الذين وفروا هذه الفرص السانحة للاستعمار الفكري والحضاري ليتسرب إلى بلاد الإسلام وكذلك لا يمكن لأصحاب المعرفة الضعيفة المحدودة عن الإسلام أن يشاركوا في أي حوار جاد عميق مع الحضارة الغربية.

المرجعية القيمية للحماية من الأخطار البيئية

د. مصطفى الزباخ
مدير الأمانة العامة لاتحاد
جامعات العالم الإسلامي



الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلقد اكتشف الإنسان اليوم أمام مدركاته العقلية ومكتشفاته الصناعية ومبتكراته التكنولوجية هول المأساة التي تهدد حاضره، ومستقبله، بتعاظم الأخطار البيئية والمشكلات الطبيعية منها: تلوث الهواء، وندرة الموارد المائية، وارتفاع درجات الحرارة وتراجع التنوع البيولوجي، واستنزاف طبقة الأوزون الواقية للأرض والكائنات، وانجراف التربة، واختفاء الغابات وتهديد التوازن الطبيعي، وازدياد مساحة الصحراء.

ومع هذه التحدّيات التي أفضت إلى الاختلال في النظام البيئي القائم على التوازن والاعتدال، أدرك الإنسان حجم الخلل القائم بينه وبين بيئته التي تشكل الإطار الذي يحيا فيه، والمقوّمات الحيوية المتمثلة في غذائه ومأواه، وعلاقاته الإنسانية من عادات وقيم وأخلاق.

من هنا تنامى الاهتمام في العصر الحديث أكثر بقضايا البيئة ومشكلاتها ، وتزايد الوعي بأخطارها وضرورة حمايتها من أضرار الأنشطة البشرية المقودة بشهوة الأنانية، والسيطرة المستبدة اللامحدودة في مجالي الإنتاج والاستهلاك، مما دعا علماء البيئة والمفكرين الاستراتيجيين وبناة الحضارات والغيورين على مستقبل البشرية، إلى إيلاء الاهتمام للعلاقة المتبادلة بين الإنسان والمحيط البيئي الذي يعيش فيه، فدعوا إلى دراسة هذه الأزمة التي ترجع إلى خلل وصدام في العلاقة بين الإنسان والنظامين البيئي الطبيعي والحضاري على السواء، ومن ثمّ مضى المسؤولون في المنظمات الدولية والإسلامية والمفكرون يبحثون عن حصون أخلاقية وحلول قيمية جديدة



تعيد السلام والتعايش الإيجابي بين الإنسان والبيئة، وتنامى الوعي البشري بما تخلفه الأنشطة البشرية الضارة والحركات الصناعية الملوثة من مخاطر مخربة للموارد الطبيعية ومهددة لسلامة الميزان الصحي البشري، فبادرت الدول المصنعة إلى عقد أول اجتماع استشاري دولي بسويسرا عام ١٩١٣ حول حماية الطبيعة من عدوان الأنشطة الصناعية الضارة، وتلاه عام ١٩٢٣ عقد مؤتمر دولي بفرنسا حول عوامل تخريب الموارد الطبيعية، ثم مؤتمر دولي آخر سنة ١٩٣٢ لدراسة تأثير التكنولوجية الملوثة في الطبيعة، وبعد ذلك عقدت منظمة اليونسكو اجتماعين دوليين أحدهما بفرنسا عام ١٩٤٨ والثاني بأفريقيا عام ١٩٦٨، خصصا لدراسة الاستعمال العقلاني للأنشطة البشرية حول الموارد الطبيعية.

وبالرغم من هذه الاجتماعات البيئية والمؤتمرات الدولية التي نبهت إلى الأخطار المحدقة بالبيئة ومحدودية الموارد الطبيعية، فإنه لم يسجل إلا تقدم بطيء في مجال حماية البيئة من جراء الاستغلال البشري الضار المتنامي، مما دعا المجتمع الدولي إلى مواصلة جهوده لرفع الوعي بالآفات والتحدّيات التي تهدد صحة الحياة الإنسانية وحماية المنظومة البيئية، وسلامة مسار التنمية المستدامة، فعقد مؤتمر استوكهولم بالسويد عام ١٩٧٢، ومؤتمر تبليسي في الاتحاد السوفياتي السابق عام ١٩٧٧، ومؤتمر التنمية الاجتماعية بكوبنهاجن ١٩٩٥، وتعتبر قمة الأرض الأولى المنعقدة في ريو دي جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢، وقمة الأرض الثانية المنعقدة في نيويورك بأميركا عام ١٩٩٧، والمنتدى العالمي الأول للبيئة من منظور إسلامي المنعقد في مدينة جدة في أكتوبر عام ٢٠٠٠، والمؤتمران الإسلاميان الأول والثاني لوزراء البيئة اللذان عقدتهما



الإيسيسكو في جدة بالمملكة العربية السعودية عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٦، ومؤتمر القمة الإسلامي التاسع المنعقد في قطر في نوفمبر عام ٢٠٠٠، مرحلة متطورة في الوعي البيئي على المستوى الدولي والعربي الإسلامي، حيث أكدت هذه المؤتمرات الدعوة إلى تعزيز التوجّهات البيئية التالية في التفكير البيئي المعاصر:

أ. الدعوة إلى إيجاد سلوك بيئي جديد تحكمه "الأخلاق البيئية" والقيم الإنسانية البانية لعلاقة التعايش الإيجابي والاحترام وصون حقوق الكائنات الأخرى في الحياة، ونبذ الأنانية والفساد والإرهاب البيئي من أجل العيش المشترك.

ب. التوعية بمحدودية الموارد الطبيعية لتأمين التنمية المستدامة التي تقتضي ترشيد تعامل الإنسان مع الموارد الطبيعية استجابة لاحتياجاته الآنية والمستقبلية.

ج. اعتبار الأرض وما يحيط بها من ماء وهواء وكائنات حية نظاماً بيئياً متكاملاً: تتفاعل مكوناتها وتترابط كائناتها في علاقات متناغمة، ومتعاونة لاستمرار الحياة فيها وبالتالي لبقائها.

د. إن الإنسان حارس، أمين، مكلف شرعاً بحفظ صلاح الموارد الطبيعية والاجتماعية والثقافية، ومنهي عن إفسادها، وليس مالكاً مستبداً لها، إيماناً بأنّ مالك الكون هو الله خالقه، فبقدر تفوّق الإنسان بعقله ومهاراته تتفوق الكائنات الأخرى بخيرها، وطاقاتها، ومن هنا تكون "حقوق المخلوقات الأخرى على الإنسان" قاعدة شرعية وسنة كونية.

من خلال هذه التوجّهات التي أيقظت الضمير البيئي المعاصر وحررت المفهوم الطاغي للعلاقة بين الإنسان والبيئة من القيم السلبية القائمة على الاستغلال والسيطرة والفساد، تعزيز المنظور الشمولي والقيمي الجديد لدى



الإنسان نحو بيئته التي يعيش بها وفيها ومعها.

وإذا كانت البيئة في أوجز مفاهيمها تعني عند علماء البيئة الوسط الذي يحيا فيه الإنسان بما يحتويه من نظم بحرية وبرية وجوية لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته بمواردها، فإنّها تعني في الإسلام جماع المكونات الطبيعية والحضارية والصناعية والاجتماعية التي يحكمها نظام شامل من العلاقات المتفاعلة والمتكاملة القائمة على قاعدة تعبدية قيمية لسلامة الوجود البشري والطبيعي من الفساد والدمار.

من هنا يجدر بنا أن نتساءل عن المرجعية القيمية للحماية من الأخطار البيئية وصون السنن الإلهية في المخلوقات الكونية؟.

إذا كانت العلوم الفلسفية التي ركزت اهتمامها على علاقة الجنس البشري بالطبيعة فيما أصبح يسمى بـ"الفلسفة الإيكولوجية" (Ecological philosophy)، قد ربطت الأخلاق بالبيئة، وعنيت بدراسة علاقة الإنسان بالأرض باعتباره كائناً فاعلا ومتفاعلا مع بيئته، وعنصراً رئيساً في التنمية المستدامة، فإنّ الإسلام كان سبّاقاً إلى إثارة الوعي بهذه العلاقة التفاعلية بين الإنسان وبيئته، وكان حاضناً لأرقى القيم البانية للعلاقة السليمة بينهما.

إذا كان الإنسان القديم قد عاش في انسجام مع بيئته، فإنّ الإنسان المعاصر مع تقدّمه العلمي والتكنولوجي واتساع مساحة طموحه واستغلاله، قد نظر إلى البيئة نظرة العبودية، فأصبحت عنده مجرد مورد للاستغلال وليست جزءاً من عشيرته البيئية، ونسي في مراتب استعلائه علاقته القيمية بمحيطه البيئي ورسالته التعبدية والعمرانية في الأرض التي استخلفه الله فيها.



وإذا كان سبحانه وتعالى قد استخلف الإنسان في الأرض في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ (الأنعام: ١٦٥) وفضله على كثير من المخلوقات ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء:٧٠)، فإن خلافة الإنسان في الكون وتفضيله على باقي المخلوقات تجعله مسؤولاً عن صيانة خيرات الأرض، وأميناً على سلامتها، وحارساً لعمارتها بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، إلا أنّ الإنسان بحكم تفضيله طغى واستبد، وعد نفسه مالكاً لا أميناً، وسيداً لا حارساً، فمضى فاسداً في الأرض ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

ووعياً بالكبرياء الذي قد يدعو الإنسان إلى احتقار الكائنات الأخرى وتسخيرها فيما يخدم شهواته الطاغية وأنانيته المتجبرة، توقعت الملائكة من أن يفسد الإنسان بخلافته في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠).

استناداً إلى هذا التصوّر الإسلامي للبيئة، يمكننا استجلاء سلم القيم المرجعية الإسلامية الكفيلة ببناء علاقة سامية، قويمة بين الإنسان وبيئته منها ما يلي:

أ. الوعي بالغايات السامية للمخلوقات البيئية: لقد خلق الله الكون في دقة صنعه، وترابط مكوناته، وتميّز عطاءات وقدرات مخلوقاته، لغايات سامية وأهداف تعبدية إصلاحية، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).



وهذا يعني في الرؤية الإسلامية أنّ البيئة بمواردها وكائناتها الحية، الحيوانية والنباتية، خلقت لغاية مقدسة ووظيفة قيمية جديرة بالاعتبار والاحترام، مما يستدعي استناداً إلى مقاصد الشريعة الإسلامية الاستفادة من وجودها واستغلال مواردها واحترام حقوقها بمنع التعدّي عليها والإخلال بتوازناتها لصلاح البيئة وحمايتها من كل فساد مضر بها، والانتفاع بها على الوجه المأذون شرعاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة:٦٠).

ويعتبر الإسراف مظهراً من مظاهر الفساد المخل بالنظام البيئي، والمنافي للترشيد العقلاني الداعي إلى الاستغلال الأمثل والمستدام للموارد الطبيعية، يقول تعالى ناهياً عن الإسراف: ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١)، وهذا ما يقتضي إيجاد أخلاق جديدة، وقيم إنسانية مصدرها التعاليم الإسلامية التي تنظم علاقة الإنسان بالبيئة باعتباره عضواً في مجتمع المخلوقات على الأرض، يتبادل الأخذ والعطاء، التأثر والتأثير، ولا يقف منها موقف المستبد، الذي يعيث فساداً في النظام البيئي بمكوناته البحرية والبرية، يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(الروم: ٤١).

وإذا كان الكون بني على نظام قويم، وغايات سامية، ومعاني هادفة تنزهه عن العبث، واللعب في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ (آل عمران: ١٩١)، فإنه بناءً على ذلك يدعونا القرآن الكريم إلى إعمال العقل في فهم السنن الإلهية في الكون وتدبّر آياتها في الطبيعة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت:٢٠)، وفي قوله



تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

ب. مسؤولية الإنسان نحو بيئته: إن قوامة الإنسان وتميّزه بالتفوق العقلي على الكائنات الأخرى يضعه في موقع المشرف الذي تتحدد ملكيته بضوابط قيمية، تحد من غروره وفساده، ذلك أنّه إذا كان الإنسان يتفوق على الكائنات الحيوانية والنباتية بقدرة العقل، فإنّ هذه الكائنات تتفوق على الإنسان بقدرات أخرى، وبعطاءات وخيرات لا تنفد، ومن هنا كان مسؤولا في قوامته التي قال عنها تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤) عن عملية الصلاح، والخير في هذه البيئة، يقول تعالى:﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦)، ومدعواً في خلافته إلى صون صلاح البيئة التي تعتبر "أمانة" كلف الإنسان بحفظها في وظيفة الاستخلاف، يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب:٧٢).

ج. وحدة المكوّنات البيئية: لقد تنامى اهتمام الدارسين في العصر الحديث بالعلاقة بين الإنسان والأرض، فعقد مؤتمر "قمة الأرض" بالبرازيل عام ١٩٩٢، وأسس بعض العلماء حركة سماها حركة "الأرض والإنسانية" بهدف الارتقاء بالوعي البيئي الذي يعزز العلاقة القيمية الأخلاقية، بين الإنسان والبيئة، بحيث شبه بعض الباحثين هذه العلاقة "بالعلاقة بين الجنين ورحم أمه"، ورأى آخرون أنّ الكائنات البرية والبحرية وحتى المادية هي بمثابة أخوات للإنسان، مما يتوجب الارتقاء بعلاقته بها إلى أعلى مراتب القيم



الإنسانية من تفاعل وتعاطف وتعاون ومحبة، بل إلى حوار متناغم يقوم على الفهم والتفاهم، والاحترام والاعتدال في التعامل، باعتبار أنّ المخلوقات تشكل وحدة متكاملة في وحدة الكون، يقول تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وتشبيه القرآن للكائنات الحية الأخرى بالأمم، وبالإنسان، يؤكد المنشأ الطيني المشترك بين هذه الكائنات ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢)، وبقدر ما دعا القرآن الكريم إلى وحدة الغايات، واعتبار الإنسان جزءاً لا يتجزأ من البيئة مثل الكائنات الحية الأخرى، فقد دعت الفلسفات والايديولوجيات المادية المعاصرة إلى انفصال الإنسان العاقل عن الكائنات البيئية غير العاقلة، فأصبح الإنسان مقوداً بالقيم المستبيحة لكل الموارد دون رادع قيمي أو أخلاقي.

من هنا ندرك أن المشكلات البيئية التي تهدد المجتمعات والكون ليست إلا بسبب غياب الوعي بالمرجعية القيمية الإسلامية الموجهة للسلوك البيئي السليم لدى الإنسان.

تتأكد من ذلك الحاجة إلى منظومة قيمية تستند إلى احترام الإنسان للأرض، التي نشأ منها بما فيها من كائنات حية وهواء، وماء.

إن نشأة الإنسان من العناصر المكونة للأرض من تراب وماء تقتضي احترام هذه العناصر وصيانتها، وأن العيش المشترك بين الإنسان وكائنات البيئة الحية يستوجب رعاية حقوق الجار، يقول تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ (الرعد: ٤)، ومن هنا نجد تعاليم الإسلام حاثة على قيم الرحمة

بالحيوانات والنباتات، والتعاطف حتى مع الجماد بما لها من معاني ورموز سامية، فقد قال ﷺ في حق جبل أحد: " جبل يحبنا ونحبه ".

من هذه المرجعية القيمية الإسلامية تتجلى حصافة الفلسفة الإسلامية التي لاتجعل العقل حاكما وحده، ومصدراً لتفوق الإنسان على الكائنات البيئية الحية، بل تجعل "قيمة الخير" معياراً لتفوق الكائنات الحية أيضاً، مؤكدة أنّ هذه الكائنات لها قيمة أصلية نابعة من عطاء خيرها المتجدد، وبذلك يكون تفوق الإنسان لا يعطيه الحق في الحط من قدر هذه الكائنات والاستغلال المسيء لها.

وتستمد هذه المعتقدات القيمية رؤيتها من مكوّنات النظام البيئي التالية:

١ - المكون الشمولي: يرى الإسلام في البيئة منظومة متكاملة في جوهرها متعددة الأدوار والأبعاد في مظهرها، تحيا أجزاؤها بالكل ويستمد الكل بقاءه من الجزء، ومن هنا كان الإنسان في هذه الرؤية كائناً متكاملاً بمقومات مكوّناته المادية والروحية، وكانت البيئة وحدة متناغمة بعناصر مكوناتها النباتية والبحرية والحيوانية والجوية إلخ.... وبذلك اعتبر العلماء البيئة نظاماً متكاملاً من العلاقات وربط القرآن بين مختلف مكوناتها، يقول تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢).

بناءً على هذا المنظور الشمولي الذي نظر به الإسلام للبيئة يمكن القول بأنّ الأزمات والمخاطر التي تعرفها البيئة ترجع في الأساس إلى قصور في وعينا القيمي، وخلل في نظامنا الفكري الذي اعتبر مكونات البيئة أجزاء متناثرة، وعناصر منفصلة، خلافاً للرؤية الإسلامية التي ترى في أجزائها ترابطاً



واستمراراً للحياة فيها، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ (فاطر: ٢٧).

يرتكز هَذا التصوّر الإسلامي الشمولي للبيئة من عقيدة التوحيد التي يقوم عليها نظام الكون، لذا فإنه لا يمكن فهم علاقة الكون بالإنسان إلا في ضوء الإيمان بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى الذي خلق الخلائق كلها لغاية أرادها، ولقيم إيجابية في ذاتها دعا إلى احترامها وصونها.

٢- **مكوّن التوازن البيئي**: يرتبط بالرؤية الشمولية لوحدة الكون والبيئة، التوازن الذي يعد عنصراً رئيسياً من عناصر النظام البيئي، باعتباره حافظاً للعلاقات بين الكائنات وحامياً لاستمرار حياتها وبقائها، ويستند التوازن على مبدأ "الميزان البيئي" الذي تقوم في نظامه علاقات متوازنة بين مكونات البيئة، وهو إلى جانب ذلك يرتكز على مبدأ وسطية الإسلام الناهية عن مظاهر الإسراف والإفراط وتجاوز القدر المباح في التعامل مع البيئة التي سواها الخالق في نظام موزون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر: ١٩)، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (الفرقان: ٢)، ومن هنا وجب أن يكون سلوك الإنسان في تعامله مع البيئة موزوناً، استجابة لقيم القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾(الشورى: ١٧)، ويقول عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩)، ومن معاني الميزان، العدل والاستقامة، والانصاف، يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥).

ومن هذه التوازنات يمكن القول بأنّ هناك حواراً مفتوحاً بين المكونات البيئية يستمد لغة فهمه وتفاهمه من قاموس "التوازن" المعزز لقيم التعايش



والسلام والتفاعل بين الإنسان والبيئة.

٣- القدر المحدود للموارد: لقد أفضى عصر الصناعة إلى بروز تيار مفرط في استغلاله للموارد الطبيعية، مما أثار وعي المفكّرين والمسؤولين إلى محدودية الموارد الطبيعية ورافقه مفهوم "التنمية المستدامة" التي توجب الترشيد الأمثل في استغلال الموارد استجابة لاحتياجات المجتمعات في حاضرها ومستقبلها، وتعزز هذا المفهوم بعد تقرير نادي روما عام ١٩٧٠، الذي دقّ ناقوس الخطر لنفاد الموارد أمام جنون الاستغلال الجامح.

وقد نجم عن هذا السباق في الأنشطة الصناعية ارتفاع في معدل حرارة الكرة الأرضية وتراجع التنوع البيولوجي وحدوث التغيّرات المناخية، مما كان له الأثر السلبي في نقص الموارد الطبيعية التي أشار إلى محدوديتها القرآن الكريم ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد:٨) ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض وَلَكِن يُنَزِّلُ بقَدرٍ ما يشاء﴾ (الشورى:٢٧)، ومن هذه الآيات وغيرها، ندرك تنبيه القرآن الكريم إلى محدودية الموارد الطبيعية غير المتجددة التي أكّدها العلم الحديث، وقد أصبح معروفاً اليوم أنّ كميات الماء محدودة، إلى جانب الأضرار التي تلحق بالمحيطات نتيجة تسرب النفط في مياه البحار، مما يعد إفساداً للمجال البيئي الطبيعي الذي أشار إليه تعالى في قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الروم:٤١).

ومن هنا يرى علماء البيئة أنّه في مقدمة المشكلات البيئية التي تهدّد أمن الإنسان وسلامته، نقص الموارد المائية الناتج عن الإسراف والتبذير في الاستخدام، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في



مواضع كثيرة، حيث نهى الرسول ﷺ عن تلويث الماء وإفساده، وعن التبوّل في الماء الراكد، ودعا إلى الوقاية من الملاعن الثلاثة.

وإذا كان العلم الحديث قد أكد الأهمية القصوى للماء في حياة الإنسان، حيث أبرز أنّ ٧٥٪ من مكوّنات جسم الإنسان من الماء، فإنّ القرآن الكريم اعتبره مصدراً للحياة فوق هذه الأرض، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء:٣٠). وحتى الكائنات غير العاقلة تهتز انتعاشاً ونماء بالماء ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج:٥)، وبناء على هذه الأهمية الاستراتيجية والحيوية للماء وأثرها في الحياة البيئية والبشرية، وضعت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) "استراتيجية تدبير الموارد المائية في العالم الإسلامي" التي اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي العاشر المنعقد في ماليزيا عام ٢٠٠٣ .

وما يقال عن الماء يصدق على الحيوانات والنباتات والمعادن التي تستوجب على الإنسان الترشيد في استغلالها وعدم هدر مواردها، وتدعوه إلى تغيير سلوكه وفكره البيئيين، استناداً إلى المرجعية الإيمانية والقيمية التي تعتبر مكوّنات البيئة كلها نعمة من نعم الخالق التي وجب شرعاً وعقلا وحضارة حمايتها والمحافظة على مواردها.

٤- **التنوع البيولوجي**: تتميز الحياة البيئية بالتنوّع في أشكالها وأنواع كائناتها التي تعتبر ضرورية لاستمرار الحياة، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ (النور:٤٥). وإلى جانب التنوّع الحيواني يشير القرآن الكريم إلى



اختلاف النباتات، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء:٧). ويعتبر التنوّع الحيوي عنصراً رئيساً في منظومة القيم الشمولية والتوازنية التي تجعل الكون بسمائه والأرض بمكوّناتهما وحدة متناسقة، يعد الإخلال بعناصرها إفساداً للصلاح وللنظام البيئي القويم، مما يفضي إلى القول بأنّ الإنسان الذي أصبح في المفهوم التنموي المادي يدور كالآلة للاستهلاك والإنتاج، قد نسي المعاني السامية التي خلق من أجلها مع الكائنات الأخرى في هذا الكون، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأنّ هناك خللا قيمياً في المناهج التنموية المعاصرة التي تهدد بحرب وصدام بين الإنسان والطبيعة، ولعلّ غياب الحاكم القيمي من محكمة الضمير البيئي للإنسان، وافتراس البيئة الصناعية للبيئة الطبيعية ما دفع بقلق الإنسان المعاصر إلى التفكير في العودة إلى رحم الطبيعة الدافئ عند جان جاك روسو عندما أرجع تعاسة الإنسان إلى "تغلغل الإنسان الصناعي في داخل الإنسان الطبيعي".

٥- **النظام البيئي الحضاري**: إذا كان النظام البيئي الحضاري يتكون من المكوّنات العقدية والثقافية والفنية والقيمية والقانونية، إلخ... فإنّ الإنسان باعتباره كائناً متعدد الأبعاد لا يحيا بالغذاء والهواء والماء فقط، بل إنّه بالرغم من المؤتمرات التي عقدت والتنظيمات التي وضعت والاعتمادات التي رصدت، مازال النشاط البشري المقود بشهوة الاستغلال والأنانية المتطرّفة مبعثاً لتلوث الجو والبحر والأرض، ومازالت النظريات الفكرية العبثية والمعتقدات الإيديولوجية المادية والقيم السلبية المادية تهدد البيئة الحضارية للإنسان المسلم بالتلوث الثقافي المهدد للهوية الحضارية والذاتية الثقافية المكونتين للبيئة الحضارية، ومن هنا وجب تحصين هذه البيئة الحضارية



والثقافية بحصون قيمية أبرزها ما يلي:

أ. **الحصون التربوية**: تتأكد الحاجة أمام تنامي السلوك البيئي المنحرف إلى رسائل تربوية تنهض بها مؤسسات التربية، الوالدية، والأسرية، والنظامية، وغير النظامية، للتربية على القيم التي تعزز التكامل بين الجانب التربوي القيمي والجانب التعليمي المعرفي لتعزيز الأخلاقيات البيئية الحامية لسلامة وصلاح البيئة، ويقتضي هذا البعد التربوي القيمي في تعامل الإنسان مع البيئة العمل على محاربة الأمية البيئية مع الأمية الأبجدية، والوظيفية والحضارية، ولن تتحقق هذه الغايات إذا لم يبن الإنسان من الداخل بفعل التربية، ويربى على السلوك السليم نحو بيئته استناداً إلى فلسفة التغيير الإسلامية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١)، كما يقتضي دمج مفاهيم البيئة في المناهج التعليمية والبرامج الإعلامية لتحقيق هذه الغايات.

ب. **الحصون الثقافية**: إذا كانت الثقافة جماع ما ينتجه الإنسان ويعتقده من مفاهيم وتصوّرات، وما يمارسه من مواقف وتوجّهات، فإنّها حصون للذات من السقوط، ومقوم قيمي بان لعمارة الكون وصلاح المجتمع. ومن هنا وجب الوعي في هذه المنظومة الثقافية الإسلامية بآفات التلوث الثقافي الماسخة لقيم الخير والسلام والتعايش المنظمة للعلاقة الإيجابية بين الإنسان والبيئة، وموازاة مع التلوث الفكري الناجم عن تأثير التيارات العلمانية والعبثية والمادية التي تنزع المعاني والقيم السامية عن الكائنات والمكوّنات البيئية يهدد التلوث اللغوي سلامة البيئة اللغوية للمجتمعات الإسلامية، مما



يضعف قيم المواطنة وأخلاقيات الولاء للبيئة التي يحيا فيها الإنسان.

ج. **الحصون الجمالية**: إذا كان التقدم بأبعاده العلمية والتكنولوجية قد فتح عين الإنسان للبحث عن الموارد المادية في الكنوز البيئية، فإنّ هذه النظرات التي حصرت رؤيتها في الغايات المادية قد أضعفت قيم الجمال في نظرته للكون والبيئة، فلم يعد اليوم الإنسان كالإنسان القديم الذي أحب الطبيعة واحترم شأن البيئة، ورأى في مظاهرها صوراً للصفات الإنسانية، حيث نجد الشاعر البحتري يقول:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً   من الحسن حتى كاد أن يتبسما

تؤكد هذه الأشعار حاجتنا في المناهج التعليمية والكتب المدرسية والرسائل الإعلامية إلى التربية على القيم الجمالية التي تصبغ نظرة المتشائمين في الحياة بالبياض والتفاؤل، وتستجلي مظاهر الجمال في هذا الكون الذي خلق في أبدع نظام وأجمل صورة، باعتباره مخلوق الخالق الجميل والذي يحب الجمال، ومن هنا كان الجمال قيمة تنبع من داخل الإنسان لتعكس في مرآتها جمال الكون والبيئة وفي ذلك يقول إيليا أبو ماضي داعياً إلى محبة الأرض وفتح العيون للتملي بجمال الطبيعة:

إن شر الجناة في الأرض نفس   تتوخّى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود وتعمى   أن ترى فوقها الندى إكليلاً
والذي نفسه بغير جمال   لا يرى في الوجود شيئا جميلا

يكشف هذا الوعي البعد الجمالي لمكونات الطبيعة التي تشكل في



أشكالها وألوانها لوحة فنية لا يقدر على رسمها إلا خالق مبدع هو الله، إلا أنّ آفات التلوث التي ملأت الكون والضجيج الذي صك الآذان، والغيوم التي حجبت عن عيوننا جمال الكون، والقلق النفسي الذي عشش في حياة الإنسان بفعل الفلسفات والحياة المادية التي جردت وجود الإنسان والكون من المعاني المقدسة، قد أعمى الإنسان عن إدراك المظاهر الجميلة ذات المعاني والرموز السامية، يقول ميخائيل نعيمة:

إذا سماؤك يوما تحجبت بالغيوم

أغمض جفونك تبصر خلف الغيوم نجوما

د. الحصون التشريعية: موازاة مع الدعوة إلى تجريم المسيئين للقيم والأديان، وجب سن قوانين رادعة للاعتداءات الضارة بالنظام البيئي، وواقية من التلوث واستنزاف الموارد المهددة للحياة البيئية، وهذا ما جعل المؤتمرين في قمة الأرض بالبرازيل يبدأون مؤتمرهم بدقيقتي صمت تعاطفاً مع هموم الكوكب المريض، وهو ما دعا الغيورين على مصير العالم إلى الدعوة لعقد اتفاقيات بين الدول لتوفير الحماية القانونية للهواء والماء ومكافحة أنواع التلوث، منها اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار لعام ١٩٨٢ .

وبالرجوع إلى الشريعة الإسلامية نجد أنّ تعاليم الإسلام كانت سباقة إلى سنّ قواعد شرعية للعلاقة بين الإنسان وبيئته استناداً إلى حقوق الله المتجلية في الإيمان بوحدانيته، وبأنّه الخالق والمالك، وحقوق الآخرين المتجلية في حقوق المخلوقات والكائنات الحية المرتكزة على قاعدتي "لا ضرر ولا ضرار" و "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح" ، فقد غفر الله لامرئ



سقى كلباً كاد أن يموت من العطش وعذب امرأة حبست هرة فما هي أطعمتها ولا تركتها تعيش من خشاش الأرض، ومنها حقوق النفس المتجلية في حفظ النفس من الأضرار المهلكة وكبح جماح شهواتها المفسدة.

ومن ثمّ نجد الإسلام حاضناً لأرقى القيم القانونية والأخلاقية التي تستهدف دفع الضرر عن الإنسان والبيئة والتعامل مع مخلوقاتها تعاملا رشيداً، حكيماً، استناداً إلى القواعد الشرعية البانية لمصالح العباد والبلاد.

وإذا كان الله قد سخّر للإنسان ما في الكون من مخلوقات فإنّه جعل ملكيته محدودة بالانتفاع المشروع الذي يحفظ حق الحياة، ومنضبطة مع الناموس الإلهي في هذا الكون، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان: ٣٨-٣٩).

نستخلص مما سبق أنّ المجتمعات الإنسانية اليوم بحاجة أكثر إلى مراجعة منظورها البيئي، وتقويم علاقتها بالمخلوقات الكونية، للتحاور معها على أساس الاحترام والمحبة والوعي بالقيم والغايات السامية لوجودها، يقول تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية:١٧-٢١).

وتقتضي هذه المراجعة إيجاد "أخلاق وقيم بيئية جديدة" تستند إلى تعزيز المفهوم العمراني لخلافة الإنسان في الأرض، وترسيخ الأبعاد القيمية في النشاط الاجتماعي، والوعي بالمعاني المقدّسة للمخلوقات الإلهية في الكون، والإيمان بوحدانية الله وبوحدة مكوّنات عناصر الكون التي تشبه إلى حدّ كبير وحدة التكوين البشري للمؤمنين، كما نجد في الحديث النبوي الشريف



" مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " (أخرجه البخاري).

بناءً على ذلك، نستطيع القول بأنّ المجتمع البيئي الذي أشار إليه تعالى " بالأمة " يمثل وحدة متناغمة بين عناصره ومكوّناته المائية والهوائية والنباتية والحيوانية والبشرية، فإذا أصيب عنصر بضرر، انتقلت آفاته إلى الأعضاء البيئية الأخرى، تأكيداً لقانون " التوازن " الذي يقوم على التفاعل والتأثير بين المكوّنات البيئية المختلفة.

هـ - الحصون الحوارية: لايشك أحد في أن الحوار مكون ثابت في منظومة العلاقات؛ سواء أكانت بين الكائنات البشرية أم بين الإنسان ومكوناته البيئية، الجوية والمائية والبرية والحيوانية والنباتية، مما يقتضي الفهم الواعي للغتها والتفاعل المتحضر مع عناصرها، باعتبار أن الحوار مع الآخر - وبالتالي مع البيئة - يعد مطلباً شرعياً، وواجباً أخلاقياً، وضرورة إنسانية، لحفظ صلاح الكون من الفساد وأمن الإنسان من الاعتداء والاستغلال.

ويقتضي الحوار الهادف إلى تعزيز قيم الصلاح والخير والسلام بين الإنسان والبيئة، لحفظ صلاح الكون من الفساد وأمن الإنسان من الاعتداء والاستغلال.

ويقتضي الحوار الهادف تعزيز قيم الصلاح والخير والسلام بين الإنسان والبيئة، بالاستناد إلى قواعد قيمية مهمة، منها:

١ - الفهم الواعي للبيئة:

من المؤكد أن الجهل بقوانين البيئة وحقوقها ونظمها، وكنوزها، وأسرار جمالها، ولغاتها، وألوانها، عامل من عوامل فساد العلاقة بين الإنسان وبيئته، ذلك أن الإنسان عدو لما جهل، وما لم يبدأ الإنسان بفهم البيئة ويتربى على

العيش بسلام معها، مع إدراكه ببصره وبصيرته غاية وجودها ووظيفتها، فإنه يبقى أمامها مجرد آلة، لا قلب يفقه، ولا عين تبصر، يقول تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٧٩).

ويعتبر الفهم الواعي للبيئة والتفاهم معها مدخلاً رئيساً لاحترامها، ذلك أنه ما لم يحترم الإنسان صفاء هوائها، ونقاء مائها، وحياة كائناتها، وترشيد مواردها، فلن يقوم حوار راق، لإحلال التعايش محل الصدام، والإحسان محل العدوان والاستهتار، يقول تعالى داعياً إلى قيم الإحسان: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧).

٢- الاعتدال الحامي للرصيد البيئي:

تعتبر قيم الاعتدال والوسطية من مقومات الحوار الناجح مع البيئة، ذلك أن من مظاهر تأزم العلاقة بين الإنسان والبيئة، غلوه في استغلال مواردها، ومبالغته في استعبادها ، وغطرسته في احتقارها، فلم تعد الطبيعة مع استعلائه وغروره عنصراً من نظامه البيئي السليم، وجزءاً من أجزاء وجوده، بل أصبحت «عبداً مملوكاً» تحكمه علاقات العبودية السادية التي لا تعتبر الاستخلاف أمانة، ولا المحافظة على خيراتها عبادة، وفي ذلك يقول تعالى عن البشرية التي أفسدت وكفرت بنعم الله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل:١١٢).

ومن هنا يمكن القول بأن البشرية إذا لم تبادر إلى نبذ العنف، والإرهاب والأنانية، وإلى مراعاة حقوق البيئة، وتحقيق العدل والتواضع والتعايش، وبناء قضاء قيمي حام للعيش الآمن المشترك مع البيئة؛ فإن الإنسانية ستواجه حتماً «حرباً بيئية» مدمرة ضدها.



٣- المحافظة على التنوع البيئي:

الاختلاف سنة إلهية يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨)، ومن هنا كان التنوع البيولوجي غاية أرادها الله في الكون لحفظ توازنه وإثراء محيطه، وكان من شروط الحوار الباني لقيم التعامل الإيجابي والانسجام المتناغم مع البيئة المحافظة على التنوع البيئي الذي يعد مصدراً من مصادر الثروة البيئية والخبرات الطبيعية، وموازاة لمفهوم «التنوع الثقافي» الذي يحترم الخصوصيات الثقافية النابعة من التعدد، فإن الحياة البيئية بما تختزنه من تنوع في كائناتها وتعدد في أشكالها تقتضي إيجاد بناء قيمي وميثاق أخلاقي حول «التنوع البيولوجي» أسوة بميثاق «التنوع الثقافي» الذي أعلنه المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة المنعقد في الجزائر عام ٢٠٠٤ واتفاقية اليونسكو لحماية التنوع الثقافي.

ومن هنا كان الإيمان بحكمة الخالق في الاختلاف والتنوع عاملاً من عوامل الاحترام، وبالتالي التفاهم والتحاور مع مكونات البيئية المختلفة التي أوجدها الله لغاية الصلاح والخير والثراء في هذا الكون، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)، ويقول أيضاً: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨).

الأسرة والاخلاق في المشترك الإنساني

د. علي أوزك
رئيس وقف دراسات العلوم الإسلامية





مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن موضوع «الأسرة والأخلاق في المشترك الإنساني» موضوع هام وكبير، لأن الأسرة وحدها تحتاج إلى كلام كثير، كما أن الأخلاق أيضاً موضوع واسع يحتاج إلى بحوث كثيرة .

وأنا أبدأ بالأسرة فاكتب بحثاً مختصراً بإذن الله تعالى.

الأسرة

ما معنى الأسرة لغة واصطلاحاً؟

الأسرة لغة: الدرع الحصينة، والأسرة أهل الرجل وعشيرته، وكذا الأسرة الجماعة يربطها أمر مشترك ، والجمع (أُسَر).

و الأسرة اصطلاحاً: جماعة الأقرباء القريبة مثل الأب والأم والأولاد الذين يعيشون مع بعض في بيت واحد.

ما هي الأسرة والعائلة

الأسرة أو العائلة مجموعة من الناس يعيشون في بيت واحد غالباً. وهذه المجموعة بطبيعة الحال تتشكل من الأب والأم والأولاد. وهذه المجموعة هي الحجر الأساس لتكوين الأسرة.



أهمية الأسرة والعائلة

الأسـرة بالنسـبة للأولاد مـهـمـة جـداً وجديرة بالاهتمـام. لأن الأولاد محتاجـون إلى الرعاية مـادياً ومعنوياً. كـما تعلـمون أن الكائنات الحية تحتاج إلى عائلـة مهمـا كانت الظروف. فكل الحيوانات تعيش في نظام عائلي، كـما أنهـا تملك غرائز تُقَرِّب الذكـر من الأنثى، وهذا نظام الطبيـعة؛ لأن الله تعـالى خلقهم على هذه السلوك.

و ذلك أن بين الذكر والأنثى علاقة شهوية تجعل الواحد يتقرب من الآخر، وهذه الغـريزة الشـهـوية هي البـذور الأولى لتـأسيس بنـاء الأسرة. وأمـا الغـاية الكبرى والهـدف المرجو إليه من الاجتماع الجنسي فهو تنشئة وتربية الأولاد وإدامة كل جنس نسله في هذه الدنيا. وعلى هذا الأساس يتشكل نظام العائلة أو الأسرة. ونظام العائلة يتغير باستمرار، كما أن الحياة تتغير وتجدد دائماً.

إن الأسـرة تكثر بـسبب تكاثر الأولاد، وهذا - طبـعـاً - يكون بالزواج. ثم إن الأسرة تـنتهي بوفـاة الآباء والأمهـات، لتنشأ أسـرة جديدة. لذلك فـالأسرة كـالآلة المتحركة تتحرك دائماً. فكلما أفلت عائلة تظهر عائلة أخرى، وهكذا تدوم الحياة.

كـمـا يقـال:العـالم يـتـغـير ويتكاثر، ويغيب ويظـهـر، ويأتي واحـد ويذهب الآخر؛ وأيضـاً تتغـير المواسـم، فـيأتي الصـيف بـعـد الشـتـاء، والخـريف بعـد الصـيف، والربيـع بعـد الشـتـاء. وهـذه التـغـيرات والتـبـدلات، الـكثـرة والقلة، الحياة والموت؛ كـمثل حيـاة الإنسـان، يموت واحـد ويلد الآخر، ليسـد المولود الجديد مكان مـن يموت، كـمـا أن الأسـرة تنقـرض ، لتـأتـي أسـرة جـديدة تسـد مكان الأسرة الذاهبة.



وظائف الأسرة

تتلخص وظائف الأسرة في خمسة عناصر بالاختصار:

الأول: تنشئة وتربية الأولاد أي تنشئة وتربية الأجيال .

الثاني: إشباع الحاجات البيولوجية الطبيعية الكامنة في الإنسان بالطبع، وهي الشهوة.

الثالث: الحب والصداقة والرعاية.

الرابع:التعاون مادياً ومعنوياً وأخلاقياً.

الخامس: الدفاع تجاه كل ما يسيء ويضر أفراد الأسرة .

١- الوظيفة الأولى: تنشئة الأجيال

إن الوظيفة الأولى والأهم لمؤسسة العائلة هي تنشئة الأجيال .وهذه الوظيفة هي في الحقيقة بالنسبة إلى الكائنات الحية وظيفة طبيعية. ولا يتحقق تواصل النسل البشري وتواصل نسل الحيوانات الأخرى على وجه الأرض إلا بهذه الطريقة.

وإذا نظرنا إلى الظاهرة من زاوية أخرى؛ فإننا سنكون قد وفّينا حق الأبوة والبنوة وأيضاً وفينا الحق الإنساني المستوجبين علينا تجاه والدَينا الذَين ربّيانا.

وبالنسبة إلينا فإن الجانب الأهم في الزواج وبناء الأسرة هو الإيفاء بحق والدينا وكذلك تنشئة الأجيال التي ستخْلفنا من بعدنا. وإن لم يتحقق ذلك كما ينبغي كذلك فإن مستقبلنا سيكون في خطر.



٢ - الوظيفة الثانية : الحاجة البيولوجية

إن سدّ الحاجة الطبيعية المعروفة بالشهوة ذو صلة بدوام النسل. ذلك لأن الخالق جل وعلا قد أوْدع في كلاَ الطرفين من الذكر والأنثى هذه القوة؛ كما هو الأمر لدى كل الحيوانات وذلك لأجل الحفاظ على تواصل النسل، والهدف واحد، لكن الإنسان وللأسف الشديد يتصرف في استخدام هذه الظواهر الطبيعية، ويذهب إلى طرق أخرى غير صحيحة وغير مشروعة.

و هنا نريد أن نلفت أنظار الناس إلى خطر الأسرة في العالم الجديد. ففي العالم الغربي اليوم تنهار مؤسسة الأسرة بسبب الحياة الشهوية بدون زواج، وهذا الطراز من الحياة يأتي بضررين كبيرين :

الأول : انهيار نظام الأسرة، وبهذا تصعب تربية وتنشئة الأولاد، ويحرم الطفل من حب الأبوين ورعايتهم.

الثاني : انتشار الفحش والفساد في المجتمع، وهذا يضر الإنسانية وينقص من كرامة الإنسان ويقل نسل البشرية.

٣-الوظيفة الثالثة : الصداقة:

الإنسان حيوان اجتماعي بالطبع. وهذا يُثبت أن الإنسان في حاجة إلى مساعد يساعده وحام يرعاه في الحياة، وصديق يوانسه؛ ذلك لأن للإنسان مجموعة من الأحاسيس والمشاعر كالمحبة والكراهية لا يمكن إشباعها إلا بالصداقة. وابن آدم يبحث بطبعه عمّن يشاركه في الأفراح والأتراح. فالأسرة هي الواسطة الوحيدة التي تعطي هذه الفرصة للأفراد.



٤-الوظيفة الرابعة : التعاون:

يحتاج الإنسان إلى التعاون لتوفير الاحتياجات اللازمة للحياة. وكما هو معروف فإنه من غير الممكن أن يغطّي الفرد كل احتياجاته بنفسه. وخصوصاً في هذه الحياة المعاصرة؛ فهذا مستحيل تماماً. ذلك؛ لأن الإنسان يختلف عن بقية الحيوانات من حيث طريقة العيش. وخاصّة أن حاجة الإنسان إلى التعليم والتعلّم لا يمكن أن تُسدّ إلا باستعانة الإنسان بإنسان آخر. وبدون الحاجة إلى الآخر فإن المتطلبات المادية والمعنوية للإنسان لا يمكن تلبيتها أصلاً. وهكذا فإن الإنسان محتاج إلى غيره في هذه الأمور؛ وخصوصاً في فترة الطفولة.

٥-الوظيفة الخامسة : الدفاع:

إن دفاع الإنسان عن نفسه ضد الأخطاء الخارجية والداخلية مسألة جدّ مهمّة. إذ يدافع أفراد العائلة عن بعضهم بعضاً متّحدين فيما بينهم ومتساندين في المصائب مثل الجوع والمرض والآفات الطبيعية.

وتحتل المحبّة المتبادلة مكانة عظيمة في حياة الإنسان. فحب الوالدين والأولاد والإخوة والأقارب؛ كل هذه الأمور تدخل في باب الدّعم والدفاع المتبادلين.

و هنا نضيف النسب العائلي؛ فإن النسب ذو أهمية كبيرة، ومعرفة النسب تعطي الإنسان شرفاً ووقاراً . لأن كل إنسان له الحق أن يعرف آباءه وأجداده .

إذا ضعفت المؤسسة العائلية ضعف نسب الناس، وهذا يؤدي إلى الاختلافات الكثيرة .

متطلبات تواصل مؤسسة العائلة

تنشأ نواة العائلة من اجتماع رجل وامرأة عن طريق الزواج. ويزداد حجم



العائلة عن طريق ولادة الأطفال. وإن العنصر الأهم في توجيه العائلة ونموها ودوامها دون فساد هو الرجل، الذي كان زوجاً وأباً في العائلة.

وينبغي على الرجل أن يكون متسامحاً ووقوراً، فلا يمكن للرجل أن يقول: «أنا حاكم مطلق في العائلة» بل عليه أن يستشير أفراد العائلة في كل المسائل التي تتعلق بمشاكل الأسرة .

لكن -وللأسف -لم يتم العمل المفيد الوسط بآراء علماء الإسلام في هذه المسألة. والآية الكريمة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣٤) قد فسرت -خطأ- على أنها تجيز للرجل استعمال الشدة في الأسرة ، وهذا الفهم والاجتهاد غير سليم، ولا يستند على الأحاديث الواردة في هذه المسألة.

وسادت فكرة استخدام الرجال العنف إزاء النساء على اعتبار أن معنى القوامة هي القوّة. والحال أن المسألة ليست كذلك. ودعك من استعمال العنف مع النساء فعلى الرجل أن يفهم المرأة ويتفاهم معها، ويعطيها القيمة التي تليق بها ، وأن يقدّر موقعها المهمّ داخل الأسرة وأن يساعدها في كل الأمور.

وإنّ هذا النوع من المعاشرة هو المعاشرة الصحيحة والمعاملة الحقة كما هو معلوم من السنن العملية لنبيّنا عليه الصلاة والسلام.

ومن الحقائق المهمّة أن الرجل الذي ينتظر فهماً وتفهماً من زوجته، لا يعمل من طرف ذاته، لا يكون زواجه ناجحاً. ذلك لأن الجانب المهمّ والفطري في المرأة هو كونها أمّاً، ولذا فمن العادي أن تتصرّف المرأة أحياناً مع زوجها بقسوة أو تخاطبه بحدّة. فعلى الرجل أن يقدّر المرأة في هذا الصدد ويصبر ويتفهّم صعوبة وضعها كأمّ تلد وتربّي وتنشّئ الأطفال.



وإذا كان الحال كذلك، فإن انتظار الرجل من زوجته أن تفهمه وتعامله بالتفاهم؛ فإن هذا يؤدي إلى المشاجرة ، بل يجب على الرجل أن يعاملها في هذه الحالة كما عاملها الرسول ﷺ، لأنه إذا تصرّف معها بشدّة وعنف بسبب تصرّفات خشنة، فيتسبب ذلك كله أولاً في عدم التفاهم داخل الأسرة ، ثم ربما في تشتّت العائلة .

وما يجب فعله في هذه الحال هو أن يقابل الرجل زوجته بنوع من الحب والتسامح والليونة وبألفاظ لينة تجلب حب المرأة وودّها مهما تصرفت معه بخشونة، لأن ذلك يليق بها كأمّ.

وإذا عاشر الزوج زوجته معاشرة حسنة فإنها ستحبّه بقدر حبّها لطفلها.

ثم إننا إذا نظرنا إلى القضية من زاوية إسلامية فإن النبي ﷺ قال: ((خياركم خياركم لنسائهم)) وقال عليه السلام في خطبة الوداع: ((واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً)).

وقال تعالى في كتابه الكريم بخصوص النساء اللائي يُخشى منهنّ نشوز : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً أن اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا أن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا أن اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً (٣٥)﴾ (النساء).

في هذه الآيات ذكرت أشياء منها ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء﴾ومنها



﴿وَاللاَّتي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعظُوهُنَّ وَاهجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ومنها ﴿فإن أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾.

أولاً : ليس المراد من القوامة على النساء استعمال الشدة والعنف؛ وإنما المراد الرعاية وحسن المعاشرة وحفظهن من كل ما يضرهن ويسيء إليهن. والدليل على ذلك الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ.

ثانياً : ليس المراد من قوله: ﴿فاضربوهن﴾ الضرب الحقيقي. لأن الرسول ﷺ أفاد في حديثه الذي رواه ابن ماجه في سننه في كتاب النكاح عن عبد الله ابن زمعة قال : خطب النبي ﷺ، ثم ذكر النساء فوعظهم فيهن ثم قال : ((علام يجلد أحدكم امرأته جلد الأمة، ولعله يضاجعها من آخر يومه)). وقال في تكملة الحديث : ((لا تضربوا إماء الله)) (ابن ماجه، كتاب النكاح ٥١).

عن معاوية قال : أتيت رسول الله ﷺفقلت: ما تقول في نسائنا ؟

قال : ((أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تكسون، ولا تضربوهن ولا تقبحوهن)) (أبو داود كتاب النكاح ٤٢).

وجاء أيضاً في سنن أبي داود : ((لا تضربوا إماء الله)) .

و عن عبد الله بن زمعة عن النبي ﷺ قال : ((لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم)) (البخاري كتاب النكاح ١٣٤).

من المعاني التي نقرأها في النصوص أن طلب الرجل المعاشرة، يفترض في الرجل أن يُليّن الجو المتوتّر بين الزوجين وأن يبعد شبح الخلاف. وما نريد أن نقوله هنا وهو أنه في حال انعدام التفاهم بين الزوجين يتحتم على الرجل أن



يتفهّم الموقف لا المرأة. ذلك لأنها أثقل حملاً في الحياة العائلية ، فرعاية الأطفال وتنشئتهم على عاتق المرأة. كما أن المرأة باعتبار خلقتها وانشغالها الدائم بالأطفال ربما يجعلها تتصرف مع زوجها كما تتصرّف مع أطفالها.

إن الأم هي التي تتحمّل العبء الأكبر خصوصاً في بناء عش الزوجية وتتحمل مسؤوليات كبيرة في تماسك العائلة؛ لذا فإن إحساسنا بقيمتها والتسامح مع بعض سلوكها والتظاهر بالحب لها من مستلزمات الإنسانية والأبوّة في الواقع نفسه.

وبالنظر إلى الإيمان والفهم الإسلامي لوجود كل الكائنات الحية في هذه الحياة الدنيا نرى أنها أمانة أودعها الله الإنسان، ونظرا لوجود الإنسان المادي والمعنوي الذي يحمل قيماً ومسؤولية فينبغي له أن يؤدي هذه الأمانة وأن يحفظها من كل ما يضر الأمانة ويسيء إليها. وهذه تدل على أن للإنسان وظائف تجاه وجوده الذاتي، وكونه عاقلاً ومسؤولاً.

وهذه الوظائف تنقسم إلى ثلاثة أقسام عامة:

١- العبودية الخالصة للخالق في الحقيقة

وفي واقع الأمر إن أكبر وأعظم وظيفة للإنسان هي العبودية لله تعالى؛ إلا أن الشرط الأول لأداء هذه الوظيفة كاملة وغير منقوصة هو العيشة الصحيحة وسلامة الإنسان عن الأمراض والعلل. لذا قال رسول الله ﷺ: ((سلوا الله العافية؛ فإنه لم يعط عبد شيئاً أفضل من العافية بعد اليقين (أي الإيمان)، وعليكم بالصدق والبر فإنهما في الجنة، وإياكم والكذب والفجور



فإنهما في النار)).

وفي رواية أخرى : ((أيها الناس ! سلوا الله المعافاة؛ فإنه لم يؤت أحد مثل يقين بعد معافاة، ولا أشد من ريبة بعد كفر، وعليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر، وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور، وهما في النار)) (مسند أحمد بن حنبل مجلد ١ ص ٨).

إن الرسول ﷺ الذي أعطى أهمية كبرى لحفظ البدن من الأمراض ومنع تكليف العبيد ما لا طاقة لهم، ولو كان هذا من العبادات والطاعات، لأنه قال: ((صوموا تصحوا)).

عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظُلّل عليه فقال: ((ما هذا؟))، فقالوا: صائم فقال: ((ليس من البر الصوم في السفر)) (البخاري كتاب الصوم ٥٤) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فصام حتى بلغ عُسفان، ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليريه الناس، فأفطر حتى قدم مكة، وذلك في رمضان فكان ابن عباس يقول: ((قد صام رسول الله ﷺ وأفطر، فمن شاء صام ومن شاء أفطر)). (البخاري كتاب الصوم ٥٥) .

وهذه الأحاديث تدل على أن الإسلام دين يسر وسماح كما جاء في القرآن: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).



ويظهر من هذه الأحاديث والآيات أهمية الصحة والعافية، فبدون الصحة والعافية لا تتحقق مسؤولية الإنسان من جهة عقله وتكليفه.

إن التكليف والمسؤولية على العقل، ولتحقق مسؤولية العقل شروط، وهي السلامة من الأمراض والعلل. لأن التكاليف تجرى بالبدن، والبدن يتحرك ويعمل بالصحة والعافية ، ومن هنا نفهم ما قاله الرسول ﷺ.

وحفظ الصحة والعافية أولاً وقبل كل شيء يعتمد على المعيشة العائلية . لأن السلامة من الأمراض والعلل تبدأ أولاً بالأب ثم بالأم ،ثم برعاية الطفل، ثم بتعليم الأولاد وتربيتهم ثم تتدخل البيئة في التعليم والتربية . والمؤثر الحقيقي والموجه الصحيح والمرشد الرشيد في نشوء الإنسان بالصحة والعافية مادياً ومعنوياً هو العائلة والأسرة.

٢- وظيفة حفظ الوقار وعزة النفس

إن الإنسان أكمل وأشرف المخلوقات، فالله سبحانه وتعالى أفاد هذه المعاني في القرآن: ﴿وَالتِّين وَالزَّيْتُون (١) وَطُور سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَد الأَمين (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْويم (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافلينَ (٥) إِلاَّ الَّذين آَمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَم الْحَاكمينَ (٨)﴾ (التين).

وقال الرسول ﷺ في حق الإنسان الذي يحفظ شرفه ووقاره : ((المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة)) (سنن ابن ماجه كتاب الفتن٦) فعلى هذا فإن المؤمن يجب عليه أن يحمي شرفه ووقاره وعزة نفسه، لأن الله



تعالى خلقه في أحسن تقويم، مستقيم القامة، يستعمل يديه، ويعرف كل شيء بعقله. لذلك حرّمت نفس الإنسان وماله.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد)) (البخاري، كتاب المظالم ٥٢)

فحفظ الوقار وعزة النفس وظيفة مهمة جداً، لأن الوقار وعزة النفس من تمام شخصية الفرد.

٣- وظيفة الإنسان في كسب الفضائل

نظراً لأن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ؛ فإنه يجب عليه أن يكسب فضائل تليق به.

الأول: هو الإيمان. أهم شيء في حياة الإنسان، هو الإيمان بالله تعالى والعبادة له، كما جاء في القرآن: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦).

الثاني: العلم. كان من أهم وظائف الإنسان التعلم والتعليم والتربية بسبب منح الله تعالى الإنسان العقل. ثم إن الإنسان بدون التعليم والتربية لا يكون أعلى من مستوى الحيوانات. الوصف المميز الذي يميز الإنسان عن الحيوانات هو العلم فبدون العلم يكون مستوى الإنسان كالحيوان ؛كما نرى ذلك في القبائل الابتدائية التي تعيش في الغابات.

الثالث: العبادة. وهي أهم فضيلة للإنسان باعتبار أنها شكر وحمد للخالق



الرابع: فضيلة الخلق الحسن. قال الرسول ﷺ : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)).

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال كان إذا قام إلى الصلاة قال: ((وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت. أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت. لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك إنه بك وإليك تباركت وتعاليت. استغفرك وأتوب إليك))...(مسلم كتاب المسافرين مجلد ٦ / ص ٥٧/ ٥٨).

الخامس: العمل وكسب ما يحتاج إليه الإنسان من الرزق الحلال. فإن الله تعالى أعطى الإنسان العقل ليعمل ويكسب رزقه. وأهم وظيفة بعد الإيمان وقبل التعبد لله تعالى ؛ العمل والكسب. لأن العبادة لا تقبل إلا إذا كان كسب الفرد حلالاً. والكسب الحلال إنما يكون بعمل الإنسان وجهده، ولذلك الكسب الحلال هو صورة من التعبد والعبادة.

الأخلاق في العائلة

الخُلُق ؛ حالة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر أو روية، وجمعه الأخلاق.(المنجد)



و علم الأخلاق أحد أقسام الحكمة العملية ، ويسمى أيضاً الحكمة الخلقية. ويقال : علم الأخلاق علم موضوعه أحكام قيَمية تتعلق بالأعمال التي توصف بالحسن أو القبح.

الأخلاقي : هو ما يتفق وقواعد الأخلاق أو قواعد السلوك المقررة في المجتمع (معجم الوسيط).

و السلوكيات التي لا تتفق مع القواعد المقررة في المجتمع تسمى «لا أخلاقيّ ».

كما تعلمون أن علم الأخلاق واسع موضوعها يشمل حياة الإنسان العملية كلها ؛ لذا نحن بصدد السلوكيات التي تتعلق بالأسرة أو العائلة .

و هنا نريد أن ننقل آراء علماء الأخلاق.

يقول ابن مسكويه، وهو من مشاهير العلماء: " الخلق ؛ حالة للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية.

وهذه الحالة تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب، فيهيج من أصغر سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله.

و منها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً؛ حتى يصير ملكة وخلقاً" . (هداية



الأخلاق، لا بن مسكويه-٢٦).

و يقول أبو نصر الفارابي : "وإن فترة كل إنسان أن يكون مرتبطاً فيما ينبغي أن يسعى ويحتاج كل إنسان فيما له أن يبلًغ من هذا الكمال إلى مجاورة ناس آخرين واجتماعه معهٍم. وكذلك في الفطرة الطبيعية لهذا الحيوان أن يأٌوي ويسكن مجاوراً. لمن هو في نوعه: فلذلك يسمى الحيوان الإنساني والحيوان (المدني). فيحصل ههنا علمٌ آخر ونظرٌ آخر يفحص عن هذه المبادئ العقلية وعن الأفعال والملكات التي بها يسعى الإنسان نحو هذا الكمال، فيحصل من ذلك العلم الإنساني والعلم المدني". (الفارابي، كتاب تحصيل السعادة، ٦١-٦٢).

والسيد الشريف الجرجاني يعرّف الأخلاق ويقول: "الخلق : عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة ، سميت الهيئة خلقاً حسناً وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً". (كتاب التعريفات، ١٠١).

والإمام الغزالي يقول في بيان معنى حقيقة حسن الخلق وسوئه : "اعلم أن السعادة كلها والباقيات الصالحات أجمعها التي تبقى معك إذا غرقت سفينتك في شيئين:

الأول: سلامة القلب وطهارته من غير الله تعالى لقوله: ﴿إلاَّ من أتى الله بقلب سليم﴾ (سورة الشعراء: ٨٩).

والثاني: امتلاء القلب بمعرفة الله تعالى التي هي المقصودة من خلق العالم



وبعثة الرسول ?وحسن الخلق:هو الجامع لهما ، ولا أعلم خصلة تزيد عليه في الفضل، ولذلك امتدح الله تعالى به نبيه محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤) فقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (سورة فاطر: ١٠).

والكلم الطيب هو التوحيد والمعرفة والعمل الصالح هو طهارة القلب الرافعة لقدر التوحيد والمعرفة، ومعنى الرفعة هو حضور القلب وتأثره بهما لينقاد خضوعاً ومسكنة ومهابة. فحينئذ يكون قريباً من الله تعالى، فأما حقيقة حسن الخلق: فاعلم أن الإنسان صورة باطنة وهى التي بعث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بتقويمها وتزكيتها وكمال اعتدالها، وذلك أن تصدر عنها الأخلاق المحمودة بسهولة، بلا روية ولا فكر. وهذا هو معنى حقيقة حسن الخلق، وسوء الخلق يكون بعكس ذلك " . (رسائل-٩٧).

ومعلوم أن أهم احتياج الإنسان بعد الأكل والشرب هو الاحتياج الشهوي وتأمين الحاجات الشهوية، وهذه هي من الجوانب المشتركة بين الكائنات الحية وبين الإنسان، وقد أدى الإنسان هذه المتطلبات الشهوية بطريق الزواج غالباً.

وفي الحقيقة أن الله تعالى خلق كل المخلوقات من الأزواج كما قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦).

وهنا نكتة مهمة جداً، وهي أن الله تعالى خلق المخلوقات أزواجاً، وهو واحد وأحد لا يتجزأ ، وهذه الآية دليل قوي فريد على التوحيد ، لأننا نرى في الكائنات أن كل المخلوقات يتكون من اثنين.



خذ مثلاً: الإنسان يتكون من الأب والأم ، والحيوانات الأخرى هكذا ؛ حتى الأشجار فيها الذكر والأنثى؛ وحتى المعادن والمواد الكيميائية . وفي الآية أشار الله تعالى إلى ثلاثة أشياء وهي : ﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ﴾، تفيد أن كل ما تنبت الأرض يتولد من الذكر ولأنثى .

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِم﴾، وهذا معلوم للجميع بأن هذه العبارة تفيد الحيوانات بما فيها الإنسان.

﴿وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يدخل فيه المعادن والمواد الكيميائية.

لو فُتِّش وفُحِص ما في هذه الآية من الحقائق العلمية التي تدل على توحيد الله تعالى وعلى الأزواج وكثرة ما سوى الله تعالى لعلم الناس حقائق الكون.

ولماذا يحتاج الإنسان إلى تأسيس العائلة والأسرة ؟

وهنا الآن نحن نشير إلى بعض الأسباب حول تأسيس الأسرة.

الأول: تقوية دوام النسل البشري الصحيح يعني صحيح النسب والصحة. وهذا يتحقق برعاية القواعد الأخلاقية بسبب اعتماد النسب والصحة على القواعد الأخلاقية.

قال النبي ﷺ ((من أراد أن يلق الله طاهراً ومطهّراً فليتزوج الحرائر)) (ابن ماجه، النكاح ١٨٦٢).

عن أبي هريرة قال الرسول ﷺ ((تناكحوا فإني مكاثر بكم الأمم)) (ابن ماجة، النكاح ١٨٦٣).



وان كان يمكن للإنسان أن يلد بدون الزواج؛ فإن طفل الإنسان يحتاج إلى رعاية خاصة لا يمكن للأم أن تفي هذه الرعاية وحدها، وهناك شيء آخر؛ فإن الإنسان يحتاج إلى تربية وتعليم؛ فالأم لا تستطيع وحدها أن تعمل هذا بمفردها.

الثاني: الزواج وتأسيس العائلة، فيمنع الرجل من إشباع الشهوات بطريق غير مشروع. وهذا أيضاً يفيد فائدة عامة ويحفظ الطرفين الزوج والزوجة من الأمراض وسوء الأخلاق.

قال النبيﷺ ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)) (البخاري، نكاح، ٤).

الثالث: الإنسان يحتاج إلى العائلة للشعور بالسعادة والطمأنينة، ويحس بحرارة حب العائلة والتقرب فيما بينهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢١-٢٢).

هنا أشير في الآية إلى شيئين:

أولاً : السكون وهو السعادة والشعور بالطمأنينة.

ثانياً : الحب والرحمة وهما أساس الحياة . لو لم يكن الحب والرحمة لما تحققت الحياة السعيدة.



الرابع: أن العائلة عماد المجتمع . فالمجتمع بدون العائلة والأسرة يشبه قطاع المواشي وينزل منزلة الحيوانات بل أضل منها كما جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

الحقوق والمسؤولية في العائلة

و في إمكاننا أن نلخص الموضوع كما يأتي :

الوظائف الحقوقية والمسؤولية في الأسرة

ينبغي أن يوجد الحب المتبادل بين الزوجين والوقار والرحمة بين أفراد العائلة والتحية والتسامح والفهم والتفاهم بين أفراد الأسرة وحفظ محرمية العائلة.و إبقاء الاختلافات في داخل الأسرة لكي لا يعلم الآخرون أسرار العائلة .

ويجب أن تكون التصرفات الاقتصادية على العدالة ليستفيد كل أفراد العائلة متساوين من إمكانيات العائلة.

سلوك الأبوين تجاه أولادهم

وظيفة الأبوين لأولادهم تبدأ قبل الولادة. وكان ينبغي على الأبوين أن يهتما بطفلهما وهو في رحم أمه . ثم في أثناء الولادة إلى أن تتم تسميته ، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة التربية والتعليم.



وظائف الأولاد تجاه الأبوين

١- وجوب إطاعة الأبوين وحسن المعاشرة معهم .

ويجب على الأولاد أن يرعاهم ويرحمهم ويحميهم ويعاملهم معاملة حسنة كما جاء في القرآن: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤).

في هذه الآية حكمة عظيمة وهي أن الله تعالى أفاد وبيّن للناس أهمية الأسرة والعائلة، لأن التوصية للأبناء بالأبوين إشارة مهمة إلى الأبناء لوجوب اهتمامهم بالآباء والأمهات، لأنه لا حاجة إلى توصية الأمهات والآباء؛ لأن الله تعالى أعطى لهم حب الأولاد طبعياً.

وفي نهاية كلمتي هذه أوجّه شكري وامتناني إلى معالي الشيخ الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي وإلى القائمين على المؤتمر من الرابطة باسمي وباسم مؤسستنا " وقف دراسات العلوم الإسلامية " .

وأقدم احتراماتي وتحياتي إلى رجال العلم المحترمين المشاركين في هذا الاجتماع.



المصادر والمراجع:

١ - القرآن الكريم.
٢ - الجامع الصحيح للإمام البخاري .
٣ - صحيح مسلم للإمام مسلم بن حجاج.
٤ - سنن أبي داود للإمام الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني .
٥ - سنن الترمذي لأبى عيسى محمد بن سورة.
٦ - سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني.
٧ - سنن النسائي للحافظ أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي.
٨ - مسند أحمد بن حنبل للإمام أحمد بن حنبل.
٩ - تهذيب الأخلاق لابن مسكويه دار الكتاب العلمية-بيروت.
١٠ - كتاب تحصيل السعادة للفارابي تحقيق در. جعفر آل ياسين.
١١ - التعريفات للسيد الشريف الجرجاني.
١٢ - مجموعة رسائل الإمام الغزالي لأبي حامد محمد بن محمد.





الإسلام والحوار الديني

المفهوم، الأهداف، الضوابط

د. أحمد جاب الله
مدير المعهد الأوروبي للعلوم
الإنسانية بباريس - فرنسا





مدخل:

إن من آثار العولمة في عالمنا المعاصر اتساع حركة الأفكار وسرعة انتشارها، بما هو مُتاح اليوم من تطور وسائل المعرفة والاتصال، ولكن هذا التطور الهائل لم يؤدِّ بالضرورة إلى تحقيق التعارف والتقارب والتعايش بين بني البشر.

بل إن البشرية اليوم تعاني من مشكلات ونزاعات وصراعات وحروب لا تكاد تهدأ، وفي عدد من هذه النزاعات القائمة يكون العامل الديني حاضراً، سواء باعتباره منطلقاً لها، أو باعتباره عاملاً يتمّ توظيفه لإذكاء الصراع.

إنه لا مناص للبشرية، إذا أرادت التخلص من الصراعات والنزاعات وتضييق نطاقها، إلا أن تسير في طريق الحوار بين أتباع الأديان والثقافات والحضارات.

إن الحوار الذي يمكن أن يحقق التعايش المنشود هو الذي يقوم على الاعتراف بالآخر واحترام خصوصياته الدينية والثقافية والحضارية.

إن الحوار بين أتباع الأديان يُعدّ من أهم مجالات الحوار الفكري والثقافي، وذلك لما للدين من أهمية في صياغة الشخصية الحضارية لكل أمة، ولما للدين كذلك من أثر في النزاعات الحاصلة بين البشر؛ سواء من حيث إذكائها، أو بالعكس؛ من حيث العمل على تجاوزها؛ إذ أن الدين يمكن أن يكون عامل سلام وتقريب بين الناس ؛ أو يمكن أن يجعله أتباعه منطلقا ومبرّراً للصراع مع غيرهم.

وحتى نعالج موضوع: الإسلام والحوار الديني، لا بد لنا من:

ـ أولا: تحديد المقصود بالحوار الديني

ـ ثانيا: بيان موقف الإسلام من الحوار الديني



ـ ثالثا: أهداف الحوار الديني

ـ رابعا: ضوابط الحوار الديني

المقصود بالحوار الديني:

من المهم دائما توضيح المفاهيم وتحديد المصطلحات لتجنب سوء الفهم والتداخل والاضطراب بين القضايا المتشابهة والمسائل المتقاربة، خصوصا عندما تُستخدم تلك المفاهيم في ساحة الحوار المشترك.

إن الذي نقصده بالحوار الديني هو تحقيق التعارف والتواصل بين المنتسبين للأديان، بحيث يعرض كل صاحب دين معتقداته ومفاهيمه وفقاً لما هو مستقر عنده؛ إذ أن الحوار مع الآخر لا يمكن أن يكون مُجدياً إذا كنا نريد من الآخر أن يكون على الصورة التي نُحدّدها له سلفاً.

يمكن لكل إنسان أن يدرس ويتعرف على الأديان الأخرى ، وأن يكون له تصورات عنها ومواقف من عقائدها ومبادئها، ولكن ذلك لا يغنيه عن الوقوف على فهم الآخر لدينه كما هو يعرضه، بل إن من أهداف الحوار بين الأديان تعديل بعض المفاهيم ورفع الالتباس، وإن ظل الخلاف قائماً حول القضايا المختلف فيها.

إن الحوار بين الأديان ليس غرضه إجبار الآخر على التخلي عن دينه، أو إلزامه باعتناق صورة معينة لدينه لا يرتضيها، وإنما التعارف معه من أجل تدعيم المشترك واحترام الاختلاف لتحقيق التعايش والتعاون.

وفي إطار هذا التصور للحوار الديني لا يمكن أن نقرّ ما يدعو له البعض



من وحدة الأديان، بمعنى جمع الأديان على مبادئ موحدة، وإلغاء ما بينها من فروق واختلافات، وفكرة توحيد الأديان لا تجد ترحيباً من كل الديانات القائمة، لأنه لا يوجد أتباع دين واحد يقبلون بالتخلي عن شيء من معتقداتهم من أجل التقارب مع غيرهم.

إن سنة الله تعالى اقتضت أن يكون بين البشر تنوع واختلاف في ألسنتهم وألوانهم وثقافاتهم ومعتقداتهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...﴾ (هود: ١١٨- ١١٩).

إن من مستلزمات الحوار الناجح بين أتباع الأديان أن يُحَدّد المقصود منه حتى ينطلق على بيّنة ووضوح مشترك بين الأطراف المتحاورة، ويبتعد بالتالي عن الوقوع في منزلقات تؤدي به إلى الانحراف عن الغاية المرجوة منه.

موقف الإسلام من الحوار بين أتباع الأديان:

إن التصور الإسلامي يعتبر الحوار أمرا ضرورياً بين الناس، لأنه وسيلة من أهم وسائل التواصل بينهم، ولا يمكن للإنسان أن يستغني عن التواصل مع غيره، إذ طبيعة الحياة وتبادل المصالح والمنافع بين بني البشر أمر لا مناص منه؛ وإن من أهمّ أنواع الحوار، الحوار الديني.

إذا أردنا أن نتبين موقف الإسلام من الحوار الديني باختصار، فيمكننا الوقوف عند آيتين في القرآن الكريم، رسمت الأولى منهما منطلقات الحوار، وحددت الثانية القواعد المهمة له.



أما الآية الأولى، فهي قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨).

إن التأمل في هذه الآية الكريمة يرشدنا إلى المنطلقات الأساسية التي يجب أن يقوم عليها الحوار الديني، وهي التالية:

ـ أن الإسلام جاء بكتاب مصدّق لما بين يديه من الكتب السابقة المنزلة من عند الله تعالى، وهذا يعتبر تأكيداً لوحدة المصدر الذي تعود إليه الأديان السماوية في أصلها، بل إن الإسلام يعتبر أن الدين في جوهره واحد، لأن ما أنزله الله على سائر رسله؛ إنما هو تأكيد وتذكير بأسس واحدة، وإن تنوعت الشرائع في بعض أحكامها، بحسب ما اقتضته حاجات الناس المختلفة من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيئة.

إن التأكيد على أن القرآن الكريم جاء مصدقاً لغيره من الكتب المنزلة التي سبقته، يجعل المسلم يتجه بنظره عندما يلتقي مع غيره من أتباع الديانات السماوية الأخرى، إلى ما هو مشترك قبل النظر إلى مواطن الاختلاف، ولذلك جاء الوصف للكتاب بالتصديق قبل وصفه بالهيمنة، وهي الرقابة على ما هو موجود في الكتب السابقة وحسم المختلف فيه. وإن التصديق للكتب السابقة فيما هو متفق عليه ليؤكد على وحدة المنطلق بين هذه الأديان، يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره: "إن تأييد الشريعة بشريعة



أخرى يزيدها قبولاً في النفوس، ويدل على أن ذلك الحكم مُرَاد قديم لله تعالى، وأن المصلحة ملازمة له لا تختلف باختلاف الأقوام والأزمان "(١) .

– أن وصف القرآن الكريم ـ إلى جانب التصديق ـ بأنه مُهيمن على الكتب السابقة يؤكد المرجعية في إطار الوحي الإلهي، والتي تعود إلى آخر الكتب تنزيلاً من عند الله تعالى، وهذا أمر يسلم به المسلم؛ وإن لم يسلّم به أتباع الديانات الأخرى. إنه لابد من توضيح هذه المرجعية حتى لا يبقى الإنسان في حيرة أمام ما يراه من اختلاف بين أصحاب الديانات التي تنتسب إلى مصدر إلهي، إذ لا يمكن أن نقرر في نفس الوقت أن الكتب المنزلة جاءت كلها من عند الله تعالى ثم يكون بينها تناقض واختلاف، وقد نفى الله تعالى عن القرآن التناقض باعتباره وحي كله من عنده، فقال: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً﴾ (النساء: ٨٢)، فكل ما يأتي من عند الله تعالى وينسب إليه نسبة صحيحة لا يمكن أن يكون فيه اختلاف.

ـ أن تقرير هيمنة القرآن على غيره لرفع الالتباس في مواطن الاختلاف، لا يعني أن الرقابة التي أعطاها الله سبحانه للقرآن على غيره من الكتب السماوية السابقة، هي إلغاء في الواقع لحقيقة الاختلاف القائمة بين أتباع الأديان، لأن أسباب الاختلاف فيما بينهم؛ إما هي عائدة إلى أسباب عقدية نشأت عن تأويل، أو تغيير لما نزل به الوحي الإلهي، أو أنها عائدة إلى تباين في طبيعة الشرائع المنزلة من عند الله تعالى، ولذا قال تعالى بعد تثبيت المرجعية للقرآن الكريم فيما اختُلف فيه : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة: ٤٨)، فالله سبحانه قد جعل

(١) الشيخ الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ج٦ ص٢١٦ .



الشرائع والمناهج متعددة في تفاصيلها وإن اتفقت في أصولها، وذلك لتكون مناسبة لمقتضيات الزمان والمكان لكل أمة من الأمم السابقة، ولهذا صيغت الشريعة الإسلامية في العديد من أحكامها، باعتبارها آخر الشرائع الإلهية تنزيلاً، صياغة مرنة بحيث تكون قادرة على استيعاب المستجدات عبر العصور وعلى اختلاف الظروف والبيئات.

ولكن هذا الاختلاف في الشرائع والمناهج العائد إلى ظروف الزمان والمكان؛ أصبح في نظر البعض مما يجب التمسك به، فكان ذلك مصدراً من مصادر الاختلاف بين الناس، ولكن الله عز وجل، مع أنه يريد لعباده أن يهتدوا لما يرشدهم إليه وما يسدد به مسارهم؛ فإنه ترك لهم حرية النظر والاختيار المؤدي للاختلاف، وهذا يلتقي مع الإرادة الكونية[1] في أن الخلاف أمر قائم إلى يوم الدين، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة: ٤٨) ، فليس من مشيئة الله تعالى أن يجبر الناس حتى يكونوا أمةً واحدة، وهذا تنبيه على أن التعدد سيكون هو القانون العام الذي تتسم به الحياة البشرية، بل إن التعدد هو ظاهرة كونية، كما قرر القرآن الكريم ذلك في آيات كثيرة واعتبره من الآيات الدالة على عظمة الخالق وإبداع خلقه وتمام حكمته[2] .

ثم قرر القرآن في آية المائدة بأن التسليم بواقع الاختلاف بين الناس هو

---

(١) هناك فرق بين الإرادة الشرعية لله تعالى وهي ما يريد الله من عباده أن يفعلوه، وبين الإرادة الكونية في وجود أمور هي من واقع الحياة وإن لم تكن موافقة لما يحبه الله، فوجود الكفر أمر حاصل وإن كان الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر.

(٢) ولكن ينبغي ملاحظة أن الاختلاف الموجود في الكون قائم على قاعدة الانسجام وليس على قاعدة التضاد، فهو من باب اختلاف التنوع



نوع من الابتـلاء من الله تعـالى لهـم، وهذا الابتـلاء يكمن في مـدى قـدرتهم على استعمـال ملكة التمييز في مواطن الاختـلاف، وهو كذلك ابتلاء حتى لا يكون الاخـتـلاف دافعـاً لـلصراع مع المخـالـف، ولذلك قـال لهم بـعـد ذلك: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة: ٤٨) حتى يكون الاختـلاف وازعاً إيجابياً يدفع إلىَ التنافس، وليَس وازعاً سلبياً يدعو إلى الصراع المدمّر.

وختـمت الآية بقوله تعـالى: ﴿إِلَى اللَّه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة: ٤٨)، وَفي هذَا تذكـيـر بـأنَ الله تعـالـى هَو الذي سَيحَاسب عَباده يوم القيامة، ذلك اليوم الذي سيـرجعون فيه جميعاً إليه فيبين لهم حقيـقة مـا تنازعوا فيه، وهل هناك أعدل من الله تعـالى وأعلم منه بالحق الذي يختلف فيه عباده.

ولا شك أن تأكيـد هذه الحقيـقة الإيمانية مما يطمئن المؤمن الذي هو على يقين بأن الـله تعـالى سـيظهر الحق، فليس له أن يضيـق بما يواجهـه من إنكار المنكرين وإعراض المعرضين ومخالفة المخالفين، كل ما هو مطلوب منه هو أن يجتهد في إبلاغ الحق الذي عنده بالحكمة والرفق واللين، ويترك حسم الأمر ليوم الحسم وهو بين يدي الله تعالى يوم القيامة.

إن الانطلاق من هذا المبدأ في حسم الخلاف يساهم في نزع أسباب الحدّة المؤدية للصراع ويؤكد على احترام ظاهرة التنوع التي هي سمة من سمات الحياة التي ستظل قائمة بين الناس حتى يرجعون إلى الله تعالى.

وأما الآية الثانية التي حددت منطلقات أساسية للحوار الديني، فهي قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ



إلاَّ الَّذينَ ظَلَمُوا منْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بالَّذي أُنْزلَ إلَيْنَا وَأُنْزلَ إلَيْكُمْ وَإلَهُنَا وَإلَهُكُمْ وَاحدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلمُونَ(٤٦)﴾.

إن التأمل في هذه الآية الكريمة يرشدنا إلى منطلقَين مهمَّين في مجال الحوار الديني:

١ ـ ركزت الآية في بدايتها على طبيعة الخطاب الذي يجب أن نمارسه في حوارنا مع أهل الكتاب ووصفته بوصف عام بأنه ﴿بالَّتي هيَ أَحْسَنُ﴾ ليشمل بذلك كل ما من شأنه أن يتّسم بالحسن واللين والرفق، الذي يشرح صدر المخاطب ويجعله مُقبلاً على المحاورة.

إن التركيز على طبيعة الخطاب قبل التعرّض إلى مضمون الحوار يدلنا على أن الخطوة الأولى التي يجب العناية بها في الحوار مع المخالف، هي إيجاد أرضية من التواصل النفسي التي تهيأ لديه القابلية للسماع وتوجيه النظر إلى فحوى الخطاب، وإذا ما حصل هذا، فإن التعامل مع مفردات الخطاب تصبح أيسر، بخلاف ما لو كان الحوار مبتدأ بالمُحاجّة؛ فإن ذلك قد يؤدي إلى انقطاع حبل التواصل، ويصبح المخاطب لا يعبأ بما يقال مهما كانت حجته قوية، وإنما يكون مستنفراً للردّ والدفاع عن نفسه بما يجعله يفقد ميزان العدل والإنصاف، وإن هذا لعمري طبع عام في كل إنسان.

ومن أجل الخروج من منطق ردود الأفعال السلبية، جاء التوجيه القرآني للمسلمين يدعوهم أن يتجنبوا سبّ آلهة المشركين حتى لا يردوا الفعل بسبّ الله تعالى عدوانا وظلما، يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذينَ يَدْعُونَ منْ دُون اللَّه فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بغَيْر علْم كَذَلكَ زَيَّنَّا لكُلِّ أُمَّة عَمَلَهُمْ ثُمَّ إلَى رَبِّهم مَرْجعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٨)، يقول الشيخ الطاهر ابن



عاشور في تفسير هذه الآية: " سبّ آلهتهم لما كان يحمي غيضهم ويزيد تصلبهم قد عاد منافياً لمراد الله من الدعوة، فقد قال لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وجادلهم بالَّتي هيَ أَحْسَنُ﴾، وقال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾، فصار السب عائقاً عن المقصود من البعثة، فتمحض هذا السب للمفسدة ولم يكن مشوبا بمصلحة)[1].

٢ ـ وفي قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بالَّذي أُنْزِلَ إلَيْنَا وأُنْزِلَ إلَيْكُمْ وإلَهُنَا وَإلَهُكُمْ وَاحدٌ ونَحنُ لَهُ مُسْلمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦)تعليم للمسلمين في محاورتهم لأهل الكتاب أن يبدؤوا بالتركيز على القواسم المشتركة التي تجمعهم مع المحاور، لأن البدء بذلك يشعر الطرف الآخر بأن دائرة الخلاف لا تشمل كل شيء ، وإنما هناك قضايا هي محل اتفاق، ولو كان ذلك الاتفاق جزئياً.

إن الأسس الثلاثة التي أشارت إليها الآية، والمتمثلة في الإيمان بالوحي المنزل باعتباره أصلا للديانات السماوية، وأن الإله واحد، وأن الجميع مستسلمون له بالخضوع والعبودية، لا تتفق مضمون تفاصيلها الديانات السماوية، كالاختلاف بين المسلمين والنصارى في موضوع التثليث مثلاً، ولكن ذلك الاختلاف على خطورته لا ينبغي أن ينسينا القدر المشترك في الإيمان بالله تعالى خالقاً ومدبّراً ومعبوداً.

وهذا من شأنه أن يعلمنا قاعدة مهمة في الحوار وهي أن الاتفاق بين الناس لا يستلزم أن يكون كلياً وشاملاً؛ وإنما يمكن أن يكون جزئياً، ومع ذلك يعتبر رصيداً مشتركاً يعين على التواصل، فإذا حصل التواصل الجزئي حول القدر

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ج ٧ ص ٤٣٠ .



المتفق فيه، أمكن الانتقال إلى مواطن الاختلاف لمناقشتها بروح إيجابية تستصحب ما هو مشترك، وتتصدى في ضوئه لما هو محلّ اختلاف.

أهداف الحوار الديني:

لا بد لكل حوار من أهداف يستهدفها، وإن من الصعوبات التي تعترض الحوار بين أتباع الأديان هو التساؤل الذي يتبادر لكل مُحاور عن هدف الآخر من الحوار، وتخوّفه من أن يُستدرج إلى ما لا يريده من ذلك الحوار، ويمكننا القول بأنه من الصعب أن نوحّد بين المتحاورين في جميع الأهداف التي يرتجيها كل واحد منهم من الحوار، إذ أن واقع الأديان وأتباعها تختلف من بيئة إلى أخرى ومن ظرف إلى آخر، بما يقتضي قدراً من التنوع في النظرة والأهداف المرجوة.

ولكن هذا التنوع ليس معناه الانطلاق من غايات خفية يريد الآخر أن يستعمل فيها غيره لتحقيق مصالح ذاتية على حسابه، لأن الانطلاق من هذا الاعتبار لا يمكن أن يكون أساساً سليماً لحوار مثمر، بل إنه قد يؤدي إلى عكس المرجو، ويعزز سوء الظن والخوف المتبادل.

من المهم لكل من ينطلق في الحوار الديني أن يكون على بينة من الأهداف التي يبتغيها هذا الحوار، ولا بأس من الاتفاق بين المتحاورين على الغايات العامة لحوارهم؛ وإن كان لكل منهم، إلى جانب الأهداف المشتركة، أهداف أخرى خاصة به ؛ ولكنها ليست على حساب الطرف الأخرى والتعامل معه على أساس الثقة والوضوح.

إن أهداف الحوار الديني في إطار التصور الإسلامي يمكن تلخيصها في غايات خمس، يمكن أن تكون جميعها محل اتفاق بينا وبين محاورينا من أتباع الديانات الأخرى:



١ ـ التعارف:

إن حالة التنوع والتمايز القائم بين الناس تقتضي السعي للتعارف المشترك بينهم، لأن التعارف هو السبيل الأنجع لمعرفة الآخر واحترامه، وتصحيح المفاهيم الخاطئة عنه، لأنه كما قيل: " الإنسان عدو ما جهل " فإذا تعرفت على الآخر وأدركت ما لديه من مفاهيم وقيم ساعد ذلك على تبديد الأفكار السلبية عنه.

٢ ـ توسيع مساحة التفاهم المشترك:

كثيراً ما ينطلق الناس في نظرتهم للآخر من صورة نمطية جاهزة لا تستند إلى معرفة موضوعية بدينه وبثقافته، ويبنون بذلك من الحواجز والاختلافات الوهمية مع غيرهم ما يفتقد إلى أي أساس صحيح. إن تحديد عناصر الاتفاق والالتقاء مع الآخر، ولو كانت جزئية أمر مهمّ، لأن ذلك مما يُمكّن من تحرير مواطن الاختلاف وحصرها، بحيث لا يُهدر المشترك، وقد يكون شاملاً لمساحة كبيرة من التفاهم، لحساب ما هو محلّ اختلاف، والناس عموما هم أسرع إلى القفز على عناصر الاختلاف منهم إلى إدراك عناصر الاتفاق.

٣ ـ تحقيق التعايش المشترك:

إن من أهم ما يسعى إليه كل مجتمع بشري ينشد الاستقرار والسلم الاجتماعي، تدعيم أواصر العيش المشترك بين أبنائه على اختلاف معتقداتهم وثقافاتهم، ولن يكون ذلك إلا بالحوار والتعارف، وإن البديل عن الحوار هو الصراع المدمّر الذي لا يحسم الخلافات بل يزيد من تأجيجها.

لقد أثبت التاريخ أن ما وقع من حروب بين أتباع الأديان والطوائف لم يؤدِ إلى زوالها، بل إن الحرب على عقيدة ما، لا يزيد أصحابها إلا تمسكاً بها



ودفاعا عنها، وإن الشعوب لا يمكن أن تبني حضارة وتحقق تقدماً إلا في أجواء التعايش المشترك، ولذلك كان من ركائز بناء المجتمع الإسلامي الأول في المدينة الوثيقة التي قرّر فيها النبي ﷺ حقوق المواطنة لكل أهل المدينة على اختلاف معتقداهم.

٤ ـ التعاون:

إن الوصول إلى تحقيق التعايش الإيجابي في إطار المجتمع بين مختلف مُكوّناته، يجعل هذه المكونات لا تقنع بمجرد التعايش؛ وإنما تسعى لإقامة التعاون فيما هو مشترك بينها. وإذا نظرنا إلى الأديان السماوية فإننا نجد أن بينها من المبادئ المشتركة ما يدعوها إلى التعاون، كما أنها تعيش في واقع يطرح عليها نفس التحديات، مما يدعوها لتكاتف الجهود.

إن تراجع القيم الإيمانية والأخلاقية في المجتمعات الحديثة لحساب المفاهيم المادية، ووجود حالات الصراع والنزاعات والحروب التي يعرفها عالمنا المعاصر، ومشكلات البيئة وما تعاني منه من خلل له مضاعفات على حياة الناس... كل هذه القضايا وغيرها يستوجب تفكيراً مشتركاً وعملاً مشتركاً بين أصحاب الأديان، بل إنه يمكن أن يجمع أصحاب الأديان مع غيرهم من المناضلين في هذه الميادين على اختلاف عقائدهم ومشاربهم الفكرية.

٥ ـ التعريف بالنفس لدى الآخر:

إن من أهداف الحوار بين أتباع الأديان أنه يوفّر ساحة للتعارف المشترك، وخصوصاً لتلك الأديان التي يمثل أتباعها أقلية في المجتمع، ولا يملك الآخرون فكرة واضحة عنها، بل قد تكون لديهم أفكار غير صحيحة عنها



تساهم في إيجاد حالة من التباعد والتنافر.

إن تعريف أصحاب كل دين بأنفسهم يجعلهم يطمئنون لفهم الآخر لهم كما يريدون هم التعريف بأنفسهم، وليس معنى ذلك أن يكون الآخر موافقاً لهم في كل ما يعتقدونه، وإنما أن يكون مُدركاً لحقيقة اعتقادهم؛ كما هو قائم عندهم، لا كما يريد البعض أن يصوره بطريقة تفتقد إلى الموضوعية والتجرد.

ضوابط الحوار الديني:

إنه من الضروري لكل عمل جادّ ومثمر من أهداف راشدة ومن ضوابط حاكمة، حتى يظل ذلك العمل في إطار ما رُسم له من غايات ولا ينحرف عن مقاصده المرجوة إلى غيرها، وإن افتقاد مثل هذه الضوابط يؤدي إلى أخطاء وإلى تصورات ومواقف منتقدة تجعل البعض يشكّ أصلاً في مبدأ الحوار وفي نوايا القائمين عليه، وإن من أهم الضوابط التي يجب مراعاتها في هذا المجال:

١ ـ أن يتصدى للحوار من هو أهل له:

إن هذا الضابط من أهم الضوابط التي لا يمكن أن يستقيم الحوار الديني بدون احترامه، إذ كيف يحاور إنسان باسم دين ويمثله وهو غير عالم بحقائقه وأحكامه حقّ العلم؛ وإن من مسؤولية كل إنسان يُدعى إلى الحوار وهو غير مؤهّل للتعبير بعلم وأمانة عن دينه في موضوع الحوار المطروح، أن يعتذر عن ذلك وأن يُعيد الأمر إلى أهله، كما أن من مسؤولية وأمانة الجهات الداعية للحوار أن لا تدعو غير المؤهّل لذلك.

والمؤسف أن بعض المؤسسات الحوارية تدعو لندوات الحوار التي تنظمها الممثلين الحقيقيين لكل دين، ولكن عندما يأتي الدور لاختيار ممثل الإسلام



تجتهد باختيار من تعتقد أنه يمثل "إسلاماً منفتحاً" في نظرها، وأكثر هؤلاء الذين يرشحونهم لهذه المهمة ممن لا يعترفون إلا بانتساب ثقافي عميق للإسلام، كما يقولون، وهم بعيدون عن التخصص الشرعي والالتزام العملي.

وإن مما يجب مراعاته أيضا في اختيار من يُرشّح للحوار الديني، إلى جانب تمكنه العلمي والتزامه العملي، أن يكون حائزاً على نصيب من القدرات الحوارية مع الآخرين، وأن يكون صاحب اختصاص أو اطلاع في موضوع الحوار، فقد تجري أحياناً بعض اللقاءات الحوارية لبحث مواقف الأديان في المسائل الطبية مثلاً، كمسألة الاستنساخ، ونقل الأعضاء، والموقف مما يسمى "موت الرحمة" ... ويكون المتحدث على دراية بالقضايا الشرعية ولكنه لا يملك المعرفة العلمية بالمسائل المطروحة.

٢ ـ أن يكون تنظيم الحوار في مضمونه وأساليبه عملاً مشتركاً بين الأطراف المشاركة فيه:

إن الحوار عمل جماعي يلتقي فيه أطراف متعددون لبحث القضايا التي يريدون التحاور فيها، وحتى تكون جميع الأطراف المتحاورة على قدم المساواة في هذا الحوار لا بد أن يكون لكل طرف منها رأيه وكلمته في تحديد طبيعة الحوار المرجو إقامته، والمواضيع والقضايا التي يُراد بحثها، والأساليب والطرق التي يُراد إتباعها في ممارسة الحوار.

إن انفراد طرف واحد بتحديد كل قواعد الحوار ومضامينه ودعوة الآخرين للانخراط في برنامج معدّ سلفاً قد يجعل الحوار مُوجّهاً لخدمة غرض مُعين ليس محل اتفاق بين الجميع.



٣ ـ أن يكون من مُستهدفات الحوار تحقيق تعاون عملي في القضايا المشتركة:

إن أكثر هيئات الحوار الديني ليست مؤسسات للبحث العلمي، وإنما هي مساحات يتبادل فيها أهل الأديان الأفكار حول القضايا ذات الاهتمام المشترك، وإنه من المفيد لدفع عجلة الحوار أن يجتهد المتحاورون في إقامة مشاريع تعاون حول المسائل التي تطرح في الواقع وتحتاج إلى جهود مشتركة للدفاع عن قيم معينة في المجتمع، أو المطالبة باحترام مباديء عامة يلتقي عليها أصحاب الأديان، من ذلك مثلاً: الدفاع عن مكانة القيم الأخلاقية في ظل المجتمعات المعاصرة، وحماية حرية التدين أمام التيارات التي تريد الحد منها، والدفاع عن كيان الأسرة أمام ما يتهددها من اتجاهات تسعى إلى تهميش دورها، وكذلك الحفاظ على البيئة التي تتهددها مخاطر التلوث والتغيّر المناخي الذي أصبح يخلّ بالتوازن البيئي في حياة الناس... إن مثل هذه القضايا وغيرها تحتاج إلى تكاتف الجهود بين المدافعين عنها حتى يمكنهم إيصال أصواتهم إلى جهات القرار والتأثير.

٤ ـ احترام عقيدة الآخر:

إن من الضوابط المساعدة على نجاح الحوار أن يحترم كل طرف من أطراف الحوار عقيدة الآخر، وأن يمتنع عن الاستهزاء أو الانتقاص منها، ولو كان ذلك تحت غطاء النقد أو حرية التعبير؛ نعم يمكن لكل صاحب عقيدة أن يعلن رأيه في القضايا المختلف فيها بين أصحاب الأديان ولكن بعيداً عن أساليب التجريح والهجوم، الذي لا يساعد على الالتقاء والتفاهم بل يدعو إلى الصراع والتنافر.



خلاصة البحث:

- إن المقصود بالحوار الديني هو تحقيق التعارف والتواصل بين أتباع الأديان.
- لا يمكن أن نقرّ ما يدعو له البعض من وحدة الأديان، بمعنى جمع الأديان على مبادئ موحدة وإلغاء ما بينها من فروق واختلافات.
- إن التصور الإسلامي يعتبر الحوار أمراً ضرورياً بين الناس، لأنه وسيلة من أهم وسائل التواصل بينهم، وإن من أهمّ أنواع الحوار، الحوار الديني.
- إن أهداف الحوار الديني تتمثل أساسا في: التعارف، توسيع مساحة التفاهم المشترك، تحقيق التعايش المشترك، التعاون، التعريف بالنفس لدى الآخر.
- **من ضوابط الحوار بين الأديان:**

١ ـ أن يتصدى للحوار من هو أهل له.

٢ ـ أن يكون تنظيم الحوار في مضمونه وأساليبه عملاً مشتركاً بين الأطراف المشاركة فيه.

٣ ـ أن يكون من مستهدفات الحوار تحقيق تعاون عملي في القضايا المشتركة.

٤ ـ أن يجري الحوار في ظل احترام عقيدة الآخر.



موضوعات الحوار

د. جعفر عبد السلام
الأمين العام لرابطة الجامعات
الإسلامية



مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فـإن من دواعي سـروري المشـاركـة في هذا المؤتمـر العـالمي الأول الذي يكتسب أهميته من ناحيتين:

الأولى: من حيث زمان انعقاده في فترة عالمية عصيبة تشتبك فيها الصراعات الدولية، وتتسارع خطى المشكلات التي تواجه العالم الإسلامي تعقيداً، ويتفاقم الخطر المحدق بأمتنا الإسلامية في مناطق عديدة، منها: السودان، والعراق، و أفغانستان، وفلسطين.

وليس من سبيل لمواجهة هذه المواقف المعقدة إلا بالحوار المستنير الذي ينفذ إلى حقائق المشكلات ويسبر أغوارها، ويضع حلولاً، ويطرح قناعات، وينفي الشبهات ويدحض الأباطيل..

الثانية: أن هذا المؤتمر الإسلامي العالمي يعقد في مكة المكرمة، وفي مقر رابطة العالم الإسلامي، التي تمثل برلمانًا شعبيًا إسلاميًا عالميًا يهتم بقضايا الإسلام والمسلمين، ويتسق مع الجهود العظيمة لهذه الرابطة التي تمثل بأنشطتها المتميزة حصنًا حصيناً ومنارة فكرية عالمية يعتز بها المسلمون ويحترمها إلى حد كبير غير المسلمين؛ لحيادها وجهودها المستنيرة الواعية وحرصها على كرامة الأمة وإعلاء كلمتي الحق والدين.

وأرجو أن تسمحوا لي بأن أحدد نقاط هذه الورقة في أمور أربعة:

أولاً: موقع الحوار في الفكر الإسلامي نظرياً وعملياً.



ثانيًا: التطور العالمي وفرض اللجوء للحوار.

ثالثًا: الحوار مع الآخر وسائله - ضوابطه - موضوعاته.

رابعًا: استراتيجية جديدة لثقافة الحوار.

وذلك على النحو التالي:

أولاً: موقع الحوار في الفكر الإسلامي نظرياً وعملياً.

أيها الإخوة: حين نبدأ لقاءنا أو حديثنا بقولنا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. ألا نجد في هذه التحية الإسلامية فتحاً للحوار مع الآخر، فنحن مطالبون بإلقاء تحية الإسلام على من نقابله، والآخر مأمور بالتحية بأحسن منها أو ردها.. أليس في ذلك باديء ذي بدء دعوة إسلامية صريحة للحوار، والحض عليه؟

أليس في قول رسولنا الكريم ﷺ ((لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)) (أخرجه البخاري)، والعبادات كلها حوار بين الإنسان وربه، فسورة الفاتحة -التي لا تجوز الصلاة إلا بها- هي في حقيقتها حوار بين الإنسان وربه، ولذلك نجد الضمير فيها للمخاطب إياك نعبد- إهدنا - أنعمت عليهم.

ولئن كانت هذه الدعوة إلى الحوار في ظاهرها حضّ على الحوار بين المسلمين خاصة، ولكنها في ذاتها تعتبر مدخلاً للحوار الواجب بين سائر البشر؛ لأننا نجد في الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ الحجرات: ١٣).. تعظيماً لأهمية التواصل والتعارف والتقارب، وهذا كله لا يتأتى إلا من خلال حوار متبادل، وتعارف يتحقق عن هذا الحوار.

والرسالات السماوية جميعها انتشرت بعد التحاور مع المشركين وإقناعهم بالتي هي أحسن، ولعلنا نذكر في هذا المقام دعوة القرآن الكريم ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)..

ويحكي القرآن الكريم أمر الله لنبيه موسى وأخيه هارون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً



لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٤) إننا في ضوء هذه التوجيهات القرآنية نؤكد على أن الحوار واجب والتزام إسلامي تجاه الآخر؛ مسلماً كان أم غير مسلم.

واسمعوا معي قول الحق سبحانه وتعالى في معرض الحوار مع الآخر ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)، فوضع (أو) هنا في مجال التخيير، ولم يقطع بالهدى للمتحدث ولم يصف الآخر بالضلال المبين، وإنما جعل الصفتين متأرجحتين بين المتحدث والمخاطب، ثم قال بعدها في نفس السورة: ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(سبأ:٢٥).

ألا ترون أيها الإخوة الدرجة العالية لهذا المستوى من الحوار مع الآخر، نسب للمحاور (الإجرام) عما أجرمنا أي ما فعلنا من (جرم)، ونسب للمخاطب العمل مجرد العمل .. حتى اختيار اللفظ

هذه الحقيقة الإيمانية التي جاء بها الإسلام منذ أكثر من ألف وأربعمائة وتسعة وعشرين عاماً، ومارسها المسلمون على مدى العصور كنهج إسلامي صريح، اتخذت صوراً عديدة وأشكالاً متباينة، منها الشورى وهو حوار بين المسلمين، ومنها تأليف القلوب على الهداية الإيمانية، فالرسول ﷺ كان يلتقي في ساحته، ويعمل معه صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي، وغيرهم كثيرون، وأثمر الحوار معهم عن نتائج طيبة لهم وللأمة وللدعوة الإسلامية أيضاً، وكانوا بحق بناة العمل الإسلامي العظيم.

ثم اتسعت رقعة الحوار وامتدت لتصل إلى أصقاع وشعوب خارج الجزيرة العربية.. بدأ الرسول الكريم ﷺ الحوار مع الملوك والقياصرة يدعوهم إلى الإسلام، بعد أن حاور المشركين في مكة حواراً متصلاً تحمَّل في سبيله كل



صنوف الأذى والألم.. لكنه كان مصراً ودءوبًا وملتزمًا بالحوار؛ امتثالاً للخطوط الإيمانية العريضة التي أرسى القرآن الكريم دعائمها، وفيما عرضته آيات كريمة من نماذج الرسل والأمم التي بُعثوا إليها.. كل هذه الصور المتعددة من الحوار أرست أهمية الحوار وضرورته كركيزة إنسانية في التعامل بين بني البشر دون النظر إلى اختلافهم في اللون أو العقيدة أو اللغة.. ولمَ لا والقرآن الكريم بنصوصه القاطعة يعتبر الاختلاف سنة كونية .. ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨).. وغير ذلك من الآيات التي يعي المسلمون دلالتها الواضحة على أهمية الاختلاف بين البشر، وضرورة التواصل والتعايش وصولاً إلى التعارف والتآلف، وما يستتبعه ذلك من تعاون وتفاعل وتفاهم يحقق الخير؛ كل الخير لبني الإنسان، ويجعل من الحياة ساحة للبناء والتعمير والتقدم، سواء اختلفت العقيدة أم تباينت الألسن، فالكل بنو البشر سواء بسواء.

ثانياً: التطور العالمي فرض اللجوء للحوار:

إن العالم المعاصر بعد تجاربه المتعددة من الصراعات الساخنة والحروب بأنواعها الملتهبة والباردة قد أدرك أنه لا مناص من الحوار، ولا مفر من التفاهم، ولا مندوحة عن التقارب، فكان ميثاق الأمم المتحدة وقبلها عصبة الأمم -خطوات متتابعة للتأكيد على ضرورة الحوار ووضع ضوابطه وتفعيل مقاصده، وأصبحت الحروب ذاتها وسيلة للتفاوض وخلق حوار بين طرفين.

- وتوالت محاولات المجتمع الدولي بمنظماته المتعددة ترسخ مفهوم الحوار على المستويات التي تحقق الخير والنهوض والتقدم، وظهر مصطلح



الأسرة الدولية والمجتمع الدولي تأكيداً على قيمة الحوار وجدواه وأهميته في ترسيخ قيم الحق والعدل والخير للبشرية جمعاء.

وأستأذنكم في أن أسرد عليكم بعضًا من خُطى الأمم المتحدة في مجال تعميق الحوار ودعمه وتأكيده كأسلوب حضاري للتعامل بين الدول والشعوب.

- تم إعلان سنة الأمم المتحدة للتسامح خلال قرارين للجمعية العمومية وهي سنة ١٩٩٥م، استناداً إلى أن ميثاق الأمم المتحدة يؤكد على أن سنة التسامح هي أحد المباديء التي يجب تطبيقها لبلوغ الغايات التي تنشدها الأمم المتحدة في سبيل منع نشوب الحرب ودعم السلام وحفظه.

- ومن الجهود الدولية في سبيل تفعيل مفهوم الحوار عن طريق التسامح تقدم مدير عام اليونسكو عام ١٩٩٤ م بتقديم إعلان المباديء الخاص بالتسامح، مطالبًا المجتمع الدولي بوضع نهاية لثقافة الحرب وبداية ثقافة السلام، وأدان التعصب العرقي والثقافي والديني.

-و في عام ١٩٩٩م (٢٣ إبريل) تم إعلان برلين ،ومبادرة الحوار الثقافي بين المجتمعات الإسلامية والغربية، ومن أهم بنوده: اقتناع الأطراف المشتركة أن الاتصال بين الثقافات والحضارات المختلفة قد أصبح واحداً من المعالم الرئيسة للمجتمعات المعاصرة في العالم، وهو يمثل النسيج الداخلي للعلاقات بين الأمم.. ومن بين بنود هذا الإعلان: التركيز على القيم المشتركة بين الثقافتين الإسلامية والغربية، واعتبر البيان أن التعليم هو أحد المجالات المهمة التي يمكن بواسطتها بث قيم الحوار الثقافي، ونشر المباديء التي تساعد



على قيـام الحـوار بين الحضـارات.. فـالتعليم وسـيلة للتعـرف عـلى آخرين والتفاعل معهم.

ثم يأتي الإعلام بعـد التعليم في الأهمية لتعميق هذا الحوار، ومن ثم نص إعلان برلين على تأسيس مركز بحوث لدراسات الإعلام المنظمة ذات الطابع الدولي المتعـدد الجنسيات، والاهتـمام بالتدريب الصحفـي المهني، وأن يتم تأسيس أحد هذه المراكز في أوروبا والآخر في العالم الإسلامي، وتشجيع البـرامج التليفـزيونية والإذاعيـة التي تعـمل عـلى التـقـريب بين العـالمين: الإسلامي والغربي بطريقة خلاّقة وتقدم العـالم الإسلامي للغرب، وتقدم الغرب إلى العالم الإسلامي بشكل محايد غير منحاز.

ولا خلاف على أن الإعلام هو المسؤول الأول عن تكوين الصورة الذهنية ومفهـوم الآخر، وهو القـادر على تقـديم الصورة الحـقيقية للآخر، أو تقـديم صورة مشـوهة عنه.. ولا نشك في أن الإعـلام الغربي كـان له دور واضح في تشويه العلاقات الإسلامية الغربية خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، حيث انحاز الإعـلام الغربي ضـد القـضايا العـربيـة والإسلامية، وعـمل على تقديم صورة للمسلم تربطه بالإرهاب، وتصفه بالتشدد الديني والتزمت.

- وفي عـام ٢٠٠٠م صدرت الـوثيقـة العـالميـة للحـوار بين الحضـارات الصادرة عن الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة.

وقـد استندت هذه الـوثيقـة العـالمية للحـوار على أن ميـثاق الأمم المتحدة يقـوم على أسـاس الحـوار والتـفـاهم بين الشـعـوب التي تـرتكز على وحـدة الأصل الإنساني، وهي حقيقـة أكدتهـا القيم الروحيـة في مختلف الأديان والحضـارات،



وتمثل القاعدة لإقامة الحوار والتفاهم والتعارف بين الأمم والحضارات.

ويهمني في هذه الوثيقة العالمية للحوار: أنها تحدد أهداف الحوار في تعزيز التواصل والعدالة والتسامح بين البشر، والبحث عن أرضية مشتركة بين الحضارات لمواجهة التحديات المشتركة التي تهدد القيم والإنجازات البشرية.

ثالثاً: الحوار مع الآخر: ضوابطه - موضوعاته:

أود أن أضع بعض الضوابط التي تحكم الحوار الواجب على المستوى الأممي، والذي يجب أن ينهض به عالمنا الإسلامي، وإليكم بعض هذه الضوابط.

أولاً: إن منطقة العقائد الدينية عل اختلافها تمثل منطقة محظورة لا يمكن الخوض فيها أو الحوار حولها، وذلك احتراماً للاختلاف العقائدي ولحرية أطراف الحوار في التمسك بالعقيدة التي يختارونها إعمالاً للمنطق الإسلامي ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦).

ثانياً: إن الحوار العالمي المطلوب ينبغي أن ينصرف إلى القضايا والمشكلات الإنسانية العامة التي يعاني منها المجتمع البشري وتعوق نهضته وتقدمه، وعلى سبيل المثال:

أ-مشكلات البيئة ومنها على سبيل المثال : التصحر، التلوث، الاحتباس الحراري، مكافحة الأوبئة وغيرها.

ب- مجالات حقوق الإنسان، وحقه في حياة كريمة حرة تكفل له كافة حقوقه السياسية والاجتماعية دون تمييز بسبب اللون أو الدين أو العرق.

جـ- دعم كيان الأسرة باعتبارها نواة المجتمع، ولا شك أن الرؤية



الإسلامية للأسرة تكفل توازناً بين الحقوق والواجبات، وتدعم علاقة الأسرة بالمجتمع من منظور إسلامي وضعه الخالق لإسعاد الفرد والمجتمع ويمكن أن يقدم العالم الإسلامي، بل إنني أطالب العالم الإسلامي بوضع نظرية إسلامية متكاملة يهديها للعالم كله ؛ لأن النظام الإسلامي للأسرة لايدانيه نظام بشري في سموه ورفعته؛ لأنه نظام إلهي من لدن حكيم خبير.

د- تحسين العلاقات مع الآخر، عن طريق نبذ الصراعات السياسية والعرقية، وعن طريق إشاعة التفاهم القائم على الحق والعدل في الخلافات وإيجاد الحلول السلمية التي يضمنها القانون الدولي العام والقانون الإنساني.

الحوار حول أسس القيم الإنسانية المشتركة التي تمثل قاعدة مشتركة للحوار والتي لا خلاف عليها، وهي القيم التي لا تتنافر مع النهج الإسلامي القيمي، الذي يستهدف العدل والأمن والسلام البشري لكل البشر، والبعد عن التيارات الفاسدة التي تنشر القبائح وتشيع الرذائل وتهدر القيم الإنسانية الرشيدة، مما يصيب البشرية بالكوارث والنوازل المدمرة.

تحديد مجالات الحوار في نواحي المعرفة بالثقافات والحضارات المختلفة وإنجازاتها الثقافية والتربوية والعلمية، ودراسة الأوضاع البيئية والتحديات المهددة للسلم والأمن في العالم وكذا مجال حقوق الإنسان الأساسية.

ونتحدث عن هذه المجالات بشيء من التفصيل:

هناك مجالات عديدة ينبغي أن تتجه جهود الحوار على المستوى العالمي



وبواسطة المؤسسات الدولية والمنظمات القائمة إلى معالجتها والتنسيق فيما يمكن عمله لإجراء حوار عالمي حول هذه الموضوعات الإنسانية المشتركة والتي يمكن أن نختار منها الموضوعات التالية:

الحوار حول سلامة البيئة من الأخطار:

على أن يتم الحوار في ضوء حقائق الإسلام التي يجب أن تكون مرتكزاً وفق الحقائق التالية التالية:

حرصت الشريعة الإسلامية على أن يحيا الإنسان في بيئة صحية مناسبة، ووضعت العديد من القواعد والمبادئ التي تكفل سلامة البيئة وحمايتها من العبث .

ولا شك أن ذلك يقتضي من الإنسان الرشيد أن يحافظ على ما أعطاه الله حتى يعيش سليماً معافى، قادراً على العمل وعلى الإنتاج، ومتمتعاً بما أعطاه الله له، ولن يتحقق له ذلك إلا بالحفاظ على البيئة التي يعيش فيها، وبوقاية نفسه من أية أضرار تحدث فيها، وكذا بالمسارعة بالعلاج كلما اقتضى الأمر ذلك . يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين : ٤)، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء : ٧٠)

وقد أشار القرآن الكريم إلى التوازن البيئي، وإلى خلق الكون بشكل هندسي رائع وسليم، قال تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ (الملك) .

ولأن البيئة هي المهد والفراش والموطن والسكن والحياة للإنسان، فقد



سخرها الله له وزودها بكل مقومات الحياة الآمنة الصحية السليمة، وترى أكثر من آية تشير إلى هذا التوازن الدقيق وإلى ما زود الله به الأرض من معايش لحياة الإنسان، وإلى ما أرشده لحمايتها والإبقاء على توازنها . وسنورد بعضًا من هذه الآيات : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢)﴾ (البقرة) .

وقوله سبحانه : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ(٢٠)﴾ (الحجر) .

وقوله سبحانه : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى(٥٤)﴾ (طه) .

وكل الآيات تؤكد ما خلقت عليه الأرض من توازن دقيق يجعلها صالحة تمامًا لحياة الإنسان، كما يحميها هي نفسها، ولصالح الإنسان والكائنات التي تعيش فيها، من فقدان اتزانها، فقد أرسى الله فيها الجبال أوتاداً ثوابت تحفظ لها توازنها وتحمي مناخها الطبيعي ليستمر صالحًا للحياة بما أنشأ الله سبحانه وتعالى فيها من نبات وغابات وحدائق تضخ الأوكسجين اللازم للتنفس، وتمتص ثاني أكسيد الكربون المدمر للحياة .

وقد نبهنا القرآن الكريم كذلك إلى أن الفساد سيعم الأرض بما كسبت أيدي الناس ، يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الروم ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ



بمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم : ٤١) ولعل ذكـر هذه الآيَة في سـورة الروم لـه دلالتـه في أن الغـرب هـو الذي سيحدث هذا الفساد، لذا طلب القرآن الكريم من البشر أن يمتنعوا عن إحداث الفساد حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف : ٥٦).

ولا شك أن إبراز الرؤية الإسلامية على هذا النحو تحقق نجاحًا للحوار مع الأطراف الأخرى، حيث إنها تنصب على قيم إنسانية ليس ثمة مجال للاختلاف حولها مع الطرف الآخر، إضافة إلى ذلك فإن بعض هذه الحقائق في موضوع البيئة بالذات قد تكون خافية على الكثيرين من أهل الغرب، إما لتقصيرنا في العالم الإسلامي عن التعريف بالإسلام، أو بجهل متعمد أو غير متعمد من الطرف الآخر..

الحوار في مجال المرأة والأسرة

تشغل قضية المرأة مساحة واسعة في الفكر الغربي وفي مجالات الاتهامات التي توجه للعالم بهذا الخصوص، ولا شك أن ذلك يؤكد لنا على أهمية الحوار في هذه القضية بالذات، لأنها من القضايا التي تثير غبار كثيفًا حول الإسلام، وشبهات ظالمة عن غير قصد أو بسوء نية أو بهما معًا، ولعل العالم الإسلامي يكون مسؤولاً بدرجة ما لتقصيره في تجلية الحقائق المتعلقة بالمرأة ، وتقصيره في تفنيد الشبهات، وهنا تكمن أهمية قصوى للحوار حول قضية المرأة في ضوء الحقائق الإسلامية التالية:

١- إن ما قرره الإسلام من شخصية للمرأة يعد ردًا طبيعيًا على كافة



الدعاوى والاتهامات الباطلة التي توجه إلى الإسلام والتي تدعي أنه أهمل المرأة وانتقص من دورها، واعتبرها كالمتاع لا وزن لها ولا قيمة .

٢- إن من أهداف الإسلام بناء مجتمع يكون فيه لكل من الرجل والمرأة دور متكامل في عملية البناء والتنمية، وقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة على أساس ينسجم مع شخصيتها، وقدراتها وكفايتها، وتطلعاتها ودورها الرئيس في الحياة، وقد تضافرت نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية على وحدة الأمة الإسلامية بعناصرها الحيوية، فلكل من المرأة والرجل شخصيته، ومكانته في المجتمع الإسلامي.

٣- الأسر المبنية على الزواج الشرعي حجر الزاوية في البناء الاجتماعي السليم، ولذا فالإسلام يرفض أية صورة مزعومة أخرى للأسرة، وأية علاقة بديلة خارج هذا الإطار الشرعي. وللمرأة بمقتضى أمومتها وخصائصها الأخرى الدور الأساسي في استقرار ورفاه هذا البناء العائلي.

٤- إن الأمومة هي إحدى وظائف المرأة الطبيعية في حياتها، ولن تستطيع أداء هذه الرسالة النبيلة على أحسن وجه وتكوين وتوجيه ورعاية الأجيال القادمة إلا إذا حصلت على جميع حقوقها الإسلامية لتقوم بمهمتها في مجالات الحياة الخاصة بها.

٥- المرأة والرجل متساويان في الكرامة الإنسانية، كما أن للمرأة من الحقوق وعليها من الواجبات ما يلائم فطرتها وتكوينها، وبينما يتمتع كل من الرجل والمرأة بصفات طبيعية متفاوتة، فهما متكاملان في المسئوليات المنوطة بكل منهما في الشريعة الإسلامية.

٦- الدعوة إلى احترام المرأة في جميع المجالات، ورفض العنف الذي



مازالت تعاني منه في بعض البيئات وعلى الأخص العنف المنزلي، والاستغلال الجنسي، والتصوير الإباحي، والدعارة، والاتجار بالمرأة، والمضايقات الجنسية؛ مما هو ملاحظ في كثير من المجتمعات التي تمتهن المرأة، وكرامتها، وتتنكر لحقوقها الشرعية، وهي أمور منكرة دخيلة لا علاقة للإسلام بها.

٧- قيام الوسائل الإعلامية بتعزيز الدور الإيجابي للمرأة، ورفض جميع أشكال استغلال المرأة في وسائل الإعلام والإعلان، والدعاية المسيئة للقيم والفضائل مما يشكل تحقيراً لشخصيتها وامتهاناً لكرامتها.

٨-ينبغي بذل جميع الجهود لتخفيف آلام النساء والمجموعات الضعيفة وبصفة خاصة النساء المسلمات اللائي مازلن ضحايا النزاعات المسلحة والاحتلال الأجنبي والفقر وضحايا الضغوط الاقتصادية الأجنبية.

٩-إن التنمية الشاملة المتواصلة لا يمكن تحقيقها إلا على أساس من القيم الدينية والأخلاقية، وهذا يقتضي رفض محاولات فرض مفاهيم ثقافية واجتماعية دخيلة وإدانة الهجمات المتواصلة من بعض الجهات ضد المفاهيم والأحكام الإسلامية المتعلقة بالمرأة.

١٠- الإنكار الشديد لأساليب بعض الحكومات في منع المرأة المسلمة من الالتزام بدينها وإقامة شعائره وما افترضه الله عليها كالحشمة والحجاب.

١١-العمل على جعل مؤسسات التعليم النسوي بجميع مراحله منفصلاً عن تعليم الذكور؛ وفاءً بحقوق المرأة المشروعة وقياماً بمقتضيات الشريعة.

ولعلني لا أكون مبالغًا إذا قلت إن تجلية هذه الحقائق الإسلامية عن الأسرة والمرأة المسلمة يمكن استثمارها في وضع نظرية إسلامية عالمية عن الأسرة والمرأة في ضوء الظروف العالمية الراهنة التي يعاني فيها المجتمع الغربي من فقدان الرؤية الصحيحة حيال هذه القضايا.



الحوار في مجالات القيم الإنسانية المشتركة

إن نظرة الإسلام المتسامية للإنسان -أي إنسان- مهما كان لونه أو لغته أو دينه أو عرقه هي نظرة سابقة على المفاهيم والنظريات الحديثة التي تتعلق بحقوق الإنسان والتي تنظمها المواثيق الدولية وغيرها، ولذلك فإن الحوار مع الآخر في مجال القيم الإنسانية المشتركة ينبغي أن ينصرف إلى المجالات القيمية الإنسانية التالية :

أولاً: احترام الكرامة الإنسانية

وهو مبدأ رئيس يجب الاهتمام به لكي يمكن التعامل مع البشر، ويستند هذا المبدأ في نظرة إلى أن البشر ينحدرون من إنسان واحد؛ هو آدم -عليه السلام-؛ لذا يجب أن يحترم بعضهم بعضًا؛ ومن ثم فهم يشتركون في أساس الخلق، وهذا الاشتراك ينبغي أن يترك أثره على تعاملاتهم مع بعضهم البعض في السلم والحرب على السواء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء:٧٠). فالتكريم للإنسان بصفته إنسانًا؛ لذا عندما تنشب حروب بين هؤلاء الذين ينتمون لأصل واحد، فيجب احترام هذا الأصل، فالأصل هو السلم والتعامل الحسن مع بني آدم، والحرب والعداء أمر طارئ يجب أن ينتهي بعد وقت قصير.

وفي وقت السلم تحكمنا الآية الكريمة : ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).



وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة:٢)، والبر هو لون من الفضل والإحسان أعلى من العدل.

ثانيا: التعاون على ما يحقق مصالح الإنسانية

إن الحوار حول التعاون على ما يحقق المصالح الإنسانية هو مبدأ مهم في العلاقات الدولية التي أكد عليها الإسلام، ولذا يجب أن يقرره المسلمون أو على الأقل أن يقبلوه إذا دُعوا إليه، لأن الله قد جعل التعاون نعمة على البشرية، وأشار إلى الأمن الغذائي والأمن القومي الذي حققته رحلتي الشتاء والصيف، حيث يقول تعالى: ﴿لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ، إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:١-٤).

ونحن في زمن أصبح تنمية المصالح المشتركة بين كل دول العالم وشعوبه أهم بكثير من الحروب والمناوشات. وأعتقد أن الخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة:٢) يشمل التعاون بين المسلمين ومع غيرهم كذلك.

على أنه من البديهي أن ثمة مستجدات عالمية تطرأ من آن لآخر على الساحة العالمية تفرضها التطورات والمستحدثات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية مما يفتح آفاقًا متجددة للحوار؛ إذ إن المجتمع البشري لا يقف جامداً، وإنما سنة الحياة هي التجدد والتطور والتقدم والارتقاء، وفي ضوء ذلك كله فإن مجالات الحوار التي ألمحنا الإشارة إليها سابقاً ما هي إلا نماذج رأيت التركيز عليها لأهميتها القصوى في عالمنا المعاصر والتي تمثل من



وجهة نظري تحديات راهنة لا للعالم الإسلامي وحده ولكن للأسرة البشرية لاسيما وأن الكون أضحى قرية كونية صغيرة..

وثمة ضوابط يجب الالتزام بها لتحقيق فاعلية أكبر للحوار، وذلك إذا بني الحوار على الأسس التالية:

- نبذ الاستعلاء الحضاري، والاعتراف المتبادل بين الديانات والحضارات.
- حق الشعوب في الحفاظ على خصوصيتها الحضارية مع تعايشها مع الحضارات الأخرى، فالجانب المادي ملك للبشرية وينتقل من حضارة إلى حضارة، أما الجانب المعنوي فيمثل الهوية الخاصة لكل حضارة، ويظهر في لغتها وثقافتها الدينية والاجتماعية.
- استنكار العنف والإرهاب، والإسلام لا علاقة له بالإرهاب، ويؤيد حق الدفاع المشروع ضد العدوان، ويرفض التعصب الديني والعنصري.
- أهمية الحفاظ على التراث الثقافي والإسلامي والمحبة الإسلامية، واحترام حقوق الأقليات، وإبراز القيم السامية بين كل الديانات.
- المناهج الدراسية وتأكيدها على تواصل الحضارات والثقافات المختلفة، وأهمية التعايش معها.
- الاهتمام بإعداد دعاة مسلمين قادرين على إنعاش الحياة الثقافية في العالم الإسلامي.
- الاهتمام بوسائل الإعلام الحديثة وتوظيفها لخدمة الدعوة الإسلامية.

وسائل الحوار وآلياته:

أما الوسائل والآليات الواجب اتباعها كما حددتها الوثيقة العالمية، فهي



دعوة الدول والمنظمات الدولية وغيرها إلى اتخاذ الحوار كأداة لإرساء الثقة في مختلف المجالات على المستويات الإقليمية والدولية بهدف تحقيق التواصل والتسامح والأمن المتبادل والتنمية، ومنع اللجوء إلي القوة في إطار نظام دولي عادل.

وطالبت الوثيقة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بتطبيق بنود الوثيقة في المجالات السياسية والثقافية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والإعلامية والتكنولوجية بالوسائل التالية:

١- تقوية التفاعل والتعاون بين المثقفين والمفكرين المنتمين إلي حضارات متعددة بشكل متوازن وبعيدا عن نزعات التفوق والسيطرة وإقصاء الآخر أو استبعاده.

٢- تنظيم المؤتمرات والندوات وورش العمل لتعزيز التعارف والسماحة، ونشر ثقافة الحوار بين الحضارات، ومن خلال الاحترام المتبادل والمعاملة الحسنة.

٣- تشجيع الترجمة والنشر بلغات الحضارات المختلفة، وتوثيق تراثها وفنونها وصيانة آثارها ومخطوطاتها.

٤- إنتاج مواد وثائقية مختلفة تشمل مختلف الكتب والمقالات والأفلام التي تعطي أمثلة ونماذج تاريخية للتفاعل البناء بين الحضارات.

٥- إدراج برامج التعريف بالثقافات والحضارات في المناهج التعليمية وتعليم اللغات والتاريخ والفكر الاجتماعي والسياسي لمختلف الحضارات، وتعزيز الدراسات الحضارية والثقافية البيئية والمقارنة، وتشجعي تبادل المعارف والمعلومات والمنح الدراسية بين الأكاديميين.



٦- السعي إلى فهم الحضارات ودراسة وسائل تطوير التفاعل والتفاهم بينها.

٧- تصحيح صورة الحضارات الأخرى في المناهج التعليمية والاعتراف بحق الاختلاف وحرية الاختيار.

٨- تعزيز التبادل العلمي والتكنولوجي وتضييق الفجوة العلمية والتكنولوجية مع مراعاة الجوانب الأخلاقية للعمل في هذه المجالات.

٩-التعاون في مواجهة الآثار والجوانب السلبية للعولمة.

١٠- توظيف تكنولوجيا الإعلام ووسائله المختلفة والإنترنت لدعم رسالة حوار الحضارات وتعزيز التفاهم بين الشعوب.

١١- توفير فرص متكافئة في تدفقات إعلامية تعزز التفاعل الإيجابي والتعاون بين الحضارات.

١٢- تنفيذ برامج تهدف إلى إذكاء روح الحوار والتفاهم ونبذ العنف والعنصرية بين الشباب.

١٣- تطوير آليات مناسبة على المستويات المحلية والوطنية والإقليمية لإشاعة الحوار في كافة المجالات لنشر التفاهم المتبادل بين الحضارات.

١٤- تشكيل لجنة خاصة بالجمعية العامة للأمم المتحدة؛ لتشجيع حوار الحضارات وتيسيره وإشاعة ثقافة الحوار في أنشطة الأمم المتحدة في المجالات المختلفة(١).

إن علماء كثيرين في شتى بقاع عالمنا المعاصر يشاركوننا هذه الرؤية الإسلامية للحوار، ولا أنسى جهود بعض قادة وعلماء الغرب في مجال

---

(١) راجع ذلك مفصلا في كتاب "الإسلام والحوار مع الحضارات المعاصرة " للدكتور محمد خليفة حسن، نشر رابطة الجامعات الإسلامية ص ١٣٨ وما بعدها .



حوار الحضارات.

١- كوفي أنان: حوار الحضارات والحاجة إلي منظومة أخلاقية عالمية

عبر كوفي أنان الأمين العام للأمم المتحدة عن رؤيته الشخصية لحوار الحضارات في محاضرة ألقيت في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في يونيه ١٩٩٩م، ومن أهم الآراء التي عبر عنها أنان عن الإسلام والعلاقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية وحوار الحضارات واسمعوا ما يقوله كوفي أنان عن الإسلام :

(أ) إن الدين الإسلامي واحد من أعظم أديان العالم، ونبراس هاد لأكثر من حضارة عظيمة.

(ب) الصراع بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية تخلله اتصال والتقاء من خلال نقل علوم إحدى الحضارتين إلى الأخرى.

(ج) غزو الحضارة الغربية للحضارات الأخرى في العصر الحديث، أدى إلى تحول حوار الحضارات إلى حوار من طرف واحد.

(د) كل العقلاء يرفضون حتمية الصدام بين الحضارات ويودون تجنب وقوع هذا الصدام.

(هـ) يوافق أنان على مقولة هنتنجتون بخصوص انتقال العالم من صراع الأيديولوجيات إلى صراع الهويات.

(و) معظم الزعماء المسلمين الذين قابلهم يؤيدون حوار الحضارات ويتحمسون له.

(ز) الدعوة إلى حوار سلمي يقوم على أساس مجموعة من القيم المشتركة.

(ح) محاولة فرض الهيمنة الأمريكية على النظام العالمي الجديد وتأجيج الصراع سيؤدي إلى اندحار أمريكا شأنها شأن القوى العظمى السابقة.

(ط) الجاليات الإسلامية في الغرب قادرة على إقامة حوار حضارات باعتبارها جزءاً أساسيا من المجتمع الغربي.

(ي) التأكيد على مساهمة الحضارات الإسلامية في البناء الحضاري للإنسان.

أما الرئيس الألماني السابق رومان هرتسوج ومعارضته نظرية صدام الحضارات:

فهو في نظري من بين الأصوات الأوروبية المعارضة لنظرية صدام الحضارات: والذي عبر عن معارضته للنظرية بشكل عملي، حيث طالب ببداية الحوار الثقافي بين الإسلام والغرب، وتبني مبادرة لإقامة هذا الحوار، وتمكن من إقناع عدد من ملوك ورؤساء الدول من بينها النرويج وأسبانيا وفنلندة وإيطاليا والمغرب والأردن، وتحمست مصر لهذه المبادرة، وتبنتها، ودعت إلى العمل من أجل تنفيذها.

وهدف مبادرة الرئيس هرتسوج تعميق التفاهم الثقافي بين العالم الإسلامي والغرب وتحقيق الالتقاء والتعاون بينهما بما يدحض نظرية هنتنجتون، ويمثل رداً عمليا عليها.

وبالنسبة لآليات تحقيق ذلك:



الآلية الأولى: ستعطي للحوار الثقافي بين الإسلام والغرب قاعدة قوية للانطلاق بها إلى مجالاتها المختلفة،وتعطيها أيضًا قدرة تنفيذية بعد بلورة المفهوم ومناقشته والدخول في مرحلته التنفيذية.

أما الآلية الثانية : فهي العمل من أجل تحقيق هذه المبادرة فتتم على مستوى المعاهد ومراكز الفكر والبحوث في الدول المعنية بالمبادرة، وقد تم اختيار معهداً لهذا الغرض يقوم بعمليات التنسيق المطلوبة وهو معهد الدراسات الشرقية في مدينة هامبورج بألمانيا، أما في مصر فقد تم اختيار معهد الدراسات الدبلوماسية التابع لوزارة الخارجية بمصر لاستخدام هذه الآلية.

أما المراحل التنفيذية التي تمت من أجل تحقيق هذه الآليات، فتتمثل في انعقاد مؤتمر دولي للحوار في برلين في ٢٣-٢٤ إبريل عام ١٩٩٩ . وقد حضر هذا المؤتمر ممثلون للمعاهد والمراكز في الدول المتبنية للمبادرة مع عدد من المفكرين.

وتمت دعوة عدد من المفكرين من دول مثل إيطاليا وفرنسا، وقد ألقى الرئيس هرتسوج كلمة الافتتاح، وأكد في كلمته على نجاح المبادرة وضرورة التصدي للرد على نظرية هنتنجتون، ورفض مفهوم صراع الحضارات.

وفيما يتعلق بعلاقة الغرب بالإسلام يؤكد هرتسوج على خطأ شائع في الغرب، وهو أن كلمة "الإسلام" ارتبطت في أذهان الكثيرين في الغرب بالتعصب الديني، والجمود والتخلف والأصولية المتشددة، وقمع المرأة والعقوبات الشديدة مثل الإعدام وغير ذلك من السلبيات.

ويقول: إن هذا الربط يعبر عن قصر نظر يجب علينا إصلاحه، ولنتذكر مرة واحدة أن تاريخ العالم شهد تنويراً إسلاميا منذ ستمائة أو سبعمائة عام،

وهي النهضة التي حافظت للغرب على قسم كبير من أصول المعرفة اليونانية الأصلية(١).

أما موقف مستشار ألمانيا السابق هيلموت شميت من حوار الحضارات:

عبر السيد هيلموت شميت مستشار ألمانيا السابق عن موقف بلاده من حوار الحضارات من خلال كلمته التي ألقاها في مؤتمر " الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري " الذي انعقد بالقاهرة عام ١٩٩٦م.

وعبر المستشار عن اهتمامه بالحوار بين الحضارات على النحو التالي: "إن اهتمامي الشخصي بالإسلام ومساندة الحوار بينه وبين الديانات والحضارات الأخرى قد استهواني طوال العقدين الماضيين بواسطة الرئيس أنور السادات؛ لأنه كان مسلماً عميق الإسلام والإيمان، وفي الوقت نفسه كان هو الشخص والإنسان الوحيد الذي خطط وقاد عملية السلام في الشرق الأوسط..(٢).

وقد أعلن المستشار الألماني عن رفضه الشديد لنظرية صدام الحضارات والديانات بقوله: "منذ ثلاث سنوات نشر الأمريكي الأكاديمي صموئيل هنتنجتون بحثًا حول عدم إمكانية تجنب أو تفادي صدام الحضارات والديانات، وإنني أعتقد أن هنتنجتون غير صائب تماماً، بل مخطئ كلياً، ومع

---

(١) الإسلام والغرب وإمكانية الحوار ، ترجمه من الألمانية صلاح محجوب ، مراجعة محمد خليفة حسن ، المجلس الأعلى للثقافة :المشروع القومي للترجمة ، العدد ٢٤٠ ،القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ٢٧ .

(٢) كلمة السيد هيلموت شميث في المؤتمر العام الثامن للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٤م ، في كتاب الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري ، سلسلة قضايا إسلامية ، العدد ١٥ ، ص ٨٣ .



هذا فإن بحثه يمكن الاستفادة به في حالة إدراكنا لمدى الخطر الذي يحيق بمستقبل البشرية " .

وأشار المستشار هيلموت في كلمته إلى العديد من الجهود الألمانية نحو تحقيق الحوار بين الأديان والحضارات، واستشهد شميت بأقوال من بيان مجلس التفاعل الذي انعقد في مايو ١٩٩٦م تحت عنوان " الحاجة إلى مقاييس أخلاقية علمية " ، من بينها: إن ديانات العالم تكون أهم نواميس الحكمة والعقل للبشرية، وإن مصادر المعايير والنماذج الأخلاقية موجودة في الديانات العالمية.

إن المفهوم العالمي للأخلاق يعطي الحد الأدنى الضروري من القيم والمعايير الإنسانية وكذلك الحد الأدنى الأساسي من التوافق المتعلق بالقيم والمواقف الأخلاقية التي تؤكدها كل الأديان، وأوصي بمبدأين هما: ضرورة المعاملة الإنسانية لكل إنسان ومعاملة الآخرين كما نحب أن يعاملنا الآخرين.

ويجب أن نتعهد بعدم استخدام العنف وضرورة احترام الحياة، والالتزام بالتضامن والتكافل في النواحي الاقتصادية، وخلق الوعي بالتسامح وخلق الوعي بالمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة، وطالب المستشار في كلمته بضرورة أن يشتمل التعليم على قيم التسامح الإيجابي لمواجهة العنف الديني مهما كان مصدره.

إن سلام البشرية يحتاج إلى كثير من التسامح المتبادل بين ديانات الشعوب المختلفة والنابع من الاحترام المتبادل، ويجب على الجامعات أن تعلم الاحترام والتسامح تجاه كل الأديان، وتراعي التضامن الديني والثقافي المتبادل.



أما الأمير تشارلز وعضوية العلاقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية:

يعتبر الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا من الشخصيات الأوروبية الرسمية المثقفة في مجال الإسلام والحضارة الإسلامية، وقد شارك في عدد من المناسبات الثقافية والدينية ذات الصلة بالشأن الإسلامي، وقد عبر في كل هذه المناسبات عن وجهة نظر غربية إيجابية تجاه الإسلام، وأبدي إعجابه الشديد بالحضارة الإسلامية ومنجزاتها، وبخاصة في مجال الفنون، واعترف بإسهامات الحضارة الإسلامية في الحضارة الإنسانية، وتعتبر آراء الأمير تشارلز من أقوى وأجرأ الآراء الإيجابية عن علاقة الحضارتين الغربية والإسلامية.

ومن أهم آرائه التي عبر عنها في إحدى محاضراته بمركز الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد: التأكيد على الصفات الحضارية للدين الإسلامي، ورفض الربط بين الإرهاب والإسلام، والاعتراف بأن الدين الإسلامي دين معتدل، والإشارة إلى عالمية ظاهرة الإرهاب وعدم ارتباطها بالمسلمين من بين كل أهل الأديان.

ولعل من أهم آراء تشارلز ربطه للتراث الإسلامي بالتراث الغربي، واعتبار الإسلام جزءا لا يتجزأ من تاريخ الغرب وله تأثير كبير على حضارات الغرب، وأكد على تفاعل الحضارة الإسلامية في تكوين النهضة الأوروبية وفي تشكيل أوروبا الحديثة(١).

---

(١) جمال معوض شقرة ،التهديد الإسلامي للغرب المعاصر بين صموئيل هنتنجتون وجون اسبوزيتو في كتاب التقاء الحضارات في عالم متغير ، حوار الصراع ، القاهرة ٢٠٠٣م هامش ١٦ ص ٣٢٢ .



أنتقل إلى موقف المستشرق الألماني فريتز شتيبات من نظرية صدام الحضارات:

أبدي المستشرق الألماني فريتز شتيبات أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة برلين الحرة اعتراضه الشديد على نظرية صراع الحضارات، واعتبرها من النظريات المدمرة للعلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي، وفي بداية مناقشته للنظرية ونقده لها يشير شتيبات إلى أمرين مهمين ينبغي أن يشارك المتخصصون الأكاديميون في مناقشتها نظراً لأهميتهما الكبرى في تحديد مصير العلاقات الغربية الإسلامية.

الأمر الأول: يرتبط بمسألة اعتبار الإسلام عقبة رئيسة في وجه الإسلام العالمي في الوقت الحاضر.

والأمر الثاني: بإشكالية الحوار بين الأديان، وبخاصة بين المسيحية والإسلام، وقد أكد شتيبات أن السنوات القليلة الماضية شهدت " ميلاً فجائيًا متنامياً في الغرب لاعتبار الإسلام خطراً يهدد العالم الحر، ويزعزع السلام على الأرض " وأن هذه الظاهرة بدأت تبرز بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية في شرق أوروبا، وأصبحت هناك حاجة إلى مواجهة تهديد بديل وخلق عدو بديل للشيوعية، والإسلام يشكل هذا البديل الملائم.

ويؤكد شتيبات: " وأنا أرى أن لهذا السلوك دافعًا عقلانيًا " ويرفض شتيبات استخدام مفهوم الحضارة والدين كمؤشر أساسي للتمييز بين أطراف الصراعات الرئيسية في العالم اليوم، كما يرفض إعطاء الدين دوراً حاسماً

في تشكيل المجموعات في نظام عالمي يتوجه نحو الحرب، ويعتبر ذلك تفكيراً خاطئًا؛ لأنه " لا الإسلام ولا المسيحية يهدفان أساسًا إلى الدعوة للحرب ... ولذلك يجب تفسير ظاهرة الحرب الدينية داخل إطارها التاريخي " .

ويكرر شتيبات رفضه لنظريات هنتنجتون فيقول : "تقوم نظرية هنتنجتون على الافتراض القائل بأن الأديان تواجه بعضها البعض بطريقة تقود بالضرورة إلى كل أنواع النزاعات بما في ذلك الحب. وأنا أرفض هذه النظرية " .

وقد اقترح شتيبات استراتيجيتين لتجنب هذا الخطر:

الاستراتيجية الأولى: هي تفادي تأليف تكتلات سياسية مؤيدة لنشوب النزاعات ذات الصبغة الدينية.

الاستراتيجية الثانية: هي " العمل باتجاه التفهم والتفاهم وإيجاد الأرض المشتركة بين أتباع كل الديانات بما يقلص من احتمالات التأزم، ويلقي شتيبات بالمسؤولية على المتخصصين، لكي يضعوا مقولة صدام الحضارات " داخل إطارها التاريخي، وأن يصححوا أنماط التفكير اللاتاريخية.

وتعتبر نظرية هنتنجتون الخاصة بصراع الحضارات نمطًا من أنماط التفكير اللاتاريخي.

ويعتبر شتيبات مهمة الحوار بين الحضارات والحوار بين الأديان، ونشر الإحساس بأن الطرف الآخر لا يسعى إلى التدمير أو الإيذاء، ولا يهدف إلى التصادم، بل إلى التفهم وإيجاد أرضية مشتركة للتعايش البناء والتعاون، ويؤكد أن الأزمات الكبرى في العصر الحالي لا تقوم في الحقيقة على قاعدة دينية أو حضارية.



ومن السيدات رؤية المستشرقة الألمانية آنا ماري شميل

تعتبر المستشرقة الألمانية آنا مارى شميل من أهم علماء الغرب المهتمين بحوار الحضارات وبالحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وللمستشرقة مواقف جريئة وشجاعة في هذا الخصوص.

وقد تعرضت في عام ١٩٩٥م لحملة يصفها الدكتور محمود حمدي زقزوق بأنها حملة ظالمة من جانب الإعلام الألماني والغربي حين وصفت عمل سلمان رشدي بأنه يمثل إهانة للأمة الإسلامية. ولا تزال تواصل إسهاماتها في قضية الحوار بين الشرق والغرب. وهي أعمال تمهد السبيل لحوار جاد مع الغرب يؤدي إلى تحقيق المزيد من التفاهم المشترك، وتصحيح المفاهيم الخاطئة والأفكار المغلوطة عن الإسلام وحضارته.

ويصف الدكتور محمود فهمي حجازي جهود آنا ماري شميل بأنها جهود جادة في إطار الحضارات، ولها دور في مقاومة جهود دعاة الصدام وإثارة الجماهير.

وفي موضوعية تامة تقول آنا ماري شميل ((إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي كثيراً ما تعرض للهجوم. وقد نشأ هذا كله من عدم الفهم الصحيح له، حيث بدأت في أوروبا أسطورة تهديد المسلمين لعالم الغرب الأوروبي منذ ما يقرب من ألف عام ... وقد نشأت عن بعض الأحداث التاريخية تصورات مغلوطة عن الإسلام والمسلمين باعتبارهم العدو التقليدي للمسيحية في أوروبا)) وقد اهتمت المستشرقة في دراساتها المتعددة بإعطاء الصورة الصحيحة عن الإسلام، مركزة على توضيح أثر



الحضارة الإسلامية في ازدهار الثقافة الغربية، وأوضحت تأثير الثقافة الإسلامية في الفنون والآداب الغربية، وتأثير علوم المسلمين الطبيعية في النهضة العلمية الأوروبية مؤكدة على الالتقاء والتفاعل الحضاري بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

أما المستشرق الأمريكي جون اسبوزيتو ونقد نظرية صدام الحضارات:

يعتبر جوز اسبوزيتو من أهم المستشرقين الأمريكيين المدافعين عن حوار الحضارات وعن التقاء الحضارتين الإسلامية والغربية، وفي نفس الوقت يعتبر اسبوزيتو من أشد المعارضين لنظرية صدام الحضارات، وقد نقدها نقداً شديداً في عدد من أعماله من أهمها كتابه المهم " التهديد الإسلامي: خرافة أم حقيقة " (١).

وكما يتضح من عنوان الكتاب أنه يثير دعوى التهديد الإسلامي للغرب وحضارته ويناقش حقيقة هذه الدعاوي التي تبناها أنصار صراع الحضارات في الغرب، وأنصار حتمية الصراع بين الحضارتين.

ويحاول اسبوزيتو في أعماله الإجابة على مجموعة تساؤلات مطروحة بقوة في الغرب في الوقت الحالي من أهمها: هل التصادم حتمي بين الإسلام والغرب، وهل يشكل الإسلام تهديداً للغرب ومصالحه؟ وهل الحضارة الإسلامية مهددة للحضارة الغربية؟

وفي إجاباته المتعددة ينقد اسبوزيتو الكتّاب الغربيين ورجال الصحافة الذين يبالغون في تصوير الخطر الإسلامي وبخاصة هؤلاء الذين يركزون

---

(١) John l Esposito ,the Islamic threat , myth or reality



على مفهوم العدو الجديد للغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار الشيوعية، ويعتبرون الإسلام هو الممثل للخطر والعدو الجديد.

إن هؤلاء الكتاب يشوهون طبيعة الإسلام وطبيعة الحضارة الإسلامية، ويقلبون الحقائق السياسية والحضارية للعالم الإسلامي، ويقعون في درجة مدهشة من الجهل والتنميط الثقافي للعرب والمسلمين، ويرفض اسبوزيتو استخدام مصطلحات "الأصولية" و "الإسلام المسلح" وغير ذلك من المصطلحات المعمقة لمفهوم الصدام، وهو عادة ما يفضل استخدام مصطلحات "الإحياء الإسلامي" و "النشاط الإسلامي" وغير ذلك من المصطلحات غير المحملة عن قصد بالدلالات الصدامية.

وفي تحليله لأسباب الحملة الغربية على الإسلام وحضارته يشير اسبوزيتو إلي قاعدة الكراهية التقليدية والموروثة والتي ثبتها ميراث الحروب الصليبية والاستعمار الأوروبي، كما يشير أيضاً إلى المخاوف الغربية الحديثة والمعاصرة من بعض النماذج المثيرة للتخوف الغربي من المسلمين، ومنها نموذج الثورة الإسلامية الإيرانية على يد آية الله الخميني، والنموذج الأفغانستاني ممثلاً في حركة طالبان ،والصورة التي يثيرها صدام حسين لدى الغرب، وقد زادت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ م حدة هذه المخاوف لدى الغرب والأمريكيين، وأضافت تنظيم القاعدة إلى مجموعة الاتجاهات الإسلامية العنيفة والمسلحة. وهذه وغيرها أدت في النهاية إلى الربط العضوي في الذهنية الغربية بين الإسلام والإرهاب.

ويدافع اسبوزيتو عن العلاقات الإسلامية الغربية في الماضي مشيراً إلى فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية، ويؤكد على تسامح المسلمين مع غير المسلمين منذ بداية الإسلام، وأن حياة غير المسلمين تحت حكم الإسلام كانت أفضل من حياتهم تحت الحكم السابق على الإسلام، وأن الجماعات اليهودية والمسيحية ساعدت الجيوش الإسلامية على فتح بلادهم رغبة في التخلص من الاضطهاد الذي عانته هذه الجماعات تحت الحكم الأجنبي.

وهناك أمران أفسدا العلاقات الغربية الإسلامية، وهما: حركة الاستعمار الأوروبي للبلاد الإسلامية وحركة التنصير المسيحي في بلدان العالم الإسلامي(١).

يناقش اسبتوزيتو في كتابه دعوى التهديد الإسلامي للحضارة الغربية ،ودعوى صدام الحضارات، وينفي بشدة أن يكون الإسلام مهدداً للغرب وحضاراته، ويحجم هذا الادعاء، ويضعه في حجمه الحقيقي بالقول: بأن الحضارة الإسلامية تمثل تحدياً للحضارة الغربية وليس تهديداً ؛ باعتبارها أسلوباً مختلفاً عن حياة الغرب، ونظاماً ثقافياً قوياً ومغايراً للحضارة الغربية، ويذكر بتفاعل الحضارتين تفاعلاً إيجابياً في الماضي بشكل أفاد الحضارتين وأثراهما.

ويوجه اسبوزيتو نقداً شديداً لنظرية صدام الحضارات لهنتنجتون؛ واصفاً إياها بأنها نظرية استفزازية، ويرفض ترشيح الإسلام باعتباره عدواً تاريخياً للغرب ليحل محل الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية، ويشير اسبوزيتو إلى " أهمية تجاوز القوالب النمطية والإجابات الجاهزة

(١) ياسر خليل ، حتمية الصدام بين الإسلام والغرب ، وصراع الحضارات ...حقيقة أم خرافة، اسبوزيتو ينتقد هنتجتون ،جريدة الشرق الأوسط ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٢ م .



وضرورة التمييز بين البديل الديني والأيديولوجي وبين التهديد السياسي المباشر، والفصل بدقة بين الأسطورة والحقيقة وبين وحدة الإسلام والأشكال المتعددة والمتنوعة، وبين أعمال العنف التي ترتكبها القلة وبين الآمال والسياسات المشروعة للأغلبية " .

ويرفض اسبوزيتو الأسباب التي أوردتها نظرية صدام الحضارات للصراع بين الإسلام والغرب، كما رفض نظرية تهديد النمو السكاني في العالم الإسلامي للغرب والتي قال بها باتريك بوكانانت، والرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون.

ويرى اسبوزيتو أن الأسباب الحقيقية للصراع تتمثل في تصارع المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويطالب اسبوزيتو الغرب بالنظر إلى الأمور في واقعها الحقيقي وعدم المغالاة في النظر إلى العالم الإسلامي من منظور التطرف والإرهاب؛ لأن هذا التوجه سيؤدي في النهاية إلى نسف العلاقات بين الغرب والإسلام، ويطالب بإسقاط نظرية العدو الإسلامي وتحقيق التفاعل مع الإسلام وحضارته من خلال العلاقات الإيجابية، فالتهديد الإسلامي للغرب مجرد أسطورة.

استراتيجية ثقافية إسلامية جديدة:

لا أغالي إذا قلت إننا بحاجة ماسة إلى وضع استراتيجية ثقافية إسلامية جديدة للحوار، نواجه بها تحديات العولمة وقضاياها المعاصرة.. استراتيجية محكمة ذات شقين:



الأول: ما يخص العالم الإسلامي كوحدة متكاملة بكل ما فيه من قضايا ومشكلات وتباين وفروقات مذهبية وطائفية، والوصول إلى وضع استراتيجية إسلامية تستوعب كل هذه التباينات.

والثاني: العالم من حولنا شرقًا وغربًا وكيفية التعامل معه والتفاهم حول القضايا المشتركة في ضوء استراتيجية تؤكد الهوية الإسلامية والذاتية.

وإذا سمحتم لي بنقاط أخيرة، فإنني أود الإشارة إلى ما يأتي:

١- الاهتمام بالأنشطة الشبابية خاصة بين شباب العالم الإسلامي في المجالات الثقافية والدينية والرياضية لدعم الحوار بين الشباب المسلم في كل الأقطار، وتحصينه ضد التيارات الفكرية والاجتماعية غير المستحبة والمنافية لديننا الإسلامي.

٢- الاهتمام بإعداد الطاقات الإعلامية الواعية، وإنشاء فضائيات متخصصة تبلور الفكر الإسلامي، وتعبر عن الثقافة الإسلامية المعاصرة وتحديات المجتمع العالمي المعاصر، وتعتبر كمرجعية إسلامية لاستقاء المعلومات والأفكار الصحيحة.

٣- الاهتمام بالجيل الثاني والثالث من أبناء المهجرين المسلمين في المجتمعات الغربية، وتزويدهم بالمعرفة الإسلامية الصحيحة ودعم ثقافتهم الإسلامية.

إن توصيات عديدة أصدرتها مؤتمرات إسلامية عديدة؛ لذلك فإنني أجد من واجبي الدعوة إلى جمع كل هذه التوصيات السابقة وتنسيقها ووضع آلية جديدة لتفعيلها وتنفيذها ومتابعتها.



وبعد، فإنني أتوجه بالشكر لرابطة العالم الإسلامي ولسعادة أمينها العام معالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي على اهتمامه بهذه القضية المهمة من قضايا الأمة الإسلامية.. هذه القضية التي تعتبر الآن من أهم قضايا الساعة على الصعيد الدولي في عصر اقتربت فيه المسافات أو ربما تلاشت، وتقاربت الأفكار والرؤى، وبرزت الحاجة الماسة إلى التفاعل الحضاري وإلى الحوار الذي لم يعد ترفًا، بل ضرورة تفرضها تداعيات العولمة التي نعيشها الآن، حتى نكون واعين لما تفرضه من تبعات ثقال وأعباء جسام.

والله ولي التوفيق..

الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري

د. حسن عزوزي

رئيس تحرير مجلة كلية الشريعة

جامعة القرويين



تمهيـد

لا يجادل اثنان في كون الدعوة إلى حوار الحضارات تعتبر سمة من سمات النصف الثاني من القرن العشرين ، وكأنما أدرك العالم بعد اكتوائه بلظى حروب عالمية مدمرة أن البشرية لا تستطيع أن تتحمل حروباً أخرى بعد أن حصدت ويلات كثيرة أسهمت في تفاقم المشكلات الجوهرية الكبرى التي ظل يعاني منها كل من الغالب والمغلوب ، لذلك بادرت جهات ومؤسسات كثيرة في العالم إلى تبني الدعوة إلى حوار الحضارات أملاً في الالتقاء على مبادئ موحدة وقواسم مشتركة بين أتباع مختلف الحضارات؛ تكون كفيلة بفتح الطريق للتفاهم والتعاون والتعايش .

لقد دعت محافل ومنظمات كثيرة إلى حوار الحضارات منذ الستينات من القرن المنصرم ، ثم انتهى الحوار إلى أوراق نشرت في كتب وأذيعت في صحف، لكنها لم تثمر نتائج ملموسة حتى الآن ، وعندما ترددت في أرجاء العالم السياسية والفكرية نظرية هنتجتون عن " صدام الحضارات " كان البديل المنطقي الذي تمت المسارعة إلى استدعائه هو " حوار الحضارات " الذي تمت الدعوة إليه بقوة في جميع المحافل والملتقيات والعمل على إنجاحه؛ قصد تجنيب العالم ويلات الصراع وكوارث الصدام الحضاري.

وإذا كانت جهات غربية كثيرة قد دأبت على الدعوة إلى حوار الحضارات وفق شروط وضوابط معينة أملتها ظروف التفوق والاستعلاء الغربي ، فإن الطرف الإسلامي خاصة في عصر الصحوة الإسلامية الراهنة لم يكن بعيداً عن فكرة تنظيم مؤتمرات وملتقيات دولية لترسيخ آليات الحوار والتقريب بين الثقافات والحضارات من طرف مؤسسات ومنظمات ثقافية إيماناً منها بأن



" حوار الحضارات " يعتبر مطلباً إسلامياً مُلِحّاً يدعو إليه القرآن الكريم وتبشر به السنة النبوية الشريفة.

وبقدر ما تعظم الحاجة إلى حوار جدي بين الثقافات والحضارات لإقامة جسور التفاهم بين الأمم والشعوب ولبلوغ مستوى لائق من التعايش الثقافي والحضاري؛ تقوم الضرورة القصوى لتهيئ الأجواء الملائمة لإجراء هذا الحوار وإيجاد الشروط الكفيلة بتوجيهه الوجهة الصحيحة.

إن نقطة الانطلاقة الأولى لأية استجابة فعالة تبدأ عن طريق فهم الذات وفهم الآخر، فالبداية أن نتعرف على واقعنا كما هو بالفعل دون رهبة أو خجل، ودون تهوين أو تهويل، ثم التعرف على الآخر وفهمه، وهو هنا الغرب وحضارته.

إن الانعزال والتقوقع والانغلاق على الذات في عالم اليوم الذي تحول إلى قرية صغيرة بحكم التطور التقني الهائل في تكنولوجيا الاتصال أمر مستحيل ، كما أن الانسياق وراء الدعوة إلى حضارة عالمية واحدة هو بحد ذاته عملية تكريس لهيمنة الحضارة الغربية الكاسحة، وهو طريق التبعية الحضارية الذي يفقدنا خصوصيتنا الحضارية ويحولنا إلى مجرد هامش لحضارة الغرب[١].

وتبقى الدعوة إلى حوار الحضارات التعبير الأسمى الذي يحقق الذات ويكفل الانفتاح على الآخر ويثمر مستوى لائقاً من التعايش الثقافي والحضاري المنشود.

---

(١) مستقبل العالم الإسلامي (سلسلة دورية يصدرها مركز دراسات العالم الإسلامي بمالطا) العدد ٩ (السنة ٣/ ١٩٩٣) ص ١٤٤ .



المبحث الأول: الإسلام والتفاعل بين الحضارات

إن التقاء الحضارات معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية ، وهو قدَرٌ لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه ، وقد تم دائماً وأبداً وفق هذا القانون الحاكم التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام وبين ما هو خصوصية حضارية[١] .

ولاشك أن الخيار البديل لصدام الحضارات هو أن تتفاعل الحضارات الإنسانية مع بعضها البعض؛ بما يعود على الإنسان والبشرية جمعاء بالخير والفائدة ، فالتفاعل عملية صراعية، ولكنها متجهة نحو البناء والاستجابة الحضارية لتحديات الراهن؛ عكس نظرية " صدام الحضارات " التي هي مقولة صراعية تدفع الغرب بإمكاناته العلمية والمادية لممارسة الهيمنة ونفي الآخر والسيطرة على مقدراته وثرواته تحت دعوى وتبرير أن نزاعات العالم القادمة سيتحكم فيها العامل الحضاري[٢].

بيد أن التفاعل الحضاري لا يمكن أن يتم ويتحقق إلا عن طريق حوار بناء وفعال بين الأديان ، وقد سبق لعالم اللاهوت الألماني هانس كينغ (Hans Kung)[٣] أن قال : " لا حوار بين الحضارات بدون سلام، ولا سلام بدون حوار بين الأديان " ، وإذا كان القرن الواحد والعشرون هو قرن الأديان بامتياز كما قال المفكر والكاتب الفرنسي اندريه مالرو، فإن الدين قد أضحى منبع الثقافات

---

(١) د. محمد عمارة ، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، طبعة الأزهر ١٩٨٨ ص ٢٠٥ .

(٢) د. محمد محفوظ ، مرجع سابق ص ١٣٧ .

(٣) Hans kung; Le christianisme et les religions du monde, ed le Seuil, Paris 1986 p14



وملهمها ، ومنه تتأتى معظم خصوصيات الشعوب ومقوماتها، والحوار بين أهل الأديان المختلفة لايمكن أن يكون له من هدف سوى أن ييسر للناس العيش معاً في مجتمعات مختلفة الأديان عيشاً تسود فيه الأخوة الإنسانية ويرمي إلى أن لا يظلم أحد حقاً هو له بسبب تميزه الديني عن الآخرين ، كما يرمي إلى تحقيق "العيش المشترك" في عالم يسع الجميع؛ مهما كانوا متباينين على المستوى العقائدي والثقافي والحضاري.

والإسلام كونه ديناً وحضارة عندما يدعو إلى التفاعل بين الحضارات ينكر (المركزية الحضارية) التي تريد العالم حضارة واحدة مهيمنة ومتحكِّمة في الأنماط والتكتلات الحضارية الأُخر(١). فالصحوة الإسلامية المعاصِرة تسعى إلى أن يكون العالم (منتدى حضارات) متعدد الأطراف ، ولكنه مع ذلك لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب بالمركزية الحضارية القسرية ، إنما تريد لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند في كل ما هو مشترك إنساني عام(٢).

وإذا كان الإسلام ديناً عالمياً وخاتم الأديان؛ فإنه في روح دعوته وجوهر رسالته لا يرمي إلى تسنم (المركزية الدينية) التي تجبر العالم على التمسك بدين واحد ، إنه ينكر هذا القسر عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سنة من

---

(١) إنه ما يعبر عنه –للأسف الشديد– كثير من الساسة وأصحاب القرار في الدول الغربية ، فكولين باول قد صرح منذ عشر سنوات تقريباً قائلا : " نحن الآن القوة الأعظم، نحن الآن اللاعب الرئيسي على المسرح الدولي وكل ما يجب علينا أن نفكر فيه الآن هو مسؤولياتنا عن العالم بأسره ومصالحنا التي تشمل هذا العالم كله " . (جريدة الأهرام المصرية ١٩/٦/١٩٩٢)

(٢) د. محمد عمارة: العطاء الحضاري للإسلام ،دار المعارف بالقاهرة ١٩٩٧ ص ١٢١ .



سنن الله تعالى في الكون ، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة: ٤٨)وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود: ١١٨-١١٩)

إن دعوة الإسلام إلى التفاعل مع باقي الديانات والحضارات تنبع من رؤيته إلى التعامل مع غير المسلمين الذين يؤمنون برسالاتهم السماوية ، فعقيدة المسلم لا تكتمل إلا إذا آمن بالرسل جميعاً ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾(البقرة: ٢٨٥).

بيد أنه لا يجوز أن يفهم هذا التسامح الإنساني الذي جعله الإسلام أساساً راسخاً لعلاقة المسلم مع غير المسلم على أنه انفلات أو استعداد للذوبان في أي كيان من الكيانات التي لا تتفق مع جوهر هذا الدين . فهذا التسامح لا يلغي الفارق والاختلاف ولكنه يؤسس للعلاقات الإنسانية التي يريد الإسلام أن تسود حياة الناس ، فالتأكيد على الخصوصيات العقائدية والحضارية والثقافية، لا سبيل إلى إلغائه، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الخصوصيات أن تمنع التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينها[(١)].

إن الصحوة الإسلامية المعاصرة تقوم على أساس التفاعل الحضاري، فهي لهذه الخاصية ثقافة حوار في المقام الأول حيث أخذت الحضارة الإسلامية عن الحضارات السابقة واقتبست من ثقافات الأمم والشعوب التي احتكت

(١) د. عبد العزيز بن عثمان التويجري : الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري . سلسلة المعرفة للجميع رقم ٣-الرباط ١٩٩٩) ص ٧٤ .



بها وصهرت حصيلة هذا كله في بوتقة التفاعل الحضاري ، فكانت حضارة الإسلام ولا تزال مثالاً نادرا للتفاعل بين الحضارات.

ولقد كان لحيوية الحضارة الإسلامية وقوتها الذاتية الدافعة لها إلى التطور والتقدم والإبداع الأثر القوي في نقل روح المدنية إلى العالم الغربي ، وهو الأمر الذي يعترف به ويشهد له معظم الكتاب والمؤرخين والمفكرين الغربيين الذين برئوا من الهوى والغرض ، وكتبوا بإنصاف عن خاصية التفاعل الحضاري في الإسلام.

ولعلنا لا نغالي إذا أكدنا هنا على أن الإسلام وهو دعوة الله إلى الناس كافة ورسالته- سبحانه وتعالى- إلى العالمين هو الدين الذي يدعو إلى التفاعل الحضاري دعوة صريحة قوية ويحث عليه حثاً ، على اعتبار أن الحوار الذي نادى به الإسلام هو في طبيعته وجوهره ورسالته تفاعل حضاري، كما لا نحتاج إلى أن نقول إن قاعدة التسامح التي يقوم عليها الإسلام فتحت أمام الأمة الإسلامية السبيل إلى سبل الاحتكاك الواسع بالأمم والشعوب ، وشجعت الحضارة الإسلامية على التفاعل مع الثقافات والحضارات جميعا ، ونعني بالتسامح الديني – تحديداً- أن تكون لكل طائفة في المجتمع الإسلامي الحرية في تأدية شعائر دينها ، وأن يكون الجميع أمام قوانين الدولة الإسلامية سواء. وإذا نظرنا إلى الإسلام من حيث مبادئه وتعاليمه الأصلية نجد أنه هو أرقى الأديان في تحقيق مبدأ التسامح الذي هو القاعدة الأولى للتفاعل الحضاري[١].

---

(١) العالم الإسلامي " تصدر عن رابطة العالم الإسلامي، عدد ١٥ فبراير ١٩٩٩ ص ٣" .



وفي سياق التفاعل الحضاري المنشود يمكن القول باحتمال أن تتقدم حضارة على أخرى بهذا الجانب أو ذاك كما هو الشأن بالنسبة للحضارة الغربية في عالم اليوم ،ولكن القول بأفضلية حضارة على أخرى هو قول متهالك ، فمن يستطيع إثبات أن هذه الحضارة أفضل من تلك أو أغزر ثقافة أو حكمة وإنسانية وتسامحاً ، ولا يوجد في الواقع أي مقياس أو معيار نقيس به هذه الأفضلية في كل الجوانب ؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى كيف يمكن الاقتناع بأن العلاقة بين الحضارات محكومة بعلاقة الصراع لا التفاعل والحوار ، وأن انتصار حضارة في هذا الصراع هو انتصار أبدي ، وهل هناك أبدي باستثناء القيم العليا للإنسانية قيم الحق والخير والسلم والتعاون والتسامح والمشاركة في الحضارة واحترام الآخر وحقوق الإنسان والشعوب وثقافاتها وتقاليدها وقيمها الروحية والمادية وتجاربها ومنجزاتها؟(١).

إن شرط ازدهار هذه القيم في أية حضارة يرتبط أساساً بمدى قدرتها على التفاعل مع معطيات الحضارات الأخرى ومكوناتها، وبالتالي الاعتراف بهذه الحضارات ومحاورتها وقبول تعددية الثقافات وتفهم مفاهيم وتقاليد الآخرين ، واعتبار الحضارة الإنسانية نتاجاً لتلاقح وتفاعل هذه الحضارات لا صراعها فيما بينها أو استعلاء بعضها على البعض الآخر.

والحضارة الإسلامية منذ نشوئها وتكونها لم تخرج عن هذا الإطار التواق إلى التفاعل مع الحضارات الأخرى أخذاً وعطاء ، تأثراً وتأثيراً .

لقد حمل العرب قيم الإسلام العليا ومثله السامية وأخذوا في نشرها

---

(١) مجلة التوحيد ، عدد سابق ، مقال لحسين العودات ص٨١ .



وتعميمها في كل أرجاء الدنيا ، وبدأت عملية التفاعل بينها وبين الحضارات الفارسية والهندية والمصرية والحضارة الأوروبية الغربية فيما بعد ، ومع مرور الزمن وانصرام القرون نتجت حضارة إسلامية جديدة أسهمت في إنضاجها مكونات حضارات الشعوب والأمم التي دخلت في الإسلام ، فاغتنت الحضارة الإسلامية بكل ذلك عن طريق التلاقح والتفاعل ، وكانت هي بدورها فيما بعد عندما استيقظت أوروبا من سباتها وأخذت تستعد للنهوض مكوناً حضارياً ذا بال أمد الحضارة الأوروبية الغربية بما تزخر به اليوم من علوم وقيم وعطاء حضاري متنوع.

ذات الشيء يمكن قوله عن الحضارة الغربية التي لم تظهر فجأة بل تكونت خلال قرون عديدة حتى بلغت أوجها في عصرنا الحاضر، وذلك نتيجة التفاعل الحضاري مع حضارات أخرى هيلينية ورومانية وغيرها، وبفعل التراكم التاريخي وعمليات متفاعلة من التأثر والتأثير خلال التاريخ الإنساني الحديث.

إنه لو لم يكن هنالك تفاعل حضاري، وكان بالمقابل تدمير ومحو كل حضارة لما قبلها من خلال صراعها معها، لما كانت الحضارة الغربية على الصورة التي هي عليه الآن.

إن مما قاله برنارد لويس في معرض نقده لنظرية الصدام الحضاري : " لقد كانت هناك حضارات مهيمنة في الماضي ، وبدون شك ستكون هناك أخرى في المستقبل ، الحضارات الغَربية تدمج حداثات سابقة عديدة بمعنى أنها مثرية

---

(١) برنارد لويس : الحضارة الغربية دمج حداثات،والإسلام أول من سعى إلى العالمية. السفير البيروتية (٧/ ٢/ ١٩٩٧) ترجمة فؤاد حطيط عن دورية (شؤون خارجية الأمريكية عدد يناير ١٩٩٧).



بإسهامات وتأثيرات ثقافية أخرى سبقتها في الزعامة ، وهي نفسها ستترك إرثاً ثقافياً غربياً لحضارات أخرى ستأتي "(١).

إن أكبر دليل على أن الصحوة الإسلامية لم تسع في أي وقت من الأوقات إلى التصادم مع الحضارة الغربية كما ينذر بذلك أصحاب نظرية الصدام الحضاري؛ هو أن العرب والمسلمين لم يضعوا في أي زمن من الأزمان صوب أهدافهم القضاء على خصوصيات الحضارة الغربية وهويتها الحضارية.

كما نجد الفكر العربي والإسلامي قد اتجه بانفتاح وقوة صوب التراث الغربي للاستفادة منه وتطويره ، لقد كان هنالك فعلا استجابة سريعة للحضارة الإسلامية في تفاعلها مع الحضارة الغربية ، وهذا ما لا نلمسه في الحضارة الغربية التي لا تسعى إلى الاستفادة من تراث ومعطيات الحضارات الأخرى.

من جهة أخرى فإنه لما كان أمام العالم الإسلامي مهام مستعجلة لبناء الذات وتقدم المجتمع وازدهار الحياة؛ فهو مدعو اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الانفتاح على آفاق العصر على امتداداتها والتفاعل مع الحضارات الأخرى . كما أن الدخول في حوارات جدية وهادفة مع دوائر عديدة وعلى مستويات متنوعة فيه إثبات للعالم أجمع أنه جدير بالمساهمة في صياغة حضارة إنسانية جديدة تسود فيها قيم الحق والفضيلة والتسامح والتعاون ومباديء السلم.

المبحث الثاني: الإسلام يتعايش ولا يتصادم

على الرغم من الانهيار التلقائي للمعسكر الشيوعي؛ فإن الغرب قد سعى إلى الترصد للقوى الحضارية المحتمل ظهور فاعليتها أو بالأحرى استعادة هذه الفاعلية على الصعيد العالمي بقصد وقف تأثيرها ونفوذها .

وفي هذا السياق يكمن الموقف المتخذ ضد الإسلام والمسلمين والمتمثل في محاولة إظهار هذا الدين ومعتنقيه بصور مشوهة عديدة ، لعل من أبرز ملامحها التشدد والتطرف والتعصب وعدم القدرة على " التعايش " مع الآخر.

إن أصحاب نظرية الصدام الحضاري وهم يؤكدون على أن الحضارة الإسلامية هي المرشحة للتصادم مع الغرب يركزون على دعوى عدم قابلية الإسلام للتعايش مع الحضارات الأخرى ، بزعم أنها حضارة إقصائية وانعزالية ومتعصبة، وكل هذا فيه تجن واضح على الإسلام وحضارته. والذين يصمونه بتلك الصفات السلبية التي لا تسمح بالتعايش السلمي مع الآخرين لا يعرفون الإسلام في عقيدته وشريعته وأخلاقه وغير ذلك من الجوانب التي تطبعها " السماحة " في أجلى وأسمى معانيها.

إن التعايش سمة مميزة للإسلام وملمح جامع يطبع كل جوانبه التشريعية والسلوكية إنها إحدى أهم قيم هذا الدين وصفاته المميزة التي تعني الحرية للبشر كافة والمساواة بينهم من غير تفوق جنسي أو تمييز عنصري.

إنه ليس هنالك ثمة ما هو أبلغ وأوفى بالقصد في الدلالة على عمق مبدأ التعايش في الإسلام من الآية الكريم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً



أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ذلك أن المساحة المشتركة بين المسلمين وأهلَ الكتاب مساحة واسعة، وإذا كان الإسلام قد جعل في قلوب المسلمين متسعاً للتعايش مع بني الإنسان كافة؛ ففيه من باب أولى متسع للتعايش بين المؤمنين بالله، ويشهد التاريخ أن معاملة المسلمين لغيرهم في البلاد المفتوحة كانت مثالاً رائعاً من التسامح لا مثيل له في التاريخ، ولعل من أكبر الأدلة وأقوى الحجج على قيام الحضارة الإسلامية عبر العصور على أساس متين من التسامح في أسطع معانيه هو تعايش المسلمين مع أهل الديانات والملل والعقائد في البلدان التي فتحوها خلال قرون متطاولة وعهود مديدة، ويدل ذلك على أن التعايش مبدأ من المبادئ التي قامت عليها الحضارة الإسلامية والذي يرمي إلى القضاء على أسباب التوتر واضطراب حبال الأمن والسلام وعدم الاستقرار.

إن من أبرز معالم التعايش السلمي الذي يقره الإسلام للآخر هو توفيره لغير المسلمين بوجود اندماجي يحافظ فيه على جميع مكونات شخصيته، وفي طليعتها المكون الديني وما يرتبط به من ممارسات وعادات بها يؤكد ذاته عقدياً وثقافياً ونفسياً، ومعها يثبت خصوصيات هويته مما يتحقق به الانتماء إلى ذلك المجتمع.

إن المتأمل في دعوة الإسلام إلى التعايش السلمي يجدها قائمة على الحوار الفعال والجدي الذي هو في الإسلام حوار معرفي متكافئ يهدف إلى التفاهم والالتقاء على نقط وقواسم مشتركة وليس إلى التقابل الجدلي العنيف أو الصدام الحضاري كما يتوهم أن يكون، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ



بالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

وقوله سبحانه: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت :٤٦).

من جهة أخرى تنبني دعوة الإسلام إلى التعايش الحضاري بين الأمم والشعوب على جملة من الأسس منها.

١-أن الإسلام لا يرغم المخالفين في الدين على اعتناقه ولا يكرههم عليه، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ، كما أنه يحمي النفس الإنسانية أياً كانت عقيدتها أو جنسيتها إلا في حالة العدوان ، ويعتبر قتل الفرد جريمة تعادل في بشاعتها قتل أبناء الإنسانية كلها ، قال تعالى:﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾(المائدة: ٣٤).

٢-أن دعوة الإسلام إلى التعايش والسلم لا تعني قبول العدوان والطغيان والاستسلام للظلم والفساد ، وما إلى ذلك؛ مما هو طعن في الحياة البشرية التي أقام الله شريعتها على أساس التعارف والتسامح والتعايش والتساكن.

٣- أن الإسلام بهذه الدعوة السامية يعتبر الأصل هو الجنوح إلى السلم قال تعالى:﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٦١)، وقال أيضاً :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

كما لا يدعو الإسلام إلى اللجوء إلى الحرب إلا عند الضرورة؛ بدليل أن رسول الله ﷺ نهى عن تمني القتال ودعا الصحابة إلى الثبات عند الاضطرار إليه ، وذلك حين قال: ((لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموه



فاثبتوا واذكروا الله كثيراً)) [١] ومن ثم فهو يعتبر الحرب خرقاً للسلام، وجريمة ما لم تدع إليها حالات معينة تبيحها وتكون فيها عادلة ومشروعة[٢].

إذن إنه ليس بدعاً أن يكون الإسلام بهذا التفرد دين " التعايش السلمي " وليس دين الصدام الحضاري كم يُتَّهم بذلك ، فهو آخر الأديان ، أي كلمة الله الأخيرة ، وقد استطاع أن يقيم أمة عاش في كنفها المسلمون وغيرهم ، وعاشت هي في علاقات مع غيرها أساسها التعارف، مما جعل ويجعل للإسلام رسالة تبدأ من التوحيد، وتنتهي بالدعوة إلى الوحدة التي يتعايش داخلها كل البشر تحقيقاً للعدل الحضاري والمساواة والكرامة الإنسانية ، بعيداً عن أي لون من ألوان الصراع وفي منأى عن أي مظهر من مظاهر الصدام الحضاري الذي يستحيل أن يكون الإسلام يحمل شيئاً من بذوره.

إن الإسلام بهذه المعاني والمباديء السامية قد تجاوَز كل عوامل ودعوات النزاع والصراع، وذلك بتسامحه وسعة آفاقه وقدرته الفائقة على الهضم والامتصاص ولَمِّ المنضوين في ظله حتى من غير المسلمين، فهم ينظرون لأنفسهم وللآخرين وللكون من حولهم برؤية شمولية واضحة تتيح التعايش في نطاق التسامح والتساكن وتبادل المصالح والمنافع في أخذ وعطاء دائمي ن،مما لا تتحقق جدواه إلا انطلاقا من التعدد والتنوع وما ينشأ عنهما من خصوصيات وتميزات ينتهي بها التفاعل إلى الائتلاف والانسجام ويجمعها المدلول الرحب الذي عبر عنه القرآن الكريم بمفهوم التعارف الذي يتجاوز مجرد مظاهر العيش المشترك.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد عن أبي هريرة.

(٢) مجلة "الإسلام اليوم" الصادرة عن الإيسيسكو ، العدد ١٤ / ١٩٩٦ ص ٣٩ .



المبحث الثالث: تعارف الحضارات، نفي للصراع وسعي إلى الحوار

إذا كانت الدعوة إلى حوار الحضارات إحدى أبرز خصائص النصف الثاني من القرن العشرين بما شهده من مبادرات ودعوات سواء من الجانب الإسلامي أو من الجانب الغربي الكنسي؛ فإن العقود الأولى من القرن الذي استقبلناه يؤمل أن تشهد ترجمة حقيقية على أرض الواقع لمختلف النظريات المبشِّرة بتأسيس جسور وقواعد مشتركة للتعاون والتعايش بين مختلف الحضارات والثقافات، وهو ما سوف يشكل - لا محالة- تحدياً بارزاً لدعاة ومروجي مختلف النظريات الموغلة في التشاؤم حول صدام الحضارات والصراع فيما بينها، وترشيح الحضارة الإسلامية لأن تكون محوراً رئيسياً في ذلك الصراع المزعوم.

وتبقى دعوة الإسلام في ضوء المعطيات القرآنية المختلفة إلى تأسيس تعارف حضاري بَناء بين مختلف القوميات والثقافات والحضارات دعوة طموحة وهادفة ترمي إلى دحض وتفنيد المزاعم والدعاوى التي تجعل من الحضارة الإسلامية حضارة صدامية أكثر منها حوارية، كما تهدف إلى طرح مفهوم " تعارف الحضارات " كمبدأ إنساني حضاري هام له أكبر الدور في ردع النزاعات ومنع الصراعات من جهة وتقريب الأفكار والمسافات ونسج أواصر التعارف والتفاهم والتعارف بين الأمم والشعوب من جهة أخرى.

إن دعوة الإسلام إلى تعارف الحضارات تمهيدا لحوارها وتلاقيها تنطلق من الآية القرآنية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣) ، وهذا المفهوم القرآني القاضي بضرورة التعارف بين الشعوب والحضارات يهدف إلى غايات أنبل ومقاصد أوسع ، ذلك أنه إن لم يكن هنالك تعارف فلن يكون هنالك حوار أو تفاهم ، فالتعارف ينجم عنه دوماً حوار هاديء وتعاون دائم ، أما الحوار الذي يباشر بشكل مفاجيء فلا يعني بالضرورة حصول تعارف بين الأطراف ، فكم من لقاءات حوارية أجريت على المستويين السياسي والديني؛ لكنها باءت بالفشل لأن جميع أطرافها الذين أخذوا مكانهم حول مائدة الحوار لم يستطيعوا نسج أواصر التعارف والتواصل من قبل، فلبث كل طرف جاهلاً للطرف الآخر.

لقد راجت مصطلحات "حوار الحضارات" و"لقاء الحضارات" و"وحدة الحضارات" بشكل كبير في العقود الأخيرة ، لكنها جميعاً من إنضاج الفكر الغربي الذي يفرض كل مرة وحين من الأفكار والشعارات ما يناسب وضعه الاستراتيجي والأيديولوجي في إطار الحضارة الغربية التي تجد نفسها دوماً في تنافس وعداوة مع حضارات أخرى شرقية بالخصوص وإسلامية على وجه أخص.

إن القرآن الكريم يؤسس لمبدأ التعارف بين الأمم والشعوب والحضارات ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، فالتنوع بين الناس إلى شعوب وقبائل وامتدادهم وتكاثرهم على ربوع الأرض لا يعني أن يتفرقوا أو تتقطع أواصرهم ويعيش كل شعب في عزلة عن الشعوب الأخرى ، كما لا يعني هذا التنوع أن يتصادموا ويتنازعوا من أجل الثروة والقوة والسيادة، وإنما ليتعارفوا .



إن للتعارف دوراً كبيراً في الحيلولة دون وقوع النزاع أو الاختلاف بين الحضارات وهو يكفل نسبة كبيرة من نجاح لقاءات التفاهم والنقاش والتحاور لأنه يطال كل ما من شأنه أن يكرس قواعد مشتركة لأسرة إنسانية واحدة ذات أصل إنساني واحد ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ (الحجرات:١٣).

وإذا كانت الدعوة إلى حوار الحضارات لم تؤت أكلها الكامل ، ولم تنجم عنها نتائج ملموسة وواقعية على كافة المستويات، فإنما ذلك راجع بالأساس إلى عدم اكتشاف خصائص ومميزات وقيم الحضارات الأخرى وخاصة من جانب الحضارة الغربية التي ما فتئت تضمر العداوة وحب السيطرة والتنافس تجاه الحضارات الأخرى.

ولعل هذا ما جعل بعض الخبراء الاستراتيجيين الغربيين كهنتنجتون يروجون لمقولة " صدام الحضارات " والتركيز على الحضارة الإسلامية كأكبر مرشح للاصطدام بالحضارة الغربية في المستقبل القريب .

وإنما أوقعهم في ذلك جهلهم المطبق بتعاليم ومبادئ الإسلام السمحة وقيمه ومثله السامية والتأكيد بالمقابل على ما يصدر من أعمال وتصرفات عنيفة من طرف بعض الأفراد والجهات المنتسبة إلى الإسلام على اعتبار أنها التعبير الأمثل لحقيقة وجوهر الحضارة الإسلامية مع تسليط الضوء عليها وتغطيتها إعلامياً من طرف وسائل الإعلام الغربية ، حتى أضحت تلك الصور الاستثنائية والمعزولة هي المهيمنة على الإدراك الغربي، وهذا فيه تجن كبير وتجاهل واضح لروح الإسلام السلمية والسمحة التي تتمثلها النسبة الغالبة من المسلمين في كل أرجاء العالم التواقة إلى السلم والأمان والتعايش مع الآخرين في سلام ووئام



وتبادل للمصالح والمنافع في أخذ وعطاء دائمين.

إن أي تعايش حضاري ينادي به اليوم ينبغي أن يرتبط بالانفتاح الذي غداً سمة العصر ، بعد أن اختصرت المسافات وتقاربت الحضارات ومدت الجسور الثقافية والحضارية بين مختلف الشعوب ، وكل انفتاح حضاري لا بد أن يرتبط بضرورة ربط أواصر التعارف المتبادل ، إن الحضارة الإسلامية تشتكي من الحضارات الأخرى – الغربية منها على وجه الخصوص– أنها لا تعرفها بالصورة التي ينبغي أن تكون أو لا تعرفها إلا من خلال بعض الظواهر العابرة والسطحية والمحدودة ، الأمر الذي يؤكد أنه ما دام هنالك جهل بالإسلام وطبيعة حضارته ؛ فإنه يبقى من الصعب جداً محو آثار اتهام الإسلام بالنزعة الصدامية وغيرها من التهم والافتراءات المثيرة.

إننا بهذا نؤكد على أن مصطلح " الحوار بين الحضارات" يكاد يفرغ من مضمونه ومحتواه الصحيح، لأنه لا يقوم في أغلب الأحيان على أساس من التعارف المسبق الكفيل بانفتاح كل طرف على الآخر ، كما لا يقوم أيضا على أساس من " احترام الخصوصيات الدينية والثقافية " لكل الحضارات والشعوب وذلك باستبعاد أي محاولة هيمنة فكرية كانت أو اقتصادية من أي جهة تريد فرض قطبية أحادية الجانب تسعى من خلالها إلى استغلال واحتكار عولمة كاسحة .

إنه باحترام هذه الشروط يمكن فتح نوافذ التعارف بهدف تقريب الشقة بين مختلف الحضارات، وجعلها ينفتح بعضها على بعض في سعي حثيث نحو تلاقح متميز وتفاهم مفيد ومثاقفة مجدية وفعالة . كل ذلك مع الاعتراف بوجود مساحات الاختلاف بين



جميع الحضارات والأديان ، وتمتع كل واحدة بخصوصياتها ومميزاتها مما لا يسمح بأدنى محاولات التذويب أو الانصهار .

وهنا نود التنبيه إلى أن مفهوم " تعارف الحضارات " كما نرمي إليه لا يسمح بأدنى محاولات الاختراق الدينية، ولا يهدف بتاتاً إلى التقاء الديانات السماوية تبعاً لالتقاء الحضارات كما تدعو إلى ذلك بعض التيارات الفكرية والدينية التي تسعى إلى صهر وإذابة مقومات الديانات السماوية الثلاث في بوتقة واحدة وضمن قالب واحد يحلو لزمرة منهم إرجاعه إلى ميراث إبراهيمي واحد.

لقد قدم " غارودي " في كتابه من أجل حوار بين الحضارات(١) طرحاً ناضجاً حول مفهوم الحضارات حيث وجه نقداً قاسياً لسلوك الغرب في تاريخ علاقته بالأمم والحضارات غير الغربية حيث لم يسعَ إلى التعرف عليها عن طريق إعادة النظر إلى ذاته وإلى طبيعة علاقته بالآخر الحضاري من خارج محيطه الغربي ، بل إن غارودي في كتابه لم يتردد في مطالبة الغرب بالاستفادة من التجارب الحضارية الأخرى - الإسلامية منها على وجه الخصوص- والتعلم منها ، والانفتاح عليها؛ لأن طريق الحوار بين الحضارات لا يزال طويلاً يحتاج إلى جهود كبيرة .

وهذا ما أكده الأمير " تشارلز " ولي عهد بريطانيا الذي يعتبر خطابه بمركز الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد في أكتوبر ١٩٩٣ واحداً من أنضج الخطابات السياسية في الغرب في الحديث عن الحوار وعلاقة الغرب

---

(١) روجيه غارودي : " من أجل حوار بين الحضارات " صدر في فرنسا عام ١٩٧٧ وتم تعريبه عام ١٩٧٨ من طرف عادل العوا ، منشورات عويدات ببيروت.

بالإسلام ، لقد جاء في الخطاب: " إننا ما زلنا نحتاج إلى بذل جهد أكبر لتفهم كل منا الآخر ، وأن نتخلص من سموم التفرقة ومن أشباح الخوف والتشكك، وكلما طال مشوارنا في هذا الطريق؛ فإننا نكون قد خلقنا عالماً لأطفالنا وللأجيال المقبلة " .

إن نظرة فاحصة إلى مستوى معرفة الغربيين بالعالم الإسلامي تؤكد بقوة أن الغرب – للأسف الشديد– لم يتعرف بعد –بالصورة المطلوبة– على حقيقة الحضارة الإسلامية وجوهر الدين الإسلامي ، ولا تنطبع في مخيلته سوى مدلولات سلبية موغلة في التحامل والقدح ولا تسمح بالوعي الجيد بحقيقة الحضارة الإسلامية ورسالة الإسلام العالمية المنفتحة على كل الثقافات والحضارات والداعية إلى السلم والسلام والأمن والأمان .

إن الغرب لم يتح لنفسه الفرصة الكاملة للتعرف على الإسلام ديناً وحضارة والتعارف مع المسلمين شعوباً وقبائل وثقافات ، وذلك لكي يعي حقيقة هذا الدين وبعده التام عن أية نية في إدخال العالم في صدام حضاري طالما تم الترويج له.

إننا نستغرب حرص الغرب والدوائر الكنسية على عقد لقاءات الحوار والنقاش بين المسلمين والنصارى دون سابق وعي من الطرف الآخر بمدى تمثله لحقيقة الدين الإسلامي وحضارته، وهذا ما يجعل عقلاءهم – في لقاءات حوارية متعددة– يعترفون في كثير من الأحيان ، عندما تتبين لهم حقائق الأمور بأنهم يجهلون الشيء الكثير عن حضارة الإسلام وقيمه، مما يستلزمهم التعرف أكثر على مبادئ الإسلام الصحيحة وتعاليمه الروحية وحضارته الإنسانية القيمة.



إن الغربيين باتوا يجهلون عن الإسلام أبسط مبادئه وأدنى مرتكزاته الحضارية ، من هنا جاءت ضرورة تعرف الطرف الآخر على منظومة الإسلام وحضارته في أزهى صورها وأنصعها ؛ وذلك قصد تمهيد السبيل للحوار والتلاقي والتفاهم، فالتعارف أساس وشرط كل مبادرة للحوار ، إذ من مستلزمات وشرائط نجاح ملتقيات الحوار التعارف مسبقا واطلاع كل طرف على ما تختزنه حضارة الآخر في كل أبعادها الدينية والثقافية والفكرية قصد استيعابها وتمثلها جيداً من أجل الاتفاق على مواطن ونقاط التلاقي ، وبالتالي مناقشة وتداول مواطن ونقاط الاختلاف.

من جهة أخرى يظهر لنا خلال صورة الإسلام المشوهة والكاريكاتورية التي يعمل الغرب على تمييعها ونشرها عبر مختلف وسائل الإعلام سوء الفهم العميق لمعالم الدين الإسلامي وحضاراته وقلة المعرفة بحقائقه ومبادئه، وإن كنا لا ننكر أن الغرب ينهج في ذلك أحياناً منهج تعمد سوء الفهم وتبييت سوء النية.

إن دعوة الإسلام إلى التعارف والتواصل والانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى ومد الجسور معها تهدف إلى إزالة الأحقاد والعصبيات ومحو كل أشكال العنصرية والكراهية ونزع فتيل النزاعات والصراعات مما يكفل فتح المجال الواسع للتفاهم ، خاصة وان هذا القرن الذي سيكون - لا محالة - عصر ثورة المعلومات والتقدم المذهل في وسائل الاتصال سوف يجعل العالم قرية كونية صغيرة من المفروض أن يتعارف سكانها ويفتحوا نوافذ التفاهم والتقارب على أساس من احترام الخصوصيات الدينية

والثقافية لكل الحضارات والشعوب ، وذلك بهدف تقريب الشقة بين مختلف الحضارات وجعلها ينفتح بعضها على بعض ؛ في سعي حثيث نحو تلاقح متميز وتفاهم مفيد ومثاقفة مجدية وفعالة ، كل ذلك مع الاعتراف بوجود مساحات الاختلاف بين جميع الحضارات والأديان.

يقول الأمين العام للأمم المتحدة السيد كوفي عنان في محاضرته السالفة الذكر وهو يخلص في حديثه إلى ضرورة التعارف الحضاري: " هذه هي المنظومة الأخلاقية التي نحن بحاجة إليها: إطار من القيم المشتركة ، إحساس بإنسانيتنا الواحدة تستطيع التقاليد المختلفة أن تتعايش في داخله .فالناس يجب أن يكونوا قادرين على اتباع تقاليدهم دون أن يحارب بعضهم بعضاً ، ويجب أن يتمتعوا بما يكفي من الحرية لتبادل الأفكار في ما بينهم ، ويجب أن يكونوا قادرين على أن يتعلم الواحد منهم من الآخر، وقد جاء في القرآن: أيا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفواا ؛ مما يعني أنه يجب على كل أمة أن لا تحترم فقط ثقافة الآخرين وتقاليدهم، بل وأن تترك لمواطنيها الحرية للتفكير المستقل "(١).

إنه لا قيمة للحديث عن حوار الحضارات إذا لم يسع أتباع كل حضارة ودين إلى التعرف أكثر على الحضارات الأخرى وفهم مكوناتها واستيعاب قيمها ومُثلها قصد تصحيح المفاهيم الخاطئة والمغلوطة التي تكون قد تكونت بفعل ظروف وعوامل تاريخية وإيديولوجية معينة ، من هنا نرى أن من أكبر أسباب عدم نجاح كثير من لقاءات الحوار الحضاري والديني التي تعقد بين الفينة والأخرى بين

(١) جريدة الشرق الأوسط اللندنية ليوم ٢٨/ ٦/ ١٩٩٩ .



الجانب الإسلامي والجانب الغربي كون هذا الأخير - وباعتراف عقلائه ومنصفيه- لم يستطع حتى الآن تمثل قيمة الإسلام الحضارية وسمو مبادئه وتعاليمه الروحية التي تدعو إلى السلم والأمن والتسامح مع الذات ومع الآخر.

إن الإسلام يدعو أتباع وأبناء الحضارات والثقافات إلى أن يتعاملوا فيما بينهم على أساس الانتماء إلى أسرة إنسانية مشتركة، تتفاعل في إطارها مختلف الروابط الحضارية بين الأمم والشعوب، وهذا الأمر كفيل بنزع فتيل الأحقاد والكراهيات والعصبيات التي طالما أنهكت الإنسانية برمتها بفعل الحروب المدمِّرة والصراعات المنهكة التي أثرت بشكل كبير على مستوى التقارب بين الحضارات والشعوب حتى أمست متنافرة متباعدة.

فالتعارف كمبدأ إنساني حضاري سام له أكبر الدور في منع النزاعات والصراعات، فهو يقرب الأفكار والمسافات وينسج أواصر التعاون والتفاهم ويهدف إلى بناء أسس حوار حضاري مثمر وبناء.

إن المبدأ القرآني في الدعوة إلى التعارف بين الشعوب والحضارات يهدف إلى تجاوز المصالح النفعية المحكومة بالأبعاد والميكانيزمات السياسية والاقتصادية، ويرمي أيضا إلى استبعاد وإقصاء المعايير القومية الضيقة في التفاضل بالأعراق والأنساب واللغات.

لكن بالمقابل لابد من اعتبار الأسس الاجتماعية والأخلاقية القائمة على منظومة القيم والآداب لأنها الوحيدة الكفيلة باستمرار وتقوية أواصر ووشائج التقارب والتفاهم، ثم التعارف، فهي قواعد في التفكير والسلوك يحكمها الضمير الإنساني السليم ويتفق على نظامها العام كل من كان سوياً رشيداً.



المبحث الرابع: القيم والقواعد المشتركة: أساس الحوار

إن مسألة الحوار الحضاري بين الإسلام والغرب هي مسألة التفاعل الإنساني والثقافي بين أتباع الحضارتين، وهي تهدف إلى تغيير النظرة الاستعدائية والتخلي عن التصنيف النمطي المتوارث من مخلفات الماضي.

إن الحوار الحضاري شأن ثقافي يجانب المسائل الدينية الصرفة المرتبطة بفرضيات ومباديء ومواقف إيمانية يعتبرها أصحابها مسلمات مطلقة، لكنه يتناول الجوانب الأخرى من آفاق الانفتاح والتواصل الإنساني التي يشترط تحققها الاعتراف بالآخر وتفهم مشكلاته ومقاصده وإدراكه على قدم المساواة وعدم استهدافه بالتمييز أو التحقير أو الإلغاء أو محاولة ذلك.

وإذا كان الحوار بين الحضارات يتحول تدريجياً في العالم الغربي ليكون نتاجاً لتطورات ثقافية وإنسانية تدعو إليه وتفرضه، فإنه بالنسبة لنا نحن المسلمين حاجة وجودية للقلق العميق الذي يخالط تجددنا الاجتماعي والقيمي والسياسي في مواطننا الأصلية وفي بقاع انتشارنا في العالم، فالمتغيرات التي تحدث على مستوى العالم بعد اهتزاز التكوينات السياسية والأيديولوجية والبشرية أمام تحديات الحداثة تواجهنا كما تواجه الآخرين بتحديات ومخاطر لا نستطيع كما لا يستطيعون مواجهتها منفردين[١]، لذلك بات لزاماً على كلا الطرفين البحث عن سبل التلاقي والتواصل عن طريق البحث عن أرضية مشتركة للتعاون بدل المجابهة، والانفتاح بدل

---

(١) مجلة الاجتهاد البيروتية، عدد ٣١-٣٢، س ٨/ ١٩٩٦، ص٣٥.



الانغلاق، والتفاهم بدل التجاهل.

إن هناك تعاوناً اقتصادياً وثقافياً وسياسياً بين العالم الإسلامي والغرب ، ولكنه ليس كافياً، ولا يندرج في غالب الأحيان في السياق العام لمنظومة الحوار الحضاري بين الجانبين، والسبب في ذلك - ببساطة- هو أن تنسيق المصالح والمنافع (السياسية والاقتصادية) ينبغي أن يسبقه الفهم الحقيقي المتبادل على الصعيد الثقافي والحضاري والديني.

إن المطلوب هو تجاوز الوقوف أمام العوامل السلبية في تاريخ العلاقات بين الإسلام والغرب وتجاهل ما بين الحضارتين من نقاط التقاء عديدة وقواسم مشتركة. وينبغي الاعتراف في هذا الصدد بأنه لا تزال توجد غربة فكرية للمسلمين عن الحضارة الغربية وغربة فكرية أعمق للغربيين عن الإسلام، لكن هذه العوائق يمكن أن تتبدد كلما كثرت اللقاءات الحضارية والثقافية بين الجانبين.

إن الحوار في القضايا المشتركة بين المجتمعات الإسلامية والغربية المتنوعة كفيل بتحقيق نوع من التقارب والتفاهم خاصة على مستوى القيم الفكرية والإنسانية التي يلتقي حولها الجميع ، وهنالك محاولات واسعة للتقارب تجريها منظمات ومؤسسات دولية يمكن أن تؤسس لقاعدة قوية لتعاون أعظم والتزام مشترك قصد مجابهة ومواجهة نزعات الصراع والصدام والعداء ومحاربة قوى الشر والعدوان التي تهدد العائلة الإنسانية، وهنا لا بد من التأكيد على حيوية ودور الدين كجزء أساسي في السعي نحو التعاون والسلام والتآلف بين الأمم والشعوب.



وإذا كان الإسلام والمسيحية يدعوان بقوة إلى قيم العدل والمساواة والتسامح مما يشكل قواعد مشتركة للتعاون وحل المشكلات الإنسانية العالقة؛ فإنه في ضوء ذلك يمكن الإطلالة على المسألة السياسية في القيم المشتركة في الحضارتين في قضايا الظلم والعدل والحرية والعبودية والاستكبار والاستضعاف في ساحة الصراع المتنوع في العالم كله .

لذلك ينبغي التخطيط لمواجهة الاستكبار السياسي والاقتصادي والأمني والثقافي الذي يضغط بقوته الكبرى على صعيد الواقع الذي يعيشه المستضعفون في كل شؤون حياتهم من الفقر والجهل والتخلف والضياع مما يعمل المستكبرون على تطويره وتنميته حتى لا يستطيع هؤلاء أن يقفوا على أقدامهم بقوة وصلابة وثبات " (١).

إن القضايا التي يجب التركيز عليها في حوار الإسلام مع الغرب مما يشكل قواعد مشتركة ينبغي استثمارها والتأكيد على أهمية توظيفها في سياق التواصل واللقاء الحضاري ترتبط بصورة أساسية بمسائل التعاون من أجل إقرار المبادئ والتعاليم الدينية المشتركة التي تحث على احترام الحياة الإنسانية وعلى السعي في الأرض من أجل الخير والأمن والسلام ومقاومة العنف وانتشاره هنا وهناك بدعاوى مختلفة، وعلى محاربة الإلحاد والرذيلة والظلم والطغيان ، وعلى دعوة الناس إلى تفهم قناعات ومبادئ الآخرين وتوحيدهم على قيم المحبة والتسامح والإخاء الإنساني . وهذه كلها تعتبر مساحات واسعة للعمل المشترك في سبيل خدمة البشرية وإنقاذ العالم من الشرور.

(١) د. محمد حسين فضل الله: في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي، ط دار الملاك–لبنان ، ط أولى ١٩٩٤ص ٩٦ .



وإذا كان الإسلام يشترك مع المسيحية في كثير من القيم الروحية والإنسانية مما يعتبره المتحاورون حول موائد الحوار الإسلامي المسيحي قواعد مشتركة للتفاهم حول قضايا دينية عالقة ، فإن الغرب في حواره مع الحضارة الإسلامية مطالب بمسايرة أهداف الكنيسة ومبادئها تجاه الإسلام ، وهي المبادئ التي تبدو متفهمة ومتسامحة وداعية إلى التعايش والتفاهم خاصة بعد صدور قرارات اجتماعات المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٥ والتي أبانت عن توجه جديد لدى الكنيسة الكاثوليكية في علاقتها مع الإسلام.

فعلى الغرب إذن الذي يعتبر نفسه أكبر من المسيحية التي تجاوز مرحلتها أن يستأنس في حواره مع الإسلام ، بما تم تكريسه والاتفاق عليه من قضايا وجوامع مشتركة يمكن أن تسهم في قطع أشواط ذات بال في مسيرة الحوار الحضاري المنشود بين الإسلام والغرب. بيد أنه ينبغي الاعتراف بأنه إذا كانت الحضارة الإسلامية تستند في خلفيتها الفكرية والثقافية إلى المرجعية الدينية مستمدة منها الأسس القيمية والأخلاقية التي تفيد في تقويم وتهذيب وتصويب المسار الحضاري المعتبر ، فإن الإشكال القائم في سياق الحديث عن القواسم المشتركة بين الحضارتين كركيزة للتفاهم وأساس للحوار يتمثل في كون الغرب لا يعتمد على مرجعية الكنيسة ومجامعها ، وهي المرجعية التي قلنا بأنها متفهمة وداعية إلى التعايش والتحاور مع المسلمين . فالقطيعة الحاصلة بين الغرب المادي والكنيسة النصرانية تحول دون انسجام المواقف وتقارب المبادرات ، كما أن آثار الدعوة إلى الحوار ونبذ روح الكراهية وتحقيق السلم العالمي والمساواة الاجتماعية مما أصبحت تدعو إليه الكنيسة منذ أكثر



من ثلاثة عقود ، كل ذلك لا يكاد يظهر على عمل الأجهزة المؤثرة وأصحاب القرار القوي في الغرب الذي تتحكم فيه مؤسسات سياسية واقتصادية وفكرية رهيبة تحقق من وراء تكريسها لروح العداء والظلم والكراهية بين الإسلام والغرب مصالح استراتيجية ذات بال.

إن الغرب مطالب بالعودة إلى قيم المحبة والتسامح والتعايش ورفع الظلم والعدوان والاستكبار من أجل تهيئة المناخ الملائم لإقامة جسور الحوار مع العالم الإسلامي ، وإذا كانت القيم والقواعد المشتركة تعتبر نقطة انطلاق أساسية في كل حوار مثمر وبناء ، فإن في القيم الدينية والروحية المشتركة بين الإسلام والمسيحية كدينين ما يكفل فتح الطريق أمام التجاوب والتواصل والتفاهم بين الإسلام والغرب كحضارتين عالميتين إنسانيتين ينتظر منهما الشيء الكثير من أجل بناء صرح حضاري إنساني مشترك تعيش في ظله البشرية جمعاء في أمن وسلام وتعايش حضاري فعال .

غير أنه في الوقت الذي يطالَب فيه الغرب بالعودة إلى القيم المسيحية الأصيلة ، قيم المحبة والتسامح والعدل والتعايش المشترك والاحترام المتبادل لتحقيق الوفاق مع الإسلام فإن أتباع الحضارة الإسلامية مطالبون أيضا بالارتقاء في التعامل والسلوك الحضاري إلى مستوى قيم الإسلام الدينية والثقافية والحضارية واتخاذ المواقف العملية المتناغمة معها في صلابة وثبات على المباديء وانفتاح على المتغيرات وما يفرضه تحقيق المصالح الأساسية.



خاتمـــة

إن بناء وَعْينَا الحواري على المستوى الحضاري مع الغرب في عصر الصحوة الإسلامية لا يمكن أن يستند فقط إلى ما أحدثته نظرية الصدام الحضاري من لَغَط واسع وتخوف شديد من تدهور محتمل للعلاقة بين الحضارتين ، لأن ذلك سيوقع النظرة إلى ضرورة الحوار الحضاري وحتميته في الاختزال الشديد الذي يرسم جزءاً من الصورة دون الإحاطة بأبعادها كافة . فواجب الحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية يبقى أمراً حتمياً، لأن الحضارات كيفما كانت هي مسالمة بطبيعتها والعنصر الثقافي البارز في كل حضارة لا يمكن أن يكون سببا في صراع الحضارات أو نزاعها وإنما الدول والسياسات الدولية السائدة هي التي تتصارع وتتصادم وفق تجاذب للمصالح والاستراتيجيات السياسية والاقتصادية، فالسياسات لا تصنعها الحضارات بل الدول والحكومات الساعية إلى تحيق مصالح ذاتية لأمتها.

لقد جرت محاولتان لتعامل الغرب مع الحضارة الإسلامية ، توسلت المحاولة الأولى امتصاص الإسلام وتوسلت الثانية عزله. وقد مُنيت المحاولتان بالفشل ، وجاءت المحاولة الثالثة لتهدف إلى تهميش الحضارة الإسلامية عن طريق التخويف منها والإيهام بأنها تسعى إلى التصادم مع الغرب وإشعال فتيل النزاع معه .

لقد أن الأوان لوضع حد للنظريات الصدامية بالحضارة الإسلامية التي تتوهم وتريد أن تُوهِم بأن الإسلام لا يصلح التعامل معه كتيار رئيسي يصب



في الحضارة الإنسانية الشاملة .

وقد حاولنا خلال هذا البحث أن نثبت أن أصحاب مثل هذه النظريات الموغلة في التشاؤم يهدفون إلى تحويل العالم إلى عالم نمطي موحد متشابه تُلغى فيه الخصوصيات الحضارية وتذهب إلى الظل هي وثقافاتها وهوياتها، وهم في ذلك يتوهمون أن الحضارة الإسلامية ستكون عَصية عن التطويع والاستيعاب والاستسلام، وبذلك سوف يكون تحديها للهَيمنة والتسلط الغربي عبارة عن صدام حضاري مفجع .

إنه الوهم والإيهام بأن الإسلام كونه ديناً وحضارة يحمل في طياته نزعة صدامية للحضارة الغربية ، في حين أن نصوصه ومبادئه كلها تفوح بنظرة تفاؤلية إلى العالم ومستقبل البشرية، فالحوار والتعايش مع مختلف الأقوام والملل والشعوب والتفاعل والتواصل الحضاري ، كل ذلك يعتبر أهدافاً نبيلة وغايات سامية ترمي الحضارة الإسلامية إلى تكريسها والدعوة إليها .

بيد أنه ينبغي التنبيه إلى أنه إذا استغرقتنا المواقف الدفاعية في معركة الصراع الحضاري وأصبح كل فعلنا الرد على التهم التي توجه إلينا دون وعي بآلية الصراع والتحكم بإدارته نتحول من أن نكون أحد أطراف الحوار المستخدمين لأدواته إلى أداة للحوار وميدان له ونخضع لتحكم الآخر بتفكيرنا ونشاطنا ، بحيث يصبح الزمام بيده ، فيكفي أن يلقي إلينا بالتهم التي يريد ويحدد الزمان الذي يختاره ومكان المعركة التي تناسبه ، ونحن ما علينا إلا رد الفعل .. فيفقدنا زمام المبادرة وتصير حياتنا رد فعل عفوي بعيداً عن الفعل المختار.



إن تمتين كل حوار منشود بين الإسلام والغرب يقتضي إعادة طرح جديد يُبنى على الوضوح ويلتزم بأخلاقيات الحوار ، ويعيد النظر في الأهداف والوسائل الموصلة إلى ذلك، ولن يكون هذا مجدياً في رأينا؛ إلا إذا تم توسيع قاعدة هذا الحوار ليصير حواراً ثقافياً مدنياً يشمل كل المكونات والفعاليات الثقافية في المجتمعين المتحاورين .

ويبقى الأمل العريض الذي ينبغي النظر إليه بتفاؤل من طرف أتباع الحضارتين الإسلامية والغربية هو أن حتمية الحوار الحضاري أمر واقع لا محالة طال الزمن أم قصر ، لأنه في نهاية الأمر لا بد أن تنتصر الإرادات والعزائم الساعية إلى إدارة الحوار الحضاري بين الطرفين وتفعيل العمل المشترك الذي يحركه الفهم والوعي المشتركان للمخاطر التي تحدق بالبشرية.

لائحة المراجع

المراجع العربية:

- التويجري(د. عبد العزيز):الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري(سلسلة المعرفة للجميع رقم٣ الرباط ١٩٩٩).
- الجابري(محمد عابد) : قضايا في الفكر العربي المعاصر ،مركز دراسات الوحدة العربية، ط أولى ١٩٩٧ بيروت.
- جارودي (روجيه) : من أجل حوار بين الحضارات ، ترجمة عادل العوا منشورات عويدات ببيروت ١٩٧٨ .
- ديو رانت (وول) : قصة الحضارة ، طبعة بيروت ، بدون تاريخ .
- د. السايح (أحمد عبد الرحيم) : أضواء على الحضارة الإسلامية ، دار اللواء بالرياض ١٤٠١ .
- سعيد (إدوارد): تغطية الإسلام، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨٣ .
- السعيدي (إبراهيم) ومونية رحيمي: صدام الحضارات ، سلسلة الحوار، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء ١٩٩٩ .
- د. عزوزي (حسن) : الإسلام والغرب : قضايا ومواقف ، الطبعة الثانية ١٩٩٩ فاس.
- د. عمارة (محمد) : الغزو الفكري وهم أم حقيقة ، طبعة الأزهر ١٩٨٨ .
- د. عمارة (محمد) : العطاء الحضاري للإسلام ، طبع دار المعارف بالقاهرة ١٩٩٧ .
- فريتز (ستيفان) : رد ألماني على هنتنجتون : المنظومة الإبراهيمية للحوار، نشرة شؤون الأوسط ع ١٩٩٥/ ٣٩ .
- فضل الله (محمد حسين): في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي،طبع دار الملاك- لبنان ١٩٩٤ .
- فوكوياما (فرانسيس): نهاية التاريخ ودرايات أخرى ، ترجمة يوسف جهماني ط أولى ١٩٩٣ ببيروت، دار الحضارة الجديدة.
- لويس (برنارد) و إدوارد سعيد: الإسلام الأصولي، دار الجيل، بيروت١٩٩٤ .



- د. محفوظ(محمد): الإسلام، الغرب وحوار المستقبل ، طبع المركز الثقافي العربي بالبيضاء (طبعة أولى ١٩٩٨).
د. المدغري (عبد الكبير العلوي): الحوار بين الحضارات(درس حسني ١٩٩٢).
- د. المنجرة (المهدي) : الحرب الحضارية الأولى ، الطبعة الأولى بالدار البيضاء ١٩٩١ .
- د. مؤنس (حسين): الحضارة ، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة الكويتية ، ع ٢٣٧ ، الطبعة الثانية (شتنبر ١٩٩٨).

الدوريات:

١- الإسلام اليوم ، إصدار الإيسيسكو العدد ١٤ / ١٩٩٦ .
٢- الاجتهاد اللبنانية ، ع ٢٦- ٢٧ (س ٧/ ١٩٩٥).
٣- التوحيد ، الصادرة عن مؤسسة الفكر الإسلامي ، س ١٨ ، ع ١٠١، خريف ٩٩).
٤- الثقافة العالمية ، السنة١٣ ، العدد ٧٧ (يوليوز ١٩٩٦).
٥ - قضايا دولية العدد ٢١٤ ، السنة الخامسة ١٩٩٤ .
٦-(المجلة) اللندنية،حوار مع هنتنجتون العدد ٨٩٦ (١٩ ابريل ١٩٩٧).
٧- مستقبل العالم الإسلامي(سلسلة دورية يصدرها مركز دراسات العالم الإسلامي بمالطا (العدد٩ / ١٩٩٣).
٨- Economist, August 6 th ,1994.

المراجع الأجنبية

(1) De l'Islam en general et du monde moderne en particulier : Paris 1991. Barreau "J. C"
(2) Samuel. P. Huntington ; The Clash of civilisations and the remaking of world order ed . Simon and chester 1996 .
(3) Samuel,P Huntington : If not civilisation,what?" Paradigms of the Post-Cold war world" Foreign Affairs,72,5(Nov-Dec1993)
(4) Gilles Kepel : les banlieus de l'Islam- Paris 1987.
(5) Hans Kung;Le christianisme et les religions du monde,ed Le Seuil,Paris 1986)
(6) Lewis (Bernard) Le retour de l'Islam,ed Gallimard , Paris 1985.

الحوار في القرآن والسنة
الأسس والمنطلقات

د. أسعد السحمراني
أستاذ العقائد والأديان
في جامعة الإمام الأوزاعي





لماذا الحوار؟

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد حصلت قفزات سريعة في عالم الاتصال بفعل التقدم التقني، وقد فرض ذلك قدراً من الانفتاح، والتواصل بين الأمم والمجتمعات لم تعهده البشرية من قبل، كما أن تطور وسائل الاتصال فرض تحديات فكرية وقيمية تحتاج لأنماط من الاستجابات؛ مما يثمر مسارات حضارية غير مسبوقة، وقد برزت عناوين لم تكن معهودة مثل: "صدام الحضارات"، و"الفوضى"، و"نهاية التاريخ" ... الخ.

إن الواقع المحيط بالعلاقات بين الأمم والشعوب تغشاه حالات من التوتر تسببها حالات التجاوز والتطاول، أو ما حصل وما يحصل باستمرار من أشكال العدوان والظلم الذي وصل بعضه إلى حد احتلال أرض، أو استباحة حرمات، أو طرد مواطنين من ديارهم، أو نهب ثروات، أو نشر قواعد عسكرية توزع الرعب في كل الاتجاهات.

أما على الصعيد الديني والأخلاقي فقد عمدت مدارس تخريبية إلى نشر المفاسد والرذائل باسم الحرية الفردية، وحقوق الإنسان، وهي في جوهرها قضاء على إنسانية الإنسان.

بقي في الأمر شأن يختص بالإسلام والمسلمين هو ذلك الانفلات الغربي في توزيع التهم ؛ مثل الإرهاب، والأصولية، ومعاداة حقوق الإنسان، وغير



ذلك مما اتخذه - من ينتطحون لقيادة العالم - ذريعة للغزو والتدمير والتهجير وإهلاك الحرث والنسل.

وقد تولدت إشكالية من ذلك؛ حيث تسابق أفراد ومؤسسات من المسلمين والعرب لطلب براءات ذمّة، أو إظهار حسن نوايا، أو تقديم مبررات مفادها : إن العرب والمسلمين دعاة حوار.

إلا أن الناتج كان في غير المقاصد المرجوة من الحوار؛ حيث تعددت الرؤى إفراطاً وتفريطاً، وتشابكت المفاهيم مما لم يجعل للحوار شاطئاً ترسو سفينته عليه.

تأسيساً على ما تقدم من إشكاليات يكون التأصيل للحوار- إسلامياً - ضرورة من أجل الوصول بالحوار إلى برّ الأمان، والتأصيل الإسلامي أساسه القرآن الكريم، والسّنّة النبوية الشريفة، وهذا ما سيكون موضوع هذا البحث - بعونه تعالى -.



هل يمكن أن يقوم حوار بين الأديان والحضارات؟

إن الهجمة على مسألة الحوار خلال المؤتمرات، والندوات، والمؤلفات، والمقالات، والخطب، والبرامج الإعلامية أوصلت إلى خلط في المفاهيم، ولا يخفى على الباحث الدقيق، وعلى ذي النظر العقلي الرشيد ضرورة التحديد الدقيق للمصطلحات، والتعريف السليم للمفاهيم؛ كي لا تذهب الأمور إلى غير الغايات المرسومة، والآمال المرجوة.

إن الحوار لا يكون بين الأديان ؛ لأن دين الله تعالى واحد، وعماده عقيدة التوحيد، وبها بشّر كل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأساس اللقاء بين المؤمنين برسالات السماء الكلمة السواء، وهي عبادة الله تعالى، وأن لا يتخذ المؤمن أحداً في موقع الربوبية دون الله تعالى.

لكن مفهوم التوحيد وتنزيه الله تعالى عن الشبيه، وعن الأنداد يختلف فيه الناس، وأما أتباع الفلسفات، والنظريات التي صاغها البشر، وأطلقوا عليها اسم أديان، فلكل واحد منها معتقده، ومنظومته الطقسية، وشعائره لذلك لا مكان لشيء اسمه حوار الأديان، وإنما الصحيح أن يُقال: حوار أتباع الديانات.

وهذا الحوار ينطلق من قاعدة مفادها أن الناس متنوعون في عقائدهم، ومفاهيمهم، وقدراتهم، وذكائهم، والحوار يؤسس- إن قام على أسس صحيحة - للتلاقي والتعاون من أجل الخير العام، والوصول إلى ذلك يكون حال التعارف بين الأطراف والمجموعات من الموقع الإيجابي، وهذا ما وجه إليه الإسلام في الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى



وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

فحوار أتباع الأديان، ومعتنقي الرسالات يكون مبنياً على العلم، وبغرض التعاون، ولا يكون الحوار ممن يجهل الآخر، أو يرفض التعارف.

أما حوار الحضارات - أو قل تلاقي الحضارات - فهو الأصل، وما طرحه بعضهم بخلفية امبراطورية تنوي التسلط باسم العولمة تحت عنوان: "صدام الحضارات" فهو ضد طبيعة الأشياء. والسبب هو ذلك الخلط بين الثقافة والحضارة.

فالثقافة "أمر ينطلق من ذات الإنسان، ويحمل معنى التقويم والتنقية رقّياً بهذه الذات باتجاه معاني الخير والحق والعدل والجمال، وسائر القيم.

والثقافة في جوهرها عملية إطلاق للطاقات باتجاه توليد وعي جماعي يشكّل الهوية التي تقود وتطبع الحضارة بطابعها، وهي عندنا العقيدة والنظرة إلى الكون، ومجمل المباديء والأسس والقيم التي نؤمن بها ونلتزمها ونعمل على تطبيقها، وهي كل ما يميّز شخصية الأمة من لغة وفكر وفنون وعلوم وتقاليد وأعراف... الخ.

إن أبناء الأمة لا يكونون في موقع تحديد هويتهم إن لم يلتزموا ثقافتهم وخصائصها، لأن الثقافة هي التي تقود الحركة الحضارية للأمة وتوجهها وتضبطها، وبالتالي هي التي تحكم حركة الإبداع والإنتاج المعرفي، في مقابل المدنية التي تتجه - غالباً - إلى حركة الإبداع التقني والمادي."(١)

---

(١) السحمراني، أسعد، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م، ص ٨٢،٨٣ .



وأبرز مقومات ثقافة المسلمين بمختلف دوائرهم القومية: العربية والأعجمية، الإيمان الديني، والانطلاق من أن الإنسان هو المحور الرئيسي في حركة الحضارة، والاتجاه إلى الروح الجماعية بعيداً عن الأنانية وطغيان الفردية كما هو حال الليبرالية، هذا إضافة إلى إعلاء شأن القيم التي تتسامى بالفرد فوق علائق المادة ومفاعيل الغرائز مما يحقق شخصية سوية متوازنة مادياً وروحياً، ومعنوياً واجتماعياً؛ بحيث لا يكون فيها مكان للإفراط أو التفريط.

إن حضارة تقوم دورتها في حضن شخصية ثقافية إسلامية تختلف عن مسار حضاري ينشأ في رحم ثقافة لها مقومات أخرى، وإذا كانت الحضارة منجزات ومنتجات وابتكارات واكتشافات فإنها مؤجلة للانتقال وتتسم بالعمومية، والجاهزية للتطوير والنمو، والتبدّل، وهي تقوم على التراكم والتكديس، وإذا كانت الثقافة خصوصية فهي لا تغادر ثوابتها، وإن غادرت شواطيء ثوابتها فلا تلبث أن تلتصق بها، بينما الحضارة لا تستقر عند نقطة، بل هي في مسار تقدمي، والشعوب أياً كانت هويتها الثقافية لها حق الاستفادة من تجلياتها مع شرط أساسي هو أن تخضع عند الانتقال، وحين الاستخدام لقيم ثقافة الأمة التي باتت في ربوعها، ولا يصح أن يستورد أحد المنتج الحضاري مشحوناً بقيم وافدة فعندها يكون الأمر غزواً يهدد الهوية.

تأسيساً على ما تقدم يكون التنازع والتباين والاختلاف، وقل الصدام خاصاً بالثقافات، أما الحضارات فشأنها التبادل والانتقال، ولا مكان فيها للصدام كما زعم بعض المعاصرين من دعاة العولمة، وتنميط العالم كله وفق نمط ادعوا أنه الوحيد القابل للاستمرار والحياة.



إن هذه النتيجة تقود إلى القول: إن حوار الحضارات أمر مشروع وضروري، وكذلك التبادل الحضاري القائم على الانفتاح والتسامح، وانتقال المنافع إلى حيث الحاجة، كل ذلك ضروري ولا مناص منه.

وقفة مع المصطلح (الحوار - الجدل - المناظرة):

لا يخفى على أحد من أهل الدراية أهمية ضبط المصطلح، وتحديد المفاهيم، ويلاحظ المتابع أن اللبس الذي يحيط بالمصطلح أو بالمفهوم يقود غالباً إلى تشويش وتشتت في الفكر، وينتج عن ذلك سلبيات لها مردود غير حميد. وإذا كان أمر التواصل بين المسلمين وغيرهم مهماً؛ فإن ضبط المصطلحات المتعلقة بهذا الاتصال والتواصل يكون من المقدمات التي تؤصل لهذه الفعالية.

إن التواصل ضروري بين الناس على تنوع عقائدهم، وتعدد أفكارهم، وتقارب قيمهم أو تباعدها، يضاف إلى ذلك ما يقوم من تنوع في اللغة والثقافة والميول والمقاصد، وهذا التنوع آية ربانية حيث الناس من أصل واحد، وقد توزعوا فأصبح الاختلاف واقعاً.

لكن العيش الكريم الذي يؤمِّن سعادة الإنسان المستخلف في الأرض يحتاج إلى مواقع للقاء وفق أسس وقواعد، ولا يكون ذلك بغير حوار أو جدل أو مناظرة تمهيداً للتعارف؛ لأن العلاقات التي تقوم على التعارف تدوم، وما كان على قاعدة الجهل بالآخر نتائجه ستكون غير صحيّة.

لذلك كان البلاغ الإلهي للناس قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ



مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، الآية ١٣).

وقد علق على ذلك شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي قائلاً: "إن الاختلاف بين الناس في شؤون دينهم أو دنياهم أمر قديم، وسيبقى قائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... ونريد هنا أن نقول: إن شريعة الإسلام، قد ساقت من المباديء السامية، والآداب العالمية، والهدايات الرفيعة، ما ينظم هذه الخلافات، والمحاورات، والمناظرات، التي تحدث بين الناس، وما يجعلها تدور في إطار المنطق السليم، والفكر القويم والجدال بالتي هي أحسن، وما يجعل هدفها الوصول إلى الحق والخير، ومنفعة الناس في حدود ما أحله الله تعالى لهم»[(١)].

لعل أمر واقعية التنوع وضرورة التلاقي عند قضية ما وفق أسس سليمة؛ ينطلق من حقيقة كونية أرادها الله تعالى، وفي النص القرآني ما يؤكد ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩).

هذا الاختلاف واقع وحقيقة وهو غير الخلاف، فالخلاف لدد وخصام ونزاع، والاختلاف إقرار بالتنوع، وبوجود آخر ليكون بعد ذلك حوار أو جدل أو مناظرة. فما حكاية هذه المصطلحات؟

أ- **الحوار: لغة**: "الحَوْر: الرجوع عن الشيء، حار على الشيء وعنه حواراً

---

(١) طنطاوي، الإمام د. محمد سيّد،/ أدب الحوار في الإسلام، القاهرة، دار النهضة - مصر، سنة ١٩٩٧، ص ١٦ .



ومحاوراً ومحارة وحؤوراً: رجع عنه وإليه... الحور: التحيّر، والحور: الرجوع. يقال: حار بعدما طار. والحور: النقصان بعد الزيادة، لأنه رجوع من حال إلى حال، وفي الأثر: ((نعوذ بالله من الحور بعد الكَوْر))، معناه من النقصان بعد الزيادة، وقيل: معناه من النقصان بعد الزيادة، وقيل: معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها، وأصله من نقض العمامة بعد لفّها، مأخوذ من كوْر العمامة إذا انتقض ليّها وبعضه يقرب من بعض، وكذلك الحور بالضم. وفي رواية: بعد الكون. قال أبو عبيد، سئل عاصم عن هذا فقال: ألم تسمع إلى قولهم: حار بعد ما كان؟ يقول إنه كان على حالة جميلة فحار من ذلك، أي رجع... وفي المثل: حور في محارة، فمعناه نقصان في نقصان، ورجوع في رجوع "(١).

" حاوره محاورة وحواراً: جاوبه وراجعه الكلام.. تحاور القوم تحاوراً: تراجعوا الكلام وتجاوبوا "(٢).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (الانشقاق: ١٤) ؛ أي ظنّ أنه لن يرجع مبعوثاً يوم القيامة، هذا ما يؤكد المعنى الاصطلاحي لمفردة: حوار. ويتحاورون: يتراجعون الكلام. فالحوار أخذ وردّ في الكلام بين طرفين يبدأ من طرح لفكرة يبدأ منه أحد الطرفين، فيقوم الطرف الآخر بتمثّل هذا الطرح، ويرد عليه فينتج من ذلك تجاوب يولّد عند كل من الطرفين مراجعة لما طرحه

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، م٢، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرين، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ، ص١٠٤٢ .

(٢) معجم النفائس الكبير، جماعة من المختصين بإشراف د. أحمد أبو حاقة، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص٤٥٤ .



الطرف الآخر، ولذلك يكون المحاور مستعداً للتراجع أو التنازل عن بعض مواقفه أو بعض ما في مواقفه؛ أو أنه يكون مستعداً للتحول من حال إلى حال، والحوار لا يلتزم أسلوباً واحداً، بل قد يكون المحاور مستفسراً طارحاً الأسئلة، وقد يكون في حالة التفنيد ودحض ما طرحه الآخر، وقد يعمد إلى عرض البراهين والحجج دعماً لموقفه الذي طرحه.

كل ما تقدم يبين كيف أن المحاور يكون في موقع الجاهزية للرجوع عن أمر أو إلى أمر، والمتحاورون قد يرجح أحدهم رأي أو موقف غيره أو فكره وقوله؛ لذلك لا يكون الحوار مع تمسك كل طرف بما هو عليه.

فالحوار منهج يحتاجه كل مجتمع إنساني من لقاء اثنين إلى الأسرة، فالعائلة ، فالقبيلة، فالمدينة، فالأمة، فالأمم، ولا يكون اجتماع بشري دون حوار، لكن الحوار قد يتخذ المنحى الإيجابي الذي يقود إلى التفاهم، ويؤسس لعلاقات سليمة، وقد يتخذ المنحى السلبي وأساليب القسوة والعنف، فتكون بسببه القطيعة والنفور والتباغض، والحوار الإيجابي هو ما رافقه العلم والوعي، وحضور العقل في كل خطوة.

أما إذا كان الحوار مبنياً على الجهل والعصبية والانفعال فإن نتائجه تكون وخيمة.

وقد تضمّن كتاب: "الإسلام والآخر" طرحاً يتخذ فيه الحوار الاتجاه المثمر، وهو الطرح التالي: "الحوار هو المراجعة في الكلام، أو الأخذ والردّ بين شخصين أو طرفين، لكل منهما مفاهيمه أو أفكاره أو آراؤه أو مقترحاته، وتجاذب أطراف الحديث بين شخصين أو أكثر يُهدف منه الوصول إلى لغة



مشتركة، ومفاهيم متقاربة، وتشخيص موَحّد إن أمكن للأشياء كلّها، وللمشكلات كافة.

فالحوار لا تكون فيه معاندة، بل منهجه يستلزم أن يدخله الأطراف، وعندهم الجاهزية للتنازل أو للتراجع عما يبيّن لهم الآخرون عدم جدواه، أو الاستعداد للانتقال إلى ما يطرحه الآخر، إذا كان ما يطرحه محقًّا في مواجهة باطلٍ ما.

وقد أسس اللغويون لهذا حين قالوا: المحاورة؛ المجاوبة، والتحاور؛ التجاوب. والمتجاوب هو من هجر السلبية والمعاندة والتعصب للرأي ليأخذ بما يبدو له عند الحوار مع آخرين أنه الصواب والحقّ" (١).

إن الواقع المعاصر بما يسوده من أشكال العداوة والنزاع والحروب تحت مسميات متعددة، وبسبب مآرب ومقاصد طابعها الظلم لن يكون الخروج منها بغير حوار بنّاء ينطلق من قيم الخير والحق والعدل؛ ليكون التعاون المثمر حضارياً في سبيل إسعاد الإنسان.

هذا الحوار هو الذي يقبله المسلمون انطلاقاً من شريعة الإسلام التي نصت على تكريم بني آدم. وقد قال في هذا أحد دعاة الحوار من المسلمين: "إن الحوار هو الوسيلة المثلى للوصول إلى الحق. وإننا حين نتأمل- في ضوئه- واقع الحياة الإنسانية اليوم، ننتهي إلى ضرورته لإحلال التفاهم، وتقوية التعاون، وللتقريب بين الناس على ما بينهم من اختلاف لا سيما بعد أن

---

(١) السحمراني، أسعد، الإسلام والآخر، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص١٧، ١٨.



زالت أو كادت المسافات بين الأقطار والمجتمعات، وقويت وسائل التواصل وتعددت، وحلّت كل مكان. وبذلك يتحقق التعاون الذي دعا إليه الإسلام والذي به يحلّ السلام والحقّ" (١).

ب- الجدل: لغة: "الجدل: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، .... ويقال: جادلت الرجل فجدلته جدلاً أي غلبته. ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام. وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالاً، الاسم: الجدل، وهو شدّة الخصومة .... ويقال: إنه لجدل إذا كان شديد الخصام." (٢)

وعند الجرجاني في التعريفات: "الجدل: هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. والجدل رفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة." (٣)

إن الجدل ينطلق من أسس راسخة يؤمن بها من يحملها، ويلتزمها بثبات دونما ميل إلى التنازل أو التراجع عن أي شيء فيها؛ بخلاف الحوار الذي يرتكز على المراجعة والتنازل. فالجدل "يشير إلى تمسّك طرف أو شخص بموقف، والمعاندة فيه وعدم الاستعداد للتراجع أو التنازل، ولذلك يقال: الجدل، شدة الخصومة. أو تجادلا: تخاصما. فالمجادلة تؤشّر دوماً إلى

(١) الجراري، د.عباس، الحوار من منظور إسلامي، الرباط، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (أيسيسكو)، سنة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص٥٧ .

(٢) ابن منظور، لسان العرب، م١، م.س.، ص٥٧١ .

(٣) الجرجاني، علي بن محمد الشريف، التعريفات، تحقيق د. محمد عبدالرحمن المرعشلي، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص١٣٧ .



المخاصمة والتناقض في الرأي، بحيث يكون الهدف إلزام الخصم بما عليه المجادل "(١).

والجدل يكون على نوعين:

- جدل مذموم وهو الذي يكون مرتكزاً إلى الباطل ، ويقصد به صاحبه المراء أو الكبر أو حب الظهور والشهرة مع المعاندة بما هو فاسد.

- جدل محمود مطلوب وهو الذي يهدف إلى استمالة الخصام بقوة الدليل والحجة، وهذا النوع يرتكز على الحق، ويكون صاحبه صلباً يسعى لغلبة الحقيقة.

والمجادل المحق الذي يمتلك الحجة يواجه خصومه من دعاة الباطل إلى بيان برهان ليعجزهم لأنهم لا يملكون ذلك، وفي الآية الكريمة مواجهة مع من زعموا أن الجنة مآبهم من غير المسلمين ، وقد قال الله تعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (البقرة:١١١).

إن الدعوة إلى الإسلام هي الدعوة إلى دين الحق لذلك كان الجدل ضرورة لكل داعية، وقد بيّن ابن الجوزي الحاجة إلى علم الجدل، فقال: " اعلم - وفقنا الله وإياك - إن معرفة هذا العلم لا يستغني عنها ناظر، ولا يتمشّى بدونها كلام مناظر، لأن به يتبيّن صحة الدليل من فساده - تحريراً وتقريراً - وتتضح الأسئلة الواردة - من المردودة - إجمالاً، وتفصيلاً، ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة، ولو خُلّي كل مدّعٍ ودعوى ما يرومه -

---

(١) السحمراني، أسعد، الإسلام والآخر، م.س.، ص ١٨ .



على الوجه الذي يختار- ولو مكّن كل مانع من ممانعة ما يسمعه - حتى شاء - لأدّى إلى الخبط، وعدم الضبط، وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل، وتميّز المستقيم من السقيم. "(١).

الجدل المحمود إسلامياً إنما هو عمل محمود لنشر الحقيقة، وكي يدحض المجادل الباطل ويبين تهافت حجة الخصم ومنطقه، ويقول فيه القنوجي: "علم الجدل: هو علم باحث عن الطرق التي يقتدر بها على إبرام أي وضع أريد ونقض أي وضع كان. وهو من فروع علم النظر، ومبني لعلم الخلاف. مأخوذ من الجدل الذي هو أحد أجزاء مباحث المنطق، لكنه خصّ بالعلوم الدينية.

... والغرض منه تحصيل ملكة النقض والإبرام والهدم والأحكام. وفائدته كثيرة في الأحكام العلمية من جهة الإلزام للمخالفين ورفع شكوكهم. "(٢).

ويكمل القنوجي قائلاً: "والإنصاف أن الجدل لإظهار الصواب على مقتضى قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل: ١٢٥) لا بأس به وربما ينتفع به في شحذ الأذهان وتصقيل الخواطر وتمرين الطبائع والممنوع هو الجدل الذي يضيع الأوقات ولا يحصل منه طائل. "(٣).

---

(١) ابن الجوزي، محيي الدين يوسف بن عبد الرحمن، كتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، تحقيق محمود بن محمد السيد الدغيم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، سنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ص ٩٩ .

(٢) القنوجي، صدّيق بن حسن خان، أبجد العلوم، ج٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، سنة ١٣٢٠ هـ - ١٩٩٩م، ص ١٧٦، ١٧٧ .

(٣) القنوجي، صديق بن حسن خان، أبجد العلوم، ج٢، م.س.، ص ١٧٨ .



فالجدل إذن نوعان:

١- جدل يعوّد صاحبه المناظرة والمواجهة ويصقل الشخصية، ويعود بالنفع الذي هو دحض الباطل، وإظهار الحق.

٢- جدل مذموم يضيع الأوقات، ولا يجلب سوى الحسد والبغضاء ولا يوصل إلى نتيجة ، وهو جدل عقيم.

الجدل يكون في عرض متعلقات الدعوة، والصلابة في الموقف الإيماني حيث لا مجال للمراجعة أو التراجع؛ بينما الحوار يكون في شؤون تحتمل ذلك كالأوضاع الاقتصادية والسياسية والفكر التربوي، والعلاقات بين الدول والجماعات البشرية، ولذلك يكون الجدل في الموقع الإسلامي في المسائل الدينية، أما الحوار فيكون في كل شؤون الحياة.

وقد أقام السيد محمد حسين فضل الله مقارنة لطيفة بين الحوار والجدل قال فيها: "عاشت هاتان الكلمتان في حياة الإنسان ووعيه منذ أن بدأ الإنسان يواجه الحياة الاجتماعية التي تختلف فيها الآراء، وتتنوع عندها الأفكار، لتجسد له المعنى الذي تنطلق فيه أفكاره في مجال العرض، وفي ميادين الصراع، فقد يحدث له أن يتحرك من أجل إعطاء فكرته صفة الوضوح التي تتمثل في النفاذ إلى كل جانب من جوانبها؛ لئلا تبقى هناك حاجة للاستفهام أو المعارضة الناتجة من خفاء بعض القضايا الملحّة، وهنا يبرز الحوار الذاتي تارة، والحوار المشترك تارة أخرى الذي يتدرج فيه الفكر من نقطة إلى نقطة أخرى، ومن مرحلة إلى مرحلة ثانية، ليجمع في إطاره كل النقاط وكل المراحل وهذا ما نلتقي معه في



كلمة الحوار.

وقد يحدث له – في حالة أخرى– أن يخوض الصراع من أجل فكرته، ضد المعارضين له فيتحول الموقف إلى صدام تتجاذبه حالة الكرّ والفرّ، والهجوم والدفاع، وتهيمن عليه أجواء التوتر الفكري والنفسي والكلامي، من أجل الوصول إلى الغلبة؛ إن كان هناك مجال للغلبة أو إلى التفاهم، إن كان هناك سبيل إليه.

وهذا هو ما توحيه لنا كلمة الجدل، فهي توحي لنا بمعاني الحوار الذي يعيش في أجواء الخلاف الفكري والعقدي، بينما توحي لنا الكلمة الأولى بأوسع من ذلك. "(١).

إن ميدان الدين والثقافة يكون فيه جدل، والحوار ممكن ؛لا بل ضروري ومفيد في حقول الحضارة وسائر أمور الاجتماع البشري.

ج– المناظرة: لغة: "علم المناظرة: علم يُعرف به آداب طرق إثبات المطلوب ونفيه، أو نفي دليله مع الخصم.

والمناظرة: مجادلة بين شخصين في موضوع أدبي أو سياسي أو نحوه أمام الجمهور، وفنّ من فنون الإنشاء كثير الأناقة، يقوم على نسبة الكلام إلى متخاصمين يفاخر أحدهما الآخر. "(٢).

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين، الحوار في القرآن، بيروت، دار التعارف، ط٥، سنة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م، ص ١٥ .

(٢) معجم النفائس الكبير، م٢، م.س.، ص ٢٠١٧ .



والمناظرة، مثل الحوار أو الجدل كلام يتبادله طرفان يعمد كل منهما إلى ترتيب كلامه منهجياً وتقويته بالأدلة مقارناً مع كلام من يناظره ليظهر الحق على يده، وقد أجرى عبد الرشيد الجونغوري مقارنة بين المناظرة والمجادلة، وجاءت على إيجازها مركزة، وحوت بياناً كافياً. قال في المناظرة: "توجّه المتخاصمين بين الشيئين إظهاراً للصواب"(١) والمجادلة: "هي المنازعة، لا لإظهار الصواب، بل لإلزام الخصم"(٢).

المجادلة تنطلق من أمور مسلمة هي أنها تحمل الحق وتعمل لإلزام الآخر به.

والمحاور يدخل اللقاء الحواري و يتجاوب مع الآخر مع توليد أفكار جديد ينتجها مسار الحوار، وأما المناظر فإن الهدف عنده تبيان الحقيقة، وإن كان جدياً لا يهمه ما إذا كانت الحقيقة ستظهر على لسانه أو على لسان من يناظره، هذا ما ذهب إليه القنوجي حيث قال: "علم المناظرة: علم باحث عن أحوال المتخاصمين ليكون ترتيب البحث بينهما على وجه الصواب حتى يظهر الحق بينهما"(٣).

والمناظرة عند علماء المصطلح هي: "المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر، مع رغبة

---

(١) الرسالة الرشيدية للشيخ عبد الرشيد الجونغوري الهندي على الرسالة الشريفة للسيد علي ابن محمد الجرجاني، تحقيق وشرح علي مصطفى الغرابي، القاهرة، مكتبة محمد علي صبيح، سنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩م، ص١٥ .

(٢) الرسالة الرشيدية، م.س.، ص ١٨ .

(٣) القنوجي، أبجد العلوم، ج٢، م.س.، ص ٤٢٨ .



كل منهما في ظهور الحق، فكأنها بالمعنى الاصطلاحي مشاركتهما في النظر الذي هو الفكر المؤدي إلى علم أو غلبة الظن ليظهر الصواب "[١].

وإذا كانت المناظرة فنّاً اشتهر في التاريخ العربي والإسلامي، وقد جرت وقائع المناظرات بين الفقهاء المسلمين حول بعض المسائل أو بين المسلمين وسواهم، وفي كل الحالات كان المقصد إظهار الحقيقة. لكن نبه علماء الأصول ومن دققوا المصطلحات من سلوك قد يلتبس مع المناظرة ويكون المردود سلبياً إنه المكابرة. والمكابرة "في الإصطلاح، المنازعة بين الخصمين لا لإظهار الصواب بل لإظهار الفضل والغلبة، ومن أمثلتها أن يقول المعلّل صاحب التصديق: الكلّ أكبر من الجزء، والواحد نصف الاثنين، والأربعة زوج، فيقول السائل: أمنع هذه الدعاوى أو واحدة منها، فإن قال ذلك فهو مكابر، والمكابرة وظيفة مردودة لا تسمع ولا تقبل كما لا يخفى، ومن المكابرة منع التصديق النظري الذي أقام المعلّل عليه دليلاً صحيحاً لا يمكن تطرق الخلل إليه بوجه من الوجوه. "[٢].

إن المناظرة عمل محمود الأساليب والنتائج، ونقيضه المكابرة ، وهي مذمومة في أسلوبها وسلبية في نتائجها، وكأن الأمر يلتقي مع حالة الجدل، فمنه المحمود وتحاكيه المناظرة، وهناك الجدل المذموم وتحاكيه المكابرة.

وهذا ما دفع ابن خلدون إلى التنبيه في "المقدمة" إلى أمر هو ضرورة

---

(١) الشنقيطي، الشيخ محمد الأمين، أداب البحث والمناظرة، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ومكتبة العلم بجدة، بدون تاريخ، ص٣ .

(٢) الشنقيطي، الشيخ محمد الامين، م.س.، ص ٦٣ .



وضع قواعد وآداب للجدل والمناظرة، ولم يفصل بينهما. قال ابن خلدون: "الجدل هو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم؛ فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً ، ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوّغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون خصوصاً منقطعاً، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يُتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه. "(١).

إن هذه القواعد المنهجية التي أشار إليها ابن خلدون يحتاجها كل موقع فيه مناظرة أو حوار، وهناك للجدل كذلك آدابه أو الأصل أن الإنشاء الجيد المشبع خطاباً أو كتابة بالكلم الطيّب يكون له نتائجه الإيجابية، ويكون خلاف ذلك الخطاب المشحون بالانفعالات والكلام الخبيث أو عندها تكون النتائج في غير المقاصد السامية المرادة سواء للاستمالة والاستقطاب أو للاقتناع أو للتقارب والتفاهم؛ تمهيداً لعلاقات حياتية مستقرة.

وخير الكلام والقول خاتمة بعد هذا العرض، قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، بيروت، دار القلم، بدون تاريخ، ص ٣٦٢ .



يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٦).

يتبين من هذه المقارنة في الأثر بين نوعي الكلمة الطيبة والخبيثة ما للكلمة الطيبة من أثر وأهمية في أدب الحوار والجدل والمناظرة، فإذا كان لكل شجر ونبات موسم في السنة أو موسمان؛ فإن الكلمة الطيبة تعطي الثمر على امتداد الزمان والمكان، وهذا يحمّل الدعاة ومن يحملون الرسالة والعلم والفقه مسؤولية تتمثل في حفظ اللسان عن كل ما يشين، وأن تتمّ دراسة الكلمة والتفكير بها قبل أن تخرج إلى التداول كتابة أو خطابة أو رمزاً وإشارة.

تأصيل الحوار من المصدر القرآني:

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأساسي في الإسلام، فهو كلام الله تعالى الذي نزل وحياً على رسول الله ﷺ، وكان معجزاً عقلياً لا يمكن لإنسان أو جنّ أن يأتي بمثل آية منه أو أقل أو أكثر، وكل تأصيل إسلامي إذا أريد له أن يكون سليم الاتجاه دقيقاً لا بد له من أن ينطلق من النص القرآني.

وقد جاء النص القرآني بوجوه عديدة من أنواع المحاججة لغير المسلمين من مشركين إلى وثنيين يعبدون أصناماً أو كائنات؛ وصولاً إلى أتباع الرسالات السماوية. لكن ما تجدر الالتفاتة إليه بداية هو أن بعض من كتبوا في هذا الباب تجاوزوا الحد المقبول حين تحدثوا عن حوار بين الله تعالى وبين كائنات كالملائكة أو إبليس أو سواهم، والقول الفصل هو أن الله تعالى يقضي ويأمر وينهى ويقدّر ويبلغ، لكن لا يصح أن ينسب أحد الحوار لله



تعالى انطلاقاً من معنى الحوار لغة واصطلاحاً، والذي يكون مما يقبل المراجعة والأخذ والرد، والمحاور في المجاوبة لا ينطلق من مسلمات وثوابت أو مرجعية يعمل لإلزام الخصم بها، فكيف يصح أن يقال: إن الله يحاور؟

فالحوار والجدل والمناظرة وسواها من المصطلحات تخص البشر، ولا يليق أن ينسب ذلك إلى الخالق سبحانه.

جاء التمييز بين الجدل والحوار في الآية الكريمة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١)، فالآية نزلت مع واقعة أوس بن الصامت شقيق عبادة حين ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة فجاءت إلى رسول الله ﷺ غاضبة من فعله، ومنفعلة، وبدأت كلامها جدلاً فيه تشدّد ومعاندة، وبعد أن أعطاها رسول الله فرصة الكلام وتفريغ بعض الشحنة النفسية حصل عندها بعض هدوء، وباتت مستعدة لمراجعة الكلام، فتحول الأمر إلى الحوار. فرسول الله لم يدخل جدلها لأنه من النوع المذموم، والكلام عن الجدل جاء منسوباً لها: ﴿تُجَادِلُكَ﴾، والحوار الإيجابي جاء فيه الخطاب القرآني مع ألف التثنية: ﴿تَحَاوُرَكُمَا﴾.

جاء الحوار في النص القرآني مصطلحاً في سورة الكهف في سياق كلام بين مؤمن وكافر، وكان الثاني يملك بستانين يباهى بهما، وقد أعرض عن الإيمان لأنه اكتفى بجنتيه الدنيويتين.

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا



وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨)﴾ (الكهف: ٣٢-٣٨).

صاحبان أو أخوان افترقا عقدياً، فآمن أحدهما وتصدّق بماله، ولم يكنز منه شيئاً مقدماً لنفسه ساعياً للفوز العظيم في الآخرة، أما الثاني فقد اشترى بماله بستانين يضمان أنواعاً كثيرة من الشجر المثمر، وعمل على تنمية ماله حتى ازدادت ملكيته، وملك مع المال والثمر قبيلاً من الناس يحيطون به. أمام هذا الواقع أراد المؤمن أن يدعو صاحبه إلى عقيدة التوحيد فكان الحوار الدعوي مع الحجة والبرهان، وقام على التذكير بأن الله تعالى قد جعل أصل آدم من تراب ، ثم كان التوالد من النطفة، ولم يكن ذلك إلا بإرادة الله تعالى وقدرته سبحانه، والتأمل في هذه الحقيقة الكونية سبيل للإيمان بالله .

أما المعاند فإنه فاخر بجنتيه وثمره وأشرك بالله، وزعم أن ماله لن يبيد ، بل سيبقى له مستمر العطاء في المراحل كافة، وكأن هذا المشرك بات معطّل التفكير، وأعمى البصيرة، وهو النموذج لكل من غرقوا في المطالب المادية الدنيوية، وهذا الحوار نموذج دعوي لكل مؤمن بأن يقصد الغارقين في الدنيويات الغافلين، كي يحرك فيهم الفطرة انطلاقاً من الأصل، وهو عقيدة التوحيد، والدعوة تكون تنبيهاً من الغفلة، وتذكيراً بأصل الإنسان الذي هو



من الطين كي لا تغرّه دنياه أكثر.

إن الحوار الدعوي القرآني المصدر يكون جدلاً، لأن الدعوة تكون مع الثبات على الالتزام بعقيدة التوحيد، والتمسك بشرع الله، ولا مجال لجديد يولّده الحوار؛ بل الأصل أن الداعية يعمل لإلزام من يدعوه بما يحمل من دعوة، ولا مجال للتنازل أو التراجع. ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

الخطاب الإلهي جاء إلى رسول الله، وعن طريقه إلى كل مؤمن، وهو يقول: "ادعُ إلى الطريق الذي شرعه ربك مع قومك، واسلك في دعوتهم الطريق الذي يناسب كل واحد منهم، فادعُ معتمداً إيراد المواعظ، وضرب الأمثال التي توجههم إلى الحق، وترشدهم من أقرب طريق مناسب لهم، وجادل أصحاب الملل السابقة من أهل الكتب بالمنطق والقول الليّن، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سباب؛ حتى تتمكن من إقناعهم واستمالتهم، هذا هو الطريق لدعوة الناس إلى الله على اختلاف ميولهم، فاسلك هذا الطريق معهم، واترك أمرهم بعد ذلك إلى ربّك الذي يعلم من غرق في الضلال منهم وابتعد عن طريق النجاة، ومن سلم طبعه فاهتدى وآمن بما جئتم به" (١).

إذن الأمر في الدعوة إلى الإسلام هو جدل لا حوار، ولكن هذا الجدل

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن العظيم، المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط١٨، سنة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، ص ٤٠٧ .



يحتاج لأسلوب ولأداء مميّزين يحققان الاستمالة والإقناع، ومن مقومات ذلك الابتعاد عن الكلام الفظ واللهجة القاسية؛ هذا مع التوجه إلى كل إنسان بما تقبله مداركه من الحجج أو الخطاب. فالرسالة ثابتة، ودور المرسل استقطاب المتلقّي إلى فضائها، وهذا يكون مع كل غير المسلمين أيّاً كان انتماؤهم أو كانت مفاهيمهم وعقائدهم.

والجدال بالتي هي أحسن مطلوب مع أهل الكتاب من يهود ونصارى، ولا يكون الخروج عن هذا المنهج إلا مع من عادوا وظلموا وعاثوا في الأرض فساداً؛ حيث يحتاج الأمر عندها إلى إجراءات رادعة تمنع أذاهم وإفسادهم، وهذه هي سياسة التدافع. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

إن منهج الجدل والمناظرة يقتضي أن يبدأ الداعية كلامه من المشترك مع المتلقين، والمشترك هو الإيمان بالله سبحانه، ومن ثمّ ما تفرضه عقيدة الإسلام بأن يؤمن بما أنزل الله من رسالات قبل الإسلام؛ بالإضافة إلى الإيمان بكل الرسل والأنبياء، بهذا الأسلوب تكون قد توافرت مساحات اللقاء، وتأتي بعدها المجادلة بالتي هي أحسن فترقق القلوب، وتؤلفها مما يخلق حالة من الإستجابة.

وقد قال الإمام الجويني بشأن المجادلة بالتي هي أحسن: "وأحسن شيء

---

(١) الجويني، إمام الحرمين، الكافية في الجدل، تحقيق د. فوقية حسين محمود، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م، ص ٥٣٨ .



في الجدال المحافظة من كل واحد من المتجادلين على أدب الجدل، فإن الأدب في كل شيء حليته.

فالأدب في الجدل يزين صاحبه، وترك الأدب فيه يزري به ويشينه. ومعظم الأدب في كل صناعة استعمال ما يختص بها، والاشتغال بما يعود نفعه إلى تقويمها والإعراض عما لا يعود بنفع إليها " (١).

فالجدل يجب أن يكون هادفاً ونافعاً، ومقترناً بأدب جمّ لما لذلك من كبير الأثر في نفوس من يخاطبهم المجادل عن قضية ما، ولا يخفى على دارس السيرة النبوية الشريفة، وعلى من يتابع سير السلف الصالح مقدار ما فعلته آداب الجدل والقدرة على الإقناع في استقطاب الناس إلى الإسلام أفراداً ومجموعات.

حوى النص القرآني جدلاً على شكل مناظرة بلسان نوح وقومه كان مقصده دعوياً، وقد انطلق من الأصل ألا وهو دعوة نوح لقومه كي يعبدوا الله تعالى، ويهجروا ما يعبدونه، وقد بيّن لهم ركن الإيمان الثاني ألا وهو الإيمان باليوم الآخر لأنهم إن أصرّوا على ما هم عليه فسيكون مصيرهم الأخروي صعباً، وسيكون لهم العذاب بسبب تمسكهم بعقيدتهم الفاسدة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ص ٢٨ .



الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣)﴾ (هود: ٢٥-٣٣).

إنه الجدال الحميد الذي مارسه نوح عليه السلام عندما اصطفاه الله تعالى، وقد ناظر نوح قومه مجادلاً لا محاوراً لأن ما يدعوهم إليه من عقيدة لا مكان فيه للمراجعة ولا للتنازلات، بل مقصد الجدل إلزامهم بالعقيدة السليمة ، وقد قدمت الآيات قواعد كثيرة من أركان وأسس الجدل لإلزامهم بالعقيدة السليمة، وقد قدمت الآيات قواعد كثيرة من أركان وأسس الجدل المطلوب من قبل الدعاة، وهي: الجدل طاعة لله ؛ وليس لغرض خاص، والجدل القائم على العلم والبينات وأن عتادهم كان سببه ما هم عليه من الجهل، هذا مع تمسك نوح بأتباعه ومن ناصروه أياً كان عددهم، وحين طالبوه بأمور هي شأن إلهي فإنه بكل تواضع المجادل وتأكيد بشريته رد عليهم: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾

نخلص إلى القول مع القرطبي: "الجدل في الدين محمود، ولهذا جادل



نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله أنجح وأفلح، ومن ردّه خاب وخسر. وأما الجدال بغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم وصاحبه في الدارين ملوم "(١).

إن صورة الجدل المذموم جاءت في النص القرآني في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (غافر: ٤-٥).

إن آيات الله قائمة في الكون، وهو الكتاب المنظور، والآيات كذلك هي في الكتاب المسطور القرآن الكريم، ومع هذه الآيات بنوعيها نجد المشركين والكفار يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، وهذا المنهج اعتمده آخرون منهم قوم نوح رغم إلحاحه في دعوتهم، وقد عمد هؤلاء إلى إيقاع الأذى بالرسل عندما أيقنوا بأن حججهم ضعيفة، وبأن منطقهم متهافت.

والمعاندون بالباطل المجادلون بغير وجه حق يؤدي بهم إلى ذلك جهلهم وضحالة معارفهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ (الحج: ٣)، والنص القرآني يبيّن بشكل جلي كيف أن من يجادل ويحاجج واجبه أن يتسلح بالعلم في الموضوع الذي يناظر فيه غيره، وإذا حصل وكان لا يملك العلم الوافي فعليه الانسحاب من

(١) الباجي، أبو الوليد، كتاب في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، سنة ١٩٨٧، ص٨ .



ميدان المناظرة أو الحوار أو الجدل. "وقد نطق الكتاب بالمنع من الجدل لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده"(١) قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ (آل عمران: ٦٦).

المحاججة أو المحاجّة هي المخاصمة والجدل، وقد وردت في النص القرآني في قصة إبراهيم ودعوته لمن ينكر وجود الله تعالى (النمرود)، وفي الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

الآية خطاب إلهي فيه: "ألم ترَ إلى مَنْ عَمِيَ عن أدلة الإيمان، وجادل إبراهيم خليل الله في ألوهية ربه ووحدانيته، وكيف أخرجه غروره بملكه الذي وهبه ربه من نور الفطرة إلى ظلام الكفر، فعندما قال له إبراهيم: إن الله يحيي ويميت، بنفخ الروح في الجسم وإخراجها منه، قال: أنا أحيي وأميت بالعفو والقتل، فقال إبراهيم ليقطع مجادلته: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ؛ إن كنت إلهاً كما تدّعي، فتحيّر وانقطع جدله من قوة الحجَة التي كشفت عجزه وغروره، والله لا يوفق المصرّين المعاندين إلى اتباع الحق"(١).

شخص كافر معاند (النمرود) حاول مجادلة إبراهيم عليه السلام، ووصل به عناده وجهله بأن يفترض أن عفوه عن شخص أو تقديمه العون لشخص إنما

---

(١) المنتخب في تقسير القرآن الكريم، م.س.، ص٦٢ .



هو إحياء له، وفي هذا يظهر منتهى الجهل، ولذلك لم يكن من خيار سوى مواجهته بحجة وبيان لا يستطيع الرد عليهما. الشمس بادية للعيان وخلال حركة الأرض تظهر الشمس صباح كل يوم من الشرق، وبعد مضي النهار، وعندما يحين موعد بدء الليل تغيب الشمس عن نظر المراقبين في موقع من الأرض من المغرب، ولكل موقع مشرق ومغرب، والتحدي لهذا المعاند كان بمطالبته إن كان بوسعه تغيير هذه السّنّة الكونية، وهنا بدا عجز هذا الكافر، فتحيّر وصمت مبدياً عجزه، وغلبته الحجة البالغة.

لقد سجل القرطبي ملاحظتين حول المحاجّة الواردة في هذه الآية فيهما قاعدتين للحوار، وقد جاء عنده في تفسيره:

١- قال المزني صاحب الشافعي: ومن حقّ المناظرة أن يراد بها الله عزّ وجلّ وأن يقبل منها ما تبيّن.

٢- وقالوا: لا تصحّ المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونا متقاربين أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والفهم والإنصاف، وإلا فهو هراء ومكابرة"(١).

المؤمن يحاجج داعياً ومستميلاً الناس إلى الإيمان وطاعة الله تعالى، ولا تكون مناظرته الآخرين من أجل المباهاة أو كسب الشهرة، وقد تحدث عن ذلك الإمام الجويني مبيناً قواعد وآداب الجدل، فقال:

"فأول شيء فيه مما على الناظر أن يقصد التقرب إلى الله سبحانه، وطلب

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣، م.س.، ص٢٨٦، ٢٨٧ .



مرضاته في امتثال أمره سبحانه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الحق عن الباطل وعما يخبر فيه، ويبالغ قدر طاقته في البيان والكشف عن تحقيق الحق وتمحيق الباطل.

ويتقى الله أن يقصد بنظره المباهاة وطلب الجاه، والتكسّب والمماراة، والمحك، والرياء، ويحذر أليم عقاب الله سبحانه.

ولا يكن قصده الظفر بالخصم والسرور بالغلبة والقهر، فإنه من دأب الأنعام الفحولة كالكباش والديّكة "(١)، أي أن العالم المجادل الذي يحمل رسالة لا يكن في مناظرته كمن يناقر كالديكة، ولا كمن يناطح كالثيران وإنما الأصل أن يتبين الحق، والمجادل أو المناظر لا يهمه إن كان ظهور الحقيقة على يديه أو على يدي من يناظره ؛ لأن الأمر ليس أساسه الغلبة؛ بل الغاية هي الحق.

لكن المشكلة تكون حين يكون الخصم جاهلاً معانداً؛ فمثل هذا الشخص لا مجال لإقناعه أيّاً كانت الحجج والبراهين؛ لأن مستوى فكره وعمله ينحط عن إمكانية استيعاب المفاهيم والحقائق، وهذا يوجب أن يتجنب العالم مناظرة الجهلة، وعندها يكون العلم أساساً في أدب المناظرة والمجادلة.

وقد جاء في قول مشهور في الأثر منسوب للإمام علي كرم الله تعالى وجهه: "ما جادلت عالماً إلا غلبته، وما جادلني جاهل إلا وغلبني."

إن مناظرة إبراهيم عليه السلام جاءت في منهج الحوار الهادف إلى الإقناع لذلك تدرج معه في الحجة، ولما لمس عناده وإصراره اضطر أن يعطيه حجة

---

(١) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص ٥٢٩ .



بالغة أحدثت صدمة فكرية له رافقتها حالة حيرة وقلق، وهذا خير الأساليب لاستنفار الفطرة السليمة في الإنسان لتتجه به إلى طريق الحق. وقد علق على هذا السيد محمد حسين فضل الله تعليقاً لطيفاً حيث قال:

" نلاحظ في أساليب الرسالة التحرك الهادئ الوديع الذي يفتح قلوب المشركين على كلمة التوحيد فكراً وعملاً، ويفرغ أفكارهم تدريجياً من كل معاني الشرك ودوافعه في خطة مدروسة حكيمة، تضع لكل موقف فكر وتأمل، يراجع فيه موقفه ويحاكم - في ضوئه - عقيدته، وقد تمسّ الحاجة إلى الطريقة التي تجعله يواجه موقف السخرية من عقيدته، عندما تنكشف له جوانب الضعف التي تحيط بها من كل جهة... إنه لا يهدف من صراعه أن يسجل على خصومه موقفاً للغلبة في ميدان السباق بل كل هدفه أن يجعلهم يتحركون معه في الخط الذي يسير عليه ليتّحد الموقف والمصير عن طريق القناعة الذاتية المرتبطة بالبرهان الواضح والحجة القويمة "(١).

لقد جاء في هذا المنهج الحواري المتدرج وصولاً إلى الصدمة فالإقناع؛ تلك المناظرة بين إبراهيم وقومه حين قام بتكسير أصنامهم التي يشغلون أنفسهم بها ويعبدونها من دون الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ

(١) فضل الله، السيد محمد حسين/ م.س.، ص ٧١ .



الشَّاهدينَ (٥٦) وَتَاللَّه لأَكيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إلاَّ كَبيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْه يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتنَا إِنَّهُ لَمنَ الظَّالِمينَ (٥٩) قَالُوا سَمعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِه عَلَى أَعْيُن النَّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتنَا يَا إِبْرَاهيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسهمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكسُوا عَلَى رُءُوسهمْ لَقَدْ عَلمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطقُونَ (٦٥)﴾ (الأنبياء: ٥٢-٦٥).

إنها مناظرة أظهرت عجز قوم إبراهيم في الدفاع عن أصنامهم، وعجز الأصنام عن النطق أو الدفاع عن أنفسها، وهذه المحاجّة أوصلتهم إلى تسليم بأنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه الشر، وبذلك ظهر لهم خطأهم وفساد عقيدتهم، ووصل بهم الأمر إلى حد الاستسلام أمام براهين إبراهيم، فردوا: كيف تطالبنا أن نسأل الأصنام الجواب وأنت تعلم أنهم لا ينطقون؟

مناظرة إبراهيم للكافر المعاند ويقال إنه النمرود اعتمدت برهاناً من السنن الكونية ﴿فبهت الذي كفر﴾، ومناظرة قومه اعتمدت إظهار العجز في الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى فقالوا لبعضهم: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فسلموا بأنّهم ظالمون لأنفسهم بعبادتهم هذه، وليس إبراهيم من ظلمهم، هكذا تتنوع مضامين المناظرات ويبقى الهدف واحداً ألا وهو إثبات وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته كي يدين به ويؤمن به من فسدت فطرتهم ويعودون إلى الرشد.

وتمتد المناظرات بعد ذلك إلى القيم الناظمة لشبكة العلاقات في المجتمع، لأن



فساد العقيدة عند قوم يتبعه سلوك فاسد، وأفعال مهلكة، ورذائل ومساوئ في الأخلاق، ولا يكون الرادع إلا الإيمان فهو العاصم من كل فساد وخطأ ورذيلة. وهذا يعطي للمناظرين من الدعاة بادرة جديدة لمنطلقات الحوار مع غير المؤمنين.

ولأن صلاح المجتمعات مقصد إلهي، وأساس بشري، ومعيار إسلامي كانت المناظرة التالية في الآيات الكريمة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١١-١٣).

في اللغة: الفساد: العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح. والفساد: الضرر والتلف والعطب. والفساد: الاضطراب والخلل. فكلمة فساد بذلك تشير إلى وجوه عديدة من السلبيات التي تحمل مخاطر للفرد والمجتمع.

وفي معجم النفائس الكبير: السّفه: خفة الحلْم، أو نقيضه، أو الجهل.

مناظرة ينهي خلالها المؤمنون السفهاء عن فعلهم، فيرد عليهم هؤلاء لجهلهم: إنما نحن مصلحون، لأن جهلهم منع عليهم رؤية الحقيقة، ومعرفة الحق.

" قال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض، فأجابهم المنافقون بقولهم: إنما نحن مصلحون.

فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، وامتنع المنافقون عن رد ما ادّعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وإن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا إفساد، فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن سجل على المنافقين أربع إسجالات:

أحدها: تكذيبهم، والثاني: الإخبار بأنهم مفسدون، والثالث: حصر



الفساد فيهم، بقوله: هو المفسدون، والرابع: وصفهم بغاية الجهل، وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين، وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، ثم نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فقال: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسداً، ولا شعور له بفساده البتة مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد ومداركه وطرق علمه "(١).

لقد دعا العقلاء المؤمنون أهل السفه إلى الهدى ودين الحق فكابروا، وأظهروا تمسكهم بسفههم، وهذه حال أهل الفساد في أيامنا ؛ حيث يسترون ضلالاتهم بحقوق الإنسان والحرية وما سوى ذلك، والحقيقة أنهم متعصبون لفسادهم، ويقطعون المناظرات معهم إذا وجدوها مبنية على الحكمة والحجة الدافعة.

قال المفسرون: "وإذا قال قائل لهم ينصحهم ويرشدهم: أقبلوا على ما يجب، وهو أن تؤمنوا إيماناً مخلصاً مثل إيمان الناس الكاملين المستجيبين لصوت العقل، سخروا وتهكموا وقالوا: لا يليق بنا أن نتبع هؤلاء الجهلاء ضعاف العقول، فردّ الله عليهم تطاولهم وحكم عليهم بأنهم - وحدهم - الجهلاء الحمقى. ولكنهم لا يعلمون علماً يقيناً أن الجهل ونقص الإدراك محصور فيهم ومقصور عليهم "(٢).

---

(١) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج٣، تقديم د. وهبة الزحيلي، حققه وخرج أحاديثه مجموعة من العلماء، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، ص ١١٢ .

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، م.س.، ص٥ .



إن أسلوب الفاسدين في المناظرة، ودفع الكلام كما بيّنته الآيات – السابقة الذكر – إنما هي من حيل المناظرة التي يعمد إليها ضعيف الحجة، وليس من واجب المؤمن أن يعمد إليها بل عليه اجتنابها لأن تلك الحيل لا تتناسب مع دين الحق. وقد لفت إلى هذا الأمر من فساد المناظرة الإمام الجويني في فصل عنوانه: "بيان حيل المتناظرين"، فقال: "واعلم أن الحيل في المناظرة لقطع الخصم – محظور، يجب الاجتناب عنه – وهو من دأب أهل الفسوق في المناظرة، ومن عمل من قصده بالمناظرة المماراة لأهل السّفه، مجانب لطريق أهل الديانة والنصيحة، بعيد عن سلوك سبيل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[(١)].

أمام هذا الواقع يكون واجب الداعية المسلم الذي يناظر غير المسلمين، أو من حادوا عن جادة الصواب من المسلمين أن يبلغ رسالة الإسلام بأسلوب موسوم بالحكمة ويعرض الأمور بأسلوب الموعظة الحسنة، وبعد ذلك إن عاند من عاند، وعصى من عصى، أو أصر السفهاء على جهلهم يكون عليه أن يترك أمرهم لله تعالى لأن دوره هو التبليغ ليس أكثر. قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (المائدة: ٩٩).

فالمهمة هي تبليغ الناس كل الناس ما أوحى به الله تعالى، وما جاء به رسول الله، لتقوم على الجميع الحجة ولينقطع عنهم العذر، وواجب الجميع تعليم ما عرفوا، وبعده يكون الأمر لله تعالى، فهو عليم بما يظهرون وما يخفون.

والحوار في الإسلام له أصوله وقواعده ومقاصده وفق موقعه، فالحوار قد يكون مع الذات، ومنه ما يكون حواراً مع الآخر، وقد ضمت النصوص

(١) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص ٥٤٢ .



القرآنية كلا نوعي الحوار تعليماً للمؤمنين، ومما ورد في ذلك ما يلي:

١ - الحوار مع الذات، وكان حواراً مقصده إيماني يقوم على موافقة القناعة للفطرة كي يحصل إسلام الربوبية والألوهية فتصح عقيدة الإنسان. وقد جاء هذا اللون من الحوار مع إبراهيم عليه السلام الذي كانت رسالته الحنيفية التي أصلت عقيدة التوحيد.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٤-٧٩).

إن إبراهيم عليه السلام الذي اصطفاه الله تعالى رسولاً لم يكن محتاجاً إلى هذا الحوار الذاتي، وإنما جاء الحوار في القرآن الكريم بلسانه تنبيهاً للغافلين أو لمن فسدت فطرتهم، وفيه منهج تعليمي لكل من حمل الدعوة مجادلاً ومناظراً المشركين.

ولأن كل عصر أو مجتمع له خصائصه وسماته، ومقوماته الحضارية فكان الأصل أن يبعث الله تعالى كل رسول وهو يبلغ بلسان قومه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤)، ولسان القوم ليس



لغتهم ومفرداتهم وقواعدها، وإنما علومهم وحضارتهم، وقوم إبراهيم كانوا موصوفين بإتقان علم الفلك؛ لذلك عندما أعلن رفض الإيمان بأصنامهم اتجه الحوار الذاتي عنده إلى الكواكب والقمر والشمس؛ ليحكم بعدها بأنها مخلوقة؛ لا فعل ذاتي يصدر منها؛ إنما حركتها ظهوراً وأفولاً إنما هي سنة الله في خلقه، وهي كسائر المخلوقات محتاجة للخالق سبحانه، وهذا يأتي ضمن دلائل التوحيد، فكان ختام الحوار ما هو متوافق مع الفطرة، ألا وهو أن يتجه الإنسان إلى الإيمان بالله الواحد الخالق، وأن لا يشرك بعبادة ربه أي مخلوق.

٢- الحوار مع الآخر، وكان النموذج القرآني لهذا الحوار الآيات الكريمات في سورة الكهف، ومجريات الحوار هذه كانت بين موسى عليه السلام، والعبد الصالح الذي أطلق عليه بعضهم اسم: الخضر.

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ



بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾ (الكهف: ٦٥-٧٨).

التقى موسى عليه السلام العبد الصالح الذي وهبه الله علماً لدنياً غير مكتسب، وهو علم يلهمه لخاصة أوليائه، وسأله أن يقبل المصاحبة كي يأخذ منه العلم، وبدأت المسيرة وكان الحوار في كل مرة حول أسئلة موسى للعبد الصالح عند كل واقعة، وكان التفسير ختاماً لكل واقعة، فالسفينة لضعاف في بلدهم ملك يغتصب كل سفينة كاملة الصفات، وجعل العيب فيها ليحفظها لهم، والغلام كان لأبوين صالحين وكان سيكون من أهل الرذائل والمفاسد وقتله ليعفي هذين الابوين من الحرج وتشوّه الصورة، وأما الجدار فتحته كنز والبناء فوقه يحفظ الكنز حتى يكبر أصحابه ويرشدون فيستخرجونه.

هذا الحوار يبيّن ما يلي:

١- موسى عليه السلام نبي وكليم الرحمن ومن الأنبياء أولي العزم، ومع ذلك أظهر الحوار القرآني كيف أن الله تعالى أعطى للعبد الصالح علماً لدنياً خاصاً ليس عند موسى عليه السلام ، وإذا نقلنا الأمر إلى المستوى البشري في كل إنسان يكون المستفاد أن العلم ليس عند شخص بعينه، وبالتالي في أي حوار يجب الانطلاق من أن الحقيقة قد تكون عند طرفي الحوار وليست الحقيقة منكرة عند واحد منهما.

٢- واجب طرفي الحوار أن يصبر كلّ منهما على ما يطرحه أو يقوم به



أحدهما حتى يظهر جلياً لأن التسرع يقطع الطريق على ذلك.

٣- أن يعرف المحاور قدر مناظره ومخاصمه، ومستواه العلمي والمعرفي، وبالتالي يترك له الحق ليفسر ما يطرح طالما أنه داخل في اختصاصه ومعارفه.

وهناك من صور الحوار مع الآخر في النص القرآني تلك الحوارات التي كانت مع يوسف عليه السلام، والتي يستفاد منها الكثير من القواعد والمبادىء وكذلك الأساليب الحوارية. ويأتي في أهداف الحوار إبراز الضعف في الطبيعة البشرية، وهو أصل ويحتاج الإنسان أن يتحصن بالإيمان فهو العاصم الوحيد، وهذا ما كان من يوسف عليه السلام استعصم ونأى عن الفتنة، وما ذلك إلا لأنه نبي اصطفاه الله تعالى ومنحه الهدى فلم يؤثر فيه الإغراء والإغواء، جاء في هذا قول الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٢٣-٢٨).

وفي هذا الحوار القرآني تعليم بأن لا ينطلق الإنسان في أحكامه من التعاطف مع زوجته أو أحد بني قومه، لأن هذا القريب قد يكون هو من



افترى وباشر بالخطأ، ويكون عندها تطبيق القاعدة القائلة: "البيّنة على من ادّعى"، وهكذا كان وحيث إن القميص قد مُزِّق (قُدّ) من الخلف (من دُبُر)، فهذا دليل على أن امرأة العزيز هي من راود يوسف عليه السلام عن نفسه، ولما كان قد استعصم وامتنع عن التجاوب معها، وهم بالفرار وشدّته بقميصه من الخلف، وبذلك تبيّن أن كيد هذه المرأة قد دفعها إلى فعلتها هذه، والهدي الرباني هو الذي جعل يوسف معصوماً، وقد وقاه الله من ارتكاب الفاحشة، وهذا توجيه تربوي قيمي بأن صلاح الناشئة يكون في الهدي الرباني وأما الإصغاء لدواعي الفتنة ولنداء الغريزة فإنه يقود إلى ما لا تحمد عقباه.

إن تأصيل الحوار القرآني يحتاج بعد هذا العرض، وهو قليل من كثير من الحوارات والمناظرات التي حواها النص القرآني إلى طرح أهمية الموضوعية كمنهج حواري، والمقصود هنا بالموضوعية أن لا يأتي المحاور إلى مجالسه، وهو في حالة تعصب لقناعاته، أو أن يبدأ حواره من مسلمات يلتزمها. وإنما الأصل أن يكون الحوار من فرضية تساوي بين المتحاورين وينطلق فيها أطراف الحوار من الفرضية القائلة بأنهم إما أن يكونوا جميعاً غير محقين أو أنهم على الحق. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤).

بدأ الحوار بسؤال لمن يعبدون الأصنام وبعض المخلوقات، والسؤال هو حول من الذي خلق الرزق في كل مواقعه ومصادره؛ أكانت في الأرض أو في السماء، وبعد ذلك سيكون الجواب حكماً أن الله تعالى هو واهب الرزق، وهنا يأتي دور حسم الحوار، ولكن من الموقع الإيجابي خلال



استخدام الحجة البالغة التي تحمل طرف الحوار المخاصم وهو على الحق يسلّم، ويميل إلى الطريق القويم، ولو استخدم معه الكلام القاسي وأساليب التعبير التي تحمل الاتهام والتجريح لكان نفر من الطرف المحاور منافحاً عن الموقف الحق، ولما بلغ الحوار مقاصده.

قال القرطبي حول هذه الآية: "هذا على وجه الإنصاف في الحجة، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادين، وأحد الفريقين مهتدٍ وهو نحن والآخر ضالّ وهو أنتم "(١).

تأسيساً على ما تقدم يصح القول: إن آيات الذكر الحكيم قد جاءت غنية بالنصوص التي اتخذت شكل المناظرات، وكان فيها كل أنواع المقابلة، وتبادل الكلام من الجدل إلى المناظرة إلى الحوار هذا مع ما في هذه النصوص من توجيه باتجاه الأساليب الإيجابية كالحكمة والحسنى في المقابلة والحوار، واستخدام الحجة والبيّنة إلى التواضع والموضوعية وما إلى ذلك مما يجعل من كتاب الله نبعاً ثرّاً لا ينضب عطاؤه في أمر قبول الآخر والإقرار بالتنوع، وغير ذلك مما يؤسس للعيش الكريم وللاستقرار في العلاقات الاجتماعية، وهذا قد أسس لشخصية مسلمة متميّزة ومن ظهروا على غير هذه الحال إنما كان ذلك بسبب الجهل والنقص المعرفي أما عند غير المسلمين فالنقص والخلل كائن في الفكر والنصوص قبل أن يكون في السلوك والممارسات. وما حصل في هذا العرض سيشكل مادة رئيسية في الخلاصات والتوصيات التي ستكون في هذا البحث.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٤، م.س.، ص ٢٩٨ .

تأصيل الحوار من فضاءات السّنّة النبوية:

إن الرسول ﷺ مبعوث رحمة للعالمين، وقد كانت انطلاقة البعثة من بين ظهراني العرب، وفي القلب من الجزيرة ، مكة المكرمة؛ حيث كان سكانها مع محيطها، وفي مواقع كثيرة من العالم يعيشون حالة أميّة دينية، أو كان بعض من وصلتهم رسالة قد مالوا عنها، أو عن بعض ما جاء فيها، والأمية التي عناها القرآن هي إذن الجهل بدين الله تعالى وهديه القويم، وفي النص القرآني جاء قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٢-٣).

إن القوم كانوا محتاجين للهدي الرباني، وللدور الرسالي، وللتوجيه النبوي لذلك جاءهم البلاغ مع رسول من مجتمعهم يعرف لغتهم، ويحيط علماً بكل خصوصياتهم، وكان دوره ﷺ أن يبلغهم الإسلام، وأن يصقل شخصياتهم تزكية وتأديباً وتطهيراً من أجل أن يرتقوا إلى مستوى أنقى سلوكاً وقولاً، وفي كل حركاتهم وسكناتهم. وهذا كله منطلقه كتاب الله تعالى، وبعد تلقيهم كتاب الله لا بد لهم من النظر العقلي وبذل الجهد بحثاً واكتشافاً وابتكاراً وتأليفاً واختراعاً، وكل هذه تنضوي تحت باب الحكمة، وإذا ما تمّ لهم ذلك يكون إسلامهم قد جبّ ما قبله، ويكونون قد تخلصوا مما كانوا عليه من جهل وسفه ورذائل. ولا ينتهي الدور الرسالي عند حدود من كان منهم رسول الله، وإنما المسيرة التبليغية متواصلة ومعها التعليم والحكمة والتزكية،



وبعد عهد النبوة تبقى المهمة في أتباع الإسلام إلى يوم الدين.

لكن كل ذلك احتاج إلى الثبات على المبدأ والالتزام الكامل بدين الحق مع استعداد للحوار والمناظرة، واعتماد أساليب متعددة وكلها مشروعة تحقيقاً للهدف.

وأول ما يذكر في إطار الثبات ذلك الموقف الذي واجه به رسول الله عمّه أبا طالب يوم جاءه يعرض عليه شكوى قريش المقرونة بإغراءات مقابل التخلي عن الدور الرسالي، والتكليف الإلهي. لقد " جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا له: إن ابن أخيك قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنه.

بعث أبو طالب للرسول ﷺ فقال له:

يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني، وقالوا: كذا وكذا، فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، فاكفف عَن قومك ما يكرهون من قولك.

فظنّ رسول الله أن قد بدا لعمّه فيه، وأنّه خاذله ومسلّمه، وضعف عن القيام معه.

فقال رسول الله ﷺ: يا عمّ لو وُضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر؛ حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه "(١).

إن هذا الحوار مع أبي طالب إنما يأتي ليؤسس لقاعدة هي: التمسك بدين

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، تحقيق مصطفى عبد الواحد، بيروت، دار الرائد العربي، ط٣، سنة ١٩٨٧، ص٤٦٣، ٤٦٤ .



الله من قبل المؤمن أيًّا كان الوعيد أو الإغراء، وأيًّا كان الثمن.

وبمقابل هذا الموقف الحاسم الذي لا مجال لمجرد البحث في مسألة الحوار المطروحة، نجد أن المهمة التبليغية تحتاج إلى الحلم ورحابة الصدر، وتحمل أسلوب خطاب السائل الذي جاء يتعرّف على الإَسلام وأركانه وشعائره.

وماجريات هذا النوع من الحوار التبليغي الدعوي والتعليمي نموذجها هذا الحوار الذي كان مع ضمام بن ثعلبة. والواقعة هي: "قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن نويفعَ عن كُريب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: بعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه، فأناخ بعيره على باب المسِجد، فعقله، ثم دخل على رسول الله وهو جالس في أصحابه.

فقال: أيّكم ابن عبد المطلب؟

فقال رسول الله: أنا ابن عبد المطلب.

فقال: محمد؟

فقال: نعم.

فقال: يا ابن عبد المطلب، إنّي سائلك ومغُلظ عليك بالمسألة، فلا تجدنّ نفسك.

فقال: لا أجد نفسي، فسلْ عمّا بدا لكَ.

فقال: أُنشدك الله إلهك، وإله أهلك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آللَه بعثك إلينا رسولاً؟

قال: اللهم نعم.

قال: فأنشِدك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله



آمرك أن نعبده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟

فقال رسول الله: اللهم نعم.

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وفرائض الإسلام كلّها، يُنشده عند كل فريضة كما نشده في التي قبلها حتى إذا فرغ قال: فإنّي أشهد أَن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وسأؤدي الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، لا أزيد وأُنقص، ثمّ انصرف راجعاً إلى بعيره "(١).

إن هذا الحوار يشكل منهجاً مهماً في عالم الدعوة، وفي الواقعة يدخل ضمام بن ثعلبة، ويسأل ليعرف من هو الرسول من بين المجتمعين، وذلك كي يعَرف إلى من يوجه أسئلته، وهذا ضروري في كل ملتقى ومجلس أن يتصدى للأمر من هو أهل له، كما كان الأمر عندما صمت الصحابة، وكان المحاور رسول الله ﷺ فقط.

وعندما تحدث ضمام بصراحة بأنه سيغلظ في أسئلته كان المبعوث رحمة للعالمين سريع الجوابَ: اسأل عمّا تريد ولا حرج، ولن أضيق ذرعاً بأسئلتك، وضمام الذي تحركت فيه الفطرة وجاء بحواره مستفسراً مستعلماً اهتدى إلى منهج تدرجي في أسئلته حيث أراد بداية أن يتحقق عن أمر بعثة رسول الله ﷺ بالإسلام، عندما سأل: آلله بعثك إلينا رسولاً؟ وإذا ما انتهى الجواب بنعم كان سؤالا عن العقيدة ورأس الأمر فيها التوحيد.

---

(١) ابن قيم الجوزية، سيرة خير العباد، إعداد صالح أحمد الشامي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ص٥٤١ .



فكان سؤاله: هل الله معبودك ومعبود الجميع من قبل ومن بعد هو الذي طالبنا بأن نهجر الأصنام، وأن نفرده سبحانه بالعبودية والعبادة والإسلام، وإذا كان بديهياً أن يكون الجواب: نعم. عند هذا الحدّ يكون ضمام قد عرف الإيمان بالله تعالى، وبأن محمداً صلى الله عليه وسلّم رسولَ الله، فما كان منه إلا أن انتقل عن أركان الإسلام وشعائره مستعلماً عن الصلاة والزكاة والصيام وسائر الأمور الأساسية في الإسلام.

وبعد انتهاء الحوار كان منه ماهو متوقع، ألا وهو إعلان إسلامه. والجميل أن ضمام وعد بالالتزام بما أمره به الرسول، وأنه سيمتنع عن الإتيان بما نهى عنه؛ وأَنه سيكون عدلاً في التزامه الديني ؛ لا زيادة ولا نقصان؛ أي لا إفراط ولا تفريط، وهو ما يلحّ الدعاة على طرحه هذه الأيام تحت مصطلح الوسطية ؛ وهو هوية الأمة المسلمة التي لا مكان عند أهلها لغلو وتطرف أو لتحلل وتهاون.

ويستفاد كذلك لمنهج الحوار وأسسه من هذه الواقعة أسلوب الدقّة والاختصار الذي اعتمده رسول الله ﷺ في أجوبته لضمام حيث كان الجواب في كل مرة بليغاً، وإذا كان التبليغ يحتاج من الداعية أن يكون بليغاً ؛ فإن البلاغة التي ظهرت في هذا الحوار بلغت الحدود القصوى، وما البلاغة إلا الوصول إلى الغرض بأقل قدر من الكلام. إن هذا الأسلوب يحتاجه الدعاة مراعاة لإفهام من يحاورهم مستعلماً أو متعلماً أو مناظراً، والمعلوم أن من يكثر كلامه تكثر أخطاؤه، وبالتالي يكون الأسلوب الأفضل أن تكون الأجوبة والردود في المحاورات بالقدر الضروري دون تطويل مملّ، ولا إيجاز مخلٍّ.

وقد لفت إلى هذه القاعدة الإمام الجويني فقال: " ولا تعوّد نفسك



الإسهاب والجدال بالباطل، والمبادرة إلى كل ما سبق إليه الخاطر واللسان. حتى إذا أورد ما أورده فإن الكلام إذا طال واشتمل على الغثّ والسمين، مجّته الآذان، وملّته القلوب "(١).

وكان حوار يوم بدر الكبرى الذي أتى ليؤكد أهمية الشورى في إدارة الأمور، ولأن الشورى على هذا القدر من الأهمية من أجل الوصول إلى القرار السليم، والمواقف الراشدة، لذلك ورد ذكر الشورى في آيتين كريمتين واحدة في سورة آل عمران جاءت بصيغة الأمر ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (١٥٩)، وفي سورة حملت الاسم الشورى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (٣٨) ؛ ولا تكون الشورى إلا بأسلوب حواري يسبق اتخاذ القرار أقله أن تكون مراجعة يمارسها الشخص مع ذاته، وما في ذهنه أو - وهذا الأهم - تكون الشورى قبل واقعة وقرار، أو أمام حدث ما بين القائدة ومن حوله من أجل الاستفادة من المعارف والخبرات والتجارب في مسار الأحداث وفي اتخاذ القرارات الملائمة.

كانت وقعة بدر أول معركة خاضها رسول الله مع صحابته الكريم ضد المشركين، ولكن ذلك لم يكن ليجعل حالة انفعال تسود، بل كانت الشورى في أكثر من محطة في المعركة، وفي هذه تعليم لأتباع الإسلام على مر الأزمنة.

التشاور والحوار الأول كان قبل الخروج، وبعد أن علم رسول الله ﷺ بمسير قريش بعد اجتماعها، وكان الغرض من الحوار معرفة ردود المهاجرين بشأن قتال قومهم للمرة الأولى، وسماع ردود الأنصار لأنه لم يرد في عقد

(١) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٣ .



المبايعة والنصرة موضوع القتال ضد مشركي قريش، وما في العقد والعهد هو الحماية والدفاع وليس فيه من بند بشأن الخروج والقتال. ويفيد ترك سرد الوقائع لابن هشام في "السيرة النبوية" حيث جاء عنده في هذا الموضوع:

"وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم؛ فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش؛ فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن. ثمّ قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن. ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امْضِ لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه؛ فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس. وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنّا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمّتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه في المدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم.

---

(١) بَرْك الغماد: موضوع قديم بين قلي والقنفذة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وكان يسمى برك الغماد، وهو اليوم مَرفأ ساحلي جنوب مكة على قرابة ٦٠٠ كيل، ووصفه ياقوت بقوله: موضعٌ وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلي البحر. (موسوعة السيرة النبوية الشريفة، دار النفائس، بيروت).



فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: أجل؛

قال: فقد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السّمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنّا لصبر في الحرب، صُدُق في اللقاء. لعل الله يُريك منّا ما تَقَرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ذلك؛

ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم "(١).

هذا الحوار النبوي مع المهاجرين والأنصار إنما أراد حشد القوى للمعركة، وهذه مسألة من القواعد الاستراتيجية المهمة يضاف إلى ذلك التأكد من درجة التعبئة، ومن ثم درجة الاستعداد للتضحية وكل ذلك مهم في خوض المعارك والحروب، وأخيراً أن يصدر الموقف عمّن ستكون بلدهم قاعدة للمعركة، وبعد هذا الحوار كان القرار، وهذا المنهج الحواري النبوي يحتاجه أي قائد أيّاً كانت درجة مسؤوليته قبل الإقدام على أية خطوة نوعية ومفصلية.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، تحقيق مصطفى السقا، وابراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ص٢٦٦، ٢٦٧ .



صدر القرار، وتحرك رسول الله ﷺ مع صحبه إلى موقع المواجهة، ونترك لابن هشام ليعرض لنا مسألة أخرى من محطات بدر رافقها حوار نبوي دار حول أمر دنيوي يتعلق بالخبرة العسكرية، وفي هذا لا بأس أن يكون الحوار، وأن تكون المراجعة إلى حد التراجع عن خطوة بيّن أحدهم أثناء الحوار أن هناك خطوة أجدى منها لو اعتمدت.

جاء عند ابن هشام: " فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به.

قال ابن إسحاق: فحدثت عن رجال من بني سلمة، أنهم ذكروا:

إن الحباب بن المنذر بن الجموح (الأنصاري) قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة؛

فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس، حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغوّر[١] ما وراءه من القُلُب[٢]، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون؛

فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأي . فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغُوّرت،

---

(١) نغوّر: غار الماء: ذهب في الأرض وسفل فيها.

(٢) القُلُب: المفرد: قليب: البئر. وقيل: العادية القديمة منها مطوية كانت أم غير مطوية سميت بها لأنها قليت الأرض بالحفر.



وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه، فمُلِئَ ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية "(١).

إن خلاصات هذا الحديث النبوي ما يلي:

١- كل حوار يحتاج بداية أن ننظر في موضوعه فإن كان وحياً؛ أي شريعة فلا مجال للمراجعة، وإذا كان في أمر من الرأي فلا بد عندها من الاستفادة بعد الحوار بالرأي الأقرب الى الصواب، والذي يتوقع أن تكون نتائجه أفضل.

٢- لا يصحّ لمحاور أن يستصغر شأن من يحاوره أياً كان التفاوت بينهما في الموقع لأن هذا المحاور قد يكون عنده من الموهبة والإمكانات ما يجعل منه فائدة كبيرة، وعلى أساس هذه القاعدة أعطى الرسول ﷺ، وهو من هو في المكانة الفرصة للصحابي الشاب الحباب بن المنذر الأنصاري أن يراجعه ومن ثم أخذ برأيه.

وقد وضع الإمام الجويني في قواعد آداب الجدل ما يفيد مثل هذا حيث قال: "وإيّاك واستصغار من تناظره والاستهزاء به -كائناً ما كان- لأن خصمك إن كان من المفترض عليك في الدين مناظرته؛ فهو نظيرك- ولا يجمل بك إلا مناظرة النظير للنظير "(٢).

٣- إن ما قام به رسول الله ﷺلجهة قبول الرأي الناصح للحباب بن المنذر يأتي لينشر ثقافة تقرّ بالفضل لأهله، وبالأخذ بالرأي الحكيم أياً كان الشخص الذي أدلى به، وهذا المنهج هو الذي يقطع الطريق على المكابرة التي تتمثل في المعاندة بالباطل ليدحضوا به الحق.

لقد كان للحوار النبوي في بدر دروساً عديدة، وقد قالت بذلك "موسوعة

(١) إبن هشام، م.س.، ص٢٧٢ .

(٢) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٣١ .



السيرة النبوية الشريفة "(١) في خلاصاتها حول وقعة بدر، ومن ذلك:

- أهمية الشورى، وقد ضرب الرسول ﷺ بنفسه مثلاً لجميع القادة، وعلى مرّ العصور، في ضرورتها، وأهميتها، ولا أظنه، وهو النبي المرسل، كان لا يدرك مكانته عند المهاجرين والأنصار، أو كان يشكّ في طاعتهم له إن كان قراره القتال أو الانسحاب، ومع ذلك جمعهم وشاورهم، وأشعرهم بأن القرار قرارهم.

- كذلك ضرب مثلاً في أخذه برأي الحباب بن المنذر وتغيير مكان نزول جيشه، ولم يجد في ذلك غضاضة أمام صحابته، وأظنه في تصرفه كان يعطي درساً أيضاً إلى جميع القادة، ويوجههم إلى استشارة أهل الخبرة والمعرفة في أي أمر يقدمون عليه".

ويأتي في أنواع الحوار النبوي بعض ما رافق اتفاق(٢) الحديبية (صلح

---

(١) موسوعة السيرة النبوية الشريفة، جماعة من المختصين، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص١٤٩.

(٢) اتفاق الحديبية: قال بذلك أحمد راتب عرموش في كتاب: "قيادة الرسول السياسية والعسكرية" الصادر عن دار النفائس ببيروت، وقد قال: "سميته اتفاقاً لأن الهدنة، لغة، كما جاء في لسان العرب: السكون بعد الهيج، ويقال للصلح بعد القتال هدنة، وربما جُعلت للهدنة مدة معلومة، وهي في المصطلح الحديث: وقف الحرب إلى حين. وغالباً ما تكون بانتظار التوصل إلى تسوية محددة بين الطرفين المتنازعين وتوقيع معاهدة الصلح. بينما الصلح هو إنهاء لحالة الحرب بشكل كامل، بحيث السلام وكان القتال والعداء.

ولذلك فإن (صلح الحديبية) هو في واقعه هدنة، بالمفهوم الحديث للهدنة، لأنه كان ينص على إيقاف القتال والأعمال العدائية بين الطرفين مدة محددة. وقد درجت كتب السيرة على تسميته صلحاً آخذة بالمعنى اللغوي الواحد للكلمة. وقد كان عمر رضي الله عنه أكثر دقة في قسميته ذلك الصلح هدنة حين قال: "فلما وقعت القضية أسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم الحديبية. وقد فضلت تسميته اتفاقاً كيلا تكون التسمية ذريعة لدعاة الصلح مع العدو مستندين على سابقة صلح الحديبية الذي كان في اللفظ صلحاً وفي المضمون هدنة. (ص٨٩).



الحديبية) والتي كانت هدنة إلى حين حقن فيها رسول الله ﷺ الدماء ليكون بعدها الفتح بعد عامين دون قتال ولا إراقة دم. وكانت الهدنة إجراءً لا يعني التراجع عن الهدف ألا وهو دخول مكة المكرمة ليظهر الإسلام في رحاب الكعبة، ويلغي كل مظهر شركي.

إن قريشاً عندما وجدت رسول الله قد حشد لها، وهي لا تريد أن يدخل مكة المكرمة عنوة ورغماً عنهم كي لا يحطّ ذلك من شأنهم بين القبائل، وأرسلوا إلى رسول الله سهيل بن عمرو، وأمروه أن يصالح محمداً ﷺ على عهد يؤجل الدخول إلى مكة هذه المرة، وأن يتعهد كلا الفريقين بعدم قبول كل من يلجأ من صف فريق إلى الفريق الآخر.

بعد حوار وأخذ وردّ كانت الوقائع حسب ما ذكر ابن هشام: " فلما التأم الأمر ولم يبقَ إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال: بلى،

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال:بلى،

قال: علام نعطي الدّنية (الذل) في ديننا؟

قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه (التزم أمره) فإنّي أشهد أنه رسول الله ﷺ.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟



قال: بلى،

قال: أولسنا بالمسلمين؟

قال: بلى،

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: بلى،

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني.

قال: فكان عمر يقول: "مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال: أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم،

قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن أكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ : أكتب باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال: أكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك،

قال: فقال رسول الله ﷺ أكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمر فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض "(١).

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية م٣، ص ٣٣١، ٣٣٢ .



إن الحوار يوم الحديبية جاء يقدم عدة أمور مستفادة لأسس الحوار من المصدر النبوي منها:

١- لقد أوفدت قريش سهيل بن عمرو، وهي لا تزال على الشرك، إلى رسول الله ﷺ تعرض الهدنة وفق أسس معينة، وقد وافق رسول الله على ذلك من أجل مزيد من الإعداد والاستعداد لدخول مكة المكرمة.

٢- إن الحوار جاء مع كل الأصناف أياً كان الانتماء العقدي للفريق الآخر.

٣- عند الحوار مع الخصم لا مانع من مراعاة ما هو عليه إذا كان لا يغير من الحقيقة شيئاً كأن يقال: "باسمك اللهم"، أو أن يكتب اسم رسول الله ﷺ مع اسم أبيه.

٤- إن الحوار جائز إذا كان يراعي مشاعر الخصم بما لا يضر بالقضية وفي هذه الواقعة فإن قريشاً كانت ترغب أن لا يدخل رسول الله ﷺ وصحبه عنوةً إلى مكة فقبل رسول الله ﷺ هذا التمني.

٥- إن حواراً يمهد لهدنة مؤقتة لا مانع منه، ولهذا يكون الأفضل أن يسمى اتفاق الحديبية وليس صلح الحديبية.

٦- لقد خلص الحوار إلى الإتفاق على هدنة مدتها عشر سنوات، وكانت الحديبية عام ٦هـ، ولكن توافر معادلة في موازين القوى جعلت نقض هذه الهدنة بعد عامين حيث كان فتح مكة المكرمة عام ٨هـ، وهذا يؤسس لقاعدة هي: إن أية هدنة أو اتفاقية وقف قتال إنما هي مقبولة ما دامت موازين القوى مختلة، وساعة تسمح القدرات بتحقيق الأهداف فلا تكون هدنة.



ويأتي فتح مكة المكرمة عام ٨هـ حيث أطلت حشود المؤمنين بقيادة رسول الله ﷺ على مشارف مكة المكرمة، فانهارت الروح المعنوية عند مشركي قريش، وتعطلت إرادة القتال عندهم، وكان فتح مكة المكرمة دون قتال.

حصل ساعة فتح مكة المكرمة حواران: الأول بين العباس بن عبدالمطلب وأبي سفيان، والثاني بين رسول الله ﷺ وأهل قريش. عندما شاهد أبو سفيان حشود الصحابة، وهم في أعلى درجات الاستعداد قال أبو سفيان: " سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ "

قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار؛

قال: ما لأحد بهؤلاء قبلٌ ولا طاقة؛ والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً؛

قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة.

قال: فنعم إذن "(١).

لقد أوصل هذا الحوار أبا سفيان إلى التسليم بنبوة محمد ﷺ بعد أن كان هو من يدير الحرب ضد الإسلام ورسوله، وما كان ذلك لولا أن العباس قد حاور، والحق الذي يعمله مستند إلى حشد المؤمنين الذي جعل أبا سفيان يقر بالهزيمة. وهذا ينبه إلى أن صاحب الحق لا بدّ له من القوة الهادفة لا القوة الغاشمة، والقاعدة هي: " الحق بغير القوة ضائع. "

اما الحوار الثاني فهو عندما استسلمت قريش خاطبهم رسول الله،كان

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، م ٤، م.س، ص ٤٧ .



الحوار على الشكل التالي:

" قال: يا معشر قريش ما ترون أنّي فاعل بكم؟

قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم،

قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: (لا تثريب عليكم اليوم)[١] إذهبوا فأنتم الطلقاء...... "[٢].

هذا الحوار أسّس لقاعدة جديدة في أمر الحوار ونتائجه، إنه العفو عند المقدرة، أو بلغة العصر التسامح. إن الحوار النبوي مقصده استقطاب أهل قريش إلى الإسلام، وذلك لن يكون بغير الأسلوب الحسن الذي يؤلف القلوب، ولو اعتمدت القسوة لاستمر النفور والاقتتال، لكن القول: " اذهبوا فأنتم الطلقاء " جعلهم يشهدون لرسول الله ﷺ بالنبوة، وهذا يؤسس للدعاة منهجاً هو الابتعاد عن الثأر والانتقام مادام الهدف قد تحقق. ولو تُرك الأمر لينتقم المسلمون المهاجرون ممن آذاهم وهجرهم وصادر أملاكهم لما عمّ الإسلام مكة بهذه السرعة.

إنه السلوك القائم على الرحمة والموعظة الحسنة بعد إظهار القوة هو الذي حقق هذه النتائج. ومما يؤكد ذلك حوار جرت وقائعه عند دخول مكة المكرمة عندما وجه رسول الله ﷺ جيشه على مواقع وكان أن سعد بن عبادة قال يومها: " اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة؛ فسمعها رجل من المهاجرين. قال ابن هشام: هو عمر بن الخطاب. فقال: يا رسول الله؛

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٢ .

(٢) ابن قيم الجوزية، م.س.، ص ٣٣٣ .



' سمعت ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون في قريش صولة.

فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: أدركه، فخذ الراية منه ، فكن أنت الذي تدخل بها " (١).

وخاطب رسول الله بعد هذا الإجراء جيشه قائلاً : " اليوم يوم المرحمة، فأنا نبي المرحمة ولست نبي الملحمة. "

إن وقائع فتح مكة المكرمة حصلت أثناءه حوارات حوت الكثير من الدروس والعبر التي تشكل أسساً مهمة للحوار وذلك بعد توافر مقومات الحوار، وإذا كان القصد أخذ العبرة للواقع المعاصر فإن الحوار من موقع المناظرة على أساس الندّية من الآخرين يحتاج من العرب والمسلمين أن يمتلكوا أسباب القوة بكل أشكالها كي يستطيعوا رفع الظلم عنهم وإزاحة العوائق من طريق الدعوة.

لقد أثمر فتح مكة الثمرة التالية: " ظهور المسلمين قوة عظمى في جزيرة العرب: وبعده فتح مكة، وتحقق أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، برزت قوة كبرى في الجزيرة العربية، لا يستطيع أيّ تجمع قبلي الوقوف في وجهها وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثمّ الانطلاق إلى الأقطار المجاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله؛ كي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه. " (٢).

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية،م٤، م.س.، ص ٤٩ .

(٢) عرموش، أحمد راتب، قيادة الرسول السياسية والعسكرية، بيروت، دار النفائس، ط٣، سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص١٢٩ .



إن الخلاصة التي ينتهي إليها البحث تأصيلاً للحوار من مجريات السنة النبوية الشريفة بدءاً من الحوار الأول لحظة الضعف الذي كان بين رسول الله ﷺ وعمه أبي طالب وصولاً إلى ظهور الإسلام وتطهير الكعبة بيت الله الحرام من الأوثان ومظاهر الشّرك، إنما هي أن الحوارات مع الآخرين تحتاج من المسلمين إلى الأمور التالية:

١ - تحديد المقاصد من أي حوار، والثبات على الأساسيات دونما استعداد للتراجع أو المسايرة في أمور العقيدة والشريعة والمقدسات.

٢ - العمل على امتلاك القدرات الكافية لحماية الدعوة لأن أي حوار وأية مناظرة مع الضعف إنما سيكون مردودها سلبي.

٣- الجنوح إلى العفو والتسامح لكن بعد الظهور وتحقيق الانتصار؛ لأن المهزوم والضعيف لا يحترمه أحد.

٤ - لقد قاد الحوارات في مراحلها كافة رسول الله ﷺ فكانت وحدة المنهج، ووحدة القيادة، ووحدة الجهة التي تحاور باسم الإسلام مما أوصل إلى النتائج المأمونة، أما تشتت القرار وتعدد الرؤى، والتسابق إلى الحوار مع الآخرين مع الضعف فكل ذلك لن يجدي نفعاً، ولن يحقق استقراراً في العلاقات، ولا طائل من ورائه.



أسس وقواعد الحوار:

إن الحوار ضرورة تقتضيها الفطرة البشرية، والحاجات الاجتماعية لصياغة نسيج لشبكة علاقات لا يمكنها أن تستقر إلا بالحوار والتفاهم بين عناصر هذه الشبكة. وما يتعلق بالحوار في السياق الذي يتمّ الالحاح عليه هذه الأيام؛ فإن هذا الحوار ضروري كذلك، والإسلام يقرّه شريعة وفقهاً، وللحوار قواعده الأصلية في كتاب الله، وفي سنة رسول الله، لكن هذا الحوار يحتاج إلى قواعد وآداب، كما يحتاج لأسس وقواعد، والأسس المستفادة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هي:

١ - إن الحوار ليس نوعاً واحداً، وما يحدد نوع الحوار هو المراد منه وعلى مستوى المصطلح الإسلامي يمكن تحديد ثلاثة أنواع من الحوار:

أ- الجدل: وهو الحوار الدعوي الذي لا مجال فيه للتراجع والمراجعة، وإنما هو حوار تبليغي يحمل فيه المسلم الدعوة لدين الله، وكما أمر الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وأما الجدل الذي يعمد إليه بعضهم ليدحض الحق وينصر الباطل فهو مكابرة وفساد في الرأي لا يقبله الإسلام.

ب- المناظرة: وهي الحوار بمقابلة الرأي بالرأي، والغرض هو جلاء الحقيقة ويقرها الإسلام ولها نماذج في القرآن والسنة، والمناظرات فيها ما يكون بين علماء الإسلام وفقهائه؛ ومن المناظرات ما تكون مع أتباع العقائد والشرائع الأخرى حتى لو كان من أهل الشرك، ومن نماذج ذلك الحوار مناظرة إبراهيم عليه السلام مع المشرك الذي يقال إنه النمرود، والذي بُهِت عندما أعطاه



حجة لا يمكنه الرد عليها تتعلق بحركة الأرض وشروق الشمس وغروبها.

ج- الحوار: ويكون الحوار الذي هو المجاوبة والأخذ والرد، وهو أمر أجازه الإسلام في الأمور التي تستند إلى الحكمة والنظر العقلي، وإلى المعارف البشرية وإلى الخبرات والمواهب. لكن لا حوار في المسائل العقدية أو في الثوابت الشرعية والأحكام المنصوص عليها. ونموذج الحوار الذي يقره الإسلام ما كان يوم بدر حيث استجاب رسول الله ﷺ للحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري لجهة تغيير المواقع ما دام الأمر هو الرأي والمكيدة والحرب، أما لو كان الأمر وحياً فإنه لا مجال للحوار أو للتعديل والتبديل.

والحوارات التي يمكن أن تقوم عبر هذا النوع ما يلي:

١- حوار بين أطراف ومجموعات في مجتمع واحد بغرض ترسيخ القيم والمثل، ومقاومة المفاسد والرذائل ما دام الجميع يؤمن بهذه القيم ويدعو لها. ومن النماذج المعاصرة ما كان عام ١٩٩٤ عندما عُقد مؤتمر السكان في القاهرة، وبعده في العام ١٩٩٥ عندما عُقد مؤتمر المرأة في بكين حيث التقت المرجعيات الإسلامية والمرجعيات المسيحيَة عالمياً على رفض ما دعا إليه هذان المؤتمران في وثائقهما من أشكال الاستباحة للحرمات خاصة الروابط الأسرية.

٢- حوار لمعالجة الظلم والعدوان من أجل نشر العدل وإحقاق الحق، ولأن الله تعالى يأمر بالعدل وينهى عن الظلم؛ فإن الحوار بهذا الشأن مقبول إسلامياً؛ طالما أنه يحقق هذا المقصد، والمصدر أو الأساس لهذا النوع من الحوارات المقبولة ما قاله رسول الله ﷺ بشأن حلف الفضول الذي كان قد



حصل قبل بعثة رسول الله، وقبل بدء مسيرة الإسلام، والذي قال فيه عليه الصلاة والسلام بأنه لو دُعي إليه بعد الإسلام للبّى الدعوة؛ وذلك لأنه حلف يحفظ كرامة الإنسان ويمنع الظلم ، وهما مقصدان في الإسلام.

٣- حوار التعاقد الاجتماعي أو المصلحي وهذا أمر يحمل أمر الإقرار بالمجتمع المتنوع، وفي النص القرآني أن الله تعالى قد خلق الناس ووزعهم شعوباً وقبائل، ونموذج ذلك في السنة النبوية "الصحيفة" في المدينة بين المسلمين أنصاراً ومهاجرين وغير المسلمين برعاية رسول الله ﷺ وتعدّ الصحيفة ميثاقاً وطنياً تعاقدياً سبق كل مواثيق العالم.

أما قواعد الحوار وآدابه فلها كذلك أسس تتوزع على الشكل التالي:

١- تحديد موضوع أو موضوعات الحوار؛ أو ما يسمى تحرير محل الحوار، أو تحرير محل النزاع، وذلك بتشخيص موضوع الحوار وتحديد أبعاده وإذا ما كانت دينية أم عقلية أم علمية أم اجتماعية قيمية، لأن الحوار إذا كان في موضوعين مختلفين أو أكثر يصبح مضيعة للوقت، ويكون عقيماً لا جدوى منه.

" لا بد لكل من طرفي الحوار، من التعرف إلى الفكرة التي ينطلقان في طريق إثباتها ونفيها لأن الجهل بها وبتفاصيلها، يحوّل الحوار إلى أسلوب من أساليب الشتائم والمهاترات التي يغطّي فيها كل منهما ضعفه وعجزه عن الوقوف موقف المدافع القوي عن فكرته، بينما تجعل المعرفة كلاً منهما واعياً لما يُطرح من فكر، ولما يُستَقبل من فكر، مما يجعله يعرف كيف يبدأ الحوار، وكيف يخوض فيه، وكيف ينتهي منه، في وضوح الرؤية، وهدوء الفكر،



وقوة الحجة، ووداعة الكلمة "(١).

٢- العلم؛ إن الحوار المجدي نفعاً هو ذلك الذي يشترك فيه أشخاص يتمتعون بقدر من المعرفة بالموضوعات التي هي محل الحوار وقد نبه القرآن الكريم إلى مخاطر الجدال والحوار بغير علم فذلك يقود إلى مواقع شيطانية وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ (الحج: ٣).

وعند كل حوار علينا أن نطالب أي طرف إلى بيان مدعوم بالحجة والبرهان ولا تفيد في الحوار المواقف الانفعالية التي لا قواعد لها ولا أسس.

وفي هذا جاء قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

والمعرفة وقوة الحجة من أسس الحوار الناجح الذي يظهر الحقيقة ويفحم الخصم. هذا مع الحرص على حصر الطرح بالموضوع وبالمقصود من الحوار. قال أبو الوليد الباجي: "ولا يتكلم على ما لم يقع له العلم به من جهته، ولا يتكلم إلاّ على المقصود من كلامه، ولا يتعرض لما لا يقصده مما جرى في خلاله، فإن الكلام على ما لم يقصده عدول عن الغرض المطلوب؛ ولا يستدل إلاّ بدليل قد وقف عليه وخبره وامتحنه قبل ذلك وعرف صحته وسلامته، لأنه ربما يستدل بما لم يمعن في تأمله ولا تصحيحه، فيظفر به خصمه، ويتبين انقطاعه، ويجتهد في الاختصار، فإن الزلل مقرون فيه بالإكثار "(٢).

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين، م.س.، ص٥٠ .

(٢) الباجي، أبو الوليد م.س.، ص١٠ .



وهذا يفيد بأن العلم أساس للحوار، وأن لا يتدخل المحاور في أي أمر لا خبرة له فيه، ولا أن يسهب بالكلام، والتوجيه الرباني: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء: ٣٦). "

٣- الموضوعية؛ والمقصود بها أن يكون رائد المحاور الوصول الى الحقيقة دونما تعصب أو جمود، بل موضوعية تعني أن يبدأ الحوار مع الإقرار بوجود الخصم ووضع احتمال ولو بسيط أن الحق قد يكون معه، والموضوعية تقتضي أن يقبل أهل الحوار الحقيقة وأن يقصوا الباطل والضلال بصرف النظر عمّن سيكون مصدره من الأطراف. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ٢٤)، وهذا أسلوب مفيد في استقطاب الخصام حالَ بيان الحقيقة له. أما إذا تمت مخاطبته مع استهتار به، ومن منطلق وصفه بأنه على الباطل فإنه سينفر ويصعب استقطابه.

٤- الانطلاق في الحوار من نقاط اللقاء والتفاهم؛ لأن ذلك يجعل النفوس في حالة القبول لما سيطرحه الطرف الآخر ما دامت الاهتمامات مشتركة. ولا يصح أن يستحضر حشداً من نقاط التناقص والخلاف ثمّ يقعد لمحاورة خصمه فإن مثل هذا الحوار سيسوده الانفعال والتشنج، وستقوى خلاله حالة التعصب ولن يكون بعده الوصول إلى شيء. والمصدر في هذا قرآني حيث جاء في كتاب الله شكل من الخطاب انطلق من عقيدة التوحيد؛ إذ كل الأنبياء إنما جاءوا يدعون لها.

ومن نماذج ذلك الخطاب القرآني بلسان المؤمنين في مخاطبة المسيحيين،



في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ (آل عمران: ٦٤).

٥- البلاغة في القول؛ ويقصد بذلك استخدام أساليب التعبير المناسبة، والتي توصل الرسالة التي يريدها المرسل أن تصل إلى المتلقي أثناء حواره معه، وهذا يقتضي عدم استخدام مفردات أو جمل ملتبسة الدلالات والمعاني، هذا مع ضبط المصطلح وتحديد المفاهيم، يضاف إلى ذلك الاقتصاد في التعبير والكلام دون إيجاز يخل بالمعنى والقصد، ولا أن يذهب المحاور إلى تطويل يجلب الملل وكثرة الأخطاء.

وقد نبه الجويني إلى ذلك قائلاً: "ولا تورد في كل موضع من الكلام إلا قدر ما يحتاج إليه. وهو نصيحة المشايخ - يقولون لأصحابهم- اتفقوا في المناظرات، وإنما قيل ذلك، لأنه ربما تورد ها هنا كلاماً لا تحتاج إليه فيفسده الخصم عليك؛ لأنه في غير موضعه فيصعب عليك العود إليه في موضع الحاجة"(١).

وقال فخر الدين الرازي بشأن هذا الموضوع في شروط المناظرة والحوار:
١- إنه يجب على المناظر أن يحترز عن الاختصار في الكلام، كي لا يخلّ بالفهم.
٢- أن يحترز عن التطويل لئلا يؤدي إلى الإخلال.
٣- أن لا يستعمل الألفاظ الغريبة.
٤- أن لا يستعمل الجمل المحتملة للمعنيين بلا قرينة معينة"(٢).

٥- الكلمة الطيّبة؛ فالكلمة الطيّبة تؤلّف، وتطيّب النفوس مما يفسح المجال

---

(١) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٢٦، ٥٢٧ .
(٢) الرسالة الرشيدية، م.س.، ص١٠١، ١٠٢ .



في الوصول إلى الجوامع المشتركة بين المتحاورين، كما أن الكلمة الطيبة تفعل فعلها في المستمعين ، وليست فيما يكون معه الحوار بينما الكلمة الخبيثة المنفعلة تولّد النفور والتشاحن، وتحول الحوار إلى شكل من أشكال المهاترات، ويسود الانفعال والغضب مما يعطل الحوار، أو يجعله عديم الفائدة.

وما جاء في سورة إبراهيم في النص القرآني يكفي بياناً وقواعد للحوار والمناظرة ولكل كلام أو قول، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٦)، وفي آية أخرى من سورة فاطر قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).

٧- الأدب؛ وهو أساس يحفظ الوقار والهيبة، ويمنع الحطّ من شأن المجلس والمتحاورين، وقد نبه الإمام الجويني إلى ذلك فقال: "وأحسن شيء في الجدال: المحافظة من كل واحد من المتجادلين على أدب الجدل؛ فإن الأدب في كل شيء حليته. فالأدب في الجدل يزيّن صاحبه، وترك الأدب فيه يزري به ويشينه. ومعظم الأدب في كل صناعة: استعمال ما يختصّ بها، والاشتغال بما يعود نفعه إلى تقويمها والإعراض عما لا يعود بنفع إليها "(١).

وآداب الحوار والمناظرة تشمل جوانب كثيرة من الجلوس بوقار والتواضع إلى المتحدث دون رفع الصوت أو الهزء والسخرية إلى غير ذلك من الآداب،

(١) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٣٨ .



ويترك البحث لبعض من سبقوا إلى الحديث في هذا الموضوع ليقولوا في آداب المناظرة والحوار:

- أن لا يضحك ولا يرفع الصوت، ولا يتكلم بكلام السفهاء عند المناظرة، لأنها من صفات الجهال ووظائفهم، لأنهم يسترون بها جهلهم "(١).

- ويتوقّر في جلوسه، ولا ينزعج من مكانه فينسب إلى الرِّكَّة والخرق، ولا يعبث بيده ولحيته، فإن ذلك يذهب بالوقار، ولا يكثر الصياحَ حتّى يشقّ على نفسه لأن ذلك يقطعه وينسب منه إلى الضجر، ولا يخفي صوته جداً فينسب منه إلى ضعف المنّة، وكان بين ذلك قواماً، ولا يشغف بكلامه ولا يعجب بجداله، فإن ذلك يدعو إلى المقت "(٢).

وقد جاء في هذا قول الله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

وعند الإمام الجويني: "ويحذر من رفع الصوت جهراً زائداً على مقدار الحاجة، فإنه يورث الحدّة والضجر "(٣).

٨- التوازن والارتياح؛ ويقصد بهما أن يدخل الشخص إلى جلسات الحوار والمناظرة، وهو في حالة من الاستقرار النفسي بعيداً من الانفعال الذي تسببه حالة من فقدان التوازن بسبب نقص وحاجة عضوية فيزيولوجية، أو حالة نفسية كالخوف أو الاضطراب، أو الشعور بالدونية أمام شخص ما أو موقف ما.

---

(١) الرسالة الرشيدية، م.س.، ص١٠٢ .

(٢) الباجي، أبو الوليد، م.س.، ص٩ .

(٣) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٢٩ .



قال الباجي في هذه القاعدة: "ولا يناظر في حال الجوع والعطش، ولا في حال الخوف والغضب، ولا في حال يتغيّر فيها عن طبعه، ولا يتكلّم في مجلس تأخذه فيه هيبة ولا بحضرة من يزري بكلامه، لأن ذلك كلّه يشغل الخاطر ويقطع المادة؛ ولا يناظر مَنْ لا ينصف من نفسه، ولا مَنْ عادته التسفّه في الكلام ولا من عادته التفظيع، فإنه لا يستفيد بكلامه فائدة" (١).

إن الشخص المتوازن في طرحه وأساليب حواره هو من يستطيع التأثير وبلوغ المراد من قبله أما المضطرب والمرتبك والمتردد فإنه لا يقوى على حوار سليم ولا مناظرة ذات جدوى.

٩- احترام الخصم وعدم احتقاره؛ فهذا أمر منهي عنه لأن من يبدأ مع غيره بتحقير أو شتم عليه أن يتوقع أن الآخر سيبادله الكلام نفسه، وهذا الأمر سيؤدي إلى مهاترات وسباب قد يطاول بعضها الذات الإلهية، أو النيل من الشريعة، أو الذهاب بالحوار إلى مواقع غير أخلاقية، لذلك يجب في الحوار المحافظة على رصانته كيفما كانت الأجواء والمناخات. حتى لو حصلت إساءات كمثل ما جرى في الصحف الدانمركية مؤخراً، أو سواها، وفي احتضان بريطانيا لسلمان رشدي وأمثاله؛ ممن طرحوا أباطيل ضد الإسلام، أو كحالة فرنسا التي أصدرت قانوناً في شباط \فبراير ٢٠٠٤ يمنع الحجاب على المسلمات في المؤسسات التعليمية، أو ما يقوم به القساوسة المتصهينون في الولايات المتحدة الأمريكية من نيل مؤذ لرسول الله وللإسلام، ومن هؤلاء جيري فالويل (مات في ربيع ٢٠٠٧)ً، و بات روبرتسون في تلفزيونه المسمى: فوكس نيوز خلال برنامج

(١) الباجي، أبو الوليد، م.س.، ص١٠ .



يسمونه "نادي ٧٠٠" ."Club 700".

رغم كل ذلك فإن الإسلام يطالبنا أن نبقى على توازننا في الحوار، وأن لا ننحدر بمستوى الحوار إلى ما لا يتناسب مع سمو الإسلام الذي يؤكد على الحكمة والخلق في الحوار حتى لو انحط الخصم بمستوى كلامه فإنه صفة المتكلم. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١).

وقد قال فخر الدين الرازي بشأن آداب المناظرة والحوار موجهاً: "أن لا يحسب الخصم حقيراً، لئلا يصدر عنه بسببه كلام ضعيف، وبذلك يغلب عليه الخصم الضعيف"[١].

وقد قال الإمام الجويني: "وعليك المحافظة على قدرك وقدر خصمك وإنزال كل أحد في وجه كلامك معه"[٢].

وقال الإمام الجويني: "ولا يستحقر أحدهما صاحبه بما يقع له من الخطأ في مذهب أو دلالة أو غير ذلك؛ فإنه إذا اغترّ بخطئه ربما أصاب فيما لا خروج له عنه. واستحقار الخصم كاستحقار يسيرٍ من النار؛ فإنه ينتشر من يسيرها ما يحترق به كثير من الدنيا"[٣].

---

(١) الرسالة الرشيدية، م.س.، ص١٠٢ .
(٢) الجويني، الإمام أبو المعالي، م.س.، ص٥٣١ .
(٣) المصدر السابق، م.س.، ص ٥٤١ .



١٠- إن الحوار بين المسلمين على تنوع مذاهبهم، وبين المسلمين وغيرهم المسلمين من أجل عيش كريم على المستويات الوطنية والقومية، أو على المستوى العالمي يحتاج أن يكون موضوعه القيم الناظمة للعلاقات بين الناس وكل ما يؤسس لحياة مستقرة قوامها العدل واحترام كرامة الإنسان، ووقف الظلم والعدوان والتجاوزات أو اغتصاب الحقوق كل هذه الأمور هي التي تؤسس لعلاقات سليمة.

أما في الجانب العقدي فبعد أن ينتهي الدور الدعوي يكون الحوار من أجل التأسيس لعيش وطني ميثاقي كما كان في المدينة المنورة خلال "الصحيفة"، وأما بالشأن العقدي فإن الأمر بعد التبليغ والقيام بالواجب من قبل المسلم يترك لله سبحانه وتعالى، وفي الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج: ١٧).

ولا يخفى على أحد بأن الأمر العقدي لا مجال للتلاقي فيه بل القاعدة فيه بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، وبذلك يصل البحث إلى التقرير مجدداً بأن القول: "حوار الأديان" إنما هو تعبير خاطيء وغير سليم فلا مكان لحوار الأديان ولا العقائد، والصحيح أن يقال: "الحوار بين أتباع الأديان."

١١- إن الحوار من الموقع الإسلامي له مقصد رئيس، هو نشر الرحمة التي بُعث من أجلها رسول الله، وهذه الرحمة ليست موجهة لأتباع الإسلام فحسب، وإنما الرحمة التي يؤيدها الإسلام إنما هي للبشر جميعاً، لا بل



للكائنات كلها، وكل ظلم وجور مرفوض إسلامياً، وهذه القاعدة نطالب المسلمين أن يلتزموها، ونطالب غير المسلمين أن يتفهموها.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) والرحمة كما أكدها الحديث النبوي ليست خاصة، وإنما رحمة تشمل عامة أهل المجتمع، وفي حديث نبوي حواري يؤكد ذلك فيه: ((لن تؤمنوا حتى ترحموا، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم. قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة)) (١).

وتصل الرحمة إلى مستوى رعاية الحيوان، ومعاقبة من يظلمه، ومن نماذج ما ورد في الحديث النبوي بشأن المرأة التي عُذِّبت بهرتها، وعندما سئل رسول الله عن السبب، أجاب ﷺ ((إنها حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض)).

١٢- إن الحوار ضمن القواعد المعتمدة وعلى أسس سليمة من ثوابت القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أمر ضروري شرط توافر آداب تضبط مساره، وإذا كان الحوار ضرورياً؛ فإنه لا يصح أن يكون الحوار متروكاً للمبادرات الفردية، ولأصحاب المصالح والأهواء، ولا للمنفعلين تفريطاً وإفراطاً، وإنما يحتاج الحوار إلى تكوين مؤسسات لها مقاصدها ومكوناتها وضوابطها وهيكليتها لتلعب هذا الدور، وأن يشترك في هذه الحوارات من خلال المؤسسات المتخصصة علماء على دراية وقدر من العلم والخبرة؛ أي أن يُسند الأمر لأهله، وبالنسبة للمسلمين يحتاج الأمر إلى مؤسسات تضع رؤية

(١) رواه الطبراني، ورواته رواة الصحيح.



واضحة المفاهيم والمصطلحات وتتعامل مع الآخرين من موقع النّدّيّة مع الاتجاه الإيجابي المثمر.

كل هذا يكون في رحاب مؤسسات حوارية عندها قدرة على ضبط المسارات منعاً للتشويش والارتباكات، وانحراف المسارات إلى اتجاهات مؤذية.

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩). تأسيساً على ما تقدم يكون ختام البحث بهذه الفقرة من "الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي" التي وضعتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة التي تنص: "إذكاء الحس الأخلاقي الذي ينبع من الفطرة الإنسانية وتقوية الميول الإنسانية نحو تحقيق العدالة الاجتماعية، ونفي مظاهر الظلم والطغيان والتعدّي على حقوق الشعوب المستضعفة، وامتصاص خيراتها، وسلبها إرادتها الحرّة الفاعلة في صنع مستقبلها، واستثمار طاقاتها لمصالح ضيّقة"(١).

إن الحوار الذي يريده المسلمون هو حوار حضاري يهدف إلى إسعاد الإنسان المستخلف في الأرض، والذي يجلب النفع للجميع، والذي يستفيد الجميع من ثماره، وفي الحديث النبوي ما يؤسس لذلك، فالحديث: ((ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)) (٢).

---

(١) الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكوا)، الرباط، ط٢، سنة ١٩٩٨، ص ٦٥ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة.



تجارب من الحوار الحضاري عبر التاريخ

د.جواد محمد الخالصي

رئيس الجامعة الخالصية



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه الكرام المجاهدين.

لقد بنيت كل الدعوات البشرية عبر التاريخ على بدايات حوارية؛ قام بها أصحاب تلك الدعوات أو الذين اقتنعوا بها؛ لإقناع أكبر عدد من الناس بصوابية الأفكار والمناهج العملية التي تؤسس عليها .

ورسالات السماء التي حملها الأنبياء العظام بنيت على نفس أسلوب الدعوة ومحاولات إقناع أوسع وبتحمل وصبر طويلين، ويتناسب كل ذلك والقناعة العميقة التي حملها الأنبياء الكرام عن تلك الدعوة وقدسية الواجب الملقى عليهم.

وقد تضمن القران الكريم إشارات واسعة لهذه الحوارات، بل وتعددت الإشارة إلى الحوار الواحد أحياناً؛ إذ تم ذكره بأساليب متعددة أو بواسطة مواقع مختلفة يمكن النظر منها إلى تلك الحوارات للحصول على أكبر قدر ممكن من التأثير الايجابي الذي ينفع الإنسان ويسهل له طريق الوصول إلى الحق، وقد ورد من القران الكريم حوار نبي الله نوح مع قومه (سورة نوح الآية ٥ – ٢٠) ، وحوار أبينا إبراهيم مع قومه وطغاة زمانه (سورة الأنبياء من ٥٢ – ٦٧) (وسورة الأنعام من ٧٤-٨٢) (البقرة ٢٥٨) وحوار موسى عليه السلام مع فرعون وملئه المتكرر في كثير من سور القران الكريم (الشعراء ١٨ إلى ٥١ والقصص وطه) وكذلك حوارات النبي الكريم عيسى (سورة النساء آية ١٧١ – ١٧٢ والمائدة آية ٨٢)، وصولاً إلى عصر خاتم



الأنبياء محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي بدأ دعوته مستجيباً لأمر ربه ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وليس هذا الموضوع من المجهولات التي تحتاج إلى تكرار وتذكير، وإنما ءشرنا إليه في المقدمة لنقول: إن تجارب الحوار الحضاري ، قد بنيت في ضوء الممارسة الإيمانية التي واكبت حركة الرسالات الإلهية.

وقد بنى العقلاء - من الناس ومن أتباع الرسل والأنبياء ومن غيرهم - طريق الدعوة على هذا المنهاج، وأدى هذا إلى قيام تجارب حوارية كثيرة في عصور التاريخ، وسأحاول الإشارة إلى عدة تجارب مدونة من التاريخ، بعضها مشهور، وبعضها مستور،لنصل إلى بعض تجارب الحوارات المعاصرة أو القريبة والتي تركت آثاراً طيبة على واقع بعض المجتمعات الإنسانية، ومنها المجتمعات العربية والإسلامية التي نعيش فيها :

١- حوار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع نصارى نجران .

٢- حوار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع نصارى الحبشة .

٣-حوارات أئمة آل البيت - مع الخصوم في داخل الأمة ومع الآخرين - الإمام الرضا والصادق -،كنموذج لحواراتهم مع أهل الأديان الأخرى، وحتى مع المنكرين لحقائق الدين من الدهرية والملاحدة والمشككين بنزول الوحي والقرآن، حتى كان الإمام الصادق (عليه السلام) يحاور بعض هؤلاء داخل المسجد الحرام، وله رسالة مشهورة مع الملاحدة أثبت فيها حقيقة الإيمان والتوحيد الخالص ،كما أنه دخل المسجد ووجد مجموعة منهم يريدون التشكيك في كتاب الله الكريم، فوقف عليهم، وقرأ قوله تعالى:



﴿قُلْ لَئِن اجْتَمَعَت الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: ٨٨).

٤-الحوارات من أجل الوحدة والنهضة - كتاب (٢٧ شهراً في طهران) و(المراسلة الموجهة إلى رئيس وزراء إيران في الأربعينات وباقي أولياء الأمور في العالم الإسلامي) وما فيها من نقد الأفكار الهدامة ودعوات التغريب التي عصفت بالعالم الإسلامي آنذاك. ورسالة (أجيبوا داعي الله) المكتوبة في الخمسينات .

١-أشارت الكثير من التفاسير ومصادر السيرة إلى هذه الآية وإلى قصة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حواره مع نصارى نجران ,فقد تحدث النصارى بشأن المسيح عليه السلام وحقيقته، فعرض عليهم النبي ﷺ ما أنزل إليه من الحق، فأبى النصارى الإقرار بحقيقة المسيح الإنسانية، وأنه عبد الله تعالى، وجاء الشاهد في ضوء المقارنة مع أبينا آدم عليه السلام، حيث ولد من غير أم ولا أب، فكيف تدعى الإلهية للمسيح دونه؛ مع أنه ولد من غير أب فقط.

وسنبدأ بالإشارة السريعة إلى هذه الحوارات حوار نجران ، قال تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٥٨-٦١).

أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص: لما نزلت الآية



دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: ((اللهم هؤلاء أهل بيتي)).

وأخرج البخاري ومسلم أن العاقب والسيد أتيا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأراد أن يلاعنهما فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه ,فوالله لو كان نبياً فلاعننا، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا .

وورد أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لأهل بيته: إن أنا دعوت فأمِّنوا أنتم ، فامتنع النصارى، وقال كبيرهم: لا تفعلوا ، لأني أرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً لأزاله، فلا تباهلوا؛ فتهلكوا)[1].

٢-عد أن هاجر المسلمون إلى الحبشة وتحدث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه باسم المسلمين ورسالتهم مع النجاشي وما قرره النجاشي بعد ذلك من إيواء المسلمين وأعطاهم حريتهم؛ شكل ذلك الحوار بداية جميلة وأساساً متيناً لعلاقات المسلمين الفكرية مع المخلصين من أهل الأديان السابقة ،الذين نرى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق؛ وعاد جعفر ومعه وفد من النصارى ومن أهل الحبشة وكانوا اثنتين وثلاثين شخصاً، كما قدم ثمانية أشخاص من الشام، وأظهروا إيمانهم بدعوة رسول الله ﷺ وأقروا بها[2].

٣- بعد رحيل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان للائمة الهداة المهديين من آل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والصحابة الأجلاء دور واضح في تثبيت المسيرة الإسلامية فكرياً وعقدياً والدعوة إلى الإسلام

(١) تفسير روح المعاني للألوسي المجلد الثاني ص ٢٥٤ .

(٢) روح المعاني- المجلد العاشر ج ١٩-٢٠ ص٣٧٠ .



بالحكمة والموعظة الحسنة عن طريق الحوار الهادىء والجاد والهادف، والمنزه عن مرض المراء الذي نهينا عنه أشد النهي، وهو الجدل من أجل الجدل وإثبات صحة الموقف الذي عليه كل طرف دون الإذعان للحق الذي يبدو عند الطرف الآخر، فقد حاور الإمام علي عليه السلام كثيراً من علماء الأديان، وأجاب على أسئلة القسس والأحبار الذين وفدوا إلى المدينة في عهد الخلفاء بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وكان يتصدى للإجابة على كل الأسئلة المطروحة، كما كان يتصدى لدعم موقف الخلافة وتأييد خطواتها وترشيد قراراتها، ولهذا وردت العبارات المتكررة حول الإشادة بهذا الدور الفكري والفقهي الذي اعتبر وكأنه إنقاذ متكرر للمسيرة الإيمانية أو تأصيل متداول لمعالمها.

وقد جاء مجموعة من أحبار اليهود فسألوا علياً عليه السلام سؤالاً استفزازياً، حيث قالوا له وللمسلمين: (ما مات نبيكم حتى اختلفتم) فأجابهم عليه السلام جواباً ما أحوجنا نحن أهل العلم أو طلبة العلم إليه في هذه الظروف المستثارة التي تعج بالفتن والأزمات؛ كما تحتاج الأمة إلى هذه الإجابة فإنه عليه السلام قال وبعبارات وجيزة قاطعة: ((اختلفنا عنه، ولن نختلف فيه ، أما أنتم فما جفَّت أرجلكم بعد أن أنجاكم الله من البحر حتى قلتم لنبيكم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة))، فهذا الوصف الدقيق والتفريق بين الاختلاف في النبي كما فعل اليهود حين اختلفوا في توحيد الله وابتعدوا عن نبيهم وعقيدتهم، والاختلاف عن النبي ﷺ ؛ أي الاختلاف فيما ورد عنه نقلاً أو فهماً، مع الاتفاق على الأخذ والالتزام بكل ما ثبت وروده عنه،



والإجماع على وجوب الالتزام بشريعته وسنته ، فهو اختلاف صغروي وليس كبروياً، كما يقول أهل المنطق .

وهذا الأساس الحواري المتين هو الذي نحتاجه في كل حوار داخلي بين أبناء امة الإسلام وأهل القبلة من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ونحتاجه كذلك في الحوار مع أهل الأديان السماوية ,وذلك للتأكيد على الالتزام بما جاء به الأنبياء الكرام وأخذ ما ثبت وروده عنهم، والأصل في ذلك هو التوحيد ومعرفة الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦) وقال علي عليه السلام: أولَ الدين معرفته (معرفة الله)، وقال الرضا عليه السلام: أول عبادة الله معرفته، وتمام معرفته توحيده .

حوارات معاصرة

يمكن الإشارة إلى مجموعة من الحوارات الداخلية والخارجية، منها الحوارات الإسلامية المتكررة التي تمت في الخمسينات وظهرت على شكل دراسات وأبحاث منها :

١-الجمعة الجامعة: وهو حوار وحدوي إسلامي واعي تم في مدينة الكاظمية ببغداد في يوم الجمعة ٣١-١٢-١٩٥١ ، وقد جرى خلال جمعة، وحضرها الإمام الشيخ محمد الخالصي والإمام الشيخ محمد سعيد العرفي من كبار علماء بلاد الشام ومفتي دير الزور ومنطقة الفرات إضافة إلى عدد كبير من أبناء الأمة القادمين من العراق ، وصدر عن هذا الحوار منشور تحت عنوان (الجمعة الجامعة)، وقد حوى المنشور دعوة صادقة لجمع كلمة أبناء



الأمة على أسس الإسلام الثابتة مع نبذ البدع والخرافات التي أدخلت إلى الإسلام وشوهت صورته وفرقت صفوف أبنائه .

٢- الوحدة الإسلامية أزهار وأوراد : وهو كتاب يؤكد على ثوابت الوحدة الإسلامية وأسس قيمها، ويرد على الشبهات التي أثيرت آنذاك تمام دعوة الوحدة الحقيقية التي انطلقت في العراق آنذاك ، وتبلورت عن لقاءات متعددة في بغداد بين منطقتي الكاظمية والأعظمية، وبلغت أوجها سنة ١٩٥٣ في صلاة الجمعة الموحدة، حيث سار أهالي مدينة الكاظمية وما حولها إلى مدينة الأعظمية ، وأقيمت هناك صلاة الجمعة في مسجد الإمام أبي حنيفة (رحمه الله) .

٣-رسالة أجيبوا داعي الله ،وهي رسالة طبعت في سنة ١٩٥٤ م، وكانت دعوة حوارية مع طبقات واسعة من العراقيين ومن الناس والمسؤولين، وفيها مرتكزات بناء المجتمع الصالح عن طريق جمع كلمة الإنسان حول محور المعرفة والإيمان بالله الواحد الأحد ، والالتزام برفض التفرقة الطائفية ، واجتماع كلمة الناس حول الإسلام والشرع المقدس ،وقد أعطيت هذه الرسالة في طبعتها الأخيرة سنة ٢٠٠٤ ،لوزير من وزراء الأوقاف في أحد البلدان العربية الإسلامية ،فأخبرني الوزير المحترم خلال لقاء آخر أنه قرأ الرسالة بإمعان، فأخبر رئيس دولته وبعض المسؤولين بها في جلسة خاصة بعد أن أعطاهم الرسال، إنها قراءة كتبت في العراق في الخمسينات، ولكنها صالحة لكل العالم الإسلامي، وفي شتى الازمة، وخصوصاً عصرنا الحالي.

ورد في هذه الرسالة مجموعة مطاليب مع مقدمة مهمة فيها للتذكير



والتحذير، وكان أهم المطالب :

أ. وهو أهم الأمور (هكذا ورد في الرسالة) السعي إلى توحيد كلمة المسلمين ومقاومة مفرقي الكلمة ,إذ مع تفرق المسلمين لا يمكن أن تخفق لهم راية، ولا تعاد فلسطين ولا تبيد دعاية الشيوعيين ولا تزول وطأة الاستعمار، فالأصل توحيد كلمة المسلمين وجعلهم كتلة متراصة واحدة يشد بعضهم أزر بعض.

ب. القضاء على النعرة القومية (العنصرية) لأنها تنافي المبدأ الإسلامي، وإنما أوجدها المستعمرون للقضاء على وحدة المسلمين وتمزيقهم وتشتيت صفوفهم، ليسهل عليهم التعرض لهم وانتقاص أطرافهم.

ج. إلغاء جميع المعاهدات التي قيدت العراق بقيود العبودية للمستعمرين (وهذا يذكرنا بالضبط بما يجري اليوم).

د. القضاء على النعرة الطائفية التي بثها المستعمرون بين المسلمين؛ فإنها داء يفتُّ في الأعضاء... وما دامت الطائفية ملتهبة الضرام فإن البلاء عن الإسلام لا يزول . (وهذا تحذير مهم نتحسس آثاره في العراق اليوم وفي عموم المنطقة)(١).

هـ. السعي لإيجاد المحبة بين أهل العراق وغيره ، وتكثير أصدقائه .

و. معاقبة الكاذبين الذين يكذبون على الطوائف الإسلامية بأي شكل كان ... لأن الكذب على الطوائف الإسلامية يوجب إثارة الحفائظ والأخذ والرد والتفنيد والتصويب والتزييف، وفي هذا ما فيه من الإخلال بوحدة الأمة واجتماع كلمتها(٢).

---

(١) رسالة أجيبوا داعي الله ص ٣١ – ٣٣ .

(٢) رسالة أجيبوا داعي الله ص ٣٤ .



٤- حوارات متعددة بين أهل العلم ، وهي حوارات هادفة كانت تجري بشكل مستمر، وأدت إلى تقارب وجهات النظر وتصحيح التصورات ورص الصفوف ، ولم تكن الغاية إلا الوصول إلى الحقيقة الجامعة الموحدة، ولم تكن الغاية نشرها بين الناس بشكل كامل، لأن صدور العلماء تستوعب النقاش العلمي الصريح، وهو ما لا يستوعبه عموم الناس ولا يحتاجون إليه، وإن كان بعضها قد نشر أو تسرب بقصد أو بغير قصد، فقد جرت هذه الحوارات في الأزهر وفي الشام وفي بيروت إضافة إلى العراق وبين كبار العلماء كالخالصي والزهاوي والواعظ والبدري والبيطار والبشري وشلتوت والخفيف والكاشاني وغيرهم من كبار علماء العالم الإسلام الحريصين على نهضته وحفظ وحدته، وهناك وثائق كثيرة لم نتمكن من الوصول إليها في هذه الظروف خصوصاً مع المدة المتاحة لكتابة هذا البحث .

٥- المشاركة في الندوات العلمية والحوارات الفقهية مثل مجمع البحوث الإسلامية منذ الستينات وإلى سنة ٢٠٠٤ واستمرار اللقاءات على هذه الأسس في ندوات التقريب والوحدة الإسلامية، وقد طبع بحث مميز باسم الإسلام (توحيد ووحدة) يحوي أسس ومفاهيم الحوار الإسلامي، لتأكيد وحدة الأمة وتأصيل ارتباطها برسالتها المقدسة والإسلام الموحد الإنساني الجامع لأبناء في كل مكان.

٦-كما تمت حوارات معاصرة ومثمرة مع أبناء الأديان على أسس الدعوة القرآنية في الاجتماع على كلمة سواء في العراق وأنحاء أخرى من العالم، وكان هنالك لقاء مميز في الفاتيكان سنة ١٩٧٨ ، حيث التقى سماحة الإمام



الشيخ محمد مهدي الخالصي مع البابا بولص السادس، وهو ما سيأتي ذكره ضمن المحاضرة المهمة التي ألقيت في كنيسة القديس جاد التاريخية من مدينة ليدز شمال انجلترا بتاريخ ١٥- من شهر صفر ١٤٢٣ - ٢٨نيسان ٢٠٠٢ - ، كما استمرت الحوارات في اللقاءات العالمية بين رجال الأديان السماوية الثلاث وبعض الأديان الأخرى كالبوذية وغيرها، وتمت هذه اللقاءات عن طريق جمعيات دينية معروفة منها جمعية سانتيجيديو المؤسسة في مدينة روما، وقد تمت اللقاءات في مدينة ميلانو الإيطالية وليون الفرنسية ونابولي وأماكن أخرى في العالم الغربي؛ إضافة إلى لقاءات متواصلة مع أبناء الأديان السماوية في بلادنا العربية والإسلامية.

وقد ارتكز الحوار من جانبنا على قضية مركزية وهي أن الأديان السماوية يجب أن تلتقي على قيم العدالة ورفض الظلم كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

وأشرنا إلى نقطة مهمة وهي أن أهل الأديان ورجاله - وفق المصطلح المعروف - لا يمكن ولا يصح أن يكونوا غطاء للظلم أو ممارسات الساسة ، ولا يليق بهم أن يكونوا تابعين، بل واجبهم يلزمهم أن يكونوا قائمين بأمر الحق، حاكمين على السياسة وأهلها التابعين لها ولهم.

وقد أكدت في كلمة مركزة في مؤتمر الأديان في مدينة ليون الفرنسية سنة ٢٠٠٥ على هذا الأمر وأن تحقيق العدالة واجب أساسي لتحقيق السلم ، ولا يمكن أن يكون هنالك سلم مع الظلم، وتأكيدنا هنا على قضية احتلال العراق



ورفض الادعاءات المفتعلة لهذا العدوان، ورفض أهل العراق مجتمعين للفتنة الطائفية ،والتي هي ليست إلا واحدة من إفرازات المحتلين وصنائعهم , وحول فلسطين أكدنا أن من يأتي ممثلاً لدولة إسرائيل لا يمكن اعتباره ممثلاً للدين، ولو كان هو الحاخام الأكبر، لأن من يرضى بالظلم الذي تمارسه الدولة الصهيونية بحق أبناء فلسطين وباقي أبناء الأمة لا يحق له ادعاء تمثيل الدين، ويمكننا نحن أن نلتقي بيهودي يرفض الظلم ولا يقره ، كما نرفض نحن الظلم الذي يمكن أن يمارسه نظام حاكم في أي بلد، فضلاً عن الاحتلال الأجنبي.

وقد اعتبرت هذه الكلمات حديثاً متطرفاً في نظر البعض، مما أدى إلى حصول مجادلات كلامية لاحظنا خلالها أن بعض الحاضرين أو بعض التجمعات تميل إلى تبرير إيجاد الكيان الصهيوني، ولو من طرف خفي، وتتحاشى الإجابة بشكل معتمد وغير لائق بأهل الأديان عن أكبر مآسي الإنسانية في تاريخها المعاصر، وهو الظلم الذي حاق بالشعب الفلسطيني الشقيق.

نذكر هذا ونحن نعايش ذكرى مرور ستين عاماً على نكبته القاسية والأليمة والتي يبشر البعض من الساسة الظالمين باستمرارها إلى ستين سنة قادمة .

● المحور الثاني: منهج الحوار وضوابطه ووسائله:

١ - آليات الحـــــوار :

د.أحمد محمد هليل (قاضي القضاة وإمام الحضرة الهاشمية).

٢- آداب الحوار وضوابطه:

د. ماجد محمد الماجد (عضو هيئة التدريس في جامعة الملك سعود - الرياض).

٣- إشكاليات الحوار ومحظوراته:

د. منقذ بن محمود السقار (باحث في رابطة العالم الإسلامي).



منهج الحوار وضوابطه

د. أحمد محمد هليل
قاضي القضاة بالأردن
وإمام الحضرة الهاشمية





المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على النبي المبعوث رحمة للخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فإن الاختلاف سنة كونية، منحت الحياة ألواناً مختلفة من نتائج الأفكار، وأنماطاً متعددة من آثار السلوك والأفعال، وجعلت التعدد والتباين بين الناس في رؤاهم ونظرتهم للأشياء أصلاً من الأصول التي بني عليها فكر الأمة الممتاز بالتنوع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨)، وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (يونس: ١٩).

وانطلاقاً من هذه الحقيقة؛ كان لابد من همزة وصل تشكل ملتقى بين الفرقاء والمتخالفين، لتحقيق ورسم رؤية مشتركة تصب في بناء الحياة، وتسهم في تشكيل صورة الإنسانية على أحسن وجه.

ولما كان من الصعب بلورة هذه الرؤية دون التقاء بين أطرافها، كان لا بد من الدعوة إلى مجمع مفتوح يتطرق لكافة قضايا وجوانب الخلاف الذي قد يظهر بين الأطراف، وبما أنه من المتوقع والمرتقب ظهور خلاف في الرأي بين أي طرفين -ولا يعني ذلك ضرورة ملك الحق والصواب لأحدهم دون الآخر- كان لا بد من وسيلة وآلية تضبط اللقاء في ذلك المجمع، بغرض الوصول إلى الحق من جهة، وإقامته على ساق من الحياد والموضوعية العلمية



من جهة أخرى، ووصولاً إلى حل النزاع بين الفرقاء، وإحقاقاً لوجهة واحدة في المسائل التي لا يحتمل مثلها خلافاً.

من أجل ذلك كان الحوار، وكانت مناهجه وضوابطه، لتعطي الخلاف بين الفرقاء بُعداً إنسانياً، ولكي يوضع أيضاً في إطاره الطبيعي حتى لا يتحول فيما بعد إلى أداة دمار وبغضاء وكراهية.

والحوار المفتوح البناء يذيب الخلافات، ويذهب بأسبابها، ويستأصل بوادرها وسلبياتها من شأفتها، وفي المقابل فهو يزيد أيضاً من إيجابيات اللقاء بين المتخالفين، ويجعل الاختلاف الذي هو سنة كونية رحمةً من الله للأمة وتوسعة عليها.

ولقد كانت لنا وقفة في هذه الورقات البسيطة مع الحوار من حيث المناهج والأساسيات والضوابط، موجزاً القول في كل منها بحسب ما يقتضيه المقام.

وما من شك أن عقد هذا المؤتمر للوقوف على أساسيات الحوار ومناهجه خطوة حكيمة من رابطة العالم الإسلامي، ومبادرة طيبة تسجل لها ولأمينها العام معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مقدراً للرابطة جهودها الطيبة والمباركة في خدمة الإسلام، ومتمنياً لها مزيداً من التقدم والازدهار برعاية صاحب المعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، وبجهد الأخوة الأفاضل في الأمانة العامة للرابطة.

سائلاً الله العظيم أن أكون قد هديت الصواب في عرض المادة وتقديمها، فإن كان ذلك فالفضل والمنة لله، وإن كان الزلل والخطأ، فالله يغفر لنا ما فرطنا، ونسأله ضارعين أن لا يحرمنا أجر محاولة البحث عن الصواب.

والحمد لله رب العالمين



منهج الحــوار

قد نرى بعض الفرقاء كلما أرادوا ائتلافاً تفرقوا، وحيثما جلسوا لتسوية خلاف تشتتوا وتنازعوا، ولا يرجع ذلك إلى نوعية الأخلاق القائمة على الرفض والنبذ لهذا الفريق أو ذاك فقط، وإنما يرجع قبل ذلك وبعده إلى عدم الإدراك لحقيقة علم الحوار وفن المحاورة.

الأمر الذي يجعل المتقاربين في الأهداف والأفكار في خلافٍ دائم، ونزاع مستمر، وفُرقة مقيتة.

ولكي لا نسقط في فتنة الفُرقة؛ لابد أن نرتفع بحواراتنا إلى مستوى تصبح فيه الحوارات علماً نتلقاه، وفناً نتدرب على أساليبه ونمارسه للوصول إلى أهدافنا النافعة، بعيداً عن الارتجال والتسرع وشخصنة العمل العلمي.

ولكي يتسنى لنا ذلك، لابد من الوقوف على قواعد منهج الحوار الصحيحة، التي تُحكم أطراف الحوار وتضبطه، وتبين أساليبه التي تخدمه، وتتعرف على عوائقه الَتي توقفه، حتى يكون كلامنا باعتدال، وجدالنا بمنطق، وحوارنا باتزان.

وهاكم طائفة من تلك القواعد:

١ - الإقرار بالحرية الفكرية لدى المتحاورين، أو بمعنى آخر: امتلاك الحرية الفكرية:

لابد لكل حوار أن يمتلك أطرافه الحرية الفكرية، فمن غير المقبول ألبتة أن يقيد فكر المحاور، فهذا فضلاً عن كونه مصادرة لرأي ارتآه صاحبه، فهو أيضا مانع من الوصول إلى الحق.



أما مصادرة رأي المخالف بحجة الخطأ، فهذا تجن على فكرة الحوار، ونقض لها من أساسها، إذ إن مجالس الحوار أماكن يتجلى فيها الخطأ من الصواب، والحكم على الخصم بالخطأ قبل تلك المجالس تحكم، وهو عندئذ أشبه بمحاكمة ليس فيها سماع للشاهد ولا الجاني.

وتقييد فكر المحاور سلب لأداة الحوار عنده، فهو له كالقلم والمدواة للكاتب، أو الآلة لصاحب الحرفة، في حين أن امتلاك المحاور للحرية الفكرية مولد لثقته بشخصيته العلمية المستقلة، فلا ينسحق أمام الآخر؛ لما يحس به من العظمة والقوة التي يمتلكها الآخر، فتتضاءل إزاء ذاك ثقته بنفسه وبالتالي بفكره وقابليته لأن يكون طرفاً للحوار، فيتجّمد ويتحول إلى صدى للأفكار التي يتلقاها من الآخر، الأمر الذي يفقد الحوار قيمته العلمية، ويشكك في نتائجه المتوصل إليها.

لذلك أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحقق ذلك ويوفره لمحاوريه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠)، وقال في موضع آخر: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وضمن للجميع حريتهم الفكرية، بقوله: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة: ٢٥٦).

٢- مناقشة منهج التفكير:

فإذا امتلك أطراف الحوار الحرية الكاملة، فأول ما يُناقش فيه هو المنهج الفكري -قبل المناقشة في جزئيات الأفكار وتفاصيلها- في محاولة لتعريف



الخصم بالحقيقة المقصودة من الحوار، والتي قد غفل عنها من وجهة نظرنا؛ وبيان ذلك أن القضايا الفكرية لا ترتبط بالثقافة الشخصية للمحاور فحسب، أو الطبيعة العلمية له، وإنما هي مولدة عنده من منهج دأب على تبنيه والسير عليه، فلكلٍ مجاله، ولكل أصوله المنهجية التي ينطلق منها، ويمتد إليها.

وحصر الحوار بعد ذلك في المفردات التفصيلية ظلم وغبن، إذ إن كل فكرة متوصل إليها بدراسة منهجية، وإثبات الحق عن طريق كشف الخلل في المنهجية أولى منه في تصحيح الفكر خلال القضايا التفصيلية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠)، وقال أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣-٢٤).

ومن هذا تعرف أن غرض القرآن مناقشة الكفار في منهج الاتباع، لا في عكوفهم على الأصنام، ولا على غيره مما كانوا عليه من بدع وضلالات، إذ أن كل ذلك مبني على الاتباع.

٣- الابتعاد عن الأجواء الانفعالية، والتزام الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة:

من عوامل نجاح الحوار أن يتم في الأجواء الهادئة؛ ليبتعد التفكير فيها عن الأجواء الانفعالية التي تبتعد بالإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل وتفكير، وتقصيه عن الاعتدال الذي يقود إلى الإنصاف والإذعان، إذ إنه عند



الانفعال قد يخضع للجو الاجتماعي، ويستسلم لا شعورياً للمحيط العام، الأمر الذي يفقده استقلاله الفكري.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦).

فالقرآن الكريم عدَّ اتهام النبي ﷺ بالجنون خاضعاً للجو الانفعالي العدائي لخصومه؛ لذلك دعاهم إلى الانفصال عن هذا الجو والتفكير بانفراد وهدوء.

وفي ذات الوقت أمر المحاور والمجادل أن يلزم الحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

٤- التسليم بإمكانية صواب الخصم:

ولا بد لانطلاق الحوار من التسليم الجدلي بأنَّ الخصم قد يكون على حق، أما إذا كان المتحاوران يعتقد كل منهما صواب نفسه يقينا، وغلط صاحبه يقيناً أيضا، دون إمكان لأن يكون الصواب عند غيره، فهذه مقدمات لمراء منهي عنه، لا لحوار يصل بأطرافه إلى الصواب.

ولله در الشافعي عندما قال: "كلامي صواب يحتمل الخطأ، وكلام غيري خطأ يحتمل الصواب"، فباحتمال وجود الحق عند الطرفين يكون الحوار، ويؤتي أكله عندئذ من ثمار نافعة يفيد منها الجميع.

وها هو القرآن بعد مناقشة طويلة في الأدلة على وحدانية الله تعالى، تأتي هذه الآية من سورة سبأ، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)،

فطرفا الحوار سواء في الهداية أو الضلال، ثم يضيف على الفور في تنازل كبير بغية حمل الطرف الآخر على القبول بالحوار، فقال تعالى: ﴿قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سبأ: ٢٥)، فيجعل اختياره هو بمرتبة الإجرام على الرغم من أنه هو الصواب، ولا يصف اختيار الخصم بغير مجرد العمل، ليقرر في النهاية أن الحكم النهائي لله تعالى، قال جل ذكره: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبأ: ٢٦).

٥- التعهد والالتزام باتباع الحق:

هذا ولا يكفي مجرد التسليم الجدلي بإمكانية صواب الخصم، بل لا بد من التعهد والالتزام باتباع الحق إن ظهر على يديه، حتى ولو كان التعهد باتباع ما هو باطل أو خرافة إذا افتُرض أنه ثبت وتبين أنه حق، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١).

٦- التركيز على نقاط الاتفاق

وهذا الأمر وإن كان عاماً في كل الحوارات، إلا أنه أدخل في الحوار بين الفرق الإسلامية المختلفة، بل ويدخل فيه الحوار بينها دخولاً أولياً.

إن الذي ينبغي إقراره في هذا المقام أن هناك قواسم مشتركة بين الناس على اختلاف توجهاتهم وأديانهم، وجوامع تأتلف عليها كلمة المتحاورين مهما اختلفت أطيافهم، أو تعددت منابتهم وأصولهم، وإن تلك القواسم والجوامع ينبغي أن تكون محل احترام من الجميع، أما مسائل الخلاف فهي أمر مقدر ومعتبر.

إن الذي نوده ونتمناه أن يكون منطلق الحوارات بين مختلف الفرقاء من



مجامع الاتفاق، وأن يكون إليها الاحتكام عند التخالف والتناكر.

أما بالنسبة للمسلمين فهم متفقون رغم اختلافهم في ثلاثة أمور:

- **أولاها**: الاتفاق على الإيمان بأصول العقائد المعروفة.
- **ثانيها**: الاتفاق على الإيمان بالقرآن الكريم.
- **وثالثها**: الاتفاق على الالتزام بأركان الإسلام وشعائره الكبرى من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت.

وإن أي تحاور بين المسلمين ينبغي أن يكون منطلقاً من تلك النقاط ومحتكماً إليها.

٧- التحاور في المختلف فيه:

ينبغي التركيز في الحوار على الجوانب العملية التي يقصد بها أمران:

الأول: ما يتعلق بالمواقف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فنلتقي للحوار في ما اختلفنا فيه لنجتمع آخراً حول هدف واحد، ونصدر عن موقف واحد، ونواجه المخططات المعادية بخطة وإستراتيجية واحدة.

الثاني: ما يتعلق بالأحكام الفقهية العملية، فالحوار فيها أيسر وأقرب منالاً من الأمور العقائدية والكلامية.

ومثل هذه المحاورات تكون مجدية ونافعة، فربما أدى تلاقح الأفكار وتفاعل الآراء إلى جلاء نقطة كانت غامضة، أو تقريب مسافة كانت بعيدة، أو الخروج بتفسير يقبله الطرفان، وبخاصة إذا كان الحوار جاداً ومخلصاً في طلب الحقيقة بعيداً عن التعصب والانغلاق.



٨- الانضباط بالقواعد المنطقية في مناقشة موضع الاختلاف:

فإذا تم الالتزام بهذه الأسس فإنَّ الحوار ينطلق معتمداً على قواعد العقل والمنطق والعلم والحجة والبرهان، والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وما أكثر ما ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١)، وقال تعالى مرشداً إلى اعتماد العلم والحجة في الحوار: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (الحج: ٨، لقمان: ٢٠)، وقال في موضع آخر: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٦)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر: ٥٦)، وقال: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الصافات: ١٥٦ - ١٥٧).

وفي اتباع اللين والحكمة والموعظة الحسنة يأمر الله موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٢ - ٤٤)، ويأمر باتباع الحكمة في الدعوة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٣ - ٣٤)، وتأكيداً لهذا المنهج ينهى الله المؤمنين عن اتباع أساليب السفهاء،

(١) البقرة: ١١١، الأنبياء: ٢٤، النمل: ٦٤، القصص: ٧٥ .



ومجاراتهم في السبِّ والتسفيه لمعتقدات الآخر، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

٩- ختم الحوار بهدوء مهما كانت النتائج:

إذا سار الحوار جاداً وفق هذا المنهج من قبل جميع الأطراف؛ فلا بد أن يصلوا جميعاً إلى ما التزموا به في بداية الحوار من الرجوع إلى الحق وتأييد الصواب، فإذا رفض المحاور الحجج العقلية كأن لم يقتنع بها؛ فإنه بذلك يمارس حقاً أصيلاً كفلَه له رب العزة، وسيكون مسئولاً عن ذلك أمام الله تعالى.

وفي هذه الحالة ينتهي الحوار بهدوء كما بدأ دون حاجة إلى التوتر والانفعال، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (هود: ٣٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٥).

١٠- التأكيد على استقلالية كل من المتحاورين ومسؤولية عن فكره:

قبل الانفصال بين المتحاورين يتم التأكيد على استقلالية ومسئوليته كل متحاور عن نفسه ومصيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٤ - ١٣٥).

وعلى لسان شعيب قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (هود: ٩٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي



وَإِن اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (سبأ: ٥٠)، وقال أيضاً: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (الزمر: ٣٩-٤٠).

وبهذا يقر أنها مسؤولية فردية لا تداخل فيها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٤١)، وقال أيضاً: ﴿قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبأ: ٢٥-٢٦).

١١- الإشهاد على المبدأ وعدم تتبع الأخطاء الناتجة عن الانفعال أثناء الحوار:

ينبغي للمتحاور في آخر الحوار أن يلتزم قوله ويتمسك به، لا سيما إذا كان الحق معه والحجة له، كما يشهد المتحاورين على مبدئه، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ولا حاجة في أن يتابع الخصم على ما بدر منه من إساءات في الحوار، وليكن العفو والصبر أساساً وخلقاً في التعامل مع الجاهلين، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، فإن التزم الخصم التزم، وإلا فللمحق قول الحق تعالى ذكره: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ (المزمل: ١٠).

هكذا يرشد المنهج القرآني في الحوار، إلى إنهائه بمهمة وأداء رسالة يبقى أثرها في الضمير إن لم يظهر أثرها في الفكر، إنه أسلوب لا يسيء إلى الخصم بل يؤكد حريته واستقلاليته، ويقوده إلى موقع المسؤولية ليتحرك الجميع في إطارها وينطلقوا منها ومعها في أكثر من مجال.

وللناظر في حوارات القرآن مع المخالفين، أو في هدي النبي ﷺ مع المشركين، أكبر مندوحة وأوسع مرجع يعينه على الوقوف على مناهج الحوار الصحيحة، وبالصور العملية.



أساسيات ومباديء الحوار الهادف

وكما أن للحوار مناهج ينبغي للمتحاور التحقق بها، فإن لها كذلك أساسيات ينبغي التزامها من كلا المتحاورين، حتى يؤتي الحوار أكله، ويثمر بما كان منتظرا منه.

أما أسس الحوار، فهي على ما يلي:

الأساس الأول: أن نحاور الآخر بقلب مفتوح:

لكي ندخل إلى قلوب الآخرين، وإلى عقولهم لابد أن تكون قلوبنا مفتوحة مملوءة بالحب، والرحمة واللين والشفافية، وأما القلوب المنغلقة، المملوءة بالكراهية والحقد والقسوة فإنها لا تملك القدرة على أن تفتح قلوب الآخرين وأن تفتح عقولهم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٣ - ٤٤)، وقال أيضا: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

وقد أخرج الإمام البخاري ومسلم عن عبد الله قال: " كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: (٣٢١٨)، (٦٤١٧)، ومسلم برقم: (٣٣٤٧).



ومما جاء في الأثر أن ابن أبي العوجاء دخل على الإمام الصادق وتحدث معه بلغة فيها استهزاء وسخرية بالحج والطواف حول الكعبة، ومما جاء في حديثه: " إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله كهرولة البعير إذا نفر... " .

فلم تحدث هذه الكلمات -رغم ما فيها من تهكم واستخفاف- شيئاً من الانفعال والتشنج عند الإمام الصادق، بل واجه الموقف بقلب يحمل الشفقة والرحمة على هذا الإنسان الذي استهواه الضلال واستعذبه الباطل وتاه عن الطريق، فخاطبه بلغة هادئة بصيرة، ليفتح عقله وقلبه على الحق، قائلا: " هذا بيت استعبد الله به عباده، ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محل أنبيائه، وقبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجتمع العظمة والجلال " .

الأساس الثاني: أن لا نتهم دوافع الآخر[١]:

الدوافع مسألة قلبية لا يمكن اكتشافها بسهولة، قد أحاور الآخر في أفكاره وآرائه، وقد تقودني قناعتي إلى رفض تلك الأفكار والآراء وإلى نقدها وإلى تخطئتها، ولكن أن أتهم الدوافع والنوايا فموضوع عسير جداً.

إذ إن الصحة والخطأ تخضعان لشروط موضوعية يمكن التحقق منها واكتشافها، مما يسمح لنا أن نحاسب الرأي والفكرة، وأما الدوافع المنغرسة في القلوب فالوصول إليها يحتاج إلى جهد كبير، فضلا عن كونه مستحيلاً إذا لم يبد الآخر شيئاً منها صراحة أو إشارة.

(١) وهو ما سماه الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه " مبادىء في الحوار " بحسن الظن.



ومن القواعد الطيبة التي دعا الإسلام إليها: "احمل فعل أخيك على أحسنه"، ومما جاء في الآثار: "احمل فعل أخيك على سبعين محملاً"، وقد ورد عن الإمام الشافعي أنه في مرضه وضعفه قال له أحد محبيه: "يا إمام؛ قوى الله ضعفك"، فأجابه الشافعي قائلاً: "ويحك، لو قوى ضعفي لقتلني"، فأجاب المحب: "والله لم أقصد هذا يا إمام"، فرد الشافعي مقراً قاعدة تقصد في العفو وحسن الظن: "والله لو قصدتَ لقلتُ: إنك لم تقصد".

وقد قيل: "التمس لأخيك سبعين عذراً، فإن لم تجد، فقل إنه معذور"، ومن روائع ما كتب ابن عطاء الله السكندري: "من لا يرى محسناً لا يحسن"، ويعني أن الذي لا يرى إحسان الآخرين لا يحسن أبداً، إذ إنه مجبول على تتبع الزلات والعورات، أما شأن المحسنين أنهم لا يرون إلا الحسنات.

وقد ورد عن ابن المقفع قوله: "من خفيت عليه معايبه، خفيت عليه محاسن الآخرين، فلا هو قوم نفسه ولا هو أفاد من غيره".

وما أحسن قول الشافعي:

لسانك لا تذكر به عورة امرىء   فكلك عورات وللناس ألسن

وعينك إن أبدت إليك معايباً   فصنها وقل يا عين للناس أعين

فلو شاهدت إنساناً مؤمناً يصافح امرأة فقل: إنها أمه أو أخته أو زوجته، أو لعلها إحدى محارمه، ولا يصح أن ينساق ذهنك إلى اتهامه بمصافحة امرأة أجنبية.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: "ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظنن بكلمة خرجت



من أخيك سوءاً، وأنت تجد لها في الخير محملاً".

وفي قول آخر: "من عرف من أخيه وثيقة دين، وسداد طريق، فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال".

إلا أن مشكلة بعض الناس في أيامنا هذه أنهم يفتشون دائماً عن أسوأ الاحتمالات في تفسير سلوك الآخرين وخصوصاً الذين يختلفون معهم، ربما يكون الاحتمال الأسوأ هو أبعد الاحتمالات، ولكنه يبقى هو الاحتمال الأقرب عند هذا البعض، لكونهم لا يملكون القدرة على أن يحسنوا الظن، ولا يفهمون محامل الخير في تفسير ما يصدر عن الآخرين.

على أن الإسلام يقيم العلاقة بين أبنائه على حسن الظن، ويحمل حال غيره على أحسن المحامل وإن كان يحتمل معنى آخر.

ولهذا ينبغي أن يكون أول ما نطرحه من طريقنا في الحوار -وخصوصاً بين الفرق الإسلامية- كي نقرب بين الأمة هو سوء الظن، وأن نغلب فضيلة حسن الظن فيما بيننا كما هو شأن أهل الإيمان، ولا يصح هنا أن نحْمل كل فعل حسن أو تصرف صالح يصدر عن المخالف على أنه من باب النفاق أو التقية أو المجاملة أو الخوف؛ لأن ذلك ضرب من سوء الظن لا مبرر له ولا داعي إليه.

وعلى الرغم من أن الدين يؤكد ضرورة التعاطي مع الآخر بعيداً عن سوء الظن وبعيداً عن اتهام النوايا والدوافع، فإن ذلك لا يعني أن يعيش المؤمنون درجة من "الاستغفال" في مواجهة "حالات الاختراق"، فنحن في زمن يخطط فيه أعداء الأديان من غير عقلاء الغرب من أجل أن يقحموا كل واقعنا



الديني والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي والأمني كما تخطط مؤسسات التغريب وقوى الفساد من أجل الدخول إلى عمق الأوساط الملتزمة والمحافظة، وتفرض مخططات الاختراق والاقتحام والدخول بتجنيد مجموعة من العناصر المتسترة تحت أقنعة متعددة، دينية وثقافية وسياسية، وتفرض هذه المخططات باعتماد شعارات تحمل الكثير من الإغراء، مما يجعلها قادرة على الاستقطاب والاحتواء.

فهل من الفطنة الإيمانية في ظل هذه المعطيات الموضوعية، وفي ظل مشروعات الاختراق أن نتعامل بحسن الظن مع كل المتحركات الدينية والثقافية والسياسية؟، لا أريد أن أقول: إن القاعدة التي يجب أن تحكمنا هي "الريبة والشك" في كل ما يتحرك حولنا على مختلف المستويات الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية، ليس الأمر كذلك، فهناك مساحات كبيرة في واقعنا يجب أن تكون محكومة في الأصل لحسن الظن وحسن النوايا ما لم تتوافر الأدلة القاطعة على خلاف ذلك.

وتبقى مساحات أخرى في دائرة "الشك والريبة" مهما تسترت أو اتخذت لها مما له بريق شعارات أو دثارات.

الأساس الثالث: أن لا نلغي الآخر:

إن مقولة: "نحن على صواب مطلقاً، والآخر على خطأ مطلقاً"، مقولة تعقد مسارات الحوار، فضلاً عن كونها غير واقعية في كثير من الحالات.

إن إلغاء الآخر يضع الحوار أمام أبواب مغلقة، وتعقيدات صعبة، بل أمام بدايات متشنجة، والمتتبع للمنهج القرآني في الحوار يجده يضع المتحاورين



مهما كانت قناعاتهم في صف واحد، فالحقيقة في لغة الحوار ليست ملكاً لطرف دون آخر، والأطراف جميعها تشترك في رحلة البحث عن الحقيقة، ربما يكون أحد الأطراف واثقاً كل الوثوق أنه يملك الحقيقة، إلا أن منهج الحوار الموضوعي يفرض عليه أن يعتبر نفسه باحثاً عن الحقيقة ومتعاوناً مع الآخر في الوصول إليها.

جاء في القرآن الكريم على لسان النبي ﷺ وهو يحاور المشركين: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)، فالنبي ﷺ لم يكن شاكاً وهو الذي جاء بالحق وصدقٍ به، بل أيما ثقة تشبه وثوقه ﷺ بالذي جاء به، لكنه مع يقينه بأنه يملك الحقيقة كل الحقيقة، ويملك الهدى كل الهدى، والآخر لا يملك إلا الضلال، اقتضى منه منهج الحوار، أن يحرك أجواء الحوار في خط الحياد الفكري، واعتبر نفسه لا يملك رأياً مسبقاً، ولم يدع أنه على هدى والآخر على ضلال، بل ساوى بينه وبين الآخر في فرضية الصواب والخطأ وفي فرضية الهدى والضلال، وهذا أرقى أسلوب في الحوار.

وإذا كان أحدث ما وصلت إليه أساليب الحوار هو إقرار القاعدة التي تقول: " رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب " ، فإن الطرح القرآني، والنهج الرباني قد تجاوز هذه القاعدة بمسافات كبيرة جداً، وقدم صيغة تمثل القمة في " حيادية الحوار " ، فالصيغة القرآنية في منهج الحوار مع الآخر تقول: " رأيي ورأي الآخر يحتمل الخطأ والصواب في درجة واحدة " ، فأي حيادية أرقى من هذه الحيادية، وأي نهج حواري أرقى من هذا النهج.



ولا شك أن هذا الأسلوب له معطياته الكبيرة في مسارات الحوار، فهو الذي يجتذب الآخر إلى أجواء الحوار، ويخفف من حساسياته الفكرية أو المذهبية أو السياسية، وهو الذي يفتح الآخر على أفكارنا، ويدفعهم إلى التأمل والتفكير بهدوء وروية.

إن غياب المنهج القرآني في الحوار مع الآخر عقد من حال التواصل معهم، وباتت مشكلة الكثيرين من الناس أنهم لا يتحاورون، وإذا تحاوروا غابت في حواراتهم الأساليب الصحيحة للحوار بحسب ما أكدها منهج القرآن، ودعا إليها الحبيب ﷺ خلال سيرته العملية، وطغى الرفض المطلق للآخر، والطرح المسبق للمسلمات التي لا تقبل النقاش، على غالبية الحوارات.

إن الذي ينبغي أن يقر في هذا المقام، أننا حينما نطرح قضايانا العقدية أو المذهبية أو السياسية التي نؤمن بها للنقاش والحوار لا يعني ذلك بداهة وضرورة أننا تنازلنا عن قناعاتنا التي تشكلت نتيجة بحث ودراسة، ولم تكن مبنية على تعصب وتقليد أعمى، لكنه الأسلوب الأمثل لتحريك الحوار، والطريقة الأنجع لتحقيق أهدافه، وهو في ذات المقام معين على إقامة الحجة تلو الحجة على صحة ما ذهبنا إليه.

فإن قيل: إن القرآن في بعض نصوصه أكد الحدية في الموقف، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾) الكافرون: ١- ٦)، وكما في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩)، فكيف



توفقون بين هذه الحدية والقطعية الصارمة في الموقف، وبين ما تدعونه من حيادية الموقف والمسامحة.

أجبت بأن المواقع تختلف، وبأن سياق الآيات وسبب النزول يحكم، ففي مواضع الدعوة والحوار تكون الحيادية والمسامحة والمرونة والشفافية والانفتاح سيدة الموقف، لكن لا على طريقة التفريط في القناعات، أو التنازل عن الثوابت، ولكن على طريقة الجدال بالتي هي أحسن.

أما في مواضع الصراع والمواجهة والتحدي والمساومات، فالموقف حزم وحسم، إذ إن المفاصلة بين خط الإيمان والكفر، وبين طريق الاستقامة والانحراف، مسألة ضرورية جدا حينما تتعدد الرؤى والمواقف والقناعات، وحينما تختلط الأوراق، وتتحرك الصراعات، وتنفتح الساحة على الشعارات والانتماءات والأيديولوجيات، فمن الجناية في هذه المواضع أن يعيش أصحاب الاستقامة حالات المجاملة والضعف، أو الصمت والمساومة والتنازل، مهما كانت المبررات التي قد تطرح تحت أي عنوان كضرورات المرحلة، أو فقه الواقع، إذ إن هذا أيضا له ضوابطه وأصوله، إلا أنه رغم ذلك وجدنا السورة انتهت بقول الحق: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، في صورة من إقرار الحيادية المطلقة.

ومع ذلك فإننا لا نرفض المحاورة والمهادنة، أو إن شئت قلت المجاملة والمسايرة، ولكن على شرط الاحتفاظ بالثوابت والمبادئ والقناعات الإسلامية، التي تحفظ الأمة وأفكارها من الذوبان بالآخر، وبمعنى آخر، نحن نريد الممازجة والمجاوزة، لا الاضمحلال والتفرد، وخصوصا عند التقابل بين



أفكار المتحاورين بحيث يصعب الوصول إلى القول الوسط أو إقامة الحجة من طرف على آخر.

وإن أي ممازجة أو مجاوزة على حساب هذه المكونات الإيمانية فهي ممازجة لا تملك مسوغاتها الشرعية، وبعد ذلك تبقى مساحات الحوار والدعوة في حاجة إلى درجة كبيرة من المرونة والرحابة.

الأساس الرابع: حسن الفهم

والمقصود بحسن الفهم في هذا المقام حسن التعرف على حقيقة موقف الطرف الآخر، ولا يكون ذلك من أفواه العامة ولا من الشائعات، ولا من واقع الناس، بل يجب أن يكون من مصادره الموثقة أو من العلماء الثقات المعروفين؛ فكثيراً ما يكون الواقع غير موافق للشرع، وكم من كلام يردده العامة ويشيع بين الناس، وهو في الحقيقة مجرد أكاذيب وإشاعات لا أصل لها.

ومن المهم في هذا الصدد التفريق بين الأصول والفروع، وبين الفرائض والنوافل، وبين المتفق عليه والمختلف فيه، وبين الشائعات والحقائق، وبين ما يلزم الفقه وما يفعله الناس من عند أنفسهم.

وإذا كان طرف هذا الأساس قائماً على تلقي الفكرة من علماء الخصم، وعدم الاعتماد عليها من نقل العوام، فإن طرفها الآخر داع إلى عرضها على قواعد المنهج السليم في التفكير والتحليل، وصولاً إلى الفهم القائم عن علم، لا الإدراك المحكوم بالهوى والتشهي، فيفهم كل طرف من الكلام ما أراد أن يفهمه، لا ما قيل الكلام لأجله ابتداء.

وهذا الأساس مقترن بما ذكر قبل من حسن الظن، فحيث كان الكلام



محتملا للوجوه، وحيث كان اليقين بصفاء سريرة الخصم، كان الواجب والمحتم حمل الكلام على أقرب المفاهيم وخيرها.

وهذا ما يجعلنا نؤكد على وجوب التفرقة بين المتفق عليه والمختلف فيه الذي ينبني على حسن الفهم عن طريق المصادر الموثوق بها بعيداً عن الشائعات وكلام العوام.

الأساس الخامس: تجنب الاستفزاز

فمتى استخدم أحد الفريقين ألقاباً وكلمات وعبارات مثيرةً ومستفزة للطرف الآخر فلن ينجح الحوار أو يثمر طرحه المنشود.

ومن ذلك البعدُ عن الموضوعات ذات الحساسية الخاصة، والتي من شأنها أن تثير المتحاورين، مثل الإساءة إلى الأديان من قبل غير العقلاء، ومما ينبغي الاتفاق عليه:

١- أن الإساءة للرسل والأديان أمر مرفوض ومنبوذ فاعله، وأنه لا يصح تحت أي مسمى من المسميات -وإن تزيّى بعبارات تحمل في ظاهرها الحرية والإنصاف- الإساءة لرسل الله عليهم السلام، أو للأديان التي جاؤوا بها، أو الكتب الإلهية المنزلة عليهم، وإن أي محاولة للإساءة كنشر رسوم مسيئة أو أفلام مشوهة لواقع أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، إنما هو عمل متهم بمحاولة قطع جسور التواصل بين أتباع الأديان، وأن من يقدم عليه عدو للإنسانية والوحدة قبل أن يكون عدوا للدين بعينه، وأن فعله هذا مُجرَّم.

٢- أن مسألة السب عموماً لا تليق بالمسلم، فليس المسلم بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء.



٣- أن يحرص طرفا الحوار على نقل الأقوال التي من شأنها أن تجمع ولا تفرق، وخاصة كلام العقلاء من علماء الفرق المتحاور معها، فهذا من شأنه أن يصفي الأجواء، ويوحد الصفوف.

الأساس السادس: اجتناب تكفير كل من قال: " لا إله إلا الله "

وهذا الأساس وما بعده من الأسس خاص في المحاورة بين المسلمين على اختلافهم.

وقد أنكر علماء الإسلام السابقين كابن الوزير وابن تيمية والهيثمي والنووي وغيرهم، أشد الإنكار، وحذروا أبلغ التحذير من تكفير الناس بذنب أو خطأ.

الأساس السابع: البعد عن شطط الغلاة

ومن المباديء المهمة في الحوار والتقريب بين المسلمين المتحاورين، البعد عن الغلاة والمتنطعين والمتطرفين من كلا الفريقين الذين يثيرون الفتن في أحاديثهم وكتاباتهم، ومن أبرز مظاهر الغلو اتهام الغير بالكفر، وإذا كان هناك متخصصون في تكفير المسلمين جميعا، فإن هناك متخصصين في تكفير فرقة بعينها دون غيرها، وربما أضافوا إليها بعض الطوائف الأخرى.

إن الذي لا يصح أن يكون بين المسلمين وخصوصا في هذا الزمان هو الفرقة والخلاف، وحيث إننا لم نكن نرغب بها بداية، ولكن ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (القمر: ١٢)، بل قد وجدنا في هذا الزمان وبذور الخلاف منثورة فيه من قَبل دون اختيار منا أو رغبة، فليكن رائدنا في لم شمل المسلمين وتوحيد صفهم كتاب الله أولا، والذي ينادي



فينا بقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

والبعد عن الغلاة والمتطرفين من كل الفرق ثانياً، ولتكن لنا وقفات مع قول الحق تعالى ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦).

الأساس الثامن: المصارحة بالحكمة

لابد من المصارحة بالمشكلات القائمة والمعلقة والعوائق المانعة من التواصل، ومحاولة التغلب، عليها على أن يكون ذلك كله بالحكمة والتدرج والتعاون المفروض شرعاً بين المسلمين بعضهم وبعض.

ومن ذلك مراعاة حقوق الأقليات المذهبية أو الدينية بين الأكثريات في ذات البلد، كما هو حادث بين الأقباط والمسلمين في مصر.

فينبغي أن نقرر هنا ضرورة مصارحة بعضنا بعضاً بمثل هذه الأمور في جو من الإخاء، والإخلاص في طلب الحق، والتجرد من أجل الوصول إلى كلمة سواء.

الأساس التاسع: الحذر من دسائس الأعداء

ومن المباديء المهمة في الحوار والتقريب بين المذاهب والأديان أن نَحْذر من مخططات أعداء الرسل والأديان، بل أعداء الإنسانية، ودسائسهم التي يريدون بها أن يمزقوا شمل الأمة ويفرقوا وحدتها.



كما ينبغي علينا أن نتيقظ لما يمارس حولنا من ممارسات خاطئة، ترمي فيما ترمي إليه إلى نثر بذور الخلاف بين صفوف الفرقاء، وتقطيع أواصر التواصل بينهم، وهدم جسور الثقة والاحترام، تحقيقاً لمطامع شخصية، أو تلبية لنداء تطرف فكري تغذى بالحقد واستفاد من الخلاف، فكان التواصل بين الفرقاء معكراً له مذهباً لصفوه.

إن المطلوب الآن من المتحاورين أن يكونوا متيقظين لتلك الدسائس وصولاً إلى نقاط مشتركة تكون انطلاقة لهم ومرجعاً عند الاختلاف.

كما أن العقلاء منهم مطالبون بتفويت تلك الفرصة على أعداء الأديان والإنسانية، تحقيقاً لمصلحة الأمة والإنسانية.



ضوابط الحوار

لكل حوار ضوابط تحكم مساراته، وتوجه تلاقح الأفكار خلاله، وضوابط الحوار فضلاً عن كونها آداباً وأخلاقاً هي جزء رئيسي ومؤثر في فعالية أي عمل يُبْنى على الحوار، ذلك أن أي عمل في بدايته هو مشروع في محتوى بعض الكلمات والأفكار التي ينميها الحوار ويخصبها، ويبعث فيها روح العمل، ولا شك أن ضوابط الحوار إنما تقوم على أصول رسخها سلفنا من علماء ضربوا أروع الأمثلة للحوار الناجع في تمحيص الآراء المتباينة، وتجلية الإشكاليات المتوقعة، دون تَحَول الحوار إلى مهاترات يضيع معها الود لتحل محله الجفوة والقطيعة.

ومن هذه الضوابط(١):

١- الإنصات والاستماع:

وحقيقة الحوار في الإنصات والاستماع، فالحوار فن السماع للآخر، وعدم الرغبة في الكلام بدلاً منه، إذ إن هذه الرغبة تزهدنا فيما يقوله مَن نتحاور معه، ويحرمنا من تَدبّر قوله الذي لا يتحقق إلا بالسماع الكامل لهذا القول حتى آخره.

كما أن السماع الكامل للآخر مشعر بالاهتمام فيما يقول، ومضف على التحاور جدية، بعدم تعنت كل متفارق لرأيه، وهو في ذات الوقت دليل على وثوق المحاور فيما عنده.

قال عبد الله بن المبارك في الإمام مالك ممتدحاً فيه هذه الخصلة(٢):

---

(١) انظر: مجلة البيان، عدد ٨٧، مقال محمد محمد بدري.

(٢) العقد الفريد: ١/ ١٦١.



صَمُوت إذا ما الصَّمْتُ زَيَنَ أَهلَه وفتَاقُ أبكار الكلام المُختَّم
وَعَى ما وَعَى القرانُ من كلِّ حكمة وسيطَت له الآدابُ باللَّحْم والدَّم

وتأمل معي هذا الحوار بين عتبة بن ربيعة والنبيﷺ.

ذكر ابن هشام في سيره عن ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة -وكَانَ سَيّدًا- قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالسٌ في نَادي قُرَيْش، ورَسُولُ اللّه ﷺ جَالسٌ في المَسْجد وَحْدَهُ: يَا مَعْشرَ قُرَيْش، أَلاَ أَقُوم إلَى مُحمَّدَ فَأُكَلّمَهُ وأَعْرِض عَلَيْه أُمُورًا لَعَلّه يقْبَل بعضَهَا فَنُعْطيه أَيّهَا شَاءَ وَيَكُفّ عنّا؟ وذَلكَ حينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ ورَأَوْا أَصْحَابَ رَسول اللّه صَلّى اللّه عَلَيْه وَسَلّمَ يزيدُونَ ويَكْثُرُونَ.

فَقَالُوا: بلَى يَا أَبَا الْوَليد، قُمْ إلَيْه فَكَلّمْهُ.

فَقَامَ إلَيْه عُتْبَةُ حَتّى جَلَسَ إلَى رَسُول اللّه ﷺ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخي، إنّك منّا حَيْثُ قَدْ عَلمْتَ منْ السّطَة في الْعَشيرَة وَالمَكَان في النّسَب، وَإنّكَ قَدْ أَتَيْت قَوْمَك بأَمْر عَظيم فَرّقْت به جَمَاعَتَهُمْ وَسَفّهْت به أَحْلاَمَهُمْ وَعبْت به آلهَتَهُمْ وَدينَهُمْ وكَفّرْتَ به مَنْ مَضَى منْ آبَائهمْ، فَاسْمَعْ منّي أَعْرضْ عَلَيْك أُمُورًا تَنْظُرُ فيهَا لَعَلّك تَقْبَلُ منْهَا بَعْضَهَا.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّه ﷺ: قُلْ يَا أَبَا الْوَليد أَسْمَعْ.

قَالَ: يَا ابْنَ أَخي، إنْ كُنْت إنّمَا تُريدُ بمَا جئْتَ به منْ هَذَا الأَمْر مَالاً جَمَعْنَا لَك منْ أَمْوَالنَا حَتّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً، وَإنْ كُنْتَ تُريدُ به شَرَفًا سَوّدْنَاك عَلَيْنَا، حَتّى لاَ نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَك، وَإنْ كُنْت تُريدُ به مُلْكًا مَلّكْنَاك عَلَيْنَا؛ وَإنْ كَانَ هَذَا الّذي يَأْتيك رئْيًا تَرَاهُ لاَ تَسْتَطيعُ رَدّهُ عَنْ نَفْسك، طَلَبْنَا لَك الطّبّ، وَبَذَلْنَا فيه أَموَالنَا حتى نَبرئك منه، فإنه ربما غَلَبَ التّابعُ عَلَى الرّجُل حَتّى يُدَاوَى منْهُ. -



أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ-.

حَتّى إذَا فَرَغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ اللّه ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ.

قَالَ: أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيد؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَاسْمَعْ مِنّي.

قَالَ: أَفْعَلُ.

فَقَالَ رسول الله ﷺ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾ (فصلت: ١-٥)، ثُمّ مَضَى رَسُولُ اللّه ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ.

فَلَمّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ ثُمّ انْتَهَى رَسُولُ اللّه ﷺ إلَى السّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ؛ ثُمّ قَالَ قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ فَأَنْتَ وَذَاكَ[(١)].

فانظر إلى النبي ﷺ كيف يستمع إلى عتبة وهو يعرض عليه هذه الخواطر التي تثير الاشمئزاز مقارنة بما يشغل النبي من عظائم الأمور، ومع ذلك يتلقاها النبي حليماً، ويستمع إليه دون مقاطعة عتبة ويردد في نهايتها: أفرغت يا أبا الوليد؟. فيقول: نعم، فيقول رسول الله ﷺ: فاستمع مني، بل لا يبدأ النبي ﷺ كلامه حتى يقول له عتبة: افعل. فيبدأ النبي ﷺ في تلاوة

---

(١) السيرة النبوية: ١/ ٢٩٢.



قول ربه في ثقة وطمأنينة!!

إن السماع الكامل للآخر، وإعطاءه الفرصة حتى يتم كلامه، مع استيضاح أي غموض فيما يعرضه من أفكار، إن كل ذلك لا بد أن يكون هو السمة المميزة لكل حواراتنا، فإذا تبين لنا خطأ الآخر، فإن السماع الكامل له وعدم مقاطعته هو المقدمة الصحيحة لرجوعه عن الخطأ مهما كان عناده وغلظته؛ فإن أشد الناس جفافاً في الطبع وغلظة في القول لا يملك إلا أن يلين وأن يتأثر إزاء مستمع صبور عطوف يلوذ بالصمت إذا أخذ محدثه الغضب[١].

قال أبو العتاهية[٢]:

إذا كنت عن أن تحسن الصمت عاجزاً فأنت عن الإبلاغ في القول أعجز

يخوض أناس في المقال ليوجزوا وللصمت عن بعض المقالات أوجز

وقال أيضاً:

قد أفلح الساكت الصموت كلام راعي الكلام قوت

ما كل نطق له جواب جواب ما تكره السكوت

٢- تجريد الأفكار:

هدف الحوار هو الاستفادة من الأفكار وليس تدمير الأشخاص، ولذلك؛ فإن من أهم ضوابط الحوار: التركيز على فض الاشتباكات الفكرية دون التعرض السلبي للأشخاص بتشويه أو تجهيل، فلا خلاف مطلقاً بين

(١) كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس: ٩٢ .
(٢) الموشى: ما يجب على الأدباء.



أشخاص المتحاورين، وإنما بين أفكارهم، والفكرة الحسنة تُمْتدح بغض النظر عن قائلها، والفكرة الخطأ تُرَاجع دون تسفيه قائلها أو التهكم منه، فالنظر دائماً إلى الآخر في ضوء ما قيل، لا من قال[1]، مع احترام أهل العلم، وحفظ مكانتهم ومراتبهم، فلا نؤثمهم مطلقاً ولا نعصمهم مطلقاً، ولا نقبل كل أقوالهم ولا نُهْدرها كلها، وإنما ننتفع بأفكارهم ما دامت حقاً، ولا نعتقد فيهم العصمة من الخطأ، ونرى أن الآخر قد يمتلك الحق أو أنه يكون هو الراجح عنده، وأن ما عندنا يحتمل الخطأ أو أن يكون هو المرجوح.

ولا شك أن التحاور ضمن هذا المبدأ، أعني مبدأ افتراض المخالفة؛ هو المدخل الذي يضع الآخر في أول الطريق الصحيح للتفكير، لأنه يرى أن من يحاوره يضع نفسه معه في موضع المجادلة المشتركة لمعرفة الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)، هكذا في هدوء من يبتغي للآخر الإرشاد وليس الإفحام والإذلال، وفي ثقة من أخلص للحق المجرد فصح انقياده له، ولم يهتم بمن قاله من البشر، وإنما كان جُل اهتمامه بالقول في ذاته وتمييز الحسن منه والأحسن، ثم اتباع الأحسن، فكان من أصحاب البشرى بالنجاح وتحقيق الأهداف في الدنيا، والنعيم في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ١٧ - ١٨).

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٥٤٥ .



دخل رجلٌ على عبد الملك بن مَرْوان، وكان لا يَسأله عن شيء إلاّ وَجد عنده منه علماً، فقال لهُ: أَنى لك هذا؟ فقال: لم أَمْنع قَطّ يا أَميرَ المؤمنين علماً أفيده، ولم أَحتقر علماً أَستفيده، وكنتُ إذَا لَقيت الرَّجُلَ أَخذتُ منه وأَعطيتُه(١).

وتلك هي شيمة من أراد الحق، الأخذ والإعطاء.

وذلكم يرشدنا إلى ضابط آخر وهو غاية الحوار، وسنفرغ له مكاناً بإذن الله تعالى.

٣- ترك المراء:

قد يُخْفي الحوار في نفس من يمارسه حباً خفياً للتميز على الآخر، ولا يمكن اكتشاف هذه العورة النفسية إلا بأن يترك المحاور المراء والجدل، ويلتزم بيان الحق بالحجج والبراهين.

وقد وعد النبي ﷺ تارك المراء إن كان محقاً ببيت في الجنة، فعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ)(٢).

فرغم الاعتقاد بملكية الحق، لا يكون إثباته عن طريق المراء والجدل، وإنما عبر الطرق والمسارات الشرعية التي تصل بسالكها إلى بيان الحق، وعدم الانتقال بأي حال من الأحوال من شواهد الأدلة إلى دوافع الآخر، أو من

(١) العقد الفريد: ١/ ١٦١ .

(٢) أخرجه أبو داود برقم: (٤١٦٧)، وفي ذات المعنى عن أنس بن مالك عند الترمذي برقم: (١٩١٦)، وابن ماجه برقم: (٥٠)، وهو عند النسائي عن فضالة بن عبيد برقم: (٣٠٨٢).



إقامة الحجج للتدليل على صحة ما نراه ونعتقده إلى إثارة الجدل للتدليل على خطأ الآخر وخبث بواعثه.

فنبل الوسيلة في شرعنا من نبل الغاية، والغاية لا تبرر الوسيلة كما هو الحال عند النفعيين أو الرأسماليين أو البرغماتيين.

فإن كان الذي اعتقدناه حقا، فإننا ينبغي أن نسلك في تحقيقه طريقاً صحيحاً، لا مراء يحملنا إلى شفير ضياع الحق أو يدور بحوارنا في حلقة مفرغة، ويتفرع به إلى مضايق ومتاهات تتمزق فيها الأفكار، ويُقْتل التفكر والتدبر على مذابح المراء والجدل العقيم!!.

إن المراء يغلق باب الحوار ويلغيه ، لأنه يدفع طرفي الحوار إلى التصور الخاطيء؛ بأن حوارهما هو مباراة لا تكون نتيجتها إلا قاتل أو مقتول، فلا يبحث كل منهما عن حقائق أو أدلة، وإنما يكون بحثه وجهده في محاولة إغراق الآخر في طوفان من الكلام الذي يُضيع الوقت والجهد في غير فائدة، ويوغر الصدور، ويكرس الفرقة.

والمراء مخالف للمجادلة الحسنة التي أمر الله بها النبي الكريم، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل: ١٢٥).

وقد صح عن النبي ﷺ أن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ" (١).

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٦٨٦).



فأضحت المجادلة الحسنة أمراً من الله للمؤمنين، وأصبح التزامها للمحاورين واجبا، وصار المراء إثماً منهياً عنه.

أخرج الترمذي عن كعب بن مالك قوله: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ" (١).

٤- تغافر لا تنافر:

الحوار هو لون من ألوان التشاور حول بعض الموضوعات والأفكار، ومن ثم: فهو جلسة تناصح وتغافر وليس جلسة تصارع وتنافر، فمع قبول رأي الآخر أو رفضه تبقى طهارة القلب وصفاء السريرة نحوه، مع قبول معذرته والتغافر عن خطئه إن وقع، بل والحرص على أن يخرج الحق على لسانه.

رُوي أن الإمام أبا حنيفة النعمان (رأى ولده حماداً يناظر في المسجد فنهاه، فقال له ولده: أما كنت تناظر؟ قال: بلى، ولكن كنا كأن على رؤوسنا الطير من أن يخرج الباطل على لسان الخصم، بل كنا نود أن يخرج الحق على لسانه فنتبعه، فإذا كنتم كذلك فافعلوا(٢).

وهذه هي سيماء سلفنا الصالح في حواراتهم، فقد ذُكر عن حاتم الأصم أنه قال: " معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي، قالوا: وما هي؟

قال: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه " .

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: (٢٥٧٨)، وابن ماجة بالأرقام: (٢٤٩)، (٢٥٥)، (٢٥٦).

(٢) الإمام أبو حنيفة، لفضيلة الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى.



فبلغ ذلك الإمام أحمد رحمه الله، فقال: سبحان الله، ما كان أعقله من رجل[١].

نعم، ما أعقله من رجل يحب أن يُظْهر الله الحق على لسان أخيه، ويحاول رؤية الحق من أي وعاء خرج، ومن أي جهة سطع.

إن من طلب الحق فأخطأه لا يمكن تسويته بمن طلب الباطل فأدركه، فطالب الحق وإن أخطأ نتجاوز عن خطئه، ونغفر له تجاوزه، وإن كان ثمة عتاب فبالمودة والإخاء والقول الحسن.

ومما جاء في سيرة علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: أنه كان بينه وبين ابن عمه حسن شيء، فما ترك حسن شيئاً إلا قاله، وعلي ساكت، فذهب حسن، فلما كان الليل، أتاه علي فقال: يا ابن عمي إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك، والسلام عليكم.

فالتزمه حسن، وبكى حتى رثي له[٢].

إن الحوار جلسة بدء علاقة يظللها الحب والتغافر، ولسان حال المتحاورين:

من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منا

فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا

وقالوا: لا يكون العالم عالماً، حتى تكونَ فيه ثلاثُ خصال: لا يَحْتَقر مَن دونه، ولا يَحْسد مَن فوقه، ولا يأخذ على العِلم ثَمَناً[٣].

(١) الرد على المخالف: (٦٠).
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ,٣٩٧
(٣) العقد الفريد: ١/ ١٦١ .



٥- الصدق والوضوح:

الصدق مع كونه ضابطاً من ضوابط الحوار، هو خُلُق نبيل لا خيار للمسلم في التحلي به، والوضوح في الفكرة هو وسيلة قبولها من الطرف الآخر، والوضوح في المواقف له أكبر الأثر في تصفية القلوب وإعادة الود.

ومن هنا كان الصدق والوضوح هما طريق التآلف وحصول البركة، قال رسول الله ﷺ: "الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا"(١).

وكما أن البيع المبني على الصدق والوضوح هو بيع مليء بالبركة، كذلك الحوار القائم على الصدق والوضوح هو حوار مبارك ييسر الله تعاون أطرافه على البر والتقوى، ويبارك جهودهم المتعاونة على نصرة الحق.

ومن هنا وجب علينا في كل حواراتنا أن نتجنب الكلمات الغامضة التي تؤدي إلى سوء الفهم، ونتجنب أساليب المغالطات والدفاع عن الأوضاع الخاطئة التي تؤدي إلى إثارة الحقد، وإيغار الصدور والقلوب ، وذهاب الود بين طرفي الحوار ، ومن ثم تكون النتيجة هي فشل الحوار في تحقيق أهدافه.

٦- العلم والعدل:

الحوار الناجح هو حوار يضبط العلم مساره، ويوجه العدل موقف كل طرف فيه تجاه الآخر.

فأما العلم، فإنه لا يستقيم حوار بدونه، بل في غيابه يصبح ضرر الحوار أكثر من نفعه، لأن جهود المتحاورين في هذه الحال تذهب سدى وتضيع بلا ثمرة تذكر.

أخرج الإمام أحمد في مسنده أَنَّ نَفَرًا كَانُوا جُلُوسًا بِبَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ

(١) أخرجه البخاري برقم: (١٩٣٧).



بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يقُلْ الله كَذَا وكَذَا؟ وقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يقُلْ الله كَذَا وكَذَا؟ فَسَمِعَ ذَلكَ رَسولُ الله ﷺ، فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فُقِيء في وَجْهِه حَبُّ الرُّمَّان، فَقَالَ: "بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّه بَعْضَهُ بِبَعْض، إِنَّمَا ضَلَّتْ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِمَّا هَاهُنَا فِي شَيْءٍ، انْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ وَالَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله في التعليق على هذا الحديث: "وأكثر ما يكون ذلك لوقوع المنازعة في الشيء قبل إحكامه وجمع حواشيه وأطرافه"(٢).

وإذا كان أحد طرف الحوار جاهلاً في محله – أي محل الحوار – فتلك مصيبة ابتلي بها الطرف الآخر، وقد نقل عن الشافعي: "ما حاججت عالماً إلا غلبته، وما حاجني جاهل إلا غلبني".

ومما جاء في تحامل الجاهل على العالم ما ذكره أهل الأثر: "وَيْل لعالم أمْرٍ من جاهله".

وقالوا: إذا أردتَ أن تُفْحم عالماً فأحْضره جاهلاً، وقالوا: لا تُناظر جاهلاً.

وقالوا أيضاً: لا تُناظر جاهلاً ولا لجوجاً، فإنه يجعل المُناظرة ذريعة إلى التعلّم بغير شكر.

ومما جاء في الأثر: ارحموا عزيزاً ذلّ، أرْحموا غنيّاً افتقر، ارحموا عالماً ضاع بين جُهّال.

وجاء كَيْسان إلى الخليل بن أَحمد يَسأله عن شيء، ففكَّر فيه الخليلُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد برقم: (٦٥٥٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٣ .



لِيُجيبه، فلما استفتح الكلام؟ قال له: لا أَدري ما تقول؛ فأنشأ الخليل يقول:

لو كنتَ تَعْلم ما أقولُ عذرتني — أو كنتُ أَجْهل ما تقولُ عذلْتُكا

لكن جَهِلْت مَقالتي فعَذلْتَني — وعلمتُ أنك جاهل فعَذَرْتُكا

وقال حَبيب(١):

وعاذل عذلتُه في عَذْله — فظَنَّ أنيِّ جاهلٌ من جَهْله

ما غبن المَغْبُونَ مثل عقْله — مَن لكَ يوماً بأخيك كُلِّه

وأما العدل فهو الطريق إلى اعتدال أخلاق المتحاورين بين طرفي الإفراط والتفريط، وهو الحامل لهم على قبول الحق من الخصم، بل من العدو المبين.

أخرج الإمام البخاري رضي الله تعالى عنه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: "وَكَّلَنِي رَسُولُ الله ﷺ بحفْظ زَكَاة رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آت فَجَعَلَ يَحْثُو منْ الطَّعَام فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ وَالله لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُول الله ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عيَالٌ، وَلي حَاجَةٌ شَديدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسيرُكَ الْبَارحَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله شَكَا حَاجَةً شَديدَةً وَعيَالاً فَرَحمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبيلَهُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لقَوْل رَسُول الله ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ؛ فَجَاءَ يَحْثُو منْ الطَّعَام فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُول الله ﷺ، قَالَ: دَعْني فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عيَالٌ لاَ أَعُودُ، فَرَحمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ؛ فَقَالَ لي رَسولُ الله ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسيرُكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسولَ الله شَكَا حَاجَةً شَديدَةً وَعيَالًا فَرَحمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبيلَهُ، قَالَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ الثَّالثَةَ،

(١) هذا وما قبله مذكور في العقد الفريد: ١/ ١٦٢ .



فَجَاءَ يَحْثو مِنْ الطَّعَام، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُول الله وَهَذَا آخرُ ثَلَاث مرَّات أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ.

قَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَات يَنْفَعُكَ الله بهَا، قُلْتُ مَا هُوَ؟ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فرَاشك فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، حَتَّى تَخْتمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ الله حَافظٌ وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبحَ، فَخَلَّيْتُ سَبيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ؛ فَقَالَ لي رَسُولُ الله ﷺ :مَا فَعَلَ أَسيرُكَ الْبَارحَةَ؟ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله: زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُني كَلِمَات يَنْفَعُني الله بهَا فَخَلَّيْتُ سَبيلَهُ، قَالَ: مَا هيَ؟ قُلْتُ: قَالَ لي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فرَاشكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسيِّ منْ أَوَّلهَا حَتَّى تَخْتمَ الآيَةَ ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَقَالَ لي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ الله حَافظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْر، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ.

تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطبُ مُنْذُ ثَلاَث لَيَال يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ" (١).

فهذا رسول الله ﷺ لا يمتنع من قبول الحق من أعدى أعدائه، بل ممن يعلم أنه كثير الكذب، وذاك غاية العدل.

إن طريق الوصول إلى الحق عبر الحوار هو الاتصاف بالعدل والعلم وحسن القصد، وأما الجهل والظلم وسوء القصد فهو الطريق إلى التنازع والفرقة والقطيعة بين أهل المنهج الواحد، بل بين ذوي الرحم، ولا تزال قلة الإنصاف قاطعةً بين الأنام وإن كانوا ذوي رحم.

---

(١) أخرجه البخاري تحت باب "إِذَا وَكَّلَ رَجُلاً فَتَرَكَ الْوَكيلُ شَيْئًا فَأَجَازَهُ الْمُوَكِّلُ فَهُوَ جَائزٌ" قبل حديث رقم: (٢١٤٥).



٧- التحاور العملي:

المتأمل في حواراتنا يجد أنها تحوي في أكثرها هوة كبيرة بين ما نتحاور له وما يترتب عليه من أعمال في الواقع، وهذه مقتلة، إذ أن الحوار ينبغي أن يكون فيما يترتب عليه العمل، وفيما ترجى من ورائه مصلحة أو منفعة، أما عدا ذلك فالخوض فيه خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي في الكتاب أو السنة أو عمل سلف الأمة.

جاء عند ابن ماجة أن رسول الله ﷺ خرج عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ، فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنْ الْغَضَبِ، فَقَالَ: "بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ بِهَذَا هَلَكَتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ".

قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: "مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ تَخَلَّفْتُ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَتَخَلُّفِي عَنْهُ"(١).

وإنما كان غضب الحبيب ﷺ لتشاور المسلمين فيما لا طائل تحته، أو فيما يبث بذار الفرقة ولا ينبني عليه عمل.

وقد سأل صحابة رسول الله ﷺ عن الهلال يتغير من أول الشهر لآخره، فجاء جواب سؤالهم في القرآن على طريقة جواب الحكيم(٢)، التفاتاً لما يعنيهم من مسائل الدين والدنيا، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم: (٨٢).

(٢) جواب الحكيم: هو أن يكون سؤال السائل عن أمر وتكون الإجابة عن أمر آخر مع ذلك الأمر، أو صرف الإجابة لأمر آخر بالكلية حملا للسائل لما فيه خير له، كما في إجابة رسول الله [الصحابة لما سؤل عن طهورية ماء البحر فأجاب بقوله: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته"، ولم يرد ذكر الميتة أصلاً في السؤال.



مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١٨٩).

حيث جاء الجواب بما تعلق به العمل، مع الإعراض التام عما قصده السائل من السؤال عن الهلال من كونه يبدو في أول الشهر دقيقاً كالخيط، ثم يمتلئ حتى يصير بدراً، ثم يعود إلى حالته الأولى.

وعند البخاري عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: "بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ خَارِجَانِ مِنْ الْمَسْجِدِ فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ" (١).

وفي هذا دليل على صرف النبي ﷺ الإجابة إلى ما فيه خير للسائل، وما يبنى عليه عمل.

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قوله: " خمس لهن أحسن من الدهم الموقفة: لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل، ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه، قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليما ولا سفيها فإن الحليم يقليك، وإن السفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا تغيب عنك مما تحب أن يذكرك به، وأعفه عما تحب أن يعفيك منه، واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام" (١).

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٦٢٠)، ومسلم برقم: (٤٧٧٨)، وانظر الموافقات: ١/ ٤٦ .



ولقد كان لنا في سلف الأمة خير مثل لانصراف هممهم عما لا طائل تحته، فقد جاء في الخبر عن عمر بن الخطاب مع صبيغ بن عسل أنه كان يسأل عن متشابه القرآن، فقال عمر: سبيل محدثة، أي: بدعة جديدة، ثم أرسل إلى رطائب من جريدة نخل فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة أي: قرحة ثم تركه حتى برئ ثم عاد له، ثم تركه حتى برئ فدعا به ليعود، فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي؛ فاقتلني قتلاً جميلاً، وإن كنت تريد أن تداويني، فقد والله برئت، فأذن له عمر أن يذهب إلى أرضه.

إن تحاورنا يجب أن يكون هو الخطوة التمهيدية الأولى في طريق أعمالنا المشتركة التي نتعاون على إتمامها، ولذلك: فإنه من الضروري أن نتعرف قبل التحاور على الأهداف العملية للحوار، ونتبين ما هي الدوّامات الفكرية الطارئة والمنعطفات النظرية العارضة التي قد تلفتنا عن أهدافنا العملية لتنحرف بحواراتنا إلى أمور نظرية شكلية ليس لها أدنى تأثير في مسيرة العمل، ولا يترتب عليها إلا استنفاذ طاقاتنا في غير طائل وبغير ثمرة.

٨- الحجة الرأسية:

الحوار الناجح هو حوار يخلو من الإطالة الزائدة عن الحد، التي تُحَوّل الحوار إلى خطبة يتشدق فيها كل طرف من أطراف الحوار ويتفاصح بكثرة الكلام، بل وغرابته أحياناً، وهو ما كرهه رسول الله ﷺ بقوله: "إنَّ منْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ

(١) انظر كتاب الصمت، أثر رقم: (١١٤).



إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟، قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ" (١).

والثرثار: كثير الكلام تكلفاً.

والمتشدق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه.

والمتفيهق: أصله من الفهق، وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فيه بالكلام، ويتوسع فيه، ويغرب به تكبراً وارتفاعاً، وإظهاراً للفضيلة على غيره(٢).

إن الإطالة والتكرار والإسهاب وهو ما نطلق عليه الحجة الأفقية لا ينتج عنه إلا دفن الفكرة الرئيسية للحوار وسط هذا الكم الكبير من الكلام، ومن ثم: عدم قدرة الآخر على اكتشاف ما نقصده فضلاً عن فهمه وتدبره ؟ !

وإذن : فالمحاور العاقل هو من يحاول الوصول إلى هدف الحوار من أقرب طريق، ولا يضيع وقته ووقت الآخر في تكرار الكلام والإسهاب في المقدمات التي لا فائدة فيها، بل يقتصر في الألفاظ والكلمات على قدر الحاجة ويوضح فكرته بأقرب عبارة وأوجز لفظ، وهو ما نطلق عليه الحجة الرأسية حيث يذكر المحاور فكرته الرئيسية، ثم ينتقل بعد ذلك إلى تدعيمها بالأدلة، في إجمال غير مخل، وتفصيل غير ممل.

إن من فقه الحوار وذكاء المتحاورين: أن يتحرزا عن إطالة الكلام في غير

(١) أخرجه الترمذي برقم : (١٩٤١).

(٢) رياض الصالحين: ٢٨٩ .



فائدة، وعن اختصاره اختصاراً يخل بفهم المقصود منه[١]، وأن يحققا التوازن الدقيق بين جفاف الحوار بسبب قلة الأدلة أو غموضها، وبين غرق الحوار بسبب الإسهاب والتكرار غير المفيد.

٩- نبل غايات الحوار:

من ضوابط الحوار في الإسلام أن يبتعد كل البعد عن الهوى، فإن اتباع الأهواء مفسدة ومضيعة، بل ينبغي أن يقدم الحوار على أساس من إعلان الحق وتوضيحه، بدافع من الاستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ، في إحقاق الحق وترسيخ أركانه، وعندئذ يعلم أن الحوار في الإسلام لغاية، و ليس لاتباع هوى وتحقيق ما يتوهم من مغالبة وادعاء نصر على الخصم.

ومن يتتبع الحوار في القرآن الكريم يدرك هذا الأمر، ويعلم كيف تكون الحجة، وكيف يقوم الدليل في القضية التي يراد إبلاغها وإحقاقها.

ويعلم أن الإسلام إذا كان قد أقر منهج الحوار، فإنه ينهى عن الحوار المبني على التمسك بالرأي مسبقاً، إذ إإن ذلك أمارة على تغييب الحق وغمره في الهوى المتبع، وهذه مفسدة تهدر غاية الحوار وتذهب بحكمته من الوصول إلى الحق وإحقاقه.

قال ﷺ في بيان معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥)، عندما سأله أبو ثعلبة الخشني عن معناها: "بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ -يَعْنِي بِنَفْسِكَ- وَدَعْ عَنْكَ

(١) آداب البحث والمناظرة: ٧٦ .



الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ" (١).

ذلكم لأن الكف عن محاورة هؤلاء حفظ للنفس عن الوقوع في حبائل من يكتفى معهم بالبيان الذي جاء به القرآن بلاغاً، فمثلهم مكتف بما عنده، غير قابل للحق، وعندئذ تكون أي محاولة للحوار ضرب فارس في غير ميدان، لتخلف حكمة الحوار ومصلحته.

١٠ - خلاف بلا اختلاف

مسألة الاختلاف في التوجهات والآراء مسألة قديمة، ولست هنا بصدد حل خلاف عمره من عمر دولة الإسلام بعد النبي ﷺ، لكن حاصل ما أريده في هذه العجالة بيان أن للمتحاورين في شتى المواضيع مذاهب شتى، ومما لا شك فيه أن الراجح منها واحد، وليس هذا عيباً في صاحب الرأي المرجوح، فالكل أراد إحقاق الحق، والكل قصد في مذهبه من الاستدلال وإقامة البراهين مسلكاً خاصاً، بنى فيه الأدلة النقلية والعقلية على صحة ما ذهب إليه، وخطأ قول الآخرين.

وهذا حق لا إشكال فيه، لكن الذي لم نود وقوعه بين المتحاورين، هو انتقال الخلاف من حيز الأقوال إلى حيز الأشخاص، ومن رد الدليل بالدليل إلى التسفيه والعيب على الآخرين مذاهبهم، بل إن بعضهم جاوز الحد في ذلك فرمى الآخرين بما لا ينبغي.

فإن كان الله عز وجل قد رضي من المتحاورين ما ذهبا إليه في الحق الذي

(١) أخرجه الترمذي برقم: (٣٧٧٨).



أرادوه، فإنه لا يرضى منهما الفرقة والخلاف أبدا، كيف وهو أرحم بنا من أنفسنا، وهو العالم أن الفرقة والخلاف لا تأتي بخير، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وقد ورد عن السلف قولهم: "نعمل فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه"، فما أحوج الأمة الإسلامية إلى هذا المعنى هذه الأيام، وما أحوجها أن يكون قائدهم في الوحدة ولم الشمل هم علماء الإسلام الربانيون المتحققون بفهم الآخر وقبول شخصه على خلافهم معه في مذهبه الذي ذهب إليه.

وما أحرى الخائضين في هذا الميدان بأن يتحققوا قول الشافعي: "كلامي صواب يحتمل الخطأ، وكلام غيري خطأ يحتمل الصواب".

ويا ليتهم مذ اختلفوا لم يوغلوا؛ ولم يجعلوا الاختلاف سببا للتفرقة، وهذا قرآنهم يهتف من فوق رؤوسهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، ونبيهم ﷺ يقول: "اقْرَؤوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ"[١]، أي إذا شعرتم بأن النظر في الآيات ,وتقليب وجوه الاحتمال في معانيها ,يؤثر في رابطتكم الدينية فدعوا النظر بالكلية؛ خشية التفرقة.

ولعمري إن انصراف بعض المسلمين عن العلم النافع؛ وإعراضهم عن النظر فيما يهذب أخلاقهم؛ ويرقي اجتماعهم ,ويشد عرى الإخاء بينهم، هو

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٦٧٣) ومسلم برقم (٤٨١٩).



الذي جعلهم يوغلون في مثل هذه المسائل؛ ويفرغون للخوض والنزاع فيها.

وبذلك تقلص ظل العمل من ديارهم؛ وقام مقامه الجدل في مجالسهم وأسفارهم؛ حتى أوشكوا أن ينطبق عليهم حديث: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه؛ إلا أوتوا الجدل وحرموا العمل "(١)".

على أن خوض علماء المسلمين في مسائل الخلاف كان بحثاً عن حق، وإحقاقاً لوجه من الصواب رأوه، وإثباتاً لمذهب من العلم سلكوه، ولم يكن الغرض من اختلافهم ألبته الفرقة والخلاف، فرأيناهم يرجع واحدهم عن رأيه إن بدا له الدليل، غير متعصب لفكرة أو متعنت لمذهب أو خائض لجاج الهوى في تحسين القبيح وتقبيح الحسن.

نسأل المولى العلي القدير، أن يوحد صف المسلمين، ويجمع على الخير كلمتهم، ويلم بحكمته شملهم، ويغفر لهم ما كان منهم من فرقة وخلاف، وأن يكون ذلك خطوة في توحيد الناس على كلمة سواء.

١١- أن يكون محل الحوار صحيحاً:

وهذه جوهر القصيد، ولب الضوابط، وإنما أخرت ذكرها مع أن حقها الصدارة، إيذاناً بأهميتها، فشأن العقل أن يعلق فيه ما ختم به الحديث، وقد قالوا قديماً: الأعمال بخواتيمها، إيذانا بأهمية ما يختم به.

ووجه أهميتها كامن في أن ليس كل أمر صالحاً أو قابلاً للحوار، وبيانه أن

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣١٧٦) وابن ماجة باب اجتناب البدع والجدل، وفي مسند أحمد برقم (٢١١٤٣) ورقم (٢١١٧٩)، وليس في أي منها زيادة: "وحرموا العمل".



ذلك يختلف باختلاف المتحاورين من جهة، وباختلاف غرض الحوار من جهة أخرى.

فلا يقبل أبدا مثلاً أن تكون المحرمات قطعاً كالخمر والقمار محلاً للحوار بين طرفين مسلمين باعتبار ما قد يجنى من منافع متوهمة حين السماح بهما، وفي ذات الوقت يمكن أن يكون ذلك مع غير المسلمين باعتبار النظر إلى المصالح والمفاسد المتأتية من السماح أو المنع.

وبمعنى آخر، لا يصح وضع المقطوع بحكمه شرعاً محلاً للحوار بين طرفين مسلمين، وكذلك لا يصح أن تكون المسائل الفرعية والأحكام التفصيلية محلا للحوار بين طرفين أحدهما مسلم والآخر لا، إذ إن اختلاف المسلم مع غيره بالأصول التي تنبني عليها تلك الفروع.

وعلى ذلك فمحل الحوار الصحيح ينبغي أن يكون في أصول العقائد بين المسلمين وغيرهم، وفي فروعها -أعني العقائد- بين الفرق الإسلامية، وفي المباحات ومختلف الأفكار العملية أو المصلحية أو التنظيمية المتناولة لمختلف شؤون الناس، بين كافة الفرقاء المسلمين.

الخـاتمة

وبعد هذا الاستعراض للحوار من حيث منهجه وضوابطه وأساسياته، أقول:

إن الحوار المفتوح هو أداة لكشف الحقائق والآراء ومواطن الخلاف في وجهات النظر المتباينة، وفرصه للإجابة عن التساؤلات والاستفسارات التي تقبع في العقول والنفوس، وخلال الحوار تُنمى العقول ويكتمل نضجها وتصبح مهيأة لتبادل وجهات النظر برحابة صدر وعمق فكر، وعذر للمخالف فيما يقول.

كما أن الحوار القائم على أساس من المنهجية والحياد يساعد في اتخاذ القرار الصائب في أغلب الأحيان، وهو أداة لكشف الحق من الباطل وتفنيد الصواب من الخطأ، وهذا يدلل على كونه قيمة حضارية لا غنى عنها.

إن ما نسعى للوصول إليه هو تهيأة أرضية للحوار المفتوح، الذي يتميز بآداب المتحاورين وحفظ سلوكياتهم، وضبط النفس والتوازن في الأحاسيس والمشاعر كافة، مع الانفتاح على الطرف الآخر في إطار من الواجبات اللازم التقيد بها؛ كاحترام مشاعر الخصم ومعتقداته، ومحاورته بالحكمة والموعظة الحسنة، ودفعه عن رأيه بالتي هي أحسن ,مع الحرص على تجنب الأساليب السلبية ,كالتحريض والتشغيب وإثارة الفوضى، والتحامل والتشنج والتعصب الأعمى، أو استخدام أسلوب المغالطة والانكماش والتهرب والاستهزاء والسخرية، فهي مرفوضة أيضا في الحوار المنشود.

أسأل الله أن أكون وفقت لعرض المادة فيه بالصورة اللائقة، فإن أصبت فبفضل الله ومنه، وإن أخطأت فبجهل العبد وضعفه، والله يغفر ما كان لنا من الزلل والخطأ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



المـراجـــع

١- القرآن الكريم
٢-صحيح الإمام البخاري.
٣-صحيح الإمام مسلم.
٤- جامع الترمذي.
٥-سنن أبي داود.
٦-سنن النسائي.
٧-سنن ابن ماجه.
٨- مسند الإمام أحمد.
٩- أبو حنيفة - محمد أبو زهرة.
١٠- اقتضاء الصراط المستقيم - ابن تيمية.
١١-آداب البحث والمناظرة - الشنقيطي.
١٢-الرد على المخالف - بكر أبو زيد.
١٣-رياض الصالحين - النووي.
١٤- السيرة النبوية لابن هشام.
١٥-سير أعلام النبلاء - الذهبي.
١٦-الصمت لابن أبي الدنيا.
١٧-العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسي.
١٨- كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس - ديل كارنيجي.
١٩-مدارج السالكين - ابن القيم.
٢٠-الموافقات - الشاطبي.
٢١- مباديء في الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية - يوسف القرضاوي.
٢٢-الموشى - أبو الطيب الوشاء.
٢٣- مجلة البيان عدد ٨٧ - مقال الدكتور محمد محمد بدري.

الحوار بين الأديان ضوابطه وآدابه

د. ماجد بن محمد الماجد
الأستاذ المشارك في
جامعة الملك سعود





مقدمة

في ظل النظرة الإسلامية الصحيحة لا دعوة من دون حوار، وبهذا المعنى فإن الحوار يعني العدل والرحمة واحترام حرية الآخرين. واحترام الآخر لا يعني بالضرورة الرضا بمعتقداته أو إقراره عليها . وليس الهدف من الحوار مجرد فك الاشتباك بين الآراء المختلفة أو تحييد كل طرف إزاء الطرف الآخر، وإنما هدفه الأكبر هو إثراء الفهم المتبادل، وترسيخ قيمة التعاون بين البشر.

فالحوار بين أتباع الأديان في بعض جوانبه بنية نفسية واجتماعية وسياسية وثقافية إنسانية؛ منطلقها الإنسان الفرد، وهدفها مصلحة البشر المحلية أو الإنسانية عامة، والقدرة على إقامة الحوار وبناء علاقة تواصل مع الآخر موهبة فردية وقيمة إنسانية.

وإذا كانت حاجة الفرد ضرورية لاستخدام قدرته على الحوار مع الآخر سواء أكان فردا داخل عائلته أم مواطناً يشاركه الفضاء الجغرافي والثقافي والاقتصادي أو كان إنساناً يشاركه الانتماء إلى نفس الكينونة؛ فإن حاجة أتباع الأديان لإقامة حوار فيما بينهم أكثر إلحاحاً؛ لأن انعكاسات انغلاق أتباع الأديان وتصلبهم يورث تصلب العقليات وتفشي التعصب ؛ فتنتشر العدائية بسرعة، ويتسع تأثيرها إلى حد اندلاع الحروب والصدامات والنزاعات القبلية والعرقية والدولية.

كما أن الحوار بين الأديان ضرورة قصوى من ضرورات الحياة في ظل السلام العادل والاحترام المتبادل والتطبيق النزيه لقواعد القانون الدولي. والحوار بين الأديان دليل على النضج الفكري الذي أدركته البشرية، وتفرضه



تجارب الأمس وحوادث اليوم ومخاوف الغد. ومكافحة شتى أشكال اللامبالاة وعدم التفهم تقتضي معرفة الآخر في خصوصيات حضارته وتطلعاته، وأهمها الدين الذي يقيم عليه منظومته القيمية والاجتماعية ، وهو ما يستوجب إنماء ذهنية الفهم والاحترام المتبادلين[١].

كما أن الحوار بين الأديان متسق وسنة الاختلاف الذي قال فيه المولى سبحانه : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨) .

وتستند شرعية الحوار في الإسلام إلى آيتين كريمتين أولاهما: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤) ، وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة النحل: ١٢٥) . ولذا فلا مجادلة في مشروعيته ، بل هو واجب شرعي على العلماء المؤهلين، لأنه من أعظم سبل الدعوة إلى الإسلام .

ولما كان للحوار أهدافه التي يرجى الوصول إليها، فإنه يستوجب طائفة من الضوابط والآداب الواجب أن يتلزم بها، ومن أهم هذه الضوابط ما يلي:

---

(١) مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا ، محمد عمارة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، المقدمة ، ص ٥-١٤ .



أولاً : ضوابط الحوار

الضوابط في اللغة جمع "ضابط" وهو مأخوذ من الضبط، وهو لزوم الشيء وحبسه[(١)] .

أما الضابط في الاصطلاح فقد تنوعت عبارات العلماء في تعريفه، إلا أن أقرب هذه التعريفات إلى المقصود بها في هذا البحث أنه قضية كلية تنطبق على جزئياتها التي هي من باب واحد، وعموماً فالضابط هو كل ما يحصر جزئيات أمر معين[(٢)].

ومراعاة تلك الضوابط والآداب من السنن المرعية ، فالجدل : "هو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية و غيرهم ؛ فإنه لما كان باب المناظرة في الرد و القبول متسعاً ، وكل من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ، ومنه ما يكون صواباً ، ومنه ما يكون خطأً ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول ، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً ، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ومحل اعتراضه أو معارضته ، وأين يجب عليه السكوت، ولخصمه الكلام والاستدلال ؛ ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه " [(٣)].

---

(١) انظر : لسان العرب، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، مادة (ضبط)، (٧/ ٣٤٠).

(٢) انظر : القواعد الفقهية للدكتور يعقوب الباحسين ، مكتبة الرشد ، الرياض ، عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨ م ، ص ٥٨ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ، دار الفكر ، بيروت ، ط١، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ١/ ٥٧٣ .



- التمسك بالثوابت الشرعية :

وتشمل أصول العقيدة ومباديء الدين ، ومنها أن الإسلام قد جاء ناسخاً للشرائع السماوية التي سبقته فلا يجوز بأي حال القول بأن كل الأديان السماوية عند الله سواء وأن ' وحدة الأديان ' ـ بمعنى أن الاتفاق على مباديء مشتركة بين الأديان السماوية ـ وربما غير السماوية وأن كل من آمن بها فهو مؤمن ـ أمر مقبول فهذا مما يفرغ الرسالة الإسلامية من مضمونها ، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (سورة آل عمران: ١١٠)، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: ١٤٣) .

وفي مقدمة ثوابتنا الشرعية ؛ النصوص والأحكام التي لم تترك فيها الشريعة مجالاً للاجتهاد فيها، وهي المسائل التي لا تقبل التحريف أو التبديل، كحرمة الزنا واللواط وشرب الخمر وفرضية الحجاب وغيرها؛ مما يجب على المؤسسات الإسلامية ، وكل محاور مسلم من العلماء والدعاة توضيحيه للطرف المحاور، وليس هذا مما ينافي الحوار؛ بل هو من تمام الوضوح ، وبيان الموقف ، والصدق في الحوار[١].

---

(١) الولاء والبراء ،محمد سعيد القحطاني ، دار طيبة ،الرياض، ط (٢) ١٤٠٤هـ ، ص ٥٢ وما بعدها.



- بيان المراد بحوار الأديان :

- وهذا الضابط من أهم ما يمكن اشتراطه قبل الدخول في أي حوار للأديان ، بالنظر إلى ما أحيطت به القضية من غبش في التصور ، أو سوء في المقاصد ، وانحراف بالغاية التي يجدر بحوار الأديان أن ينشأ من أجلها(١).

وعليه فإن الحوار بين الأديان متنوع بحسب أهدافه وأغراضه، منها ما هو حق، إذا كان دعوة وبياناً وبحثاً عن الحق وسبيلاً إلى التعايش والتفاهم والتعاون على البر والخير، ومنها ما هو باطل، إذا كان نقضاً للدين ، وتمييعاً لشرائعه ، وطمساً لمعالمه ، ولذلك فإن حوار الأديان لا يرد مطلقاً لأننا بذلك نرد الحق الذي فيه، ولا نقبله مطلقاً لأننا بذلك نقبل الباطل الذي فيه .

كما يجدر بنا أن بين بكل وضوح حقيقة الحوار بين الأديان في المنظور الغربي ، وما شابه من أهداف تنصيرية ، واستعمارية ، فقد ذكر دانيال آر بروستر، في محاضرة له بعنوان " الحوار بين النصارى والمسلمين " عدة حقائق توضح حقيقة الحوار عند النصارى منها أنه في عام ١٩٦٠ م ، أقر مجلس الكنائس العالمي الحوار مع المسلمين ، وكان يعتبر هذا الحوار وسيلة مفيدة للتنصير ، وفي عام ١٩٦٨ م ، نقل الحوار خارج محيط التنصير، واكتفى بالإقرار بصحة الديانة النصرانية ، وفتح أبواب الصداقات، والمشاركة في الحياة على وفق ما يراه النصراني .

وذكر هيوكيتسكل – زعيم حزب العمال البريطاني – في كتابه " التعايش السلمي والخطر الذي ينتابه " تعريف التعايش بأنه : " مناورة خالصة، وهي

---

(١) انظر : الحوار بين الأديان حقيقته وأنواعه، :أبو زيد بن محمد مكي ، موقع الإسلام اليوم .



ظاهرة مؤقتة ، قد تقتضي تحوير السياسة بوقف القتال ، وتخفيف الضغط "[(١)].

وفي هذا السياق ينبغي ألا يتضمن أي حوار مع الأديان ؛ الإقرار بصحة معتقدات الآخر ، فهذا نسف للعقيدة الدينية من جذورها ، وإن كان هذا لا يعني انتقاص حقوقه أو الاعتداء عليه ، ولا يوجب عدم محاورته ولا التعايش معه ، بل المسلم يتعاون مع البشر جميعاً على ما فيه الخير والبر ، كما أن في إقرار غير المسلم على معتقده اعترافاً بصحة دينه ، وهذا له دور كبير في صد النصارى واليهود وغيرهم من الملل عن الدخول في الإسلام[(٢)] .

ولا بد هنا من التأكيد على أن الحوار المتعلق بالعلاقة المعيشية بين معتنقي الأديان ،وما يتوافر عليه من تحسين العلاقة بين الطوائف ,والأقليات الدينية، فإن الإسلام يرحب به ،ويدعو إليه في ضوء الإحسان والبر والقسط، ولا يتنافى مع نصوص الشرع الناهية عن موالاة الكفار[(٣)] ، قال تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

فمفهوم التسامح والتعايش في الإسلام هو : التعامل مع غير المسلم وفق الحكمة واللين والمعروف سواء في ذلك التعامل في الخطاب ، أو في مطلق

---

(١) انظر : التنصير ، خطة لغزو العالم الإسلامي ، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في مدينة جلين آيري بالولايات الأمريكية عام ١٩٧٨ (٧٦٧ - ٧٨٣).

(٢) انظر : التنصير ،عبد الرحمن الصالح ،دار الكتاب والسنة ،برمنجهام ،ط ١، ١٤٢٠هـ ٦٢ - ٦٦ .

(٣) انظر : دعوة التقريب بين الأديان ، أحمد القاضي،دار ابن الجوزي ،الدمام ،ط١ ،١٤٢٢هـ ١ / ٣٤٩ .



التصرف، وفق الضوابط الشرعية[١].

ومما يتصل بهذا الضابط ، التنبه إلى اتخاذ هذا الحوار وسيلة للتنصير وتشويه حكم الردة في الإسلام ، أو محاربة مفهوم الجهاد في الإسلام ، أو إضعاف عقيدة الولاء والبراء ، أوالتدخل في الشأن الداخلي للدول الإسلامية.

وأهم مما سبق الإعلان الصريح عن رفض المسلمين للوحدة بين الأديان ، المفضية إلى القول بصحة جميع المعتقدات والديانات ، وأنها ينبغي أن تكون جنباً إلى جنب، تتزامل في الإيمان، دون أن يتخلى كل دين عن عقائده وشرائعه الخاصة به ، وهذا يشمل ما يسمونه وحدة الأديان الإبراهيمية التي تعلن انتمائها إلى إبراهيم عليه السلام، وهي الإسلام واليهودية والنصرانية[٢]، والداعية إلى بناء مسجد وكنيسة ومعبد في محيط واحد ,في رحاب الجامعات والمطارات والساحات العامة، والدعوة إلى طباعة القرآن الكريم والتوراة والإنجيل في غلاف واحد[٣] .

ويشمل كذلك وحدة كل الأديان والملل الوثنية، بل والملحدين، بجامع أن تلكم الوثنيات آثار نبوات سابقة، وأن الملحدين يؤمنون بالإنسان ، وأن

(١) انظر : تسامح الغرب مع المسلمين في العصر الحاضر ،عبد اللطيف الحسين ،دار ابن الجوزي ،الدمام ،ط ١، ١٤١٩هـ ، ص ٢٦).

(٢) انظر : دعوة التقريب (٣ / ١١٤٠ – ١١٧٣).

(٣) انظر : الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان ، بكر أبو زيد ، ص ٢٢ – ٢٥ وانظر: الولاء و البراء ،لمحمد سعيد القحطاني (٣٤٦ – ٣٥١) ,ودعوى " وحدة الأديان : أهدافها ،حكمها ،خطرها " ،علي أبو لوز ،ومحمود المطر ،دار المسلم ،الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ .



للحياة معنى(١) .

وبمجمل من القول فلابد في كل جولة حوارية تنهض بها مؤسسة مسؤولة في العالم الإسلامي من التأكيد على أن الحوار مع أصحاب الديانات الأخرى إنما هو من أجل دعوتهم للدين الإسلامي الخاتم والناسخ لجميع الأديان السابقة ، وإيضاح محاسن الإسلام لهم ، وبيان ما هم عليه من باطل، واستنقاذهم من ظلمات الشرك والجهل ، هذا الهدف من أعظم ما يدعو إليه الإسلام، وبالتالي فهذا النوع من الحوار ، هو أول الغايات المطلوبة شرعاً ، قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).

- المنهجية العلمية :

سلوك الطرق العلمية والتزامها ، ومن أهم سبلها تقديم الأدلة المُثبتة أو المرجِّحة للدعوى ، وصحة تقديم النقل في الأمور المنقولة ، وفق القاعدة المعروفة : " إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإن كنت مدَّعياً فالدليل "(٢) ، وفي التنزيل جاء قوله سبحانه : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وفي أكثر من سورة :البقرة :١١١ ، والنمل ٦٤ . ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ (الأنبياء: ٢٤) . ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ

(١) انظر : دعوة التقريب لأحمد القاضي (١/ ٣٤١) .

(٢) انظر : ضوابط المعرفة ، عبد الرحمن الميداني ، دار القلم ، دمشق ، ط٢، ١٤٠٨هـ ، ص ٣٦٥ .

صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ٩٣) .

ثم التأكد من سلامة كلام المناظر ودليله من التناقض ؛ فالمتناقض ساقط بداهة ، ومن أمثلة ذلك وصف فرعون لموسى عليه السلام بقوله : ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (الذاريات: ٣٩) ، وهو وصف قاله الكفار - لكثير من الأنبياء بما فيهم كفار الجاهلية - لنبينا محمد ﷺ . وهذان الوصفان السحر والجنون لا يجتمعان ، لأن الشأن في الساحر العقل والفطنة والذكاء ، أما المجنون فلا عقل معه البتة ، وهذا منهم تهافت وتناقض بيّن ، كما نعت كفار قريش آيات محمد ﷺ أنها سحر مستمر ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (القمر: ٢)، وهو تناقض ؛ فالسحرَ لا يكون مستَمراً، والمستمر لَا يكون سَحراً .

وللمنهجية العلمية سبلها المتعارف عليها ، وفي مقدمتها : تقديم الأدلة المثبتة للدعوى ، وإثبات صحة المنقول من الحجج والأقوال .

ومن المنهجية أن لا يكون الدليل هو عين الدعوى ، لأنه إذا كان كذلك لم يكن دليلاً ، ولكنه إعادة للدعوى بألفاظ وصيغ أخرى . وعند بعض المُحاورين من البراعة في تجميل الألفاظ وزخرفتها ما يوهم بأنه يُورد دليلاً . وواقع الحال أنه إعادة للدعوى بلفظ مُغاير ، وهذا تحايل في أصول لإطالة النقاش من غير فائدة .

ومن ضمانات المنهجية في الحوار الاتفاق على منطلقات ثابتة وقضايا مُسَلَّمة . وهذه المُسَلَّمات والثوابت قد يكون مرجعها ؛ أنها عقلية بحتة لا تقبل النقاش عند العقلاء المتجردين ؛ كحُسْنِ الصدق ، وقُبحِ الكذب ، وشُكر



المُحسن ، ومعاقبة المُذنب ، أو تكون مُسَلَّمات دينية لا يختلف عليها المعتنقون لهذه الديانة أو تلك ، وبالوقوف عند الثوابت والمُسَلَّمات ، والانطلاق منها يتحدد مُريد الحق ممن لا يريد إلا المراء والجدل ، ففي الإسلام الإيمان بربوبية الله وعبوديَّته ، واتِّصافه بصفات الكمال ، وتنزيهه عن صفات النقص ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم كلام الله ، والحكم بما أنزل الله، وتعدد الزوجات ، وحرمة الربا ، والخمر ، والزنا ؛ كل هذه قضايا مقطوع بها لدى المسلمين ،وإثباتها شرعاً أمر مسلم به . وإذا كان الأمر كذلك؛ فلا يجوز أن تكون هذه محل حوار أو نقاش مع مؤمن بالإسلام لأنها محسومة ، كما سبق البيان في الحديث عن الثوابت الشرعية .

ومن أسس المنهجية ؛ التركيز على الأفكار ، فهدف الحوار هو الاستفادة من الأفكار وليس تدمير الأشخاص ، ولذلك ؛ فإن من أهم ضوابط الحوار: التركيز على فض الاشتباكات الفكرية دون التعرض السلبي للأشخاص بتشويه أو تجهيل ، فلا خلاف مطلقاً بين أشخاص المتحاورين ، وإنما بين أفكارهم ، والفكرة الحسنة تُمْتدح بغض النظر عن قائلها ، والفكرة الخطأ تُرَاجع دون تسفيه قائلها أو التهكم منه ، فالنظر دائماً إلى الآخر من خلال ما قيل ، لا من قال[١] .

ولا شك أن التحاور ضمن هذا المبدأ، أي مبدأ افتراض المخالفة هو المدخل الذي يضع الآخر في أول الطريق الصحيح للتفكير ، لأنه يرى أن من يحاوره يضع نفسه معه في موضع المجادلة المشتركة لمعرفة الحق ؛ قال تعالى على لسان نبيه ﷺ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ : ٢٤) .. هكذا في

(١) مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ – ١٩٧٣م ٣ / , ٥٤٥



هدوء من يبتغي للآخر الإرشاد والإفهام، وليس الإفحام والإذلال، وفي ثقة من أخلص للحق المجرد فصح انقياده له ، ولم يهتم بمن قاله من البشر ، وإنما كان جُل اهتمامه بالقول في ذاته وتمييز الحسن منه والأحسن، ثم اتباع الأحسن ، فكان من أصحاب البشرى بالنجاح وتحقيق الأهداف في الدنيا ، والنعيم في الآخرة ؛ قال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (الزمر : ١٧ - ١٨) .

وعلى المحاور تجنب التفكير السطحي الذي لا يغوص إلى أعماق المشكلات، ولا يدرك أثر العلاقات ببعضها، ولا يستوعب تأثير المتغيرات، بل يتوقف عند الأسباب الظاهرة للمشكلة، التي غالبًا ما تكون أعراضًا للمشكلات وليست جواهرها. وهو يغيب العقل، ويهمل العلم، ويغفل العمل، ويجافي سنن الله في الآفاق والأنفس. ومن سماته التفكير السطحي؛ إرجاع المشكلات والظواهر إلى عامل واحد، مع إغفال أن تعقيد المشكلات لا يستوعبه سبب واحد، وفيه قدر من التبسيط يتنافى مع عمق التجارب الإنسانية(١).

كما تقتضي المنهجية العلمية ؛ عدم تغليب دوافع الذات وعواطفها وانحيازاتها الفكرية والاجتماعية على العناصر الحقيقية والعلمية للموضوع بحيث لا يتحدد الموقف بشكل تعسفي وعلى غير ما يجب أن يكون من صدق وأمانة وإخلاص وتوازن(٢) .

(١) انظر : "الحوار : أصوله المنهجية وآدابه السلوكية" ،أحمد عبد الرحمن الصويان ،دار الوطن للنشر ،الرياض ،ط ١، ١٤١٣هـ ، ص ,١٢

(٢) انظر علي القرشي التربية الحوارية: دراسة في إشكاليات الاختلاف والوحدة في الإطار الإسلامي.- المسلم المعاصر (بيروت).- ع٨٨ (١٩٩٧-١٩٩٨).- ص ٨٣-١٠٦ .



والحوار الناجح يضبط العلمُ مساره ، وتوجه المنهجية الموضوعية المرتكزة على العلم موقف كل طرف فيه تجاه الآخر ، فلا يستقيم حوار بدون العلم ، بل في غيابه يصبح ضرر الحوار أكثر من نفعه ، لأن جهود المتحاورين في هذه الحال تذهب سدى وتضيع بلا ثمرة تذكر .. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " وأكثر ما يكون ذلك لوقوع المنازعة في الشيء قبل إحكامه وجمع حواشيه وأطرافه "[(١)] .

ولقد عاب الله – جل وعلا – على أهل الكتاب المحاجة فيما لا علم لهم به فقال : ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران :٦٦).

وأما العدل فهو الطريق إلى اعتدال أخلاق المتحاورين بين طرفي الإفراط والتفريط، وهو الحامل لهم على قبول الحق من الخصم . ويستتبع ذلك التهيؤ للتفاكر والاخلاص ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦).

والموضوعية من أسس بناء أي حوار هادف ، ومن موضوعية الحوار في الإسلام أنه بيان للحق ودعوة إليه ، و ليس اتباعاً للهوى وتحقيقاً لما يتوهم من مغالبة وادعاء نصر على الخصم، ومن تتبع الحوار في القرآن الكريم وجدكيف تكون الحجة وكيف يقوم الدليل في القضية التي يراد إبلاغها .

وعلى كل من يحاور في قضية معينة أن يتوخى الموضوعية قدر الإمكان، فيتحرر من أي أحكام منحازة تجاه الموضوع المطروح للنقاش. كما تفرض

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ، ابن تيمية ، دار ابن حزم، بيروت ط ١، ١٩٨٣م ، ص٤٣ .



الموضوعية ترك التعصب ، والتحرر من " ثقافة الاجترار "(١) ، ومن أسس الموضوعية في الحوار ؛ تحرير موضع النزاع وتعيين الموضوعات المعدة للتحاور ، ووحدة الأفكار وتسلسل الموضوع تسلسلاً ممنهجاً ، لا حيدة فيه ولا شطط ، ومن الموضوعية أيضا الشجاعة في الإعلان عن الاختلاف ، والنأي عن المواربة ، فبهذا الإعلان ستتقدم خطوات نحو الفهم المنشود للطرف الآخر. وليست المعضلة في وجود الاختلاف ، بل كيف نفهم اختلافنا ونتعايش معه ، غير أن هذا الرحابة في تفهم الاختلاف لا تعني قداسته ، بل لم يأت الحوار إلا لمناقشتها نقاشاً علمياً وموضوعياً ، وبالقياس فإن تقدم العلوم الطبيعية في العصر الحديث تولد من حوار صادق وموضوعي حول العلم ونظرياته .

ومن النصوص البليغة التي تعلمنا منهجية الحوار قول الربيع بن سليمان المرادي: "كان الشافعي إذا ناظره إنسان في مسألة ؛ فغدا إلى غيرها ، يقول : نفرغ من هذه المسألة ثم نصير إلى ما تريد "(٢).

- اعتماد الدليل والبرهان :

يقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥). والحكمة هنا : المقالة المحكمة الصحيحة، والحجج القطعية المفيدة لليقين، ولا يكون ذلك، إلا باعتماد القواعد العقلية

(١) الاختلاف لا يعني الخلاف، محمد المفتي ، مجلة المؤتمر، السنة الأولى، العددان (الثامن والتاسع) (سبتمبر، أكتوبر) ٢٠٠٢ م ، ص ٣٠-٤١ .
(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، بدر الدين بن جماعة ، دار الكتب العلمية ، ص ٤٠ .



المتفق عليها بين الناس، والشواهد الكونية العلمية المحسوسة(١).

ولذا فإن القرآن الكريم لما دعا الناس إلى التوحيد لجأ في دعوته إلى الحجج العقلية والدلائل العلمية ، يقول تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ . لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢ - ٢٣) ، ففي الآية دليل على برهان التمانع العقلي الذي يحتج به علماء العقائد، وذلك أنا لو فرضنا إلهين، فأراد أحدهما شيئا وأراد الآخر نقيضه، فإما أن تنفذ إرادة كل منهما، وذلك محال لاستحالة الجمع بين النقيضين في الزمان والمكان الواحد، وهذه قاعدة عقلية متفق عليها، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر فيكون الأول الذي تنفذ إرادته هو الإله، والثاني عاجز فلا يصلح أن يكون إلهاً. فالله تعالى جمع في هذه الآية بين البرهان العقلي المتفق عليه والبرهان العلمي المشاهد، فهو يخاطب المشركين : أتستطيع آلهتكم إحياء الموتى؟! وهو استفهام إنكاري ، ثم انظروا إلى الكون هل ترون فيه اختلافاً ، أو فسادا في نظامه؟! وتفكروا في ملكوت الأرض. ألا يدلكم ذلك على وحدانية الله تعالى(٢).

ولذا أكثر القرآن الكريم من دعوة الناس للتدبر في كتاب الكون المنظور، كما يتدبرون كتاب الله المسطور قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، الزمخشري ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ٣/ ٤١٣ . و فتح القدير ، لمحمد الشوكاني ، دار الفكر ،بيروت ، ١٤٠١هـ ٤/ ٢٧٦ .

(٢) انظر : روح المعاني ، محمود الألوسي ، دار الفكر ، بيروت ١٢/ ٣٥٠ . ونظم الدرر البقاعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م ٥/ ٢٩٤ .



وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البَقرة : ١٦٤) .

بل دعاهم إلى الاستفادة من الدروس التاريخية للاعتبار بعاقبة الظلمة والمتكبرين، يقول تعالى :﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: ٩) ، وضرب لهم أمثلة عملية من أصحاب السلطة كفرعون والنمرود وغيرهما، ومن أصحاب المال والجاه كقارون والوليد بن المغيرة وغيرهما حتى تكون هذه الدروس عظة وعبرة.

- حوار الأديان لا وحدة الأديان :

مقصود الحوار في الإسلام مع الآخرين إنما هو للتعريف بالإسلام وإيجاد مساحة يستطيع الجميع في ضوئها التعامل والتفاهم مع المخالفين ، وليس المقصود من الحوار من أجل أن ننشئ ديناً جديداً كما يحاول البوذيون واليهود والنصارى وغيرهم ، فلا دين حق إلا الإسلام ، و في ذلك يقول الله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥) ، لكن إذا كان الحوار دعوة إلى دين الله وبياناً لرسالته الخالدة الخاتمة ، وحتى تتفق الشعوب وتتفق الأمم على ما كان من دين الله قبل الخلاف وعلى الأصول الواحدة من الإيمان بالله الواحد والإيمان



باليوم الآخر والإيمان بالرسل وبالكتب السماوية ككل في ظل قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...﴾ (الشورى: ١٣) ، وكان الحوار كذلك حتى يكون بين المسلمين وغيرهم مساحة من الفهم والتعاون على البر والعدل ، فلا مانع في ذلك ، أما أن يكون سبيلاً للتمييع أو للهيمنة والتسلط فلا .

وفيما يخص دعوى "وحدة الأديان" ، فقد استعرضت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة ما ورد إليها من تساؤلات، وما ينشر في وسائل الإعلام من آراء ومقالات بشأن الدعوة إلى (وحدة الأديان): دين الإسلام، ودين اليهود، ودين النصارى، وما تفرع عن ذلك من دعوة إلى بناء: مسجد وكنيسة ومعبد في محيط واحد، في رحاب الجامعات والمطارات والساحات العامة، ودعوة إلى طباعة القرآن الكريم والتوراة والإنجيل في غلاف واحد، إلى غير ذلك من آثار هذه الدعوة، وما يعقد لها من مؤتمرات وندوات وجمعيات في الشرق والغرب، وقررت اللجنة أن من أصول الاعتقاد في الإسلام، المعلومة من الدين بالضرورة، التي الاعتقاد في الإسلام، المعلومة من الدين بالضرورة، التي أجمع عليها المسلمون: أنه لا يوجد على وجه الأرض دين حق سوى دين الإسلام، وأنه خاتمة الأديان، وناسخ لجميع ما قبله من الأديان والملل والشرائع، فلم يبقَ على وجه الأرض دين يُتعبد الله به سوى الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥) ، والإسلام بعد بعثة محمد ?هو ما جاء به دون ما سواه من الأديان. وأن من أصول



الاعتقاد في الإسلام أن كتاب الله تعالى : (القرآن الكريم) هو آخر كتب الله نزولاً وعهداً برب العالمين، وأنه ناسخ لكل كتاب أنزل من قبل من التوراة والزبور والإنجيل وغيرها، ومهيمن عليها، فلم يبق كتاب منزل يُتعبد الله به سوى: (القرآن الكريم) قال الله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٤٨) ، ويجب الإيمان بأن (التوراة والإنجيل) قد نُسخا بالقرآن الكريم، وأنه قد لحقهما التحريف والتبديل بالزيادة والنقصان كما جاء بيان ذلك في آيات من كتاب الله الكريم منها قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ﴾ (المائدة: ١٣) ، ولهذا فما كان منها صحيحاً فهو منسوخ بالإسلام، وما سوى ذلك فهو محرف أو مبدل ، ومن أصول الاعتقاد في الإسلام: أن نبينا ورسولنا محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (الأحزاب: ٤٠).

ومن أصول الإسلام أنه يجب اعتقاد كفر كل من لم يدخل في الإسلام من اليهود والنصارى ، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٦) ، وأمام هذه الأصول الاعتقادية والحقائق الشرعية؛ تقرر اللجنة أن الدعوة إلى: " وحدة الأديان " والتقارب بينها وصهرها في قالب واحد دعوة خبيثة ماكرة، والغرض منها خلط الحق بالباطل، وهدم الإسلام وتقويض دعائمه . فلا



يجوز لمسلم يؤمن بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، الدعوة إلى هذه الفكرة الآثمة، والتشجيع عليها، وتسليكها بين المسلمين، فضلاً عن الاستجابة لها، والدخول في مؤتمراتها وندواتها، والانتماء إلى محافلها.

ثم بينت اللجنة – أثابها الله – وجوب الحوار مع أتباع تلك الأديان بقولها: "يجب أن يعلم أن دعوة الكفار بعامة وأهل الكتاب بخاصة إلى الإسلام واجبة على المسلمين بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة؛ ولكن ذلك لا يكون إلا بطريق البيان والمجادلة بالتي هي أحسن، وعدم التنازل عن شيء من شرائع الإسلام؛ وذلك للوصول إلى قناعتهم بالإسلام ودخولهم فيه، أو إقامة الحجة عليهم ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤) ، أما مجادلتَهم واللقاء معهم ومحاورتهم لأجل النزول عند رغباتهم، وتحقيق أهدافهم، ونقض عُرَى الإسلام ومعاقد الإيمان؛ فهذا باطل يأباه الله ورسوله والمؤمنون؛ والله المستعان على ما يصفون(١).

ومن يتتبع تاريخ هذه الدعوى الباطلة ؛يجدها قد نشأت في أحضان التنصير، والصهيونية العالمية (٢) ، كما كان للبهائية مشاركة في إيجاد دين يوافق عليه الجميع!(٣) ، ولها جذورها عند بعض رؤوس الفرق الضالة ، وقد

---

(١) انظر : فتاوى اللجنة الدائمة ، فتوى رقم ١٩٤٠٢ .

(٢) انظر الاتجاهات الوطنية ، محمد محمد حسين، مكتبة الآداب،القاهرة، ١٩٦٢م ٢/ ٣١٨ – ٣٢٠ ، والإسلام والأديان لمحمد عوض ص ٣٥ .

(٣) انظر الاتجاهات الوطنية ، محمد محمد حسين ٢/ ٣٢١ .



أشار إلى ذلك ابن تيمية – رحمه الله – في أكثر من موضع في كتبه، فمن ذلك قوله: " يجعلون أفضل الخلق " المحقق " عندهم، وهو القائل بالوحدة، وإذا وصل إلى هذا فلا يضره عندهم أن يكون يهودياً أو نصرانياً، بل كان ابن سبعين وابن هود والتلمساني وغيرهم يسوغون للرجل أن يتمسك باليهودية والنصرانية كما يتمسك بالإسلام، ويجعلون هذه طرقاً إلى الله بمنزلة مذاهب المسلمين "(١) .

وتتضمن دعوة وحده الأديان تجويزاً وتسويغاً لاتباع غير دين الإسلام، وهذا كفر يناقض الإيمان، فمن اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر ، يقول ابن تيمية: " ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أن من سوغ اتباع غير دين الإسلام، أو اتباع شريعة غير شريعة محمد ﷺ فهو كافر، وهو ككفر مَن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض الكتاب "(٢) .

- التكافؤ في فرصة الحوار :

فلا يُشعر طرف بالقهر أو الضعف، إذ إنه لو كان الحوار بين قوي وضعيف، أو غالب ومغلوب، أو مستعمر ومستعمَر، أو قاهر ومقهور.. الخ، فإنه لن يكون هناك حوار، وإنما سيكونَ هناك إملاء من طرف والقبول أو الاستسلام من الطرف أو الأطراف الأخرى .

---

(١) الصفدية ١/ ٢٦٨ ، وانظر : الصفدية ١/ ٩٨ ، ٩٩ ، والرد على المنطقيين ص ٢٨٢ ومجموع الفتاوى ١٤/ ١٦٥ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٢٤ ،وانظر مختصر الفتاوى المصرية ص ٥٠٧ .



ويكفي المرء أن يراجع مواقف القوى العالمية الكبرى، منذ الحرب العالمية الثانية، تجاه قضايا العالم الثالث على العموم، والبلاد الإسلامية على الخصوص، حتى يتجلى له انطباق هذه الحقيقة على الضعفاء، وكم ضاعت حقوق في مؤتمرات عقدت للحوار حول قضايا محددة ؟ ، فالحوار الذي لا يقوم بين أطراف متكافئة لا تكون نتائجه عادلة، ولذلك أكدت شريعة الإسلام على العدل المطلق بين الصديق والعدو، مع القريب والغريب، وتكفي الإشارة هنا إلى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨) .

- البعد عن التسرع في إصدار الأحكام:

إذ إن التسرع في إصدار الأحكام دون روية، مع عدم وضوح الرؤية، يوقع في أغاليط وأخطاء. ويدفع التسرع عادة إلى: الغرور والاعتداد بسرعة البديهة والكسل الذهني وعدم الرغبة في إجهاد الفكر للتعرف على الحق والانفعال النفسي .

واشتد نكير القرآن على المسارعين إلى إصدار الأحكام وإشاعتها، دون السماح لها بالمرور بمنطقة الفهم والتبصر، قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥)، ويتهدد القرآن الفاعلين لذلك بالعقوبة الإلهية، لما يترتب على هذا الأسلوب في الحكم من أخطاء، ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (النور: ١٧).



- حسن الاستعداد :

إن الحوار يجب أن يكون هو الخطوة التمهيدية الأولى في طريق التفاهم المتبادل ، ولذلك فإنه من الضروري أن يتعرف المتحاورون قبل التحاور على الأهداف العملية للحوار ، ويتبينوا ما هي الدوّامات الفكرية الطارئة والمنعطفات النظرية العارضة التي قد تلفتنا عن أهداف الحوار لتنحرف بالحوار إلى غير المنشود ، ومن حسن الاستعداد ؛ العلم الركين بموضوعات الحوار؛ وبخاصة إذا كان حواراً في دين الله ومحاجة بقوله تعالى وبقول رسوله ﷺ، وأن تكون المصطلحات متحدة في مفهومها ، مع اختيار الزمان والمكان المناسبين ، وتعيين الوقت الكافي للتحاور حول كل جوانبه ، وأن تعرض الخلاصة والصياغة النهائية للتحاور قبل اعتمادها(١).

ويتصل بحسن الاستعداد ، أهلية المحاور ؛ فإذا كان من الحق ألا يمنع صاحب الحق عن حقه ، فمن الحق ألا يعطى هذا الحق لمن لا يستحقه ، كما أن من الحكمة والعقل والأدب في المرء ألا يعترض على ما ليس له أهلاً ، ولا يدخل فيما ليس هو فيه كفؤٌ ، ومن الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يعرف الحق ، أو من لا يجيد الدفاع عن الحق ، ومن لا يدرك مسالك الباطل ، ذلك أن الجاهل بالشيء ليس كفؤاً للعالم به ، ومن لا يعلم لا يجوز أن يجادل من يعلم ، وقد قرر هذه الحقيقة إبراهيم – عليه السلام – في محاجَّته لأبيه حين قال :﴿يَا أَبَت إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ (مريم: ٤٣) ، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة ، فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل " (٢).

(١) انظر : حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، سعد الصيني ، ص ٢٥ – ٢٦ .
(٢) درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام ، الرياض ٧/ ١٧٣ .



- البلاغة والإيجاز:

الحوار الناجح هو حوار يخلو من الإطالة الزائدة عن الحد ، التي تُحَوّل الحوار إلى خطبة يتشدق فيها كل طرف من أطراف الحوار ويتفاصح بكثرة الكلام ، بل وغرابته أحياناً !! ، قال رسول الله ﷺ: ((إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضَكم إلي وأبعدَكم مني يوم القيامة الثرثارون ، والمتشَدِّقُون والمتفيهقون))، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: ((المتكبرون)) .

قال الحافظ المنذري : الثرثار بثاءين مثلثتين مفتوحتين هو الكثير الكلام تكلفاً ، والمتشدق هو المتكلم بملء شدقيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه ، والمتفيهق أصله من الفهق، وهو الامتلاء، وهو بمعنى المتشدق لأنه الذي يملأ فاه بالكلام ويتوسع فيه إظهاراً لفصاحته وفضله واستعلاء على غيره ، ولهذا فسره النبي ﷺ بالمتكبر "(١).

كما أن الإطالة والتكرار والإسهاب وهو ما يطلق عليه الحجة الأفقية لا ينتج عنه إلا دفن الفكرة الرئيسة للحوار وسط هذا الكم الكبير من الكلام ، ومن ثم عدم قدرة الآخر على اكتشاف ما نقصد فضلاً عن فهمه وتدبره ؟ !

وإذن : فالمحاور العاقل هو من يحاول الوصول إلى هدف الحوار من

(١) انظر: غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي ، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م ٢ / ٧٥ . وانظر : سنن الترمذي، الحافظ محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر، نشر(دار إحياء التراث العربي، بيروت ، حديث رقم (٢٠١٨) .

أقرب طريق ، ولا يضيع وقته ووقت الآخر في تكرار الكلام والإسهاب في المقدمات التي لا فائدة فيها ، بل يقتصر في الألفاظ والكلمات على قدر الحاجة، ويوضح فكرته بأقرب عبارة وأوجز لفظ ، وهو ما نطلق عليه الحجة الرأسية حيث يذكر المحاور فكرته الرئيسة ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى تدعيمها بالأدلة ، في إجمال غير مخل ، وتفصيل غير ممل .

إن من فقه الحوار التحرز عن إطالة الكلام في غير فائدة ، وعن اختصاره اختصاراً يخل بفهم المقصود منه[1]، وأن يحققا التوازن الدقيق بين جفاف الحوار بسبب قلة الأدلة أو غموضها ، وبين غرق الحوار بسبب الإسهاب والتكرار غير المفيد.

وإن من المهم جداً أن تكون لغة التحاور واضحة. فوجود أي غبش في لغة الحوار سيعوق الرسالة التي يراد نقلها. ومن هنا فلابد أن تستخدم مصطلحات واضحة ومتفق عليها ، وأن يكون المترجمون – حال وجودهم – على درجة مكينة من اللغة التي يتحدث بها المحاور . ولعل من المستحسن الاتفاق على مسرد بالمصطلحات المستخدمة في لغة الحوار، والتنبه إلى كل لفظة موهمة بالشرح والبيان .

وفي هذا السياق لابد من مراعاة متغيرات العصر، فآليات وأدوات الحوار لم تعد هي الصورة السابقة التي يلتقي بها أشخاص مقابل أشخاص بأجسادهم، فيتحاورون أو يختلفون، فوسائل العصر الحديث كالإعلام بصوره المتعددة وتكنولوجيا الاتصالات المختلفة كالانترنت والأقمار

---

(١) الشنقيطي : آداب البحث والمناظرة ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ص ٩١ وما بعدها .

الاصطناعية وخلافه فرضت صورة أخرى من عمليات التحاور التي لا تتطلب في كثير من الأحيان الوجود الجسدي وهو بالمقابل يتطلب معه أن يتم ابتداء تفهم تلك التغيرات ومراعاة إمكانية تطوير وسائلنا الحوارية .

- القبول بسنة الاختلاف :

يجب أن ينطلق الحوار من رؤية تحمل في طياتها جملة من العناصر ، أهمها القبول الواعي بسنة الاختلاف بين البشر ، ووجود التنوع والتغاير بين الملل، والوعي الشامل بأهمية التفاهم والعيش المشترك بين الناس.

ولقد اعترف تاريخ الإسلام وحضارته بواقع الأديان واللغات والقوميات، وعامل المسلمون أهل الملل الأخرى معاملة كريمة بلا خداع ولا ظلم ولا تعسف... وقد عاش في المجتمع المسلم: اليهودي والنصراني والمجوسي وغيرهم في داخل الدولة الإسلامية، ذلك أن الأصل في علاقة الشعوب والدول على هذه الأرض أن يعيشوا بتفاهم وتعاون من أجل خير الجميع، يأخذ بعضهم من بعض، وليس لأحد أن يفرض على أحد لغته أو دينه أو ثقافته أو مبادئه أو موازينه بالقوة، فهذا النوع من الاختلاف سنة كونية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨) ، فأخبر سبحانه أنهم لا يزالون مختلفين أبدا، مع أنه قد خلقهم للاختلاف ، وقال الإمام مالك : خلقهم ليكونوا فريقاً في الجنة،

(١) انظر : تفسير النكت والعيون ، لأبي الحسن لماوردي ، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) ، ٢/ ٢٣٤ ، وتفسير معالم التنزيل ، لأبي محمد الحسين البغوي تحقيق محمد عبد الله النمر وزميليه ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، : ط٤ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ، ٤/ ١١٠ .



وفريقاً في السعير ، فالضمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾ عائد على الناس، فلا يمكن أن يقع منهم إلا ما هو سابق في العلم، وليس المراد ـ هنا ـ الاختلاف في الصور والألوان والأشكال، إنما المراد الاختــــلاف في الآراء والنحل والأديان والمعتقدات المتعلقة بما يسعد الإنسان به أو يشقى في الدنيا والآخرة(١).

ومن ثم يرشد الإسلام المسلمين إلى أن الحوار طبيعة إنسانية، كما أنه ضرورة دينية، فقد كان مهمة الرسل جميعاً - صلوات الله - تعالى - وسلامه عليهم - وهو واجب على أتباع محمد ﷺ، مصداق قول الله - عز وجل -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨)، فالمسلم منفتح على الحوار مع غيره من الأفراد والثقافات، ولكنه في ذات الوقت له ثوابته التي يتمسك بها، ومنطلقاته التي يصدر عنها: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وقد كثر في الكتاب العزيز محاورة أهل الكتاب خاصة(١) ، ومجادلتهم ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران: ٦٥)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (آل عمران: ٧٠) ،

(١) انظر : الحوار مع أهل الكتاب : أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة، خالد بن عبدالله القاسم ،دار المسلم ،الرياض ،ط ١، ١٤١٤هـ ، ص ١٠٨ .



وقوله سبحانه : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ (النساء: ١٧١)، وقوله جل وعلا : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٥٩)، وقوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٨)، وقوله سبحانه : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٧٧) ، ثم قوله تعالى مرشداً المسلمين لخير السبل في مجادلة أهل الكتاب : ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦) ، وموجهاً لاعتماد الدليل والبرهان على المقولات : ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

كما أن الثقافة الإسلامية تؤمن بوجود مصطلحات متقابلة مثل: الإيمان والكفر، والهدى والضلال، والدنيا والآخرة، والجنة والنار، والعدل والظلم، والحق والباطل... الخ وهذه المصطلحات المتقابلة تقسم الفكر والثقافة بين المسلمين وغير المسلمين.



والإسلام يؤمن بأن كل ثقافة تطرح نفسها بواسطة مفاهيمها ومصطلحاتها، وبالتالي فإن الحوار بين ثقافتين أو أكثر يقتضي الاتفاق على مضامين ومعاني المفاهيم والمصطلحات، وتحديد المرجعية التي يرجع إليها عند الاختلاف في المعنى أو المضمون...

وبمجمل من القول؛ فإن تعدد الشرائع سنة من سنن الله ، ولابد أن يستحضر المحاور في ذهنه أمراً مهماَ وهو أن وجود المخالفين للدين الإسلامي أمر طبيعي ، و لو شاء الله لجعل الناس كلهم أمة واحدة، ولو شاء لأخذ بأيديهم كلهم إلى الهداية ، و لكنه أوضح الملل والشرائع و بينها ثم ترك الأمر إلى الناس يختارون ما شاءوا ثم يكون الحساب في الآخرة .

ومن منطلق سنة الاختلاف وحق السيادة وتقرير المصير، فجدير بالمحاور المسلم أن يجتهد في إيضاح القضايا التي تعاني منها أمة الإسلام من أجل الوصول إلى ما ينشده الحوار من التعايش وسيادة السلم والاستقرار ، ولن يفلح أي حوار ولغة التسلط والهيمنة هي السائدة بين أطرف الحوار(١).

وهذا يستدعي من المحاور الجمع بين التأصيل الشرعي والفقه بالواقع من معرفة بالنظم والمعاهدات والعلاقات الدولية، وهي مسألة مرتبطة بجوانب شرعية ودستورية وقانونية تتطلب أن يتم التعامل معها بعناية لتحقيق مقاصد الشرع والوصول الى الحوار بأفضل صورة .

وقد بهر الإسلام المستشرقين بقيمه العادلة المتسامحة مع مخالفيه حتى قال

---

(١) المسلمون والأوروبيون (نحو أسلوب أفضل للتعايش) ،سامي الخزندار ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، ط (١) ١٩٩٧ م، ص ٥٩ .



المستشرق الألماني آدم متز : " إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا، التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى، وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين، وأولئك هم " أهل الذمة " ، الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلاً بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية. وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة، واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود، وما منحوه من حقوق، فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين، وقد حرص اليهود والنصارى على أن تظل دار الإسلام غير تامة التكوين، حتى أن المسلمين ظلوا دائماً يشعرون أنهم أجانب منتصرون، لا أهل وطن، وحتى أن الفكرة الإقطاعية لم تمت، بل كان وجود النصارى بين المسلمين سبباً لظهور مباديء التسامح عند المسيحيين، التي ينادي بها المصلحون المحدثون، وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة، وما ينبغي أن يكون من وفاق، مما أوجد أول الأمر نوعاً من التسامح، الذي لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي : دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم " (١) .

- تجنب الهوى ونبذ التعصب:

الهوى هو أحد المزالق الخطيرة التي يمكن أن تؤثر على المتحاورين وتخرجهم عن طريق الخير، قال العليم الخبير لخاتم المرسلين ﷺ: ﴿فَإِن لَّمْ

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة: ، ١٩٩٤م ١/٧٥ .



يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠)، واتباع الهوى يؤدي إلى الفساد، قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٧١).

فصاحب الهوى لا يمكن أن يكون موضوعياً ولا منهجياً في حواره، لأنه يريد إخضاع كل شيء لهواه، فالنصوص عنده تابعة لا متبوعة، والأدلة خادمة لا مخدومة، والنتائج عنده سابقة على الحوار... فهو إذا قرأ وإذا درس وإذا حاور... لا يفعل ذلك للوصول إلى الحقيقة... وإنما يفعل ذلك بحثاً عما ينصر رأيه وهواه... ويعضد فكرته ويقويها... فإن وجد مبتغاه فرح وأقبل، وإن وجد خلاف ذلك غض الطرف وأعرض.

ومن وسائل الهوى وطرائقه التي تخفى ؛ الانتقائية. فكما أن الغلو في الانحياز الأعمى للأفكار التي يطرحها المتكلم غير مقبول؛ فإن انتقائية الكلام الذي يتوافق مع ما يحمله المرء من أفكار هو كذلك أمر مرفوض . فالإسلام يدعو إلى الحوار ، و لكن ليس كحوار أصحاب الأهواء ، والنظريات المسلمة عند أصحابها مقدما ، بل حوار يقوم على الحق والصدق ، و بلاغ ما أمر الله بتبليغه ، للحفاظ على الإنسان في عاجل أمره وآجله ، بمقومات موضوعية وأخلاقية تحفظ بها الحقوق والواجبات ، وتصان روابط الناس على أساس من الحق الذي شرعه الله والأمن الذي دعا إليه [١].

(١) انظر : أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الناشر : الندوة ،الرياض ،ط٢ ، ١٤٠٨هـ ، ص ٩ .



والتعصب ظاهرة قديمة، موجودة في مختلف المجتمعات البشرية، وفي مختلف مستوياتها، وهي ظاهرة تمثل انحرافًا مرضيًا، وهو ينشأ عن اعتقاد باطل أن المرء يحتكر الحق لنفسه. والمتعصب لا يفكر فيما يتعصب له، بل يقبله كما هو فحسب، لذا فلا يمكن لمتعصب أن يتواصل إلا مع من يردد نفس مقولاته. ومن سبل التعصب التي عابها القرآن الكريم ، تقليد الآباء ، والانصراف عن التعقل والتدبر ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠) ، وقال النبي ﷺ: ((ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك ودع أمر العوام)) (١)، لأن الكف عن محاورة هؤلاء حفظ للنفس عن الوقوع في حبائل من لا عهد لهم و لا ميثاق ، فهؤلاء يكتفى معهم بالبيان الذي جاء به القرآن بلاغاً للناس ، و إنذاراً للعالمين ، إذ " ينبغي أن يبنى الحوار على الاطمئنان والثقة بين الطرفين وإلا ضاع الاثنان في تلاعب الواحد بمقدرات الآخر " (٢) .

ونبذ التعصب يستوجب مهاداً عقلياً يبدي فيه كل طرف استعداده لقبول الحق ، والتنزل مع خصمه مهما كان اعتقاده متيناً أن الحق معه ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤) . ولا أدل من الأخذ بمبدأ الإذعان للحق من قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾

(١) سنن الترمذي ، حديث رقم (٣٠٥٨).

(٢) د. أمل المخزومي، "التعصب للرأي يهدر فرصة الاستفادة" ، د. عبدالله السعداوي، "حرية التعبير وواجب الإصغاء" ، منتديات الحوار الإلكتروني تحت المجهر، مجلة عربيات، www.arabiyat.com/magazine/publish/articale_641.shtml



(الزخرف :٨١)، ولكن ذلك مرتبط بالبرهان والدليل المطالبة بالدليل والاحتجاج للقول ، قال تعالى :﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة :١١١) ، وقال سبحانه : ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الصافات: ١٥٧).

ولا ووجه الحق ولا رد بمثل التعصب ، قال أبو حامد الغزالي : " التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس وهو من آفات علماء السوء؛ فإنهم يبالغون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة - لا في معرض التعصب والتحقير - لأنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا باستتباع، ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم، وسموه ذباً عن الدين ونضالاً عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس "(١).

- ترك المراء واللجاجة :

والمراء خلق مذموم، ينبغي للإنسان أن يتنزه عنه، وإذا اضطر إليه فيجب أن يكون بالتي هي أحسن : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...﴾ (النحل: ١٢٥) قال الرازي : ومن لطائف هذه الآية أنه قال : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين لأن الدعوة إذا كانت بالدلائل القطعية فهي الحكمة ، وإن كانت بالدلائل الظنية فهي الموعظة الحسنة ، أما الجدل فليس من باب

(١) إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١/ ٢٦ .



الدعوة ، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الإلزام والإفحام فلهذا السبب لم يقل " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن " ، بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيهاً على أنه لا يحصل الدعوة ، وإنما الغرض منه شيء آخر ، والله أعلم(١) .

ومعنى ذلك أن يتجنب الإنسان الجدال العقيم والفاحش والبذيء، وإذا أراد أن يجادل فلا بد أن يجادل بالحسنى، وإذا وجد أن النقاش يقود إلى طريق مسدود، فينبغي أن يتوقف عنه لأنه يصير عند ذلك عبثًا لا خير فيه، فكما قال ﷺ ((أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه))(٢) ، وقوله ﷺ ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)) (٣).

فرغم الاعتقاد بملكية الحق لا يكون إثباته عن طريق المراء والجدل العقيم ، وإنما عبر الطرق والمسارات الشرعية التي تصل بسالكها إلى بيان الحق ، وعدم الانتقال بأي حال من الأحوال من شواهد الأدلة إلى دوافع الآخر ، أو من إقامة الحجج للتدليل على صحة ما نراه ونعتقده إلى إثارة الجدل للتدليل على خطأ الآخر ، فيدور الحوار في حلقة مفرغة ، ويتفرع إلى مضايق متاهات تتمزق فيها الأفكار ويُقْتل التفكر والتدبر(٤).

---

(١) التفسير الكبير: فخر الدين الرازي: بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٤م، تفسير سورة النحل آية ١٢٥ .

(٢) حديث حسن (سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ، بيروت، ١٤٠٥هـ ، ١/ ,٥٥٢

(٣) رواه الترمذي حديث رقم ٣١٧٦ .

(٤) انظر : قواعد ومنطلقات في أصول الحوار ورد الشبهات ،د. عبد الله بن ضيف الله الرحيلي ،دار المسلم ،الرياض ،ط ١، ١٤١٤هـ .



ثانياً : آداب الحـــوار

- الصدق والإخلاص :

ويكون بالتجرد في طلب الحق من كل غرض دنيوي ، فلا سمعة ولا جاه ولا مال، بل دعوة لله وإخلاص النية له ، وإفراغ القلب من كل ما يشوب صفاء القصد التعبدي للمولى وحده ، إذ " لابد من حسن النية ؛ فلو تكلم بحق لقصد العلو في الأرض أو الفساد كان بمنزلة الذي يقاتل حمية ورياء ، وإن تكلم لأجل الله تعالى مخلصاً له الدين كان من المجاهدين في سبيل الله ومن ورثة الأنبياء خلفاء الرسل "[(١)] ، وعلى المُحاور أن يوطِّن نفسه ، ويُروِّضها على الإخلاص لله في كل ما يأتي وما يذر في ميدان الحوار وحلبته، ومن ذلك أن يدفع عن نفسه حب الظهور والتميُّز على الأقران ، وإظهار البراعة وعمق الثقافة ، والتعالي على النظراء والأنداد . وإن قَصْدَ انتزاع الإعجاب والثناء واستجلاب المديح ابتداء وانتهاء ، مُفسد للنية وللعمل ، وصارف عن الغاية .

ومن الصدق التمسك بحقائق الدين ، والصدع بها ، قولاً بالحق واحتراما للطرف المحاور ، ومما جاء في الكتاب الصادر عن الفاتيكان عام ١٩٦٩ م : " هناك موقفان لا بد منهما أثناء الحوار ؛ الأول : أن نكون صرحاء ، وأن نؤكد مسيحيتنا وفقاً لمطلب الكنيسة ، والثاني سيفقد الحوار كل معناه إذا قام المسيحي بإخفاء أو بتقليل قيمة معتقداته التي تختلف مع القرآن[(٢)] " .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، تحقيق : عبد الرحمن بن قاسم ، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين ، مكة المكرمة ٢٨/ ٢٣٥ .

(٢) التعايش السلمي ،هيوكتسكل ،نقله إلى العربية : المحامي جليل قسطو، دار النشر للجامعيين، بيروت ، ص ٣ .



- التسليم للحق والقبول به :

ومن الآداب أن لا يستنكف المتحاور من قبول الحق ولو جاء ممن هو دونه علماً أو سناً أو قدراً، ومن الرجوع للحق بعد أن يتبين له؛ وقد أرشد القرآن إلى أن ابن آدم الأول تعلم من غُراب: كيف يواري سوأة أخيه؟!، كما أن سليمان – عليه السلام – تعلم من الهدهد مالم يكن يعلمه: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل: ٢١).

وقد قال الفاروق عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – يرشد قاضيه: " ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل "[١] .

ولقد أثبتت التجارب أن التواضع فضيلة تهدي صاحبها للحق، وأما الكبر والغرور بالنفس والإعجاب بها، فيصد عن الحق البين الظاهر، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: ((الكبرُ بطر الحق وغمط الناس))[٢] ، وبطر الحق رده والإعراض عنه؛ كما أخبر الخالق – عز وجل – أن معصية إبليس كان الدافع إليها الكبر والغرور، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٤)، ولما سأله الله – عز وجل – عن السبب قال معجباً: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن قيم الجوزية ، طه عبد الرءوف سعد ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م ١/ ١١٠ .

(٢) صحيح مسلم ، لمسلم بن الحجاج القشيري ، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، كتاب الإيمان ، حديث رقم ٩١ .



من طين﴾ (الأعراف: ١٢). ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " لا يجوز لنا إذا قَال يَهُودِي أو نصراني قولا فيه حق أن نتركه أو نرده كله ، بل لا نرد إلا ما فيه الباطل دون ما فيه من الحق "(١)، ولا يكون الحوار مثمراً في مجال معرفة الحق إلا إذا كان قائماً على الأدلة والبراهين، ولقد علمنا الإسلام في مجال إحقاق الحق أن نتحاور مع الآخرين وفق قاعدة: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١) فالمحاور المسلم لا يصدر في نشدان الحق عن طلب المغالَبَة غروراً، أو الجدال بالباطل، كما أنه لا يقبل الدخول في الجدال المذموم عند إثارة أية فكرة أمامه، فذلك عبث وجهد ضائع، ويوجه الحوار إلى الفكرة التي تظهر الحق وتساعد على بناء حياة كريمة قائمة على مد الجسور بين البشر وصولاً إلى ما فيه الخير والنفع.

- تجنب اللدد ، والأخذ باللين :

اللدَد هو الشدة والعنف ومجاوزة حد الاعتدال، والانتقال من تأييد الرأي إلى التنديد، والتهكم والسخرية. وكثيراً ما يفضي الحوار إلى خصومات وعداوة ، ثم التنابز وتبادل الاتهام، وهي أمور أَنْسَت المتحاورين قضاياهم ، وشغلتهم بشخصياتهم، وكثيراً ما انتهت حوارات " داَخلية " إلى الرمي بالكفر أو الفسوق أو الإلحاد، وضياع الحق وطمس معالمه، وبقاء الناس في حيرتهم لا يعرفون الهدى، ولا يهتدون إلى الصواب. ومن هنا نفهم الحكمة البالغة في قول رسول الله ﷺ: ((إنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إلى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ))(٢) ، والأَلَدُّ: الخَصِمُ الجَدِلُ

(١) منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية ، جامعة الإمام ، الرياض ، ط٢، ١٤١١هـ ، ٢/ ٣٤٢ .
(٢) الجامع الصحيح ، للإمام البخاري ، تحقيق : حمد على القطب، المكتبة العصرية ، بيروت ١٤١١هـ ٣/ ١٣٦٨ .



الذي لا يزيغ إلى الحق ... الشديد الخصومة(١).

ومهما يكن من شيء ، فإن الحوار لون من ألوان الدعوة والبيان ، ومناقشة الأفكار ومحاولة راقية للفهم والمعرفة ، ومن ثم فهو جلسة علم وتعلم وليس جلسة تصارع وتنافر ، والقول اللين من لوازمه مهما كان حال الطرف المحاور ، قال تعالى لنبيه موسى – عليه السلام – وهو يرسله إلى مدعي الربوبية "فرعون" : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي .اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه : ٤٢- ٤٤).

كما أوصى الله – جل وعلا – بالختام الحسن مهما كانت النتائج ، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٥) ، فمع قبول رأي الآخر أو رفضه تبقى طهارة القلب وصفاء السريرة نحوه ، مع قبول معذرته والعفو عن خطئه إن وقع .

وقد ذُكر عن حاتم الأصم أنه قال : معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي ، قالوا : وما هي ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه ، فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله) فقال : سبحان الله ! ما كان أعقله من رجل(٢).

ذلك أن الإسلام لما شرع الحوار شدد على أن يكون رحمة ولينا، ومجادلة بالتي هي أحسن ، فقال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥) وقال الله عز وجل: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(العنكبوت:٤٦).

---

(١) لسان العرب (ل د د).

(٢) كتاب الفرق بين النصيحة والتعيير ، الحافظ بن رجب ، عمان ، دار عمر ، ١٤٠٦هـ ، ص ٤ .



والملاحظ أن القرآن الكريم لم يرتض لأتباعه المنهج الحسن في الحوار، بل المنهج الأحسن. يقول القشيري : "ينبغي أن يكون منك للخصم تبيين، وفي خطابك تليين، وفي قبول الحق إنصاف، واعتقاد النصرة ـ لما رآه صحيحا ـ بالحجة وترك الميل إلى الشيء بالهوى "(١) ، فـ ﴿التي هي أحسن﴾، أي : ألطف وأرفق، وهي مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، بأن تدعوه إلى الله برفق ولين، وتبين له الحجج والآيات من غير مغالبة ولا قهر(٢).

بل لقد حث القرآن الكريم المسلمين أن يكون هذا منهجهم في حوارهم وحديثهم كله مع الآخرين، يقول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾ (الإسراء:٥٣).

ومن لين الجانب ؛ التزام القول الحسن ، وتجنب منهج التحدي والإفحام ، قال تعالى : ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنَ﴾ (الإسراء :٥٣) ، وقال سبحانه : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ (البقرة: ٨٣) ، ومن لطائف التوجيهات الإلهية لنبينا محمد ﷺ في هذا الباب ، الانصراف عن التعنيف في الردّ على أهل الباطل ، حيث قال الله لنبيه : ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج : ٦٨-٦٩) ،

(١) انظر : لطائف الإشارات ، عبد الكريم القشيري ، تحقيق : إبراهيم بسيوني ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ٣/ ١١٤ .

(٢) انظر :: أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي سعيد عبد اللّه البيضاوي المتوفى ، دار الفكر بيروت ، ١٤١٦هـ ٤/ ٤٧٣ .



وألا يحرص المحاور "الداعية" على إحراج الخصم ، ولو كانت الحجة بينةً والدليل دامغاً ، فإن كسب القلوب مقدم على كسب المواقف . وقد تُفْحم الخصم ولكنك لا تقنعه ، وقد تُسْكته بحجة ولكنك لا تكسب تسليمه وإذعانه ، وأسلوب التحدي يمنع التَسليم ، ولو وُجدَت القناعة العقلية ، والحرص على القلوب واستلال السخائم أهم وأولى عند الداعية المسلم.

ومن أجل هذا فليحرص المحاور ؛ ألا يرفع صوته أكثر من الحاجة فهذا رعونة وإيذاء للمحاور ، ورفع الصوت لا يقوّي حجة ولا يجلب دليلاً ولا يقيم برهاناً ؛ بل إن صاحب الصوت العالي لم يَعْلُ صوته – في الغالب – إلا لضعف حجته وقلة بضاعته ، فيستر عجزه بالصراخ ويواري ضعفه بالعويل . وهدوء الصوت عنوان العقل والاتزان ، والفكر المنظم والنقد الموضوعي ، والثقة الواثقة.

ويستتبع هذا التعبير بلغة بسيطة غير ملتبسة ولا غامضة، والرفق في الكلام: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه:٤٤) ، والتأدب في الخطاب: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ (الأنعام: ١٥٢)، وطرح اللغو، واللغو فضل الكلام وما لا طائل تحته، فلا يخوض المحاور فيما لا يثري المحاورة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٣) ، والابتعاد عما لا يفيد في الحوار يحفظ هيبة المحاور، ويحفظ وقته، وأوقات الآخرين. وما تقدم لا يتعارض وحاجة المحاور إلى تغيير نبرات صوته حسب استدعاء المقام ونوع الأسلوب ، لينسجم الصوت مع المقام والأسلوب ، استفهامياً كان، أو تقريرياً أو إنكارياً أو تعجبياً ، أو غير ذلك . مما يدفع الملل والسآمة ، ويُعين على إيصال الفكرة ، ويجدد التنبيه لدى المشاركين والمتابعين .



ويشرع الحماس ورفع الصوت بالحجة مع بعض الحالات الاستثنائية التي يسوغ فيها اللجوء إلى الإفحام وإسكات الطرف الآخر ؛ وذلك فيما إذا استطال وتجاوز الحد ، وطغى وظلم وعادى الحق ، وكابر مكابرة بيِّنة ، وفي مثل هذا جاءت الآية الكريمة : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت: ٤٦) ، وقوله تعالى : ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾ (النساء: ١٤٨) ففي حالات الظلم والبغي والتجاوز ، قد يُسمح بالرد المفحم الحادّ المركز على الخصم وإحراجه ، وتسفيه رأيه ؛ لأنه يمثل تكبر الباطل ، وحَسَنٌ أن يرى الناس عاقبة التكبر هزيمة واندحاراً.

- حسن الاستماع:

الحوار هو فن السماع للآخر ، وعدم الطمع في الكلام بدلاً منه ، لأن هذا الطمع يزهدنا فيما يقوله مَن نتحاور معه ، ويحرمنا من تَدبّر قوله الذي لا يتحقق إلا بحسن الاستماع لهذا القول حتى آخره ، وحسن الاستماع يُشْعر المحاور باهتمامنا بما يقول ، وجديتنا في التحاور معه ، وانظر إلى أجواء الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وعتبة بن ربيعة واللغة السامية التي حفت حوارهما .

وحسن الاستماع يتضمن إعطاء المحاور الفرصة كاملة حتى يُتم كلامه ، مع استيضاح أي غموض فيما يعرضه من أفكار .. إن كل ذلك لا بد أن يكون هو السمة المميزة لكل حواراتنا ، فإذا تبين لنا خطأ الآخر ، فإن السماع الكامل له وعدم مقاطعته هو المقدمة الصحيحة لرجوعه عن الخطأ مهما كان عناده وغلظته ؛ فإن أشد الناس جفافاً في الطبع وغلظة في القول لا يملك إلا أن يلين وأن يتأثر



إزاء مستمع صبور عطوف يلوذ بالصمت إذا أخذ محدثه الغضب[1] .

- الانفتاح على الآخر

عندما تسود العلاقات الصراعية مع المختلفين فكريًا ومذهبيًا، ينزع كل طرف إلى التخندق وعدم معرفة الآخر ومصادره الفكرية ومنهج بناء الرؤى عنده؛ مما يؤدي بالحوار إلى عمليات مزاجية أقرب إلى السجالات الانطباعية منها إلى الحوار الجدي والعميق. فكل طرف يختزل الآخر إلى مجموعة أو حزمة من المقولات العامة السطحية -البالغة العمومية-، ويصبح بعد ذلك هذا الطرف أسيراً لتلك المقولات في معرفة الآخر، بل وفي نزاعه معه.

في ضوء آلية التعميم والتجزئة وانتشارها وإعادة إنتاجها، يرى كل طرف الآخر عبر تلك الصور النمطية، ومن ثم يصبح المجال الفكري أقرب إلى الاجترار منه إلى التكرار؛ مما يكرس منهج الحلقات المغلقة في تكرار الحُجَّة ونقيضها، وتصور مقولات الطرف الآخر، فغالبًا ما يقوم كل فريق بالرد على ما يتصوره حججًا للطرف الآخر، وغالبًا ما ينزع كل فريق أضعف حجج المخالفين ويجردها عن سياقها الفكري، وينزعها من مسارها، ثم يقوم بتقويضها ونقدها، ثم تُقدَّم على أنها هدم لحجج المخالفين من الأساس.

ولما كان الإسلام دين دعوة وسلام ورحمة ، فقد حث على التعارف ومد الجسور مع البشر ابتغاء البيان لما عند المسلمين من الحق، وتعاونا على القضايا الكلية المطروحة في مجال الفكر والعمل، وأرشد الإسلام المسلمين إلى خير

(١) انظر : كيف تكسب الأصدقاء و تؤثر في الناس ، دايل كارنيجي. ، المكتبة الحديثة ، بيروت ، ط١، ١٩٨٨م ،ص٩٢ .



أساليب الحوار، وخاصة في مجال الأفكار وفي نطاق المنهج العقلي، من خلال طرح الفروض المحتملة وإسقاط الفروض الخاطئة وإبقاء الصحيح، وفق منهج النفي والإثبات العقلي، أو منهج عرض الأفكار والأفكار المضادة.كما أمر الله – تعالى – المسلمين باتخاذ الأسباب والسبل لإسماع الوحي لمن لم يسمعه، ثم تجري المحاورة بعد ذلك حول ما لفت القرآن النظر إليه، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١ – ١٥٣)، كما أمر الخالق – سبحانه وتعالى- المسلمين بإشاعة الخير في الكون ومع جميع البشر، ولا يتم ذلك إلا بالتحاور والاتفاق. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

ومعلوم أن الإسلام لايكره أحداً على الدخول فيه ، والله جل وعلا يقرر هذا الأمر في كتابه العزيز فيقول : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ويقول سبحانه : ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩)، وقال



تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٧٢)؛ ذلك أن الإسلام لا يقبل النفاق بحال من الأحوال، والإسلام كما هو معلوم شيء يستقر في القلب أولا، فكيف يمكن أن يكره الإسلام غير المسلم على الدخول فيه و هو شيء اعتقادي لا بد فيه من موافقة القلب للسان، و هو غير متوافر في حالة الإكراه.

والإسلام أيضاً مع هذا يوجب على المسلمين دعوة غير المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة، و لا شك أن هذا الأمر سينشئ نوعاً من الحوار و لا بد، إذ أن من حق كل شخص أن يدافع عن معتقده بالأدلة والبراهين، كما أنه لا يمكن لأحد أن يتخلى عن دينه و يدخل ديناً آخر؛ إلا إذا استطاع أن يزيل ما في نفسه من تساؤلات واستفسارات.



خاتمة

مما سبق يتبين أن الحوار إذا كان وفق ضوابط الشرع الإسلامي، فإنه يكون وسيلة فعالة من وسائل إصلاح الفرد والجماعة والكون، فبعض القرارات التي يتخذها المتحاورون قد تكون لها آثارها البعيدة المدى في المكان والزمان.

كما أن الحوار قد يصبح وسيلة لضياع الوقت وتمييع القضايا، وإضاعة حقوق العباد والبلاد إذا فقدت الضوابط والمقاييس الصحيحة، فيكفي أن يطلع الإنسان على نتائج القرارات التي اتخذت في المحافل الدولية بشأن كشمير وفلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان. والمسلم الصادق يحاول دائماً لفت النظر إلى الضوابط القائمة على العدل والحق وإشاعة الخير في الأرض ومنع الظلم والطغيان والشر، فهو يصدر عن مقاييس الله تعالى القائل: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وما يمكن أن أوصي به في سياق الحوار بين أتباع الأديان هو السكينة السكينة في الحوار ، وأن تسوده لغة تأليفية "دعوية" ، مع التأكيد الشديد على الاستمساك بالعقيدة مبادئها ، وتجنب أي تنازلات سيكون أول الرافضين لها الطرف الذي نحاوره ، فالعقيدة الإسلامية ومبادئ الإسلام من الوضوح والبيان بحيث لا يمكن الالتفاف عليها ولا المجاملة بشأنها .



المراجـــع

- آداب البحث والمناظرة ، الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة .
- الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان ،بكر أبو زيد .
- الإسلام والأديان لمحمد عوض .
- اقتضاء الصراط المستقيم ، ابن تيمية ، دار ابن حزم، بيروت ط ١، ١٩٨٣م.
- الاختلاف لا يعني الخلاف، محمد المفتي ، مجلة المؤتمر، السنة الأولى، العددان (الثامن والتاسع) (سبتمبر ، أكتوبر) ٢٠٠٢ م .
- الاتجاهات الوطنية ، محمد محمد حسين، مكتبة الآداب،القاهرة، ١٩٦٢م .
- إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي ، دار المعرفة ، بيروت .
- أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الناشر : الندوة ، الرياض، ط٢ ، ١٤٠٨هـ .
- إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن قيم الجوزية ، طه عبد الرءوف سعد ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي سعيد عبد اللّه البيضاوي المتوفى ، دار الفكر بيروت، ١٤١٦هـ .
- التعايش السلمي، هيوكتسكل ، نقله إلى العربية : المحامي جليل قسطو، دار النشر للجامعيين ,بيروت.
- التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٤م .
- تفسير النكت والعيون ، لأبي الحسن الماوردي ، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) .
- تفسير معالم التنزيل ، لأبي محمد الحسين البغوي تحقيق : محمد عبد الله النمر وزميليه، دار طيبة ، الرياض ، ط٤ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .
- تاريخ ابن خلدون ، دار الفكر ، بيروت ، ط١، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- تسامح الغرب مع المسلمين في العصر الحاضر ، عبد اللطيف الحسين، دار ابن الجوزي، الدمام، ط ١، ١٤١٩هـ.
- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، بدر الدين بن جماعة، دار الكتب العلمية ، بيروت



– التربية الحوارية: دراسة في إشكاليات الاختلاف والوحدة في الإطار الإسلامي، علي القرشي ، مجلة المسلم المعاصر (بيروت).- ع٨٨ (١٩٩٧-١٩٩٨) م
– التنصير ، خطة لغزو العالم الإسلامي، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في مدينة جلين آيري بالولايات الأمريكية عام ١٩٧٨م .
– التنصير ، عبد الرحمن الصالح ، دار الكتاب والسنة ، برمنجهام ،ط ١، ١٤٢٠هـ
– الجامع الصحيح ، للإمام البخاري ، تحقيق : حمد على القطب، المكتبة العصرية ، بيروت ١٤١١هـ.
– الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٩٤م.
– حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ،سعد الصيني .
– "الحوار : أصوله المنهجية وآدابه السلوكية" ، أحمد عبد الرحمن الصويان ، دار الوطن للنشر ،الرياض .
–الحوار مع أهل الكتاب : أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة، خالد بن عبدا لله القاسم ،دار المسلم ، الرياض، ط ١ ١٤١٤هـ .
– درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام، الرياض .
– دعوة التقريب بين الأديان ، أحمد القاضي ،دار ابن الجوزي ،الدمام ، ط١ ١٤٢٢هـ.
– دعوى " وحدة الأديان : أهدافها ، حكمها، خطرها " ،علي أبو لوز، ومحمود المطر ،دار المسلم ،الرياض ،ط ١، ١٤٢٠هـ، ط الثانية ، ١٣٩٣ - ١٩٧٣م.
– روح المعاني ، محمود الألوسي ، دار الفكر ، بيروت
– الرد على المنطقيين ص ٢٨٢ ومجموع الفتاوى
– سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ، بيروت، ١٤٠٥هـ .
– سنن الترمذي، الحافظ محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر، نشر (دار إحياء التراث العربي، بيروت .
– صحيح مسلم ، لمسلم بن الحجاج القشيري ، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض .
– الصفدية الصفدية – ابن تيمية ، تحقيق: محمد رشاد سالم ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ
– ضوابط المعرفة ، عبد الرحمن الميداني ، دار القلم ، دمشق ، ط٢، ١٤٠٨هـ
– غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي ، تحقيق: محمد



عبد العزيز الخالدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م .
- فتح القدير ، لمحمد الشوكاني ، دار الفكر ,بيروت 1401 ,هـ ٤/ ٢٧٦
- فتاوى اللجنة الدائمة ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م
- قواعد ومنطلقات في أصول الحوار ورد الشبهات ، د. عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، دار المسلم ، الرياض، ط ١، ١٤١٤هـ .
- القواعد الفقهية للدكتور يعقوب الباحسين ، مكتبة الرشد ، الرياض ، عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨ م .
- كتاب الفرق بين النصيحة والتعيير ، الحافظ بن رجب ، عمان ، دار عمر ، ١٤٠٦هـ.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، الزمخشري ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .
- كيف تكسب الأصدقاء و تؤثر في الناس ، دايل كارنيجي. ، المكتبة الحديثة ، بيروت ، ط١، ١٩٨٨م.
- لسان العرب، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، مادة (ضبط).
- لطائف الإشارات ، عبد الكريم القشيري ، تحقيق : إبراهيم بسيوني ، دار الكتاب العربي ، القاهرة.
- مجلة عربيات ، مقال : د. أمل المخزومي، "التعصب للرأي يهدر فرصة الاستفادة" ، ومقال : د. عبدالله السعداوي، "حرية التعبير وواجب الإصغاء" ، منتديات الحوار الإلكتروني تحت المجهر www.arabiyat.com/magazine/publish/articale_641.shtml
-مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، تحقيق : عبد الرحمن بن قاسم ، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين ، مكة المكرمة ٢٨/ ٢٣٥ .
- مختصر الفتاوى المصرية. ابن تيمية، اختصار ، ط دار التقوى ، دمشق ،
- المسلمون والأوروبيون (نحو أسلوب أفضل للتعايش) ، سامي الخزندار ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، ط (١) ١٩٩٧ م .
- مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا ، محمد عمارة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٩م.
- مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت
- موقع الإسلام اليوم مقال الحوار بين الأديان حقيقته وأنواعه، :أبو زيد بن محمد مكي
- منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية ، جامعة الإمام ، الرياض ، ط٢، ١٤١١هـ.
- نظم الدرر البقاعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م
- الولاء والبراء ، محمد سعيد القحطاني، دار طيبة، الرياض ،ط (٢) ١٤٠٤هـ ،ط، ١٤١٣هـ.



إشكاليات الحوار ومحظوراته

د.منقذ بن محمود السقار
الباحث في رابطة العالم الإسلامي





مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين، وبعد:

فقد شاء الله تبارك وتعالى بحكمته وقدرته أن يختلف الناس في أديانهم، فمنهم شقي وسعيد ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (التغابن: ٢)، وأرسل الله أنبياءه يقيمون حجته على خلقه، يدعونهم إلى دين الله الذي ارتضاه لخلقه ديناً ليكونوا من السعداء، ويحذرونهم من عصيان أمره حتى لا يكونوا من الأشقياء.

ولكن إرسالهم لن يمنع تحقق ما قد سبق في علم الله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١٠٣)، كما لن يكون إعراض الكثيرين عن الإسلام عذراً مقبولاً في التخلي عن واجب الدعوة والبلاغ، فالمسلم مطالب بدعوة الآخرين إلى الحق، رغم أنه على يقين بأن هداية الله قد لا تكتب لكثيرين ممن يدعوهم، فلا يمنعه ذلك من بلاغهم: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ (الشورى: ٤٨).

وحين يعرض الناس عن دعوة الله ولا يؤمنون بها، فإن المسلم لا يتوقف عن التفاعل مع الآخرين اجتماعياً وحضارياً، رائده في ذلك كتاب ربه، وأسوته نبيه ﷺ، الذي كانت حياته نبراساً في التسامح وحسن التعايش مع الآخرين، ممن تمادوا في إلفهم من العقائد والأديان الباطلة.

واليوم تزداد الحاجة إلى ثقافة التسامح والتعايش، في عالم أصبح قرية صغيرة تتلاقح فيها الثقافات عبر وسائل الإعلام المختلفة، فتزداد - يوماً بعد



يوم - الحاجة إلى الحوار، وإلى ضرورة تأصيله من الناحية الشرعية، ومعرفة مسوغاته الشرعية وآدابه ومحظوراته، ليمارسه المسلمون على هدي من الله.

لا تخطيء عين الناظر البصير في القرآن الكريم رؤية عشرات الآيات القرآنية التي تدعو إلى الحوار وتؤصل له وتبين آدابه ، فآياته تحكي الكثير من الحوارات التي جرت بين أنبياء الله وأقوامهم.

ثم المتأمل في صفحات حياة النبي ﷺ لن تغيب عن عينه المواقف الحوارية الكثيرة التي حقق فيها النبي ﷺ أخلاق الحوار وآدابه كما علمه ربه وأدبه.
وقد التزم المسلمون هذا الهدي منذ سطع الإسلام على وجه الدنيا ، وما زال يفتح القلوب بما أوتيه من جدل وحجة وبيان يمتثل هذا الهدي، فوصل هديه القويم إلى أقاصي الأرض، وعم نوره على العالمين.

وطوال قرون كانت الأمة المسلمة رائدة الحضارة وقائدة الأمم، فكان نتاج حضارتها ترسيخ الحوار والتعايش مع أهل الأديان الأخرى، لتقدم للبشرية نموذجاً راسخاً يحتذى في كل عصر وحين.

وحين كسفت شمسنا في القرن الماضي تعالت من جديد الدعوات للحوار والتعايش بين أتباع الأديان، لكن الدعوة هذه المرة أتت من الغرب، لتبدأ سلسلة من الحوارات بين أتباع الأديان، لكنها بمواصفات غربية وضمن شروط الآخرين وأنموذجهم.

ثم تحولت فكرة الحوار الديني إلى ظاهرة عالمية تحتضنها دول ومؤسسات حول العالم، وينشط فيها الكثير من رجال الدين والفكر والسياسة والإعلام.

وكشأن الناس في كل جديد انقسم المسلمون في نظرتهم وتفاعلهم مع

هذه الظاهرة، فهرول إليها البعض من غير ضوابط ولا تأصيل، لتوصلهم سفينة الحوار إلى تقارب الأديان أو وحدتها أو التماهي معها وفقدان الخصوصية، وانكمش آخرون عن الحوار متذرعين بالوقائع الخاطئة التي شابت تجارب الحوار.

وخلال عقود مرت مارس المسلمون الحوار مع الآخرين بأنواعه، لتتبلور الرؤى تجاه الحوار، ولتظهر مشكلات تجاوزت الطرح النظري التأصيلي، ولتصبح واقعاً يفرض على المحاورين التعامل معه وتأصيله من الناحية الشرعية، للوقوف على ما يحل منه ومالا يحل.

وتهدف هذه الدراسة إلى التطرق إلى الإشكالات التي أطلقها بعض المفكرين والعلماء المسلمين في وجه مشروع الحوار مع أتباع الأديان، والمحظورات التي أُخذت أو قد تؤخذ على هذا النشاط الثقافي، لنقف على مكامن الخلل التي لاحظها هؤلاء، فنجنب الحوار المزالق، ولنعيد قراءة المسألة وتقليبها في وجوهها من المصلحة المتوخاة لأمة الإسلام.



إشكاليات الحوار الديني والحضاري

تتعدد الإشكالات التي يثيرها الرافضون لفكرة الحوار الديني والحضاري بتعدد مشاربهم واتجاهاتهم، فالبعض يرفضها لدواع عقدية، وآخرون لدواع دعوية أو حضارية، أو بسبب الممارسات الخاطئة التي اكتنفت التجارب السابقة.

أولاً: الحوار ومسألة التقريب أو توحيد الأديان

إن أهم ما يواجهه الحوار من إشكاليات هو تلك الإشكالات المتعلقة بأصول المعتقد، فقد انجر بعض المتحاورين إلى منزلق خطير، يجعل من تسويغ الأديان الأخرى والإقرار بمشروعيتها أساساً ينبني عليه الحوار، الذي يهدف للتوحد معها أو التوفيق بين الإسلام الحق والأديان الباطلة، ضمن مشاريع وحدة الأديان أو ما يسميه البعض - تغريراً- تقارب الأديان، أو الدعوة إلى الإبراهيمية.

إن هذا المنزلق الخطير مرفوض ، فالله لا يقبل من الأديان إلا الإسلام ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

يقول ابن تيمية: "ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أن من سوغ اتباع غير دين الإسلام، أو اتباع شريعة غير شريعة محمد ﷺ فهو كافر، وهو ككفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض الكتاب "[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٢٤)، وينظر مختصر الفتاوى المصرية (٥٠٧).



لكن الإقرار بوجود الأديان والحوار مع رجالها والتعايش مع أتباعها لا يتضمن تسويغ هذه المعتقدات ولا الإقرار بصحتها، فقد عقد النبي ﷺ الصلح والأمان والمعاهدات مع غير المسلمين ، كما شاركهم استيطان المدينة وما استتبع ذلك من الاشتراك في التجارات والأحوال المعيشية، فعاد مرضاهم، وأهدى إليهم، وأحسن جوارهم؛ من غير أن يظفروا منه بكلمة أو موقف يعظم فيه آلهتهم أو يشعرهم بالرضى عن عباداتهم أو تسويغ أديانهم.

ووفق هذا الهدي فإن المؤسسات الحوارية يمكنها الحوار ضمن المصالح المشتركة بين الأمة المسلمة والآخرين، من غير تسويغ لهذه الأديان، بل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦).

ثانياً: الحوار والولاء والبراء

يرفض البعض التعاون والحوار مع أهل الأديان ، لاعتباره نوعاً من الولاء للكفار والتبعية لهم، وبخاصة أن الكثير من دعوات الحوار صدرت عن مؤسسات غربية ، في وقت يعاني العالم الإسلامي فيه من تسلط الغرب، فيرى هؤلاء أن محاورينا غير المسلمين حقهم البراءة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ٥١).

والغرب - كما يرى هؤلاء - حقيقة واحدة لا تتعدد، وأن ما يظهر لنا من اختلاف الصور والمواقف، فمرده توازع مؤسساته الأدوار في فرض السيطرة والنفوذ على العالم الإسلامي، وما الحوار والتعاون معهم إلا شكل متقدم من أشكال الاستعمار، إذ يرنو إلى تحييد المعنيين به من مثقفين و(رجال دين)



عن الصراع الكبير الذي تدور رحاه على الأمة المسلمة في كل صعيد.

لذا فالواجب - كما يرى هؤلاء - أن نقرأ دعوات الحوار ضمن الهجمة المستعرة على الإسلام، والتي تشارك فيها أيضاً جهات تمد يدها إلينا بالحوار، كما حصل من بابا الفاتيكان الذي يرأس أكبر مؤسسة تدعي أنها تنهج الحوار وتؤمن به.

والحق أن لا أحداً ينكر أن للغرب ولغيرهم من المحاورين أهدافهم الخاصة من الحوار، إذ لن يظن بحال أن الآخرين يفكرون بمصالحنا بمعزل عن مصالحهم وبرامجهم.

لكنا نتساءل: ألا يمكن أن تكون دوافعهم للحوار دفاعية ، دفعهم إليها ما تعانيه المجتمعات الغربية من أزمة ونكسة في القيم الدينية والاجتماعية؟ فلجؤوا إلى العالم الإسلامي الذي هو - على كل حال - أحسن واقعاً، وأقدر على مساعدة الغرب في أزماته من أي حضارة أخرى.

إن الإسلام اليوم هو الدين الثاني في أوروبا، ويتجه في بعض دولها ليكون الأول ؛ إذا ما انحصر حديثنا عن المؤمنين بالأديان حقيقة، وأمر كهذا يدفع بالعالم الغربي إلى تلمس بعض الدواء عند جيرانهم ومواطنيهم المسلمين، وغير بعيد عن هذا حديث كبير أساقفة كانتربري الأسقف روان ويليامز عن حق المسلمين في تطبيق بعض أحكام الشريعة الإسلامية في بريطانيا.

كما نرى أن من الإنصاف أن نقرأ الغرب كما هو، فالغرب ليس لوناً واحداً، وليس من العدل في شيء أن نحمل مؤسسات مجتمعه المدني مسؤولية السياسات الخاطئة التي تنتهجها دوله، فلن ننسى دور تلك المؤسسات في مساندة قضايانا ورفضها لمسارب الظلم والفوقية.

وحين نعود إلى السؤال: هل التعاون مع غير المسلمين صورة من صور الولاء لهم؟ علماً أنا موقنون بأن موالاة الكفار كبيرة من الكبائر ، بل ناقض من نواقض الإسلام: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ٥١).

ونرى أن ما استشكله الرافضون للتعاون مع أهل الأديان؛ سببه فهمهم التعاون على غير صورته الصحيحة، إذ التولي ليس هو التعاون الظاهري في تحقيق مصالح المسلمين، بل هو التعاون المشؤوم ضد الإسلام ومقاصده وأهله، يقول القرطبي: "قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ أي يعضدهم على المسلمين ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ بيَّن تعالى أن حكمه كحكمهم"(١)، فالتولي المحرم هو التعاضد على الإسلام والمسلمين، وهو غير وارد في مسألة الحوار والتعاون في مصالح المسلمين.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨) يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "وإذا جازت موالاتهم لاتقاء الضرر؛ فجوازها لأجل منفعة المسلمين يكون أولى، وعلى هذا يجوز لحكام المسلمين أن يحالفوا الدول غير المسلمة لأجل فائدة المؤمنين بدفع الضرر أو جلب المنفعة"(٢)، فلم يعتبر رحمه الله ذلك من التولي، لأن التعاون في المصالح الحياتية كالبيع والشراء والشراكة وغيرها لا علاقة له البتة بتسويغ معتقدات الآخرين أو الرضا بها،

---

(١) الجامع لحكام القرآن (٦/ ٢١٦).

(٢) تفسير المنار (٣/ ٢٨٠).



فمثل هذا مرفوض عند المسلمين ، بل وعند غيرهم أيضاً، فالذين يتعاونون معنا لا يسوغون ديننا ولا يرتضونه، كما لا نسوغ دينهم ولا نرتضيه، لكنا نتعاون جميعاً في تحقيق مصالح حياتية مشتركة بعيدة عن نقاط الاختلاف بيننا.

ثالثاً: الحوار مع الغرب وسيلة جديدة للتبشير

وثمة أمر حقيق يلحظه بعض الغيورين في أهداف الآخرين من الحوار، فيجعلهم ينظرون إليه نظرة المتشكك المرتاب في أهدافه ومقاصده، وبخاصة الحوار مع الغرب، أو بالأحرى مع الكنيسة، فالذي دفع الغرب - وهو المكون الأكبر في مؤتمرات الحوار - إلى سلوكه هو انفتاح شعوبه على الإسلام، واعتناق ألوف منهم إياه؛ ورأت تلك المؤسسات الغربية أن لا جدوى من المجابهة والتحدي، فلجؤوا إلى الحوار للظهور بمظهر النِّدّ، لا المهزوم، والموافق لا المجابه، ولعلهم بذلك يطفئون روح التشوّف إليه لدى رعاياهم، ويُثبتون فيهم هامشية الفروق بين الأديان، وعليه فإن الواجب - حسب الممتنعين عن الحوار - يفرض علينا تفويت الفرصة عليهم والامتناع عن معونتهم في بلوغ غاياتهم من الحوار.

وإن مما عمّق هذا الشعور المرتاب أن المؤسسات الكنسية صرحت بنيّتها استغلال الحوار، وجعله وسيلة للتبشير، وأنها تعتبره استكمالاً لمشروع التبشير الذي لم يؤت ثمره، يقول "الدستور الرعوي" الصادر عن المجمع الفاتيكاني الثاني: "تبدو الكنيسة رمز هذه الأخوة التي تنتج الحوار الصادق وتشجعه، وذلك بفعل رسالتها التي تهدف إلى إنارة المسكونة كلها بنور البشارة الإنجيلية".



كما أصدرت الكنيسة الكاثوليكية وثيقة بعنوان: (حوار وبشارة) عام ١٩٩١م، جاء فيها: "إن المسيحيين وهم يعتمدون الحوار بروح منفتح مع أتباع التقاليد الدينية الأخرى؛ يستطيعون أن يحثوهم سلمياً على التفكير في محتوى معتقدهم... ".

وأما مجلس الكنائس العالمي البروتستنتي فقد صرح بالدعوة إلى استغلال الحوار للتبشير في كتاب (توجيهات للحوار)، وفيه: "يمكننا بكل صدق أن نحسب الحوار كإحدى الوسائل التي من خلالها تتم الشهادة ليسوع المسيح في أيامنا "(١).

لكن لا إخال منصفاً يرى أن الحوار التبشيري الذي تطالب به الكنيسة هو الحوار الذي نتحدث عنه والذي يحضره علماء الإسلام ومفكروه، فمثل هؤلاء أبعد وأعمق من أن يتأثروا بفلسفات وأديان هجرها أهلها ونفروا منها.

إن الحوار التبشيري الذي تتحدث عنه الكنيسة ليس ذاك الذي تديره مع المؤسسات العلمية والثقافية والدينية التي لا يظن التأثير عليها، فمثل هذه المؤسسات الحوار معهم محبذ ومحمود، ونراه صورة لحوار النبي ﷺ مع أسقف نجران وأحبار اليهود وغيرهم من أساطين الوثنية.

إن الحوار الكنسي المستنكر هو الذي تمارسه المؤسسات التبشيرية في الظلام مع دهماء المسلمين وعامتهم، وهو ما قد ينجح فيه التبشير ويحقق ما يحذره المتشككون والرافضون لمشروع الحوار.

وهنا نؤكد على وجوب الخروج من زاوية الحوار مع الغرب أو المسيحية،

(١) دعوة التقريب بين الأديان (٢/ ٧٨٠-٧٨٢).



ليشمل الحوار كافة الجهات المسيحية، كالكنائس الشرقية، بل وكافة الأديان، وهذا يعود بالحوار إلى مساربه الصحيحة وخدمة أهدافه المرجوة.

رابعاً: الحوار بين المداهنة والمداراة

مما يتلبس المناسبات الحوارية ما يقع فيها من المداهنة المحرمة ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم : ٩)، وقد حذرنا الله منها بقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود: ١١٣)، قال أبو العالية: تركن إليهم، ولا تنكر عليهم الذي قالوا، وقد قالوا العظيم من كفرهم بالله وكتابه ورسله "(١).

وصورها كثيرة، لكن أهمها - حسب رأي المتشككين - قيام فكرة الحوار والتعايش بين أتباع الأديان على أساس عدم المنازعة في عقائد الآخر ، وفي هذا بعض تسويغ لهذا الباطل واعتراف به، أو على الأقل عدم الإنكار عليهم، وهذا أول المداهنة، خلا الصور الأخرى التي يشوبها ما يشوبها، كتبادل الهدايا والتحايا والابتسامات والزيارات.....

إن مما ينبغي - في هذه المسألة - التفريق بين صورتين تختلطان على الكثيرين، وهما المداراة والمداهنة، فالأولى مأمور بها في حال المصلحة المشروعة، والثانية منهي عنها في كل حال، يقول القرطبي في التفريق بينهما: " والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معًا، وهي مباحة، وربما استُحبت، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا "(٢).

فالابتسام لغير المسلمين وإهداؤهم وزيارتهم وما أشبهه من المجاملات الاجتماعية

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١٢٧).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٥٤).

أو البروتوكولية؛ كل ذلك من المداراة ، لا المداهنة ؛ لأنها بذل للدنيا لا الدين، ومن مثل هذا ما صنعه النبي ﷺ في حديث الأعرابي الذي يعتبره ابن حجر أصلاً في المداراة، فقد استأذن رجل على النبي ﷺ فلما رآه قال: ((بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة))، فلما جلس تطلَّقَ النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه، وانبسطت إليه؟! فقال رسول الله ﷺ : ((يا عائشة، متى عهدتني فحَّاشاً، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره))(١).

وفي شرح الحديث ينقل ابن حجر عن القرطبي استنباطه لبعض الأحكام، ومنها " جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى ... والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا، والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن عشرة ... " (٢).

ولن ننكر في هذا الصدد وقوع بعض المحاورين المسلمين بصور محرمة من المداهنة، كمشاركة غير المسلمين في أعيادهم الدينية وعباداتهم، أو المناداة بالألقاب المشعرة بالتعظيم (قداسة البابا)، فهذا وأمثاله مما قد يقع به المتحاورون، والواجب على المحاورين النأي عنه، والاستغناء عنه بالصور المشروعة؛ كاستخدام الألقاب المشعرة بالاحترام؛ من غير أن توقع في التعظيم ، وقد أرسل النبي ﷺ إلى هرقل، فسماه ((عظيم الروم))(٣) ، من

(١) رواه البخاري ح (٦٠٣٢).
(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٥٤).
(٣) رواه البخاري ح (٧)، ومسلم ح (١٧٧٣).



غير أن ينجر إلى المحرم من القول والثناء غير المشروع.

لكن كثيراً من المجاملات البرتوكولية والرسمية يمكن إدراجها تحت أصل عام ، وهو البر والقسط مع غير المسلم المهادن وغير المقاتل ، كما قال الله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

قال الطبري: "عنى بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم .. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يقول : إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيبرون من برهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم "(١).

والبر أعلى أنواع المعاملة ، فقد أمر الله به في باب التعامل مع الوالدين ، وقد وضحه رسول الله ﷺ بقوله : ((البر حسن الخلق))(٢).

قال القرافي وهو يعدد صوراً للبر يتخلق بها المسلم تجاه المسالمين من غير المسلمين: " ولين القول على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته، لطفاً منا بهم، لا خوفاً وتعظيماً ، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمور دينهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم .. وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله، ومن العدو أن يفعله مع

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٦٢).

(٢) رواه مسلم ح (٢٥٥٣).



عدوه، فإن ذلك من مكارم الأخلاق .. نعاملهم - بعد ذلك بما تقدم ذكره - امتثالاً لأمر ربنا عز وجل وأمر نبينا ﷺ(١).

إن مثل هذا الخلق الجم يستقيه القرافي من حوادث عدة في حياة النبي ﷺ، منها أنه (تلقى عكرمة بن أبي جهل حين دخل عليه كافراً فقال له: ((مرحباً بالراكب المهاجر))، وفي رواية الطبراني أنه ﷺ قام إليه، فاعتنقه(٢).

فأمثال هذه الصورة - التي يبذل فيها المحاور الدنيا لا الدين - من المداراة واللطف والرفق الذي ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه.

خامساً: الحوار والندية والاعتراف بالإسلام

من الإشكاليات التي تواجه مشروع الحوار أنه يأتي في زمن تعاني فيه أمتنا الأفول الحضاري، وواقعها اليوم قد لا يتيح لها الحوار المأمول ، إذ المكافأة والندية شرط في أي حوار ناجح.

إن من المهم - حقاً - أن لا ينعكس واقعنا السياسي على أدائنا الحضاري، فممارسة الحوار في ضوء واقعنا لن يكون إلا تكريساً لواقع مؤلم، واستسلاماً لمعطيات مرفوضة.

إن المسلم قوي بإسلامه ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، والضعف السياسي لا يستلزم التخاذل الحضاري، فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخاتمهم ﷺ حاوروا أقوامهم، فكانوا الغالبين بحجتهم

(١) الفروق (٣/ ٢١-٢٢).

(٢) رواه الترمذي ح (٢٧٣٥)، الحاكم في المستدرك ح (٥٠٥٩)، والطبراني في الكبير ح (١٠٢١)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي ح (٥١٨).



وثبـاتهم، فـلم تلنْ قناة الـنبي ﷺ ولا تأثر خطابه وحـواره الدعـوي بإرهاب قريش وتسلطهاَ ، كما لم ينعكس ضعف مهاجري الحبشة على موقفهم بين يدي النجاشي، ولم يمنعهم من الصدع بمعتقدهم بين يديه.

وعليـه فإن الاسـتضـعـاف لن يكون عـذراً في الخروج عن آداب الحوار ومنهجه وضوابطه الشرعية.

ويلحظ الدكتور مازن مطبقاني إشكالاً مهماً يكمن في تجاهل الآخرين أصولاً مهمة وضرورية لإنجاحه؛ وأهمها عدم اعتراف المتحاورين النصارى برسالة الرسول ﷺ " لأنّ الحوار الحقيقيّ هو الحوار الذي ينطلق بين أنداد، فإذا كانوا لا يعترفون برسالة الرسول ﷺ فأيّ حوار يمكن أن يكون معهم؟ " .

وكنموذج واقعي لهذا الخلل نسجل بالأسى موقف الكنيسة من دعوة علماء المسلمين للبابا للحوار، وقد عبر عنه الكاردينال توران مسؤول العلاقات مع الأديان بالفاتيكان (ووزير الخارجية السابق) في مقابلة مع مجلة " لاكروا " (الإيمان) الكاثوليكية حين قال إن المسلمين غير مؤهلين للحوار ، لأنهم يعتبرون القرآن كلامَ الله الموحى، وغير القابل للمجادلة والمراجعة.

والسؤال: هل سنترك الحوار مع أولئك الذين لا يسلمون بأصولنا؟ هل التسليم والاعتراف بالإسلام شرط في الحوار أم نتيجة مرجوة له ، ألا يمكننا – عن طريق الحوار – أن نعرِّف الكاردينال توران – ومن قبله بابا روما – بحقائق الإسلام ومسوغات إيماننا بالقرآن وبالرحمة المهداة ﷺ؟

لقد أحسن الأستاذ خالد القاسم بقوله: " أما الامتناع عن الحوار مع الظالمين واتخاذه منهجاً مطرداً فهذا يخالف منهج النبي ﷺ، فقد حاور عليه



الصلاة والسلام اليهود في المدينة وكانوا يكتمون ما أنزل الله ، ويلبسون الحق بالباطل ، كما حاور نصارى نجران ودعاهم إلى المباهلة فرفضوا "[١].

سادساً : تصدي من لا يحسن الحوار لتمثيل الأمة المسلمة

إن المتابع لواقع كثير من مؤتمرات الحوار مع الآخرين يشهد بوجود ضعف في التمثيل الإسلامي، فالنيابة عن الأمة أمانة كبيرة ، ومسؤولية لا يقبل أن تكون في عهدة من لا يحسن الحوار ولا يملك مقوماته، ، فلا يقبل أن يتحدث باسم الإسلام من لا يفقهه ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء: ٣٦).

إن هذا الواقع المؤلم لن يزول بالإعراض والامتناع عن المشاركة في الحوار، فالداعون إلى مؤتمرات الحوار لن يوقفهم إحجام العلماء عن دعوة غيرهم للمشاركة فيها، فلسوف يجدون - دوماً- من يروق لهم مشاركته ، لأنه - كما زعموا - منفتح واقعي، ليس كأولئك الممتنعين الذين سيوصمون بنعوت العجز والضعف والانغلاق.

إن هذه السلبية تدفع بالمؤسسات الإسلامية الكبرى وبالعلماء الأجلاء إلى اقتحام هذا المجال انتصاراً للموقف الإسلامي المبني على هدي الكتاب والسنة، ولتفويت الفرص على الدخلاء والضعفاء من أن يتحدثوا باسم الإسلام أو يمثلوه.

(١) الحوار مع أهل الكتاب : أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة (٤٨).

سابعاً: كيف يهدونكم وقد ضلوا؟!

كما يتساءل المشككون في جدوى التعاون مع غير المسلمين في إصلاح بعض الأوضاع الاجتماعية للمسلمين، فهذا التعاون لن يؤسس - بداهة - لحياة دينية صحيحة، لأنه نتاج وثمرة لقاء بين الإسلام والكفر، كما أنه يتضمن اعترافاً بقدرة الأديان الباطلة على تقديم حلول لبعض التحديات التي تواجهها المجتمعات الإسلامية، وقد غضب النبي ﷺ أشد الغضب لما هو أقل من ذلك ، حين رأى التوراة في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: ((أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ ألم آت بها بيضاء نقية؟ .. لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني))(١).

والحق أن ادعاء حاجة المسلمين - عن طريق- إلى هدي في غير الكتاب والسنة؛ افتراض يجانب الحقيقة، لأن التعاون الذي يتحدث عنه المحاورون المسلمون ليس في استخلاص ما يفيد المسلمين وما يضرهم اعتماداً على كتب أهل الكتاب أو غيرهم، فالتحسين والتقبيح إنما نرجع فيه إلى أصولنا ومصادرنا فحسب، ولكنه تعاون في تحقيق ما اتفقنا وإياهم على حسنه، ودفع ما اتفقنا على ضرره وسوئه.

إن المسلمين لم يحرموا الخمر ولم يحاربوها لأن كتب الآخرين والشرائع الماضية قد حرمتها، بل لورود تحريمها وتجريم أهلها في القرآن والسنة، غير أننا - في حوارنا واتفاقنا مع الآخرين - نستعين على تحقيق هذا الهدف النبيل

---

(١) رواه أحمد ح (١٤٧٢٣).

بالتعاون مع الآخرين الذين يمكننا وإياهم من وقف تجارة هذه السموم والخبائث أو يسهم في توعية مجتمعاتنا بأضرار هذه المحرمات عبر دراسات طبية واجتماعية وجهود إعلامية موفقة.

إن تعاوننا على منع الإجهاض مثلاً لا يعتمد في أسسه الفكرية أو العقدية على صحة عقيدة التثليث ولا يسوغها ولا غيرها من المعتقدات المسيحية، كما لا يمثل شهادة بخيرية مانعي الإجهاض أو صحة معتقداتهم، ولا أننا نتابع أهل الكتاب في بعض دينهم، إن غاية ما يفيده صحة موقفهم في منع الإجهاض أو غيره من الرذائل.



تأصيل مسألة التعاون مع غير المسلمين في مجالات المشترك الإنساني

أ. الحوار ومصلحة الأمة المسلمة

تلقي العولمة اليوم بآثارها الكئيبة وظلالها القاتمة علينا وعلى غيرنا، وتحمل كل يوم إلى بيوتاتنا صوراً مزرية من الانحلال الأخلاقي والتفكك الأسري والاجتماعي، وهذه الصور لا تخطئها عين تقرأ الإحصاءات العالمية عن ارتفاع عدد حالات الانتحار ومراجعي العيادات النفسية، وكذلك الارتفاع الحاد في نسبة الجرائم والطلاق والإجهاض والإدمان.

إن هذا الخطر وإن كان يتهدد المجتمعات غير المسلمة بشكل أكبر؛ فإنه لا يمكننا أن ننكر تأثر المجتمعات الإسلامية المختلفة بهذه الصور، التي تكثر وتزداد مع تقارب العالم وتحوله إلى قرية صغيرة تتداخل فيها الثقافات، وتنتقل فيها الجراثيم المعدية بفعل عوامل التقنية والاتصال الحديثة.

والمسلمون اليوم - للأسف- هم الأمة الأضعف تأثيراً ، وهم أعجز عن الانفراد في التصدي للطوفان الذي يستشري حولنا، ويكاد يحرقنا بشرره، لذا فإنا مدعوون انطلاقاً من مصالحنا للحوار مع الآخرين بل والتحالف معهم والتعاون فيما يعود بالخير علينا وعلى الجنس البشري برمته.

إن الأخطر الذي يدهمنا ليس هو انتشار الفساد، بل عولمته وتقنينه وتشريع سبل انتشاره، كما أرادت بعض المؤسسات والدول العلمانية في مؤتمر السكان في القاهرة وبكين أو في شروط الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية، فمثل هذه المؤتمرات والمناسبات الأممية أرادت أن تجعل من هذا الواقع



المزري شرعة عالمية، ولربما تداعوا قريباً لإيقاع العقوبات على الدول والمجتمعات التي ترفض قوالب العولمة الجديدة، وإن شئت فقل: الفساد والتحلل المعولم.

إن وقفة المسلمين وحدهم في تلك المؤتمرات ما كان لها أن توقف عبث المقننين للفساد في مؤتمر بكين وأضرابه ، فقد سعوا إلى تدمير مؤسسة الأسرة بإباحة الشذوذ والإجهاض والعلاقات الجنسية المفتوحة، فتم محاصرة الكثير من هذه المشاريع بتضافر جهود المسلمين وغيرهم، وبالتحالف مع المؤسسات الدينية (غير المسلمة) القوية في الدول الغربية وغيرها.

وهكذا.. فثمة مصالح لنا لا نستطيع تنكبها ولا الإعراض عنها ولا الغض من قيمتها، فالحوار مطلب ديني مشروع بقدر ما يحقق لنا من المصالح، وضمن الضوابط الشرعية.

وقد جعل الله مبنى شريعته على رعاية مصالح المسلمين في المعاش والمعاد، يقول ابن القيم: "بناء الشريعة على مصالح العباد في المعاش والمعاد، هذا فصل عظيم النفع جداً، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه .. فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة؛ وإن أدخلت فيها بالتأويل "(١).

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٣).



وإذا كان كذلك؛ فالحوار مع غير المسلمين مصلحة راجحة تسوغ ممارسته من ولاة أمر المسلمين ومن يقوم مقامهم من العلماء والهيئات المعنية بالحوار ، ممن يضبط هذه المسألة بالضوابط الشرعية.

ب. وثيقة المدينة

إن أدلة جواز التعاون والتحالف مع الآخرين لتحقيق مصالح الأمة ومقاصد الشريعة كثيرة مبسوطة في كتب الفقه والسنة، فحين وصل النبي ﷺ إلى المدينة النبوية كان باليهود أحد مكونات مجتمع المدينة الذين أبرم النبي ﷺ معهم وثيقة المدينة التي وضعت أساساً لطبيعة العلاقة مع المسالمين من غير المسلمين، فقد أقرت الصحيفة بقاء اليهود على دينهم " وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم " .

واشترطت الوثيقة – على الموقعين عليها من المسلمين واليهود – السعي لتحقيق مصالح مجتمع المدينة التي يعيش الجميع في جنباتها " وإنه من تبعنا من يهود؛ فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .. وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .. وإن بينهم النصر على من دهم يثرب "[(١)] فتعترف الوثيقة بالخلاف الديني ، من غير أن يكون في الاعتراف إقرار دين اليهود أو تسويغه، لكنها مع ذلك لا تعتبر هذا الخلاف حائلاً دون إتمام التحالف والتعاون بل والتعايش مع غير المسلمين ، سعياً لتحقيق بعض مصالح المجتمع المسلم الناشئ في المدينة النبوية.

---

(١) الروض الأنف (٢/ ٣٤٥)، وابن هشام في السيرة (١/ ٥٠٣).



وإذا كان التعاون – في مسائل الحماية من خطر القبائل المحيطة بالمدينة – غاية ما يصبو إليه المجتمع المدني ؛ فإن الحياة المعاصرة تفرض صوراً كثيرة متشابكة من المصالح التي لا يمكن للحياة أن تستقر إلا بها، فالتحديات التي تواجه المجتمعات البشرية تنوعت ، ولم تتوقف عند مسائل السلم العالمي، بل تعدت إلى الكثير من المصالح المشتركة، كمكافحة الشذوذ والعلاقات المحرمة خارج إطار الزواج ومعالجة قضايا الانحلال الأخلاقي والتفكك الأسري، والتصدي للهجمة الإلحادية، لذا فتعاون النبي ﷺ مع اليهود على تحقيق بعض مصالح المسلمين (الدفاع عن المدينة) يفتح الباب للتعاون مع غير المسلمين في كل ما يصب في مصلحة المجتمع المسلم، من غير تنازل عن شيء من الدين.

ج. حلف الفضول

يعتبر حلف المطيبين صورة أخرى من صور اللقاء على بعض المصالح المشتركة، وقد شهده النبي ﷺ في شبابه ، وهو حلف قام على صيانة وتحقيق بعض القيم المشتركة عند الموقعين عليه، فقد اتفقوا على رد المظالم وإعانة المظلوم، بل وغيره من أمور الخير.

قال ابن كثير فيما ينقله عن أصحاب السير: ((تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها، وألا يعز ظالم مظلوماً))، بل ذهب الطحاوي إلى أنه كان التعاون فيه أكثر من ذلك بكثير، فقال: "وكان محالفتهم على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن لا يَدَعوا لأحد عند أحد فضلاً إلا أخذوه ، وبذلك سمي حلف الفضول"(١).

قال ابن حجر: "وكان جمع من قريش اجتمعوا، فتعاقدوا على أن ينصروا

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٢٥٨)، ومشكل الآثار ح (٥٢١٧).



المظلوم وينصفوا بين الناس، ونحو ذلك من خلال الخير "(١).

وقال أيضاً: "وكان حلفهم أن لا يعين ظالم مظلوماً بمكة، وذكروا في سبب ذلك أشياء مختلفة محصلها: أن القادم من أهل البلاد كان يقدم مكة، فربما ظلمه بعض أهلها فيشكوه إلى من بها من القبائل، فلا يفيد ، فاجتمع بعض من كان يكره الظلم ويستقبحه، إلى أن عقدوا الحلف، وظهر الإسلام وهم على ذلك "(٢).

وهذا الحلف لون من ألوان اللقاء حول أسباب التعايش، ولا يضعف الاستدلال به كونه جرى قبل الإسلام ، فإن النبي ﷺ أقره بعد نبوته وأكد التزامه به، فقال: ((ما شهدت من حلف إلا حلف المطيبين، وما أحب أن أنكثه، وأن لي حمر النعم)).

وفي رواية أنه ﷺقال: ((ولو دعيتُ به اليوم في الإسلام لأجبت))(٣).

قال الماوردي: " هذا وإن كان فعلاً جاهلياً دعتهم إليه السياسة، فقد صار بحضور رسول الله ﷺ وما قاله في تأكيد أمره حكماً شرعياً وفعلاً نبوياً "(٤).

وفي هذا تشريع وإباحة اللقاء مع الكافر على تحقيق مثل هذه القيم النبيلة والخصال الحميدة، فلا مندوحة لنا اليوم من المشاركة في أحلاف العدل والفضيلة، ودفع الظلم والجور، وتحقيق الخير للبشرية.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٠٢).

(٢) فتح الباري (٤/ ٤٧٣).

(٣) رواه أحمد ح (١٦٥٨)، والبخاري في الأدب المفرد ح (٥٧٠)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٢/ ٢١٩)، وصححه الألباني في تخريجه أحاديث فقه السيرة بمجموع طرقه (ص ٢٤).

(٤) الأحكام السلطانية، الماوردي، ص (١٣٧).



قال ابن القيم: " وأما قول النبي ﷺ: ((شهدت حلفاً في الجاهلية ما أحب أن لي به حمر النعم ، لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت))، فهذا - والله أعلم - هو حلف المطيبين، حيث تحالفت قريش على نصر المظلوم، وكف الظالم ونحوه، فهذا إذا وقع في الإسلام كان تأكيداً لموجب الإسلام وتقوية له "(١).

قال ابن حجر: " واستمر العمل بهذا الحلف بعد البعثة النبوية ، ويستفاد من حديث عبد الرحمن بن عوف أنهم استمروا على ذلك في الإسلام، وإلى ذلك الإشارة في حديث جبير بن مطعم... "(٢).

وقال القرطبي: "وهذا الحلف هو المعني المراد في قوله عليه السلام: ((وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة))(٣) ، لأنه موافق للشرع؛ إذ أمر بالانتصاف من الظالم، فأما ما كان من عهدهم الفاسدة وعقودهم الباطلة على الظلم والغارات فقد هدمه الإسلام، والحمد لله "(٤).

د. جواز إبرام العهود والمواثيق ووجوب الوفاء بها

الحديث عن حلف المطيبين يذكرنا بشرعة إبرام العهود والمواثيق مع مخالفينا في الدين، وبخاصة في حال ضعف المسلمين وحاجتهم إلى غيرهم؛ إذا كان ذلك يحقق مصلحة المجتمع المسلم، وقد عقد النبي ﷺ والصحابة

---

(١) تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته، ابن القيم (٨/ ١٠١).
(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٠٢).
(٣) رواه مسلم ح (٢٥٣٠).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٣)، وانظر شرح النووي على مسلم (١٦/ ٨٢).

من بعده معاهدات مع مجتمعات غير مسلمة، والأصل في إنشاء هذه العقود الإباحة ؛ إذا حققت منفعة عامة معتبرة شرعاً، يقول ابن تيمية عن عادات الناس " هي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى "(١).

فقد أذن الله بعقدها، وأمر بالوفاء بها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: ١).

وهذه العقود حين يبرمها النبي أو الإمام بعده؛ إنما تبرم لتحقيق مصالح المجتمع المسلم، والآخرون حين يعقدونها معنا؛ فإنما يبحثون هم أيضاً عن مصالحهم، فصح التعاهد والتعاون على هذا القدر المشترك من المصالح البينية.

قال الطبري: " واختلف أهل التأويل في " العقود " التي أمر الله جل ثناؤه بالوفاء في هذه الآية..فقال بعضهم: هي العقود التي كان أهل الجاهلية عاقد بعضهم بعضاً على النصرة والمؤازرة والمظاهرة على من حاول ظلمه أو بغاه سوءاً، وذلك هو معنى " الحلف " الذي كانوا يتعاقدونه بينهم "(٢).

والتحالف مع الآخرين على تحقيق مصالح المسلمين يندرج تحت درء المفاسد وتقليلها، كما وقع في تعاون المسلمين مع الفاتيكان في مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة ١٩٩٤م ، ثم بكين ١٩٩٥م ، حيث استطاع هذا التعاون الحد من إلزامية وإفراط التشريعات الأممية التي تشرع وتسبب انتشار الفحش والرذيلة (السماح بالزواج المثلي، إباحة الإجهاض، الحرية الجنسية).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ١٦-١٧).
(٢) تفسير الطبري (٩/ ٤٤٧).



إن التعاون في مثل هذا المجال - هو في حقيقته وموضوعه - تعاون على تحقيق ما أمرنا به الله من البر والتقوى، أوليس من البر والتقوى تجريم الشذوذ ومنع الإجهاض ومحاصرة العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج؟

يقول القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢): "هو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى ؛ أي ليعن بعضكم بعضاً ، وتحاثوا على أمر الله تعالى، واعملوا به ، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا منه "(١).

قال علي الصلابي: "جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير وهو من قبيل التعاون المأمور به في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢)، ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذا الحال لأنه تأكيد لشيء مطلوب شرعاً .. وأما تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلم أو في مواجهة ظالم، فذلك جائز لهم، على أن تلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل "(٢).

وينبغي هنا أن نعترف - بكل أسف - بأن العالم الإسلامي أعجز من أن يوقف مثل تلك المقررات؛ لو لم يتعاون مع المؤسسات الكنسية وغيرها من المؤسسات الدينية غير المسلمة التي رأت في وثيقة بكين خطراً على الحياة الدينية والثقافية والأخلاقية للإنسانية جمعاء.

وقد عقد النبي ﷺ معاهدات تحقق مقاصد ومصالح المجتمع المسلم، وقد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٦/ ٣٣).

(٢) السيرة النبوية عرض ووقائع (١/ ٨١).



قال النبي ﷺ بين يدي صلح الحديبية : ((والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها))[١] ، وزاد في رواية ابن أبي شيبة: ((ولا يدعوني فيها إلى صلة إلا أجبتهم إليها))[٢].

وفي قراءة ابن القيم لهذا الحديث يستخرج فوائد: "ومنها أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى أُجيبوا إليها، وأُعطوه، وأُعينوا عليه، وإن مُنعوا غيره، فيعانون على تعظيم حرمات الله؛ لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك ، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرضٍ له؛ أجيب إلى ذلك؛ كائناً من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوبِ مبغوض لله أعظم منه" .

ويعقب ابن القيم بقول عجيب، وكأني به يتحدث عن حال الغيورين اليوم الذين ينكرون التعاون مع غير المسلمين ويفْرَقون منه، فيقول: "وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق "[٣].

---

(١) رواه البخاري ح (٢٧٣٤).
(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ح (٨/ ٥١٣).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٦٧).



خاتمة

وهكذا فإن الإشكالات التي تثار في طريق الحوار مع غير المسلمين محل نظر وتقدير، وهي في جملتها تعبر عن غيرة صادقة على الإسلام، وتحمل تخوفاً مشكوراً من انحراف هذا النشاط إلى وهدة وحدة الأديان، ولابد أن نعترف بأن في واقع مؤتمرات الحوار وملتقياته ما يثير الكثير من علامات الاستفهام والدهش، مما يقع فيها باسم الإسلام وممن ينتسبون إليه.

لكن هذه الإشكالات لا تعني بحال من الأحوال الامتناع عن الحوار والنكوص عن هذه الوسيلة التي نراها واجباً حياتياً يمليه فقه السياسة الشرعية، والذي بني في كثير من أحكامه على رعاية مصالح الأمة ، وإن من مصلحتها اليوم تحالفها مع القوى التي تشاركنا بعض التصورات، على أن يكون تناغمنا معها ضمن الضوابط الشرعية، التي لا تحل الحرام، ولا تحرم الحلال ((ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل؛ وإن كان مائة شرط، قضاء الله أحق، وشرط الله أوثق))[١].

إن الخلاص من هذه الإشكالات إنما يتحقق بوضع هذا الملف الخطير بين يدي علماء الأمة وروادها ومؤسساتها الكبرى المؤهلة لتمثيل الإسلام في محافل الحوار، وهؤلاء فقط يمكنهم تجنب هذه المزالق وترشيد الحوار واستغلاله في خدمة مصالح الأمة؛ لتصبح ملتقياته منابر للتعريف بالإسلام

---

(١) رواه البخاري ح (٢١٦٨)، ومسلم ح (١٥٠٤).



وتصحيح المفاهيم المغلوطة المثارة عنه.

إن الواجب على الدول والمؤسسات الإسلامية الرائدة أن تبادر إلى تنظيم وإقامة ملتقيات الحوار والعمل على التحول بها من مجرد المشاركة الهامشية للمسلمين إلى تطوير واستثمار هذه الظاهرة، في إقامة الجسور الثقافية التي تعيد فتح العالم من جديد أمام جنة الله في أرضه، أمام الإسلام العظيم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

• المحور الثالث: مع من نتحاور:

١ - الحوار مع أتباع الرسالات الإلهية:

أ. محمد السماك (الأمين العام للقمة الإسلامية الروحية - لبنان).

٢- الحوار مع أتباع الفلسفات الوضعية:

الشيخ بدر الحسن القاسمي (نائب مدير مجمع الفقه الإسلامي الهندي- الهند).

٣- مستقبل الحوار في ظل الإساءات المتكررة إلى الإسلام:

الشيخ فوزي فاضل الزفزاف (عضو مجمع البحوث الإسلامية - وكيل الأزهر سابقاً).





الحوار مع أتباع الرسالات الإلهية

أ. محمد السماك
الأمين العام
للقمة الإسلامية الروحية





الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن الإسلام يقول بوحدة الإنسانية وبتنوعها ، ويرسي أسساً ومباديء لاحترام التنوع والتعدد الاثني والثقافي والديني؛ بحيث تشكل هذه الأسس والمباديء جوهر العقيدة الإسلامية ، فلا يكتمل إيمان المسلم، بل لا يكون أساساً من دونها.

وفي القرآن الكريم عدد كبير من الآيات الكريمة التي تؤكد على ذلك، فالله سبحانه وتعالى كرّم بني آدم ، أي أن الكرامة الإلهية للإنسان تشمل الناس جميعاً، وليست وقفاً على مؤمن دون آخر ، أو على المؤمنين دون سواهم .

ثم إن الله سبحانه استخلف الإنسان في الأرض، ولم يستخلف أمة دون أخرى، والله سبحانه خلق الناس جميعاً من نفس واحدة تأكيداً للمساواة بينهم . ثم جعلهم أمماً وشعوباً متعددة الألسن ، مختلفة الألوان والأجناس، متنوعة الشرائع ، ولو شاء غير ذلك فإنما يقول له كن فيكون .

تفصيلاً لهذه القواعد الكلية، سوف اقتطف ثلاث آيات كريمة من بين العشرات من القرآن الكريم .

تقول الآية الأولى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات : ١٣)، تكشف هذه الآية الكريمة عن ثلاث قواعد :

القاعدة الأولى: هي الوحدة الإنسانية ؛ بمعنى أن الناس جميعاً يشكلون أمة واحدة خلقهم الله من نفس واحدة . ولقد قال القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾.



القاعدة الثانية: هي التنوع الإنساني، حيث تتابع الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾، أي أن هذا التنوع جُعل بإرادة إلهية ، وأن وجوده هو تجسيد لهذه الإرادة الإلهية وتعبير عنها.

القاعدة الثالثة: هي أن الهدف من هذا التنوع هو التعارف بين الناس تحقيقاً لوحدة تحفظ التنوع وتحترمه وتصونه ؛ حيث تكمل الآية القرآنية بتحديد الحكمة من التنوع بقولها: ﴿لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

فالتعارف هو الجسر الذي يربط بين الجماعات المتنوعة والمختلفة ، ولكن لا تعارف من دون معرفة ، ذلك أن التعارف يقوم أساساً على المعرفة ، ويفترض بالآخر أن يكون مختلفاً حتى نتعرف إليه ، ويفترض أن نكون نحن مختلفين عنه حتى يتعرّف إلينا .

ومن دون هذا الاختلاف ما كانت هناك حاجة للمعرفة ، وما كان للتعارف أساساً أن يكون .

من هنا فإن الدعوة القرآنية للناس ليتعارفوا هي في حدّ ذاتها دعوة لهم للتعرّف على ما بينهم من اختلافات وللاعتراف بهذه الاختلافات ، ولإدراك حتمية استمرارها ، ولبناء مجتمع إنساني واحد ومتناغم على قاعدة معرفة المختلفين وتعارفهم .

كثيرة هي الإشارات إلى الاختلاف والتنوع التي وردت في القرآن الكريم، أذكر منها :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ (يونس : ١٩).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨)



﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (الشورى : ٨).

لقد شاء الله بحكمته أن يكون الناس رغم وحدة الخالق ، ووحدة الخلق أمماً وشعوباً مختلفة ، فالوحدة الإنسانية تقوم على الاختلاف والتنوّع، وليس على التماثل والتطابق ؛ ذلك أن الاختلاف آية من آيات عظمة الله، ومظهر من مظاهر روعة إبداعه في الخلق .

يقول القرآن الكريم : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم : ٢٢)، وبالتالي فإن الاختلاف العرقي لا يشكل قاعدة لأفضلية ولا لدونية ، فهو اختلاف في إطار الأسرة الإنسانية الواحدة ؛ يحتم احترام الآخر كما هو، وعلى الصورة التي خلقه الله عليها .

إذا كان احترام الآخر كما هو لوناً ولساناً (أي إثنياً وثقافياً) يشكل قاعدة ثابتة من قواعد السلوك الديني في الإسلام ، فإن احترامه كما هو عقيدة وإيماناً هو إقرار بمبدأ تعدد الشرائع السماوية، واحترام لمبدأ حرية الاختيار، والتزام بقاعدة عدم الإكراه في الدين .

فالقرآن الكريم يقول : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ (البقرة : ١٤٨)، وفي إشارة واضحة إلى تعدد التوجهات يقول أيضاً :﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ (البقرة : ١٤٥)، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (الحج : ٦٧)، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية : ٢٨).



معنى ذلك ، أنه مع اختلاف الألسن والألوان ، كان من طبيعة رحمة الله تعدد الشرائع والمناهج، فالدين واحد، والشرائعة متعددة، وهو ما أكد عليه القرآن الكريم بقوله : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة : ٤٨).

فالاختلاف الثقافي والعرفي والديني والمذهبي باق حتى قيام الساعة ، والحكم فيه يومئذ لله، والتعامل مع بقائه لا يكون بإلغائه ولا بتجاهله ، بل بالتعرّف إليه وتقبّله واحترامه كسنّة دائمة من سنن الكون .

وفي إطار الدين الواحد والعقيدة الواحدة فإن الحق واحد كما يقول أبو الوليد الباجي في كتاب " أحكام الفصول في أحكام الأصول " : "وإن من حكم بغيره فقد حكم بغير الحق، ولكننا لم نكلف إصابته ، وإنما كلفنا الاجتهاد في طلبه، فمن لم يجتهد في طلبه فقد أثم ، ومن اجتهد فأصابه فقد أُجر أجرين : أجر الاجتهاد وأجر الإصابة للحق، ومن اجتهد فأخطأ فقد أُجر أجراً واحداً لاجتهاده ولم يأثم لخطئه؛ هذا يعني أن الاجتهاد كعمل فكري إنساني مفتوح على الصواب والخطأ .

وبالتالي فإنه ليس مقدساً ، وإنه ليس لأحد حقّ احتكار الصواب بالمطلق ، أو حقّ توجيه اتهام الفكر المختلف بالخطأ بالمطلق، فمن أبرز صفات السماحة الإسلامية أن المفكر أو المجتهد المخطئ لا يؤثم على خطئه ، بل يؤجر على اجتهاده ، حتى اذا أصاب يؤجر ثانية لإصابته الحق ، من هنا قول الشافعي: " رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب " .



إن الاعتقاد بأن جماعة ما ؛ في إطار الدين الواحد والإيمان الواحد؛ هي وحدها التي تفهم النص الديني فهماً صحيحاً ، وبالتالي فإن هذه الجماعة هي وحدها المؤتمنة على الدين ، وكل من هو خارج الالتزام بمفهومها وبها ، هو خارج عن الدين ، هذا الاعتقاد ، يتناقض في الجوهر وفي الأساس مع مبدأ الاجتهاد الذي وضع له الإسلام قواعد وأسساً علمية ومنهجية واضحة، كما يتناقض مع الموروث الفكري الديني كمعطى ثقافي واجتهادي، والذي يشكل ثروة فكرية لسلسلة غنية من التجارب الإنسانية في الفهم الإنساني للنصّ الإلهي المقدس .

يرسي الإسلام قواعد لعلاقة الإنسان بنفسه ، ولعلاقته بأخيه الإنسان (سواءاً أكان مؤمناً أو غير مؤمن) ولعلاقته بمجتمعه ، ولعلاقته بربه ، هذه القواعد الكلية تشمل قضايا وأموراً حياتية تتغير بتغير الأزمان والمجتمعات .

ولذلك فإن الحكمة الالهية قضت بصياغة النصوص الدينية بحيث تترك المجال مفتوحاً أمام الفكر الإنساني لفهمها وهضمها ولاستنباط الأحكام منها وفقاً للمستجدات والمتغيرات التي تواكب حركة التطور الإنساني.

وفي الأساس أيضاً لا تكون الوحدة إلا مع الآخر ، والآخر لا يكون إلا مختلفاً . وإلا فإنه لا يكون آخر ، هذا يعني أن المحافظة على الوحدة تتطلب المحافظة على الآخر ، وأن استمرارها هو استمرار له ، وهو يعني بدوره أن الوحدة يجب أن لا تؤدي؛ بل يجب أن لا تعني أساساً محاولة إلغاء الآخر أو تذويبه ، وإلا تصبح وحدة مع الذات، فما من وحدة قامت واستمرت وازدهرت إلا وفيها تماه للآخر ، وما من وحدة تهاوت وتفتّتت إلا نتيجة



امتهان حق الآخر المكوّن لها في أن يكون نفسه، أي أن يكون آخر.

يتحدث فرويد عن نرجسية الاختلاف، ويقول: إنه مهما كان الاختلاف محدوداً فإنه يحتل موقع القلب في هوية كل منا .

وهكذا لا يتناقض الاختلاف مع الوحدة الإنسانية ، فالعلاقة التكاملية بين الوحدة والاختلاف تبرز في ضوء المباديء الثلاثة التالية التي قال بها القرآن الكريم :

المبدأ الأول هو التداول : ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، إذ لو كان الناس كلهم شعباً واحداً أو إثنية واحدة أو على عقيدة واحدة وفكر واحد ، لما كانت هناك حاجة للتداول .

ولأنهم مختلفون ، ولأن الله شاء أن يكونوا مختلفين ، كان لا بد من التداول . والتداول يعني تواصل الإنسانية واستمرارها بما هو مناقض لمقولة نهاية التاريخ . فالتداول حياة ، والنهاية موات .

المبدأ الثاني هو التدافع : ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، فالتدافع - وليس التحارب ولا التصادم - هو تنافس ارتقائي وتطويري للمجتمعات الإنسانية المختلفة ؛ ذلك أن المجتمعات هي كالمياه ، إذا ركدت أسنت ، وإذا تحركت وتدافعت أمواجها ، تعانقت مع حركة الضوء والريح ؛ مما يوفر لها عناصر الحياة والانتعاش والنمو والتقدم .

فمن دون الاحتكاك الفكري والتلاقح الثقافي والتدافع الحضاري بين



الناس المختلفين ومتنوعي الثقافات ، يفقد الذهن عطشه إلى المعرفة التي هي عود الثقاب الذي يلهبه .

إن الاختلاف بين الناس وما يشكل الاختلاف من تدافع هو أحد أهم مستلزمات عدم فساد الأرض.

المبدأ الثالث هو التغاير : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ﴾ (الأنعام : ٣٨)، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ (يونس : ٤٧)، ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾الرعد : ٣٠).

فالتغاير والاختلاف هو القاعدة ، وهي قاعدة عصية على التجاوز ، تشكل الثابت الدائم في المجتمعات الإنسانية منذ بدء الخلق وحتى نهاية الزمن .

ولذلك أرسى الله قاعدة التعارف المكملة لقاعدة الاختلاف والتغاير، والقاعدتان معاً تشكلان الأساس الذي تقوم عليه الأخوّة الإنسانية التي لا سلام ولا استقرار من دونها .

لقد قال الإسلام بالتعارف بين الجماعات البشرية، ولم يقل بالتسامح . وكان نيتشه على حق عندما اعتبر "التسامح إهانة للآخر" لما يتضمنه من فوقية المتسامِح تجاه المتسامَح معه .

إن علاقة الإسلام بالرسالات السماوية التوحيدية؛ أي تلك التي تؤمن بالله الواحد الاحد ليست علاقة تسامحية، ولكنها علاقة إيمانية؛ والمشترك الإيماني هنا هو الإيمان بوحدانية الله رب العالمين، وبرسله وأنبيائه جميعاً ، وبما جاءوا به من عند الله وبوحي منه .



ففي القرآن الكريم نصّ واضح بذلك: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة : ١٣٦)

وشتان بين العلاقة القائمة على الإيمان ، وتلك القائمة على التسامح، فالعلاقة الأولى نديّة تقوم على الاعتراف بالحق واحترام الاختلاف ، بينما الثانية فوقية، تقوم على إنكار الحق والاستعلاء على المختلَف معه.

الآية الثانية التي أقتطفها من القرآن الكريم تخصّ أهل الكتاب من مسيحيين ويهود. وتقول الآية : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران : ٦٤).

فالدعوة إلى كلمة سواء هي دعوة إلى البحث عن الجوامع القيمية والأخلاقية المشتركة التي تقوم عليها العلاقات بين المؤمنين بإله واحد . أما تعدّد وسائل تعبيراتهم عن هذا الايمان وممارستهم له ، فإن الله يحكم بيننا يوم القيامة فيما نحن فيه مختلفون ، وذلك على قاعدة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦) .

أما الآية الثالثة فهو الدعوة إلى معالجة الاختلافات والتباينات بالتي هي أحسن، وتقول الآية الكريمة : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

والدعوة إلى التعامل حتى مع العدو بالتي هي أحسن تناقض اللجوء إلى

العنف والإرهاب، وترفض الإلغائية، وتنكر التكفير، فالدعوة الإلهية إلى الدفع بالتي هي أحسن ليست مقتصرة على العلاقات بين المسلمين خاصة أو المؤمنين عامة ، بل إنها تتسع لتشمل العلاقات بين الناس جميعاً .

إن من شأن التعصب للدين أو للمذهب او للجماعة أن يقيم جُزُراً من التنوع المتباعدة والجاهلة للآخر ، وبالتالي المتشككة فيه والمستنفرة دائماً لمواجهته ، وهذا تنوع خارج إطار الوحدة ، بل رافض لها .

أما التعارف فإنه على العكس من ذلك يقيم وحدة في إطار التنوع تتعرف على الآخر وتعترف به ، وتبادله الاحترام والثقة والمحبة ، وهذه وحدة في إطار التنوع .

في العلاقات الإنسانية سلبيتان لا تصنعان إيجابية : " وحدة تعسفية مفروضة بالقوة تطمس التنوع (كما كان الأمر في الاتحاد السوفياتي السابق) ، وتعددية مطلقة ومتفلتة تدير ظهرها للآخر المختلف، وتأبى الاعتراف بالآخر أو حتى بالتآلف معه " ، (كما هو الأمر اليوم في البلقان وفي مناطق أخرى من العالم).

إن الدعوة إلى التعارف الذي يقوم على المعرفة ؛ أحد أسمى دعوات الله للإنسان، والأساس الذي تقوم عليه أخوة إنسانية تغتني بالاختلاف وتحترمه وتجعل منه قاعدة للتعاون والتوافق والمحبة .



حوار مع أتباع الفلسفات الوضعية

الشيخ/ بدر الحسن القاسمي
نائب رئيس مجمع الفقه
الإسلامي بالهند





مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فمن الواضح للعيان أن «الفلسفات الوضعية» فشلت فشلا ذريعاً في إسعاد البشرية، فكلما أرادت تلك الأفكار حل مشكلة فكرية، أو اقتصادية أو اجتماعية؛ تعقدت تلك المشكلة، وتحولت من حالة إلى ظاهرة، ومن ظاهرة إلى أزمة، وكلما أريد علاجها اتسع الخرق على الراقع، وبدأ المجتمع الإنساني يئن منها.

والسبب في ذلك أنها جعلت التفكير الإنساني وحده أساساً لحل كافة مشكلات الحياة الإنسانية المادية والروحية ، واستغنت عن الوحي الإلهي تماماً، أو مالت إلى ممارسات وطقوس تراكمت عبر القرون بسبب الجهل والخضوع أمام مظاهر الكائنات.

ومن المعلوم أن الإنسان لا يملك عقلا محضاً ، بل إنه يحمل أيضاً من العواطف والأهواء ما يدفعه إلى الخير حيناً وإلى الشر في أحايين كثيرة ، ولا يتصور «عقل محض» غير خاضع أو متأثر من الأهواء أو الظروف والأوضاع.

إن «النبوة» وراء طور العقل والتفكير، فالحقائق التي يعجز العقل عن إدراكها تأتي النبوة لتثبتها وتحققها ، من أجل ذلك ربط الله سبحانه وتعالى إرشاد البشرية بالأنبياء، فأرسل الرسل وأنزل الكتب من السماء.



إن العقل نعمة عظيمة وجوهرة نفيسة، وفيه سر تكليف الإنسان؛ لكنه غير كاف لإرشاد الإنسان إلى مصالحه في الدارين وفي كتاب «نقد العقل الخالص» (Critique Of Pure Reason) للفيلسوف الألماني عما نويل كانت (Emanuel Kant) الذي نشره عام ١٧٨١م أكبر دليل على ذلك، وكان الكتاب قد أحدث ضجة كبيرة في الأوساط العلمية وهزّة واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية، وقيل عنه: إن هذا الكتاب قطعة حية خالدة تدل على عظمة الفلسفة وكمالها، أضاءت معالم الطريق في متاهات الفكر الإنساني وحيرته[١].

يقول كانت (Kant) : «إن الفكر يبدأ بمهمته بالدعاوي، ويعتمد على صحة مقدماته ومفروضاته وطاقاته، ويكون على ثقة بأنه حلّ جميع المسائل ووصل إلى كنه الكون.

ثم يأتي عليه زمان يتجلّى فيه أن هذه الأبنية العقلية والفكرية لا تنطح السحاب، ولا تسمو إلى الأفلاك، ثم تبدأ فترة الارتياب والتشكيك.

لذا يجب علينا البحث في عقولنا، وإدراكنا، وماهية علمنا، ونوعيته، حتى نكشف عن نوع الصور والقوى التي نتمتع بها لفهم الأشياء وإدراكها؛ وإلى أي مدى نستطيع أن نسير في ضوئها»[٢].

ولم يكن الفيلسوف الألماني كانت (Kant) هو أول من انتقد العقل الإنساني واستبعد وجود «العقل المحض» بل قد سبقه علماء المسلمين

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ٢/ ٣٨ .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص: ٣٠- ٣١ .



الاعلام في نقد العقل المحض يقول العلامة المؤرخ ابن خلدون موضحاً حقيقة العقل وقدرته على إدراك الحقائق: «فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك؛ فهو أحرص على سعادتك، وأعلم بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ؛ بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فيطمع أن يزن به الجبال، هذا لا يدل على أن الميزان في أحكامه غير صادق، ولكن العقل قد يقف عنده، ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه – وتفطن في هذا لغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق من ذلك».

و يقول الفيلسوف ابن سينا معترفاً بعجز العقل الإنساني عن إدراك بعض الحقائق:

«أما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان؛ لأنه ليس على نسبة واحدة» وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها ولنرجع في أحواله إليها[1].

و يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية

(١) نقلاً عن ابن خلدون ص: ٤٥٧ .



جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين».

فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة، وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفي بالعلوم العقلية استضر بها ؛ كما يستضر المريض بالغذاء وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه[١].

كما يقول الشيخ الإمام أحمد السرهندي رحمه الله في رسائله: «إن العقل لا تزال علاقته بالجسم العنصري ، ولا يجد إلى التجرد الكامل أو التحرر المطلق سبيلاً ، فإن القوة الوهمية تمسك بزمامه، والقوة المتخيلة تأخذ بلجامه، وقوة الغضب والشهوة كالظل المرافق له، وخصال الحرص والطمع الذميمة لصيقة به، وإن السهو والنسيان من لوازم الإنسان، والخطأ والغلط من خصائص البشر، ولا يزولان عن العقل، فليس العقل إذا جديراً بالثقة والاعتماد، وليس أحكامه ونتائجه متحررة من قيود الوهم، والتصرف والخيال، وليست مصونة من اختلاط السهو والنسيان... لذا تبقى العلوم المحصلة من تصرفات العقل وحده موضع شك فلا يمكن الثقة بها والركون إليها»[٢].

(١) العقل والنقل ١١٢ .
(٢) الرسالة رقم ٢٦٦ .



يولد الإنسان فارغ الذهن صافي القلب من غير أن يحمل معه شيئا من العلم: ﴿واللهُ أخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُوْن أمَّهَاتكُمْ لا تَعْلَمُوْنَ شَيْئاً وَّجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴾ (النحل: ٧٨).

فهو يخرج من بطن أمه ومعه أدوات التلقي ونوافذ استقبال المعلومات: السمع والبصر والفؤاد؛ إضافة إلى حواس الشم، والذوق، واللمس. أما العقل فهو جهاز لاقط ومتصرف فيما يتلقاه من معلومات، فبعد ما يكتمل نمو العقل يقوم بترتيب أمور معلومة توصل إلى أمور مجهولة.

و إن دماغ الإنسان مزود بأجهزة الحفظ والتخزين للمعلومات، كما أن له الأعوان من قوة الوهم والتخييل، وليس العقل مترفعاً نزيهاً في التفكير، بل كما سبق يخضع للعواطف وما يحمل الإنسان من مطامع وإهداء.

ثم إن العقل مثل طاقات السمع والبصر إدراكه محدود، فليس بإمكانه أن يعي ويخوض في الأمور الغيبية ويحيطها علماً من أجل ذلك يحتاج الإنسان إلى موجه خارجي غير خاضع للأهواء والأطماع.

فالوحي الإلهي صمام الأمان بالنسبة للإنسان لوضع الحد على الشخصانية والمطامع الذاتية.

فإن العقل الإنساني إذا لم يكن خاضعاً لوحي سماوي ويكون تابعاً للهوى؛ فيورد الإنسان في المهالك يبرر له كل تصرف سيء ويزين له كل الجرائم والمعاصي.

فلا يشك أحد يحمل قلباً راشداً وعقلاً واعياً في أن حادث إلقاء القنبلة الذرية على المدنيين اليابانيين يشكل جريمة حصدت أرواح مئات الألوف من



الرجال والنساء والأطفال الأبرياء، وقد استنكر الجميع هذا الواقع؛ لكن محرر دائرة المعارف البريطانية يبرر هذه العملية ويقول: إن هذا الحادث أنقذ حياة أكثر من عشرة ملايين من الناس الذين كانوا سوف يقتلون في حالة استمرار الحرب الدائرة بين الفرقاء.

هكذا العقل يبدع في تحويل الجرائم إلى البطولات، والمنكرات إلى المسلّمات، فقبل مئات السنين دعا أحد زعماء القرامطة المدعو/ عبيد الله بن حسن القيرواني أتباعه إلى الزواج مع البنات والأخوات؛ معللاً أنه من غير المعقول أن يقدم الإنسان أختاً جميلة إلى رجل أجنبي ويأتي في بيته بامرأة أجنبية أقل جمالاً منها، فإذا كانت الأخت بإمكانها أن تسعد أخاها في تقديم الطعام والشراب، فلم لا تصلح أن تكون زوجاً له!؟

فعلى جميع الأتباع أن يتزوجوا أخواتهم ، ولا يأتوا في بيوتهم بنساء أجنبيات من غير العائلة، فقد حث الناس على الزواج مع المحرمات الأبدية ، وقدم لها تبريراً عقلياً مع أن الأمر مستكره طبعاً يرفضه الإنسان فطرة.

ومن المعلوم للجميع أن البرلمان البريطاني أقر القانون الخاص بالشذوذ الجنسي وبزواج الرجل بالرجل مع التصفيق من الوزراء والنواب، كما يوجد في الغرب نوادي ومنظمات تدافع عن الشذوذ الجنسي.

وكثير من الوزراء والنواب، يتفاخرون بارتكابهم هذه الرذيلة مع أن جميعهم يحملون العقول، وبعض منهم مبدعون في مجال اختصاصاتهم العلمية والفنية.

إذا لابد من قانون سماوي يرشد العقول ويهدي ويهذب النفوس ويفك



عقول الناس من أسر المطامع والشهوات.

أما «الفلسفات الوضعية» أو الديانات غير السماوية، فهي مليئة بالأوهام ممزوجة بالأساطير، فيها ما يتنافي مع الشرع الإلهي ويناقض العقل والنقل والفطرة جميعاً ؛ ومع ذلك هناك ملايين من البشر يدينون بها ويتبعونها، وتحدث لهم مشاكل مع أهل الديانات السماوية؛ فالحاجة قائمة بل ماسة للحوار معهم وحثهم على احترام النفس الإنسانية وعدم الحيلولة دون وصول الإنسان إلى الحق والصدق.

ليس المراد «بالفلسفات الوضعية» هنا المذاهب الفكرية والفلسفية الحديثة مثل الوجودية والعلمانية والفوضوية والإنسانية وما شابه ذلك كما يتبادر إليه الذهن، بل المقصود منها تلك الديانات غير السماوية التي اخترعها الإنسان والتزم بها كالتزام أهل الديانات السماوية، وهي في الواقع مجموعة أفكار فلسفية وأساطير خرافية وطقوس وممارسات دينية.

هذه «الفلسفات الوضعية» هي مثل الهندوسية والبوذية والجينية والسيخية والشنتوية والطاوية وغيرها.

ويبلغ عدد البوذيين والهندوس معاً ما يقارب مليارين من الناس في كل من الصين والهند، واليابان والكوريتين بالإضافة إلى سري لنكا والدول الأخرى الصغيرة المجاورة لها.

وإن أي برنامج للحوار الدولي بين الأمم والشعوب لا يمكن إنجاحه بصرف النظر عن هذا العدد الهائل من البشر، فمن الطبيعي أن تدرس هذه الفلسفات الوضعية أو الديانات غير السماوية، وتبحث نقاط الإيجاب



والسلب في تعاليمها وفي المعتقدات التي يؤمن بها أتباع هذه الفلسفات والديانات؛ خاصة أن هناك احتكاكاً مباشراً للأقليات المسلمة التي تعيش في ظل هيمنة الهندوسية أو البوذية.

كما أن تقارب المسافات بين البلاد والأمصار وظهور الأدوات الحديثة للاتصالات والمعلومات قربت كل الشعوب بعضها ببعض، وأوجدت مصالح مشتركة بين الدول الإسلامية والبلاد التي يدين معظم أفراد سكانها بتلك الديانات والفلسفات.

إن الحوار مع أهل الديانات السماوية وكذلك مع أتباع الفلسفات الوضعية مطلب شرعي؛ سواء أكان بهدف إيصال الخير والصدق إلى الناس، أم من أجل إيصال الناس إلى الحق والصدق؛ خاصة في وقت أصبح العالم فيه على صفيح ساخن يهدد العالم بنشوب حرب تأتي على الأخضر واليابس، فتكون كارثة مدمرة للإنسانية جمعاء.

والمسلمون هم أولى الناس بالمبادرة إلى حوار شامل لإنقاذ الإنسانية مما تعاني منه، وإظهار ما لديهم من مبادئ ومثل وعقائد وآداب لأن الناس في أمس الحاجة إليها.

إن شعار عقد الحوار مع كافة الأمم والشعوب الذي طرحه خادم الحرمين الشريفين خطوة جريئة ومبادرة عظيمة تعود بالنفع على الأمة ثم على الإنسانية جمعاء، وذلك لما في الحوار المتبادل من تأثير في نزع فتيل الصراعات والاشتباكات بين الأفراد والجماعات.

إن حب الخالق فطرة جُبِل عليها الإنسان، وإن نزعة التدين وظاهرة



الالتزام قديمة قدَم الإنسان نفسه، ففي فترات التاريخ التي طال فيها الأمد ولم يبق فيها التزاَم بالهدى والكتاب المنير؛ مال الإنسان إلى اختراع الديانات والمعتقدات بنفسه واجتالت الشياطين البشر فصنع بعضهم آلهة لسدّ الفراغ الروحي، واخترعوا فلسفات ومعتقدات أضحت ديانات وتفرعت عنها فرق وطوائف، ودونت لها الصحائف والكتب، وأصبغت عليها القدسية وخضعت لها النفوس، وصنعت لها الهياكل والتماثيل، وبنت لها الصوامع والمعابد.

وهناك فرق واضح ودقيق بين الأديان التي لها مرجعية دينية سماوية مثل الإسلام والمسيحية واليهودية ... وبين المعتقدات أو الفلسفات التي اخترعها الإنسان من أجل سد الفراغ الروحي في حالة غياب الأديان الصحيحة أو عدم الثقة في السائد منها؛ لأسباب دينية وبيئية حيناً؛ ونفسية وعنصرية حيناً آخر.

فالديانات السماوية مصدرها الوحي والنبوة، أما المعتقدات أو الفلسفات الوضعية فمصدرها اجتهادات بشرية عقلية، وما تراكم عبر القرون الغابرة من عادات شعبية وتقاليد وقصص وأساطير سيطرت على أذهان الناس. ومن هذه المعتقدات أو الفلسفات الوضعية: الهندوسية والبوذية والجينية والطاوية، وغيرها المنتشرة في ربوع الهند والصين واليابان وما جاورها من بلاد.

فالبوذية والهندوسية هما الأساس، ولهما الغلبة، فأعداد اتباعهما تفوق أعداد المنتمين إلى الديانات السماوية، أما الفلسفات والمعتقدات الأخرى السائدة في الشرقين والأدنى والأقصى فتتفرع عنهما أو ترجع إليها، وقد انقرض بعض منها، وما زال كثير منها منتشراً بين الشعوب.

هذه الفلسفات هي الهندوسية والبوذية والسيخية والكنفوشيوسية (في



الصين تحـديداً) والشنتـو (في اليـابان تحـديداً) والجـينيـة (في الهـند تحـديداً) والطاوية (في الصين أيضـاً) من المعتقدات أو الفلسفات الوضعية التي نحتاج إلى التحاور مع أتباعها وإيصال الخير إليها والبحث عن أسس التعايش معها من غير الإقرار أو التأييد للمباديء التي تتكون منها والمعتقدات التي تؤمن بها.

وكانت الهند منذ أقدم العصور مسرحاً للغزوات ونزوح أعداد كبيرة من الطورانيين والآريين إليها والاستقرار فيها، يقول المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: إن سكان الهند أخذوا عن الطورانيين نسب أجسامهم وأشكال وجودهم، وعن الآريين أخذوا اللغة والدين والقوانين والسجايا والطبائع(١).

وقد فقد سكان الهند الأصليون المعروفون بالدراورد هويتهم الدينية والعقدية وشخصيتهم الاجتماعية والفكرية أمام الزحف المتتالي للآريين والطورانين وغيرهم.

وإن التمازج بين الطورانيين والآريين هو الذي ولّد نظام الطبقات بين سكان الهند الأصليين المغلوبين وبين الوافدين المهيمنين من الآريين والطوارنيين، فتشكل من الآريين طبقة رجال الدين البراهمة (Brahman)وطبقة المحاربين (Kastria) ومن الطورانيين تكونت طبقة التجار والصناع (Vasya) أما السكان الأصليون فقد تحولوا إلى الخدم والعبيد أو طبقة الشودر (Sudra) والمنبوذين.

تكونت الفلسفة الهندوسية من عبادة القوى والمظاهر الطبعية، فاختار الأوائل آلهة منها ومن الحيوانات والعناصر الطبعية مثل النار والهواء العواصف والشمس وغيرها.

---

(١) الحضارة الهندية: ١٠٤ .



فمنذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد وإلى القرن الثامن قبل الميلاد كان قد انتشر بين الهندوس فكرة الإله «فارونا» (Varama) الذي ينظم تنظيم القوى الطبعية، والإله «ياما» (Yama) إله الموت، والإله «اندر» (Indar) المتخصص في الحروب والعواصف. فالفيدا الكتاب الهندوسي المقدس تتضمن الأناشيد والترانيم التي تقدس الشمس والنار والعواصف كما يوجد فيه ذكر الأفاعي والأبقار والقرود وغيرها ضمن الآلهة.

ثم جمع بعض الكهنة آلهتهم في «براهما» كموجد والخالق للعالم و«فيشنو» كالمدبر والمنظم للأمور الكونية، و«شيفا» كالذي يملك قوة الإهلاك والتدمير.

ويتضمن الأوبنيشاد (Upanshad) التراث الفلسفي الهندوسي حول «الإله» و«الروح» و«براهما» وكان «شنكر» هو الذي قدم تصور الروح المطلق«أو الواحد الأوحد» وأطلق مثل هذه الأوصاف عمل «براهما» بأنه فوق جميع الآلهة.

إن مجموعة «الفيدا والأبنشد والبورانا» هي الكتب المقدسة في الفلسفة الهندوسية تعتمد عليها أساساً الديانة الهندوسية المنتشرة على رقعة كبيرة من العالم، ويمكن أن تضاف إليها مجموعة «برهمان جرانت»، وهي في الواقع شرح وتفسير «للفيدا».

ويعتبر «رجفيدا» و«يجرفيدا» و«سام فيدا» من أقدم الكتب ألفت في أدوار ثلاثة يصعب تحديدها، ويوجد اختلاف كبير بين تقدير العلماء الهندوس والمستشرقين الغربيين عن زمن تأليف هذه الكتب، وحدد البعض نحو أربعة آلاف سنة.

كما يوجد اختلاف كبير في تحديد أماكن بعثة «الرشى» أو «النبي» الذي أوحيت إليه تلك الكتب.



وتعتبر مجموعة «الفيدا» أكثر الكتب استناداً وأصالة، وهي القاعدة الأساسية للديانة الهندوسية أو الفلسفة الوضعية التي يتبعها الهندوس يتلوها في المكانة «الأبنيشد» وبعض المحققين الهندوس يرجحونه على «الفيدا» أيضاً.

كما أن «البورانا» يعتبر أكثر الكتب تداولاً وقبولاً بين الناس، وهو سهل الأسلوب واضح المنهج؛ على عكس «الفيدا» فإن فيها صعوبة وتعقيداً.

يتضمن «البورانا» تاريخ خلق الكون والقبائل الآرية كما يتضمن أيضاً حياة وتراجم العلماء الربانيين فيها وقد قسم «فياس» هذه الكتب في ١٨ جزءاً.

ومعنى كلمة «الفيدا»: «المعرفة» أو «الحكمة»، تشمل «رجفيدا» على ١٠٢٨ بيت شعر، و«سام فيدا» على ٥٨٥ شعراً.

وفي «يجرفيدا» ترانيم خاصة تتلى وقت تقديم «القرابين إلى الآلهة».

وفي «اتهرفيدا» أدعية وابتهالات وعلاج السحر وبيان تأثير القوى الشريرة.

ومما يبعث على العجب أن بعض الدارسين قد جمعوا مجموعة كبيرة من النبوات عن بعثة محمد ﷺ وأوصافه وشمائله من «اتهرفيدا» ومن «البورانا» وغيرهما من الكتب المقدسة لدى الهندوس(١).

---

(١) انظر على سبيل المثال «النبي العربي في كتب الهنادك المقدسة» لعبد الرحمن الجيري وكتب ورسائل لشمس نويد عثماني وإمام الدين رام نكري وآخرين.



وإن دل هذا على شيء فإنما يدل أن الأديان ترجع إلى أصل واحد ومهما حصل التغير في الكتب المقدسة القديمة فما زالت آثار الصدق باقية في بعض آياتها وتشريحاتها.

فإن صح ذلك فهو برهان جديد على صدق محمد ﷺ وعلى كونه خاتم النبيين ورسول رب العالمين. وهذا الأمر يثير تساؤلات من جديد حول ما يسمى «بالفلسفلة الهندوسية» هل كانت في الأصل هي ديانة سماوية دخلها التغيير والتبديل على مرور الزمان؟ وهل ظاهرة عبادة الأصنام دخيلة أوجدها المحرفون كما فعل عمرو بن لحي في البلاد العربية بتغيير ملة إبراهم عليه السلام وإدخال الوثنية في التعاليم الهندوسية؟

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وجرت سنة لله سبحانه أن لا يعذب أمة حتى يبعث فيهم رسولاً، فهل من المعقول أن هذا العدد الهائل من البشر المنتشر من الهند إلى الصين وما جاورها من البلاد لم يبعث فيهم رسول ولم يأت إليهم نبي؟!

وقد يكون من الطرائف أن نذكر أن أحد علماء الهند المعروفين بالعلم والذكاء وهو العلامة الكبير الشيخ مناظر أحسن الكيلاني رحمه الله كان يرى أن «ذا الكفل» المذكور في القرآن الكريم قد يكون هو «بوذا» الذي ولد في «كبل وستو» وأنه ربما كان نبياً، ثم حرّف أتباعه تعاليمه بعد مرور الزمن، علماً أن المفسرين اختلفوا في تحديد المقصود من «ذي الكفل» ولم يقدموا مستنداً قوياً على ما ذهبوا إليه بأن المراد من ذي الكفل هو إلياس عليه السلام لاحتمال أن يكون غيره.



الفلسفات والمعتقدات الوضعية

يوجد في شرق آسيا عدد هائل من البشر، فالصين هي الأولى من ناحية عدد السكان، تأتي بعدها الهند، فهذان البلدان يتجاوز عدد سكانهما معا مليارين نسمة.

ورغم وجود الإسلام والمسيحية وغيرهما من الديانات في تلك المنطقة فما زالت الكثرة الكاثرة من سكان الصين والهند والبلاد المجاورة لها مثل كوريا واليابان وغيرهما تعتنق الديانة البوذية والهندوسية بالإضافة إلى الشنتوية، والطاوية والكونفوشيسية إلى جانب السيخية والمهاريشية، وهذه فلسفات أساساً قبل أن تكون ديانات.

وإن القدر المشترك في تلك الديانات أو الفلسفات الوضعية ممارسات وطقوس تراكمت منذ مئات القرون، فهي على اختلاف طرقها وأساليبها تقدس المظاهر الطبيعة.

وها هي بعض تلك الفلسفات الوضعية أو المعتقدات التي تسود شرق آسيا وجنوبها. ونظراً إلى تشابه الطقوس والممارسات بينها لا تمكن التمايز الحقيقي بينها:

البـوذيـة:

وهي المنتشرة في اليابان والصين والهند وكوريا وكمبوديا وسيلان وغيرها من البلاد.



تقاليد البوذيين وطقوسهم شبيهة بتقاليد الهندوس، كما أن عبادة الأصنام وعقيدة تناسخ الأرواح مشتركة بين الديانتين؛ مع فارق ضئيل، وهو أن البوذيين لا يضعون في معابدهم غير تمثال بوذا، أما الهندوس فهم يعبدون كل صنم ، وتكثر التماثيل في معابدهم، ويأتي ذكر بعض خصائص البوذيين ضمن الحديث عن الهندوسية.

الهندوسية:

قام المستشرق الفرنسي الشهير «غوستاف لوبون» بدراسة أديان الهند، وألّف كتابه المعروف عن «حضارة الهند» يلخص فيه معتقدات الهندوس في النقاط التالية:

(١) عبادة القوى الطبيعية (٢) تشخيص هذه القوى بأسماء الآلهة (٣) اعتقاد خلود الروح (٤) عبادة الأجداد (٥) تقديم القرابين إلى الآلهة وتخصيص بعض منها للمطر، وآخر للصحة، وإله آخر للمال، كما أن الاعتقاد بتناسخ الأرواح من عقائد الهندوس عموماً.

تبتنى الفلسفة الهندوسية على النظام الطبقي والتفرقة العنصرية بين أجناس البشر وتوجد الإشارة إلى هذه الحقيقة في «فيدا» الكتاب المقدس لدى الهندوس.

كما أن «شرائع منو» المعروف «بمنو شاستر» تقرر ذلك وتحدد الطبقات في النظام الاجتماعي الهندوسي.

وهذه الطبقات البشرية في الفلسفة الهندوسية الوضعية كالتالي:



(١) البراهمة: (وهم طبقة الكهان ورجال الدين وهي أعلى الطبقات).

(٢) الأكشرية: (طبقة المحاربين وعليهم الدفاع عن البراهمة وتوفير الأمن في المجتمع).

(٣) الفيشية: (وهم طبقة الزراع والتجار، عليهم توفير وسائل العيش للبراهمة والمحاربين).

(٤) الشودرا: (وهم أسفل الطبقات، ويسمون بالمنبوذين أيضاً ليس لهم أي حق ويجب عليهم أن يخدموا الطبقات العليا، وهم أنجاس مناكيد في الفكر الهندوسي ليس لهم أن يقرءوا الكتب الدينية أو يشربوا من نفس الكوب الذي يشرب منه البراهمة.

و يعلل المشرّعون لهذه الفلسفة المبنية على العنصرية والفوارق الطبقية قائلين: إن الرب المولى حينما أراد أن يتكاثر الجنس البشري فخلق من فمه: البراهمة، ومن ذراعه: الأكشيرية، ومن فخذه: الفيشية، ومن رجله: الشودر أو المنبوذين، فالدرجات متفاوتة وفق خلق الرب لتلك المجموعات البشرية.

والمسؤوليات أيضاً موزعة، فالرب عندهم هو الذي حدد الأعمال والمسؤوليات، لكل من تلك الطبقات حسب درجات تلك الفئات.

فعهد إلى البراهمة دراسة الكتب المقدسة والأسفار المعروفة بالفيدا، وتعليمها وتقديم القرابين إلى الإله وقبول العطيات من الفئات الأخرى.

وفرض على الأكشيرية حماية الشعب والتضحية في الدفاع عن البراهمة وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك في الشهوات.

وخص الفيشة، بتربية المواشي وأداء الزكاة وتقديم التضحيات في سبيل إسعاد الطبقات العليا إلى جانب ممارسة الأعمال التجارية والأنشطة الاقتصادية.



أما «الشودر» فأوجب عليهم أن يخدموا تلك الطبقات العليا وخاصة البراهمة وأن يعيشوا حياة الذل طوعاً أو كرهاً.

إن الفلسفة الهندوسية قائمة على تقديس المظاهر الطبيعية المختلفة وعبادة كل شيء يضر أو ينفع من الأبقار والثعابين والقرود وغيرها لاعتقاد الهندوس بأنها تمثل قدرات وصفات الآلهة المختلفة من أجل ذلك كثرت لدى الهندوس الأصنام والتماثيل، فالمعابد الهندوسية تغص بملايين الأشكال من التماثيل والأصنام والأشكال الغريبة والموحشة.

يقول الدكتور رادها كرشنن رئيس الجمهورية الهندية الأسبق وأحد فلاسفة الديانة الهندوسية الأبرز مفتخرا على انتمائه الديني: «إن من سعة وسماحة الديانة الهندوسية أن من يعبد ألف إله من شجر وحجر هو هندوسي، ومن لا يعبد شيئاً يبقي أيضاً هندوسياً ، ولا يخرج من دائرة الهندوسية الواسعة والفضفاضة بسبب ترك بعض العقائد أو التقصير في العبادة والعمل».

و قد مال بعض المنظرين الهندوس إلى اختصار الطريق وتقليل عدد الآلهة، وذلك بتحديد الآلهة الأساسيين وهم ثلاثة:

(١) الإله شيفا (Shiva)

(٢) الإله الفيشنو (Vishnu)

(٣) الإله براهما.

فالأول هو إله الحياة والتغير في الكون أما الثاني فهو الحافظ لنظام الكون أما الخالق البارئ فهو «براهما» وهو فوق الآلهة جميعاً.



علماً أن عـامة الناس لا يفـرقـون بين إله وإله ويشـركـون بها جـمـيعـاً وينسبون إلى كل منها أنواعا معينة من الكمالات وإن كان بعض المثقفة من الهندوس يصـرحـون أحـيـاناً بأن الله هو واحـد وهو الذي حل في باقي الآلهة وهو برهما أو رب الأرباب.

الجينيـة:

ومن الفلسفات الوضعية ذات الصبغة الدينيـة أيضاً مـا يسمى "بالجينية" وهي في الواقع حركة عقلية حاولت التحرر من سلطان الديانة الهندوسية وهي تعتمد في نظامها التطبيقي على الرياضات الشاقة والمراقبات المتعبة وطريقها الرهبانية لكن غير رهبانية البراهمة.

فـالجينيـون يرون أنه لا يوجد روح أكبر أو خـالق أعظم لهذا الكون وأن أرواح الإنسان والحيوانات كلها خالدة وتجري عليها التناسخ.

و هو دين مسالم أو فلسفة تبالغ في البعد عن العنف وتكره حتى قتل الهوام والحشرات الصغيرة.

رفض الجينيـون آلهـة الهندوس (برهمـا، فيشنو، وشيفـا) ولكـن جعلوا القديسين أو الجيناوات الأربع والعشرين أنفسهم آلهة تعبد.

فلا صلاة عند الجينيين ولا قرابين للآلهة، ولا يقرون بالطبقات بين أجناس البشـر وقـد قسم «بارسواناث» أحد أبرز الكهنة الجينيين إلى الخاصة وهم الرهبان، والعامة وهم الذين يؤيدون النظام.

يؤمن الجـينيـون بالتناسـخ، كـمـا يؤمنون بالحسنة والسـيئـة، والنجـاة في



الفلسفة الجينية هي في التخلص من قيود الحياة، وإن السبيل إلى النجاة شاق وعسير ولابد للنجاة من قهر جميع المشاعر والعواطف، ومن غرائب الأمور أن الجينيين لا يرون بأساً العري أمام الناس كما يؤيدون الانتحار أيضاً للتخلص من مشاكل الحياة.

وقيل في خلاصة الفلسفة الجينية اليواقيت الثلاثة:

الياقوتة الأولى: الاعتقاد الصحيح.

الياقوتة الثانية: العلم الصحيح.

الياقوتة الثالثة: الخلق الصحيح.

ولا شك أن هذه حكم مفيدة وآداب لطيفة إذا تم تطبيقها في الواقع العملي، ويصف الجَينيون رائدهم الديني «مهاوير» المولود في ٥٩٩ ق م بأوصاف الكمال فيقولون:

إنه كان حراً كالطير، جسوراً كالفيل، قويا كالثور، مهيباً كالأسد، ثابتاً كالجبل، عميقاً كالبحر، وديعاً كالقمر بهياً كالشمس طاهراً كالإبريز وذلك لأنه كان قد مارس الرياضة الروحية والجسدية الشاقة طوال ١٢ عاماً.

يغلب على التفكير الهندوسي الميل إلى تعدد الآلهة، بل قد بلغ التعدد عند الهندوس إلى درجة أنهم يعبدون الماء والنار والأنهار والجبال وكل شجر وحجر أو جماد وبقر وإن كان تاريخ الفلسفة الهندوسية لا يخلو من فكرة التوحيد فيطلقون على الخالق الحقيقي رب الأرباب وإله الآلهة لكنهم لا يترددون في عبادة الأصنام وتقديم القرابين للآلهة.



أما الجينيون فإن كانوا قد رفضوا في بداية الأمر تصور الإله أو وجود روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون وذلك بسبب سوء تصرف الكهنة الهندوس والذي ألجأهم إلى إيجاد فلسفة جديدة لكنهم في نهاية الأمر جعلوا «مهاوير» إلهاً بل بدؤا يعبدون الكهنة الأربعة والعشرين المعروفين بالجيناوات.

أما الأدب المأثور عن بوذا فيكاد يخلو من ذكر الإله إثباتاً أو نفياً بل كان يمنع أصحابه من الخوض في اللاهوت أو البحث عما وراء الطبيعة مع ذلك أصبح بوذا هو الإله لدى أتباعه فيعبدون تمثاله ويسجدون أمامه.

ومن الكتب المقدسة لدى الهندوس إلى جانب «فيدا»:

١ – مها بهارتا (Maha Bharta)

٢ – كيتا (Gita)

٣– يوجا واسستها (Yoga vesisthe)

٤ – رامائنا (Ramayana)

تتكون الفلسفة الوضعية الهندوسية بمزيج من العادات والتقاليد والمعتقدات التي كانت سائدة في سكان الهند الأصليين وما جلبه إليها التورانيون والغزاة الآريون وما تراكمت خلال القرون الطويلة من الأساطير.

ومن معتقدات الهندوس الإيمان بوحدة الوجود وتناسخ الأرواح وإقرار بنظام الطبقات وتقديم القرابين إلى الأصنام.

ويعتبر خروج «بوذا» و«مهاوير» من الديانة الهندوسية وإعداد فلسفة جديدة ونشر معتقدات مختلفة عن الهندوسية يعتبر ضربة قاضية على الهندوسية إلا أنها بسبب كثرة عدد أتباعها وانطواء أهل الهند على أنفسهم



وابتعادهم حضارياً عن العالم الخارجي خفف آثار الانشقاق وساعد في استمرارها كمذهب غالبية عدد السكان.

الكنفوشيوسية:

منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة تخضع الصين لثلاث ديانات أو فلسفات أساسية هي:

١ - الكنفوشيوسية.

٢- الطاوية

٣- البوذية

دخلت البوذية عن طريق تركستان إلى الصين وانتشرت في الجماهير بينما ظلت الطبقة الاستقراطية من رجال الحكم وغيرهم ملتزمة بالكنفوشيوسية فكان تقام الطقوس والمراسيم وطريقة تقديم القرابين إلى الآلهة وفق فلسفة الكنفوشيوس.

(Kong-Foutsu) أو الكنفوشيوس ولد في ٥٥١ قبل الميلاد ومات في ٤٧٩ قبل الميلاد وظل الصينيون يتناقلون تعليماته الأصلية جيلاً بعد جيل إلى أن قرر حاكم مملكة «هان» أن يتولى الكنفوشيوسيون مقاليد الحكم فأصبحت الفلسفة الكنفوشيوسية دين الدولة.

وهناك نحو تسعة كتب تعتبر من المقدسات في الفلسفة الكنفوشيوسية منها:

١-لي ، جي

٢-التعليقات على كتاب «الإلاجي» أو «التغيرات» وفيها أبحاث عن ما وراء الطبيعات.

٣-كتاب «الشتي - جج» وهي عبارة عن بيان حقيقة الحياة البشرية ومباديء الأخلاق الفاضلة.



٤ -«التشوجج» أو كتاب التاريخ فيه حكايات عن طبائع الملوك.

٥ - «التشوسيتو» أو حوليات الربيع والخريف.

تضاف إليها الكتب الأربعة الأخرى وهي:

١ -«لون - يو» الأحاديث والأحداث

٢ - «الدشوة» التعليم الأكبر وهو كتاب طريف يقال ألفه حفيد الكنفوشيوس.

٣- «جونج يونج» أو عقيدة الوسط

٤ - «مفنيس» وفيه خروج عن المعهود في آراء الكنفوشيوس من تقديس الآراء القدماء.

الطاوية:

كلمة طاو (Tao) قبل كنفوشيوس كانت تستخدم بمعنى الطريق أو أسلوب العمل واستخدمها الكنفوشيوس بمعنى الطريق الصحيح للعمل أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً، ولم يعط لهذا اللفظ أي بعد ميتاخربقي، ومؤسس الفلسفة الطاوية هو «لاوتسي» أي العلم القديم.

وقد التقى كنفوشيوس «لاوتسي» في نزعه الأخير وقال لتلاميذه بعد عودته:

إني أعرف كيف يطير الطير، ويسبح السمك، ويجري الحيوان، لكن الذي يجري على الأرض يمكن اقتناصه، والذي يسبح في الماء يمكن صيده، والذي يطير في الجو يمكن إصابته بالسهام.

غير أن هناك تنيناً مهولاً ولست أستطيع أن أجد له مثيلاً غير التنين[1].

---

(١) قصة الحضارة ٤/ ٣٠.



ومن كتب الطاوية: «طاوتي كنج» أي كتاب الطريقة والفضيلة، وهو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الطاوية.

وكتاب من جزأين في الطاو، والطاوية يشتمل على خمسة آلاف كلمة، ولما أتمه اختفى ولا أحد يدري أين مات.

والكتاب الثالث المقدس هو «جوانج تسو».

ومع التناقضات والاختلافات الكثيرة في الكتب المقدسة أو مراجع الفلسفات البوذية والهندوسية والطاوية والجينة والسيخية وغيرها توجد هناك نصوص وبنود يمكن أن تكون نواة لإيجاد ميثاق التعاون بين الشعوب أو محاور للحوار الموسع مع كافة الشعوب وإيجاد أرضية مشتركة للتعايش بسلام مع الاختلاف في المعتقدات والفلسفات.

فالكنفوشيوس الفيلسوف الصيني الكبير يقدم فكرة «الإنسان النبيل» أو الإنسان الكامل، وإن الأخلاق الفاضلة التي يدعو إليها هدفها إحلال السلام وتأمين السعادة لأكبر عدد من الناس فإنه كان دائماً يربط بين الأخلاق والسياسة لما بينهما من علاقة جوهرية وقد ركز الكنفوشيوس في تعاليمه على إصلاح الحكومة، يقول رداً على سؤال أحد الأشخاص:

«توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً، والوزير وزيراً، والأب أبا، والابن ابناً» كذلك تلاميذه مثل منشيوس«وهسون تسو» وغيرهما ركز على الإصلاح الاجتماعي والسياسي والابتعاد عن مسائل المنطق وفلسفة المعرفة والميتافيزيقيا(١).

---

(١) انظر: قصة الحضارة لويل دورانت، الأديان الحية لأديب صعب، المعتقدات .... الشعوب.



يعتبر الكنفوشيوس لدى الصينين مثل سقراط لدى اليونانيين.

ومنشويوس بمنزلة أفلاطون ويشبهون «هسون تسو» بأرسطو.

وكان اهتمام الثلاثة بإصلاح الحكم، والإصلاح الاجتماعي والزراعي والاقتصادي.

والفلسفة الطاوية أيضاً تدعو إلى نبذ الحرب والسلاح ليعيش الإنسان حياة مثالية[١].

ويرى مؤسس الطاوية أن أية حياة يحياها المرء بصورة تلقائية فهي حياة سعيدة لا تنغصها المنازعات والحروب لأنه لا وجود للرغبة في الخصام والقتال وعندما لا توجد هذه الرغبة فإن أحداً لن يفكر بالقتال والحرب ويعم السكون والسلام.

ومن أقوال «لاوتسي» (المعلم القديم):

إذا لم تقاتل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك وألين الأشياء في العالم هو الماء لا شيء ألين وأضعف من الماء ولكن لا شئي أقوى من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة القوية[٢].

وتؤكد الفلسفة البوذية أيضاً: أن الشر هو القتل، والسرقة، والفجور، والكذب والاغتياب، والثرثرة، والحسد، والحقد، والإيمان بعقائد باطلة وأما جذور هذه الشرور هي الشهوة والبغض والوهم.

---

(١) الأديان الحية/ ٧٧ .

(٢) قصة الديانات/ ٢١٧ .



ويدعو بوذاً إلى عدم القيام بأعمال شريرة وعدم ارتكاب خطايا ومن خطايا الجسد عنده: القتل والسرقة والزنى.

وقد جاء في الوصايا العشرة المعروفة بوصايا السنغاها: لا تقتل، لا تسرق، لا تزن، لا تكذب الخ.

وفي القرن الحادي عشر ظهر كتاب باسم أساس الدين[١] لراهب بوذي يطرح السؤال التالي:

لماذا التصادم بين «بوذا» و«لاوتسي» و«كنفوشيوس» وثلاثتهم بشروا بالعقيدة نفسها يجب إذاً احترامهم[٢].

وهناك ظاهرة ملفته للنظر في المعابد والهياكل البوذية في الصين إذ يرى دائماً تمثال بوذاً يحيط به من اليمين تمثال كنفوشيوس، ومن اليسار تمثال «لاوتسي» مؤسس الطاوية. وهذا دليل تقدير الجميع أتباعهم مع اختلاف فلسفة كل واحد منهم.

ومن الفلسفات الوضعية أو المعتقدات التي تنتشر في اليابان

«الشنتو» ومن الكتب المقدسة لدى أتباعها: «كوجيكي ونيهونجي وانجيشكي».

وأهم معابد الشنتويه معبد «ايزى» (Ise) يقع على بعد ٣٠٠ كيلو من طوكيو تؤدى فيه طقوس العبادة لإله الشمس.

(١) إنجيل بوذا/ ١١٠ .
(٢) البوذية هذه ارفون/ ١٠٠ .



فلسفة الشنتو تدعو إلى التفاؤل والعيش ببساطة والكشف عن العيوب الشخصية قبل عيوب الآخرين وترغب في الهدوء والسلام.

وهناك ديانة «زن» (Zin) وهي في الواقع امتداد للبوذية ولها طقوس خاصة.

السيخية:

مؤسس الديانة السيخية أو فلسفة السيخ هو غرو نانك (Gourou Nanak) ولد في بيئة هندوسية وبيت وثني وعاش في مناخ إسلامي وتأثر ببعض أهل التصوف من المسلمين واختار نهجاً جديداً للحياة الدينية وفلسفة جديدة لتزكية الروح.

فكان يؤمن بإله واحد ليس له مثيل ولا شبيه وعلمه محيط لكل شيء.

ولد غروناك (Gourou Nanak) في عام ١٤٦٩ ومات في ١٥٣٩ رافق أثناء حياته الوظيفية بعض المنشدين المسلمين واختفى عن الأنظار فترة ثم ظهر ينادي بأنه صاحب رسالة ومبعوث إلى المسلمين والهندوس جميعاً وتتلخص دعوته في ثلاث قواعد هي:

١- الكد والعناء.

٢- الإحسان مع الآخرين.

٣- التأمل والتفكير.

تعاقب على زعامة السيخ تسعة أشخاص بعد وفاته ويلقب كل منهم «بغورو» أو «المعلم» و«السيخ» معناه «المتعلم» أو «المريد».

و في عهد الغورو الخامس أرجن (Arjun) تم بناء المعبد الذهبي في أمرتسر



بولاية بنجاب.

في عصر الغورو العاشر غوبند سينغ تم إنشاء منظمة «الخالصة» ولقب السيخ بـ (Singh) (الأسد).

والتزم الاتباع حياة الزهد والتقشف والامتناع عن شرب الخمر والتدخين وأكل لحم الخنزير.

و«غرنت صاحب» هو كتاب السيخ المقدس، وتختلف الفلسفة السيخية عن «الهندوسية» فهي في تصورها للإله قريبة من مفاهيم الإسلام أكثر ميلا إلى التوحيد وتحتوي كتابهم المقدس على خليط من المفاهيم الإسلامية وغير الإسلامية وهو عبارة عن ٦٠٠٠ ترنيمة الغورو الخمسة الأوائل.

وشعارات السيخ الخمسة تبدأ بحرف الكاف وبها يتميز السيخ عن غيرهم وهي:

١ – الكيس (Kesh) الشعر يطيله السيخي المنتمى إلى الخالصة.

٢ – المشط (Kangha) يحمله كل سيخي لترتيب شعره.

٣– الكشة (Kaccha) سروال قصير شبه بشورت عسكري.

٤ – الكرا (Kara) سوار من الحديد يضعه السيخي في معصم يده.

٥ – الكربان (Kirpan) خنجر يحمله السيخي.

ومن لم يلتزم بالكافات الخمسة يعتبر خارجا عن الملّة، مرتداً، ويقتصر عبادة السيخ على قراءة الكتاب المقدس والسجود أمامه وتقديم القرابين له.

و يقوم السيخ أيضاً بحرق جثمان الميت وإلقاء الرماد في نهر «كنكا»



المقدس كما هو المعهود لدى الهندوس.

لا توجد في أدبيات السيخ أو كتابهم المقدس ما يدفع الإنسان إلى العنف وأناشيد الكتاب المقدس تشمل على وصايا أخلاقية، وإن كانت هناك ثارات وذكريات مؤلمة مع المسلمين فقد قام السيخ بذبح وحرق مئات الآلاف من المسلمين أثناء رحلة عذاب المسلمين إلى باكستان في عام ١٩٤٧م.

و بعد اقتحام الجيش المعبد الذهبي للسيخ واغتيال رئيسة وزراء الهند الأسبق وما أعقب ذلك من أحداث دامية عادت الأمور إلى الطبيعة وأصبح السيخ يتعاطفون مع المسلمين.ﷺ.



نماذج من بنود إيجابية في الفلسفات الوضعية

في كتاب الهندوس المقدس (Gita) جاء ضمن تعليمات كرشنا: «إن الناسك الحق هو الذي لا يبغض أحدا، ولا يشتهي شيئاً ولا يرى غير الحق، ويجري وراء واجبه دائماً... ويرى جميع الأرواح كروحه ولا يفرق بينها، ولا يقصد بعمله إلا وجه الله وحده».

و في الأصول السبعة لأتباع الفلسفة الجينية:

١- أخذ العهود والمواثيق مع القادة الرهبان لأن يتمسك المريد بالخلق الحميد ويقلع عن الخلق السيء.

٢- والتقوى هي المحافظة على الورع والاحتياط في الأقوال والأعمال وفي جميع الحركات والسكنات، وتجنب الأذى والضرر لأي كان مهما كان حقيراً.

و في تعاليم بوذا تصريح:

بأن الاحترام للحياة إنسانية كانت أو حيوانية هي من أهم الأخلاق البوذية فليس لبوذي أن يقتل حيوانا في لهو كالصيد، أو في جد كذبحه للأكل بل عليه أن يرفق بالحيوان، ويعده أخاه في الخلق، ولا يراه خلقاً أدنى منه لأن الهدوء الروحي والحب لكل نسمة هو ما أرشد له بوذا.

والمحبة الشامة من أهم وأفضل الأعمال الحسنة وان الحسنات على اختلاف أنواعها لا تبلغ سدس فضل المحبة التي تحرر القلب من شوائب الشر...... ويجب على الإنسان أن يغرس في نفسه الحب العميق الصادق لسائر الخلق.



فإذا كانت هذه هي تعليمات ومباديء «البوذية» و«الهندوسية» و«الجينية» على حد سواء فمن المستغرب حقا أن يعتدي بوذي أو هندوسي على إنسان مسلم، وإذا كان قتل الحشرات والهوام جريمة ومعصية في الفلسفة الجينية فحياة الإنسان ولو كان مسلماً – أحق وأحرى أن يحافظ عليها.

تعامل الملوك المسلمين مع غير المسلمين

غالبية سكان الهند هندوس و بوذيون مع أن المسلمين حكموا الهند نحو ثمانية قرون و تركوا في ثقافتها أثراً غائراً و ملأوا ربوعها بمعالم حضارية مثل تاج محل والقلعة الحمراء و مئات من المساجد الملكية الفخمة و مازال المسلمون يعيشون في أقلية بين نحو مليار نسمة من غير المسلمين و هذا أكبر دليل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف و ان الحكام المسلمين لم يجبروا أحداً على اعتناق الإسلام أو ترك عبادة الأوثان.

يقول غاندي وهو أكبر زعيم هندوسي بلا منازع:

«إن الإسلام هو صوت الحق، ووقتما كان الغرب في ظلمات الجهل طلع على أفق الشرق نور الإسلام كنجم ساطع لقد جاء الإسلام ليوفر السكينة في قلوب الإنسان المضطربة والقلقة في العالم، إن الإسلام ليس ديناً كاذباً، وقد أصبحت لديّ قناعة بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف»[١].

ويقول رئيس وزراء الهند الأسبق جواهر لال نهرو في كتابه «من السجن إلى الرئاسة»: «لقد ترك الإسلام بصمة واضحة في ثقافة الهند، فقد علّم

(١) جريدة هندو – لاهور ، عدد ٢٢/ ٥/ ١٩٣٨ .



المسلمون أهل الهند أساليب الأكل واللباس وقضى الإسلام على عديد من التقاليد الوحشية السائدة في الهند مثل «ستي» (إحراق زوجة الميت بعد وفاة زوجها) كما ترك المسلمون معالم حضارية عديدة».

لقد تعامل المسلمون الذين فتحوا بلاد الهندوس والبوذيين بمنتهى الرفق وكمال العدل وغاية السماحة والمداراة مع الرعايا البوذيين والهندوس وأتباع كافة الفلسفات الوضعية والمعتقدات الدينية، تشهد الوثائق التاريخية بأن الحكام المسلمين على اختلاف أصولهم العربية والتورانية والمغولية أعطوا رعاياهم من غير المسلمين كامل حقوقهم، وحريتهم الدينية، فلم يهدموا معابدهم، بل خصصوا لها أراضي واقطاعات بمراسيم ملكية.

حتى إن أكثر الملوك التزاماً بتعاليم الدين الحنيف والذي يروج عنه أنه كان شديدا مع غير المسلمين قد أعطى عشرات من المعابد الهندوسية أراضي واقطاعات.

يقول البرفيسور «سري رام شرما» وهو من الهندوس في كتابه المعروف «الإمبراطوية المغولية في الهند»:

«لم أجد أي وثيقة تثبت أن الإمبراطور «بابر» قام بهدم أي معبد هندوسي ولا دليل على أنه آذى أي هندوسي من أجل أنه هندوسي»[1].

ويقول مؤلف هندوسي آخر وهو «كالكا رنجن قانون كو»:

«إن الحاكم المسلم «شير شاه سوري» قد أقام نظاما عادلا للحكم و وفر

(١) الإمبراطورية المغولية في الهند ٥٥ .



للهندوس فرصة حقيقية للانتعاش الاقتصادي والسياسي، إنه حاول أن يؤسس وحدة قومية ووطنية بين المسليمن وغيرهم».

وقد نقل مؤلف كتاب دعوة الإسلام «تي، دبليو آرنلد» أن الملك الأورنك زيب عالمكير - الذي يتهمه أعداءه بالعصبية-: «كان قد رفض أن يطرد اثنين من موظفي البلاط لكونهما مجوسيين، يعبدان النار، وقال أن الوظائف تمنح بناء على الكفاءة وليس لاعتبارات أخرى».

ويقول أحد الأساتذة الهندوس وهو السر C.P. رائي: «إن عصر أورنك زيب تميز بمنح الهندوس مناصب رفيعة واقطاعات وأراضي كثيرة.

لقد عهد أورنك زيب عالمكير إلى الهندوس منصب حاكم الولاية، وقائد الجيش، ونواب الحكومة، حتى ان الشخص الذي أسند إليه منصب نائب السلطنة في ولاية أفغانستان كان أحد الهندوس من سلاله راجبوت».

وفي عام ١٩٣٦ كتب أحد كبار المفكرين الهندوس وهو الباندت سندر لال مقالا تحت عنوان: «حكم الإنجليز في الهند» يقارن فيه بين العصر الإسلامي والعصر الإنكليزي الاستعماري يقول فيه: «إن عصر الأباطرة المغول: أكبر، وشاهجهان، وعالمكير وآخرين كان التعامل فيه بالمساواة والعدل بين الهندوس والمسلمين من غير تمييز أو انحياز إلى فئة دون أخرى».

وهناك شواهد تاريخية ووثائق عديدة أن الملك المسلم أورنك زيب عالمكير كان قد أصدر مراسيم لمنح عديد من كهنة المعابد الهندوسية عطايا كما خصص اقطاعات وأراضي للمعابد نفسها.

ومازالت بعض تلك المراسيم موجودة ومتوارثة فيمكن أن يشاهد



مرسومين من هذا النوع في «معبد سوميشورناث» بمدينة إله آباد لدى كهنة المعبد.

وكان عشرات من الهندوس يحظون بمناصب رفيعة في أجهزة السلطة[١].

بل كانت هذه سياسة مستحكمة لدى الحكام المسلمين عموماً من أجل إدارة أمور بلد الأكثرية فيه لغير المسلمين، وعملاً بمبدأ العدل بين الرعايا في الإسلام.

يوصي الامبراطور بابر ابنه همايون: «يا بنيّ إن أرض الهند ذات ديانات وملل كثيرة فاحمد الله على أنه أعطاك الملك وعليك أن تبتعد عن كافة أنواع العصبية، وأن تقيم العدل بين الناس، ويمكن نشر الإسلام بالعدل بين الناس، وليس باستخدام السيف فحاول أن تجمع كافة أهل الديانات كما جمع الله سبحانه العناصر الأربعة في جسد الإنسان ليبقى الحكم مستقراً[٢].

كذلك الحال كان مستمراً إلى الأيام الأخيرة من حكم المسلمين في الهند، فالأمير الشجاع الشهم السلطان تيبو الشهيد الذي يتهمه بعض المغرضين بممارسة الظلم ضد بعض الفئات من غير المسلمين وإجبارهم على اعتناق الإسلام، يقول عنه المؤرخ الهندوسي رام سندر رائي: «إنه لم يجبر أحداً بل إن خمسمائة شخص اعتنقوا الإسلام طواعية» وكان يوجد عديد من البراهمة في بلاطه على مناصب رفيعة، وكان يرسل هدايا إلى القائمين بشؤون المعابد الهندوسية، و مازالت بعض الهدايا العينية منها موجودة في معبد «رنكناث» في «سري رنكابتنم».

(١) مآثر الأمراء ٢/ ٣٥.
(٢) تقسيم الهند ص ٣٩.



ولم يقم ببناء المسجد عند القصر حيث كان المعبد الهندوسي موجوداً هناك منذ زمن بعيد إلا بعد الاستشارة مع الكهنة والتنسيق معهم تجنباً من وقوع الفتنة بين المسلمين والهندوس.

بين المناظرة والحوار

كان الاستعمار البريطاني قد بدأ بسط سيطرته تدريجياً على الهند بواسطة شركة الهند الشرقية إلى أن امتلك ناصية أمور الدولة كاملة في عام ١٨٥٧م وقضى على حكم المسلمين المستمر منذ نحو ثمانية قرون.

و مع بداية الحكم الإنكليزي توافدت جموع من المبشرين النصارى وقامت بحملة شعواء ضد الإسلام وبدأ القساوسة بالتشكيك في القرآن وفي عقائد المسلمين فقام نخبة من العلماء المسلمين بعد تلك الهجمات فألّفوا الكتب، وألقوا المحاضرات، وخاضوا المناظرات وكان في طليعة هؤلاء العلماء الشيخ الإمام العلامة رحمة الله الكيرانوي مؤلّف كتاب «إظهار الحق» الشهير الذي لم ينسج على منواله ومؤسس المدرسة "الصولتية" في مكة المكرمة ومساعده الدكتور وزير خان والشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي المتوفي سنة ١٢٩٧هـ ومؤسس «جامعة ديوبند الإسلامية» في الهند والشيخ محمد علي المونجيري مؤسس «ندوة العلماء» بلكناؤ ، و«الجامعة الرحمانية» بمونجير، والشيخ عنايت رسول الجريا كوتي وآخرون.

ثم انضم الهندوس أيضاً إلى النصارى في الهجوم على معتقدات المسلمين واتخذت الاجتماعات المشتركة عنوان: «مهرجان معرفة الإله» (ميله خدا شناسي) يشارك فيه الجماهير من أتباع الديانات الثلاثة: الإسلام،



المسيحية، الهندوسية. وكانت لهذه المهرجانات صدى واسع فقد كانت مناظرات شعبية يحاول فيها كل فريق إظهار تفوقه وبراعته على الآخرين.

وكان الشيخ محمد قاسم النانوتوي يتمتع بذكاء خارق، وقدرة نادرة على إقامة أدلة قوية وبراهين دامغة وكان نتيجة ذلك ظهور كتب مثل «مباحثة شاهجانفور» وانتصار الإسلام، وحجة الإسلام، و«قبله نما» وهي تزخر بأدلة عقلية على اثبات التوحيد، و وجود الخالق وإثبات النبوة والرد على الإلحاد، والشرك، ودحض مفتريات الأعداء.

فكان شأن هؤلاء العلماء شأن الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: «الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح» والإمام ابن القيم رحمه الله في كتاب «هداية الحيارى في الرد على النصارى» مع اختلاف الزمان والمكان وتنوع الأدلة والبرهان، وكان من أنجح المناظرين وأبرعهم الشيخ رحمة الله الكيرانوي الذي هزم القسيس «فندر» وأحمد حسن ديدات الذي هزم «سواغارت».

أما الحوار الذي تتطلبه الظروف الراهنة والذي دعا إليه خادم الحرمين الشريفين وتبنته رابطة العالم الإسلامي مشكورة فهو يختلف عن روح المناظرات الدينية وطبيعتها.

إن هدف الحوار هو صد الفتنة والحيلولة دون هجمة شرسة ومنع الإساءات المتكررة ضد الإسلام وضد نبي الرحمة ﷺ.

وإن انقاذ ما يمكن انقاذه هدف نبيل وإن حث أتباع الديانات والفلسفات الوضعية على أن يجتمعوا حول طاولة الحوار على اختلاف وتباين المعتقدات



للبحث عن سبل التعايش الآمن مطلوب شرعا وعقلا.

وإيجاد عالم يسود فيه السلام ويستطيع أن يعيش فيه الإنسان من غير خوف من تفجير أو تدمير ومن قتل بغير حق أو إرهاب، وإيجاد مجتمع إنساني يحرص كل فرد منه على إيصال الخير إلى غيره ولا يشبه غابة موحشة يريد كل كائن منها افتراس من تجده أمامه.

إن مثل هذا الحوار يهدف إلى دعوة الناس إلى السلام الذي يدعو إليه الإسلام، والاتفاق مع أتباع الفلسفات الوضعية على حفظ الأنفس والأعراض، والتعاون على حفظ العقول والأديان والأموال، وإن صيانة هذه الأشياء من الإعتداء عليها هي من مقاصد الشريعة الإسلامية.

وخلال الحوار مع أتباع الفلسفات الهندوسية والبوذية يمكن تفنيد تلك الإشاعات المغرضة التي تم ترويجها بهدف توسيع هوة الخلاف بين المسلمين والهندوس والبوذيين بأن الحكام المسلمين مارسوا الظلم والتعسف ضد الهندوس فقاموا بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال وهدم المعابد والأصنام، وقد تسربت هذه الإشاعات المغرضة إلى بعض كتب المناهج الدراسية ما يؤثر سلباً على الجيل الجديد من الهندوس ويثير حفيظتهم ضد المسلمين مع أن الحقائق التاريخية تفند تلك الأكاذيب وأن المنصفين من المؤرخين غير المسلمين من أمثال البروفيسور «رام شرما» و «تارا شندر» و «بي إن باندي» يؤكدون أن تعامل الحكام المسلمين مع الهندوس كان بمنتهى العدل طوال فترة حكم كلي أو جزئي للمسلمين منذ عصر محمد بن قاسم الثقفي ٧١١م إلى نهاية حكومة بهادر شاه ظفر آخر ملوك المسلمين في عام ١٨٥٧م



ولم يتم إرغام أحد على قبول الإسلام لأن الإسلام لا يقر بذلك ولأن وجود الأكثرية الهندوسية حوالي دلهي ولكناؤ، وأحمد آباد وأكبر آباد وغيرها من العواصم أكبر دليل على ذلك.

كما أن المؤرخ الإنكليزي المعروف «سر تامس آرنلد» في كتابه دعوة الإسلام (Preaching Of Islam) يثبت ذلك بأدلة واضحة أن المسلمين لم يجبروا الهندوس على قبول الإسلام.

لذا ينبغي أن يفتح باب الحوار وحول كافة النقاط الحساسة و في ضوء المعلومات والوثائق الدقيقة و في جو التفاهم بين المتحاورين.

ضرورة الحوار:

إن الحوار بين الحضارات وكذلك بين ممثلي الأديان والمذاهب وأتباع الفلسفات الوضعية ضرورة إنسانية ملحة لأننا نعيش في عصر اشتد فيه الصراع بين الشعوب، وانتشر النزاع بين الأمم، وتراجعت فيه القيم الإنسانية: العدل والصدق والمساواة، مع أن هذا العصر قد تكاثرت فيه وسائل الإقتراب والاتصال وأصبح فيه العالم بمثابة قرية صغيرة وزادت فيه قدرات الإنسان على احتواء المسموعات والمرئيات والمنقولات عبر الأثير والمرسلات على جناح الشبكات العنكبوتية وكان من مقتضيات هذه الثورة الصناعية والمعلوماتية أن تسود في العالم مبادئ التعاون والتفاهم وظروف التصالح والتعايش.

إن الإسلام رسالة السماء ودين البشرية جمعاء و إن نبي الإسلام أرسل



رحمة للعالمين وان القرآن الكريم يحث على مبدأ الحوار بين أهل الديانات المختلفة ويدعوهم إلى كلمة سواء.

و إن الحوار مع أتباع الفلسفات الوضعية الذين يؤمنون بالهندوسية أو البوذية أو الجينية أو السيخية أو الكنفوشيوسية أو الطاوية أو الشنتو وغيرها ويتواجدون بكثافة في الهند والصين واليابان وغيرها يمكن أن يكون في مجالات عديدة فهناك تاريخ حافل بالتعاون مع اختلاف المعتقدات والأفكار أو الفلسفات.

إن الحوار يختلف عن " المناظرات " حيث إن المناظر يحرص على أفحام الخصم بينما يكون المحاور حريصاً على اقناع من يجري معه الحوار وهو الأمثل في هذا العصر.

إن الذين يتبعون الفلسفات الوضعية مثل البوذية والهندوسية لا يستهان بعددهم فهم معظم سكان الهند والصين واليابان وبتأثيرهم في ما يشهده العالم من أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة، فالصين بمبادئها الشيوعية وشعبها البوذي وكذلك اليابان بصناعتها الفائقة مع تمسك شعبها بالبوذية عموما من الدول العملاقة، والهند بتراثها وعدد سكانها وانتعاشها الاقتصادي من الدول الناهضة والمؤثرة لذا يجب البحث عن نقاط الاتفاق والاختلاف بين ما يؤمن به شعوبها وبين مبادئ الدين الإسلامي الحنيف.

فممن يجب التحاور معهم الزعماء وذوو النفوذ من الهندوس والبوذيين وغيرهم وذلك حول النقاط التالية:

- إمكانية التعايش الآمن مع أتباع الديانات الأخرى خاصة مع المسلمين.
- الاتفاق حول الآداب والأخلاق المتفق عليها بين كافة أهل الأديان



والمذاهب ودعوة عامة الناس وجماهيرهم إليها.

- التركيز على المباديء الإنسانية وإبراز قيمة حياة الإنسان حتى لا تهدر دماء الناس من أجل شجرة أو بقرة.
- التعاون مع كافة أهل الأديان في إسداء الخير إلى الإنسانية وفي مجالات إغاثة المنكوبين ومساعدة الملهوفين من خلال مؤسسات طبية واقتصادية خيرية مشتركة خاصة في الأزمات الكبيرة مثل الحروب والفيضانات والزلازل.
- التوقف عن الإساءة إلى المقدسات الدينية مثل القرآن، والرسول ﷺ والكعبة المشرّفة.
- تكوين اتحاد عالمي للديانات والفلسفات الوضعية من أجل مواجهة التيارات العلمانية، والإباحية الأخلاقية التي ترفضها الفطرة الإنسانية، وتستنكرها كافة الأديان والفلسفات ذات مصداقية.
- إبراز جوانب الرفق من تعاليم الأديان حفاظا على السلام والمناخ الآمن من أجل التطور الإنساني والتنمية البشرية الشاملة.
- إيجاد أرضية مشتركة للتعاون بين أهل الملل المختلفة والتعاون بين أهل الديانات المختلفة من أجل تحقيق السلام العالمي.
- وهناك حاجة إلى عقد لقاء مع زعماء البوذيين والهندوس خارج الوطن العربي.

إن مواصلة الحوار مع أهل الأديان وأتباع الفلسفات الوضعية سوف تفتح قلوباً غلفاً وتسمع آذاناً صماً وتبصر أعينا عمياً لقبول الحق والصدق بتوفيق من الله سبحانه وما ذلك على الله بعزيز.



كشف المراجع

١- تاريخ الإسلام في الهند، د. عبد المنعم النمر

٢- أديان الهند الكبرى، د. أحمد شلبي

٣- ثقافة الهند، مجلة حكومية

٤- حضارة الهند، غوستاف لوبون

٥- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي

٦- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد

٧- بوذا الأكبر، حامد عبد القادر

٨- الأدب الهندي المعاصر، محي الدين الألوائي

٩ - المعتقدات الدينية لدى الشعوب، إمام عبد الفتاح إمام

١٠- فلسفة الهند القديمة، عبد السلام الرامفوري، أبو الريحان البيروني

١٢- الأديان الحية، أديب صعب

١٣- المقدمة، ابن خلدون

١٤- الفكر الصيني، ترجمة: عبد الحليم سليم

١٥- البوذية، هنري ارقون

١٦- الديانات الوضعية الحية، د. محمد العربي



١٧- العقل والنقل للعثماني

١٨- قصة الحضارة، ويل ديورنت

١٩- انجيل بوذا، ترجمة: سامي سليمان

٢٠- البوذية، هنري أرفن

٢١- سيرة السلطان تيبو، محمد إلياس بتكلي

٢٢- المناظرة الكبرى، رحمة الله الكيرانوي

٢٣- الهوة المتزائدة ، د. رفيق زكريا

٢٤- دعوة الإسلام، البروفيسور آرنلد، وكتب أخرى ذات صلة بالموضوع.





مستقبل الحــوار في ظل الإساءات المتكررة إلى الإسلام

فـوزي فاضــل الزفــزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية
وكيل الأزهر سابقاً





مقدمة

لقد سئمت شعوب العالم الحروب، وأيقنت عن قناعة أن الحروب لن تحل المشكلات التي تقع في المجتمع الإنساني، وأن القتال لن ينهي الخلافات التي تنشأ بين الدول...، بل على العكس، وجدت الشعوب أن القتال والحروب تزيدها تعقيداً، وتولد الكراهية والبغضاء بين الشعوب المتحاربة، وأنها تدفع الشعوب المنهزمة المقهورة التي غُلبت على أمرها، تدفعها دفعاً إلى أن تتولد لديها غريزة الانتقام، وإلى أن تتبنى خطة الانتقام والأخذ بالثأر من الدول المنتصرة عليها...

وهكذا تعيش شعوب العالم في مآسي القتال والحروب التي تجلب الخراب والدمار، وتترك وراءها ملايين القتلى من العسكريين والأطفال والنساء والشيوخ من المدنيين، إضافة إلى الملايين من مشوهي الحرب من الجانبين...

ولقد عاش كبار السن في دول العالم- من الجيل الحالي- مآسي الحرب العالمية الثانية، وما خلّفته من دمار شامل في دول الغرب- التي بدأت منه- وفي دول الشرق التي لم تكن طرفا فيها...

ونعيش جميعاً ما يحدث- حالياً- في بعض دول العالم- من قتال وصراعات واعتداءات ظالمة صارخة من بعض الدول القوية التي تستغل تفوقها العسكري والاقتصادي في الاعتداء على الدول الضعيفة، وفرض هيمنتها عليها لاستغلال ثرواتها، وبسط نفوذها على المناطق المحيطة بها...



وهو ما نشاهده في فلسطين وأفغانستان والعراق والشيشان.. الخ

لذلك اتجهت شعوب العالم في النصف الثاني من القرن العشرين إلى منهج الحوار، واتخاذه أسلوباً لعلاج المشكلات التي تنشأ بين الدول، ومنهجاً للتعامل فيما بينها لحل القضايا والخلافات، والوصول إلى نتائج سليمة ترضي الأطراف المتصارعة... وعلا صوت المنادين بالحوار في دول العالم، وأعلنوا أنه لا بديل عن الحوار في حل المشكلات المحلية أو الإقليمية أو الدولية... وشكلت له مؤسسات ولجان شملت جميع مجالات الحياة: دينية، وثقافية، وحضارية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية...الخ، منها مؤسسات ولجان الحوار الديني، وحوار الحضارات...

وتحققت نتائجه الدولية في بعض المجالات، وكان أبرزها تحقيق الوحدة الأوروبية!! فمن كان يفكر أو حتى يظن أثناء الحرب العالمية الثانية، أو بعد انتهائها في عام ١٩٤٥م إلى أن الدول المتحاربة مثل: ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا...الخ ستنضم- مستقبلاً- في وحدة أوربية تجمعها لتتعاون فيما بينها اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً...!!، بل وتتخلى كل دولة من دول الوحدة عن عملتها النقدية- التي هي جزء من تاريخها وتراثها- وتتعامل بعملة مالية نقدية جديدة موحدة فيما بينها «اليورو»، ويدخل المارك الألماني والفرنك الفرنسي والليرة الإيطالية...الخ في ذمة التاريخ!!

إن أي شخص لو كان قد قال هذا في ذلك الوقت لاتهم بالخبل والجنون...

ولكن قد تم ذلك وتحقق عن طريق الحوار...



موقف الإسلام من الحوار

قبل أن نتحدث عن أهمية الحوار الديني والحضاري ومدى الحاجة إليه، أو عن عدم أهميته وعدم الحاجة إليه... يتطلب الأمر أولاً أن نُبيّن موقف الإسلام من الحوار بصفة عامة: سواء أكان بين المسلمين و غير المسلمين، أم بين المسلمين فيما بينهم، وهل الإسلام يقر الحوار ويدعو إليه أم يرفضه ولا يوافق عليه؟

نقرر ونؤكد على أن: الحوار هو لغة الإسلام، وقد قضى الله- سبحانه- أن تكون علاقته- جل شأنه- بمخلوقاته قائمة على أساس الحوار الإقناعي؛ وليس على أساس القهر والإكراه، وأن القرآن الكريم- وهو دستور المسلمين، ومصدر عقيدتهم وشريعتهم- قد وجهنا إلى أن الحوار هو الأسلوب الذي يجب على المسلمين اتباعه عند بحث القضايا والمشكلات، وعند مناقشة حل الخلافات التي تنشأ بين المسلمين وغيرهم، أو بين المسلمين بعضهم مع بعض...

وأن الحوار هو اللغة التي استعملها الله- جل شانه- مع مخلوقاته ليرشدنا إلى استعمال الحوار في جميع مجالات حياتنا، من أجل الوصول إلى الحق عن اقتناع عقلي، وارتياح نفسي، واطمئنان وجداني... كي يعيش المجتمع الإنساني في إخاء وتواصل، وأمن وأمان، وحب وسلام...

وقد أراد- سبحانه- أن يعلمنا علمياً- وبواسطة القدوة- أن النهج السليم في تأسيس وإدارة العلاقات بين البشر، أن يكون قائماً على أساس مبدأ



الحوار وحسن استخدامه مع الناس كافة: أفرادا كانوا أو جماعات، أو شعوبا وحضارات، مسلمين وغير مسلمين: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (البقرة:٨٣)،و﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً﴾ (طه: ٤٤) ، و﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ (الأحزاب٧٠): ،و﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦). الخ الآيات القرآنية التي وردت في القرآن الكريم تؤكد على ذلك..

نقرأ القرآن الكريم فنجد: أن مادة "القول" وما اشتق منها: كقال، ويقول، وقل، وقالوا، ويقولون، وقولوا...الخ، هذه المادة التي تدل على: التحاور والمناقشة والجدال والمعارضة والمراجعة بين الناس فيما يتعلق بأمور حياتهم، قد تكررت في القرآن الكريم أكثر من ألف وسبعمائة مرة [(١)].

فمثلا لفظ "قال" قد تكرر في القرآن الكريم أكثر من خمسمائة مرة، ومن ذلك قوله- تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

ولفظ "قالوا" قد تكرر في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمائة مرة، ومن ذلك قوله- سبحانه-: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا

---

(١) "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي.



تؤمرون. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ (البقرة: ٦٧- ٧١).

ولفظ "يقول" قد تكرر في القرآن ثمان وستين مرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ (المائدة: ١٠٩).

ولفظ "قل" تكرر في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمائة مرة، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾ (الأنعام: ١٩).

ولفظ "يقولون" قد تكرر في القرآن الكريم أكثر من تسعين مرة، ومن ذلك قوله جل شأنه: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ (الكهف: ٢٢).

وأسلوب الحوار والجدال وعرض الآراء والمناقشة في القرآن الكريم يتسم باتساع دائرته، وتعدد قضاياه، وشموله لما لا يحصى من الموضوعات.

هناك حوار بين الرسل وأقوامهم، أو بين الأخيار والأشرار، أو بين الأخيار



فيما بينهم، أو بين الأشرار فيما بينهم.

وهناك حوار مع أهل الكتاب، أو مع المنافقين، أو مع المقلدين لسابقيهم في الباطل والضلال، أو مع السائلين للرسول- عليه الصلاة والسلام-.

وهناك حوار يدور حول إثبات وجود الله- جل شأنه- ووحدانيته، وحول الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، وثواب وعقاب، وهناك حوار حول القرآن الكريم وإعجازه...الخ ما ورد في القرآن الكريم من حوارات في موضوعات كثيرة...

فهذه الآيات الكثيرة التي تكررت في القرآن الكريم، وردت فيها مادة " القول " وما اشتق منها، والتي تكررت أكثر من ألف وسبعمائة مرة- كما أشرنا سابقا- إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الحوار هو لغة الإسلام، وأنه اللغة التي ارتضاها الخالق- جل شأنه- لعباده للمناقشة والجدال والتفاهم في حل مشكلاتهم وقضاء مصالحهم...



البابا بندكت السادس عشر والحوار

من المسلم أنه حدث فتور في الحوار الإسلامي المسيحي الكاثوليكي منذ أن تولى البابا بندكت السادس عشر بابوية الفاتيكان، أو بتعبير أكثر صراحة ووضوحاً حدثت انتكاسة للحوار الإسلامي المسيحي الكاثوليكي منذ توليه.

وتعود أسباب ذلك إلى الآتي:

(أ)- سبق أن شكل المجمع الفاتيكاني الثاني - في الستينيات- نقطة تحول في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، حيث دعا الكاثوليك لتغيير موقفهم إزاء مؤمني الديانات الأخرى، وأنشئت بعد ذلك بقليل مؤسسات حوار جديدة في الفاتيكان، وفي المقر الرئيسي لمجلس الكنائس العالمي، وأسست في بلدان عدة هيئات مشابهة ومعاهد للتعليم والبحوث.

ثم جرت- بعد ذلك- عشرات اللقاءات بين الجامعيين ورجال الدين والسياسيين، فسبروا غور مجالات عدة، وتدارس البعض منهم النواحي العقيدية والصوفية للمسيحية والإسلام، فيما عالج آخرون المسائل الاجتماعية والثقافية...

ومع مرور الزمن تزايد عدد المنخرطين في ضروب الحوار تلك، فيتواجد الآن مسيحيون من كافة المذاهب، ومسلمون من جميع الأمم والأنظمة في صفوف المشتركين والمنظمين لأحداث حوارية من أنواع متعددة.

وقد اتّبعت بصورة منظمة لقاءات معينة بين الجانبين: جماعة من



المحاضرين بأعداد متساوية؛ تقدّم بالتناوب وجهات النظر المسيحية والإسلامية في موضوعات محددة، أمام حضور موسع، ويصدر عقب كل لقاء- في معظم الأحيان- إعلان مشترك يوصي بالتفاهم والمزيد من تبادل الآراء، والعمل المشترك لمواجهة عدم المساواة بين البشر، واندلاع الحروب، وتفشي المظالم...الخ (١).

(ب)- كان البابا بندكت السادس عشر- قبل أن يتولى بابوية الفاتيكان- يمثل القوى المحافظة في الفاتيكان- الكنيسة والدولة- منذ أن شغل موقع رئيس لجنة العقيدة في المؤسسة الكنسية الفاتيكانية.

وقد لعب الكاردينال "راتزينجر" وهذا هو اسمه قبل أن يتولى بابا الفاتيكان ويسمي نفسه البابا بندكت السادس عشر، لعب دورا بارزا في التصدي لكل محاولات الخروج على المقررات الفاتيكانية التي كانت مقررة سابقا "قبل المقررات الجديدة التي أقرها المجمع الفاتيكاني الثاني"، ومثالها الأشهر التصدي لـلاهوت التحرير ومدارسه وحركاته في أمريكا اللاتينية، وأسيا وأفريقيا، واعتبارها حركات اجتماعية ذات طابع يساري نشأت تحت وطأة انتشار الأفكار والأيدلوجيات الماركسية والاشتراكية أثناء بابوية البابا الراحل يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان.

(جـ)- اتّباع البابا بندكت السادس عشر في سياسته منهجاً مضاداً لمنهج سياسة الانفتاح على أصحاب الديانات الأخرى، بما فيها الإسلام والبوذية

---

(١) من بحث بعنوان: "تقييم الحوار المسيحي الإسلامي في الآونة الأخيرة" للأب الدكتور جان ماري غوديل، ألقاه في ندوة الحوار التي عقدت فى طرابلس- ليبيا- في الفترة من ١٦- ١٨ مارس ٢٠٠٢م.



وغيرها، وقد كان بابا الفاتيكان الراحل يوحنا بولس الثاني قد اتخذه منهجاً لسياسته ؛ تمشياً مع مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني[(١)].

ولعل تهميشه لدور "المجلس البابوي للحوار بين الأديان" - بعد توليه البابوية- ونقل رئيسه الأسقف/ فيتزجيرالد، وتعيينه سفيراً للفاتيكان في القاهرة يؤيد ذلك.

(د)- اتجاه التأويلات الدينية للبابا بندكت السادس عشر صوب المحافظة حيناً، والتشدد حيناً آخر، ويلاحظ أنه يحاول أن يصنع ضوابط وحدوداً على النظام العقدي واللاهوتي الكاثوليكي، لإعادة تجديد إيمان الكتلة الكاثوليكية عبر ضبط حدودها الإيمانية وتعاليمها، إزاء زحف البروتستانتينية والأرثوذكسية، وتجاه تمدد البوذية، وتجاه الانتشار السريع للإسلام.

(هـ)- القلق الذي يعانيه البابا بندكت السادس عشر من:

١- بروز توترات تعود إلى نقص في عدد الملتزمين بالكاثوليكية في أمريكا الشمالية لأسباب عديدة لعل أهمها: بعض قضايا التحرش الجنسي بالأطفال من قبل بعض القساوسة الكاثوليك، وتورط بعض كبار الأساقفة معهم، ووصول التعويضات عن هذه الأفعال المشينة إلى ملياري دولار، ويذهب البعض إلى أنها ثلاثة مليارات.

٢- عودة بعض مواطني الاتحاد السوفيتي السابق الملحدين إلى دائرة

---

(١) وأقوى الأدلة على ذلك زيارته لمشيخة الأزهر الشريف في فبراير عام ٢٠٠٠م أثناء زيارته لمصر، وتبادل الكلمات الطيبة بينه وبين فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وزيارته لدير سانت كاترين في سيناء، وزيارته لبعض الدول الإسلامية والعربية.



الكنيسة الأرثوذكسية الروسية.

٣- ظاهرة انتشار العلمانية، وعدم الاهتمام بالدين في دول أوربا.

وقد انعكس ذلك في محاولته نشر المذهب الكاثوليكي في مناطق أخرى من العالم.

(و)- أثار البابا بندكت السادس عشر أزمات عديدة مع الإسلام منذ توليه، أشهرها محاضرته ذائعة الصيت السلبي حول الإسلام والمسيحية والعقل، التي ألقاها في أحدى الجامعات الألمانية ... والمحاضرة في مجموعها عرض ديني فلسفي عن الذات الإلهية من وجهة نظر المسيحية، وعن التيارات المسيحية في القرون الوسطى...

غير أن البابا في آوائل محاضرته- وبعد أن ذكر جانباً من ذكرياته الخاصة مع هذه الجامعة- قال: (كل هذا حضرني وأنا أقرأ مؤخرا كتاباً للبروفسور "تيودورخوري" الذي أخرج فيه جزءاً من نقاش دار بين القيصر البيزنطي- مانويل الثاني- وبين أحد المثقفين الفرس. وكان هذا النقاش في شتاء عام ١٣٩١م، ودار هذا الحوار حول الإسلام والمسيحية وحقيقة كليهما).

وقد توجه القيصر مباشرة، وبطريقة فظة إلى مناقشه الفارسي بالسؤال عن العلاقة بين الدين والعنف فقال له: أرني ما هو الجديد الذي جاء به محمد؟ لن تجد سوى كل ما هو سيء، وغير إنساني، وذلك مثل نشر الاعتقاد الذي كان يُعلّمه لخصمه باستخدام السيف!!

وللأسف فقد وقع البابا في خطأ ما كان ينبغي أن يقع فيه، إذْ ذكر هذا الكلام السيء عن الإسلام نقلاً عن غيره، ثم لم يعلق ولم يعقب عليه،



كما لم يذكر رد المثقف الفارسي على القيصر البيزنطي، فكأنه راض عن هذا الكلام [١].

أهمية زيارته لأمريكا[٢]

اكتسبت زيارة البابا بندكت السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية أوائل عام ٢٠٠٨م بعضاً من الأهمية السياسية والرعوية للأسباب الآتية:

١- لأنها تمت في لحظة تاريخية تتسم بالتوترات والقلق والخوف الكوني من نزاعات الأديان ومنافساتها على خرائط النزاعات الدولية الأخرى.

٢- الأهمية النسبّية لموقع كلتا الدولتين في النظام الدولى: فالأمبراطورية الأمريكية تبدو تجلياتها في القوة الاستراتيجية الكونية ومصادرها العسكرية والاقتصادية والتقنية والعلمية... والبابا يقود امبراطورية رمزية، ويحمل مصادر للقوة العقدية والحضور الروحي على المستوى العالمي...

وكلتا القيادتين يتسم تفكيرهما بالنزعة الدينية المحافظة، والحضور المؤثر في قلب التفاعلات الدولية وصراعاتها.

٣- العلاقات التاريخية بين المؤسسة الأمريكية والفاتيكان في ظل تقارب

---

(١) أشرت إلى هذا الموضوع بشيء من التفصيل في البحث الذي قدمته في مؤتمر مكة المكرمة السابع الذي أقامته رابطة العالم الإسلامي في ٥-٧/ ١٢/ ١٤٢٧هـ تحت شعار: "نصرة نبي الأمة ﷺ، وعنوان البحث: "موقف مؤسسات الحوار الحضاري ومسؤوليتها".

(٢) من مقال نشر في جريدة الأهرام المصرية بعنوان: "زيارة البابا لأمريكا.. قوة الرمز ورمز القوة" للأستاذ/ نبيل عبدالفتاح مساعد مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ورئيس تحرير تقرير الحالة الدينية في مصر، ورئيس تحرير كتب مركز الدراسات بالأهرام "بتصرف".



وحوار واتفاقات واختلافات... ولاسيما منذ الحرب الباردة، والدور البارز للبابا البولندي الأصل الراحل يوحنا بولس الثاني في دعم عمليات انهيار النظام السوفيتي والكتلة الامبراطورية الماركسية...

٤- تولى البابا- الألماني الأصل- بندكت السادس عشر بابوية الفاتيكان ليتوج ذروة النزعة المحافظة، وتراجع خطابات لاهوت التحرير، وتقوية هيمنة السلطة البابوية على الكتلة الكاثوليكية العالمية، بما يصفه بعضهم بتراجع مجمع الفاتيكان الثاني..

إن زيارة البابا لأمريكا تبدو رعوية، ولكنها سياسية في ظل اتفاق الدولتين إزاء بعض القضايا الاجتماعية والطبية: كرفض بوش والبابا للإجهاض، والقتل بدافع الرحمة، وأبحاث خلايا المنشأ الجنينية، وزواج المثليين.. وذلك كتعبيرات عن عقائد وإدراكات دينية وسياسية محافظة.

وإن كانتا تختلفان في الرأي حول طبيعة الحرب في العراق: حيث يراها الأمريكان مشروعة وضرورية للقضاء على تهديدات أسلحة الدمار الشامل، والمساعدة في نشر الديمقراطية وقيمها في المنطقة!! ويراها الفاتيكان أنها لا تدخل ضمن مفهوم الحرب العادلة.

وقد لوحظ على الخطاب البابوي- أثناء الزيارة:

(أ)- أنه بدأ يتحرك حول نزعة محافظة تحاول التوافق مع بعض ملامح عصرنا، كالدعوة إلى حقوق الإنسان، وحرية التدين والاعتقاد..

(ب)- أنه حاول أن يدعم روحياً ضحايا فضائح التحرش الجنسي



بالأطفال القصر على أيدي كهنة كاثوليك بلغوا أكثر من أربعة الآف كاهن منذ عام ١٩٥٠م، ودفعت الكنائس أكثر من مليارين من الدولارات تعويضاً عن تلك الأفعال المشينة.. كما تضمن الخطاب انتقاداً لرجال الدين الكاثوليك، ولا سيما بعض الأساقفة الذين تواطؤوا مع بعض الكهنة الآثمين، والذين بلغ المدانون فيهم ٤٣٩٢ من أصل ١١ ألف كاهن خدموا في أمريكا بين أعوام ١٩٥٠- ٢٠٠٢م، وحاول الخطاب الرعوي السياسي البابوي أن يتجاوز الأزمة التي ألَّمت بالضمير الكاثوليكي الأمريكي.

إن زيارة البابا لأمريكا تعد جزءاً من الدبلوماسية الدينية الاحتوائية والدفاعية التي استهدفت وقف عملية تراجع الكاثوليكية في أمريكا، حيث فقدت الكاثوليكية خلال السنوات الماضية نحو ٧٪ من مؤمنيها الذين كانوا يشكلون ٣١٪ من الأمريكيين... واستطاع البابا أن يحقق قدراً من التعبئة العقائدية للكاثوليك القادمين من أمريكا الجنوبية والوسطى، وامتدح ما أسماه حيوية معتقداتهم الدينية، وذلك كجزء من دبلوماسية التنافس المذهبي مع البروتستانتينية ومؤسساتها البارزة التي تمثل ٥١٪ من الأمريكيين.

كما سعت سياسة الفاتيكان إلى محاولة وقف التوتر في بعض مناطق الوجود الكاثوليكي خصوصاً، والمسيحي عموماً، وفي بعض مناطق النزاعات المسلحة والحروب ولاسيما في العراق حيث تعرضت الكنائس والمَحال والمسيحيين- الكلدان- إلى عنف تدميري ودموي، وآخرهم رئيس الأساقفة الكلدان في الموصل بولص فرج رجو، وإلى وقف نزيف هجرة المسيحين من العراق..



ومن أبرز المواقف أثناء زيارة البابا لأمريكا: ما ذهب إليه البابا أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة للدعوة لعودة مفهوم الحماية الدولية والمسؤولية الدولية عن طريق المنظمة الدولية، وهو أمر فشل في أزمة التطهير العرقي في رواندا عام ١٩٩٤م، واستخدم في شمال العراق، واستخدم في حق التدخل الإنساني في الصومال، واستخدم ذريعة للتدخلات الأمريكية في مناطق متعددة حول العالم.

إن نتائج زيارة البابا للولايات المتحدة الأمريكية تشير إلى تجنب كلا الطرفين القضايا الخلافية، مع إبداء القلق المشترك من الوضع في العراق، وفي بعض مناطق أخرى في المنطقة، وأن الطرفين يأملان في حل النزاع الفلسطيني الإسرائيلي مع إقامة دولة فلسطينية مستقلة، مع دعم سيادة لبنان...

وكلها صياغات دبلوماسية عامة وغير محددة، وسائلة، ولا تنطوي على التزامات محددة..

ومن أبرز ما حاول البابا إنجازه- في حدود- هو رفض إلغاء صلاة الجمعة العظيمة التي تدعو إلى اعتراف اليهود بالمسيحية، مع رفضه أي موقف ازدراء أو تمييز إزاء اليهود، أو أي شكل من أشكال معاداة السامية...

والتصدي للنشاط التبشيري البروتستنتي، والانتشار الإسلامي، والبوذية التي تنتشر بنعومة في الولايات المتحدة الأمريكية وفي الغرب..

إن الهدف من الحديث عن زيارة البابا بندكت السادس عشر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعن نشاطه الديني والسياسي خلال هذه الزيارة، هو إلقاء الضوء الكاشف على فكر واتجاهات وسياسة الفاتيكان تحت قيادة البابا بندكت السادس عشر، لتحديد سياستنا وخططنا ومنهجنا عند الحوار مع الفاتيكان.



أهمية الحوار الديني في الوقت الراهن

إذا كان الحوار الإسلامي المسيحي الكاثوليكي قد أصيب بفتور، بل وتعرض لنكسة منذ أن تولى البابا بندكت السادس عشر بابوية الفاتيكان، فليس معنى ذلك أن نتوقف عن الحوار الديني مع الآخرين، أو أن نغلق هذا الملف الحيوي الهام.

فالحوار الإسلامي المسيحي مع الكنيسة الانجليكانية "كانتبري " يسير سيراً حسنا، وتسوده العلاقات الطيبة، والاحترام المتبادل، والتفاهم الإيجابي، والتعاون البناء منذ أن تم توقيع اتفاقية الحوار بينها وبين الأزهر الشريف في يناير ٢٠٠٢م ... وهذا يدعونا إلى التفاؤل، وإلى المضي قدماً في مشوار الحوار الديني لنحقق أهدافه السامية المنشودة، والغاية النبيلة المأمولة.

إن العالم اليوم طغت فيه العلمانية أكثر من أي عصر مضى، وظاهرة البعد عن الله صارت سمة من سمات العصر الحديث، والصراعات بين الدول المختلفة كثرت وتفاقمت، وذلك يعود إلى أسباب عديدة نطرح بعضها تمثيلاً؛ لا حصراً فيما يلي :

١- بروز بعض ظواهر التوتر والنزاعات بين الدول والكتل الدينية الكبرى في عالمنا المعاصر، وبين بعض المذاهب داخل الأديان نفسها، ومثالها:

(أ)- الكاثوليكية إزاء البروتستانتينية والأرثوذكسية.

(ب)- بعض مظاهر التوتر الإسلامي على مستوى مذهب أهل السنة والشيعة، وخاصة في ظل انعكاسات الغزو والاحتلال الأمريكي للعراق.



(جـ)- ظواهر التوتر الديني بين بعض الجماعات الإسلامية وبين المقاومة الفلسطينية المشروعة إزاء الاحتلال الإسرائيلي ، وانعكاسات ذلك على بعض صور اليهودي في بعض التصورات الإسلامية "الصهيونية العالمية".

٢- محاولة بعض الدوائر في عالمنا المعاصر إشعال الصراع أو التوتر بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى، وإظهار الدين الإسلامي العظيم بقيمه المتسامحة والعادلة، ومبادئه الراقية التي تدعو إلى التعارف والتعايش والتعاون والحب والإخاء بين الناس جميعا... إظهاره بمثابة العدو للغرب، كما ورد في كتابات "صمويل هانتجتون" في كتابه "صراع الحضارات".

٣- الآثار السلبية لأحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م الدامية، والتي ترسخت في العقل و الوعي والإدراك الجماعي الغربي إزاء الإسلام... وما أثارته هذه الأحداث من مجموعة من المقولات النمطية ضد الإسلام، التي ظهرت وكثرت في الآلة الإعلامية الغربية، وفي مناطق أخرى من عالمنا، والتي أساءت إساءة بالغة للمسلمين حيث قدمتهم للعالم في صورة إرهابيين، بل وتجاوزت هذه المرحلة وقدمت الإسلام ذاته على أنه دين عنف وقتال وسفك دماء..

صور نمطية واستشراقية قديمة ومغلوطة حول ديننا العظيم الذي جاء رحمة وهداية للعالمين، وتنطوي على سلبيات قديمة أشاعتها بعض الدوائر الغربية حول الإسلام: العقيدة والشريعة والقيم والمبادئ الأخلاقية والثقافة والتاريخ...

وهذا يدعونا إلى التمسك بالحوار الديني ، وإلى أن نبذل كل ما في وسعنا لنشره وتعميمه، فالحوار الديني بين أتباع الديانات السماوية يحقق أهدافاً



سامية تخدم البشرية، منها على سبيل الاسترشاد لا الحصر:

١ – أن الحوار الديني وسيلة فعّالة للتفاهم والتقارب والتآلف بين أتباع الديانات.

٢ – أن استخدام الحوار الديني يؤدي إلى الارتقاء بالقيم الإنسانية والأخلاقية، وإلى توضيح ارتباطها بالقيم الروحية المستمدة من التعاليم الدينية.

٣– أن استخدام الحوار الديني يؤدي إلى تجميع القوى الدينية لمواجهة الإلحاد والانحلال والمذاهب اللادينية الهدامة.

٤ – أن استخدام الحوار الديني يؤدي إلى الحد من انتشار الرذيلة، والقضاء على الفساد الاجتماعي .

٥ – أن استخدام الحوار الديني يساهم في حل قضايا الصراع الديني بين الشعوب مختلفة الأديان، وبين أبناء الشعب الواحد المنتمي عقائديا إلى أديان متعددة، وبين أبناء الشعب الواحد المنتمي إلى دين واحد ولكنه يتصارع مذهبيا.

٦ – أن استخدام الحوار الديني يساهم في حل بعض المشكات السياسية والاقتصادية والاجتماعية سواء على المستوى العالمي الخارجي ، أم على المستوى المحلي الداخلي ، لاسيما وأن بعض هذه المشكلات ترجع جذورها إلى صراعات دينية.

٧– أن استخدام الحوار الديني يساهم في نشر التسامح، وتحقيق المحبة بين البشر ليسود السلام بين الجميع.



٨- أن استخدام الحوار الديني يؤدي إلى القضاء على التعصب والتطرف الديني وما ينتج عنهما من عنف وإرهاب.

٩- أن استخدام الحوار الديني يساهم في التعاون بين أتباع الديانات السماوية على تقديم المساعدات الإنسانية للمناطق التي تصاب بالكوارث.

١٠- أن استخدام الحوار الديني يؤدي إلى احترام الشعائر والأماكن والمقدسات الدينية لأتباع الديانات المختلفة، وعدم التعرض لها بسوء [١].

---

(١) بحث "الحوار الديني وأهميته فى العصر الحاضر" إعداد مقدم البحث.

الإساءات المتكررة للإسلام وطرق علاجها

العداء للإسلام في أغلب مجتمعات دول الغرب لم ينقطع يوما ما، فالكتب التي ألفت وتؤلف ضد الإسلام، والمقالات التي نشرت وتنشر في وسائل الإعلام المضلل الذي أساء للمسلمين إساءة بالغة، حيث قدّمهم للعالم في صورة إرهابيين معتدين قتلة، بل وقدموا الإسلام ذاته على إنه دين عنف لم تتوقف، والاتهامات الباطلة ضد الإسلام والتي تحذر منه لأنه دين يُكره الناس على اعتناقه، وعلى استباحة أموال وأعراض وأرواح غير المسلمين لم تهدأ ولم تفتر...

غير أن أعداء الإسلام قد تجاوزوا الحدود والخطوط في عدائهم للإسلام إلى التطاول على شخصية الرسول- عليه الصلاة والسلام-، فتناولوه بالرسوم الكاريكاتورية السيئة التي نشرت في وسائل الإعلام المختلفة، والتي تنطق بعداء سافر للإسلام والمسلمين، وتكشف عن حقدهم البغيض على الإسلام، وعلى الجرأة في السخرية برسل الله وأنبيائه، وانعدام احترام الرموز الدينية للأديان، كما حدث في الدانمارك وفرنسا وإيطاليا... كما تتمثل في الأحاديث المتدنية الساقطة التي يدلي بها للأسف الشديد بعض من ينتسبون إلى رجال الدين غير الإسلامي عبر الفضائيات، وعبر الإنترنت...

والفيلم الذي أنتجه هولندي متعصب حاقد على الإسلام، مستخدماً بعض كلمات آيات قرآنية لم يكملها، توحي لمن يسمعها- وهي مبتورة عن بقية كلمات



الآيات التي تكمل وتوضح المعنى الصحيح لها- توحي له أن القرآن الكريم يدعو إلى الاعتداء على الآخرين وقتالهم، وإلى استباحة أرواحهم وأموالهم، في محاولة منه غير أخلاقية لتشويه صورة الإسلام والمسلمين...

إذا كنا نعاني من تلك الإساءات المتكررة للإسلام من أعدائه، وإذا كنا نتألم من اتهام الإسلام- زوراً وبهتاناً- بالإرهاب والقتل وسفك الدماء، وإذا كان أعداء الإسلام قد تجاوزوا الخطوط والحدود في عدائهم للإسلام إلى التطاول على شخصية الرسول ﷺ.

إذا كنا نقاسي من كل هذا فما علاج ذلك؟

ليس علاج ذلك أن نتردى في إسفافهم بإسفاف مثله فنرد عليهم بمثل إساءتهم، لأننا نؤمن بجميع الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله- سبحانه- ونحترمهم ونجلهم، وقد أمرنا الله بذلك ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

وليس العلاج أيضاً أن نصاب بالإحباط فنتقوقع وننكمش على أنفسنا ونغلق أبواب الاتصال بغيرنا، ونعلن مقاطعة الحديث والتفاهم معهم... لأننا إذا فعلنا ذلك فقد حققنا لإعداء الإسلام ما يصبون إليه، ووقعنا في الشرك الذي ينصبوه لنا، وأكلنا الطعم الذي رموه لنا... لأن المتربصين بالإسلام ينشدون عزلتنا عن العالم، ويبغون حصارنا في دائرة مغلقة ليكيلوا لنا



الاتهامات بأن الإسلام دين يرفض التعامل والتعايش مع غيره من الأديان، وأن المسلمين منغلقون على أنفسهم يحاربون من عداهم، ويقاتلون من لا يدين بدينهم.

إن العلاج الأمثل هو أن نكرس جهودنا، ونبذل كل ما في وسعنا لإيضاح حقيقة الإسلام الناصعة البياض، الذي جاء خاتما لكل الرسالات السماوية، وفيه ما تحتاجه البشرية في جميع مجالات حياتها إلى أن تقوم الساعة، وأن نبي الإسلام محمداً ﷺ أرسله الله- تعالى- رحمة للعالمين وهدى للمتقين وإماماً للمرسلين... وأن سيرته العطرة من يوم مولده إلى أن لقي ربه حافلة بالعطاء للبشرية، يدعو إلى الخير ويرفض الشر، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، يحاور ويناقش ويجادل كل الناس بالحسنى، يحترم النفس البشرية ويُحرّم الاعتداء عليها وعلى عرضها ومالها...

وتحقيق ذلك يتطلب منا أن نعمل في مجالات كثيرة متنوعة، والمقام هنا لا يسمح ببيانها والحديث عنها(١) .

وإنما أقصر حديثي هنا عن الحوار الديني .

---

(١) مجالات العلاج كثيرة جدا ومتنوعة، ويجب أن نلجها جميعاً مثل:
١- استخدام الإعلام بجميع أنواعه لتوضيح حقيقة الإسلام.
٢- تصحيح المعلومات الخاطئة عن الإسلام التي تدرس فى المؤسسات التعليمية فى الدول الغربية.
٣- إنشاء مراكز بحثية متخصصة تتبع ما يقال وما يكتب وما ينشر عن الإسلام من أباطيل وترد عليها.
٤- إقامة جسور بيننا وبين المنصفين من علماء الغرب الذين يتحدثون بالحسنى عن الإسلام.
٥- إقامة ندوات ومؤتمرات فى الدول الغربية يتحدث فيها علماء متخصصون يجيدون اللغات الأجنبية لتفنيذ المزاعم الكاذبة عن الإسلام... الخ.



دور الحوار الديني

تعود أهمية الحوار الديني في علاج تلك الإساءات المتكررة للإسلام إلى الآتي :

١- حاجة الإنسانية الملحة للحوار بوصفه أحد سمات عصرنا الثقافية، ومدخلا لاحتواء الأزمات والنزاعات الدينية، ولا يمكن لنا أن نعيش بمعزل عن الظواهر الكونية التي فرضت نفسها على شعوب العالم... بل يجب علينا أن نشجع الإيجابي منها الذي يتفق وتعاليم ديننا الحنيف، ونرفض السلبي منها الذي يتعارض وأحكام ديننا..

٢- التصدي لظاهرة تحويل النزاعات السياسية في بعض مناطق العالم إلى نزاعات دينية ومذهبية، بكل ما يمثله ذلك التحول من تأجيج للنزاعات على نحو بالغ الخطورة، لمساسها بعقائد ومشاعر وروحانيات الناس في جميع بقاع العالم الكوني .

٣- الحاجة الملحة إلى ضرورة تصحيح الصور السلبية للإسلام " العقيدة والشريعة والقيم والمباديء الأخلاقية والثقافة والتاريخ " التي تقوم بترويجها وبثها وتوزيعها دوائر إعلامية غربية، وفي مناطق عديدة في عالمنا.. والحوار وسيلة فعّالة وناجحة لتحقيق ذلك.

٤- ضرورة إبراز الحقائق والتمايزات بين الإسلام وتعاليمه ومبادئه السمحة، وبين تصرفات بعض الغلاة والمتشددين الذين مارسوا العنف إزاء الآخرين وفق تفسيرات فقهية تتسم بالغلو والتشدد على نحو ما تم في أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، وأحداث الأقصر ووسط القاهرة وطابا وشرم الشيخ، وأحداث شرق الرياض، وأحداث الدار البيضاء، وأحداث جزيرة بالي ، وأحداث قطار مدريد، وأحداث أنفاق لندن... وغيرها.



المنهج المطلوب لتفعيل الحوار الديني

ما دام الحوار هو لغة الإسلام، وما دام الإسلام هو اللغة التي أرتضاها الخالق- جل وعلا- لتكون لغة التفاهم بين البشر، وهو اللغة التي علمها الله لنا في القرآن الكريم، وما دام الحوار قد فرض نفسه على العلاقات الدولية في العالم، وأصبح ضرورة تحتاج إليها الإنسانية في عصرنا الحالي للأسباب السابق إيضاحها، والمبررات السابق بيانها... فإن الدين والواقع يحتمان علينا أن نلج الحوار ولا نغلقه، وأن نتمسك به ولا نرفضه، وأن نشجعه ولا نخذله...

لا سيما وأننا نواجه أعداء متربصين بنا، يتمنون أن نرفض الحوار الديني ونقاطعه، كي يهللوا ويصيحوا؛ مستخدمين ذلك ذريعة لتأكيد اتهاماتهم الباطلة للإسلام بأنه دين إنعزالي لا يقبل الآخر ولا يتعامل معه...، والصهيونية العالمية عندها من وسائل الإعلام المتنوعة ما يمكنها من نشر أباطيلها، وتعميم افتراءاتها.

وعلى ذلك فإن المصلحة العامة تقتضي الاستمرار في الحوار الديني ، وأن نشجعه ولا نتخلى عنه...

غير أن الحوار الديني الذي بدأنا نمارسه في آواخر القرن الماضي وحتى الآن، يحتاج منا إلى تقييمه، وإلى أن نضع له ضوابط تراعى فيها مباديء أساسية هامة عند ممارسته، لضمان تنفيذه في إطار من المنطق السليم، والفكر المستنير، والجدال بالتي هي أحسن، وإخلاص النيّة في الوصول إلى الحق والصواب، وإلى الخير والرشاد... من هذه الضوابط:



(أ)- اتفاق الطرفين المتحاورين على تحديد الهدف من الحوار: وهو الوصول إلى الحقيقة والصواب في الموضوع محل الحوار، وقبول الحق والتسليم به متى ثبت بالدليل الواضح، والبرهان الساطع، والحجة القوية السليمة... حتى ولو كان إظهار الحق على يد الطرف المخالف.

يقول حجة الإسلام الإمام الغزالي - رحمه الله- عند الحديث عن الآداب التي يجب أن يتحلى بها المتناظران والمتحاوران في مسألة معينة، يقول[١] :

" أن يكون المتحاوران في طلب الحق كناشد الضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد مَنْ يعاونه، ويرى رفيقه مُعينا لا خصما، ويشكره إذا عَرّفه الخطأ، وأظهر له الحق ".

ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: " ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطيء، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يُظهر الله الحق على لساني أو على لسانه، وما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبتُه واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على الحق إلا سقط من عيني ورفضته، وودت لو انتفع الناس بعلمي دون أن يُنسب إلي منه شيء ".

(ب)- الالتزام بموضوع الحوار، وعدم الخروج عنه عند المناقشة وتبادل الآراء فيه بين المتحاورين، فكثيرا ما نرى عند مناقشة موضوع معين محدد تعمد بعض الأطراف المتحاورة الخروج عن الموضوع والدخول في موضوعات فرعية جانبية لا علاقة لها بالموضوع الأصلي ، فتتوه الحقيقة

(١) كتاب: "إحياء علوم الدين" جـ ١- ص ٧٦- ط دار الحديث.



ويتشتت الفكر، وتتشعب المسائل، وبدلا من أن يكون القصد هو الوصول إلى حل مشكلة معينة محددة هي موضوع الحوار، إذ بنا نغوص في مستنقع من المشكلات ظهرت فجأة ولم تكن في الحسبان، بعد أن أختلطت الأوراق وتداخلت الموضوعات...

(ج) نبذ التعصب للرأي ، وضرورة الالتزام باحترام الرأي الآخر، فكثيرٌ من الخلافات التي تحدث بين الناس ترجع إلى التعصب الذميم للرأي أو الفكر، أو إلى التقليد الأعمى العقيم، أو إلى الانقياد إلى الهوى والرغبة في تحقيق منافع شخصية، أو إلى الطموح إلى الشهرة... إلى غير ذلك من الأسباب التي تجعل الحوار لا فائدة منه، بل على العكس تكون النتيجة أن يزداد الخلاف، وتتسع الفجوة بين المتحاورين، وتتباعد المسافات، وتنشأ الصراعات، وتحدث المصادمات...

ولكن لو تجرد أطراف الحوار من التعصب للرأي ، واحترم كل طرف رأي الآخر، وتم إفساح المجال أمام كل طرف كي يعبر عن وجهة نظره دون مصادرة لقوله: أو توجيه إساءة إليه، والتزم الجميع بالحكمة التي تقول: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب، ونتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه" لنجح الحوار وتحققت غايته...

(د)- التزام كل عضو من أعضاء طرفي الحوار باحترام بقية الأعضاء، وعدم التعالي عليهم، والحرص على استعمال الأسلوب الراقي المهذب الذي لا يعرّض بالآخرين، ولا ينقص من قدرهم، ولا يحط من شأنهم... وأن يتجنب الكِبْر والغرور، والتباهي بالأقوال والآراء عند النقاش والحوار،



وليحذر أي إنسان عند مشاركته في أي حوار أن يظن أنه وحده هو الذي يملك الحق المطلق والرأي الصحيح، وأن ما عداه أقل منه علما ومنزلة...

(هـ) تحقيق المساواة بين أعضاء طرفي الحوار في المستوى العلمي والثقافي ، والإلمام الكامل بالمعلومات عن موضوع الحوار، حتى يتسنى لكل طرف إستعمال علمه ومعرفته وثقافته والتعبير عن ذلك بالمنطق السليم، والأسلوب الراقي المهذب، وأن يقدم كل طرف الدليل القوي ، والبرهان الناصع الذي يؤيد رأيه... حتى إذا ما اتضحت الحقيقة واستبان الصواب كان ذلك مبنيا على علم مدعم بالأدلة والبراهين الساطعة من غير أن يقلل من شأن أي طرف.

إذ قد لوحظ في بعض لقاءات الحوار أن يتعمد طرف فيها دعوة بعض أعضاء ليسوا مؤهلين للحوار علمياً وثقافياً ومعرفة ونقاشاً في موضوع الحوار المحدد المعلن " وقد يكونون على مستوى عال من العلم والمعرفة والثقافة في موضوعات أخرى " وذلك بهدف إظهار ضعف الرأي المخالف، وإعلان قوة وصحة الرأي الأول.

وهذا يدخل في باب الغش والخداع والكذب، والبعد عن الصدق والأمانة، ولا يدخل في مسمى الحوار السليم البناء الذي يقصد به الوصول إلى الحق.

(و)- ضمان حرية الرأى في التعبير لأعضاء طرفي الحوار، بشرط عدم تجريح الآخرين، أو الطعن في العقيدة، أو الخروج على الآداب العامة، وضمان الأمن والأمان لهم عند التعرض للآراء المخالفة التي تتبناها بعض



السلطات التي في يدها الترهيب والتخويف، فالخوف من الصراحة في الكلام لا يوصل إلى نتائج سليمة...

(ز)- أهمية توفير المعلومات الكاملة الصحيحة عن موضوع الحوار لدى المتحاورين، لاسيما إذا كان الحوار يتعلق بموضوعات اجتماعية، أو اقتصادية، أو سياسية، أو دينية... حتى يتسنى للمتحاورين مناقشة القضية- موضوع الحوار- بموضوعية، واتخاذ القرار المناسب لها عند الوصول إلى الحقيقة.

إذ كيف يتسنى للمتحاورين مناقشة موضوع ما؛ والمعلومات الصحيحة عنه مجهولة؟؟



خاتمة

أختم حديثي بالإجابة عن سؤال يتردد على ألسنة بعض المشاركين، ويجول في خاطر أذهان كثير من المسلمين، وهو:

هل ثمة إمكانية لنجاح الحوار الديني مع الفاتيكان في ظل بابوية البابا بندكت السادس عشر، مع تحفظه وتصديه للاهوت التحرير ومدارسه وحركاته، ومقررات المجمع الفاتيكي الثاني؟

مما لا جدال فيه أن العلاقات بين الفاتيكان والعالم الإسلامي قد تدهورت بعدما تولى البابا بندكت السادس عشر بابوية الفاتيكان، خاصة بعدما جاء في محاضرته التي ألقاها في جامعة ريجينسبورج بولاية بافاريا الألمانية يوم الثلاثاء ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م تحت عنوان: "الإيمان والعقل والجامعة ذكريات وانعكاسات"، وربط فيها بين الإسلام والعنف.

وما أثارته هذه المحاضرة من موجة احتجاجات وغضب لدى المسلمين في جميع أنحاء العالم، وقيام مظاهرات احتجاج ضدها، وتصدي قادة المسلمين والسياسيين في العالم للرد عليها...

كما أن السياسة التي اتبعها البابا بالنسبة للحوار الديني بعد توليه البابوية، كانت تدعو إلى الإحباط من الاستمرار في الحوار الإسلامي المسيحي الكاثوليكي، لاسيما بعد أن قرر في شهر مارس ٢٠٠٦م تقليص دور المجلس البابوي للحوار بين الأديان، وإدماجه في المحفل البابوي للثقافة، ونقل رئيس المجلس الأسقف/ فيتزجيرالد- الذي يجيد اللغة العربية، وله



خبرة واسعة في العالم، ويحظى بالتقدير كممثل لحاضرة الفاتيكان في المفاوضات مع العالم الإسلامي - نقله وتعيينه سفيراً للفاتيكان لدى القاهرة والجامعة العربية...

إلا أن هناك بوادر تشير إلى تراجع بابا الكنيسة الكاثوليكية عن قراره، فقد قال وزير خارجية الفاتيكان الكاردينال تارسيسيو بيرتوني لصحيفة " لاستمبا " الإيطالية: إن مجلس الحوار بين الأديان سيعود إلى سابق عهده كما كان ديواناً مستقلاً.

وأضاف بيرتوني : إن القرار الجديد يشير إلى الأهمية التي يوليها الفاتيكان لموضوع الحوار بين الأديان.

واعتبر مراسل بي بي سي في روما ديفيد ويلي أن التراجع عن قرار الدمج يُعد إقراراً ضمنياً بأنه كان قراراً خاطئاً ... إضافة إلى ذلك، سبق أن أعلن البابا بندكت السادس عشر- خلال صلاة التبشير التي أقامها في كاستل غاندولفو-: أنه " حزين جدا " لموجة الاحتجاجات التي أثارها كلامه عن الإسلام الذي " لا يعبر إطلاقاً عن أفكاره الشخصية " .

لكن البابا الذي تحدث علنا للمرة الأولى في هذه القضية الشائكة، والأكثر خطورة منذ تعيينه لم يذهب إلى حد تقديم اعتذارات رسمية طالبه بها العالم الإسلامي .

وفي محاولة منه لتهدئة غضب المسلمين، قال البابا- أمام حشد في مقره الصيفي في كاسيلجندولفو بإيطاليا يوم الأحد ١٧/ ٩/ ٢٠٠٦م- : أشعر بأسف بالغ عن ردود الفعل في بعض الدول تجاه فقرات محدودة وردت في



خطابي بجامعة ريجينسبرج، والتي اعتبرت مهينة لمشاعر المسلمين، كانت تلك في واقع الأمر اقتباسات من نص من العصور الوسطى، والتي لا تعبر بأي حال عن رأيي الشخصي .

ويصر البابا على أن تصريحاته انتزعت من سياقها، وأنه لم يكن القصد منها الإساءة إلى الدين الإسلامي .

إذا أخذنا في الاعتبار تصريحات البابا التي يؤكد فيها على أنه لم يقصد الإساءة إلى الإسلام، وأن الكلام الذي ورد في محاضرته لا يعبّر عن رأيه الشخصي ، وأخذنا تصريحات وزير خارجية الفاتيكان بأن مجلس الحوار بين الأديان سيعود إلى سابق عهده كما كان ديواناً مستقلاً..

وأضفنا إلى ذلك تربص أعداء الإسلام بنا، وأنهم يتحينون الفرصة- لو أعلنا رفضنا للحوار الديني - لتأليب العالم ضدنا، وفتح ملف أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م من جديد، وربط رفض الحوار الديني بالإرهاب، واتهام المسلمين والإسلام بالانعزالية وعدم التعايش السلمي مع غير المسلمين، وسياسة العداء للإسلام التي يتبناها العديد من الحاخامات اليهود...

إذا راعينا كل ذلك فإننا نقول: بضرورة الحوار الديني مع الفاتيكان، وأنه من المؤكد أن هناك إمكانية لنجاح الحوار الديني مع الفاتيكان في ظل بابوية البابا بندكت السادس عشر...

غير أنه لابد أن تكون لنا استراتيجية إسلامية للحوار الديني مع الآخرين عموما، وأن يدور الحوار الديني بعقلانية وتبصر حول القيم الإنسانية المشتركة بين الأديان، وحول مشكلات عالمنا المعولم، ولا ينبغي أن نتراجع



عن الحوار الديني وآلياته تحت ضغوط بعض الدوائر المعادية للإسلام، أو الاحباط الذي ينتاب البعض إزاء تصريحات يقولها بعض كبار رجال الدين الكاثوليك أو غيرهم التي تنطوي على رؤى سلبية، أو آراء تتسم بالتشدد أو التعصب، فهؤلاء يُرد عليهم بعقلانية، ويتم التصدي لهم بالحجة والمعلومة والمنهج العلمي والتاريخي .

وإذا كانت السياسة تعتمد على المعطيات والمعلومات والتحليل والخيال السياسي الخلاق، لأنها لا تعرف- كما يذهب بعض الباحثين- التطير السياسي ، أو التفاؤل والتشاؤم... فإننا يجب ألا نأخذ بالتطير أو الإحباط في مجال الحوار الديني - الديني ، والحوار الديني - المذهبي ، لأن الوصول إلى حالة تهدئة بين أتباع الأديان في عالم اليوم من الأهمية بمكان...

والله ولي التوفيق





العولمة وحوار الحضارات

د.إبراهيم بن مبارك الجوير
أستاذ علم الاجتماع
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



مقدمة

يمكن أن نذكر بعض التعريفات عن العولمة :

لقد ذُكرَ (أنها حركة تستهدف تحطيم الحدود الجغرافية والجمركية وتسهيل نقل الرأسَمالية عبر العالم كله كسوق كونية) وهذا من الجانب الاقتصادي .

ويعرفها الدكتور إسماعيل صبري عبد الله: «التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسة للدول ذات السياسة ، أو الانتماء إلى وطن محدد ، أو دولة معينة، ودون الحاجة إلى إجراءات حكومية».

ويعلق الدكتور محمد الجابري على ذلك بأن العولمة ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي، «بل هي أيضاً وبالدرجة الأولى أيدلوجياً تعكس إرادة الهيمنة على العالم».

ويصنف د. السيد ياسين تعريفات العولمة إلى أربعة أصناف :

١ - اعتبار العولمة مرحلة تاريخية .

٢- " " مجموعة ظواهر اقتصادية .

٣- " " هيمنة القيم الأمريكية .

٤- " " ثورة تقنية اجتماعية .

ويميل إلى إنها خليط من ذلك كله .

ويشير هانس بيترمارتين وهارالد شومان مؤلفا كتاب «فخ العولمة» إلى أن

العولمة في ضوء سياسات الليبرالية الحديثة ، والتي تستند إلى إطلاق آليات السوق وتقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة ، وابتعاد الدولة عن التدخل في النشاط الاقتصادي ، وحصر وظيفتها في دراسة النظام؛ وما سيؤديه ذلك من زيادة البطالة وانخفاض الأجور وتدهور مستويات المعيشة الخ .

وهي الأمور التي ترسم الآن ملامح الاقتصاد المعولم والحياة الاجتماعية المرتبطة به .. كل هذه الأمور ليست في الحقيقة إلا عودة للأوضاع التي ميزت البدايات الأولى للنظام الرأسمالي إبان مرحلة الثورة الصناعية ١٧٥٠و١٨٥٠ .

والعولمة – كما يعتقد المؤلفان – ستؤدي إلى مجتمع الخمس الثري وأربعة أخماس الفقراء أو مجتمع ٢٠٪ إلى مجتمع ال٨٠٪ .

ويطلق عليها من بعضهم (الحاضرية) أي أن أهم شيء هو الحاضر، ولا داعي للماضي، لماذا الحاضر فقط؟ لأن الإعلام هو الذي يسيطر على العالم، والإعلام يريد اللحظة ، اليوم، الجديد لأسباب تجارية، لأن العمل الإعلامي يقوم على المنافسة والسبق وكل شيء ينبغي أن يكون جديداً ، العولمة لا يهمها الفقراء، ولا تهتم بهم ، لأنها تخدم الأغنياء فقط، ولأن معظم الناس من الفقراء، فهي للنخبة فقط.

العولمة Globalization، ومثلها النظام العالمي الجديدNew world Order تعابير حديثة لمحتوى ليس بالجديد على الإطلاق.

ولكن العولمة هي حجر الأساس فيه ، الذي دعا إليه الرئيس الأمريكي



الأسبق جورج بوش إثر نهاية «عاصفة الصحراء» ، ومن هذا المنطلق نظرت أمريكا بمفردها إيجاد نظام عالمي جديد جرياً على سنة التقليد الذي دأب فيه الغرب على وضع نظام عالمي كلما انتهت حرب عالمية بانتصاره ، ولكن النظامين السابقين كانا من صنع جماعي ، بينما النظام العالمي الحاضر من صنع الولايات المتحدة وحدها ، لم تشترك في تصوره وتنظيره أي دولة من دول الحلف التي شاركتها الحرب ، كان هذا منطلق القطبية الأحادية التي انفردت بها الولايات المتحدة في غيبة المنافس .

وقد وجد في الغرب طبقة من المفكرين والكتاب الذين يرتادون آفاق التوسع ، ويرسمون الإطار الفكري للاستعمار الجديد للساسة والقادة ، ويتخيلون الأخطار المستقبلية التي يمكن أن تهدد الإمبراطورية من الداخل أو الخارج ، وتستفيد تلك الدول من مراكز الدراسات ومن الباحثين، وليس هناك طلاق بائن بين الفكر وصناعة القرار ، ولا ينظر كل فريق إلى الآخر بعين الريبة والحذر.

العولمة كما يراها د العرابي «هي أفكار القوة، وهي نماذجها الثقافية والحضارية ، وهي لسوء حظنا وحظ أمثالنا تسير دائماً في اتجاه واحد ، ولم نر مطلقا أنها سارت في الاتجاهين : الذهاب والإياب ، لذا فإن العولمة بتعبير بسيط آخر ، هي أكذوبة القوي على الضعيف، وهي استدراج له إلى ساحات معقدة من ساحات التعايش الممكن ، في الوقت الذي يعلم فيه أنه لا يدرك من قوانين الساحات أي شيء».

وخطر ببالي أن أتساءل عن سر موقف الرئيس الفرنسي الراحل ميتران

الذي طالب بالوقوف أمام الهجمة الثقافية الأمريكية لأمركة العالم ، وقال: إننا أمام غزو أمريكي شرس في المجالات الثقافية حيث مقابل (٧٠) فيلم أمريكي يعرض في أوروبا هناك فيلم واحد أوروبي.

وهكذا تساءلت، وفي ذهني أن فرنسا جزء من الغرب ومن الثقافة الغربية، ومع هذا لديها إمكانات مادية وبشرية تؤهلها للوقوف أمام المد الآخر ...وتساءلت كيف هو العالم الإسلامي وهي تختلف عنه فكراً وثقافة وإمكانات ؟ ماذا عن الخطورة الحاصلة والمتوقعة لهذا الغزو أو الاستعمار الذي أخذ اسماً جديداً (العولمة).

كما تساءلت عن سر الاحتفاء الكبير الذي أبدته أمريكا في بداية الثمانينات من القرن الماضي عندما تم افتتاح مطعم مكدونول في بكين ، وكيف أن مطعماً للوجبات السريعة على الطريقة الأمريكية يعني فتحاً ثقافياً كبيراً ومؤشراً على دخول الثقافة الأمريكية في ذلك الجزء من العالم ، وليس مجرد وجبة أكل سريعة تقدم في مطعم ، وهذا ما حدا بالفرنسيين خلال أزمة القمح بين أمريكا وفرنسا أن يحطموا زجاجات وواجهات مطاعم مثل مكدونول وكنتاكي وونديز ونحوها، لأنها تمثل في نظرهم رمزاً للثقافة والوجود الأمريكي .

وإننا أمام معطيات ومتغيرات جديدة نقف أمامها مشدوهين ومنها :

- ٨٨٪من معطيات الإنترنت باللغة الإنجليزية
- ٩٪ بالألمانية
- ٢٪ بالفرنسية



- ١٪ لبقية لغات العالم ولكم أن تتصوروا نصيب اللغة العربية من هذا الجزء الـ١٪.

- إننا أمام مرض اسمه إدمان الإنترنت وهو له جانب معرفي وهذا إيجابي، وجانب وجداني وهو سلبي، وجانب مزاجي وهو سلبي.

- إننا أمام مليار و٢٠٠ جهاز تلفزيون في العالم، ويمكنك أن تسأل ماذا يعرض فيها.

- إننا أمام عدد كبير من وكالات الأنباء العالمية التي تصوغ التفكير وتقولب الثقافة وتضع الأوليات للاهتمامات، فكم من حدث لا تأبه إليه فرض عليك ليل نهار في نشرات الأخبار والتعليقات والمقالات والمداولات! وكم من خبر مهم بالنسبة لك أو أمتك أغفل ولم يذكر عنه شيئاً!.

والعولمة تشمل المجال السياسي: حيث تسعى الدول الغربية وخاصة أمريكا إلى فرض النموذج الغربي للحكم الذي يتمثل في الديمقراطية على النمط الثقافي الأمريكي

وفي المجال الإعلامي: حيث أصبح العالم قرية كونية صغيرة بفعل ثورة الاتصالات التي سيطرت على العالم ووجد ما اسمه «مجتمع الإعلام العالمي»، وتنبع خطورة عولمة الاتصالات من كونها وسيلة فاعلة للسيطرة على الإدراك والوعي والأذواق وتقولب السلوك وتضع الأوليات وتكرس أنواعاً معينة من الاستهلاك والمعارف والسلع والبضائع أو ما أطلق عليه «ثقافة الاختراق» أو ثقافة الاستهلاك وأدوات الترف التي عشعشت في صدورنا وفي عقول أطفالنا.



وفي المجال الإعلامي من يرى أن العولمة تعني «الحاضرية» وهو مصطلح يعني الاهتمام بالحاضر وتجاهل الماضي ، وذلك أن الإعلام يقوم على أساس تجاري، والتجارة تقوم على جذب الزبون، والزبون يريد الإثارة، والخبر المثير هو خبر الساعة، وليس خبر الأمس .

وفي المجال الثقافي؛ فإن العولمة الثقافية أخطر أنواع العولمة، وذلك لأنها تدخل مباشرة في صياغة الفكر والسلوك الإنساني بوسائل متعددة، ومن أجل هذا كانت معظم هواجس المفكرين والتربويين تتعلق بخوفهم من تأثير العولمة على ثقافات الشعوب.

إن العولمة ليست مجرد فكرة يمكن قبولها أو رفضها، بل هي حقيقة واقعة؛ بيد أن معظم المجتمعات المسلمة المعاصرة قد تشكلت في فترة خضوعها للاستعمار ، لذلك فإن تنميتها المقارنة قد تم خنقها ، كما هو الحال في كثير من دول العالم النامي ، وعلينا أن نتفهم ذلك إذا كنا سنستوعب الأثر التفاضلي للعولمة ، فالواقع الاجتماعي في كثيرمن الحالات فقر وأوبئة أو نقص في الحصول على التعليم ، وإبقاء النخب على ما هم عليه بواسطة الجبروت العسكري وتدهور البيئة ، وغياب سيادة القانون والحريات المدنية .

ولقد بدأت العولمة كما يذكر بوطالب في كتابه (العالم ليس سلعة): «نظاماً اقتصادياً بالسماح للرأسمال العالمي بحرية التحرك والتنقل متجاوزاً الحدود بلا قيود؛ ليغزو أسواق العالم دون أن تفرض عليه في آخر المطاف رسوم أو ضرائب ، وقيل عن الاقتصاد المعولم أنه يسمح بتنافسية متكافئة يفوز فيها الأفضل ، وطلب من الدول المتخلفة أن تخوض هذه التنافسية



بتحديث أداء اقتصادها وتجديد آلية عمله ؛ ليقدر على المنافسة؛ وحتى على الفوز برهان المستقبل ، وهي خدعة قدمت لعالم التخلف في شكل إغراء لا يجدي، ففاقد الشيء لا يعطيه ، لكن العولمة تجاوزت مجال الاقتصاد إلى عولمة السياسة والدبلوماسية والقضاء والفكر والثقافة والإعلام والعلم والبحث العلمي والقيم والبيئة وستمتد إلى الخصوصيات والهويات في عملية تنميط موحد للإنسان مما يجعل منها نظاماً شمولياً يراد فرضه على العالم بالقوة».

كما يشير الجراري في كتابه (هويتنا والعولمة): «حتى لا نكون متطفلين أو عالة أو مجرد مستهلكين أو أدوات استهلاك ، فإن علينا أن ندخل في سياق العولمة بهويتنا الإسلامية ، وقبل ذلك علينا أن نتخلص من عقد الماضي وما رسخه واقع التخلف في النفوس ، مما يحتم أن نراجع ذاتنا في ضوء مفهوم صحيح لهذه الهوية من شأنه أن يرد الاعتبار للشعوب الإسلامية ، ويمنحها مكانتها الحق ، ويجعلها ليس فقط قادرة على التكيف مع العولمة والإسهام فيها أو الاندماج ، ولكن يجعلها مؤهلة لإيجاد التوازن اللازم بين القوى الحالية أو المتوقعة في القرن المقبل ، وهو التوازن الذي يمكن أن ينقذ الإنسانية من طغيان هذه القوى، وإن كان الطغيان بطبيعته وبمنطق الدين والتاريخ لا يؤدي إلى غير الخراب ، علماً بأن المسلمين يشكلون قوة يتجاهلها غيرهم، أو يبدو وكأنه يتجاهلها، ولكن ليس من حقهم أن يتجاهلوها.

إن علينا أن نعترف بضعف موقفنا أمام الآخر ، ولكن كذلك بضعف موقفنا مع أنفسنا ، لإيماننا المهزوز بهويتنا وعدم اقتناعنا بكل مقوماتها ، ومن



ثم ارتمائنا في أحضان هوية غيرنا؛ ولا سيما عبر مكوناته الثقافية والحضارية ، باستلاب أفقدنا كل قدرة على التمييز بين السم والدسم فيما يقدم إلينا ، أو نتسارع لالتقاطه بإعجاب وانبهار ، وتجرد من الوعي والإرادة وإمكان التحكم في الذات ، فضلاً عن التحكم في غيرها ، مما ينتج عنه عدم إدراك لحقيقة الأزمة أو الأزمات التي نعانيها ، ومن بينها الأزمة الثقافية والاجتماعية التي لا ننظر إليها ، وإن نظرنا فبرؤية غربية لا تراعي عنصر الهوية التي قد يتجاهلها البعض ، وقد يتعامل معها آخرون بالسخرية والاستهزاء ، وقليلون هم الذين يتعاملون معها بتعاطف يحث على تلمس مواطن الضعف والنقص لمعالجتها».

أما الحوار فهو الخيار الأنسب لحل مشكلات العالم ، إنه كما يعرفه بيكو «أن الحوار هو أداة مناسبة لتحقيق نموذج جديد من العلاقات العالمية ، لأنه الخطوة الأولى التي تمنحنا إحساسا بالانتماء والإقرار بما هو مشترك، وسنجد أن الأشياء المشتركة أكثر بكثير من أوجه الخلاف».

ويذكر «أن أي مقترح – ولكي يحظى بالشرعية – لابد له من صلة بالتقاليد والقيم الدينية والثقافية والقانونية المختلفة ، وإذا أمكن تحقيق ذلك فإن العولمة أو العالمية لن ينظر إليها باعتبارها أمراً مفروضاً من الغرب أو من أمريكا على بقية البشر، بل سيتم تقبلها كطريقة للتحديث مع المحافظة على الجذور.

وعلى نحو مماثل سيكتشف كل واحد من هذه التقاليد والقيم أن التحديات التي واجهها البشر على مر القرون قوبلت بأساليب متشابهة إلى حد كبير ، وعندها قد تميل المجتمعات الأهلية المختلفة إلى تقبل الآخر أخاً



يقاسمه العالم؛ لا عدواً محتملاً.

أما عن الصراع فليس صراع حضارات، بل هو صراع مصالح ، لأن الحضارات ليست في الملعب أصلاً؛ حتى من تبنى صراع الحضارات في يوم من الأيام نجده في قبرص يحذر من صراع الحضارات.

ولكن ما ذا عن مستقبل حوار الحضارات بعد أحداث ١١/ ٩ / ٢٠٠١ ، ما الذي تغير؟ هل سيشهد العالم مزيداً من الصراع أو الحوار؟

أولاً، لابد أن نعترف أن شيئاً من الصراع لا بد أن يظل ما ظل الصراع على المصالح؛ بيد أنني متفائل بشأن الحوار؛ وذلك أن كثيراً من الأمريكيين عندهم استعلاء ، لقد عاشوا في جزيرتهم مستغنين عن الناس ، ولكن ما حدث من أحداث جعلهم يتساءلون: هل نحن العالم فقط؟ أم هناك آخرون يشتركون معنا في سكنى الكوكب؟

إن كثيراً منهم بدأ يشعر أنه جزء من هذا العالم غُرماً وغنماً، وإذا كانوا الآن في مرحلة الغضب؛ فإنها مرحلة تتلوها مراحل من التفكير وكيفية التعامل مع الآخر، ولن تجد أفضل من الحوار.

على الرغم من أن ذلك قد يأخذ وقتاً لأن ما حصل لم يكن سهلاً بالمقياس الأمريكي للأحداث التي ظلوا لعقود من الزمن يستمتعون بالمشاهدة لها من بعد، أما وقد أصيبت الشبكة نفسها؛ فإن الأمر جد مختلف.

ولكن في زمن لا يسمح فيه بالاختلاف ، ويهيمن فيه منظور فلسفي واحد أو أوحد لا بقوة البرهان، بل بقوة السلطان ، تأتي الصيحات التي تنادي بانكفاء على الذات أو الدعوة إلى بناء فكر وفلسفة باستقلالية وحرية؛ لا أن



تخضع خضوعاً أعمى لمقولات الآخرين ، ويظهر من يدافع عن حقه في الاختلاف ، وخاصة أن الاختلاف أمر فطري طبيعي ، وهو حق من حقوق الشعوب ، وأن فيه إثراء للتجارب الإنسانية حتى لا تكون نسخة مكررة أو حتى ممسوخة .

ولكن كيف نتعامل مع العولمة وحوار الحضارات؟ سؤال بريء في زمن لم يعد لدي فيه خيار في أن أتعامل أو لا أتعامل.

إن مسألة الرفض على الرغم من أنها ليست فكرة جيدة ولا مقبولة؛ فهي غير ممكنة في عالم القرية التي كانت كونية وأصبح الكون قرية.

لابد لنا من :

- الإيمان الصحيح المبني على عقيدة صحيحة ، وعلم أصيل حتى يكون الشخص قادراً على التميز الصحيح ، ويكون لديه المقياس الثابت الذي يزن به الأمور .
- التماسك والتمسك القوي التطبيقي بالمنهج السليم؛ لأن من وسائل العولمة أو مداخلها إثارة الشبهات والاستغراق في الشهوات وتبذير المال مسايرة لحمى الاستهلاك والمظاهر.
- الإقبال بشجاعة على العلم واكتساب المعارف والمهارات، والتمكن من التقنية التي تفتح آفاقاً واسعة .
- إدراك أن الإسلام بطبيعته عالمي، وينظر إلى الكون والجنس الإنساني الذي يسكنه كياناً واحداً، وأسرة واحدة وأن هذه الأمةَ أمةٌ واحدة كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢).



والإسلام يحث على التعايش الآمن والجيرة الحسنة والمشاركة الفاعلة في الخير العام ، ومع أنه يركز على الإيمان بالله وتوحيده توحيداً خالصاً ، إلا أنه لا يعتبر ذلك شرطاً للمعاملة الحسنة ومنع الظلم وحفظ الحقوق وإتاحة فرص العيش الكريم أمام الناس جميعاً.

ولو تتبعنا رسالة الإسلام كما جاءت في المنهج القرآني كما ذكر الدكتور محمد فاروق النبهان «لوجدناه رسالة إنسانية ، تهدف إلى تحقيق غايات سامية ، سواء على مستوى علاقة الإنسان بالإنسان أو على مستوى النظرة الشمولية التي تحدد مكانة الإنسان في الحياة ، فالقرآن الكريم رسم معالم تصور لمجتمع يمثل الذروة في بنائه الداخلي وفي تكوينه التربوي والسلوكي ، وجاءت السنة تؤكد وتبين إمكانيات تحقيق ذلك عن طريق تكوين المجتمع المسلم الأول في عصر النبوة . ويتمثل بما يلي :

١- مجتمع مؤمن بالله وبما جاء به الأنبياء من بيان أحكام الله .

٢- مجتمع متفتح على الآخر معترف بما سبقه من رسالات سماوية ، مصحح لما دخل فيها من انحرافات .

٣- مجتمع ملتزم بأسلوب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة من غير إكراه أو إذلال أو إنكار للأفكار والسلوكيات والقيم الصحيحة».

إن العولمة والعالمية والحوار التي نحملها للناس هي التي تسير وفق الخطوط الربانية ، أن تكون متصلة بنور الخالق جل وعز ، وبالهدى حتى لا تضل ولا تتعسف ولا تجعل من العالم غابة يأكل فيها القوى الضعيف .

وفق الله الجميع



بعض مراجع البحث

- عبد الهادي بو طالب " العالم ليس سلعة " ، منشورات الزمن ٢٠٠١م المغرب.
- عباس الجراري " هويتنا والعولمة " ، منشورات النادي الجراري ٢٠٠٠ المغرب.
- علي أوميل " موقف الفكر العربي من التغيرات الدولية : الديمقراطية والعولمة" منتدى الفكر العربي ١٩٩٨م .
- كامل الشريف "الشباب المسلم والعولمة " ، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الثامن للندوة العالمية الإسلامي ـ عمان ٢٠/ ١٠/ ١٩٩٨م .
- مانع الجهني " الإسلام والحوار الحضاري " ندوة الإسلام وحوار الحضارات ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ٣/ ١/ ١٤٢٣هـ.
- محمد عبد العزيز ربيع " العولمة والمجتمع " ، منتدى الفكر العربي ١٧٧ حزيران ٢٠٠٠م.
- محمد فاروق النبهان " التصور الإسلامي لمنهجية الحوار الحضاري " ، ندوة الإسلام وحوار الحضارات ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ١٧/ ٣/ ٢٠٠٢م.
- محمد مصطفى الطحان " العولمة تعيد صياغة العالم " المركز العالمي للكتاب الإسلامي ١٩٩٨م الكويت.



- السيد ياسين " رؤيا للمستقبل العالمي : مجتمع المعلومات العالمي النموذج الحضاري الجديد " منتدى الفكر العربي، فبراير ٢٠٠٠م.

- مونيه رحيمي " الثقافة المغربية بين الخصوصية وهاجس الأمركة " ، منشورات الفرقان ـ الدار البيضاء ٢٠٠٠م.

- فهد العرابي الحارثي " موقعنا في القرية الكونية الإعلامية الجديدة ، العولمة والفضائيات العربية " ، محاضرة في مكتبة الملك عبد العزيز العامة ٦/ ١٢/ ١٩٩٨م.

- هانسر بيتر مارتن وهارولد شومان " فخ العولمة " ، ترجمة : عدنان عباس علي نشر سلسلة عالم المعرفة ، الكويت.

كلمة

الشيخ القاضي حسين أحمد

أمير الجماعة الإسلامية

باكستان





الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبأ: ٢٨) وقال على لسانه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨)

بهذه النداءات الربانية الصادقة أدى رسول الله ﷺ الأمانة وبلّغ الرسالة إلى العالمين كافة. ما حطت قافلة من القوافل رحالها في بقاع مكة إلا وكان ﷺ حريصاً أشد الحرص على أن يتجه إليها ويتحاور معها، يشرح لها حقيقة الإسلام ويدعوها إليه. ما بقي ملك من الملوك أو حكومة من الحكومات إلا وبعث إليها رسله أو رسائله، يقيم بها عليهم الحجة وينير بها لهم المحجة.

الدعوة الأساسية والمبدأ الأساسي الذي دعاهم إليه الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام هي دعوة التوحيد. توحيد خالق الكون والبشرية وتوحيد ربّ الناس وملك الناس وإله الناس. لأن كمال التوحيد يعني كمال العبودية وكمال العبودية يعنى كمال الحرية. بمعنى أن من يوحّد الله ولا يعبد إلا إياه، يخلع ويترك كل أنواع العبودية. يأبى أن يكون له رب إلا الله. ويأبى أن يصاب بالخوف أو أن تفرض عليه الوصايات أو تملى عليه الأوامر ممن يدّعون أنهم أصبحوا أرباباً من دون الله. وبهذا يصبح المسلم الملتزم بمبدأ التوحيد حراً أبياً وكما قيل «سيداً على هذه الأرض عبداً لربها».

إن عقيدة التوحيد هذه تجعله ينظر إلى البشر كلهم نظرة المساواة. لأنه يؤمن عندئذ بأن الناس كل الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر،



كلهم من آدم وآدم من تراب. إنه يستمع إلى كلام الرسول ﷺ أن «الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله». ومن ثم يعتبر نفسه فرداً من أفراد أسرة عالمية، أسرة آدمية، أسرة يسعى فيها الجميع لينفعوا الآخرين، أسرة يخاطبها النبى الكريم ﷺ بقول الخالق عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (النساء : ١) وبقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)

ثم يخاطبها ويقول : (لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا).

إن دعوة الأسرة البشرية إلى عبودية الله وإلى التوحيد الحقيقي وإلى الحرية الكاملة وإلى المساواة المطلقة هي رسالة جميع الأنبياء منذ نزول آدم وحواء إلى الأرض. وفي هذا يخاطب القرآن الكريم الأمم والأديان ويقول : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران : ٦٧) ويقول : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾(الشورى : ١٣).

ويقول:﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة : ١٣٥).

فالمسلم الذي يؤمن بما جاء به خاتم النبيين، يؤمن بكل ما أوتي النبيون من قبله وهو يتلو قول الله عز وجل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ



وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة : ٢٨٥) ثم إن المسلم الذى يعتبر نفسه فرداً من أفراد الأسرة البشرية ويؤمن بتوحيد الخالق وتوحيد دعوة الرسل والأنبياء جميعاً يسعى دائماً ويجب أن يسعى لأن يبحث عما يجمع الناس ويوحد وجهتهم.

يبحث عن معاني الخير وما يتفق عليه الناس كافة ثم يحاول أن يجمعهم على هذه المبادئ والمعاني السامية المشتركة. وفي هذا الصدد يجد المؤمن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ويجد خير ما يرشده ويوضح معالم الطريق أمامه. فها هو الرسول الكريم يشهد قبل الإسلام حلفاً ينص على التعاون على الخير والبر والتقوى ويحث على النهي عن المنكر والعدوان ويقول عنه ﷺ بعد نزول الوحي (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت) كما يجد قول الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران : ٦٤) أي أن العبودية الخالصة لله عز وجل وعدم الشرك به وعدم اعتبار أحد (كائنا من كان) رباً من دون الله هي المبادئ الأساسية التي يجب أن يجتمع عليه أتباع الديانات كلها.

العالم المتحضر يحتضر

إننا لو نظرنا إلى عالمنا اليوم نجده فى أمس الحاجة إلى مثل هذه الأسس المشتركة. فالعالم المتحضر المزعوم بدأ يحتضر. يعترف بذلك القاصي والداني، وأكد على ذلك عديد من مسؤولي ومفكري العالم الغربي. فمثلا ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز يعترف ويقول: إن أهم ما فقدناه هو أننا



قد فقدنا الشعور بالقدسية، فلم يعد بيننا شيء مقدس بدءاً من الوشائج الأسرية والعلاقات العائلية الشخصية وإنتهاءً إلى المقدسات الدينية العقدية ثم يقترح الأمير تشارلز الاستفادة من المعلمين والأساتذة المسلمين حتى يغرسوا في قلوب الأجيال الجديدة الإحساس بالقدسية.

لقد عَلِمَ الغرب وأيقن أن الحياة الأسرية لم تسلم ولن تستنقذ إلا بمراعاة أسس الحَلال والحرام، وأن هذا لن يتحقق إلا إذا آمن المرء بالوحي السماوي وبالتعاليم الإلهية. ليست الحياة الأسرية فحسب؛ بل النجاة من الأمراض الخبيثة مثل مرض فقدان المناعة والأمراض التي تنجم من تعاطي المخدرات والأمراض التي تنجم من ثقافة العري والفحشاء والمنكر لا يمكن أن يسلم منها المجتمع العالمي إلا بالتمسك بالتعاليم السماوية.

ومن هنا تأتي أهمية وضرورة وحتمية الحوار مع الجميع وخاصة مع المجتمع الغربي. ومن إعجاز الإسلام أن نداءات الاستفادة من تعاليم الإسلام بدأت تعلو من الغرب نفسه.

فالالتزام بحياة العفة والاحتشام والبعد عن كل ما يخل العقل ويدفع بالإنسان إلى مستنقع المخدرات والقضاء على جميع مظاهر العنف والإرهاب والضيم والحرب والاضطهاد والتمسك بمبادئ الأمن والسلام أصبحت مطالب إنسانية عالمية عامة.

وأصبحت من الثوابت العالمية يخرج من أجلها جميع الطوائف البشرية في مسيرات مليونية فى معظم العواصم الغربية. ينددون بالحرب فى العراق وفي أفغانستان ويطالبون بسحب الجيوش الغازية وبحل القضايا العالمية عبر المفاوضات الجادة والحقيقية.



إن هذا الجو العالمي الجديد يتيح لنا - نحن المسلمين- فرصة التواصل والحوار والدعوة والإرشاد في العالم كله، بل أعتبر ما صدر من الأمير تشارلز - (ما أشرت إليه آنفاً) - أو ما صرح به كبير الأساقفة في بريطانيا حول ضرورة تطبيق الشريعة في الجالية المسلمة هناك وما تبناه عمدة مدينة لندن كين ليونغستون من قضايا الأمة الإسلامية وعلى رأسها قضية فلسطين، وما خرجت من المظاهرات الاحتجاجية نظمها المسيحيون وغيرهم من سكان الدول الأوروبية ضد الرسوم المسيئة إلى الرسول ﷺ وإلى القرآن الكريم أعتبر كل هذا ثماراً للحوار البناء ونتيجة للتواصل الإيجابي مع الآخرين إلى جانب التمسك بالموقف الرافض لما يتعارض مع معانى العدل ومبادئ القسط.

إن نجاح جهود الحوار الصادق لا بد أن يؤدي إلى اعتراف أهل الغرب باختلال موازين الحضارة الغربية. فعند ما يكون الحوار - على سبيل المثال - حول معاني العفة وضرورة الالتزام بالحلال يؤدي بالضرورة إلى الاعتراف بأن ثقافة البهائم والسقوط إلى درجة أسفل السافلين في علاقات الذكور والإناث ودفع ملايين الأطفال سنوياً إلى أسر مكسورة مشتتة يغيب عنها أحد الوالدين أو كلاهما، وقد لا يعرف هؤلاء الأطفال أسماء آبائهم، ثقافة باطلة منحطة وطريق لا يؤدي إلا إلى إبادة البشرية وهلاكها. الحوار الصادق حول مثل هذه القضايا يعني كذلك أن يتوقف الغرب من فرض وترويج تلك الحضارة البائدة فى أوساط المسلمين وأن يتعاون العالم كله مع العالم الإسلامي ومع الأمة المسلمة في الضرب بيد من الحديد على أوكار الفساد والمفسدين، وإلا فلا معنى للحوار أو لتضييع الأوقات وغشّ الآخرين...



الدار قبل الجار

أيها الإخوة! التحدي الأساسي أمامنا ونحن نناقش قضية الحوار هو تحدي الحوار الداخلي. من المؤسف أن المسلمين أنفسهم نسوا أو تناسوا التعاليم القرآنية والنداءات النبوية حول الاعتصام بحبل الله وحول عدم التفرق والسقوط فى النزاعات والتشبث بالخلافات.

الخطوة الأولى على درب الحوار العالمي هي خطوة الإصلاح الداخلي، إصلاح الدار قبل إصلاح الجار وأعنى بذلك حوار حكومات العالم الإسلامي مع شعوبها وحوار المذاهب والطوائف الإسلامية المختلفة وحوار الدول الإسلامية مع بعضها البعض. وهنا أتوقف لأشيد بكل الجهود التي بذلها أشقاؤنا فى الدول المختلفة مثل " ميثاق الوحدة الفكرية " التى أقرتها جمعية الإصلاح الاجتماعي بدولة الكويت الشقيقة قبل حوالي ثلاثة أشهر ووقع عليها عدد كبير من المفكرين وقادة العمل الإسلامي في العالم. ثم «ميثاق الوحدة الإسلامية» الصادرة من مؤتمر الوحدة لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية فى طهران الشهر المنصرم والمواثيق العديدة التي صدرت من مكة المكرمة للإصلاح بين الأشقاء في العراق المحتل وفي فلسطين المحتلة وما صدر من مؤتمرات رابطة العالم الإسلامي حول تبنى الحوار وسيلة لمخاطبة الغرب وحول التنسيق بين الحركات والمراكز الإسلامية فى العالم حول والتنسيق بين المنظمات الخيرية المختلفة وكذلك المواثيق المختلفة التي أصدرناها في باكستان لتوحيد صفوف المذاهب والمدارس المختلفة. أشيد بكل هذه الجهود ولكن ما نحتاج إليه فعلا هو العمل، تطبيق ما نعلن ومقارنة ما نقول بما نفعل.



إن هذا الحوار الداخلي وتوحيد صفوف المسلمين جميعاً يعتبر من أهم مقتضيات الساعة. فالبشرية تمر بمراحل حساسة ومصيرية. هناك قوى الشر والبغي والهلاك تبذل قصارى جهودها لنشر الفساد وإشاعة المنكرات وترويج الخبائث والموبقات وهناك قوى عالمية تسعى وتبذل جهوداً مستميتة لتحريف الشريعة الإسلامية الغراء.

هناك جهود تبذل باسم الإسلام المستنير والإسلام الحديث وتستهدف إلى وأد روح الإسلام في قلوب الأجيال المتعاقبة. هناك جهود عالمية ومدعومة بالبلايين من الدولارات لاستخدام التقنيات الحديثة خاصة تقنيات نقل المعلومات مثل القنوات الفضائية والشبكات العنكبوتية والرسائل والحزم الضوئية والهواتف النقالة والأقراص المدمجة لنشر الإباحية ولنشر الإرهاب الفكرى والطائفي والعرقي والإقليمي الممقوت.

ثم هناك قوى عالمية تريد أن تسيطر على العالم كله بقوة السلاح وبقوة المال، تتهم وتسمي من لا يساعدها فى هذه الحروب ولا يدعمها فى إماتة القلوب بالإرهاب وتشن عليه حرباً شاملة، مدعية بأن هذا هو النظام العالمي الجديد. إننا لو لم نجمع كل الجهود ولو لم نخاطب كل العقول وكل القلوب في الشرق وفي الغرب لاستحالت مواجهة وإيقاف هذه الهجمات الشيطانية الشرسة.

توحيد الجهود يحافظ على الوجود

لقد فرض الله علينا إعداد القوة لمواجهة ما يهدد الوجود ومن أهم ما يوفر القوة ويحافظ على الوجود هو وحدة الصف وتوحيد الجهود. بوحدة الصف الداخلي وبتوحيد الجهود العالمية والتنسيق بينها سوف



نتمكن بإذن الله من تقوية الأمة.

وأقترح في هذا الصدد أن تنبثق من هذا المؤتمر لجنة عالمية موسعة دائمة تسعى سعياً جاداً لإنهاء الخلافات الداخلية بين المسلمين ومد جسور التعاون والتنسيق مع العالم الخارجي.

إن عالمنا اليوم أيها الإخوة، في حاجة إلى إيجاد قوة تلتزم بمعاني العدل والقسط. العدل كما تعرفون هو الأساس الذي يقف عليه ديننا الحنيف والذي أرسل من أجله الأنبياء والرسل والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥)، وقال: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥)، وقال: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا﴾ (المائدة: ٨).

فلو بقيت في العالم قوى باغية، قوى طاغية، قوى غازية، قوى استعمارية لا تبالي بأي مبدأ من مباديء العدل والقسط فسوف تظل البشرية في تيهها، ولن تعرف للنجاة سبيلاً. وكذلك لو ظللنا نؤمن ونتلو ونردد الآيات الكريمة حول ضرورة القسط والعدل ولم نوفر له القوة، قوة الإيمان والعقيدة، قوة الاستقلال والحرية، قوة اتخاذ قراراتنا بأنفسنا، قوة الوقوف مع المظلومين والمضطهدين، قوة الحوار والتفاوض والتواصل والتفاهم والوحدة، قوة العلم والحصول على التكنولوجيات الضرورية اللازمة لبقينا كذلك في موقع المتلقي الضعيف، وأعوذ بالله من ذلك، ويأبى الله أن يكون كذلك، فهو متم نوره ولو كره الكافرون.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



كلمة

الشيخ سليمان أفندي رجبي

رئيس مسلمي جمهورية مقدونيا





الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رحمة العالمين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين و كل صَحْبٍ أجمعين، أما بعد:

فإني أرفع خالص الشكر والتقدير لخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبد العزيز آل سعود ـ حفظه الله ورعاه ـ وحكومته الرشيدة على رعايته لهذا المؤتمر، وكذلك أخص بالشكر رابطة العالم الإسلامي بتوجيهات الأمين العام الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ وفقه الله ـ على جهودها في الإعداد للمؤتمر .

أيها الإخوة أصحاب الفضيلة والمعالي ، الإخوة الحضور ـ نحن المسلمين ـ في هذا العالم اليوم نكون نسبة كبيرة من سكان هذا الكوكب تصل إلى رُبُع سكان العالم ، ولذلك فالواجب علينا الشكر أولاً لله تعالى على هذه المسؤولية العظيمة التي كلفنا بها ، وهو تكليف واجب روحي وأخلاقي، وعلينا العمل به بأمان وصدق وعزيمة ، من أجل بناء عالم ، تسوده المحبة والعدل والإخاء والمساواة ، ليس فقط بين المسلمين بل بين أصحاب جميع الديانات وخاصة الصلة بين الإسلام والمسيحية النابعة من شهادة القرآن الكريم وقواعده حيث يقول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة:٨٢).

محور لقائنا اليوم هو الحوار بين أصحاب الديانات والثقافات والحضارات، وأهمية هذا المؤتمر هو في تحقيق الأمن والعدل والسلام البشري، ومناقشة العواقب والمشكلات التي تواجهها الشعوب وتفعيل القيم الإنسانية في حاضرنا اليوم .



عند نظرتنا الصادقة الخالصة البعيدة عن التميز نجد أن هناك قواسم مشتركة كثيرة تربط الديانات، وهذه القواسم نابعة من أصول الديانات السماوية فلقد كان النبي الكريم ﷺ يبرز هذه الصلة الخاصة بينه وبين سيدنا المسيح عليه السلام فيقول : ((أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والأخرة ، ليس بيني وبينه نبي)). البخاري (٦/ ٣٥٣).

فبالإضافة إلى الأصول المشتركة بين الديانات السماوية هناك أهداف مشتركة نابعة من هذه الديانات ، ونابعة أيضاً من الواقع الذي يفرض نفسه أمام كل محب للإنسان والإنسانية ، وهذه القواسم المشتركة تتمثل بنظرنا ـ نحن المسلمين ـ في القواعد الأساسية التالية :

القاعدة الأولى : الأصول الإيمانية الواحدة

يؤكد القرآن الكريم دائماً على أن جميع الرسالات السماوية ودعوات الأنبياء عليهم السلام قد صدرت من مشكاة ومنبع واحد وهو الأصل السماوي لها.

فكل الأنبياء والمرسلين جاؤوا بدين سماوي واحد، يهدف إلى إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة، وهذا الدين السماوي الواحد كانت تتغير شرائعه بحسب أوضاع الأمم والشعوب إلا أن أركان العقيدة ومفهومها هي ذاتها لا تتغير من دين لآخر، ومن نبي لآخر، ولذلك نقرأ في القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

ولذلك فإن الحقائق الإيمانية واحدة عند جميع الأنبياء والمرسلين، وتتمثل فيما يلي:



١ – الإيمان بالله الواحد الأحد لا شريك له ، خالق الكون ، المتصف بالكمال ، والمنزه عن النقص .

٢–الإيمان باليوم الآخر حيث الحساب والجزاء ثم الثواب والعقاب .

٣–الإيمان بالملائكة الأطهار.

٤–الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا لهداية الخلق إلى الله تعالى بدءا بآدم عليه السلام وختاماً بمحمد ﷺ.

٥– الإيمان بكل الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء والمرسلين ، يقول الله تعالى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٦).

وهذه الحقيقة التي نطق بها القرآن الكريم نقرؤها واضحة جلية في أسفار اليهود والنصارى الموجودة حالياً . لذلك فالقرآن الكريم يدعو دائما أهل الكتاب إلى اللقاء والتوافق مع المسلمين بناء على هذا الأصل السماوي المشترك ، وهو الإيمان بالله الواحد الأحد يصرح : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران ٦٤).

فالكلمة السواء هي التوحيد الخالص لله عز وجل وهي القضية الأولى المشتركة التي جاءت بها جميع رسالات السماء ، ثم هناك كلمة سواء أخرى وهي الإيمان برسل الله عزوجل جميعاً ، حيث يقول القرآن الكريم : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ



لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

فلم يأت القرآن الكريم لينقض رسالات الأنبياء السابقين، أو وجود أتباعهم ، بل اعتبر البناء الإيماني الذي وضع أسسه جميع أنبياء الله ورسله هو البناء الذي أكمله النبي ﷺ حيث قال: ((إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)). (البخاري ٦/ ٤٠٨).

ثم هناك كلمة سواء أخرى وهي الإيمان باليوم الآخر ، وهي أيضاً حقيقة نطق بها القرآن الكريم ، فهناك يوم الحساب ثم الثواب أو العقاب .

يقول الله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١).

ويقول الله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة).

القاعدة الثانية : المثل الأخلاقية المشتركة

حيث إن مصدر الديانات السماوية واحد ، فلا بد أن تكون المثل والتعاليم الأخلاقية أيضا واحدة ، فما من نبي إلا حث على الخير بكل مكوناته واتجاهاته، وحذر من الشر بكل أنواعه ومنغصاته، ولذلك نجد قواعد أخلاقية ، ومُثلا أدبية مشتركة بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى كلها تسعى إلى لقاء الإنسان مع الإنسان تحت مظلة الحب والتعاون والعدل والإخاء



ومن هذه الأمثلة التي جاء بها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات ١٣).

وقال تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥) وقوله ﷺ : ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)).

سأتحدث إليكم عن صفتين عظيمتين من الإسلام، وهما العدل والسلام، وأنقل لكم من نفحات القرآن الكريم ما تناول فيهما هاتين الصفتين.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠) . وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود:٨٥). وقال تعالى : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ (الأنعام:١٥٢) ... ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة:٨) .

إن الإسلام رسالة للبشر جميعاً، ولا فرق بين عربي وأعجمي ، أي لا فرق بين فرد وآخر لقد جاء الإسلام ليهدي البشرية إلى الطريق المستقيم الذي تصل به إلى تحقيق معنى الإنسانية في حياة الإنسان وأخص ما يمثل المجتمع صفتان : العدل والسلام ، فالإسلام دين لا وجود للأنانية فيه، ولا وجود للاحتكار .

والعدل كما يكون في الفعل يكون في القول، والإسلام دين التسامح والسلام .

الإسلام دين سماوي وفر للناس الطمأنينة النفسية والروحية التي تخفف عنهم أعباء الحياة وآلامها ، وتكبح فيهم جميع الغرائز وشهواتها ، فنقلت



الإنسانية من أجواء الحقد والكراهية والتفرقة والعصبية إلى أجواء الحب والتسامح والتعاون والتساوي أمام الله ، وفي كيان المجتمع تساويا لا أثر فيه لاستعلاء عرق على عرق أو فئة على فئة أو أمة على أمة .

وإن هذه تتجلي في واقع حياة المسلمين وفي علوم الإسلام .

الإسلام دين السلام والمحبة والتسامح ، فقد أعلن أن الناس جميعا خلقوا من نفس واحدة والأصل البشري لأبناء البشرية قاطبة هو أصل واحد، ومهما تفرق الناس بعد ذلك إلى أمم وقبائل وبلدان وأجناس فإنما هو كتفريق البيت الواحد والأخوة من أب واحد، وما كان كذلك فسبيل هذا الاختلاف في أجناسهم وبلدانهم أن يؤدي إلى تعاونهم وتعارفهم وتلاقيهم على الخير .

ودين الإسلام يحض على العدل في كل عمل وقول قال رسول الله ﷺ: ((إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)). رواه البخاري ومسلم وأحمد .

القاعدة الثالثة السلام والأخوة الإنسانية

الإسلام دين السلام والتسامح الديني، والأديان السماوية كلها تستقي من معين واحد ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى:١٣) . فأوامر الإسلام واضحة للعالم وهي تدعو الإنسانية إلى العدل والسلام ، والأنبياء إخوة لاتفاضل بينهم من حيث الرسالة والمسلمين يؤمنون بها جميعاً.



قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٦)

– الدعوة للإسلام دعوة لا إكراه، ولكن لابد الاقتناع والرضا ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦) .... ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩)

– أماكن العبادات من المساجد والكنائس والمعابد للديانات الإلهية محترمة يجب الدفاع عنها وحمايتها كحماية مساجد المسلمين ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج:٤٠).

– أنَّ الناس لا ينبغي أن يؤدي اختلافهم في أديانهم إلى أن يقتل بعضهم بعضاً أو يتعدى بعضهم على بعض، بل يجب أن يتعاونوا على فعل الخير ومكافحة الشر ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة:٢) أما الفصل بينهم فيما يختلفون فيه ، فالله وحده هو الذي يحكم بينهم يوم القيامة ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة:١١٣) التفاضل بين الناس في الحياة وعند الله بمقدار ما يقدم أحدهم لنفسه من خير وللناس من خير وبر ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

اختلاف الناس في أديانهم واقع، ولهم أن يجادل بعضهم بعضاً بالحسنى وفي حدود الأدب والحجة والإقناع ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ



أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦).

ولا تجوز مسبة مع المخالفين ، ولا سب آلهتهم ولوكانوا وثنيين: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام:١٠٨) . إلا إذا اعتدي على المسلمين وجب رد العدوان لحماية العقيدة ودرء الفتنة : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٣).

– ينهى الدين الإسلامي عن الانتقام ، فإذا انتصر المسلمون على من اعتدى عليهم في الدين أو أراد سلبهم حريتهم فلا يجوز الانتقام منهم بإجبارهم على ترك دينهم أو اضطهادهم في عقائدهم ، (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) .

– هذا هو الإسلام دين العدل والسلام ، لا تعصب، عدالة، تسامح ، دين يهدف لليسر والرحمة والعدالة

– ومصلحة الفرد ضمن مصلحة المجموعة، ومصلحة المجموعة تشمل مصلحة الفرد ومصلحة الأمة ضمن الإطار الإنساني العام ومصلحة الإنسانية كلها من غير محو لفضائل الشعوب وخصائص الأمم وقضاء على كرامتها والعالم كله وحدته الكبرى وعبوديته لله رب العالمين .

– العفو والصفح

وهو خلق عظيم حث عليه القرآن الكريم في مواضع شتى ، فمدح المؤمنين بقوله : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

ترك الفواحش ، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ



سَبِيلاً﴾ (الإسراء ٣٢).

الأمانة، قال تعالى واصفا المؤمنين : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون: ٨).

- حفظ اللسان عن الأثام

قال تعالى : ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ (الإسراء: ٥٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١).

فالسلام والمحبة الإنسانية دعا إليها القرآن الكريم قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧) لذلك فإن الرحمة التي جعلها الله عزوجل صفة لرسوله ، ليست صفة خاصة ، بل هي رحمة مطلقة عامة ، رحمة الإنسان مطلق الإنسان بغض النظر عن دينه ولونه ولسانه

فلقد جعل الله تعالى هذه الأشياء دالة على عظمته وليست سببا في تفريق البشر .

قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

لذلك وضع قاعدة يجب أن تكون دستور العلاقات بين شعوب العالم ، قال رسول الله ﷺ: ((الراحمون يرحمهم الرحمن))، ((ارحموا من في



الأرض يرحمكم من في السماء)) الترمذي .

وبناء على القواسم المشتركة بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى فإن البشرية في هذا العصر هي في أمس الحاجة إلى نشر الإيمان الحقيقي ، الإيمان الذي يلتقي فيه العقل مع الدين ، الإيمان الذي يكون فيه العلم والدين أخوان توأمان ، يشد كل واحد منهما أزر الآخر ، من أجل السعي لبناء حياة سعيدة هانئة للإنسانية ، أما أن يعرض الإيمان بعيدا عن العقل والمنطق بشكل تمجه النفوس ، وترفضه العقول السليمة ، فهذا هو خراب الإنسانية ، وكذلك إذا عرض الدين بثوب التعصب والأنانية ، وعدم الاعتراف بوجود الآخرين والتسامح معهم ، فهذا أمر مصيره الزوال ، ولن يستطيع الصمود أبداً أمام تحديات العالم ، بكل أشكاله وتقدمه وتقنياته وبكل مشكلاته وكوارثه . إن الدين الحق هو الدين الذي تستسيغه العقول ، وتتعطش إليه القلوب ، وأما غير هذا فهو الباطل بعينه ، وإن ألبس لباس الدين .

إن هذه المسؤوليات تحتاج إلى إخلاص وشجاعة حتى يستطيع كل فرد أن يتحمل مسؤوليته في المحافظة على الكيان الإنساني . وأرجو الله عزوجل أن يعيننا على ما فيه خيرنا وسعادتنا ، إنه على كل شيء قدير .

والحمد لله رب العالمين .

كلمة

فضيلة الشيخ عبد العزيز سي

رئيس اتحاد الجمعيات الإسلامية في السنغال





يسعدنا ويشرفنا باديء ذي بدء أن نرفع إلى مقام خادم الحرمين الشريفين عاهل المملكة العربية السعودية تحية إكبار وإعزاز من الجمهورية السنغالية رئيساً وحكومة وشعباً معربين عن عظيم الامتنان ووافر العرفان لجلالته حفظه الله ولولي عهده ولكافة الأسرة الملكية ولمعالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بهذه الفرصة السعيدة التي تحمل في طياتها بارقات أمل تعطي لمفكري الأمة وعلمائها الأرضية الصالحة للتباحث، ويتحدد فيها الحوار البناء والنقاش المثمر باعتبارها منبراً حراً تطرح خلاله مشاكل الأمة الإسلامية وقضاياها المتنوعة، وهي انفصال الشباب المسلم عن التربية الدينية الصحيحة . وكم كنت أردد ذلك في بعض محاضرتي نظراً لأهميتها في المجتمعات.

نحن اليوم نعيش في عالم هزت جوانبه مشكلات عديدة وشائكة في نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تتصدرها مشكلة الشباب القلق على مستقبل حياته المضطربة، فثار على المبادئ الخلقية والمثل العليا والقيم الإنسانية نتيجة طغيان الحياة المادية الصرفة على الحياة الروحية السعيدة والانغماس المستمر في خضم الحضارة والمدنية الملحدة ولا ريب أن الشباب ـ كما نعلم جميعاً ـ عماد الأمم وأملها في المستقبل والعنصر الحيوي الذي يستطيع تحريك الجمود وتغيير الأوضاع واستنهاض الهمم وبعث روح الحياة في شرايين الأمم ولذلك يستحق كل الاهتمام والرعاية والعناية ولا ينبغي أن يخلد إلى الدعة والراحة والفراغ ويتبع هواه فيصبح فريسة ثمينة ولقمة سائغة في أفواه التيارات الفكرية الضالة والفرق الدينية المنحرفة عن



الإسلام تنهشه بأنيابها المسمومة ، وكل الفرق الملحدة والتيارات الفكرية أهدافها المشتركة هي خلع العقيدة الإسلامية من صميم أفئدة الشباب وتحطيم مكارم الأخلاق الإسلامية والقيم الإنسانية من سلوكه.

ومن ثم نشعر بالحاجة إلى ضرورة إقامة محاورات ولقاءات وتنظيم مؤتمرات كهذه لمناقشة طائفة من الأزمات المتنوعة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي طليعتها أزمة الشباب وكيفية تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم وإرشادهم وتوجيههم توجيهاً إسلامياً صحيحاً.

- أزمة الغزو الثقافي لمحاربة الإسلام.
- أزمة تفكك العالم الإسلامي وانقسام الأمة الإسلامية على نفسها.
- أزمة الثقة بين الجيل السابق والجيل اللاحق وتباين وجهات نظرهما.
- أزمة البطالة المملة القاتلة ...

إلى غير من الأزمات الحادة التي تثير القلق والفتن والاضطرابات في المجتمع الإسلامي.. وأخطر أزمة تكون سبب كل مآسي الأمة الإسلامية هي في الأساس تعود إلى تقصير الآباء وأولياء الأمور في التربية الصحيحة ، والتجارب العلمية تؤكد أن الانحرافات عند الشباب يرجع في الغالب إلى ما يصيب حياتهم الوجدانية من الفساد والاضطراب في مرحلة الطفولة المبكرة فيجب على الآباء وأولياء الأمور أن يزودوا الأطفال في بداية حياتهم في البيت والمدرسة زاداً دينياً وأخلاقياً ينير لهم طريق الحياة ويمكنهم أن يتكيفوا مع الإسلام ويصون عقائدهم وأخلاقهم من التدهور وأن يراقبوا سلوك أولادهم في عقائدهم وأخلاقهم ويراقبوا العوامل الخارجية التي تؤثر على



حياتهم اليومية ويدربوهم على أداء واجبات الدين وحب المعرفة والبحث عن الحقيقة وحب العمل وكسب الحلال والمحافظة على الصحة والسلامة الجسدية والتفتح على العالم للتجاوب والتفاهم والتحاور مع الآخرين على وعي وفهم وحكمة وإخلاص وثبات.

كما أنه يتحتم على القادة والعلماء والمفكرين أن يهيبوا بالمسلمين إلى مراجعة النفس ونقد الذات إيماناً منهم بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ذلك لأن رسالتهم عظيمة ومسؤوليتهم جسيمة في العمل على تنمية معاني الخير والفضائل في المجتمعات ومقاومة الفساد والرذائل فيها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " صنفان من أمتي إذا أصلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس: الأمراء والفقهاء " لأنهم المتحدثون باسم الإسلام في الأرض، والإسلام منهج رباني متكامل جمع كافة ميادين الحياة بتوازن فريد من نوعه لا مثيل له في الحضارات ولا في النظريات التي يفترضها المفكرون الأوروبيون والفلاسفة والمستشرقون أو من يسير تحت ركابهم من العلماء المستغربين ولا نحسب أن هناك موضوعاً يشغل لب الجميع مثل التربية الدينية الصحيحة فمصير كل أمة يتحدد بنوعية التربية التي يتلقاها شبابها بل هي مرآة ينعكس في بؤرتها مستقبل الأمة إيجاباً وسلباً.

والمجتمع يرتبط صلاحه بصلاح الأسر كما أن صلاح الأسر منحصر بصلاح الفرد، ولذا كانت مهمة الإسلام الكبرى في العهد النبوي وفيما بعده من العهود منصبة على إعداد الفرد المسلم وتربيته على القيم والمباديء والمثل



والأخلاق الفاضلة، ليكون لبنة صالحة في بناء الأمة، لأن قوة الأمة وعزتها في مكارم أخلاقها لاشك.

والواقع يقتضي جهوداً مكثفة لربط أبناء الأمة بسيرة نبي الأمة ﷺ، وهي عبارة عن التطبيق العملي لتعاليم الإسلام إيماناً منا بأنه كلما بعد عهد الرسالة عظمت الحاجة إلى إرشاد الخلق وتبصيرهم بالطريق القويم حتى يتحقق وعد الله بنصر عباده المؤمنين، وهذا موقف علماء الأمة وقادتها وذلك بتعريف الناس:

- بحقيقة الإسلام والمبادرة إلى تقويم ما اعوج، وإصلاح ما فسد من الأخلاق.
- والاهتمام الدؤوب بنشر الدعوة بين صفوف العوام لإعادتهم إلى حظيرة الإسلام.
- والعمل على توعية أبناء الأمة من أزمة الوعي إلى وعي الأزمة وتحصين عقائدهم بالحجج والبراهين المعقولة وإعدادهم عقيدة وسلوكاً وأخلاقاً.
- والاعتناء بشؤون المرأة المسلمة وحمايتها من المهددات والمخاطر التي تحوم حولها وتتربص بها الدوائر.
- والحرص الشديد على تمكين القرآن الكريم في قلوب الأجيال قراءة وحفظاً وتفسيراً وتطبيقاً.

وفي الختام نجدد شكرنا وتقديرنا لجهود الرابطة ونعرب عن عظيم الامتنان بعقد هذا المؤتمر في هذا البلد العريق المقدس الذي تهفو إليه القلوب من جميع الشعوب الإسلامية ، لأنه البلد الكريم الذي كان دوماً وسيظل أبداً حرماً آمناً وهو البلد الذي استقبل النور الإلهي الذي ترتبط بالاهتداء به نجاة الإنسان في كل زمان ومكان.

الحوار مع الآخر

أسسه ومتطلباته ومنهجه وآدابه

د. إبراهيم أمين
رئيس الجامعة الإسلامية بالنيجر





تمهيد:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه...

أما بعد: فإنه يسعدني كل السعادة أن أحيي هذا الجمع الميمون، جمع العلماء والمفكرين المسلمين المشاركين في هذا المؤتمر الإسلامي العالمي للحوار الذي تنظمه رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، أحيي هذا الجمع أطيب تحية وأدعو المولى سبحانه وتعالى أن يتوج أعمالكم هذه بنتائج طيبة تخدم الإسلام والمسلمين وترقى إلى مستوى تطلعات هذه الأمة نحو النصر والفوز بسعادتي الدنيا والآخرة.

السادة الحضور: لايسعني وأنا في هذا المقام الطيب إلا أن أشيد وأنوه بالجهود العظيمة والعطاء السخي الذي ما فتئت تبذله حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود ـ حفظه الله ورعاه ـ، في شتى أنحاء المعمورة عن طريق رابطة العالم الإسلامي وأمينها العام معالي الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي خدمة للإسلام والمسلمين ودفاعاً عن قضاياهم العادلة في مختلف المنابر واللقاءات الدولية والإقليمية والمحلية، لا شك أنها جهود عظيمة تذكر للمملكة وللرابطة فتشكر، وتسجل لهما فتنشر، حمى الله المملكة العربية السعودية وجعلها واحة أمن وخير لأمة الإسلام.

أيها السادة العلماء المشاركون في هذا المؤتمر الإسلامي العالمي للحوار، إن موضوع هذا اللقاء الهام لموضوع واسع لا يمكن لأي باحث أن يلم به كله



ويوفيه حقه ، لذلك سأكتفي- إن شاء الله - في مشاركتي هذه بالحديث عن الحوار مع الآخر: أسسه ومتطلباته ومنهجه وآدابه ، وعليه فإن هذه الورقة تشمل العناصر التالية:

١- مفهوم الحوار.

٢- مستويات الحوار وأنواعه.

٣- الآخر الذي نحاوره.

٤-أسس الحوار ومرتكزاته.

٥-منهج الحوار وآدابه.

٦- الخاتمة: مقترحات وتوصيات.



أولاً: مفهوم الحوار:

الحوار هو مراجعة الآخر الكلام وجوابه من أجل الوصول إلى تفاهم مقبول لدى المتحاورين حول قضية معينة أو موضوع ما سالكين في ذلك طريقًا هادئًا، هذا وقد وردت مادة (ح و ر) ذات الصلة بموضوعنا في معاجم اللغة (المعجم الوسيط، المنجد في اللغة) كما ذكرت في القرآن الكريم في أربعة مواضع أحدها في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (الانشقاق:الآية ١٤)، "يحور" من الفعل حار يحور حورا.

ومحارا، وهو فعل لازم ومعناه: يرجع، وهو هنا يفيد أصل المعنى فقط.

والموضعان الثاني والثالث هما قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، (سورة الكهف: الآية ٣٤)، وقوله عز وجل: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (سورة الكهف: الآية ٣٧)، وهما فعلان متعديان يفيدان المشاركة، حاوره محاورة وحوارا، ومعناهما واحد في الموضعين، وهو مراجعة الكلام والجواب في بعض الأمور.

أما الموضع الرابع، فهو قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾، (سورة المجادلة: الآية ١)، والتحاور مصدر فعله تحاور يتحاور تحاورا، يقال: تحاور القوم إذا تراجعوا وتجاوبوا، وهنا أيضًا يفيد المشاركة والمفاعلة، إلا أن المفاعلة هنا أقوى في الدلالة من الفعلين السابقين لزيادة المبني التي تزيد عادة في المعنى والأفعال الثلاثة



الأخيرة تدخل في معنى الحوار الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذا اللقاء.

وذكر " تجادلك مع تحاوركما " في سورة المجادلة يجرنا إلى عقد مقارنة بينهما في الاستعمال ، إذ قد تأتي المجادلة مرادفة للمحاورة بمعناها المشار إليه وقد اجتمعتا بهذا المعنى في آية سورة المجادلة المشار إليها ، إلا أنه كما يبدو لي والله أعلم ، أن هناك فرقًا في الاستعمال بين كلمتي المجادلة والمحاورة ، فالحوار يتم بأسلوب هادئ في الأخذ والرد بين المتحاورين ، لأن الهدف منه محاولة إقناع الآخر إقناعًا حقيقياً من أجل الوصول إلى المقصود ، بينما يراد من الجدل أو المجادلة في الغالب المناقشة والمناظرة والمخاصمة التي تهدف إلى إلزام الخصم بالنتيجة ولو بغير الصواب ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ (سورة الكهف: الآية ٥٦)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ (غافر: الآية ٥٦).

ولما كانت طبيعة الجدال والمجادلة محتملة لهذا وذلك فإن الوارد منه في القرآن الكريم في مخاطبة المسلمين لأهل الكتاب جاء مقرونًا بما يصرفه إلى الجدال الحسن المحمود المرادف للحوار والذي يقصد به الوصول إلى إقناع الآخر بطريقة هادئة رزينة، ومن ذلك قوله تعالى آمراً رسوله ﷺ في مخاطبة أهل الكتاب: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل ، الآية ١٢٥) ، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: الآية ٤٦) ، وما إلى ذلك من الآيات المتعلقة بالموضوع.

والحوار بين الأديان ليس مجرد منتدى للمجادلات أو ساحة لتبادل الاتهامات ، وإنما هو لقاء بين المنتمين إلى أديان سماوية وحضارات وثقافات



مختلفة يجمعهم مثال مشترك أعلى ، وهو تقدم البشرية ورفاهيتها ، وقد لا يؤدي الحوار حتماً إلى الاتفاق ولكنه يمكن أن يؤدي إلى التفاهم المتبادل ويصبح سبيلاً لفهم طموحات البشرية ونقاط ضعفها ، كما يقوم هذا الحوار بتحويل الطموحات ونقاط الضعف هذه إلى اتجاهات بناءة وأكثر شمولية عوضًا عن الخصومة والإحباط (ص ٢٣ ، مجلة التواصل الليبية ، العدد٥ ، السنة الخامسة).

ومما ينبغي أن يشار إليه هنا هو أن الحوار يقوم على الاختلاف لا على الخلاف ، لأن الاختلاف في الإطار الفكري الإسلامي الواحد رحمة كما وصفه النبي ﷺ بقوله "اختلاف أمتي رحمة ..." ، وهو من سنن الله في الكون ، والإسلام يحترم هذا الاختلاف ويطلب منا التكيف معه وتطويع عملية الحوار لخدمته دون الإخلال بمضمون الرسالة ، وذلك منعًا للخلاف المذموم الذي يؤدي إلى التناحر والشقاق وإلى هدر حرية الإنسان وكرامته ، وفي هذا السياق يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (سورة هود: الآيات ١١٨ـ١١٩).

وينبغي اعتبار الخلاف في الحوار الدعوي عند التعامل اليومي مع المسلمين، وكذا في التواصل مع غيرهم من هذا النوع ، ولو ولد هذا الاحتكاك اختلافًا فإن النصوص توصينا بالحكمة والصبر والقول اللين وتجنب الجدال والصدام (انظر: حقيقة الاختلاف من وجهة النظر الإسلامية، للدكتور عفت محمد الشرقاوي ، نقلاً بتصرف من الانترنيت).



ثانياً : مستويات الحوار:

ويمكن تقسيم الحوار إلى ثلاثة مستويات:

- مستوى ديني وفكري ويقصد منه توضيح المفاهيم وتفهم تعاليم الأديان المختلفة وهو يتيح للمؤمن الارتقاء بالحوار حتى أعلى المستويات ، وهنا تكمن فرصة مناقشة مسائل متعلقة بالإيمان والحياة والأخلاقيات والتقاليد والاطلاع على نمط الآخرين في التقرب إلى الله.
- مستوى الخبرة الروحية حيث نحاول فيه مشاركة بعضنا بعضا تجربتنا الروحية التاريخية الذاتية.
- مستوى اجتماعي سياسي حيث يجري فيه سعي مشترك نحو مجتمع عادل مستقر ، وينبغي ألا نفصل بين هذه المستويات بل يجب أن تسير معاً في ترابط وانسجام حتى تؤدي ثمرتها المنشودة ، وهي تعايش البشر جميعاً في أمن وسلام وانسجام وتعاون (ص ٢٦ ، مجلة التواصل ، مرجع سابق).



ثالثًا: الآخر الذي نحاوره:

نؤمن ـ نحن المسلمين ـ إيمانًا عميقًا بمبدأ الحوار بين الأديان السماوية وبمبدأ التفاهم والتعاون والتعارف بين جميع أبناء البشر في مختلف الميادين ، والآخر الذي نحاوره يختلف عن الآخر الذي كان موجوداً عند عصر بدء الدعوة ونزول الوحي ، وإن كان في معظمه قديمًا وحديثًا هم المتعصبون من أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأنهم هم الذين وقع لنا معهم الكثير من العناد والبغي والحسد والظلم ، وقد ذكر القرآن الكريم الكثير من مواقفهم تلك ، كما رسم المنهج السليم الذي ينبغي لنا أن نسلكه في الحوار معهم.

أما أهل الكتاب اليوم وخاصة المتعصبون منهم الذي يعيشون في عصر العولمة التي ترمي إلى القضاء على جميع الثقافات والحضارات والأديان أو تريد توحيدها في نموذج يختارونه هم ويحاولون قسر الشعوب والحضارات والثقافات والديانات الأخرى عليه قسراً .... وهيهات لهم ذلك ، إن هؤلاء الذين يعيشون الخوف المتوهم من الإسلام والمسلمين "الإسلاموفوبيا" ، فإن الحوار معهم الآن يتطلب منا بالإضافة إلى منهج القرآن الكريم الذي رسمه لنا معهم أن نضيف أموراً أخرى تتفق مع سلوكهم الجديد والعصر الجديد الذي نعيشه.

وينبغي لكل حوار لنا مع الآخر أيًا كان هذا الآخر أن يضع نصب عينيه احترام الشخصية الثقافية الحضارية التاريخية الإسلامية وذلك بـ:

١- احترام الثوابت الإسلامية في العقيدة والشريعة وكل المسلمات.
٢- اعتبار الإسلام الدين الحق وهو أصل الديانات السماوية والمهيمن عليها.
٣- اعتبار الإسلام دين الله الذي أرسل به الرسل وأنزل به الكتب السماوية.
٤- اعتبار الإسلام الدين الخاتم الذي جاء لكل البشر ، وهو الذي يساير العقل والمنطق والفطر السليمة.



رابعًا : أسس الحوار ومرتكزاته:

من الأسس والقواسم المشتركة بيننا وبين أهل الكتاب التي تسوغ لنا الحوار معهم ما يأتي:

١ – الاشتراك في أصل الدين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: الآية ١٩) ، وقال في آية أخرى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: الآية ٨٥).

فالدين الحق عند الله هو الإسلام ، وهو الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل من لدن نوح إلى محمد خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام ، فالدين المرتضى عند الله لعباد هو الإسلام ، لذلك رد القرآن الكريم على اليهود والنصارى الذين ادعوا أنهم اتباع إبراهيم عليه السلام ـ وفي حقيقة الأمر ليسوا كذلك ـ بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: الآية ٦٧).

٢ – الاشتراك في أصل الشريعة:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: الآية ١٣) ، فقد اتفق دين سيدنا محمد ﷺ مع أديان جميع الأنبياء قبله في أصل الاعتقاد من التوحيد والأخلاق والآداب وهو المراد هنا، لذلك فسره بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ، يعني بإقامة



الدين: الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه واليوم الآخرة، أما الأحكام الفرعية فليست مراده هنا، إذ اختلفت فيها الشرائع، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾، (المائدة: الآية ٤٨). (انظر: تفسير بن جزي وتفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي).

٣- الاشتراك في الوصايا العشرة:

الوصايا العشرة من الأمور المشتركة بين أتباع الأديان السماوية الثلاثة، لذلك ينبغي أن نذكرهم بها في كل حوار يكون بيننا وبينهم، والوصايا العشرة ذكرت في القرآن الكريم في موضعين:

الموضع الأول: فيه نص الوصايا وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: الآيات ١٥١-١٥٣).

الموضع الثاني: الذي يكاد يكون شرحًا للأول هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾، (سورة الإسراء: الآيات ٢٣-٣٩).

والوصايا العشر كما وردت في آيات سورة الأنعام هي:

١- تحريم الإشراك بالله.

٢- وجوب الإحسان بالوالدين والبر بهما.



٣-تحريم قتل الأولاد بسبب الفقر.

٤-تحريم القرب من جميع الفواحش.

٥-تحريم قتل النفس البشرية بغير حق.

٦- وجوب البعد عن مس مال اليتيم إلا لغرض الإصلاح.

٧-الوفاء والعدل في المعاملات التجارية.

٨- العدل في القول.

٩-الوفاء بالعهد، سواء أكان مع الله أم مع الخلق.

١٠-وجوب اتباع طريق الله المستقيم، وهو الإسلام والثبات عليه، والبعد كل البعد عن جميع الطرق الشيطانية الأخرى.

هذه الوصايا العشر التي أمر الله نبيه ﷺ بدعوة جميع الخلق إلى سماع تلاوتها، قد اجتمعت عليها جميع الشرائع السماوية ولم تنسخ قط، وقد قال به ابن عباس رضي الله عنه: " هي الكلمات العشر التي أنزلها الله على موسى عليه السلام " .

واليهود يعنون بهذه الوصايا عناية عظيمة ويسمونها " الكلمات العشر " وكتبوها في زبورهم كما كتبها أهل الإنجيل في إنجيلهم.

والوصايا العشر عندهما تماثل في مجملها ما ورد في القرآن الكريم وفي بعضها تفاصيل لما أشار إليه القرآن الكريم مجملاً، مثل الفواحش، وهناك تغيير بالزيادة أو النقص، ولكننا نعتمد على النص القرآني لأنه النص الذي لم يحدث فيه تغيير أو تبديل، وهو المهيمن على الكتب السابقة عليه، قال



تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة: الآية ٤٨).

فلو عمل أهل الكتاب بمقتضى هذه الوصايا وطبقوها وتعاونوا مع المسلمين لجنبوا العالم الكثير من ويلات الحروب والدمار والبؤس والأمراض وكل ما تعانيه البشرية اليوم يعود سببه إلى عدم الإيمان القوي بالله وتضييع حقوق الأسرة والظلم وارتكاب الفواحش بجميع أنواعها وأشكالها وعدم العدل في القول وعدم الوفاء بالعهود والمواثيق وما إلى غير ذلك من الحقوق والواجبات المضيعة.



خامساً منهج الحوار وآدابه:

يهدف الإسلام من الحوار إلى الوصول للحقيقة التي تقر بوجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده وعبادته والامتثال إلى أوامره واجتناب نواهيه، وقد دعا الإسلام إلى الحوار مع الآخر وأقره وأمر به قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: الآية ١٢٥).

ومنهج الحوار مع الآخر في الإسلام يقوم على التحاور والتفاهم والبعد عن التعصب والشقاق والعداء، وهذا واضح من النصوص القرآنية ومن سيرة المصطفى ﷺ ومن التاريخ الإسلامي، قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ومنهج الحوار في الإسلام يكره الجدال العقيم أو الجدل بالباطل، وفي هذا نصوص قرآنية كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (سورة الأنعام: الآية ١٢١)، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ (سورة النساء: الآيات ١٠٦-١٠٩)، يتبين لنا من تدبر أسباب نزول هذه الآيات أن الإسلام بنى الحوار على أساس



العدل الذي يتيح للطرف الآخر حق الدفاع عن نفسه وفكره وعقيدته بل إزاء الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (النحل ، ١١١).

ومن أهم أسس منهج الحوار وآدابه في الإسلام ، ما يلي:

١ - الإرادة الصادقة:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (سورة آل عمران: الآية ٦٤)، فالحوار الإسلامي يقوم على الإيمان الذي يقصد منه الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وتوحيد عبوديته وعدم الإشراك به.

٢ - التحلي بالخلق الإسلامي:

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل ، الآية ١٢٥) ، فعلى المتحاور المسلم التحلي بالخلق الإسلامي كالصدق والسلوك الطيب والبعد عن العصبيات إلى غير ذلك من الأخلاق غير المحمودة.

٣- العدل والإنصاف:

سواء أكان هذا الحوار بين المسلمين أنفسهم أم بينهم وبين غيرهم لأنه بالعدل والإنصاف تقوم الموضوعية ، وينبغي التمسك باللين والحكمة في الخطاب قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (سورة فصلت ، الآية ٣٤).



٤-الإلمام التام بموضوع الحوار واستيعاب الفكرة التي يحوم حولها الحوار.

٥- اختيار اللغة والأسلوب المناسبين للموضوع:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٣-٣٥).

للمزيد من الاطلاع عن منهج الحوار وآدابه، (انظر: أدب الحوار، شبكة التربية الإسلامية، إشراف الأستاذ أحمد مدهار ... وغيره).



سادساً: الخاتمة: المقترحات والتوصيات

وفي ختام هذه المداخلة السريعة يجدر بنا أن نختمها بعدد من المقترحات والتوصيات التي أخذنا معظمها بتصرف من التقرير الذي أعده المرصد الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي وقدمه إلى القمة الإسلامية الحادية عشرة التي عقدت في دكار بالسنغال في مارس ٢٠٠٨م، وهي كما يلي:

١-أنه ينبغي للحوار في الإسلام أن يكون مبنياً على الدعوة إلى الله تعالى مع مراعاة الثوابت الإسلامية والاستفادة من المرونة الفقهية المتجددة في الإسلام.

٢-محاربة "الإسلاموفوبيا"، وهي الخوف غير المبرر من الإسلام، وذلك من خلال تحسين صورة الإسلام لدى الآخر الذي نحاوره.

٣- محاربة كافة صور "الإسلاموفوبيا" وأشكالها وما ينتج عنها، مثل الإساءة إلى رسول الأمة ﷺ، ونشر الصور والكتب والمقالات المسيئة إلى الإسلام، وذلك من خلال حوار هادف بناء يقوم على مقارعة الحجة بالحجة والبعد عن الإثارة العاطفية السريعة غير المدروسة.

٤- تشجيع الحوار وحث مراكز البحث والمنظمات الحكومية وغير الحكومية الغربية على تطوير علاقات أوثق مع مثيلاتها في البلدان الإسلامية وعلى استمرار الحوار المنتظم.

٥-تنظيم لقاءات وندوات حول تحالف الحضارات، وذلك من أجل فهم أفضل للحوار بين جيل الشباب للحيلولة دون استغلاله من دعاة



التعصب والتطرف.

٦- تشجيع الحوار بين الشباب خلال البحث العلمي والبرامج التعليمية سعياً لفهم الإسلام على النحو الأفضل.

٧- ضرورة بدء الحوار من أجل تحالف الحضارات وذلك بالسعي إلى فهم أفضل وشامل للإسلام في العالم الغربي.

٨- استخدام الوسائط الإعلامية المختلفة مثل أجهزة الراديو والتلفزيون والسينما والانترنت وغيرها من أجل حوار مفتوح تقارع فيه الحجة بالحجة ويعمل فيه على تحسين صورة الإسلام والمسلمين.

٩- العمل على البدء في حوار يساعد على فهم فقه التعايش في الإسلام وبخاصة في المناطق التي تقطنها أقليات مسلمة وسط أكثرية مسيحية أو هندوسية أو غير ذلك.

١٠-الاستفادة من خبرة المواطنين المسلمين الذين يعيشون في البلدان الغربية من أجل فتح حوار هادف وبناء مع أبناء مجتمعاتهم الغربية يخدم الإسلام والمسلمين ويسعون فيه بحكم الخبرة والمواطنة إلى إظهار مبادئ الإسلام في التعايش بين الأمم والأديان ، ذلكم التعايش القائم على التفاهم والتسامح وتعزيز الاحترام بين الثقافات والأديان المختلفة.

وبالله العون والتوفيق.



نظرتنا إلى أوروبا

ومسؤولية الجالية المسلمة لنجاح الحوار

د. أحمد آق كندوز

رئيس جامعة روتردام الإسلامية



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ...

١ - نظرتنا إلى أوروبا

نودُّ أن نوجِّه أنظار المسلمين، وكذلك النصارى، إلى أنَّ أوروبا هي في الواقع مزدوجة:

أوروبا في وجه من وجهيها: هي أوروبا التي تستلهم من الأديان السماوية وعلى رأسها الإسلام والمسيحية، لتكون مهداً للعلوم والتكنولوجيا الخادمة للإنسانية جمعاء، فنحن نشجع هذا الوجه من أوروبا.

ونحن نقول: إن في قوله تعالى: ﴿وَالَّذينَ يُؤْمنُونَ بما أُنْزلَ الَيْكَ وَما أُنْزلَ منْ قَبْلكَ وَبالآخرَة هُمْ يوقنُونَ﴾ (البقرة:٤) إشارةً إلَى تشويق أهل الكتاب إلَى الإيمان وتأنيسهم، والتسهيل عليهم، كأنه يقول لهم: "لايشقنّ عليكم الدخول في هذا المسلك، إذ لاتخرجون عن قشركم بالمرة، بل إنما تكملون معتقداتكم، وتبنون على ما هو مؤسَّس لديكم"، إذ القرآن معدِّل ومكمِّل في الأصول والعقائد، وجامع لجميع محاسن الكتب السابقة وأصول الشرائع السالفة، كما أنه مؤسِّس في التفرعات التي تتحول بتأثير تغير الزمان والمكان، فكما تتحول الأدوية والألبسة في الفصول الأربعة، وطُرُز التربية والتعليم في طبقات عمر الشخص؛ كذلك تقتضي الحكمة والمصلحة تبدل الأحكام الفرعية في مراتب عمر نوع البشر، فكم من حكم فرعي كان مصلحة في زمان، ودواء في وقت طفولية النوع، لا يبقى مصلحةً في آخر، ودواء عند شبابية النوع، ولهذا السِّرِّ نَسخَ القرآن بعض الفروع، أي بيّن انقضاء أوقات



تلك الفروع ودخول وقت آخر.

وأوروبا في وجهها الثاني: هي أوروبا التي يعاني منها أهلها أيضاً، المتمثلة في انهيار القيم والأخلاق تحت تأثير فلسفات وآراء مبتورة أو مشوهة.

ومن أهم مقاصدنا إنقاذ الأجيال المسلمة الأوروبية خاصة من السقوط في هذه الحياة التي نراها لا تنسجم مع القيم والأخلاق الإسلامية.

لقد عبر كاردينال النمسا (كونيك) في افتتاح الأكاديمية الإسلامية في فيينا عن مشاعرنا تماماً حين قال: إن الإنسانية مدعوة إلى الاجتماع على مسائل أساسية مهمة، وترك بعض المسائل المختلف فيها جانباً، إزاء الانحلال الأخلاقي الشديد و(اللاديني) المتسارع .

وقد أشار النبي ﷺ إلى مثل هذا التقارب حين بيَّن أن المسلمين سوف يسالمون النصارى ويحاربون الكفر والسقوط الأخلاقي في الحديث الذي أورده الإمام أبو داود (في كتاب الملاحم الجهاد / السنن- رقم ١٥٦)[١]، كذلك بيَّن الإمام بديع الزمان بأن على المؤمنين أن يتماسكوا مع بعضهم، ويتحالفوا مع المتدينين من النصارى ضدَّ الأخطار (اللادينية) وانهيار الأخلاق[٢].

فكل شيء في الغرب ليس خيراً خالصاً، ولا شراً خالصاً، فالمدنية الغربية تحتوي على بعض القيم المشتركة مع المسلمين، فكما استفاد الغرب من المدنية اليونانية والمدنية الرومانية فإنه استفاد أيضاً من المدنية الإسلامية.

إذن يجب أخذ الحسن؛ لأن (الحكمةَ ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحقُّ

(١) يأتي ذكره لاحقاً.

(٢) انظر المكتوبات للإمام بديع الزمان، المكتوب ١٥ .



الناسِ بها)، كما يجب ترك كل ما لا يتلائم مع القرآن.

٢- تشجيع الحوار البناء مع غير المسلمين

إنَّ من أعظم الأدوار التي يمكن أن تقوم به المؤسسات الإسلامية لتحقيق مستقبل أفضل للجالية المسلمة في الغرب عامةً هو تشجيع الحوار البناء.

فالله تعالى يأمرنا أن ندعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالعبارة الخشنة، وأن نجادل بالتي هي أحسن ﴿ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥) .

هذا هو الأسلوب الذي ينبغي للمسلم أن يتبعه في دعوته للمعاندين، وحسبنا وصية الله تعالى للرسولين الكريمين موسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٣-٤٤) .

والاختلاف أمر متوقع في هذه الأمة وفي كل الأمم: ﴿ولو شاء ربُّك لجعل الناسَ أمَّة واحدة، ولا يزالون مختلفين﴾ (هود:١١٨) فالاختلاف بين البشر حقيقة فطرية، وقضاء رباني مرتبط بالابتلاء والتكليف الذي تقوم عليه خلافة الإنسان في الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة:٤٨).

فالاختلاف والتعددية بين البشر قضية واقعية، ومنهج تعامل العقلاء مع هذه القضية هو الحوار الذي يتم في ضوئه توظيف الاختلاف وترشيده بحيث يوصلهم إلى هدف التعارف، ويجنّبهم مخاطر النزاع والتباغض.



والحوار يعالج قضية الاختلاف خلال كشفه عن مواطن الاتفاق ومثارات الاختلاف ؛ لتكون محل النقاش والجدل بالتي هي أحسن لمعرفة ما هو أقوم للجميع. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٨-٩). وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

فقد روى الإمام أحمد في مسنده وأبو داود وابن ماجه وابن حبان أن رسول الله ﷺ قال: (ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهُمْ عدواً من ورائهم، فَتَسلَمُون وتَغْنَمُون، ثم تنزلون بمَرْجٍ ذي تَلُول فيقوم رجل من الروم فيرفع الصليب ويقول: غَلَبَ الصَّلِيبُ! فَيَقُومُ إليه رجلٌ من المسلمين فيقتله، فيغدر الروم وتكون الملاحم فيجتمعون لكم ثمانين غاية (علم وراية) مع كل غاية اثنا عشر ألفاً).

قال بعض العلماء: واضح من نص الحديث أن ثمة حربين ستقعان: الأولى: وهي هرمجدون العالمية وهي التي يعرفها جميع أهل الكتاب ويتوقعونها. والثانية: الملحمة الكبرى والتي ستكون بعد حرب



" هرمجدون " بين المسلمين من جهة وأوروبا وأمريكا من جهة أخرى نتيجة غدر الروم بنا، فحرب " هرمجدون " ستكون حرباً مدمرة نووية تفني معظم الأسلحة الاستراتيجية وعالمية يكون المسلمون والروم (أوروبا وأمريكا) طرفاً واحداً لا محالة فيقاتلون عدواً مشتركاً كما يقول الرسول ﷺ.

قال بعض العلماء: ولا يفيد الحديث أن المسلمين استعانوا بالمشركين على قتال المشركين، وإنما يُفيد عن وجود عدو مشترك يُقاتله المسلمون من جهة، وكفرة الروم الذين تم الصلح معهم يقاتلونهم من جهة أخرى.. فهذا يحصل في العادة والشرع لا يمنع منه!

فنحن نقول: أما العدو المشترك فهو التيار الطاغي المتمرد، المتولد من فلسفة الطبيعيين والماديين، هذا التيار ينتشر ويتقوى تدريجياً بوساطة الفلسفة المادية في آخر الزمان، حتى يبلغ به الأمر إلى إنكار الألوهية، ويمنح أفراد هذا التيار المنكرين لله سبحانه أنفسَهم نوعاً من الربوبية كأنهم نماردة صغار!!

وهكذا ففي مثل هذه الفترة، وحينما يبدو ذلك التيار قوياً شديداً يظهر الدين الحق الذي أتى به عيسى عليه السلام، والذي هو الشخصية المعنوية لسيدنا عيسى عليه السلام، أي ينزل من سماء الرحمة الإلهية، فتتصفى النصرانية الحاضرة تجاه تلك الحقيقة وتتجرد من الخرافات والتحريفات وتتحد مع حقائق الاسلام[1].

أي أنَّ النصرانية ستنقلب إلى الإسلام، فتكون تابعة، ويظل الإسلام في مقام الإمام المتبوع، ويجد الدين الحق نتيجة هذا الالتحاق قوة عظمى، إذ في

(١) ليس في هذا إنكار نزول المسيح عليه السلام آخر الزمان، فتلك عقيدة ثابتة لدى المسلمين.



الوقت الذي كان الاسلام والنصرانية منفردين -كل على حدة- غير قادرين على صدّ تيار الإلحاد يكونان بفضل الاتحاد بينهما على استعداد لتدمير تيار الإلحاد تدميراً كاملاً، ففي هذه الأثناء يتولى شخص عيسى عليه السلام الموجود بجسمه البشري في عالم السموات قيادة تيار ذلك الدين الحق.

أخبر بهذا مخبر صادق استناداً إلى وعد من لدن قدير على كل شيء، وإذ هو قد أخبر، فالأمر حق لا ريب فيه، واذ وعد به القدير على كل شيء، فلاشك أنه سينجزه.

هذه هي البشرى:

وأنا أريد أن أذكر أنموذجاً رائعاً في تحقيق البشرى التي أخبرنا بها نبينا ﷺ في الحديث المذكور آنفاً، وهي كالتالي:

في يوم من الأيام جاء الأمين العالم لاتحاد الكنائس العالمية وقال لنا: أنتم المسلمون مع الأسف الشديد لم تقدروا قرارات كونسل[1] المؤرخة بـ ١٠ مارس ١٩٨٤م المنعقد في سانت بولتن/ النمسا، ونحن كنا نظن أن العالم الإسلامي يعلن إلى جميع البشر هذه القرارات بالسرور والترحاب والفرح؛ فإن العالم المسيحي أول مرة يعترف بأن القرآن الكريم كلام الله، وأن محمداً ﷺ نبي من السلسلة النبوية المبتدئة من إبراهيم إلى محمد ﷺ، ولكننا نشرنا من هذه القرارات نسخاً معدودة، ثم ندم بعض المشاركين على هذه القرارات.

وأنا بحثت واطلعت على موقع مؤسسة الكنائس العالمية، ووجدتُ فيها

(١) كونسل هو اسم للاجتماع الذي ينعقد مرة كل عدة سنوات، ويلتقي فيه رؤساء الكنائس على مستوى العالم.



القرارات التي صدرت في الستينيات وفي السبعينيات وفي التسعينيات فقط، ولم أجد القرارات التي صدرت في الثمانينيات؛ لأن هذا الدكتور كان يقصد هذه القرارات الإيجابية بالنسبة للإسلام وسيدنا محمد والقرآن.

وأنا أريد هنا أن أنقل قرارين فقط من مجموع هذه القرارات:

القرار الأول: في صفحة ٦٥ يوجد القرار الآتي: إن المسلمين يؤمنون بالله ونحن نؤمن بالمسيح ، ورغم الادعاءات الماضية إلا أنه لا يوجد أي فرق بين الله وبين المسيح، فقط يمكن أن يوجد الخلاف في صفات الله تعالى بين المسلمين والمسيحين(١) .

القرار الثاني: (والمسيحيون يمكن أن يرفضوا فكرة أن محمداً نبي كاذب، عكس ذلك ينبغي أن يعترفوا بأن محمداً نبي من السلسلة النبوية المبتدئة بإبراهيم عليه السلام. لكن نرجو من المسلمين أن يفهموا بعض الخلافات الخفيفة بين فهمنا لمعنى النبوة وبين فهمهم لها).

٣ – صورة الإسلام في هذا الغرب تحتاج إلى كل أعمدة الحكمة لإزاحة الكدر وليس بخاف على أحد أنَّ صورة الإسلام في هذا الغرب تحتاج إلى كل أعمدة الحكمة لإزاحة الكدر الذي شوهها، بسبب ما فعلته الأيادي الخبيثة لطمسها، وبسبب ما قامتْ به قوى الظلام التي أساءت إلى الإسلام والمسلمين من حيث تعلم ومن حيث لا تعلم في هذه البلاد وفي بلداننا الإسلامية، ولكي

---

(1) Witness to God in a Secular Europe 2 vols. Report of a Consultation held in St. Polten Austria 5th-10th March 1984. Geneva: Conference of European Churches. 1985. 76 pp. 6 & 86 pp. n.p.



نبدأ السير على هدي صحيح رأينا أن نعرض التصور الآتي:

إن في العالم، وفي أوروبا خاصة، عوائقَ كثيرة تعيق فهم الإسلام منها: سوء الفهم بسبب الاطلاع على الإسلام من مصادر غير صحيحة، والتعصب الموروث من القرون الوسطى، والأحكام المسبقة لبعض رجال الدين بسبب هذا التعصب، وانقياد معظم الناس إلى هؤلاء من غير تمحيص لآرائهم، ونحن نسعى لإزاحة مثل هذه العوائق بالاعتماد على ثلاث منطلقات هي:

- الميل الشديد والرغبة العارمة المنتشرة في أرجاء الأرض إلى البحث عن الحقيقة المجردة عند البشرية قاطبة.
- الاطِّلاع على ما عند الآخر، مسلمين ومسيحيين كلٌّ من موقعه، وبإنصاف وعدل.
- المحبة الانسانية وفق البيانات القرآنية، وكما يعبر عنه اليوم باحترام الانسان.

وأنا أريد أن أذكر مثالين فقط:

الأول: بعض السياسيين والأشخاص في عدد من الدول الغربية -كما هو الشأن الآن في هولندا- يتهمون القرآن بالتحريض على العنف، وقبل سنوات شاركت في مؤتمر بجامعة «تونتى»، وادعى حينها أحدُ الحاضرين أنَّ القرآن يحرِّض الناس على العنف ، ولتعليل كلامه قرأ الآية الآتية من القرآن الكريم:

﴿فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ (التوبة:١٢)، ولما انتهى من القراءة رجوته أن يقرأ الآية من البداية فرفض، فقرأت أنا الجزء الذي امتنع عن قراءته، فالآية تبدأ هكذا: ﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ ...﴾ (التوبة:١٢). فهذا مثال حي لما يقوم به الآن بعض السياسيين والأشخاص الذين يهاجمون الإسلام، فهم ينتقون أجزاء



من الآيات التي تناسب هواهم ثم يربطونها بالمواضيع التي يريدون إثارتها.

نقطة مهمة جداً: من المعروف لدى كل الباحثين في القوانين الدولية، أنَّ لكل دولة قواعد قانونية في أوقات الحرب (قانون الحرب) و(أوقات السلم)، وهي تختلف عن بعضها اختلافاً شديداً، فلو خلطت القوانين في أوقات الحرب بالقوانين في أوقات السلم لوصفت الأعمال التي تقوم بها هولندا في أفغانستان بالعنف مثلاً، وهذا المثال ينطبق على الآيات القرآنية أيضاً، فالقرآن الكريم يعد المصدر الأول للتشريع الإسلامي، وهو يشمل آيات نزلت في أوقات الحروب، وآيات نزلت في أوقات السلم، والناس الذين يهاجمون القرآن يقومون بجمع بعض الآيات المتعلقة بأوقات الحرب ويعممونها وكأنها قوانين عامة يتم تطبيقها في كل زمان ومكان!! فالقرآن يشمل في الواقع على ١٠٩ آيات فقط، تتعلق بقانون الحرب، مثل القوانين التي نزلت على رسوله ﷺ خلال المدة التي كان يدافع فيها عن المدينة.

الثاني: إذا قال لنا شخص: كيف تشير إلينا بمحبة اليهود والنصارى، مع أن القرآن الكريم ينهى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصارى أَوْلِياء﴾ (المائدة: ٥١).

أولاً: كما يلزم أن يكون الدليل قطعي المتن، يلزم كذلك أن يكون قطعي الدلالة، مع أن للتأويل والاحتمال مجالاً، لأن النهي القرآني ليس بعام بل مطلق، والمطلق قد يُقيّد، والزمان مفسّر عظيم، فإذا ما أظهر قيدَه فلا اعتراض عليه.

وأيضاً، إن كان الحكم قائماً على المشتق، فإنه يفيد عليّة مأخذ الا شتقاق للحكم.



فـإذا تأملنا في الآيـة الكريمة، نفـهم أن المنهيّ عنه في هذه الآية الكريمة هو محبتهم من حيث ديانتهم اليهودية والنصرانية، وأيضاً، لا يكون المرء محبوباً لذاته، بل لصفته وصنعته، لذا فكما لا يلزم أن تكون كل صفة من صفات المسلم مسلَّمة، كذلك لا يلزم أن تكون جميع صفات الكافر وصنعته كافرة أيضاً، فعلى هذا، لمَ لا يجوز اقتباس ما استحسنّاه من صفة مسلمة أو صنعة مسلمة فيه؟ فإن كانت لك زوجة كتابية، لاشك أنك تحبها.

ثانياً: لقد حدث انقلاب ديني عظيم في العصر النبوي السعيد، وجّه كل الأفكار والأذهان نحو الدين، فارتبطت بالدين جميع الحسّيات والمشاعر، فكانت العداوة والمحبة تدوران حول ذلك المحور "الدين"، لهذا كانت تُشمّ رائحة النفاق من المحبة مع غير المسلم، ولكن الانقلاب الحاضر العجيب في العالم هو انقلاب مدني ودنيوي الذي نسميه اليوم العولمة، فالمدنية والرقيّ الدنيوي يجذبان العقول كلها ويشغلانها ويشدّان بهما جميع الأذهان فضلاً عن أن معظم غير المسلمين ليسوا ملتزمين التزاماً جاداً بدينهم أساساً، فعلى هذا محبتنا لهم ما هي إلا لاقتباس ما استحسناه من مدنيتهم وتقدمهم، ولأجل المحافظة على نظام البلاد وأمنها الذي يُعدّ أساس سعادة الدنيا، فهذه الصداقة إذاً لا تدخل قطعاً ضمن النهي القرآني.

إنَّ قسماً من أفراد المسلمين يقولون: لا تخاطبوا النصارى بـ: "يا كافر" استهانةً بهم، فهم أهل كتاب!.. لماذا لا نخاطب الكافر بـ "أيها الكافر"؟!.

والجواب أن نقول: أولاً: مثلما لا تقولون للأعور: أيها الأعور! لئلا يتأذى، فهناك نهيٌ عن آذاهم كما جاء في الحديث الشريف[1].

---

(١) تمام الحديث: (من آذى ذمياً فأنا خصمه) رواه أبو داود عن عدة أبناء أصحاب رسول الله ﷺ قال في المقاصد: وسنده لابأس به. (راجع كشف الخفاء ٢/ ٢٩٨).

وثالثاً: للكافر معنيان: فالأول: وهو المتبادر إلى الذهن عُرفاً وهو: المُنكر للخالق سبحانه والملحد الذي لا دين له، فهذا المعنى ليس لنا الحق في إطلاقه على أهل الكتاب. وثانيه: هو المنكر لرسولنا الأعظم ﷺ وللإسلام، فهذا المعنى، لنا الحق أن نطلقه.

لا يخفى عليكم أنّ ملايين المسلمين الذين نزحوا إلى أوروبا هم من الطبقة البسيطة التي كان جلُّ همها تحسين وضعها الاقتصادي كي تعود إلى بلدانها لممارسة حياة أفضل، إلا أنها بمرور الوقت تجد نفسها مضطرة إلى الاستقرار في هذه البلاد، لأسباب كثيرة لسنا بصدد تفصيلها، فأنتم أعرف بها، وهي إلى حدٍّ كبير لا تَعرف إلا النزر القليل من أمور دينها.

أمَّا الجيل الثاني الذي يتربى في هذه البلاد فإنه يكاد ينفصل عن جيل أبويه، ولا يملك إلا الهوية الإسلامية، وقد يقيم بعض الواجبات إلا أنه لا يعرف فحواها، وقد ينزلق بعضهم في مهاو لا يعرف قرارها، ولا يدرك تأثيرها عليه وعلى المسلمين، كما في أذهانٍ كثير منهم بسبب الدعاية الإعلامية المعادية، وتراكمات تاريخية، وصورة سلبية صوَّرَها.

يجب علينا بصفتنا مسلمين نعتزُّ بديننا وإنسانيتنا، ونشعر بالمسؤولية اتجاه الإنسانية، أنْ ندعو إلى حوار الحضارات لا إلى صراعها، وأنْ نشجِّع على الاندماج الإيجابي المتوازن في مجتمعات الدعوة، وأن نتَّصف بالمرونة والعقلانية والتحديث؛ لأنَّ المسلم يعتقد "أنَّ الإسلام صالح لكلِّ زمان ومكان"، ويجب علينا ألاّ نكتفي بترديد هذه المقولة، وإنَّما نسعى لتطبيقها في مختلف بلدان العالم.



وكلُّنا يعرف أنَّ البشرية فيها معتقدات وأديان متعددة ومختلفة، وأنَّ الإسلام هو أحدُ هذه الأديان، وليس الدين الوحيد، ولنا في الآية الكريمة خير شاهد حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢) وما يُعزِّزَ هذا الرأيَ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨)، فلا بدَّ من الإقرار أنَّ الدين هو أحد المكونات الأساسية لأيِّ شعب من الشعوب، وهو لا يقلُّ أهمية عن اللغة، والتاريخ، والثقافة.

وطالما أن الفكر الإنساني المتحضر على تنوع مناهجه يدعو إلى الخير والمحبة والعدل والسلام، فإن الحوار ممكن، وهو شرط لا بد منه لتعزيز التعايش السلمي المبني على المساواة والعدل.

وربما تنسجم الآية الكريمة مع الهدف الأكثر شمولا عندما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)، هذا التعارف لا يلغي الآخر، بل يندمج فيه، ويفيد منه، ويفيده.

علينا بصفتنا مسلمين أن نفتح حواراً متفتحاً، ليس على مستوى الدين فحسب، بل علينا أن نخوض في حوار حضاري يمتد من الثقافة والفنون، ويمر بالفكر والفلسفة، وينتهي بمختلف العلوم الإنسانية المتاحة أمام الكائن البشري، وعلينا أن نرسّخ مفهوم الاحترام المتبادل بين الشعوب، وأن نسعى لإظهار الحقائق التي تمتلكها كل الأطراف المتحاورة، متبعين أدب الحوار الذي



يحضُّ عليه القرآن الكريم كما ورد في الآية الكريمة التالية: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

٤-ينبغي أن تكون نخبة إسلامية في أوروبا حتى نزيل مصيبة التعميم.

وفي هذا الجانب أود أن أنقل لكم ملاحظة البروفسور زايدرفلد، وهو أستاذ هولندي في علم الاجتماع، وأنا شخصياً أتفق مع ملاحظته هذه تماماً.

يقول البروفسور: "أود أن أشير إلى أنني غير مرتاح للتعميمات التي تصدر عن معظم منتقدي الإسلام. واسمحوا لي ان أقتصر على تعميمين مقلقين للغاية: إن معظم النقاد يتحدثون ويكتبون عن «الإسلام» و«المسلمين»، كما لو أنه لم تكن هناك خلافات لاهوتية وعرقية خطيرة في الماضي، علماً أن هذه الخلافات حدثت في معظم أديان العالم، فهذا راجع بالأساس إلى المعرفة السطحية أو المنعدمة بتاريخ وعلم ظواهر الإسلام كونه ديناً عالمياً، وعلاوة على ذلك، ينبغي أن نركز في مناقشاتنا على موقف المسلمين في مجتمعنا، فهم الشركاء الرئيسيون في مناقشاتنا حول الدين والمجتمع على كل حال.

التعميم الثاني هو الأكثر إثارة للقلق: فغالباً ما يُعَرَّفُ الإسلام إمَّا خفيةً أو علانية على أنه مضاد للديمقراطية الدينية، وأحياناً أخرى بالإرهاب، ونتيجة لذلك، كثيراً ما ينظر إلى المسلمين على أنه من المحتمل أن يقوموا بأعمال إرهابية.

والفكرة الكامنة وراء هذا التعميم هو استحالة تحقيق إسلام مستنير في



سياق سياسي وديمقراطي، ولست بحاجة إلى إثبات هذه المسألة، لأنه فعلاً يوجد إسلام مناهض للديمقراطية والتنوير، ولا سيما في الشرق الأوسط، وغالباً ما يدعم معتنقوه الشبكات الإرهابية، ولا ينبغي أن نكون ساذجين بخصوص هذا الأمر، إلا أنه بطبيعة الحال، يوجد تعميم بخصوص الإسلام، ويُعتقد أنه دين لا يدعم التنوير، ودين «القرون الوسطى»، و«ما قبل الحداثة»، أمَّا « المسلمون »، فيُعتقد أنه من المحتمل أن يتحول كل واحد منهم إلى إرهابي.

وفي ضوء هذه المجموعة الأولى من التعميم، أرى أن جامعة روتردام الإسلامية من الناحية السوسيوثقافية والسياسية في بالغ الأهمية بالنسبة لنا، فهدفها الأساس، هو تعليم وتثقيف الشباب المسلم الذي ولد ونشأ داخل المجتمع الغربي تعليماً علمياً وأكاديمياً، هذا المجتمع مبني على قيم وقواعد دولة دستورية، ومع ذلك ينبغي أن يدرك كل واحد منَّا أنه ليس بالضرورة أن يكون التعليم العلمي علمانياً، يمكن للتعليم أن يرتكز على مجموعة من المعتقدات الدينية، فإننا نعلم أنه يوجد في هولندا جامعاتان كاثوليكيتان في كل من تيلبورغ ونيميخن، وجامعيتان كلفينيتان في كل من أمستردام وكامبن، فإذا قلنا: (جامعة إسلامية) فلا يعني هذا على الإطلاق أنَّ التعليم في هذه الجامعة يقتصر على منهج ديني معين (المنهج السني، أو المنهج الشيعي)، ولا على فئة عرقية معينة (الأتراك، أو المغاربة).

وخلاصة القول: إن التعليم والبحث العلميين لجامعة إسلامية يصدان التعميمات بخصوص « الغسلام والمسلمين».

ولكن هناك نقطة ثانية، وهي قيام علماء فقهاء عارفون بشؤون ومشكلات



الجاليات المسلمة في الغرب الأوروبي، وأنا لا أشعر بالارتياح إزاءها، والأمر يتعلق بالمناقشات الحالية حول الإسلام والمسلمين، فغير المسلمين هم الذين يعتلون المنصات للنقاش في المواضيع المتعلقة بالإسلام والمسلمين، وكثيراً ما تكون لديهم نزعة معادية للإسلام، بل كثيراً ما تغلب عليهم النزعة الإلحادية التعصبية.

وما يذهلني، ويزعجني، وهو أمر لابد أن أعترف به، هو أنه لايشارك في هذه النقاشات إلا عدد قليل جداً من المسلمين، كما أنَّ المسلمين لا يردون على انتقادات أولئك الذين ينتقدون المسلمين ودينهم بطريقة علمية ومعقلنة.

وبعبارة أخرى، فليست هناك في الواقع مناقشة حقيقية! والسبب الرئيس في ذلك هو أنه ليس لدينا حتى الآن نخبة إسلامية؛ أي مجموعة من المتعلمين والمثقفين الذين يستطيعون أن يثبتوا أن الدين الإسلامي ونمط الحياة الإسلامي مقبولان في سياق حداثي، وديمقراطي غربي، مثل هذه النخبة، حققها الكاثوليكيون والكالفينيون منذ عدة عقود. وهذه النخبة تُكَوَّنُ في المؤسسات التعليمية، وخاصة في مؤسسات التعليم العالي.

وجامعتنا الإسلامية ستهيئ هذه النخبة الإسلامية المثقفة والتي لن تساهم فقط في تحرر المسلمين في مجتمعنا، وإنما أيضاً في الرد العلمي والحضاري على منتقدي الدين عموماً، والإسلام على وجه الخصوص، ولذلك، من الحكمة سياسياً ومن الضروري أن يتم توطيد جامعة روتردام الاسلامية داخل نظام التعليم العالي الهولندي "(١).

---

(١) الاستاذ الدكتور أنطون زايدرفلد، كلمة القاها في افتتاح السنة الدراسية لجامعة روتردام الإسلامية٢٠٠٦ كلمة القاها في افتتاح السنة الدراسية لجامعة روتردام الإسلامية.



٥ - مسؤولية الجالية المسلمة و الدول الإسلامية و الدولة المضيفة

وفيما يلي بعض الأمور المهمة، والتي يمكن للمؤسسات الإسلامية، أن تضع الخطط العلمية المدروسة، وتحاول تحقيقها، لتقوم بدورها القيادي للجالية، للوصول إلى مستوى أفضل:

أولاً: مسؤولية الجالية المسلمة

١ - أن نكون أقوياء في كل شيء وفق الأطر القانونية: كي نتمكن نحن الجالية المسلمة من بناء مستقبل أفضل، علينا أن نكون أقوياء في كل شيء، ووفق الأطر القانونية، مجتهدين في طلب العلم الحديث، أصحاب قوة وشأن في المجال الاقتصادي، نؤدي دوراً سياسياً مسئولاً ومؤثراً، نؤدي دوراً إعلامياً مواكباً لكل ما يحيط بحال الجالية والأمة، وندافع عن قضايانا مبينين حقوقنا المشروعة بصوت عال ومسموع ومؤثر غير خجول ولا ضعيف منهزم، وننشط في أداء دورنا الفكري في نشر مفاهيم الدين الإسلامي الذي نعتقد أنه الخير والرحمة والسلام للعالمين، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) .

٢- التمسك بالإسلام عقيدة وأخلاقاً: إن هذا هو دور الفرد المسلم وواجبه تجاه نفسه، ولكن للمؤسسة الإسلامية في منطقته دور كبير في مساعدته لتحقيق ذلك، بتفعيل دور المسجد العلمي، بإيجاد دروس علمية منظمة ودائمة، تعلم المسلم المهاجر دينه في مختلف مراحله العمرية، وتقوي علاقته بالجالية بواسطة برامج اجتماعية تقوي مفهوم صلة الرحم الإسلامية بين أبناء الجالية، وتكون اللجان لحل الخلافات التي يمكن أن تحصل في أي



مجتمع، قبل أن تتطور الخلافات إلى مكائد ودسائس تستغلها بعض الجهات لتلحق الضرر الأكيد بالجالية وتفرق جمعهم.

إنَّ أعظم رسالة يمكن أن تصحح تصور الغربيين وغيرهم عن ديننا وعن أمتنا، تتمثل في أن يكون أبناء الجالية الإسلامية، ملتزمين بدينهم وتوجيهاته في أخلاقهم ومعاملتهم، سواء في حياتهم المنزلية وعلاقاتهم الأسرية، أم في معاملاتهم مع الآخرين، أم في عبادتهم لربهم، أم في سائر شؤونهم وتصرفاتهم، وأن يكونوا صورة تمثل بصدق ما أمرهم به الله تعالى. عندئذ سيجدون أثر ذلك في هذا المجتمع الغربي، يتجلى

٣- التبصر في حقائق الدين والحذر من الوقوع في هاوية التكفيريين: وقد حذَّر النبي ﷺ من الاتهام بالكفر، ففي الحديث الصحيح عَنْ نَافِع عَنْ ابْن عُمَرَ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: (إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا)[١]، وهذا ما لم يكن الآخر كافراً بيقين، فسَتُرَدُّ التهمة على من قالها، ويبوء بها، وفي هذا خطر جسيم. وإن قالها خوفاً أو تعوذاً من السيف، فحسابه على الله، ولنا الظاهر، ولهذا أنكر النبي ﷺ غاية الإنكار على أسامة حين قتل الرجل في المعركة بعد أن نطق بالشهادة.

ومن دخل الإسلام بيقين لا يجوز إخراجه منه إلاّ بيقين مثله، فاليقين لا يزول بالشك، والمعاصي لا تخرج المسلم من الإسلام، حتى الكبائر منها، كالقتل، والزنى، وشرب الخمر، ما لم يستخف بحكم الله فيها، أو يرده ويرفضه.

---

(١) صحيح مسلم،كتاب الإيمان رقم ١، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر رقم ٢٦،ج١،حديث رقم ١١١، ص٧٩ .



٤- نبذ التطرف: فإنَّ الإسلام دين التوسط والاعتدال، وإن الغلو والتطرف والانحراف أمر مرفوض شرعاً مهما كانت الأسباب، وليس من الإسلام في شيء، والغلو في الدين ظاهرة أصيب بها أتباع الأديان السابقة، وكانت سبب هلاكهم ودمارهم، وهي من علل الذين لم يتبعوا الدليل الصحيح في دينهم التي قصَّها الله علينا ليحذرنا منها فلا نقع بما وقع به غيرنا من الغلو والتطرف والتحريف والتأويل الفاسد والتدين المغشوش.

روى عن ابْنُ عَبَّاس أن رَسُولُ الله ﷺ قال: (... إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ في الدِّين فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ في الدِّين)(١)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ)(٢).

٥- الرحمة والحكمة في دعوة الناس: إنَّ قوة الجالية من قوة التزام أبنائها بدينهم، وهذا يتحقق لو استطاعت المؤسسات الإسلامية في هولندا أن تجتذب أكبر عدد من أبناء الجالية للمشاركة الإيجابية في أنشطة المؤسسات العلمية والاجتماعية، ولا يتحقق ذلك إلا إذا قام على هذه البرامج علماء عارفون بطبيعة المجتمع الهولندي، ونوعية المشاكل والعقبات التي تواجه أبناء الجالية رجالا ونساءً شباباً وكهولاً، وأن يكون العالِمُ الموجِّه على دراية فقهية

---

(١) النسائي، أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بالنسائي،٢١٥-٣٠٣هـ، سنن النسائي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه العلامة المحدث محمد بن ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ب ت، كتاب مناسك الحج رقم ٢٤، باب التقاط الحصى رقم٢١٧، حديث رقم ٣٠٥٧، ص ٤٧١ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان رقم ٢، باب الدين يسر ٤٩،ج١، ص١٥ .



عميقة لإيجاد الحلول الشرعية التي تأخذ أبناء الجالية برفق نحو الحل الأمثل الذي يمكن أن يكون ممكن التطبيق، وأن لا تكون الفتوى مستحيلة التطبيق، وكأن المفتي يفترض أننا نعيش في دولة عربية أو إسلامية، ويريد من أبناء الجالية أن يتبعوا هذه الفتاوى، أو يرحلوا من هذه البلاد، فلا هم راحلون، ولا هم قادرون على اتباع حل شرعي وسط لمشاكلهم، فنكون قد خسرناهم بصفتهم أ بناءً لنا وفقدنا قدرتنا على التواصل الفكري وربما الاجتماعي معهم.

٦-الوفاء للمجتمع بدعوتهم بالحكمة لدين العدل والخير: إن المؤمن المسلم يؤمن يقينا أنه على الحق الذي لا يقبل الله غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقال تعالى أيضا: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، ولإثبات أن الإسلام دين الحق، فإن المجال واسع، يعرف ذلك من لبى نداء الفطرة السليمة، وآمن من بين أبناء هذا المجتمع، وليس هاهنا مجال ذكر الأمثلة على ذلك، فهي غنية عن التعريف، في أوساط العلماء والمفكرين الغربيين ذوي الأصول غير الإسلامية، كما يعرفه من غلبت قوة عقله وحكمته على قوة عناده وشهواته ونزعاته المعادية للحق[1].

٧- دعوة غير المسلمين على اختلاف مراحل إعجابهم أو عداوتهم للإسلام: إننا نعيش في هذا المجتمع الغربي بين نماذج مختلفة من الناس فبعضها يعبر عن إعجابه ببعض مظاهر الحضارة العربية أو الإسلامية، وبعضها يعبر عن مشاعر العداوة والاحتقار للحضارة العربية والإسلامية،

---

(١) انظر إلى: http://tanseer.jeeran.com/priests.html . 20-08-2007



ومهمة المؤسسات الإسلامية أن تعي بدقة أن هؤلاء هم هدفنا لتقريب كل منهم إلى فهمنا فكريا واجتماعيا وحضاريا والتعامل معنا بطريقة أفضل من المرحلة السابقة، لذا فعليهم أن يخططوا لبرامج علمية مدروسة تسعى لجذب كل مستوى من أبناء المجتمع إلى الدرجة الأقرب للإسلام، وسيكون مكسبا للمدعو وللأمة الإسلامية أن يؤمن المدعو بالحقيقة الإيمانية الإسلامية الكاملة.

٨ - تشجيع الحوار البناء مع غير المسلمين.

٩- التصدي السلمي الحازم ضد الحملات الإعلامية المسيئة إلى الإسلام ونبي المسلمين.

١٠- التنسيق الإعلامي للرد على المغالطات المتعمدة وغير المتعمدة ضد المسلمين.

١١- توثيق علاقات الثقة مع مجتمع.

١٢-إيجاد مؤسسة حقوقية تعمل للدفاع عن حقوق الجالية المسلمة:

١٣- اتقان اللغة إلى جانب اتقان اللغة الأم.

ب - دور الدول الإسلامية في بناء مستقبل أفضل

١- قيام علماء فقهاء عارفين بشؤون ومشكلات الجاليات المسلمة في الغرب الأوروبي، بدراسة المسائل الفقهية التي تعترضهم، وإصدار فتاوى معاصرة وفق القرآن والسنة بروح علمية منفتحة.

٢- تكوين دعاة للإسلام من أبناء البلاد الغربية العارفين لغتهم وعاداتهم وطريقة تفكيرهم: التخطيط الإعلامي لتوجيه الجالية المسلمة في أوروبا، ولدعوة الأوروبيين للإسلام، ولبيان الحق المسلوب للأمة الإسلامية.

٣-التخطيط الإعلامي لتوجيه الجالية المسلمة في أوروبا، ولدعوة



الأوروبيين للإسلام، ولبيان الحق المسلوب للأمة الإسلامية.

٤- تقديم الدعم المالي للجالية لمواجهة الإسلاموفوبيا

ج – دور الدولة المضيفة في تحقيق مستقبل آمن وعادل للجميع

١-الحذر من تعميم الاتهام كي لاينال الأبرياء .

٢- البحث عن الحقيقة وتجنب قلب الحقائق

٣- التمييز بين مبادىء الإسلام الأصيل المبينة في القرآن والسنة وردود أفعال الغاضبين المسلمين

٤- احترام عقيدة وشريعة المسلمين عامة وإعطائهم حرية ممارسة أحكام الشريعة الإسلامية

٥- إدماج المسلمين بشكل متوازن في المجتمع

٦- نبذ الأفكار والدعوات التي تدعو إلى الاستهزاء بمقدسات الإسلام

٧- نشر ثقافة التسامح والتفاهم

٨- البحث بجدية عن الحلول الإنسانية العادلة للمشكلات العالقة بين الغرب والعالم الإسلامي

٩- ضرورة تعديل التوجهات في التعامل مع الإسلام.

إن واجب المسلم في كل زمان ومكان، وفي أي حال من الأحوال، هو الالتزام بما يرضي الله تعالى، ويزداد هذا الواجب وجوبا عندما يكون المسلم في ديار الغربة، لأنه إما أن يكون عاصيا لله فيقدم صورة سلبية عن نفسه ودينه، وفي هذا صدٌّ عن سبيل الله، أو أن يكون مطيعا لله تعالى فيقدم في



طاعته لله أفضل ما يمكن تقديمه لسعادة نفسه والآخرين، فيكون مثالا يُقتدى به في الوفاء والإخلاص والبِرّ بمن حوله، وفي هذا دعوة لدين الله دين الخير والرحمة بالعمل الصالح.

ولكي يستطيع المسلم أن يقوم بهذا الدور على أكمل وجه، عليه أولاً أن يتعلم دينه عقيدة وأخلاقا ويعمل بما يأمره به دين الرحمة والخير للناس أجمعين، فإنَّ تَعَلُّمَ العقيدة والأخلاق الإسلامية واتباعَ أوامرها منْ أوْلَى الواجبات في حياة الفرد والجالية والأمة جمعاء، وهو الكفيلَ بأن يعرِّف الإنسانَ واجبَه تجاه الآخرين، والكفيلُ بأنْ يجنِّبه ويجنِّب الآخرين أيَّ سوء قد يحيط بهم، ذلك أنَّ التعامل مع الآخرين على أساس منَ الإيمان باللهً ورسوله وطاعتهما بالفعل والقول هو الذي يحقق السلم والأمان للجَميع، ويحميه منْ آثار شهوة الغضب والانتقام المبالَغ فيه، الذي يدفعه إلى ارتكاب عدوان على أبرياء، يأثم بهذا العدوان، وإنْ كانت غايته استعادةَ حقوقه المغتصبةً.

إنَّ الإنسان يكون مسلما إذا نطق بالشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) بعد أن يكون قد عرف معنى هاتين الشهادتين، ولم يحلل ما حرم الله، أو يحرم ما أحل الله، فإن عصى الله بفعل أو اعتقاد أو قول لا يخرجه من الملة، فهو على أصل الإسلام، وأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له[1].

---

(١) ياسين عبدالرزاق الحراكي، واجب المسلم في هولندا وفق القرآن والسنة وعلى ضوء الأحداث المعاصرة، مايو ٢٠٠٨م.

دور الحوار في مواجهة معضلات العصر: قـراءة قـرآنية!

أ. إسـماعيـل ديـم
المدير الإقليمي
لمكتب رابطة العالم الإسلامي بداكار

تمهيـــد:

تتسم العلاقات البشرية اليوم بحدة التوتر ووجود تحديات مشتركة تهدد الوجود الإنساني ، ويمكن أن نلمس هذه التحديات وتلك التهديدات خلال المعضلات التي نجمت عن سلوك الإنسان غير السوي الذي أفرز هذه الأدواء الاجتماعية المدمرة من تكديس السلاح وانتشار المخدرات وظهور أمراض فتاكة للإنسان والحيوان والبيئة والصراعات التي لا تهدأ حتى تشتعل من جديد.

وأمام هذه اللوحة القاتمة يتساءل العقلاء من البشر : أين المخرج؟ أو بالتعبير القرآني : أين المفر؟ وما الصيغة المثلى للخروج من المأزق المصيري؟

وأمام هذا الأفق المسدود يورد الحوار من منظور المنهج الإسلامي تصوراً متكاملاً وواقعياً لوضع الأسس الثابتة التي تشكل رؤية صحيحة ومنضبطة للعلائق الإنسانية السوية التي يحتل الإنسان في ظلها موقعه اللائق به .



الحوار تأصيلاً وأصولاً:

وقبل التعرض لما يمكن أن يقدِّمه الحوار المنطلق من المنهجية الإسلامية من حلول لتلك المشكلات التي ألمحنا إلى بعضها ، يحسن أن نشير إلى قضية محورية ألا وهي أن الحوار ليس مجرد طريقة آنية نلجأ إليها تحت وطأة الظروف الملتهبة، ومن ثم لا يكون الغرض منه إلاّ مجرد محاولة التنفيس لحالة محتقنة أو التخفيف من ثقل الضغوط الواقعة علينا .

فالحوار في الرؤية الإسلامية قضية مبدأ ثابت وخيار أصيل ومطرد لا يمكن تجميده أو التنازل عنه تحت أي ظرف من الظروف أو أيِّ مبرر من المبررات .

وباستقراء النصوص المؤسسة للمنهج الإسلامي والتجربة التاريخية التي انبثقت من تلك النصوص ، نرى بجلاء أن هناك جملة من الأسس نستطيع في ضوئها التأصيل لمنهج الحوار في الفكر الإسلامي ولضيق المجال المتاح نكتفي بالإشارة إلى أبرز تلك الأسس في عجالة :

أولاً: الإسلام رسالة كلية ومفتوحة إلى البشرية كلها ، ومن أخص خصائصها الشمولية والديمومة ، وهي خصائص تقتضي ، من بين ما تقتضي ، الوصول إلى الآخر كاملة واضحة ومطالبته بالتالي باعتناق ما يدعو إليه من مبادئ ويبشر به من حقائق كونية ، غيبية ، حياتية ..

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف:١٥٨)،

ثانياً : الاعتراف بالآخر كما هو، فالمفهوم الإسلامي للآخر يقوم على إثبات وجوده والقبول له بحق الاختلاف والمغايرة، بل ويذهب إلى حد افتراض ، رغم أنه موقن بامتلاك الحقيقة النهائية والكلية ، احتمال صواب الموقف المضاد ، ونعثر على هذه الحقيقة في العديد من النصوص القاطعة التي يزخر بها كتاب الله ومنها قوله تعالى ، وهو يأمر نبيه بانتهاج هذا اللون العالي من الحوار المتطلع للوصول إلى الصواب .

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ : ٢٤).

ثالثاً : نشدان الحقيقة لا المصالح

ومن الثوابت أن المطلب النهائي لعملية الحوار في المنهجية الإسلامية هو الوصول إلى الحق وليس الانتصار الشخصي أو مجرد دحر الخصم مهما بعدت المسافة بيننا.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾ (آل عمران : ٦٤).

وقد دفع الفهم السديد لهذا النص وأضرابه من النصوص المؤصلة للحوار في المنهجية الإسلامية ، الإمام الشافعي إلى ابتكار هذه الرؤية العالية العجيبة في فقه الحوار:

" ما ناظرت أحدا إلاّ وسألت الله أن يظهر الحق على لسانه "

رابعاً : العدل والإنصاف ، فمن العقبات التي تجعل الحوار يتعثر أو لا يصل



إلى النتائج المتوخاة ، غياب هذا البعد المحوري عندما تنعقد أندية الحوار وتسلط غريزة « الأنا » التي تسد أبواب الحوار وتؤدي إلى سوء التفاهم

ومن أروع الأمثلة لذلك هذه الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (٣٨) وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً (٤٤)﴾ (الكهف).

وحتى عندما يشتط العدو سيبقى الفريق المنطلق من المنهجية الإسلامية ثابتا على المبدىء متمسكا بالخيارات الصحيحة رافضا الغش أو توظيف الأضغان :



﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة : ٨).

خامسا : المشترك الإنساني ، ومن الموازنات الدقيقة التي أوجدتها المنهجية الإسلامية في إطار العلاقة مع الغير ، ضبط العلاقات الإنسانية على أساس الدوائر المتداخلة بأنساق ومقادير مضبوطة دائرة إثر دائرة.

وبعد دائرة الأخوة الإيمانية الخاصة :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات : ١٠).

رسم الإسلام الدائرة الكبرى والتي تضم البشرية ، وهنا كان التذكير الدائم للعلائق الإنسانية الحميمة من خلال مبدأي المنشأ والمصير :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء: ١)



مطالب الحوار في إطار المنهجية الإسلامية:

في المنهجية الإسلامية لا يقبل منطق العبثية الذي يجعل الحوار مجرد ندوات وملتقيات واجتماعات دون وجود إرادة صلبة في التوصل إلى نتيجة، ومن هذا المنطلق يلوح لنا أن الحوار مع الآخر ، من المنظور الإسلامي، يجب أن يكون من بين مطالبه :

أولا : الوصول إلى الحقيقة ، وليس فرضها على الآخر، هو ما يهدف إليه الإسلام عن طريق إصراره على محاورة الآخر كائنا من كان هذا الآخر، وكان ذلك هو منهج الأنبياء والرسل في الحوار ومخاطبة الغير ، حوارا مبنيا على المنهجية والمنطق الذي لا يمكن أن ينكر حجحه عقل سليم " إلا بالاعتراف والتسليم " ولذلك أمثلة كثيرة في القرآن الكريم . ففي حوار لنبينا إبراهيم مع نمرود، بهت هذا أخيراً بالحجة المنطقية لنبينا إبراهيم قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة :٢٥٨).

ثانياً : تحقيق نظام العدالة الشاملة الذي يَسَعُ ظلها الإنسانية متجاوزا بذلك مشكلة الانحباس داخل تلك الزوايا الضيقة من فئوية أو حزبية أو عرقية أو جنسية .

ثالثاً : تحقيق القيم الإنسانية العامة ، وهي تلك القيم التي جاءت الأديان



السماوية بأصولها وتعارف عقلاء البشر على أنها من ضروريات الحياة لكي تستقر وتزدهر : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة : ٢).

رابعاً : الإطلاع على ما عند الآخر المحاور من مفاهيم وقيم وتجارب حياتية للاقتباس منها والانتفاع بها : « الحكمة ضالة المؤمن »

خامساً : إزالة أو تخفيف أسباب التوتر الذي يعكر الحياة ويحول دون التوصل إلى تبادل المنافع والمصالح ، من الأمر الذي يعتبره الإسلام من أهداف الحوار :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات : ١٣).

خيار مواجهة التحديات بالحوار:

فإذا تقرر ، في ضوء النصوص القاطعة الصريحة التي تخيرنا نماذج منها ، أن الحوار منهج إسلامي أصيل ، ألا يكون من الوارد هنا، ومن الوجهة الإسلامية كذلك، أن ننطلق من الحوار لطرح المبادرات الكبرى التي تكون قادرة على تقديم الحلول العملية التي تخلص الإنسانية من الويلات التي تحاصرها اليوم والتي هي في غالب الأحيان من صنع يدها كما يجلي ذلك كتاب الله :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الروم : الآية : ٤١)



فـفي هذه الآية الكـريمة خـمس كليـات يحـسن التـوقف عندها ولـو على عجل:

- تشخيص للعلة التي تنخر في الكون "ظهر الفساد".
- تحديد لحجم الكارثة التي سماها القرآن بـ: "الفساد" .
- ذكر واضح لأسباب العلة : " بما كسبت أيدي الناس" .
- عـرض للنتيـجة المنطقيـة والحكمـة المنشـودة من وراء ظهـور النتـــائج ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾.
- السلوك المنطقي الذي يجـب أن يصـدر عـن العقـلاء عند ظهـور نتـائج مدمرة من هذا النوع ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ومن المنطق الجلي أن يكون الجواب على ذلك السؤال الجوهري بالإيجاب ، بل يمكن القول بـأن الحوار يصبح أمـام الواقع الذي نعيشه المخرج الوحيد من المصير الغامض الذي يهدد البشرية .

فالأرقـام والحقـائق المفجعة التي نمـلكها عن تلك التـهديدات التي تواجـهنا اليوم ، من أمراض فتاكة تصيب البشـر والحيوان، ومجاعـة واختلال هائل في نظام البيئة من حولنا، وحروب لا مبرر لها ، وتعـديات مستمرة على الأديان السمـاوية وبالأخص الديـن الإسـلامي ، وشـذوذ منتشـر ، وعـلاقـات أسـرية مفككة ... كل ذلك يحتم اليوم على العقلاء أن يستبقوا الخيرات ويستفيضوا من عـقد مـوائد الحـوار بين الأديان والثقـافـات والحضـارات ، تنتج عنهـا رؤى واضحة ومواقف موحدة يمنع انتشار ما يمكن أن يحدث " فوضى عالمية "



مثلا ، فلنأخذ ظاهرة الإرهاب التي تصنف على أنها إحدى أخطر هذه المعضلات لنرى كيف يمكن للحوار أن يقدم حلا لها.

وتجاه هذه المعضلة ثمة إجماع على مسألتين فقط ، وهما: أن الظاهرة قائمة وليست مفتعلة وأنها تمس الجميع ولا تستثني أمة من الأمم ، وبذلك فهي ظاهرة عالمية .

لكن هناك خمسة أسئلة كبرى لم يرد الجواب عنها إلى الآن رغم المجهودات التي بذلت على مستوى الدول والمنظمات ، وهي :

ما هو الإرهاب ؟ من هو الإرهابي ؟ وما مصادر الإرهاب ؟ لماذا يمارسه من يمارسه ؟ كيف نعالجه؟

هذه الأسئلة الجوهرية لا يمكن الإجابة عنها بالطرق المتبعة حاليا ، والتي تتسم بالأحادية وفرض الرأي مع مصادرة الآراء المخالفة والاستعلاء الثقافي والحضاري ! وسياسية الكيل بالمكيالين الممارسة من قبل بعض دول أعضاء في الأمم المتحدة إلخ...

وهنا يبرز دور الإسلام وهو يطرح الحوار من خلال هذه الدعوة الصريحة:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة : ١١١).

وفي ضوء منهجيته المبينة على تلك الأسس المشار إليها سالفا يبدو بأن الإسلام دين حوار ولذا فالمسلم، وهو يخوض غمار الحوار مع الغير ، يجب أن يراعي القيم التي تضبط في مجال الحوار، ومن هذه القيم :



- حب الخير للآخرين ورفض الأنانية :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧).

- حسن الظن بالإنسان والثقة به .

- وضوح الموقف من المعكّرات التي يأباها العقل السليم والضمير الحي :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (سورة الأعراف ، الآية : ٣٣).

هذه نقطة خلاف تشكل المعضلة الكبرى التي تفصل الإسلام بل الأديان السماوية كلها- الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر - عن ما يعتبره الغرب اليوم " قيما حضارية " تحطم القواعد الأخلاقية وتتعدى حدود الله .

- الإصرار على مبدأ التغيير في الاتجاهين :

- تكريس النعم والمحافظة عليها :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الأنفال ، الآية : ٥٣).

- استعادة النعمة وأسباب الاستقرار عند فقدها :

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد ، الآية : ١١).

- الرفض الصارم للهيمنة والإصرار على المساواة:

﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (سورة آل عمران ، الآية : ٦٤).

الخلاصة : توصيات ومقترحات :

هذه محاولة متواضعة ، قاصرة عن الإحاطة بأهم جوانب الموضوع .

ونرى أن الحوار الجاد الهادف القادر على توفير الأجواء الإيجابية والظروف المؤاتية يجب أن يرتكز اليوم على القيم المشتركة والمصالح العامة التي لا غنى عنها لتحقيق تعايش سلمي، بمعنى أنه يجب مراعاة ما لا يفرق وتجنب ما يفرق مع الحفاظ على الثوابت .

وعليه ، يمكن تركيز الحوار المعاصر على ما يلي :

١- الكليات، أو ما يمكن أن نسميه بالمشتركات الإنسانية من إحقاق الحق ونصرة المظلوم ، ورعاية حقوق الإنسان بشرط ألا تؤدي تلك الرعاية إلى الاعتداء على حقوق الغير .

٢- نشدان الحقيقة ، فمن المنطلقات الخاطئة الشروع في الحوار بنتائج محسومة سلفا أو بأحكام مسبقة .

٣- رعاية المصالح الكلية للشعوب ، فمن الأدواء التي تكاد اليوم تودي بالبشرية هذه الأنانية الحادة التي تجعل حفنة من البشر ترى في السواد الأعظم مجرد قطعان وفي الأرض والهواء والأجواء كلأ مباحا لها وحدها .

٤- رفض الإقصاء في إطار السعي إلى بناء منظومة حضارية نموذجية جديدة ، انطلاقا من المنهجية الإسلامية التي ترى أن الحياة البشرية



سلسلة ممتدة وأن ما تم إنجازه مشترك إنساني ولكل قوم نصيبهم من المغنم والمغرم .

٥- التواطؤ على مبدىء وضع الأديان والمقدسات والموروثات داخل ذلك المربع الخاص بحيث تكون في منأى من المساومة والابتزاز أو الابتذال .

٦- محاربة الفساد الخلقي والشذوذ ، وصيانة القيم المشتركة التي تدعو إليها الأديان السماوية .



في إطار الحوار بين الأديان

كيف اتخذ المسلمون الحوار رسالة للتسامح والتعاون على البر والتقوى

السيد علي بن السيد عبدالرحمن آل هاشم

مستشار رئيس الدولة للشؤون القضائية والدينية

الإمارات العربية المتحدة



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله الطيبيين الطاهرين ، ورضي الله تبارك وتعالى عن الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

لعل الدافع للنظر في موضوع الحوار بين الديانات ، أو بين الحضارات هو مواجهة التحديات العالمية المشتركة بين الأمم والحضارات ، في حين تصاعدت المواجهات في ديار الإسلام على أساس أن الغرب والشرق صارا عرضة للخطر ، والخشية أيضاً أن تكون القيمة الحوارية معرضة أيضاً لعمليات انتقائية .

والمسلمون منذ فجر الدعوة الإسلامية يعتبرون الحوار والبلاغ هما سبيل التعاون على البر والتقوى .

ففي فجر الدعوة الإسلامية حظي هذا الدين بدعاة لهم قدرات عالية ، ومواهب عظيمة، حملوا راية الإسلام ، ونشروا دعوته ، وأخذوا عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه اتجاهاته وإرشاداته ، واندفعوا ينشرون الإسلام بقوة لم تغلب ، وحققوا نجاحاً عظيماً دونه أي نجاح ، وفي القمة من هؤلاء أبوبكر الصديق ، ومصعب بن عمير ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو ذر الغفاري، وأبو عبيدة عامر بن الجراح وأمثالهم كثير ... ولذلك سرعان ما انتشر الإسلام في الجزيرة العربية ، ثم اتجه يطرق الأبواب حول هذه الجزيرة .

وفي جيل الفتوح كان كثير من الفقهاء والعلماء يلتحقون بالجيش الإسلامي ، فإذا وضعت الحرب أوزارها نشط هؤلاء العلماء يدعون للإسلام، وينشرون مبادئه ، وقد استجاب الناس لهم هنا وهناك ممن كتب الله

لهم الفوز في الدنيا والآخرة ، وبجهد أولئك الدعاة بعد توفيق الله فقد أخذ الإسلام ينتشر في العراق وفارس والشام ومصر والشمال الأفريقي في فترة وجيزة من الزمن .

وهناك سبب آخر مهم ساعد أيضاً على نشر الإسلام في القرن الهجري الأول ، ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية وصفاؤها وبعدها عن التعقيد ، وبعدها كذلك عن وسيط يقف بين المرء وربه ، فالإنسان في الإسلام له صلة مباشرة بالخالق الأعظم يناديه ويناجيه ، ويصلي له ويستغفره ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد .

وكما عني الإسلام بعلاقة الإنسان بربه – عني كذلك بعلاقة الإنسان بالإنسان ، وفي هذا المجال قدم الفكر الإسلامي صورة جديدة للأخلاق ، فحذر من الظلم والعقوق والرشوة والكبر والتجسس والغرور وكل نوازع الشر ... وألزم أتباعه بالصدق والأمانة والمساواة والعدالة وغيرها من الصفات الحميدة والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، وأرشدت إلى هذه الأخلاق سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وذلك هو السبب أو تلك هي الأسباب ونحوها التي ساعدت على انتشار الإسلام في القرن الهجري الأول .

فسعد الناس بدعاة من الصفوة الخيرة ، ودين حافل باليسر ، وأخلاق فاضلة تنشر الإسلام وتدعو إليه وتحميه .

يقول PIERR MARTION إنه عندما انتشر الإسلام في العصور الأولى ، ظل المسلمون الأوائل أوفياء للمبادئ الإسلامية الأصيلة ، فظهر مجتمع خال



من الآرستقراطية لا نظرياً فحسب ، بل علمياً أيضاً ، فكان البدوي (الجاف الطبع) يستطيع أن يطرق مجالس عمر (وغيره من الخلفاء) ويحادثهم ، وأحياناً يعترض على آرائهم ، وهذا قد أشاع في المجتمع روح المساواة والمشاركة المسماة (بالديموقراطية) ، وهي ظاهرة لم يكن العالم قد عرف لها مثيلاً من قبل ، وهذا الوضع مكن الإسلام أن ينتشر بسرعة ، وأن تثبت جذوره في البلاد التي انتشر فيها .

ولو وُجدَ اتصالٌ بين المسلمين وأوروبا في ذلك القرن (القرن الأول الهجري) لكان انتشار الإسلام أوسع وأشمل ، لكن الزمن كان قد مر ، وضعفت أداة التوصيل والتنوير في الفترة التي بدأ الإسلام فيها يطرق أبواب أوروبا .

وفي الوقت نفسه ظهرت في العالم الإسلامي فرق ومذاهب تفصح عما في الإسلام من رحابة الفكر وسعة ويسر الشريعة الإسلامية ، ثم ظهرت حركات هدامة كالشعوبية والقرامطة والزنادقة وغيرها ، فدفعت هذه الحركات إلى الفكر الإسلامي ما ليس منه من تعقيدات وغموض .

ثم اختفت (بعد حين) كثير من القيم ، وحل محلها التناحر والتنافس والرشوة والطبقية والتكالب على المادة ، وفي هذه الظروف بدأت صلات العالم الإسلامي بأوروبا ، فلم يصل صوت الإسلام الحقيقي إلى القلوب ، وكانت مسيرة الإسلام في أوربا مسيرة بطيئة وغير راسخة .

ذلك هو الإطار الذي عاصر انتشار الإسلام بأوربا التي يفترض أنها تدين بالمسيحية ، وأن المسيحية رسالتها دعوة الناس إلى السلام .

وغرض الحوار اليوم هو أن نبرز قيم هذا الدين العظيم ، والذي حال ما مر



بالبشرية من أحقاد دينية وأطماع دنيوية من أن يتمتع سكان القارة الأوروبية بما في الإسلام من عدالة ويسر وإيمان عميق يمنح النفوس الطمأنينة والسعادة في الدارين ، ويبعد المتاجرين بتخويف الناس من الإسلام وأهله .

وتجدر الإشارة والإشادة بالدعوة الإسلامية في قارة أسيا وأفريقيا ، فقد استفاد سكان القارتين من طرق التزكية التي يتمتع بها تلك الوفود من العلماء المهاجرين في سبيل نشر الدين متخذين التنمية الاقتصادية وتحسين أوضاع السكان سبيلاً وطريقاً يمهد دعوة الناس إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، ومتخذين من الطرق المهتمة بالجانب العاطفي من الدين ، سبيلاً للتوعية ، وطريقاً لهداية الناس ، ثم إن زهد أولئك العلماء وبعدهم عن كل ما يكدر صفو العقيدة ، قد أفاد هذا النوع من التوجه بأن الله تبارك وتعالى قد فتح لأولئك العلماء والعباد والزهاد القلوب والنفوس ، ومهدوا للإسلام فتوحات واسعة ، فقد كانت العبادة الصادقة والسلوك الصافي وسيلة الاتصال بالناس ، ووسيلة التأثير فيهم تأثيراً ربانياً بعيداً عن كل المؤثرات المادية .

إلا أن هذا اللون لم يكن مناسباً للأغلبية من سكان أوروبا ، فهي بلاد في معظم الأحيان تتكالب على المادة والحياة .

ومع كل هذا فقد وجد الإسلام مكاناً بأوروبا في العصور الوسيطة ، ثم في العصور الحديثة ، وكانت وسائل انتشاره في العصور الوسيطة تعترضها قوات غاشمة ظالمة جعلت من الصليب ومن الدين ستاراً لظلمها وبطشها ، ومع ذلك دخلت أفواج كبيرة في دين الإسلام (وكما يقول ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان) من دون أن يعرف سبب لدخولهم هذا الدين الحنيف .

أما في العصور الحديثة فكان من أهم وسائل انتشار الإسلام ، التقاء بعض الأوروبيين من ذوي الثقافة الواسعة بدعاة من المسلمين الموهوبين ، أو بكتب واضحة عن الإسلام ، كما انتشر لأسباب أخرى جذبت الكثيرين من الأوروبيين لدين الإسلام .

وعندما نتصفح تاريخ العصور الحديثة في أوروبا نجد العلامة المؤرخ (غوستاف لوبون) يؤكد أن معركة بلاط الشهداء لم تضع حداً لتقدم العرب ، كما يزعم كثير من المؤرخين ، بل إن المسلمين سرعان ما أفاقوا من هول الهزيمة ، وأخذوا يستردون مراكزهم السابقة .

ونحن اليوم في رحاب البيت الحرام ، وتحت شعار مؤتمر الحوار العالمي نستعرض باختصار شديد شيئاً من محاورات الرسل إلى أقوامهم ، فنجد أن اللطف في الدعوة ، والمجادلة بالتي هي أحسن كان سبيل أولئك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقدوتنا نبي الرحمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد وصفه ربه بقوله : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

ويأمره بقوله : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء : ٢١٥) .

وحين أرشده بقوله : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية : ٢٢-٢١) .



وأن الأمر لمن لم يسمع له ولم يقبل محاورته ودعوته موكول إلى الله : ﴿إلا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشية : ٢٦-٢٣) .

وحين قال الله عز وجل عن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم تبياناً لمهمته وللقرآن الذي جاء به ، بياناً لأسلوب الحوار الرقيق : ﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاء اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير : ٢٩-٢٧) .

كل هذه الآيات تدل على ضرورة الحوار اللين سواء حين يفيد اللين أو لا يفيد : يقول الله عز وجل عن سيدنا نوح : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود : ٢٨-٢٥) .

وقد مكث سيدنا نوح في قومه مئات السنين صابراً محاوراً رفيقاً بهم حتى قالوا : ﴿قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (هود : ٣٢) .

ولم يزد على أن قال : ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (هود : ٣٣) .

ويقول ربنا تبارك وتعالى عن سيدنا صالح وهو يحاور قومه ويذكرهم



بنعمة الله عليهم في حين أنهم يعبدون غيره ، ومع ذلك فهو يخاطبهم في رفق الخطاب : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود : ٦١) .

ويقول عن سيدنا إبراهيم : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت : ١٦) .

ويقول ربنا تبارك وتعالى عن شعيب وهو يخاطب قومه في رفق ولين : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود : ٨٨) .

ويأتي القرآن الكريم بوصف الرحمة والمودة التي هي من أوصاف الله في دعوة الرسل لأقوامهم من أجل تغليب صفة الرفق في حواره معهم : ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود : ٩٠) .

ويقول جل وعز اسمه على لسان سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (الزخرف : ٦٤-٦٣) .

وأكتفي بهذا الاستعراض الموجز للحوار بأسلوب الرفق من الأنبياء والرسل لأقوامهم بإرشاد القرآن الكريم .

إلا أنه لا تفوتني الإشارة إلى أن بعض المحاورين من الكتاب والمفكرين



وأصحاب الدعوات والمبادئ يفتقدون الرفق واللطف في الحوار في أحيان كثيرة ، ويظنون أنهم بالخشونة ورفع الصوت يستطيعون إقناع غيرهم أو إسكاتهم .

كما أن بعض العلماء والمفكرين وذوي المبادئ والآراء من الذين يعترف بعقلهم وعلمهم وفكرهم ، ولطفهم وهدوئهم وعقلانيتهم يخشون الحوار والنقاش لكيلا يتهموا بالنفاق أو التضليل ، وكلا الفريقين يجانبهم الصواب، لأننا في هذا العصر بحاجة إلى الثبات في الرأي والتزام أسلوب اللطف والأدب في الحوار مع الآخرين ، لأن التمسك بأدب الحوار في هذا الجانب وغيره أصبح ضرورياً في زمن كادت تضيع فيه المناقشات والحوارات الهادفة التي تصلنا إلى الكلمة السواء .

لا سيما أن ما نجده في بعض الخطباء الذين يخطبون في الناس أو يعظونهم قد تتحول الخطابة والوعظ إلى ألوان من الغلظة والشدة وتناول الناس بألفاظ مثيرة ، ظناً منهم أن هذا هو الذي يجمع الناس عليهم .

إن الكلام الموضوعي ، والحديث المؤدب يدعو إلى الألفة ويبعث على راحة النفس والأنس ، وإن أدب الخطاب يوجب التوقير والتقدير مهما اختلفت الآراء .

إن أسلوب الحوار يجب أن يكون واضحاً ومفهوماً ليكون له ثمرة ، ومن ورائه نفع ، وليقتنع الذي يتابع الحوار أن وقته لم يذهب سُدى، وأن أحد أطراف المحاورين يقتنع برأي الآخر، والمهم أنه لكي يتم ذلك لا بد من تحديد المفاهيم مع سياق الأدلة .

إن رسالات السماء تؤكد دائماً على نشر التسامح بين الناس ، حفاظاً على أخوتهم الإنسانية ، لأن الدين في حد ذاته يدعو إلى الأخلاق الكريمة ،



والصفات النبيلة ، والمعاملة الحسنة (فالدين المعاملة) لذلك فإن الدين يحث أتباعه إلى أن يجلسوا مع بعضهم لحل أي صراع ينشب بينهم وذلك عن طريق الحوار الحضاري وتفعيله ، ولن يكون الحوار هادفاً وعاملاً أساسياً في إزالة جو التوتر والقضاء على الصراع حتى تظهر بوادره ويكون ذلك بحرص المشتركين وإخلاصهم على إنجاح الحوار ، وتفهم المشكلات المتبادلة بين الأطراف ، على أنه يجب أن يركز الحوار على إشاعة القيم الأخلاقية واحترام الرصيد الحضاري لكل شعب .

إن القيم الحضارية هي قاسم مشترك بين مختلف الأمم ، ولكن هناك عوامل اجتماعية وظروف مناخية واختلاف في الألوان واللغات ، وتباين بين بعض الشعوب ، فيكون محور الحوار هو إيجاد إطار حضاري علمي مشترك بين الأطراف ، ثم يكون الاحترام المتبادل لكل حضارة قامت بذاتها مع إيجاد جو من التفاعل بين هذه الحضارة وغيرها ، لأن لكل أمة خصائص في حضارتها تجسد معطيات الأمة بما يلبي طموحاتها وتطلعاتها ، والحفاظ على قيمها وثقافتها .

وليس على صواب من يقول إن التطور الإنساني له طريق واحد يجب الأخذ به ، لكننا ونحن ـ بحمد الله ـ ندين بالإسلام نؤمن بالتعدد الحضاري في الجماعة الإنسانية ، لأن كل وطن يعتز بهويته ، والانفتاح على الحضارات الأخرى أمر مهم جداً لأن الإنسانية تأخذ من بعضها وتعطي ، والإنسان عندما يعتز بهويته فإن ذلك لا يعني الانغلاق في مواجهة المجتمعات الأخرى ورفض نتاجها الإنساني الذي يرفع من قدر الإنسان ، لأن مثل هذا الموقف سلبي وانعزالي ولا ينسجم أبداً مع مقتضيات الحوار ومتطلباته .



والعالم الآن يعيش فترة انتقال حضاري حافلة بالكثير من قوى التغيير والتفاعلات الثقافية، وقد سبق هذه الفترة صراعات فكرية، ونزاع اقتصادي، وصدام عسكري، كل ذلك أدى إلى تصدع المجتمعات وضياع الملايين من البشر إما بالموت أو بغياب الوعي الرشيد ثم برزت الحاجة إلى الحوار باعتباره مطلباً حضارياً ليكون طريقاً إلى تقارب المجتمعات والتعاون بين الحضارات، وإرساء قواعد السلام .

والحمد لله فإن رسالة الإسلام التي حملها سيدنا محمد خاتم الأنبياء ، هذه الرسالة تؤصل منهج الدعوة إلى الحوار الحضاري ، وتدعو إلى التواصل الإنساني ، وترغب في التعايش السلمي بين جميع أجناس البشر فشعارها : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء﴾ (آل عمران : من الآية ٦٤) .

إن الحوار هو أفضل أسلوب يتخذه الإنسان منهجاً لنقل معلوماته إلى غيره على أن يتسم المحاور بالثقافة المتنوعة والعلم الذي يخدم المحاور في إزالة الشبه التي تشوب فكر الآخرين ، والحوار هو لغة العقلاء ، لذلك يتسم المحاور بالحلم والمرونة وعدم التعصب ، والبعد عن الجدل الذي يخرج أسلوب الحوار عن غايته ، ويبعده عن أهدافه النبيلة .

والمسلمون أشد الناس حرصاً على تدعيم القيم الأخلاقية ، ونشر أصول دينهم في المجتمع الدولي ، ولا بد لهم من التعرف على ما يجري من مشكلات على الساحة الدولية .

والطريق إلى ذلك أن نتجه إلى برامج التعليم ، فندرب الشباب ونصقل موهبتهم ونجعلهم يتعايشون مع القرآن الكريم لدراسة ما ورد فيه من حوار بين أنبياء الله ورسله مع أقوامهم ، لأن القرآن الكريم ساق لنا من المبادئ

السامية والآداب العالية ما ينظم لنا المحاورات والمناظرات التي تحدث بين الناس ، وما يجعلها تدور في إطار من المنطق السليم والفكر القويم ، وبما يجعل هدف الحوار هو الوصول إلى الحق والخير ومنفعة الناس .

ولما كان لكل أمة ثروة تعتز بها وتعمل على تنميتها ، وتحافظ عليها فإن الشباب أعظم ثروة ، لذلك فإن الدين الإسلامي يوجه عناية المسؤولين والآباء والأمهات على تعهد الأولاد منذ نعومة أظفارهم وتنشئتهم على مكارم الأخلاق وتعويدهم على العادات الحسنة ، وتدريبهم على ممارسة العبادات التي فرضها على عباده الصالحين .

وإن الدعوة الكريمة والهمة العالية التي دعت إلى اجتماع العلماء بغية تقديم وجهات نظرهم في موضوع الحوار في رحاب بيت الله الحرام إن ذلك محل تقدير وإعزاز وشكر ، فإن شكر المنعم واجب ، ومن لا يشكر الخلق فقد يبتعد عن شكر خالقه .

وإن المنصف لا يمكنه إلا أن يعتني بهذا التوجه وهذا التهمم في وقت أصبح من الضروري تقديم الفكر الراشد ، وإبراز دعوة الإسلام القائمة على العدل والنصفة والتسامح في إطار العمل الجاد والمخلص خدمة للدين الحق ، وإصراراً على أن يكون علم السلام والعدل عالياً ومرفرفاً على بقاع المعمورة، وشاملاً لخلق الله أجمعين لا يفرق بينهم في ميزان العدل والحق أي خلاف أو تباين في وجهة نظر كل منهم إلى الدين أو اللغة أو الوطن أو اللون او الجنس .

فالخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله .

والله يقول الحق وهو الهادي إلى سواء السبيل .



مراجع البحث

١ – القرآن الكريم .

٢– تفسير الوسط ، د. محمد سيد طنطاوي

٣– صحيح مسلم ، شرح الإمام النووي

٤– أدب الاختلاف ، د. طه العلويني

٥– فقه الملوك ، الرحبي

٦– أخلاق العلماء ، الشيخ محمد سليمان

٧– توجيهات في سبيل الحوار، موريس بورمانس

٨– الجدل في القرآن الكريم ، محمد التومي

٩– أدلاء إلى الشباب ، د. عبدالعزيز كامل

الحوار بين العقل والنقل

د. بهيج ملا حويش

عضو المجلس العالمي للمساجد



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

فقد جاء في كتاب عبد الله بن إسماعيل الهاشمي لعبد المسيح بن إسحاق الهاشمي الكندي قبل قرابة عشرة قرون في عهد المأمون يقول :(فاكتب بما عندك من أمر دينك، آمناً مطمئناً، غير مقصر في حجتك، ولا مكاتم لما أنت معتقده، حتى نقيس ماتأتينا به، وتتلوه علينا، على أن تشرح لنا علته، فقد أطلقناك وحجتك، فاحتج، عافاك الله، بما شئت، وتكلم بما أحببت، وانبسط في كل ماتظن أنه يؤيدك، فإنك في أوسع الأمان.

ولنا عليك أصلحك الله، إذا أطلقناك هذا الإطلاق، وبسطنا لسانك هذا البسط، أن تجعل بيننا وبينك حكما عادلاً لايجور ولا يحيف في حكمه وقضائه، ولا يميل إلى غير الحق، وهو العقل يأخذ به الله عز وجل ويعطي . فإننا قد أنصفناك في القول، وأوسعناك في الأمان، ونحن راضون بما حكم به العقل لنا وعلينا ؛ إذ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينْ﴾ (عن العلاقات الإسلامية المسيحية، بيروت١٩٩٤، ص٢٧٦).

لا أبالغ إذا قلت إن مبادرة خادم الحرمين الشريفين قد نقلت قضية الحوار من إطارها الفكري النظري إلى ميدان الواقع الحسي، بل من فكر الأزمة القائم على العنف المقدس إلى كلمة سواء بيننا وبينكم .

العالم يتحدث اليوم عن منطق جديد انبثق من أرض الإسلام ليضع العالم بكل أطيافه أمام مسؤوليتهم التاريخية المتجددة مناديا باستبدال الحرب المشروعة بالسلم العادل.



إذ كما يقول المفكر هانزكونغ: «لا سلام في العالم بدون سلام بين الأديان، ولا سلام بين الأديان بدون حوار بينها».

فالسلام لا يتولد إلا بالحوار لأن الحوار يؤدي إلى التفاهم والتفاهم يؤدي الى الثقة والثقة توجه نحو التعاون لخير الناس

لاشك أنه ما كان لخادم الحرمين الشريفين أن يقوم بخطوته لو لم يكن على إدراك تام بحساسية مبادرته وما ينطوي عليها من مخاطر، ولكأني به قد تنبه ـ والتنبه يسبق القرار ـ إلى أن الحوار الهادف يمر بأزمة تحتاج إلى دفع جديد باتجاهات متعددة، ولغة جديدة، وآفاق مستحدثة . وكل أزمة تحمل في طياتها أمرين : فرصة ومخاطر . فلنتحمل المخاطر ولنغتنم الفرصة بثقة المؤمن وعقيدة الواثق وعلينا أن ندرك أن قوة التأثير تكمن في الفاعلية لا في قوة السلطة، ذلك أن قوة الأفكار هي محور الالتفاف، وكأني أرى خادم الحرمين يدعو إلى التفاف البشر حول قوة الأفكار لا أفكار القوة .

الحوار لماذا؟

الحوار بمستوياته الثلاث: الديني، والثقافي، والاجتماعي، أي بين أتباع الديانات، وبين مفكري الشعوب، وبين مؤسسات المجتمع المدني، أصبح ضرورة ملحة لأن السلام العالمي انتقل بفعل الثورات الأخيرة الثلاث: الالكترونية والمعلوماتية، والبيووراثية مهدد من جهات جديدة متولدة، إذ لم تعد العنصرية القومية ونتقاسم مناطق النفوذ واستغلال خيرات الدول الفقيرة ولا حتى الحقد الديني منفردة أو مجتمعة هي الدافع الوحيد للغزو والاعتداء بل أصبح لدينا إضافة إلى ذلك :

ـ الثقافة المتغطرسة

ـ النظام الاقتصادي العالمي المتوحش.

ـ النظام الاجتماعي القائم على عالمية جماعة المصلحة.

ـ إلزام الدول بقبول النفايات النووية في أراضيها ونصب المصانع الملوثة للبيئة.

ـ النظام الأخلاقي الجديد الذي تخطى حدود الدول ليفرض نفسه بالترغيب والترهيب على مجتمعات العالم بأسره. نظام يعرض إحلال «الجماليات» محل «الأخلاقيات» باسم الحرية والجمالية.

إنه اتجاه استعماري جديد يتلخص في أمرين :

ـ الاحتواء القسري . أو

ـ النبذ المطلق، بل والمحق التام .

هذا العنف سيقابله عاجلا أو آجلا عنف مضاد باسم حقوق الفقراء تارة، وباسم سيادة الوطن أخرى، وباسم الكرامة الإنسانية أو باسم حماية العقيدة والدين والثقافة، وهذا يعني أن فكر الأزمة في حالة تفاقم إن لم يسعفه منطق العقل وسبيل الحوار التفاهمي، ويعني أيضاً أن علينا أن ننقل ميدان عمل العقل من فضاء الأمل إلى أفق العمل المؤثر، وأن نعمل تفكيرنا في إنتاج أفكار خلاقة تبدع لنا منهجية عمل جديدة وبرامج عمل مشتركة وأن ندمج آفاقنا لنسير من دروب الاستقلالية المتفردة إلى سبل التكافلية المتعددة الثقافات بما يوحي بنهاية عصر المجتمعات ذات اللون الواحد، عرقيا أو قوميا أو فلسفيا بل وحتى مذهبياً .

إن كلامنا هذا يبقى أملا طَوِيّاً إن لم نعمل على توفير وعي مسالم وضمير



يوجه أنشطتنا نحو السلم مع الأفكار ومع الثقافات قبل شروعنا في توجيهه نحو السلم بين الأديان والمعتقدات، أقول هذا للأسباب التالية :

ـ إن الحوار الديني ـ الديني قد وصل إلى سقفه لأن مرجعيات المتحاورين محدودة وآلية عملهم متأرجحة، وحضور أشخاصه حضوراً ودياً بل بروتوكولياً أحياناً.

ـ ظهور اتجاه جديد يعمل على تحقيق "القومية الدينية" بما يحمل في طياته من نظرات التعالي العرقي والفلسفي والاعتقادي، وما يحمل من استخدام مقومات القوة لسحق من لا يملكها، وجعل المرجعية الثقافية وصفاء السلالة عنصرية جديدة تخلع عنها أخلاقيات التعامل وتهدم سلم القيم لصالح تحالفات مصلحية.

ـ تحريك الطائفية ضد المسلمين خارج بلادهم بحجة المحافظة على نقاء الثقافة المجتمعية وتحريك الطائفية في بلاد المسلمين بحجة المحافظة على حقوق الأقليات، وهذا كله يتبعه بطبيعة الحال فرض "الثقافة المقدسة" و "الكبت الثقافي" و "جبروت الفكر الأحادي". لا أقول هذا تشاؤما، ولكني استقرىء معايشاتنا وآفاقنا التي ترسم الآن لتصب في مصالح المتطرفين من الجانبين ـ الإسلامي وغير الإسلامي" والضمير الإنساني لا يزال يئن من مجازر "التطهير العرقي" وما يلوح في الأفق من محاولات "التهجير القسري" أو "الاحتواء الثقافي ـ الاجتماعي".

ـ لقد بينت لنا المواقف خلال الحوار الديني ـ الديني أن هناك من يتمطى ريادة الحوار والسلام، يظهر صداقة كاذبة ولكنه يخفي ندية عدائية متسقة مع



استراتيجيته المتكاملة.

انتهي من هذه النقطة لأؤكد أن الحوار الديني ـ الديني بدأت طاقته الدافعة بالنفاذ وهو بحاجة إلى قوة دفع جديدة وإلى مسارات حوارية متوازية تعيده إلى الجادة الصائبة بعد أن أتجهت مرجعياته العقدية نحو المساحة العقيمة غير القابلة للتفاوض. فلا يعقل ابدا ان يطالب جانب بالاعتراف بأن ﴿الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلام﴾ويقابله الجانب الآخر بالاعتراف بألوهية المسيح عليه السلام أو سيادة شعب الله المختار أو غير ذلك.... إذاً نحتاج إلى جانب تعديل مسار الحوار الديني ـ الديني ذي المرجعية العقيدية، نحتاج إلى الحوار الثقافي ـ الثقافي و الأكاديمي ـ الأكاديمي ذي المرجعية العقلية الأوسع طيفاً، والأقدر على التراجع خطوة والتقدم أخرى نحو خط الحقيقة والعقل والمسالمة. وهو بلا شك الأوفر حظا في قابليته لتخطي منطق المجابهة وإسهامه في وضع برنامج عمل مشترك يتناسب ومنطق التنفيذ بواقعية مدروسة. وهنا يحضرني عبارة لهانز كونغ يقول فيها :

" نحن بحاجة إلى حلول براغماتية لا أيديولوجية " .

إذاً، نحن بحاجة إلى مراجعة أُطر التفكير في التعامل مع الغير بمفاهيم مدروسة ومفردات خطاب لا تعتمد تعدد المعاني المعجمية، أي الاشتغال الآن بطريقة التفكير بالمشكلة لاحلها، لأننا ما زلنا في إطار التحضير الواعي، ونحن بحاجة أيضا إلى الخروج بالحوارمن الذات إلى الموضوعية، واستنتاج المجهول من المعلوم.

وهذه كلها منطلقها العقل وميدانها الحس والتجربة.



من أين يبدأ حوارنا؟

نحن نعي تماما أن إحداثيات التصادم العالمي قد تبدلت من الصراع القومي والصراع الطبقي الداخلي في القرن الثامن عشر إلى الحرب الباردة بين الشرق والغرب ثم الحرب الاقتصادية غير المعلنة بين الشمال والجنوب في القرن الماضي، حتى انتهى الأمر إلى مقولة حتمية صراع الحضارات باسم الهوية الثقافية بين الغرب من جهة وبين آسيا الاقتصادية والإسلام العقدي ـ الثقافي من جهة ثانية مع ما حمل هذا الفكر من ضرورة إيجاد حروب عرقية وقبلية ومذهبية تفكك البنية الداخلية للقوى الاقتصادية الأسيوية الذي كان يسمى بالخطر الأصفر وبنية البلاد الإسلامية المسماة بالخطر الأخضر، وضرورة استغلال التفوق التكنولوجي العسكري لشن حروب استباقية منعا لأي تهديد مستقبلي.

ونعي تماماً أن الساحة العالمية لم تعد بأيدي الدول وحدها، بل أصبح هناك عنصر جديد قادر على شن حروب لصالح فئات المصلحة، تقلب الحكومات وتغزو الأرض وتمحق النسل والزرع. إنها جيوش المرتزقة بمسمياتها المختلفة والتي أصبح تعداد بعضها يفوق١٨٠٠٠٠ مرتزقاً، وهذه الجيوش هي نتاج مخابر "فرانكشتاين" التي خرجت عن السيطرة، وأصبح لها مطالبها الخاصة وآلياتها المتمردة على كل العهود والمواثيق وهي جاهزة في "المزاد العلني" لمن يدفع أكثر لا من يبحث عن نصرة المظلوم والفقير والمغبون.

أُكرر القول إننا بذات القوة التي نرفض بها الاتجاه الديني نحو الإيديولوجية الدينية الهادفة إلى "تطهير العالم من المارقين" باسم طاعة الله



والتقرب إليه، فإننا نحارب طغيان الثقافة المحلية على غيرها بتحولها إلى ثقافة امبريالية أو ثقافة عنصرية تدفع بالجيوش لسحق الآخر أو استسلامه أو ابتلاعه تحت غطاء " العولمة " النابذة للصغار والفقراء والضعفاء.

وفي الوقت نفسه نرفض فصل الدين عن الثقافة لأنهما يكملان بعضهما، إذ أثبت مذهب العلمانية (اللادينية) فشله في جعل مصلحة الإنسان محور الفكر دون غيره، وجعل اللذة والمنفعة والحرية الشخصية في مواجهة المعتقدات والأخلاقيات ذات القيمة الثابتة. ولهذا نؤكد على ضرورة جعل الحوار دينياً ثقافياً لمعرفتنا بواقع النسيج الثقافي المعاصر على المستوى العالمي الداعي إلى أن يلج الفكر الديني ميادين جديدة ويتحمل مسؤوليات جديدة أيضاً .

ويعود السؤال الرئيسي : من أين نبدأ ؟

ـ الأمر الأول هو أن نبعد الذاكرة السوداء حين التخطيط لمستقبل الحوار وأن نمارس نوعاً من المحو الانتقائي لذاكرة زمن التقاتل إذا كنا فعلا نسعى للتفاهم الديني ـ الديني، أو الثقافي ـ الثقافي، أو العرقي ـ العرقي.

ـ أن نخرج الفكر الديني من " الغيتو " الذي فرضه على نفسه في عملية الحوار وأن نحدث شرخاً في جدار العزلة الاختيارية أو العزل المفروض عليه ليساهم بقوة في بناء مستقبل جديد للإنسانية وأن يستعيد زمام المبادرة ـ كما كان في السابق ـ على أساس الفعل الديني في تنظيم المجتمعات متعاملاً مع روح العصر بوعي الواثق من عقيدته وفكره والمتمرس في التعامل مع مستجدات المسرح العالمي وبخاصة في عقلنة الحياة الثقافية ودفع العقل الجمعي إلى التعاطف والتسامح المتبادل وإلى تعلم العيش المشترك كما كان



في الصدر الأول من الإسلام، لأن التسامح يسهل تبادل الأفكار ومعرفة الأخر على حقيقته.

ـ ليس هناك تعارض بين الولاء للدين والوفاء للوطن مهما كانت هوية الفرد الدينية أو موقعه الجغرافي إذ لامجال للتفكك الاجتماعي السياسي بسبب هذه الثنائية المتساندة . كما أن التسوية بالمواطنة لاتعني أبداً نزع الهوية الدينية .

ـ لم يعد هناك مجال للاهوت السياسي في عملية الحوار الثقافي الديني لأن أهم موجبات الحوار ونجاحه هو العنصر العقلي الواقعي لا الدوغماتي الحتمي .

هذا الأمر يقودنا إلى القول:

ـ إن تعدد الديانات واللغات والفلسفات يفرض علينا في عملية الحوار اعتماد لغة العقل لا لغة الإيمان وأنه لايمكن، بل لايحق لنا الرد على أسئلة اليوم بأجوبة الأمس البعيد، بل المفروض بنا أن نفتح طريقاً جديدة تسمح لنا بإعادة طرح مسائل الحوار بما يتفق وأجوائه الثقافية وبما يتفق والسياق الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي نعيشه اليوم ، وأن نحاول دمج أفاقنا لنصل إلى كلمة سواء، وهذا بدوره سيعيد عظمة الإسلام على المسرح العالمي ليتبين الآخرون سموه ورفعته وسمو أخلاقياته وعالميته، بل أكاد أقول إن الحوار المتحرر من القيود سيجعلنا نكتشف أبعاداً جديدة لعمق ديننا وعظمته خلال تعرفنا على مايقدمه الآخرون.

إن انطلاقنا في عملية الحوار المفتوح والمعمق سيجعلنا نكتشف الآخر، نكتشف أقواله وأفعاله، ويجعل هذه العملية نوعاً من النشاط الفكري يتحرر معه العقل المسلم من الأقوال الدغماتية ليقرأها منسوبة إلى سياقها التاريخي



الاجتماعي بعيداً عن الأطر المثالية الأديولوجية، والمقصود هنا بالطبع كل ما هو خارج دائرة العقيدة وخارج دائرة صحيح الثبوت ووحيد المعنى. والحقيقة أن الدين بلا حوار يفقد جزءاً أصيلا من مبررات وجوده، إذ ماحاجتنا للدعوة إذا لم يكن الحوار مقدمة لها، بل إن الدين بلا حوار مع الآخر انكفاء على الذات والحديث عنه "مونولوج" لا هم له سوى توطيد حدود عاداتنا وتقاليدنا بعد التأكيد على أمور العقيدة والعبادة وشيء من المعاملات والأخلاقيات.

ـ الحوار العادل والمنتج يفرض علينا أمرين إضافيين:

-النظر إلى المحاور الآخر على أنه إنسان وموضوع والإنسان له كرامته فلابد من احترام ذاتيته، لأن الاحترام مفتاح كل حوار.

والموضوع يقتضي منا إدخاله محكمة العقل، والقيام بمحاكمة عقلية لما يطرحه الآخر وتبيان مدى جديته في الحديث وتركيزه على لب الموضوع أو انصرافه نحو تفاصيل هامشية تخرجه عن موضوعيته، لأن الحوار ليس مظهراً دعائياً ولا هو جبلاً ثلجياً عائماً يخفي تسعة أعشاره تحت الماء ليستجر الآخر ويحطمه من حيث لم يحتسب.

وقبل الانتقال إلى نقطة ثانية يحسن بنا التأكيد على أن الصدود عن التواجد في دائرة الحوار سيقودنا حتماً إلى انكماش فكري وإحساس بعدم القدرة على المدافعة وردع الاعتداءات المتكررة على ديننا وعقيدتنا، بل ويجعلنا نحبس أنفسنا في أقفاصنا دونما اعتبار لمتطلبات المستقبل وتركيز نشاطنا كله على إبقاء نسيجنا الاجتماعي والثقافي في دائرة العقيدة والعبادة تخوفا من افتراق الثقافة والسياسة والاقتصاد عنه فلا يبق لنا حينئذ سوى الاعتراف بشللنا الفكري وانسداد آفاق نشاطنا وانتظار الفرج والتعلق بالأمل الذي لم تصنعه أيادينا.



كيف نبدأ ؟؟

إذا اتفقنا على أن منهجية الحوار هي النقيض الطبيعي لمنهجية التازيم، وأن الحوار هو العلاقة التي تربطني بالآخر المغاير في المجتمعات المتعددة الديانات والثقافات، وأنه لا خوف من تحول الحوار إلى عامل تفكيك المجتمع المؤمن، بل إن الإيمان بالله يعلي من كرامة المخلوق ويحفظ له حقوقه الطبيعية ويصونها فيما اصطلح عليه في مقاصد الشريعة والضروريات الخمس وما يلحقها من احتياجات وتحسينات أو مكملات مهما كان انتماؤه العرقي أو الديني أو القومي؛ إذ علينا قبول تباين المعتقدات والأفكار والأطروحات بدون تبرم ولا استهجان

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: -١١٨-١١٩).

وقبول التباين يستتبع قبول أطروحات الآخر وآرائه الشخصية ضمن إطار النسبية في اقترابها وابتعادها عن الحقيقة. وتطبيق الأمر ذاته على أطروحاتنا نحن، وأن نتحلى بالصبر وبعد النظر حتى لا نكون عرضة للاستفزاز والتخلي عن مواقفنا ، بل نسعى جاهدين لإحلال المسؤولية محل التحريض، والحق محل الأنانية والأمل محل التثبيط والمرونة محل التشبث الأعمى اتساقاً مع المسعى الرباني في العمل وفق مبدء تحقيق الحق والعدل.

ولكن الحوار يحتاج إلى سياج أمان وأرضية خصبة وروافد تدعمه فلا أقل إذاً من بث ثقافة الحوار فيمن حولنا بقصد تقوية الفكر الحواري بمواقفه ومساراته ووجدانيته، ولنجعل من عملنا هذا تجارة في خدمة الإنسان فيما اصطلح عليه بالمصالح المرسلة. وأن نبتعد كل البعد عن ثقافة حتمية الصراع وجبريته .

ولقد سبق القول إن عملية الحوار تحد يحمل في طياته أخطارا كما يحمل آمالا ، ولكي نغلب هذه على تلك يجدر بنا العمل أولاً على تأمين نوع من القبول العام لمشروع الحوار المتعاظم، وأن نخفف من المظاهر القولية والعملية التي قد تؤدي إلى زعزعة التماسك المجتمعي، وأن نعالج ـ سلفاً ـ أدواءه المحتملة حتى لا يكون التفرق الداخلي ثمنا للحوار مع الغير. وهذا يعني أن لا نستعجل الخطوات الحوارية قبل ترتيب البيت الداخلي أو تأمين حد أدنى من القبول والرضى كي لا يكون عملنا تحت خيمة الضغوط الديماغوجية وما ينجر عنها من ردود أفعال تحبط العملية برمتها. فلنعط فرصة للزمن، ليساهم في تحقيق المراد.

ـ كثيراً ما نسمع حديثاً أدبياً عن لغة الحوار، ولكن صرحاء كما أسلفت؛ إذ لا بد من جعل كلامنا نسبياً لا مطلقاً وعقلياً لا عقدياً إذا ما أردنا أن يتقبله الآخر وإذا ما أردنا دفعه إلى نوع من الدياليكتيكية التي اتبعها الأسلوب القرآني .

في سورة سبأ : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾(٢٤-٢٦).

ـ ثم إن مفردات الخطاب الحواري تقتضي منا دراستها بدقة وحسن انتقائها لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(الإسراء:٥٣).

لا أن نقدح ذاكرتنا للبحث عن مفردات جارحة؛ إذا ما تفوه الآخر بذلك ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو



حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت: ٣٤ ـ٣٦).

فالضمير الواعي إذ يدعونا إلى اعتماد خطاب ديني ثقافي يعبر عن صرخة الإنسان ضد الظلم الواقع عليه من الفكر الأناني الذي يعتبر الإنسان حقيقة الكون المركزية وغايته القصوى، وأن النفعية الميكافيلية لا تقف دونها إنسانية الإنسان ولا حرمة النظام البيئي ولا معيار القيم والفضائل ولا المواثيق والعهود. هذه الصرخة محطها المنابر الدينية أولا ثم المحافل الثقافية والقاعات الدراسية، لتدك أسماع الناس بشتى معتقداتهم ومستوياتهم حتى لا نكون من دعاة زمن التقاتل باسم المذهب الأسمى، والقومية الأعلى، والثقافة الغالبة فنقدس السياسة ونسيس الدين .

إن خطابنا الديني الثقافي مطلوب منه الاتجاه نحو سلم الأفكار وسلم السياسة وسلم المعتقدات، ونحو تحقيق توازن بين مسارات الثقافات المختلفة مع نوع من التبادلية التفاعلية بينها.

ثم إن خطابنا الديني الثقافي مطلوب منه أن يتوجه إلى أصحاب السلطة الطاغية وجماعات المصلحة وجماعات الضغط بنقد موضوعي بقصد الضغط عليها حتى تكف عن العبث بكرامة الإنسان وخيرات الأرض ومحاربة الأديان والأفكار الناقدة، وحري بالمدافعين عن الحرية والسلام أن لا يسعوا إلى استيعاب المنظمات الحوارية من اجل إغراقها بحجة الواقعية الدينية.

الحوار الذي نسعى إليه مطلوب منه أن يخرج بجملة مبادئ وبرنامج عمل يضغط فيه على المؤسسات العالمية للقيام بواجبها لاجتثاث الفقر وإحلال



السلم والحفاظ على النظام البيئي والمساهمة الفعلية بقضايا التنمية الحقيقية لا تحويلها كما هو حاصل الآن إلى تغذية التفاوت الطبقي؛ بإيجاد مجالس من أرباب العمل يتحكمون بالسلطة الحقيقية في البلد ويقومون بدور وكلاء للشركات المتعددة الجنسيات على حساب رغيف الشعب وكرامته.

برنامج الحوار الديني ـ الثقافي العالمي مطلوب منه أيضا أن يتعاضد في مجال تلازم الأخلاقيات مع علوم الحياة المستحدثة وبخاصة في قضايا الوراثة والأجنة وجعل المرأة مفرخة صناعية تغذي كل ما يحقن في رحمها، والأمر نفسه ينطبق على علوم التداوي والتجارب الطبيعية التي تجري بعيداً عن أعين الرقيب فالقضية ليست قضية إيقاف عجلة العلم وإنما توجيهه لصالح الإنسان حتى لا تتكرر قضية التجارب النووية والنفايات المشعة والتلوث البيئي الصناعي.

برنامج الحوار الديني مطلوب منه أيضاً الدفاع عن حقوق الأرض والحيوان لا تركهما في متناول جشع الإنسان غير المسؤول؛ لأن هذه الخيرات ملك للأجيال القادمة لا يمكن التفريط بها بحجة زيادة الإنتاج وتحقيق الرفاهية. والأديان كلها مدعوة إلى تقوية المؤسسات الأهلية المدافعة عن البيئة ونظامها المتوازن بمنطق ديني وعناصر متدينة مؤثرة في المجتمعات البشرية كلها.

ـ المثقفون ـ ونقصد المثقفين غير المتدينين لأن نظير المتدين ليس المثقف، بل الذي لم ينل حظه من المعرفة الدينية ـ أقول إن المثقفين غير المتدينين مطالبون أيضاً بالسعي خلال العملية الحوارية إلى أن يقفوا في وجه الثقافة المضادة التي تتسم بالحتمية الثقافية عن طريق إذلال المجتمعات الأخرى وتنصيب ثقافة ضابطة عليهم، والوقوف في وجه محاولات اختزال الثقافة على السمات



الثقافية ـ كما هو حادث مع قضية الحجاب ـ لأن الحجاب ليس معيارا اجتماعياً كي يحارب، بل هو مستوى سلوكي وفعل تعبدي يجري عليه مبدأ حرية العبادة كما يجري على أصناف العبادات الأخرى. فهم مطالبون إذا ـ خلال العملية الحوارية ـ بإيجاد بساط من التفاهم بين الحضارات والثقافات، وإلى تقريب أطراف الحوار حتى يفهم الواحد الآخر في إطاره الفكري والثقافي، وإلى تساند الحضارات والثقافات وتسهيل قنوات التبادل بينها . وأن يسعوا مع المثقفين المتدينين إلى تثقيف السياسة والسياسيين وإيجاد قواعد ثقافية تتخطى حدود السياسة وحدود الوطن. المطلوب منهم أن يتعاونوا جميعا في إعادة طرح علاقة الثقافة الملتزمة وغير الملتزمة بقضايا الحقوق والدفاع عنها وبدورها في إخماد الفتن الاجتماعية والسياسية والدينية .

إن المساهمين في عملية الحوار بين الثقافات والأديان مطلوب منهم ـ إذا كانوا مخلصين حقا ـ أن يكونوا سفراء لمنتديات الحوار لدى الكيانات التي انتدبتهم لا أن يكونوا سفراء لهؤلاء في المنتديات بقصد فرض وجهات النظر وإثبات المواقف.

وأخيرا لن يتحقق المطلوب من العملية الحوارية إلا إذا نزل المتحاورون إلى الشارع ليخاطبوا الناس بشتى طبقاتهم وتوجهاتهم حتى لا يكون الحوار ترفاً ولا مهرجاناً ولا دبلوماسية.

ولكي يتحقق هذا وذاك نحتاج ـ نحن المسلمين ـ إلى دوائر تهتم بدراسة مسارات الحوار ومآلاته، والياته وأشخاصه، وهذا مطلب أساسي لأن العملية الحوارية لا تستمر بدونه.

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .



الحوار زمن العولمة وتحدّياتها

د. جمعة شيخة
أستاذ في جامعة تونس



تعدّدت النّدوات والمؤتمرات خلال العقود الثلاثة الأخيرة في حوضي البحر الأبيض المتوسّط جنوبه وشماله، وفي المشرق العربي حول حوار الحضارات وحوار الدّيانات، وكلّها ترمي إلى تركيز قيم دينيّة، ومبادىء إنسانيّة، وديمقراطيّة سياسيّة، من أجل تعايش سلمي وتضامن بشري، وأمن عالمي.

ولا جدال فيما يمكن أن ينتج عن هذه النّدوات من فوائد ومنافع لكلّ النّاس باختلاف أجناسهم وتعدّد أديانهم وتنوّع ثقافاتهم. لكن ـ مع الأسف ـ ضعف تأثير تلك القيم وكادت تلك المبادئ أن تضمحلّ لأنّ الحوار في زمن العولمة الذي نعيشه، تغيّر جذريّا، فقد كان حوار قيم ومبادئ نسبيّا فأصبح حوار مصالح ومكاسب كلّيا، مبهرجا بقيم مزيّفة لّماعة ومطليا بمبادئ مصطنعة برّاقة سرعان ما تزول تطريتُها بمجرّد أن ينعكس عليها نور الحقيقة فتبدو في الواقع قبيحة مشوّهة.

فباسم حرّيّة الفكر والمقارنة بين الأديان ، قام الحبر الأكبر فنعت الإسلام باللاّعقلانيّة وبأنّه دين العنف ودين السّيف المسلّط على الرّقاب معتمداً ـ مع الأسف ـ في هذا الحكم على مقولة لامبراطور بيزنطيّ حاقد وموتور من قوّة الإسلام وعظمته في عهده. وهو بذلك يخدم مصلحته الشخصيّة ومصلحة من أوصلوه إلى ذلك المنصب. ولو علمنا كيف وصل إليه ؟ وما هي أهدافه المعلنة والخفيّة؟ لما صُدمتْ من كلامه عقولنا وقلوبنا.

وباسم حرّيّة التّعبير قامت صحافة الغرب بنشر صور مسيئة إلى الرّسول ﷺ، وتعمّدت تكرارها وذلك خدمة لمصالحها، فعند نشر كلّ صورة منها تُباع نسخ إضافيّة بالملايين من تلك الجرائد. ولهذا مردود مادّي لا يُستهان به. وقد تعمّدت



بعض الجرائد والمجلاّت تكرار نشرها كلّما دعتها الحاجة المادّية إلى ذلك.

وباسم السّلام العالمي عمد بعض ساسة الغرب إلى ربط العنف بالإسلام، ووجدوا في أحداث الحادي عشر من سبتمبر تعلاّت لتبرير هذه التّهمة. وهم على يقين أنّ من قام بتلك الفعلة الشنعاء لا يمثّلون قيم الإسلام السّمحة، والأدهى من ذلك وأمرّ سعي بعضهم إلى تلفيق أكاذيب لاتّهام هذا البلد أو ذاك بامتلاك أسلحة دمار شامل أو السّعي لاكتسابها فشنّت عليها هجوما شرسا لتدميرها نفسيا واقتصاديا وحضاريّا، وما السّلام العالمي إلاّ شعار مزيّف من أجل خدمة نهمهم للاستيلاء على ثروات الشّعوب من الذّهب الأسود، وللتّزلّف إلى كيان أصبحوا معتقدين اعتقادا جازما أنّ الحلّ والرّبط بيده في كلّ مراحل انتخاباتهم. لننظر في ما يقوله المترشّحون إلى الحكم في بلدانهم باسم الدّيمقراطيّة : كلّهم يساهمون بدرجات مختلفة لإرضاء المتغطرسين من بني صهيون لمزيد هضم حقوق المستضعفين من أبناء فلسطين، لا لشيء إلاّ لأنّ مصلحتهم ومصلحة أحزابهم تقتضي ذلك للفوز في انتخاباتهم .

ولقد قام بعض مفكّريهم بالتّأكيد على أنّه لا حوار بين الحضارات اليوم، وإنّما هو صراع وصدام بينهما أوّلا وأخيراً: كان الصّراع بين الشّيوعيّة والرّأسماليّة منذ بداية القرن العشرين، وما أن سقط المعسكر الاشتراكي في نهايته حتّى أوجدوا- من أجل مصلحتهم- عدوّا جديداً فكان الإسلام دينا وحضارة، فكراً وقيماً: ومصلحتهم مزدوجة أوّلاً السيطرة على خيرات البلاد، ثانيا حماية غرس خبيث وسطها ليستمرّ مرضُها المُسبّب لضعفها وانشقاقها وتشرذمها: فالحوار حينئذ لم يعد حوار قيم ومبادئ وإنما هو حوار



مصالح ومكاسب. وما على أمّة الإسلام إلاّ أخذ هذا الواقع بعين الاعتبار في حوارها مع الأمم الأخرى شرقا وغربا. وخير ضمان للنّجاح فيه هو هذه المنظمة العتيدة. " رابطة العالم الإسلامي " ففي رحابها يمكن أن نقويّ عوامل وحدتنا الاقتصاديّة والتربويّة والثقافيّة، وهي ممكنة وكثيرة، وننقص عوامل فرقتنا فيها وهي قليلة ويسيرة. وخير سند لنا في حوارنا هو رعاية خادم الحرمين الشريفين لهذه البقاع المقدّسة التي تتّجه لها قلوب المسلمين يوميا بالدّعاء والصّلاة.

ومع هذا السّند وذاك الضّمان لا يمكن أن تنجح أمّة الإسلام في هذا الحوار إلاّ بشرطين أساسيين: **الأوّل** إذا فهمت أنّه حوار مصالح بالدّرجة الأولى وإن كنّا لا ننفي ما فيه من حوار مبادئ وقيم. وما ذلك إلاّ لأنّنا نعيش في عصر العولمة مع أناس أصبحت مصالحهم فوق مبادئهم، ومنفعتهم فوق قيمهم .

والثاني إذا وعت أسس العولمة وعيا تاما وحاولت أن تواجه تحدّياتها بحكمة وعقل، بعيداً عن العواطف الجيّاشة وردود الفعل السّريعة.

وضربة البداية في هذا الحوار هو تحديد بعض المصطلحات المثقلة بكثير من الإيحاءات التي أساءت إلينا ماضيا، وقد تسيء إلينا حاضراً ومستقبلاً، من ذلك مصطلح « العالم الإسلامي» : إنّ هذه التّسمية هي تسمية استعماريّة وضعها الغرب بعد استيلائه على أهمّ أجزاء أرض الإسلام في القرن الماضي. ويستحسن استعمال مصطلح الأمّة الإسلاميّة لما فيه من إيحاء بمعنى الوحدة بين أجناسها وشعوبها وقبائلها، على الأقل في مجال العقيدة والثّقافة دون أن يجمح بنا الخيال إلى وحدة سياسيّة.



هذه الأمّة تمتدّ جغرافيّا من أندونيسيا شرقا إلى المغرب الأقصى غربا، ومن أوزبكستان شمالا إلى وسط إفريقيا جنوبا، دون أن ننسى الأقلّيات المسلمة التي تعيش في كافة أرجاء المعمورة. هذه الأمّة يجمع بين أجناسها وشعوبها وحدة روحيّة تجسّدها عبارة قدسيّة تُردّد في أرجاء المعمورة صباحا ومساء، ليلاً ونهاراً هي « لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله » تنطلق من حناجر المؤذّنين فيتردّد صداها في أعماق نفوس المؤمنين بداية من أوّل شعاع للشمس يبزغ إلى آخر نور منها يغيب.

وهي أمّة تتميّز بثراء حضاري متعدّد الجوانب، في مجال اللّغات والعلوم والآداب والفنون. فقد كان لها في الماضي، في إسلامها ما شجعها على احتضان الحضارات العريقة الصينيّة والهنديّة والمصريّة واليونانيّة، فتسابق علماؤها للنّهل منها ترجمة أوّلا وتدبّرا ثانيا ثم إبداعًا وإضافة ثالثا، فأصبحت حضارة الإسلام بحقّ وريثة الحضارات القديمة في القرون الوسطى. ثمّ سعت أوروبا في بداية القرن ٤/ ١٠، وقد انبهرت بحضارة الأمّة الإسلاميّة، إلى احتضانها عن طريق الترجمة . فقدّم المسلمون إلى الغرب من بوّابات ثلاث ، الشام وصقليّة والأندلس ، وفي طبق من ذهب ، عصارة الفكر البشري منهجا وابتكارا، فبدأت نهضة أوروبّا التي تسربّت إلى كلّ أنحاء العالم ، فساهم فيها بنو البشر جميعا- ومنهم المسلمون- بكبار فلاسفتهم وأدبائهم وعظماء نوابغهم وعباقرتهم فوصلت الإنسانيّة إلى ما تنعم به اليوم من رقيّ حضاري لم تعرفه منذ آلاف السّنين.

هذا دور الأمّة الإسلاميّة في الماضي، أمّا اليوم وفي عصر العولمة فإنّ سمة هذه الأمّة - والحقّ يقال- هو التفكّك السّياسي والتّشرذم الاقتصادي



والتخلّف الحضاري ممّا جعلها تنتمي في بعض أجزائها إلى الدّول التي تفشّى فيها الثالوث المرعب : الجهل والفقر والمرض، بدخل فردي لا يتجاوز الدّولار الواحد في اليوم. وعلى العكس من ذلك فهناك دول يفوق دخل الفرد فيها دخل الفرد في أغنى الدّول الصّناعيّة.

ونتيجة لهذا التفكّك والتّشرذم والتّفاوت تجرّأ عليها الاستعمار فسلبها سيادتها وكرامتها ماضيا. ويريد أن يسلبها باسم العولمة اقتصادها وخيراتها حاضرا ومستقبلا. فما هي العولمة؟

العولمة: هي توجُّه يرمي إلى نظام اقتصادي جديد يجعل من العالم بأسره فضاءً مفتوحا، تتمّ فيه المبادلات التجاريّة بكامل الحرّيّة دون قيد أو شرط. وهذا التوجّه تدعو إليه بحماس الدّول الصّناعيّة الكبرى المالكة للتكنولوجيا بيد، والماسكة بمفاتيح الإعلام بيد أخرى، وتخافها الدّول الصغيرة سواء أكانت غنيّة أم فقيرة(١). وهدف الدّول الدّاعية إليه واضح هو ترويج بضاعتها الاستهلاكيّة في جميع أسواق العالم طلبا للرّبح أوّلا، وحفاظا على تفوّقها ثانيا، وتثبيتا لسيطرتها ثالثا. ومن المحتّم أنّه مع ترويج البضائع المتنوعّة سيتسرّب نمط من العيش الواحد هو النّمط الغربي، يفرضه المتفوّق تكنولوجيا وإعلاميّا وبالتّالي اقتصاديّا. إن وسائل الاتصال والمواصلات الحديثة سواء للبشر أو المعلومة جعلت من الكون قرية صغيرة، فتغيّر الكثير من سلوكنا وأسلوب عيشنا. وانتقلت الإنسانيّة في نهاية القرن العشرين من مجتمع صناعي إلى مجتمع إعلامي. ومن هنا لا مفرّ لنا باعتبارنا أمّة إسلاميّة من

(١) إن بلدا كالسّويد، وهي ما هي ثراء واقتصاداً مزدهراً، تتوجّس خيفة من العولمة. فلم لا تتخوّف منه أوغندا في إفريقيا وبنجلاديش في آسيا؟



مواجهة تحدّيات العولمة في بداية هذه الألفيّة الثّالثة.

إنّ المواجهة لا تعني أبداً الاحتماء والرّفض، وإنما المقصود بها هو التّكيّف العقلاني معها. إنّ العولمة في نظرنا كالتّراث فيها ما هو إيجابي يمكن الاستفادة منه ، وفيها ما هو سلبي نحاول قدر المستطاع تجنّب ضرره.

ومن سلبيّات العولمة خلخلة النّظام الاقتصادي الدّاخلي للدّولة، بل قد نرى فيها زعزعة لمفهوم الدّولة نفسها إذ تصبح هذه الأخيرة مجرّد مؤسسة إداريّة في خدمة المؤسسة الاقتصاديّة. وقد تتحوّل في نهاية الأمر إلى أداة تنفيذ لما يقع الاتّفاق عليه خارجها وخارج نطاق إرادتها وأحيانا مصالحها.

ومن سلبيّاتها أنّ النّظام الرأسمالي مثلَها يقوم على اقتصاد السّوق، لكن اقتصاد السوق هذا له من يراقبه ويضبطه ويكبحه وهو القانون. أمّا مع العولمة فلا نجد قانونا ضابطا ولا ضميراً كابحا، وإنّما حجّة الأقوى أي قانون الغاب، وهذا من شأنه أن يجعل من الدّول الصّغيرة والدّول خارج التكتّلات الاقتصاديّة الكبرى فريسة سهلة الالتهام.

وبغياب القانون في العولمة تبرز السلبية الثالثة والأكثر خطرا. فاقتصاد السّوق بحريّته وانعدام الكابح فيه أو ضعفه يسمح لقانون المافيا أن يطغى فتنتشر المخدّرات والدّعارة، والتطرّف الدّيني والتّعصّب العنصري، وبيع الأسلحة وتبييض الأموال الخ(١).

إنّ العولمة تقلّل من عنصر المناعة في الدّول الصغيرة، فتصبح كجسم بدون حصانة ذاتيّة، مرتعا للأمراض الاجتماعيّة وأخطرُها البطالة وما يتبعها من أمّية ومرض وفقر .

لقد شعر المنادون بالعولمة ، والمتَّفقُون معهم فيها، أنّ مواجهتها على انفراد

(١) خير مثال على ذلك جمهوريّة روسيا الاتّحاديّة.



أمر صعب إن لم يكن مستحيلا، لذا عمدوا منذ العشريّتين الأخيرتين من القرن الماضي إلى الانضمام في تكتّلات اقتصاديّة كبرى تحفظ مصالحها، خاصّة بعد انهيار المعسكر الاشتراكي وتفكّك الاتحاد السّوفياتي. وهكذا أصبحت الدّول من حيث الهيكلة العالميّة الجديدة بعد سقوط جدار برلين أنواعاً، وبتعبير رياضي معروف على أقسام: هناك دول من الوزن الثّقيل (مجموعة الدّول السّبعة) وهناك دول من الوزن المتوسّط كالصّين وروسيا وبعض الدّول التي تدور في فلك المجموعة الأولى، وهناك دول من الوزن الخفيف وهي الدّول المجزّأة التي تحاول بانفراد أن ترتبط بطريقة أو بأخرى بالمجموعة الأولى أو الثّانية، وهناك دول من وزن الرّيشة وهي الدّول المجزأة والمنكوبة تعيش في مهب الرّيح بما تُعانيه من حروب أهليّة وفوضى مستمرّة.

ومن المضحكات المبكيات في نظام العولمة أن نجعل هؤلاء الملاكمين في مختلف الأوزان يتنافسون فيما بينهم دون ما ضبط أو قيد. تصوّروا المهزلة لو تقابل بعض مَن هم من الوزن الثّقيل مع مَن هم من الوزن الخفيف أو وزن الرّيشة. وفعلا إنّ العولمة ستصبح مهزلة إذا لم يُوجد حدٌّ أدنى من القواعد يُتّفق عليها لتأطير عمل السّوق. ويُعهد لهذا التأطير إلى مؤسسات دوليّة[1] تسهر على تطبيقه بأقرب ما يكون من العدل والإنصاف، وبأشدّ ما يمكن من الشّفافيّة والمصداقيّة.

لقد حاولت بعض الدّول من الأصناف السّفلى أن تجد تعويضاً لضعفها في هذه المُنافسة العالميّة، وذلك بمحاولة انتمائها إلى مجموعات قويّة[2].

---

(١) كالمنظمة العالميّة للتّجارة مثلا.

(٢) خير مثال على ذلك محاولة بعض دول شرقي أروبا من المعسكر الاشتراكي سابقا، وتركيا الانتماء إلى الاتّحاد الأروبي.



ورغم أنّ الأمّة الإسلاميّة تنتمي أغلب دولها ـ إن لم نقل كلّها ـ للصّنفين الأخيرين من الدّول الضعيفة، فإنّها لم تحاول الاتحاد فيما بينها كما لم تحاول الانتماء إلى كتلة دوليّة(١). إذاً ماهو الحلّ لتواجه الأمّة الإسلاميّة تحدّيات العولمة؟

(١) ليس هناك حلّ جذري أو حلّ بين عشيّة وضحاها لنجعل ريح العولمة وراء سفينتنا لا أمامها. فالأمر متعلّق بأوضاعنا الدّاخليّة السّياسيّة والمعرفيّة أوّلا، وبعلاقتنا الخارجيّة فيما بيننا، وبيننا وبين غيرنا ثانيا.

فمن حيث الوضع الدّاخلي لا يمكن أن يكون لنا وزن في هذه المنافسة العالميّة إلاّ إذا تمّ إصلاح هذا الوضع داخل كلّ قطر وداخل كلّ دولة، وذلك بالسعي شيئا فشيئا إلى نظام ديموقراطي يقوم على احترام حرّية الفرد وإرادته وحقوق الإنسان- بصنفيها المادّية والمعنويّة- وكرامته. فبهذه الأجنحة يمكن للإنسان المسلم أن ينطلق مُحلّقا في دنيا الخلق والإبداع فيجد المجتمع الذي ينتمي إليه مكانة بين المجتمعات العالميّة المتقدمة، ويكون قادراً على منافسة، النجاح فيها للأفضل والأقوى والأنجع. ومع إيماننا بالدّيمقراطيّة منهجا وهدفا، فإنّ هذه لا يمكن بحال من الأحوال أن يتمّ إسقاطها إسقاطا، وإنّما يجب أن ترسخ وتتجذّر تدريجيّا. وعلى الغرب أن يفهم أنّنا في سعينا إلى تطبيق بعض نظم الحكم فيه، لسنا على استعداد لأن نكون نسخةً منه، فلنا في تاريخنا وتراثنا وعقائدنا وتقاليدنا من الإيجابيّات ما يجعلنا متميّزين عنه في فهم الحرّية والدّيمقراطيّة وتطبيقاتها.

---

(١) يمكن أن نعتبر باكستان ضمن مجموعة قويّة عسكريّا هي مجموعة النّادي النّووي. لكن لهذه الدّولة من المشكلات الدّاخليّة والخارجيّة ما يجعل قنبلتها النّوويّة غير مجدية للأمّة الإسلاميّة الآن ، على الأقلّ.



وفي نطاق إصلاح الوضع الدّاخلي يجب أن تقضي الدّولة على البطء الإداري بمختلف أصنافه، لأنّ هذا البطء يُؤدّي إلى خسارة الوقت. والوقت والمال هما ركيزتان أساسيتان من ركائز العولمة واقتصاد السّوق. إنّ خاسر المال قد يتداركه أمّا خاسر الوقت فهو خاسر له وللمال معا.

كما يجب على الدّولة أن تخلق داخل مجتمعها ضربا من المصداقيّة والشّفافيّة. فالانتقال من المراقبة الجمركيّة والماليّة إلى تحرير السّوق والخدمات يجب أن يتمّ تحت مراقبتها وحسب تراتيب مضبوطة حتى تكون المنافسة شريفة. كما يجب على الدّولة الحذر من الانسياق- تحت تأثير اقتصاد السّوق والعولمة- إلى الاهتمام بالقطاعين الصّناعي والخدمات، وتهمل القطاع الزّراعي لأنّه عنصر أساسي من عناصر التّنمية والاستقرار الدّاخلي. فانحطاط روسيا اقتصاديا مرجعه إلى إهمال زراعتها، ونموّ الصّين اقتصاديّا مرجعه إلى اهتمامها بها. وبالنسبة إلى الأمة الإسلاميّة، فإن بعض البلدان الإسلاميّة المتوفّر فيه المال يمكن أن تخصّص كلّ مواردِها أو الجزء الأكبر منها لتمويل وارداتها من الغذاء؟

ولا يمكن لهذه الأمّة أن يكون لها وزن في زمن العولمة وتحدّياتها إلاّ إذا وقع الاعتناء بالتّربية : إنّ الدّيمقراطيّة والإصلاح الإداري وهيكلة الاقتصاد لا يكون لها تأثير إلاّ إذا وقع الاهتمام بهذا الجانب، والتّربية المطلوبة اليوم، باعتبارها أداة لمواجهة تحدّيات العولمة، لا تتمثّل فقط في مقاعد الدّراسة بمراحلها التّقليدية الثّلاث وإنّما المراد منها التعلّم المستمرّ الذي يمكّن المرء من مواصلة استيعاب سيل المعلومات الجديدة التي تصلنا يوميّا عبر شبكات الاتصال من مشارق الأرض ومغاربها. إنّ التربية اليوم هي التي حدّدها الإسلام منذ خمسة عشر



قرنا كما جاء في الأثر: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللّحد» إشارة إلى الأبعاد الزّمانية «واطلبوا العلم ولو بالصّين» إشارة إلى الأبعاد المكانيّة.

وبهذه التّربية المستديمة يمكن أن نستوعب المعارف الجديدة في مرحلة أولى، ونشارك في صنعها في مرحلة ثانية.

قد يرى بعضنا في هذا حلما صعب المنال، لكن إذا عرفنا بالإحصاء الدّقيق الخبرة الإسلاميّة من العلماء والمبدعين الذين استطاع الغرب استقطابهم بجملة من المغريات، وبسبب تردّي الأوضاع ببلدانهم، تيقّنّا أنّ هذا الصّرح الشامخ من الحضارة الإنسانيّة بمختلف مظاهر تطبيقاتها الماديّة ليست أمريكية وليست فرنسيّة أو إنجليزيّة، كما أنّها ليست ألمانيّة ولا يابانيّة، إنما هي حضارة بشريّة ساهمت فيها الأمم قديمها وحديثها صغيرها وكبيرها منذ اكتشاف الحرف للكتابة ومنذ اختراع الورق للتّسجيل، ومنذ استنباط الصفر في الحساب، ومنذ وضع العجلة في التنقّل، ومنذ صُنع الآلة في الطباعة ، وكان للمسلمين بمختلف أجناسهم ولغاتهم دورهم في بناء الصّرح الحضاري للبشريّة . كانت لهم يد في الماضي على الأقلّ، بضبطهم قواعد منهجيّة البحث العلمي، ولهم أياد اليوم بما يقومون به في مختبرات الغرب ومراكز بحوثه من إنجازات واختراعات.

لقد جعل الإسلام من كلّ علم نافع للأمّة فرضَ كفاية عليها ، فإذا لم يقُمْ به بعضهم أثمت الأمّة جمعاء. وبهذا المبدأ كانت مساهمتهم في الماضي، وبه يجب أن تكون مَساهمتهم اليوم في ميادين المعرفة والعلم والتّكنولوجيا. والتّربية وسيلتهم الأولى في ذلك. لكن لا تربية ناجحة بدون وسط ثقافي ناجع. فكيف يجب أن تكون ثقافتنا لمواجهة تحدّيات العولمة ولنتحاور معها بلغة المصلحة؟



إنَّ الثقافة تشمل - زيادة على المعارف الفنيّة والأدبيّة والعلميّة- كلّ ما في الحياة البشريّة من معتقدات وعادات ، ومثل وقيم، ونظم وسلوك. وبهذا الاعتبار هي عنصر أساسي من عناصر التّنمية. ويرى أحد قادة المغرب العربي أنّ الخارطة الثقافية أصبحت في العالم اليوم صورة من الخارطة الاقتصاديّة والسّياسيّة، وأصبح الإشعاع الثقافي في نظر بعضهم موصولا على الدّوام بالقوّة الاقتصاديّة والسياسيّة والمعرفيّة. كما أصبح العمل الثقافي كالأمن الغذائي والأمن الدّفاعي لا بقاء للأمّة بدونهما، بل أصبحت الثقافة نفسُها سلعةً تخضع للعرض والطلب والمنافسة.

وللأمّة الإسلامية ثقافة متميّزة باعتبارها مندرجة في قيم روحيّة وأخلاقيّة، إنسانيّة التوجّه والأبعاد، وضمن تراث دينيّ وأدبي وعلميّ حفظ للبشريّة قديما حضارتها ثمّ طوّره وقدّمه لها في القرون الوسطى ليستمر تقدّمها الماديّ دون أن يكون كلّ ذلك مُخلاّ بتوازنها النّفسي.

والمسلمون مطالبون بالحفاظ على تراثهم باعتباره جزءا من هويّتهم وشخصيّتهم، لكن دون سقوط في سنفونيّة التّمجيد المقيت والإطراء المملّ الذي لا يفيد، وإنّما بالنّظر في هذا التّراث لمحاولة فهمه ونقده وتمحيصه وتوظيف ما فيه من إيجابيات لتطوير الحاضر وضمان المستقبل، وتجنّب ما فيه من سلبيّات أضرّت بهذه الأمّة في ماضيها القريب والبعيد. كلّ ذلك حسب منهج عقلانيّ وفكر منفتح لا يتبجّح مغرورا بكبريائه أمام بعض الثقافات، ولا يتصاغر متقوقعا في عقد نقصه أمام بعضها الآخر.

إنّ تراثنا الإسلامي الدّيني والأدبي والعلمي فيه كثير من السلبيات ،



وعلينا أن نقتنع بذلك أوّلا ونصلح ما بأنفسنا من جرائها ثانيا. معيارُنا في ذلك أنّ التراث الذي يجب أن نحافظ عليه هو التّراث الذي يهدف إلى تصفية النّفس من شرورها وتهذيب الذوق من أدرانه وتسريح العقل من أغلاله.

المحافظة على البيئة: إنّ تربية تصنع العقول وثقافة تغذي النفوس لجديرتان بوسط بيئي غير موبوء يحمي الأجسام من كلّ الشّرور. وهنا جاء دور المحافظة على البيئة في مواجهة تحدّيات العولمة.

عديدة هي الآيات التي دعت إلى النّظر والاعتبار في الكائنات والمخلوقات جميعا من أرض وحيوان وماء، وبحر وجبال. والغاية من ذلك ليست فقط الوصول إلى الإيمان بقدرة الخالق عزّ وجلّ وحسن تنظيمه للكون (الحجْرُ ١٩)، وإنّما أيضا للمحافظة على هذا النّظام البديع بعدم إفساده ﴿وَاللهُ لاَ يُحبُّ الْمُفْسدين﴾ (القصص ٧٧)، ولأنّ الإفساد هو خسار وهلاك لكلّ الخلق (البقرة ٢٧). كما نهى اللّه عن الإسراف (الأنعام ١٤١) والتّبذير (الإسراء ٢٦) ونهى رسول الله ﷺ عن الإسراف في استخدام الماء فقال: (لا تسرف ولو كنت على نهر جار).

إنَّ العالم اليوم في أشدّ الحاجة إلى تربية مستقاة من هذا النّبع الفيّاض حتّى يحافظ على البيئة. ذلك أنّ أخطر ما يهدّد البشريّة جمعاء اليوم هو الاستغلال المسرف للموارد الطبيعيّة كتبذير الماء الذي جعل اللّه منه كلّ شيء حيّا[(١)]، وإتلاف الغابات بما فيها من نبات وخاصّة الأشجار تلك التي عظّمها اللّه في كتابه العزيز وجعل من ثمرة بعضها نُوراً مثل نوره[(٢)]. ويمكن أن

(١) الأنبياء: ٣٠.

(٢) النور: ٣٥.

نُضيف إلى هذه المخاطر ما تنفثه الصّناعات من تلوّث، تهدّد طبقة الأوزون، وما يُتلف من أديم الأرض الصّالحة للزّراعة.

إنّ العالم سيشهد بعد ١٠٠ سنة انتهاء الموارد غير القابلة للتّجديد مثل النّفط والغاز الطبيعي. ومن المُسرّ والمؤسف معا أنّ هذه الموارد يوجد قسم منها لا بأس به في الدّول الإسلاميّة. فهل فكّرنا في تعويضها من اليوم؟

(٢) هذا على النطاق الدّاخلي، أمّا على النّطاق الخارجي فيجب أن نركّز على أمر هام جداً وهو الوقوف - بقلب مؤمن صبور وعقل مدبّر فطن، ونفس مُحبّة متسامحة- في وجه حملة مسعورة جديدة تهب من حين لآخر من الغرب ، قيل متحضّرا، على شكل برامج تلفزيّة ملغومة أو دراسات تاريخيّة مسعورة، أو مقالات صحفيّة مسمومة.

لقد جعل الغرب - مع الأسف الشّديد- من الإسلام بعد سقوط الشّيوعيّة الخطر الأكبر عليه. وحولّت الصّهيونيّة بمقدرتها الدّعائيّة الحاقدة العداء للسّامية إلى عداء للإسلام حتّى أصبحت المطالبة بحقّ الفلسطنيين في وطنهم كراهية لليهود. وزاد الطّين بلّة أنّ العالم اليوم أصبح في عهد العولمة قرية صغيرة بشبكة معلومات عالميّة وبطرق سيّارة للاتّصال بداية بالهاتف والأقمار الصّناعيّة إلى الحاسوب والأنترنات.

وهكذا انتقلت الإنسانيّة من مجتمع فلاحي في القديم إلى مجتمع صناعي في عصر النّهضة إلى مجتمع إعلامي اليوم. وكان للصّورة الإعلاميّة من التأثير فينا (أي البشر) ما غيّر في سلوكيّاتنا وأسلوب حياتنا تغييرا جذريا، خاصّة وقد أصبحت الصّورة الإعلاميّة تُخزن وتعاد كما يريد صانعها وكما يشاء مُنتجها.. وإذا بمفاهيم كالدّولة، والأمّة، والدّين، والثقافة، والهويّة،



والمقدّس، والحقيقة التّاريخيّة، والحرّية، والمقاومة: كانت قيما ثابتة في الماضي، لكنها أصبحت تحدّد وتضبط من طرف القويّ -حسب مصالحه- لفرضها على الضّعيف. وليته حدّدها- ولو بقليل من الموضوعيّة - بمكيال واحد بين البشر ليتحقّق العدل، ولو نسبيا، بينهم. وإذا كان الأمر في السّياسة الدّوليّة المقامة على القطب الواحد لانحتاج إلى تقديم أمثلة على ذلك، فإنّ ما بثّته تلفزات الغرب من ربورتاجات يوميّا ما يندى له الجبين خجلا. ومن واجبنا أمام هذه التصرّفات اللاّحضاريّة أن نقوم:

أ- بكشفها وفضحها في محاضراتنا وفي ندواتنا وفي برامج تلفزاتنا، وخير مثال على ذلك ما أورده الأستاذ محمّد الميلي المدير العام السّابق للمنظمة العربيّة للتربية والعلوم والثقافة في إحدى محاضراته من أنّ إحدى القنوات الفرنسيّة لمّا عجزت عن تأمين ربرتاج مصوّر عن الجزائر يتلاءم مع التّعليق الذي أعدّته عن تصاعد نفوذ الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ استعملت صورة من الأرشيف عن الحرب الأهليّة في لبنان. وفي هذا كلّ العار على المشوّه للحقيقة خدمة لمآرب دنيئة.

ب- بالرّد عليها بعقل واع ونظرة فاحصة وحجّة دامغة مبرزين حقدهم على الإسلام وجهلهم الشّنيع بقيمه وقوانينه، وسوء نيّتهم فيما يُروّجونه حوله من أباطيل. وهم بذلك لا يسخرون من الإسلام بقدر ما يسخرون من عقول سذّج تُصدّقهم . وهم لا يشوّهون الدّين الحنيف بقدر ما يشوّهون الأديان السّماويّة الثلاثة، وببعضها يُؤمنون. ونكتفي بمثال واحد على ذلك هو الرّدّ الموضوعي والعقلاني للدّكتور محمّد الطالبي في محاضرة له ألقاها على منبر اليونسكو في باريس وانطلق فيها من ربرتاج قامت به القناة الثّانية



الفرنسيّة في برنامجها المعروف « مبعوث خاصّ» . (Envoyé Spécial) وبثّته يوم (٦/ ٥/ ١٩٩٩) في خضمّ حرب كوسوفو. قدّم هذا البرنامج شريطا تلفزيّا صوّر فيه معاناة المرأة المسلمة في باكستان. فهي امرأة تعذّب وتقتل ويشوّه وجهها بالنار بمجرّد غيرة الزّوج وبمجرّد أن تُتّهم بالزّنى، ولا يترك لها المجال للدّفاع عن نفسها. وقُدّم كلّ ذلك أنّه من التشريع الإسلامي. وفي نفس الشّريط نرى رجلا مسلما من كوسُوفُو يبحث عن أمّه في مخيّم للاّجئين يعتني بشؤونهم الصّليب الأحمر الدّولي والمنظمات الإنسانيّة الغربيّة.

بيّن الأستاذ الطالبي أنّ الهدف من هذا البرنامج هو تقديم صورتين متناقضتين للإسلام والمسيحيّة. فالأوّل دين التوحش والعنف والثانية دين المحبّة والتّسامح. واختار هذا البرنامج استْعار الحرب في كوسوفو ليمرّر الرّسالة العنصريّة التّالية: إنّ المسيحيّين اليوَغسلاف لهم الحقّ وهم يتّبعون عقيدة سمحة هي المسيحيّة أن يطهّروا بلادهم من أناس يتّبعون عقيدة متوحّشة هي الإسلام تعامل المرأة مثل تلك المعاملة الفظيعة. لقد نسي هؤلاء أو تناسوا أنّ قيمتي الحبّ والتسامح لم تعرفهما الكنيسة في القرون الوسطى سلوكاً حضارياً تجاه الغير إلاّ عن طريق التّراث العربي الإسلامي عندما نقل إليهم عبر بوّابات ثلاث هي الشام وصقليّة والأندلس.

ج-بالرّدّ عليها اعتمادا على ما قاله الموضوعيّون من علمائهم وأدبائهم وعلمائهم. فلئن شوّه دانتي قديما الرّسول الأكرم - صلوات اللّه عليه وسلامه- ورماه حقدا في روايته «الكوميديا الإلاهيّة» في الدّرك الأسفل من النّار مشقوق البطن ، وأمامه علي بن أبي طالب-كرّم اللّه وجهه- يبكي وينتحب، ولئن سخرت منه- مجلاتهم وجرائدهم وتلفزاتهم وإذاعاتهم-



وقد سنّ لهم ذلك دانتي كتابة- بما رسموه وروّجوه من صور تدلّ على حقد ونقمة، فالمطلوب منّا أن ننظر في تراثهم قديما وحديثا ونأتيهم منه بالكثير من شهادات التعظيم والإكبار والإجلال لنبي الإسلام ﷺ فيكون هذا من باب " وشهد شاهد من أهلها " ، لأنّ في تلك الشهادات ما يكشف تورّط الصّنف الأوّل منهم جهلا وحماقة وسوء نيّة من أجل إثارة أحقاد تاريخيّة دفينة ، خدمة لمصالح مادّية آنيّة خسيسة.

والأمثلة على ذلك كثيرة من إنتاج كبار شعرائهم كلامرتين في كتابه «حياة محمّد» وفكتور هيفو في قصيدته «السّنة التاسعة للهجرة»، وكبار كتّابهم كفلتار في كتابه «محمّد والتّعصّب»، وشاتو بريان في «من باريس إلى القدس». هذا في الأدب الفرنسي وأكيد أنّ له ما يشبهه في الآداب الأخرى.

لم يبق في نهاية المطاف في هذا المجال الخارجي إلاّ عامل واحد يضمن بحقّ للأمّة الإسلاميّة قدرتها على مواجهة تحدّيات العولمة. وهذا العامل الأساسي نادى به بعض القادة. ولكنّ نداءهم لم يجد الآذان الصّاغية فخسرنا كثيراً من الوقت وكثيراً من الجهد. ولعلّ الحالة التي نحن عليها اليوم هي نتيجة للفشل في تحقيق هذا العامل فما هو؟ إنّه الوحدة بين دول هذه الأمّة . ولسنا نعني بها، ضرورة الوحدة السّياسيّة، فهذه دونها خرطُ القتاد، وإنما نقصد وحدة تربويّة، ولها في عقيدتنا الواحدة وتراثنا الإسلامي المشترك ما يدعّمها ويجعل من نجاحها - ولو نسبيّا- أمراً ممكنا.

وهذه الوحدة التربويّة تمهّد إن آجلا أو عاجلا إلى وحدة اقتصاديّة. لقد حان الوقت للتفكير في سوق عربيّة إسلاميّة مشتركة . ولسنا من دعاة الطفرة. فهذه السّوق قد ننتهي إليها آخر المطاف، ونبدأ بإقامة أسواق جهويّة



(مجلس التّعاون الخليجي نموذجاً) ثم إقليميّة تتطوّر إلى سوق عربيّة مشتركة، فسوق عربيّة إفريقيّة مشتركة، ثمّ سوق عربيّة إسلاميّة مشتركة. إن الدّول الإسلاميّة، باستثناء بعض المنظمات الثقافية[1]، خالية من أيّ تنظيم وحدوي سياسي أو اقتصادي من شأنه أن يقف في هذا المجال أمام المارد الأمريكي أو المارد الأوروبّي أو المارد الياباني. وهي في نفس الوقت تواجه مجموعة من التكتلات:

-تكتلات عسكريّة كالحلف الأطلسي.

- تكتلات اقتصاديّة كالمجموعة الاقتصاديّة الأوروبيّة.

- تكتلات استثماريّة كالمنظمة العالمية للتعاون وعلى رأسها الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

- تكتلات بنكيّة كصندوق النقد الدّولي الذي تديره سبعة بلدان .

وهي تواجه في نفس الوقت مجموعة من البيروقراطيات سواء أكانت إداريّة ، كالشركات المتعدّدة الجنسيّات، أم مالية كالبنك العالمي، أم دوليّة كمجلس الأمن والأمم المتّحدة.

إن دول أوربا القويّة تكنولوجياً في المعرفة، ودفاعياً في المجال النووي، واقتصاديّاً في المجال التنموي لم تجد مفرّاً من الاتّحاد أمام اللّوبي الأمريكي والكاميكاز الياباني، والتّنّين الصّيني ، فكيف لا تضع الدّول العربية والدّول الإسلامية هذا المثال نموذجاً يحتذى ومنهجاً يُتّبع؟

---

(١) من هذه المنظمات يمكن أن نذكر الألكسو (تونس) والإسسكو (المغرب)، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثّقافة الإسلاميّة (تركيا) ورابطة العالم الإسلامي (مكّة).



الخاتمة :

إنّ العولمة التي تواجهها الأمّة الإسلاميّة يمكن أن تكون نقمة عليها:

أ - لأنّها قد تهمّش الأخلاق والأبعاد الإنسانيّة والاجتماعيّة، وتؤدّي إلى تلويث المحيط وإفساد الأرض.

ب-لأنّها قد تؤدّي إلى فشل خطط التّنمية فتصبح المجتمعات وكراً لجارح كاسر هو البطالة بمخلبين قويّين الدّعارة والمخدّرات.

ح-وهي في نهاية المطاف، بجعلها المادّة وسيلة وغاية قد تفقد الإنسانيّة (ومفردها الإنسان) توازنه النّفسي المقام على المادّة والرّوح.

لذا نرى أنّه يجب درء هذه الأخطار بعقيدة جريئة ترفع شعار : حيث تتحقق مصلحة الناس فثمّة شرع اللّه وكلّما زاد عدد المحرّمات زاد تخلّف المجتمع (فقهاء مجتهدون).

رَفَضْنا هذين المبدأ في الماضي فتخلّفنا وآمنت بهما أوروبا فتقدّمت. وخير مثال على ذلك أنّه في الوقت الذي أمر فيه المنصور الموحّدي وهو في عزّ مجده العسكري بحرق كتب ابن رشد ونفيه إلى قرية أليسانة (قرب قرطبة) قرّر فريدريك الثاني، رغم معارضة رجال الدّين المسيحي، ترجمة كتب ابن رشد.

د- بروح وحدويّة ترفع شعار : الوحدة ليست رغبة وليست اختياراً عفوياً ، وإنّما قضيّة وجود أو عدم . شعارنا يجب أن يكون التوحيد عقيدة والوحدة مسلكاً ومنهجاً.



لقد قال الزّعيم الزنجي لوثركنغ للبيض الأمريكان « إمّا أن نعيش سويّاً كإخوة وإلاّ فسوف نموت سويّاً كأغبياء» ونقول اليوم نحن المسلمين « إمّا أن نعيش سويّا لنكون أخوة متّحدين اقتصاديا وتربويّاً وإنما أن نموت سويّاً ضعافاً مهمّشين».





القيم الإنسانية المشتركة

أهميتها في تحقيق العدل والأمن والسلام البشري

د.خالدبن صالح الطويان



أولاً: المقدمة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله الأمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد: فإن العنصر البشري بمختلف أنماطه السلوكية المتباينة وثقافاته المتعددة وبأصل فطرته يميل إلى الاستقرار النفسي والروحي، ويبحث دائماً عن منهجية للحياة القويمة التي تؤدي به في نهاية المطاف إلى السعادة المنشودة ، ومن هنا تأسست فكرة القيم المجتمعية الفاضلة التي تساير طبيعة الإنسان القويم الذي كرّمه الله بالعقل والمنطق وفضله على سائر مخلوقاته.

وعلى مرّ العصور والأزمان، ومنذ نشأ الخليقة ، أدرك الإنسان أهمية وجود ضوابط وأساسيات تؤمّن استمرارية العنصر البشري في الوجود، وتضمن له حياة تختلف عن حياة غيره من المخلوقات ، فأوجد خلال معارفه المكتسبة وتجاربه المختلفة قواعد أساسية وقيماً ثابتة تشترك فيها سائر المجتمعات على تباين أنماطها الحياتية وأديانها المختلفة وعقائدها المتباينة، لأنها تساير العقل والمنطق وتوافق الواقع المعاش.

وسوف أتطرق في بحثي هذا إلى دور هذه القيم المشتركة في الحياة، وأهميتها في إشاعة الأمن والسلام وتحقيق العدل والمساواة بين بني البشر، متطرقاً إلى مفهوم هذه القيم ومصادرها المختلفة التي قادت الإنسان إلى التعرف عليها والإجماع على أنها أساسيات لا تقل أهميتها عن باقي ضروريات الحياة، ثم أَشرح باختصار موقف الإسلام من هذه القيم ، ودوره في إكمالها وتهذيبها ، كذلك أُبرز دور القانون في هذه القيم المشتركة



والقانون الدولي على وجه الخصوص كونه رابطاً لكثير من المجتمعات المعاصرة وأصبحت قواعده ملزمة للكثير منها.

ثم أتطرق بعدها للدور الهام المنوط بالدول والمنظمات والمجتمعات في تعزيز هذه القيم ، وأهمية القرارات الحكومية والمعاهدات والمواثيق المشتركة بين الدول في ذلك ، وأتحدث عن أهمية تطبيق هذه القيم في تحقيق الاستقرار والعدل والسلام الذي طالما حلمت به البشرية جمعاء على مرّ العصور والأزمنة.

وأختم ببعض النقاط التي قد تضع إضاءات وبداية لتفعيل ونشر وتعزيز هذه القيم حتى تصبح مرتكزاً أساسياً لحل كل خلاف، وقواعد فعليه تسهم في حل المشكلات التي تفاقمت في عصرنا هذا ولم يسلم منها أحد.



ثانياً: مفهوم القيم الإنسانية:

١- التعريف :[١]

لغوياً: القيم ((Values جمع قيمة، ومعناها اللغوي (الثمن) فنقول هذا الشيء ثمنه كذا أو سعره، كذا فنعرف قيمته الاقتصادية.

وفي الاصطلاح: يقصد بها مجموعة الممارسات السلوكية التي تأخذ موقعها في الثقافة حينما يؤمن بها عدد كبير من أفراد المجتمع بحيث تصبح جزءاً أساسياً من تلك الثقافة؛ وقد تكون القيم عامة بالمجتمع وقد تكون خاصة بفرد معين.

٢: المفهوم العام للقيم :

ليس هناك اتفاق بين العلماء والمتخصصين على صيغة محددة ونهائية لمفهوم القيم، لذلك فهي تمثل عند بعض الباحثين مجموعة من التصورات من شأنها أن تقود إلى سلوك معين أو معيار للاختيار بين بدائل معينة للسلوك.

ويرى آخرون أن القيم تمثل معايير عامة وأساسية يشارك فيها أعضاء المجتمع، وتسهم في تحقيق التكامل وتنظيم أنشطة الأعضاء.

في حين نجدها عند آخرين تمثل الأفكار التي تعبر عما هو جدير بالرغبة والاهتمام، ومن ثم فهي تحدد خطة عمل كل فرد، سواء عُبِّر عن ذلك لفظياً أو في شكل ممارسة لأنشطة سلوكية.

(١) المصدر: جريدة الرياض الثلاثاء ١١ شوال ١٤٢٨هـ - ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٧م - العدد ١٤٣٦٥ .



أو أن القيم هي أفكار ومفاهيم ومعتقدات، صريحة أو ضمنية، مرغوبة أو غير مرغوبة، توفر أساسا موضوعيا لاتخاذ أنماط سلوكية معينة وتوجيه الاختيارات والتفضيلات، ويتم اكتسابها من الثقافة والبيئة التي يعيش فيها الفرد .

ومنهم من ينظر إليها باعتبارها ضوابط ومعايير يضعها مصدر ما، كي يلتزم ويسترشد بها جميع أفراد مجتمع أو جماعة معينة في كافة أنواع سلوكهم وتصرفاتهم، وأمام هذا المصدر يسألون ومن ثم يجازون عن التمسك والالتزام بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وتتوقف درجة تأثيرها على مدى قبولهم وتبنيهم لها واعتزازهم بها.

ورغم هذا الاختلاف في التعريف إلا أن القاسم المشترك الذي يجمع بينها هو اتفاقها على أهمية تلك القيم في توجيه سلوك الفرد وتحديد نمط اختياراته و تفضيلاته[١].

(١) المصدر: ندوة حوار الأربعاء بعنوان: القيم الإسلامية المؤثرة في النظام المصرفي الإسلامي بجامعة الملك عبدالعزيز ، مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي.

ثالثاً: مصادر القيم الإنسانية المشتركة على مر العصور :

١- الرسالات السماوية :

لا شك أن الرسالات السماوية هي من أبرز وأهم المصادر التي استقى منها الإنسان الكثير من القيم الفاضلة، والأساسيات المشتركة على مر العصور وتواتر الأزمنة ، حيث اهتمت كافة الرسالات السماوية ـ والتي ارتبطت بوجود الإنسان في الأرض ـ بوضع ضروريات وأوجبت الحفاظ عليها لارتباطها بوجود الإنسان وفنائه، حيث حرّمت جميع الديانات السماوية على سبيل المثال القتل وجعلته من الكبائر ، ووضعت جزاءً للقاتل بمثل عمله بغرض الحفاظ على النفس البشرية من الهلاك والفناء ، و حرّمت المساس بالعقل، حيث إنه الفاصل الذي يميز الإنسان عن سائر المخلوقات وبه يعرف الصواب والخطأ ، وهكذا كانت الرسالات السماوية والرسل هما المصدر الأساس لوضع الكثير من القيم التي أصبحت قواسم مشتركة، وقواعد ثابتة لأتباع هذه الديانات المختلفة، وقد تتناقل إلى غيرهم ممن لا يعتنقون هذه الديانات.

٢- الفطرة الإنسانية :

إن الفطرة الإنسانية السليمة والمنطق السوي والنفسيّة الطبيعية للإنسان تدعوه دائماً إلى قيم الحق والعدل والخير والجمال، وتنفِّره من كل ما هو شائنٌ وقبيح، فكانت الفطرة التي جبل عليها الإنسان قاسماً مشتركاً ومصدراً طبيعياً لبناء الكثير من القيم في المجتمعات، وبالرغم من الغرائز الطبيعية



للإنسان وميوله للكمال والتملّك وحبه لذاته، وبحثه الدائم عن وسائل لسد النقص في جوانب حياته المختلفة ، إلا أن الفطرة السليمة تفرض عليه دائماً قيماً راسخة وثابتة في قرارة نفسه.

ومن هنا كانت الفطرة الإنسانية السويّة التي جبل عليها كل البشر منبعاً أصيلاً وطبيعياً لكثير من القيم الإنسانية.

٣- تجارب الحياة :

الإنسان بطبعه توّاق إلى المعرفة والبحث والاستكشاف،و قد ثبت منذ القدم أن التجربة هي الأساس لكثير من المعارف والمفاهيم التي اكتسبها الإنسان ، وقد شكّلت هذه التجارب سلسلة من القيم التي رسخت في أذهان النّاس ، ومن ذلك مثلاً نبذ الحروب حيث أثبتت التجارب أنها تجر على البشر ويلات وتفاقم المشكلات وتعمّقها ولم تكن حلاً لمشكلةٍ مّا في يومٍ من الأيام.

رابعاً: الإسلام جاء متمماً ومكمّلاً للقيم الإنسانية :

تطرقنا فيما سبق إلى موضوع مصادر القيم الإنسانية وذكرنا من بين تلك المصادر الرسالات السماوية كأحد المصادر التي تستقي منها الإنسانية أهم قيمها ومبادئها الفاضلة والتي تتميز بالعدل وموافقة الفطرة السليمة والتي تعتبر بذاتها أيضاً مصدراً آخراً من مصادر القيم الفاضلة كما أسلفنا .

وقد جاء الإسلام متمماً ومكملاً لما عرف قبله وأثر بين الناس من قيم ومبادئ فاضلة، فأقر منها ما كان موافقاً لأحكامه وشريعته التي تتميز بالعدل والثبات ، وتلك القيم تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : قيم المعاملات :

فمن المعروف في تاريخ الجاهلية أنه بالرغم من انتشار الشرك والخرافات في شبه الجزيرة العربية خصوصاً، وضياع الكثير من التعاليم والديانات السماوية بين الناس عموماً إلاّ أن هناك قيماً فاضلة كانت تراعيها العرب وتحافظ عليها ، فالكرم والصدق والأمانة مثلاً كان من أهم وأبرز شيمهم ، وكذلك الشجاعة، والإيثار ، والعدل ، وغيرها من القيم التي أقرها الإسلام ، بل وحث عليها وندب إليها ، ورتب المثوبة والأجر على التحلي بها ، ومن هذا المنطلق فلا يمكن حصر وتعداد القيم التي أقرها الإسلام ، ولكن يمكن ذكر بعض الأمثلة لتلك القيم ، ومنها :

١ـ حسن الخلق :

بيَّن رسول الله ﷺ الغاية من بعثته بقوله: (إنما بعثت لأتمم مكارم



الأخلاق (وجعل): (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) وبيَّن - أيضاً - أن أثقل ما يوضع في ميزان الإنسان في الآخرة ويدخله الجنة (حسن الخلق) مع تقوى الله. وكان رسول الله ﷺ يقول : (إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً) وقال: (إن أحبكم إلي وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً) ... الخ من النصوص التي تكشف عظمة المكانة التي يتبوؤها الخلق الحسن في سلم القيم الإسلامية .

٢ـ التسامح :

التسامح من القيم الإسلامية الهامة وخاصة ، مع غير المسلمين . ومن مظاهر هذا التسامح المعاملة الخاصة (لأهل الكتاب) اليهود والنصارى . فقد أحل للمسلمين طعامهم وفي ذلك فتح لأبواب التراحم والمعاشرة الطيبة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ (المائدة: ٥) وأحل الزواج من نسائهم ، استثناء من الأصل التشريعي العام بحرمة الزواج من غير المسلمين فقال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾ (المائدة: ٥) ، ومعلوم ما للزواج من أثر في الاندماج الاجتماعي وتقوية العلاقات والمودة والسكن والرحمة والصلة والقربى ... وللمواطنين من غير المسلمين الذين يعيشون في ظل الدولة الإسلامية : (ما للمسلمين وعليهم ما عليهم) يعني التساوي مع المسلمين في الحقوق والواجبات ! وقد تجلت هذه السماحة في تعامل الرسول ﷺ مع أهل الكتاب فقد كان يزورهم ويكرمهم ويحسن إليهم ويعود مرضاهم وقصة



نصارى نجران وصلاتهم في مسجده ﷺ وسماحه لهم بذلك، قصة معروفة في كتب السيرة.

٣ـ الحرية

الحرية من أهم القيم الإسلامية؛ لأنها فطرة الإنسان ولأنها حق طبيعي له. وقد جاء الإسلام - أساساً - ليحرر الإنسان من كل أنواع العبودية لغيره من بني البشر ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ (آل عمران: ٦٤)، وجاء الإسلام ليرفع عن كاهل الإنسان كل ضروب الضغط والإكراه والإذلال والتسلط. ولم يسمح بإهدار الحرية الإنسانية في اعتناق الدين الحق فقال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ولم يحدث أبداً في تاريخ الإسلام أن أكره أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام رغماً عن إرادته واختياره، ولهذا عاش أهل الأديان الأخرى كالمسيحيين واليهود قروناً طويلة في المجتمع الإسلامي ولا يزالون حتى اليوم بلا اضطهاد أو امتهان.

ولقد قرر الإسلام حرية الفكر والتعبير والرأي، بل جعل من (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)، وعدّ الموت في قول كلمة الحق من أرفع أنواع الشهادة. وجاء الإسلام والرق سائد بين الناس فاتجه حسب منهاج حكيم للقضاء عليه لأنه يقدر كرامة الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠) وإن الحرية هي أبرز مظاهر هذه الكرامة. وفعلاً نجح الإسلام في تجفيف منابع الرق وتحرير الرقيق بما يعد إنجازاً عالياً من انجازات الحضارة الإسلامية. والحرية للفرد في التصور الإسلامي ليست مطلقة (ولا يمكن أن



تكون كذلك) بل هي محكومة بقواعد الأخلاق وقوانين الحق والعدل ، وإلا انقلبت مفسدة وظلماً وضرراً بحق الإنسان نفسه وبحق الآخرين في المجتمع. ونظرة سريعة إلى أحوال المجتمعات الغربية - خاصة - تبين ما جنته الحرية غير المقيدة على الأخلاق والنفس والمجتمع من نتائج خطيرة ، تهدد هذه المجتمات تهديداً عميقاً.

٤ـ الصدق والوفاء بالعهد:

قيمة الصدق قيمة عظيمة ، فهي صفة تعكس جوانب أخرى حميدة في الإنسان، وقد حثّ الإسلام عليها قال تعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣) فهي صفة تقود إلى الفلاح والنجاح والبر في الدنيا والآخرة قال النبيﷺ (إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا) فجاء الإسلام مكملاً ومتمماً لهذه القيمة العظيمة.

كما أمر الدين الإسلامي الحنيف بالالتزام بالعهود والوفاء بالمواثيق، وهي قيمة إنسانية وأخلاقية عظيمة تعزّز الثقة بين الأفراد ، وتؤكد أواصر التعاون في المجتمعات ، والوفاء بالعهد أصل الصدق وعنوان الاستقامة وهو من صفات الصالحين الذين مدحهم الله تعالى في كتابه فقال : ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧) وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ



كَانَ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء:٣٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح :١٠) وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل :٩١). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (الرعد :٢٠) وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة : ٤٠).

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله مات أبي وأمي فهل بقي من بر أَبَوَيَّ شيء أبرهما به بعد موتهما ، فقال النبي ﷺ نعم ، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما " (رواه أبو داود) فالوفاء بالعهد مبدأ من مبادئ الإسلام المهمّة والراسخة التي أمر بها ديننا الحنيف.

٥ـ تكريم المرأة:

كانت المرأة قبل الإسلام تعيش وضعاً مهيناً ، وإن نظرة تاريخية على موقف الديانات والمجتمعات والشرائع قبل الإسلام نحو المرأة تبين مدى المهانة التي لحقت بالمرأة عبر التاريخ ، وتبين كذلك التكريم الذي أولاها الإسلام العظيم . وفيما يلي أهم المبادئ الإسلامية في هذا المجال:

– عدم مسؤولية المرأة – وحدها – عن خروج آدم من الجنة ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ



في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة:٣٦) ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢١-٢٣).

-المرأة كالرجل في الإنسانية والكرامة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء : ١).

- المرأة كالرجل في المسؤولية والتكاليف والجزاء والثواب والعقاب : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧)، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٥)، ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٣٥).

- التفرقة بين المرأة والرجل في بعض الأحكام مرده إلى اختلافات الطبيعة



بين الجنسين وكذلك الاختلافات في وظائفهما وأدوارهما الاجتماعية حيث إن جنس الرجل وجنس المرأة غير متماثلين حتى يتم التساوي بينهما بل هما مختلفان، وليس هناك أي أسباب تقلل من شأن المرأة أو مكانتها في المجتمع.

- تكريم خاص ومنزلة مميزة للأم ((الجنة تحت أقدام الأمهات)) حديث نبوي شريف.

٦ـ الأخوة والرابطة التي تجمع بين المسلمين

جعل القرآن الكريم الإخاء بين المؤمنين من لوازم الإيمان ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وقال : ﷺ (المسلم أخو المسلم).

ومن العناصر الأساسية لهذه الأخوة :

- سلامة الصدر من الأحقاد، ومن عناصرها : المودة والرحمة والتعاطف (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر). وبيّن رسول الله ﷺ: (أن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً حتى (يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير) بل دعا القرآن الكريم إلى مرتبة الإيثار وهي أن يؤثر المرء أخاه على نفسه في كل ما يحب . ويعجب المرء إلى ما وصل إليه (المهاجرون) وإخوانهم (الأنصار) في إخوتهم مجتمع (المدينة) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).



القسم الثاني : العبادات :

وبحكم أن الدين الإسلامي أحد الديانات السماوية ، وقد بعث به محمد ﷺ بعد أن انتشر الجهل والضلال في الأرض وعم الظلم واندرست معالم الأديان الأخرى إلاّ ما شاء الله ، لذا بعث الله نبيه بهذا الدين مجدداً لتوحيد الله بالعبادة ومحيياً للقيم العادلة ، يقول الله جل وعلا في محكم تنزيله ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم﴾ (الشورى : ١٣)، ويقول المصطفى ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ، وهكذا جاء الإسلام مؤكداً للقيم السماوية السابقة فأقرها وتعبد الناس بها وقرر الثواب على فعلها والعقاب على ترك ما وجب منها ، وقد قال جمهور علماء أصول الفقه الإسلامي أن شرع من قبلنا هو شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، ومن مظاهر تلك القيم العبودية :

١ـ الإيمان بالله :

الإيمان بالله هو قاعدة القيم الإسلامية جميعاً وهو أعظمها على الإطلاق، منه تستمد وعليه تقوم . والإيمان بالله هو التصديق الجازم بأن الله تعالى هو ربُّ كلِ شيء ومليكه وخالقه ومدبره وأنه لا رب سواه ولا إله غيره ولا معبودَ سواه وأن له الكمال المطلق وحده سبحانه وأنه منزه عن أي نقص. الإيمان بالله تعالى هو توحيده ومعرفته بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.. هو محبته وخشيته والتوكل عليه ، والتسليم بحكمه وقوله والرضا بقضائه وقدره، والقرآن الكريم كله من أوله إلى آخره في تقرير هذه القضية التي هي أكبر قضية في حياة الإنسان .



٢ـ العبادة :

عبادة الله (عز وجل) كما بيّن القرآن الكريم هي غاية الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات : ٥٦)، وهي جوهر دعوات الأنبياء ورسالات الرسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦) ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء : ٢٥) والعبادة في الإسلام تعني القيام بكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. فتشمل بذلك الفرائض والشعائر كالصلاة والصيام والزكاة والحج ... والذكر والدعاء كما تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كحسن المعاملة والوفاء بحقوق الناس وبر الوالدين ... وتشمل كذلك أعمال الإنسان وأنشطته الاجتماعية النافعة إذا كانت النية فيها إرضاء الله تعالى . قال رسول الله ﷺ: (يعدل بين الاثنين صدقة ، ويعين الرجل في دابته فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة ... ويميط الأذى عن الطريق صدقة) . حتى أعمال الشهوة والغريزة كالأكل والشرب ومعاشرة الزوج لزوجه تدخل في مفهوم العبادة ، فقد قال رسول الله ﷺ : (وفي بضع أحدكم صدقة) (والبضع هو الجماع) ، قالوا : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر) قالوا : نعم، قال: (كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر) .

إن هذا المفهوم للعبادة يجعل المسلم حريصاً على الاستكثار من كل عمل نافع سواء أكان نافعاً لنفسه أم نافعاً لغيره؛ لأن ذلك يزيد رصيده من الحسنات عند ربه عز وجل .



٣ـ التقوى :

التقوى من كبريات القيم الإسلامية . حسبك أن تعلم أن المواطن التي ذكرت فيها التقوى ومشتقاتها في كتاب الله العزيز قد زادت على أربعين ومائتي موطن . ولعظمتها وأهميتها فقد كانت هي - خاصة - وصية الله سبحانه وتعالى لكل الأمم : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللهَ﴾ (النساء: ١٣١) . أمّا في السنة المطهرة فقد كان دأبه ﷺ التذكير بها في مواعظه وخطبه ووصاياه ، ويوليها التقديم على غيرها. وكذلك كان خلفاؤه الراشدون من بعده.

والتقوى هي معيار التفاضل بين الناس في المجتمع الإسلامي قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال النبي ﷺ : (أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى).

وترجع أهمية التقوى إلى أنها تعصم أصحابها عن السيئات والقبائح والذنوب والمعاصي والمحرمات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف : ٢٠١). فالتقوى كالوقاية لهم من الوقوع فيما يسخط الله، من الأقوال والأعمال، وليس هذا فحسب, بل يصل الأمر بالتقوى أن تبعد صاحبها عن الوقوع في الشبهات خشية الوقوع في الحرام. ومن أجل هذا ، ومن أجل ما يترتب عليها من خيرات وآثار طيبة في الدنيا والآخرة فقد كانت التقوى هي خير ما يتزود به المرء في

مـسـيـرته في هذه الحـياة حـيث يصـارع نوازع الـشر وإغـراءات الخطيـئـة : ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة : ١٩٧).

٤ـ الوسطية والاعتدال :

الإسـلام منهج وسط في كل شيء في التـصـور والاعـتقـاد ، وفي العـبـادة ، والأخـلاق وفـي السلوك والمعـاملة والتشـريع. بعـيـد في كل ذلك عـن الغلو والتطّرف والتـشدد والإفراط والتـفريط، قـال الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة:١٤٣).

وجـاءت سـيـرة الرسـول ﷺ وسنته القـوليـة والعـمليـة لـتـؤكد هـذا المبـدأ العظيم وتجسـده خير تجسـيد ، فقـال عليه الصلاة والسلام : (إيـاكم والغلو في الدين) وقال: (هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون) والتنطع هو الغلو في السلوك.

خامساً: القيم الإنسانية المشتركة و القانون الدولي :

كانت العادات والتقاليد والأعراف التي تعارف عليها أفراد المجتمع خلال التـجارب المكتسبة وفي ضوء الرسـالات الـسماويـة التي تدعو إلى الـفضيلة ونبـذ الانـحطاط وكبح جـماح الشـهـوات هي السائدة لدى الإنسـان القـديم، وظلّت هذه القـيـم المتولّدة من مـجـموعـة تراكـمات تـلازم الإنسـان على مر العصـور والأزمان، فكانت هي القـاعدة الأسـاسـية والمنطلق لنشـأة القانـون في المجتمعات القديمة.

وقد بدأ الإنسان منذ القدم بسن القوانين التي تنظِّم المجتمع لتكون مرجعية



للحوادث الناتجة عن تفاعل الإنسان مع بيئته وأساليبه المعيشية، وضبط سلوكه، فكانت المدونات القديمة كشرائع حمورابي ، أو مدونة حمورابي التي نشأت في بلاد ما بين النهرين قبل الميلاد .

ثم تواترت القوانين والأنظمة في العصر الحديث وتطورت في حدود إقليمية معينة وتباينت واختلفت بما يوائم ويساير عادات وتقاليد تلك المجتمعات.

وقد شعر الإنسان بحاجته إلى تكوين كيانات لقواعد جامعة تتجاوز الحدود الإقليمية والجغرافية الضيقة لتصل إلى مصاف العالمية، لتخدم أغراض السلم والاستقرار، فكانت أولى ثمرات ذلك معاهدة «وينسفاليا» عام ١٦٤٨م التي وضعت مبادئ سيادة الدول على أراضيها رغم المعارضة التي وجدتها، ثم نشأت فكرة التنظيم الدولي بعد الحرب العالمية الأولى، فتأسست عصبة الأمم عام ١٩٢٠ التي كانت أول محطة لالتقاء الشعوب في مرجعية تنظيمية واحدة، وقد هدفت إلى التقليل من عملية التسلح العالمية وفكّ النزاعات قبل أن تتطور لتصبح نزاعاً مسلّحاً كما حدث في الحرب العالمية الأولى، غير أنها فشلت بعد إخفاقها في القيام بدور حفظ السلم والأمن الدوليين، وألغيت لتقوم مقامها منظمة الأمم المتحدة الحالية، حيث وقّع ميثاق الأمم المتحدة في ٢٦ حزيران/ يونيه ١٩٤٥م في سان فرانسيسكو، و جاء في ديباجة الميثاق:

نحن شعوب الأمم المتحدة وقد آلينا على أنفسنا:

- أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد



جلبت على الإنسانية مرتين أحزاناً يعجز عنها الوصف.

- وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية.
- وأن نبيّن الأحوال التي يمكن في ظلها تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي.
- وأن ندفع بالرقي الاجتماعي قدماً، وأن نرفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح.

وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا:

- أن نأخذ أنفسنا بالتسامح، وأن نعيش معاً في سلام وحسن جوار.
- وأن نضم قوانا كي نحتفظ بالسلم والأمن الدولي.
- وأن نكفل بقبولنا مبادئ معيّنة ورسم الخطط اللازمة لها ألاّ تستخدم القوة المسلحة في غير المصلحة المشتركة.
- وأن نستخدم الأداة الدولية في ترقية الشؤون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب جميعها، قد قرّرنا أن نوحّد جهودنا لتحقيق هذه الأغراض.

ولهذا فإن حكوماتنا المختلفة على يد مندوبيها المجتمعين في مدينة سان فرانسيسكو الذين قدّموا وثائق التفويض المستوفية للشرائط، قد ارتضت ميثاق الأمم المتحدة هذا، وأنشأت بمقتضاه هيئة دولية تُسمّى "الأمم المتحدة".

وجاء في الفصل الأول في مقاصد الهيئة ومبادئها :

المادة (١) مقاصد الأمم المتحدة هي:

١ -حفظ السلم والأمن الدولي، وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير



المشتركة الفعّالة لمنع الأسباب التي تهدد السلم ولإزالتها، وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الإخلال بالسلم، وتتذرّع بالوسائل السلمية، وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولي، لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها.

٢-إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها، وكذلك اتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلم العام.

٣-تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعاً والتشجيع على ذلك إطلاقاً بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء.

٤-جعل هذه الهيئة مرجعاً لتنسيق أعمال الأمم وتوجيهها نحو إدراك هذه الغايات المشتركة.

فكانت هذه المباديء ترجمة لقيم متأصّلة منذ القدم بين الشعوب والمجتمعات على مختلف أنواعها وثقافاتها ودياناتها، وفطرة أساسية في الإنسان الذي يميل بطبعه إلى السلم والبحث عن السعادة والحرية والأمان والعيش الكريم، وجاء القانون الدولي ليثبّت هذه الحقائق ويضعها في أطر ملزمة كان من المفترض أن تكون جامحاً للخارجين عنها والمخالفين لقواعدها ، وصمام أمان لإشاعة العدل والسلم والحرية والمساواة بين البشر.



ولكن على الرغم من ذلك تسيطر المركزية الغربية في كثير من المواثيق الدولية والأنظمة العالمية بفرض قيم وثقافات تتباين نظرة المجتمعات العالمية لها ، ويتفاوت الإيمان بها في البلدان الغربية نفسها،وهذه تخرج من مفهوم القيم الإنسانية المشتركة التي تكون صامدة مهما طال الزمن ومهما طرأت من تغيرات وأحداث، لتنقلنا إلى مفهوم (القيم الكونية) التي يراد لها أن تكون مرجعية جديدة تتعدى القيم الأصلية النابعة من القناعات المشتركة والثقافات المتشابهة في المجتمعات المختلفة.

سادساً : دور الدول والمنظمات والمجتمعات بمختلف ثقافاتها وأديانها في تعزيز القيم الإنسانية المشتركة:

١ـ دور الدول :

ويمكن تقسيم دورها إلى قسمين:

أـ الدور الداخلي:

حيث تلعب السلطات التشريعية والتنفيذية في الدول دوراً هاماً في ترسيخ مباديء وقيم مجتمعية بما لها من نفوذ على حدودها الإقليمية وعلى مواطنيها، حيث تسيطر السلطات والحكومات في الدول على الإعلام بمختلف وسائله وأنواعه ، والذي أصبح عنصراً هاماً ومؤثّراً في عصرنا الحالي، وأداة فاعلة في نشر الثقافات والأفكار المختلفة، ولا شك أن التشريعات والقوانين في هذه الدول ترسي قواعد ملزمة، وتفرض قيماً



ومبادئ تشكّل قناعات لدى المجتمعات لتكوّن في مجملها مجموعة من الأفكار والقيم التي لا يمكن للفرد في المجتمع مخالفتها.

ومن واقع الحال تشكّل السلطات الحكومية في جميع دول العالم عنصراً هاماً ومؤثّراً في نشر ثقافة ما أو فكر ما بين أفراد مجتمعاتها، فالحكومات في الدول هي التي تملك القوة الاقتصادية التي تمكّنها من طباعة الكتب وإنشاء المؤتمرات والندوات والمحاضرات التي تعزّز وتنشر القيم الفاضلة في مجتمعها،كما يمكنها توجيه و استخدام وسائل الإعلام المختلفة وإنشاء القنوات الفضائية المتخصّصة التي تروّج وتدعو لقيم التسامح والتكافل والعدل والخير وغيرها من القيم التي أجمعت البشرية عليها، كما تسيطر الحكومات على المناهج الدراسية والتي يمكن من خلالها الوصول إلى عقول الطلاب في مختلف مراحلهم التعليمية وخاصّة الأوليّة منها.

ب ـ الدور الخارجي:

مما لا شك فيه أن العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدول تشكّل عاملاً مهمّاً في تأثير الدول على بعضها البعض ، وقد تحاول هذه الدول فرض ثقافات وأفكار على دول أخرى ، فتجابه في الغالب بالمعارضة والنفور، خاصّة إذا ما تباينت الثقافات و الأفكار ومناهج الحياة ، غير أن هذه الدول إذا ما تلمّست القواسم المشتركة و جعلت القيم الموجودة أصلاً في المجتمعات منطلقاً لها ومنهجاً أساسياً تسير عليه لاستطاعت تحقيق التقارب والتغلّب على هذا النفور والتباعد.

عليه فإن التوجيه السليم للنفوذ السياسي والاقتصادي الخارجي للدول هو



اقتناص الطرق و القواسم المشتركة بين الشعوب، ونشر هذه القيم الراسخة أصلاً في المجتمعات ، وتعزيزها خلال فتح قنوات الحوار ، وعقد الندوات والمحاضرات المشتركة بين الدول لتعزيز وترسيخ مبادئ السلم والأمن والعدل والخير.

٢ـ دور المنظمات :

تلعب المنظمات والجمعيات الطوعية المحليّة والعالمية بشقّيها المدني والحكومي وبمختلف أنواعها ووظائفها وأهدافها دوراً هاماً وفاعلاً في كثير من الأحداث العالمية ، والكثير من هذه المنظمات وخاصّة الطوعية منها تسعى إلى تحقيق رسالات إنسانية سامية ، وتحقيق قيم عالية لا يختلف اثنان على نبلها، فتمثل هذه المنظمات أنموذجاً حيّاً يجسّد معنى هذه القيم في الواقع العملي، وكياناً جامعاً يشكّل إرادة الشعوب في حب الخير ونبذ الشر .

ورغم اختلاف الأهداف التي من أجلها تأسست هذه المنظمات إلا أننا نجد الكثير منها يعمل في مجالات إنسانية هامّة انطلاقاً من مبدأ التكافل الاجتماعي ومساعدة الضعفاء والمحتاجين والاهتمام بالأسرى والجرحى ورعايتهم وغيرها من الأهداف والمقاصد النبيلة، ويمكن الاستفادة من هذه المنظمات سواء كانت محلية أم إقليمية أم دولية في إشاعة قيم التسامح والإخاء والعدل والخير وذلك أثناء ممارسة أعمالها الإنسانية ، وتوظيف كوادرها في نشر هذه القيم، خاصّة وأن النفوس جبلت على حب من يحسن إليها ، فتكون أداة ووسيلة هامّة في بث هذه القيم في سياق عملها.



٣ـ دور المجتمعات:

إن المجتمع هو الركيزة الأساسية لتعزيز ونشر القيم الفاضلة في إطاره الإقليمي كما له المقدرة في تصديرها إلى خارج إطاره الإقليمي الضيق، ومن المعروف أن الشعوب في تنقّل دائم فلا يخلو بلد من البلدان من تواجد كل جنسيات أهل الأرض فيه، ولا شك أن القادم إلى منطقة ما، لأي سبب من الأسباب ، يأتيها بكل معطياته وثقافاته وأفكاره المختلفة ويأخذ من ثقافات أهلها وأفكارهم بنفس القدر، عليه كان لهذا التداخل دورٌ هامٌّ في ترسيخ القيم المشتركة والإسهام في نشرها.

سابعاً: أهمية تطبيق القيم المشتركة في تحقيق العدل والأمن والسلام للبشرية جمعاء :

إن القيم الإنسانية المشتركة التي تدعو إلى الحق والخير والسلم قيم تستحق بذل الغالي والرخيص من أجل تحقيقها ، وتكمن أهمية هذه القيم في عدّة نواحي:

١ـ إن هذه القيم موجودة في جميع المجتمعات، فهي بمثابة بطاقة دخول سهلة إلى أي ثقافة أو فكر.

٢ـ إن تعزيز وترسيخ هذه القيم في المجتمعات يُوجد نقاطاً مشتركة وقواعد جامعة تلتقي فيها البشرية وتفتح أبواباً من الأمل لَعالم آمن ومسالم، وتعتبر محاور مهمّة لفهم الآخر.

٣ـ إن تطبيق هذه القيم السمحة في الدين الإسلامي الحنيف هو من صميم عبادة المسلم، وتحقيقاً لمعاني القرآن الكريم وتوجيهات النبي ﷺ، وذلك هو



سلوك المسلم القويم ، حيث حثّ الدين الإسلامي على كل مكرمة وخير ، ونبذ كل مذمة وشر، فعظّم حسن الخلق وأمر بالتكافل وعمل الخيرً والحث عليه، وأفرد أدبًا عظيماً في الحروب وكيفية معاملة الأسرى ، وكذلك نجد تعاليم الله تعالى وأوامره في الرسالات السماوية المختلفة ، فكلّها تدعو إلى مكارم الأخلاق، وعلى ذلك فإن تطبيق هذه القيم والمبادئ أمر رباني يفضي بطبيعة الحال إلى العدل لأن الله أمر بالعدل ويحب العدل ، وحرّم الظلم على نفسه، والله السلام، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال : ١٧)، على ذلك كانت نتيجة تحقيق هذه القيم معروفة سلفاً بالإخبار الرباني، وهي تحقيق معاني العدل والسلم والأمن في المجتمعات.

ثامناً: الخلاصة والتوصيات :

خلال الاستعراض السابق يمكننا القول: إن كل المجتمعات وبمختلف دياناتها وأفكارها وثقافاتها وعقائدها تحمل قيماً ومبادئ تتفاوت درجة قوتها وتأثيرها في كل المجتمعات على اختلافها وتباينها.

على ذلك تعتبر هذه القيم المشتركة أرضية مناسبة ومنطلقاً جيّداً لمخاطبة المجتمعات والشعوب في ضوئها، ووسيلة مهمّة لتقارب الأفكار والثقافات، ومرتكزاً أساسياً لفهم الآخر طالما أن هنالك نقاطاً مشتركة ليس عليها خلاف،ولا شك أن من أهمّ هذه القيم التي لا يختلف اثنان عليها هي قيم الخير والحق ونبذ الحروب والإرهاب وقتل الأبرياء ونبذ الدمار والخراب ونبذ



الظلم والتفرقة والعنف والكراهية، فإذا ما تم تطبيق هذه القيم لقادتنا بطبيعة الحال إلى إشاعة السلم والأمن وتحقيق العدل والمساواة بين البشر، ولكن كيف يمكننا استخدام هذه القاعدة المشتركة في تحقيق هذه الأهداف؟

إن الدول والمؤسسات والجمعيات والروابط الثقافية ومنظمات المجتمع المدني تلعب دورهاً هامّاً في إبراز و إشاعة وتعزيز هذه القيم عن طريق عقد الندوات والمحاضرات وطباعة الكتب والمنشورات، ووضع هذه القيم كأساسيات تدرس في المدارس والجامعات، فتبدأ التوعية بهذه القيم والتعريف بأهميتها من داخل المجتمعات المحلّية ثم الإقليمية ، حتى ترقى إلى العالمية وبذلك نكون قد أوجدنا مرجعيات وأساسيات ثابتة تتحد وتجتمع فيها جميع شعوب العالم وتكون بمثابة نقاط لا يمكن تجاوزها.

تاسعاً: الخاتمة:

إن موضوع القيم الإنسانية المشتركة و أهميتها في كونها قاعدةً راسخةً ومنطلقاً لفهم الآخر، ونقطة التقاء تبدأ وتنشأ منها ثوابت ومبادئ أخرى تؤدي في مجملها إلى إشاعة الأمن والعدل والسلم البشري، فإن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث طويل ودراسة متمعّنة لأنه يحوي جوانب عديدة تستلزم التطرق إليها، كما يحتاج إلى البحث في المسائل العقائدية والدينية والثقافية والنفسية والتاريخية التي يحملها كل مجتمع،وقد حاولت خلال هذا العرض وضع إضاءات لعلّها تكون ذات فائدة في هذا الموضوع المهم، فإذا أصبت فمن توفيق الله وإذا أخطأت فمن نفسي والشيطان.

التعايش

د. سلمان بن فهد العـودة
المشرف العام على مؤسسة
الإسلام اليوم



التعايش الحضاري

مفردة العيش ومشتقاتها مادة مستخدمة في اللغة العربية، ومستبطنة فيها بوضوح، غير أن المفهوم المعاصر لكلمة (التعايش) بات ذا صخب وجدل شديد؛ جعل بعض المهتمين الإسلاميين يحسّون بأن هذا الكلمة حُقنت بمفاهيم ذات دلالات سلبية شائعة، تجعل الشريعة كلأً مباحاً، وهناك تخوفٌ من أن هذا المفهوم قد يكون خلفه تذويب لأسس الإسلام، وتقديم أنصاف العقائد وخليط من الإسلام، وهذه دعاية مسيئة بحق للوجه الإيجابي لهذا المفهوم، ودعاية مسيئة بحق الإسلام، إضافة إلى أن نسبته إلى الفكر الغربي الذي أشاعه بهذا الاسم أوجد شيئاً من التخوف المشروع بأن ترويجه الغربي تم بإرادة متنفذة؛ لتغييب القيم الإسلامية، وإدماج المشرق مع الغرب وذوبان هويته.

ومع تقديرنا لهذا التحفظ؛ غير أن انتشار المفهوم بهذا الاسم (التعايش) في أدبيات مختلفة لا ينفي إطلاقاً أساس المعنى المحفوظ والمعترف به والمقدم في النصوص الإسلامية.

إنه لا ينبغي التحفظ من هذا المصطلح أو غيره؛ لكونه محقوناً أو مشحوناً؛ إذ لا مشاحة في الاصطلاح- كما قيل- ، ويفترض أن يكون التعامل معه بهدوء وواقعية؛ برده إن كان خطأ، وفرزه إن كان قابلاً للفرز، وهذا ما يدعونا إليه الدين الإسلامي وقواعده، ذلك أن (الْكَلِمَة الْحِكْمَة ضَالَّةُ الْمُؤْمِن، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا)، رواه الترمذي، وقال: غريب.

إن المفهوم السلبي للتعايش بمعنى التنازل عن العقيدة أو تقديم نصف عقيدة أو بعض دين مرفوض تحت أي مسمى جاء به، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ



الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: من الآية٨٥)، بيد أن المفهوم الإيجابي له بالتوصل إلى مستويات أخلاقية في الحوار والاتفاق على أسس العيش والتصالح، وتقدير الاختلاف، والاعتراف به، والاعتراف بالتعددية؛ أمر جاءت به الشريعة الإسلامية.

ومن الجدير بالتنبيه عليه أن القرآن الكريم جاء بمصطلحات ربما تكون أوسع معنى، وأشمل تعاملاً من مصطلح التعايش، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: من الآية١٣)، فلفظ «التعارف» ليس مقصوراً على الاسم والقبيلة، إنما هو خطاب للبشرية بالمعنى الواسع في تبادل المعارف والعلوم والمحاسن والفضائل.

ويقول تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: من الآية٢)، فالتعاون على الخير والمصلحة مفهوم شرعي ناصع، متفق عليه، سواء مع الموافق أو المخالف؛ لأنه تعاون على معنى صحيح، وهو البر والتقوى، وليس الإثم والعدوان، وذلك المفهوم (التعاوني) و(التعارفي) في غاية التبشير للناس، وتقديم أفضل القيم التي ترفع بني الإنسان، وتقربهم من هداية الله بدينه العظيم (الإسلام).

ومن المقرر أن أوضاع البشرية وأحداثها وقانون الاختلاف هي بإذن الله القدري الكوني، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٨-١١٩)، وذلك الاعتراف



بالاختلاف والتعدد يحمل في داخله معرفة ضرورية بوجود الشر والخطأ و..الخ المجافية لقيم الفضيلة والأخلاق والتقوى.

وليس معنى التعايش قبول هذه الأوضاع السيئة وتبريرها بطريقة منطقية, ولا إبطال قانون المقاومة، والدفع بالتي هي أحسن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...، فهذه قيم شرعية ثابتة، لا مزايدة عليها.

إن معنى التعايش هو قبول التصالح الدنيوي، والوجود والجوار في الاتفاق على جملة من الأخلاق الإنسانية التي تتيح فرصة لتبادل الحوار والإقناع.

والمؤمن مُصلحٌ آمرٌ بالمعروف والخير، ناه عن المنكر والشر، حريص قدر المستطاع على دفع الباطل بالحق والجهل بالعلّم.. عارف بمواقعه ,معتدل في رؤيته للإصلاح، فالرؤية المثالية التي يحمل بعضنا الناس عليها هي بمثابة حملهم على جبل وَعْر ,والناس فيهم الضعيف والكبير وذو الحاجة والمختلف والمتفق؛ ممن قد لا يتحملون ذلك.

ولَمَّا حَاصَرَ رَسُولُ اللَّه الطَّائِفَ فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُمْ شَيْئاً قَالَ: (إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ). فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ – يعني الصحابة– وَقَالُوا نَذْهَبُ وَلاَ نَفْتَحُهُ! فَقَالَ: ((اغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ))، فَغَدَوْا فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ.فَقَالَ: ((إِنَّا قَافِلُونَ غَداً إِنْ شَاءَ اللَّهُ). فَأَعْجَبَهُمْ، فَضَحِكَ النَّبِي ﷺ.

ومن الافتئات على مقاصد الشريعة ودعوة الإسلام أن تصطفي مجموعة نفسها تحت أي مسمى، تحتكر الصواب، والرؤية الصائبة المطلقة، وتعتبر الخارج عن سلطتها مفتوناً حلال الدم أحياناً ,معلنة عن بيعة ملزمة عندها هي مفرق الحق من الباطل بين الناس، وهذا أنموذج هو في نفسه فتنة، ولا عهد لنا



به في الشريعة الإسلامية التي حقنت دماء من لا يؤمنون بها أصلاً، من يهود ونصارى وغيرهم، بموجب عقد واتفاق على مر عصور التاريخ.

إن النموذج العظيم للتعايش هو أنموذج المدينة المنورة، عاصمة الإسلام، وحامية بيضته وحوزته، ومنطلق دعوة آخر الأنبياء ﷺ، ففي مرحلتها الأخيرة وفترة التمكين شاء الله ألا تكون المدينة للصحابة والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فقط، بل شاء أن يشاركهم فيها اليهود والوثنيون والمنافقون وضعفاء الإيمان، جنباً إلى جنب، بل وشاء الله أن يموت رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، كما في الصحيحين، في إشارة إلى أن هذا المعنى محكم ثابت، لا يمكن نسخه أو العبث فيه.

إن التعايش هو نوع من التعاون والتعارف في المشترك الحضاري والإنساني، وتبادل الخبرات التي تعين الإنسان على عمارة الأرض، ونشر قيم الخير التي يتفق الناس على الاعتراف بها، وذلك كله نوع من فتح المجال لنشر الإسلام ودعوته، وذلك كله لا يعني الدعوة لأفكار المختلف أو شرعيته دينيا، بل القبول بالتعايش الدنيوي لفتح الحوار دينيا ودنيويا.

والصحابة -رضي الله عنهم- أدركوا أنهم أصحاب ديانة تختلف جوهرياً عن الديانات الأخرى، فالفارق عميق وأصيل وراسخ في العقيدة والإيمان والكتب والعبادة.. لكن ثمت معنى مشتركا، ومصلحة دنيوية جامعة أحياناً ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).



والرسل هم أعظم الخلق إيماناً ,ومع ذلك عايشوا قومهم رغم الكفر المطلق والإيمان المطلق، فنوح -عليه السلام- مكث ألف سنة إلا خمسين عاماً في قومه، يقول الله جل وعلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ (نوح: ٥-١٠)، فهو يدعوهم، ويجادلهم بالتي هي أحسن، وبالحوار الهاديء الموضوعي الذي عن طريقه يصل الحق إلى أصحاب العقول السليمة، وهذا جزء من التعايش.

إن التعايش لا يعني ترك رأيك الخاص الفردي، فضلاً عن عقيدتك ودينك،فالرأي الذاتي هو جزء من شخصية المرء، ولا يملك أحد أن يطالب الآخرين بتغييره أو مخالفته، إلا أنه يبقى في النهاية مجرد رأي شخصي، والمطلوب هو التخلي عن التعصب المحتقن، والانفعال الجاري في غير قناته، وإحلال الحوار والدعوة بالتي هي أحسن محله؛ فالتعايش ترك التعصب للرأي والإكراه فيه، لا ترك الرأي نفسه أو المساومة عليه، وبين هذا وذاك بون عظيم.

إن من الملاحظ أن التعايش غدا بعيداً عن واقع بعض القطاعات الإسلامية ليس مع الديانات الأخرى؛ بل مع أبناء الملة الواحدة، بين المذاهب الفقهية، والجماعات الإسلامية، والدول، بل بين القبائل العربية أحياناً، في حالة من العنف والعدوانية يطير معها شاهد اللب ويغيب، وهو يتساءل من أين جاءنا هذا المأزق؟!

إلامَ الخُلفُ بينَكُمُ إلاما   وَهَذي الضَجَّةُ الكُبرى عَلاما

وَفيمَ يَكيدُ بَعضُكُمُ لِبَعضٍ   وتُبدُونَ العَداوَة و الخِصَامَا



الكثير يظنون، أن طرح موضوع التعايش لا يكون إلا في حالات الضعف والتمزق والتشرذم فقط، والشواهد تنادي على أن التعايش يكون أرسخ أسساً وأعمق جذوراً في زمن القوة والقدرة، فالقادر على صناعة التعايش والسلم هو القادر على صناعة حرب وقتال، ومن لا يصنع حرباً لا يصنع سلاماً، بينما يعاني مفهوم التعايش من الانهيار والانتهاك في أزمنة الضعف والشتات.

إن القوة في تحمل الناس بآرائهم وخلافاتهم ,والسيطرة على دوافع النفس وشهواتها ونزغاتها، وكبح جماحها، وليس في فرض الرأي بالقوة يقول النبي الكريم ﷺ -كما في الصحيحين-: ((لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)).

وعندما فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (القدس امتنع أن يصلي داخل الكنيسة- وهو القوي المنتصر- وقال، وهو المحدث الملهم: أخشى أن يتخذها المسلمون بعدي سنَّةً، فيصلون فيها، فيضايقون أهلها، ويقولون: هنا صلّى عمر، فصلى عمر رضي الله عنه خارجها، وأعطى المسيحيين الأمان على حياتهم، وحقن دماءهم.

وفي حين قتل الزعيم النصراني «ريتشارد» أكثر من ألفين وسبعمائة أسير مسلم في لحظة واحدة وصلبهم خارج أسوار مدينة عكا لتأخر ما اتفق عليه مع المسلمين، يقوم صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - بحقن دماء أهل القدس جميعاً مسيحيين ويهود -وهو القادر على النكاية- عاقداً صلحه الشهير باسم (صلح الرملة) في ٢٢ من شعبان ٥٨٨هـ ٢ من سبتمبر ١١٩٢م، في أعظم صور التعايش في زمنه.

إن التاريخ الإسلامي هو تاريخ القوة والانتصار،وهو نفسه تاريخ التعايش



وضبط العهد والميثاق، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة:١)، يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - في تفسيره عند هذه الآية: هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود: أي بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقصها.. وقال: وهذا شامل للعقود، التي بين العبد وربه من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الإنقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول ﷺ بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم ووصلهم، وعدم قطيعتهم، والتي بينه وبين أصحابه (المتقين) من القيام بحقوق الصحبة في الغني والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق..

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء:٣٤)، وفي الصحيح: ((مَنْ قَتَلَ نَفْساً مُعَاهَداً لَمْ يرحْ رَائِحَةَ الْجَنَّة، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ عَاماً))، بل في البخاري ومسلم أن النَّبِي ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ؛ فَقَامَ. فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جَنَازَةُ يَهُودِي!. فَقَالَ: ((أَلَيْسَتْ نَفْساً)).

وهذا ابن تيمية - رحمه الله - يخاطب سرجوان ملك قبرص في رسالته المشهورة بقول: بلغني ما عند الملك من الديانة والفضل ومحبة العلم وطلب المذاكرة ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي شاكراً من الملك: من رفقه ولطفه وإقباله عليه، وشاكرا من القسيسين ونحوهم. ونحن قوم نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة.

ولم يرض ابن تيمية بفكاك أسرى المسلمين وحدهم، بل طالب التتار بفكاك أسرى اليهود والنصارى قائلاً: بل جميع من معك من اليهود



والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نَفْتَكُّهُم ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة.. وكذلك السبي الذي بأيدينا من النصارى يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا بهم؛ كما أوصانا خاتم المرسلين.

إن الهزيمة النفسية أحياناً تجعل بعض الناس يشعرون أن هذا اللون من الحديث يفضي إلى تبرير الانهزام والرضا به، والبعض الآخر يطرحون صورة مثالية لا واقع لها عن التعايش، وتحرير مدلول التعايش وفهمه كاف في رفع الالتباس.

إن نجاح التعايش مرهون بصوت العقلاء الذين يقدمون لغة الحوار الهادىء، الهادف الذي يحقق المنشود، ويصل لهدفه بيسر وسهولة، كما أن إخفاقه مرهون بصوت الحمقى الذين لا يعرفون إلا مصالحهم فقط، حين يعتمدون لغة القوة والعنف بشكل كبير في إداراتهم ومطابخ قراراتهم، ومن هنا شن صناع الحروب وعرابوها حرباً، ليس على العالم العربي والإسلامي فقط، بل على كل من ليس معهم أو مع إدارتهم؛ مما قطع كل طريق أمام الاعتدال والفهم الإنساني المشترك والمصالح الاقتصادية والأخلاقية الإنسانية، والتي هي محل اتفاق عند العقلاء جميعاً ،لكن القادة العسكريين لا يفكرون إلا بطريقة عسكرية، مما جعل الحوار يصل إلى طريق مغلق مسدود.

إن الدين لم ينزل - كما يظنه البعض- لتأجيج الصراع بين الناس، بل لضبط العلاقة وتنظيمها وعمارة الأرض، يقول الله جل وعلا: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: من الآية٦١)، ولهذا لما خلق الله آدم؛ خَلقه من أَجل عمارة الأرض، والسعي فيها، والضرب فيها؛ قالت الملائكة لربها تبارك وتعالى: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ

نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: من الآية٣٠)؛ فعلموا أن الفساد في الأرض، وسفك الدماء مما يكرهه الله عز وجل، فندرك من هذا أن الله لم يخلق البشر ولم ينزل الكتب لأجل أن يتحاربوا ويتنازعوا.

إن مما يلزم مراعاته فقه تحقيق المصلحة ودرأ المفسدة، ذلك أن مصلحة التعايش ظاهرة وميسرة، ونفعها جلي.

وفي السيرة والفقه أبواب كثيرة، كلها ينبغي استعمالها، وتوظيفها حال احتياجها.

فهناك: أبواب للهدنة، وأبواب للصلح، وأبواب للموادعة، وأبواب للعهد، وأبواب لغير ذلك مما ينبغي على الإنسان أن يتأمل ما يكون مناسباً منه للحال والمقام.

إن الناس جميعاً يحتاجون في كثير من الأحيان إلى أن يتعايشوا فيما بينهم بهدوء وموادعة ومتاركة، بعيداً عن إدارة الحرب والصراع، والانشغال عن الأولويات بما هو دونها.

إن استمالة القلوب، واستقطاب العقول للتعرف على هذا الدين والدخول فيه لا يمكن من دون استعمال الصبر، والرفق واللين والمداراة، واحتمال الأذى، ومقابلة الإساءة بالإحسان، كما أمر الله -تبارك وتعالى- في ذلك في غير ما موضع من كتابه، يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)، وبهذا استمال النبي ?قلوب أعدائه، وعالج قسوتها وشماسها ونفارها، حتى لانت، واستقادت، وقبلت الحق.

إن الكلمة الطيبة الحانية، والابتسامة الصادقة الصافية، والإحسان إلى الآخرين بالقول والفعل؛ من أسباب زوال العداوة وتقارب القلوب، يقول الله تبارك وتعالى:



﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت:٣٥).

إن التعايش هو حقن الدماء البريئة، وفتح مجال للحوار والجدال بالتي هي أحسن، وهو تقديم مشروع يحمي الكلمة الإسلامية، ويزودها بالعقل والحجة والمنطق التي يمتلئ بها كتاب الله وشرعه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران:من الآية٦٤).

التعايش مع النفس

عش، ودع الآخرين ليعيشوا، وامنحهم الحق في ذلك كما منحت نفسك، ولا تعتبر وجودك يقوم على أنقاضهم، ونجاحك على تدميرهم؛ فالطرق شتى، والفرص التي خلقها الله تعالى بعدد الخلق، بل بعدد أنفاسهم، حتى طرق الجنة لا حصر لها، وفي الصحيح: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ))، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١١).

ولما عاتب أحد الوعاظ مالك بن أنس في قعوده ومجلسه.. قال: كلانا على خير.

هذا هو معنى التعايش المأخوذ من العيش المشترك بين طرفين، سواء أكانوا أشخاصاً أم أسراً أم مجتمعات، ومنه تعايش الإنسان مع نفسه، بأن يكون صادقاً معها ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١٩)، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ (آل عمران: ١١٠)، و((الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ)).

وإذا كان الصدق عند كثير من الناس ومضات وإشراقات ما تلبث أن



تختفي؛ فإن الصدق عند رئيس الصّدّيقين أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان ديمومة مستمرة لعمل الصدق مع النفس، بالوضوح في المَلاحظة والمعالجة والمحاسبة.

كل منا داخل نفسه وقلبه مصباح أو شعلة ,والمفترض أن يسلط هذا المصباح على داخلة نفسه ,ويجيله في أطواء ضميره ,ومخبّآت قلبه؛ بيد أن الكثيرين يسلطون المصباح على غيرهم، نقداً وعيباً وبحثاً عن الزلات والأخطاء، ومحاصرة لهم، وأخذاً بمخانقهم :

إذا رمت أن تحيا سليما من الأذى	وحظك موفور وعرضك صيّنُ
لسانك لاتذكر به عورة امريء	فكلك عورات وللناس ألسنُ
وعينك إن أدّت إليك معايباً	فصنها وقل يا عين للناس أعينُ
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى	وجادل ولكن بالتي هي أحسنُ

في تتبع الآخرين بإمكانك أن تلاحظ كثيراً ممن يعرف الناس ولا يعرف نفسه، ولهذا من استقرأ ما كتب الشعراء والأدباء وجدهم يتشوفون إلى إنسان صادق، يطمئنون إلى صدقه، ويركنون إلى أمانته.

والناس يتوقون إلى صاحب المصداقية في نفسه وأقواله وأفعاله ومواقفه وقناعاته، كما يقول الحسن: خير الناس من وافق قوله فعله، وصدّق سريرته علانيته، ليكون منسجماً مع ذاته في معرفة مواهبه وطاقاته وقدراته، ومعرفة عقله ونفسه؛ فإن معرفة الإنسان لنفسه هي المنطلق لقدرته على التعايش مع النفس؛ مالها وما عليها:

دَواؤُكَ فيكَ وَما تُبصِرُ	وَدَاؤُكَ مِنكَ وَما تَشعُرُ



وتَزعُمُ أنَّكَ جُرمٌ صَغيـر   وَفيكَ انطَوى العالَمُ الأكبَرُ

فالنفس عالم هائل ضخم، تكتنفها الطلاسم وتحوطها الألغاز والأسرار، والكثير لا يتقنون قراءة أنفسهم بشكل جيد، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الذريات:٢١)، فقد يظن الإنسان نفسه أوسع الناس صدراً، وأطولهم حبلاً، وأبعدهم أناة وحكماً ومداراة؛ وأفعاله تنم عن غير هذا.

إن ثمة دعوة ملحة تفرض نفسها بديلاً عن بث التهم في كل اتجاه، مؤدى هذه الدعوة: أن افهموا أنفسكم وأقبلوا عليها، فأنتَ بالنَّفسِ لا بالجسمِ إنسانُ.

قبل أن نلقي بالتبعات واللوم على غيرنا ينبغي أن نلوم أنفسنا أولاً، وليس معناه أن نكون قساة مع أنفسنا ظالمين لها، مُفْرطين أو مفرّطين، بل على العدل قامت السماوات والأرض، إن النظر في أدواء النفس هو أول سبيل البصيرة، وإلا فالعمى والتيه!

إن النفس الإنسانية أمانة عند صاحبها ائتمنه الله عليها، وأوجب حسابه على حفظها ورعايتها، ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا. وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً﴾ (النساء: ٢٩-٣٠)، فالانتحار (القضاء على وجود هذه النفس الإنسانية) عقوبته النار، ((بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ))، و ((مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً)).

كما أنه من أشكال قتل الإنسان لنفسه أن يئدها معنوياً، بمنعها من الخير، وتدسيتها بحملها على المعاصي؛ فالنفس قد تنتفض على صاحبها، وتطالبه



بتزكيتها، كما تطالبه بشهواتها، فيقمعها كما يقمع الحاكم الظالم المستبد مَن تحت يده، وكما قيل: قد تكون أميراً لكن على نفسك.

إن معرفة النفس أصل في التعايش، ولهذا ورد عن بعض السلف: من عرف نفسه استراح.

إن جزءاً كبيراً من أدبياتنا وتعاملنا مولع بإلقاء التبعات على الآخرين: والداً ووالدة وأسرة ومجتمعاً وحاكماً، بل وعلى العالم كله، فهم سبب إخفاق مشاريعنا وخططنا، ووأد نبوغنا وتميزنا؛ لتخرج النفس من المحاسبة والمحاكمة، وتتسلل لواذاً نائية بنفسها عن النقد والمراجعة والتصويب، بينما أحد التقارير يقول: إن ما يأتيك من الناس يؤثر فيك بنسبة ٢٠٪، بينما ما يأتيك من داخل نفسك وردة فعلك تجاه الآخرين يمثل ٨٠٪.

إن مما ينعكس سلباً على نفسية الإنسان وتعايشه تلك الأجندة الواسعة، والقائمة الطويلة، والتي محتواها: أن الآخرين يحيكون لنا مؤامرة كبيرة، ويتقصدوننا بالإساءة، فننظر إليهم على أنهم أعداء متربصون؛ حتى يؤدي ذلك إلى إسقاط الآخرين، وإسقاط الإنسان ذاته أيضاً، نتيجة عدم القدرة على قراءة النفس بطريقة صحيحة.

إن من القراءة الصحيحة اعتماد سلوك الإنصاف ,يقول عَمَّارٌ رضي الله عنه : ثَلاَثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ، وذكر: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ..، يقول ابن حزم: من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه، فإنه يلوح له وجه تعسفه.

والكثير من الناس عند التعامل يضع يده على طرف الكفة لترجح له بانتقائية عجيبة؛ فهو مع نفسه لون، ومع الناس لون آخر، وهذا تطفيف



معنوي نهى الله عنه، ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ (النور: ٤٩).

التعايش .. مصالحة مع الذات، ومن فقد ذلك اهتز لكل طارىء سواء أكان سياسياً أم اقتصادياً أم اجتماعياً .. فهو لا يأوي إلى ركن شديد من معرفة نفسه، ومعرفة ربه –قبل ذلك– بأسمائه وصفاته العلا، ولو تم له ذلك لأفلح وأنجح، ((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ))، والشدة هي الأزمة، ولا يتعلق الأمر بالأزمات فقط، بل بالأحوال المستقرة أيضاً.

لقد وضع الله سبحانه وتعالى الأرض للناس، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (الرحمن: ١٠) نعم: الأنام =(الناس) كلهم، وليس للمسلمين فقط، وهذه الأرض تشهد تغيرات هائلة، وتحولات حادة على كافة الصُعد، والله عز وجل عالم بها وبما سيحدث فيها، وعلم الرسل والأنبياء بأن طريقهم في التعامل مع عوالم هذا الأرض ليست الرفض المطلق، حتى لو كان الأمر خطأً محتملاً، فعملهم مقرون بالقدرة، والإجماع منعقد على أن الواجبات الشرعية مرهونة بها، وكان النبي ﷺ يقول لمن يبايعه على السمع والطاعة: ((فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ))، ومن الخطأ أن يتجاهل الإنسان الواقع منطلقاً من رؤية خاصة به يمنحها أدلة شرعية؛ فالإسلام يتعامل مع الواقع وبطريقة واقعية أيضاً، ولم يفترض عالماً مثالياً خالياً من الاضطرابات والمظالم والأخطاء لكي يتعامل معه.

إن العجب ليأخذ المتأمل كل مأخذ من هذا النبي – عليه الصلاة والسلام– الذي أقام ملّة، وأنشأ دولة، وأحيا الله به قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وأعيناً عميا– عندما يترك بناء الكعبة على وضعها الذي يراه مجانباً للصواب؛ خشية حصول مفسدة أعظم، وأن القوم حديثو عهد بجاهلية.



وفي صلح الحديبية مسح البسملة ، وأبدلها بـ «بسمك اللهم» ، ومسح لفظ «رسول الله» وأبدله بمحمد بن عبد الله.

إن النبي ﷺ يعلم أنه رسول الله، وأن بسم الله الرحمن الرحيم شريعة، ولا مزايدة على ذلك؛ لكن قضية التعايش مع الآخرين ومع الواقع بآلياته لا يعني الاعتراف بالخطأ أو تبريره أو فقدان الهوية والضياع، إنما تعني أننا نعيش واقعاً ويجب أن نفكر مليّا ، وأن ندرس عملياً وشرعياً كيف نتعامل مع هذا الواقع بطرق سليمة، تحقق المصلحة وتدفع المفسدة، وهذا ما تختلف فيه مدارك الناس ومشاربهم وتصوراتهم.





الحوار الإسلامي ـ المسيحي
التطوير والآفاق

د. رضوان نايف السيد

أستاذ الدراسات الإسلامية

بالجامعة اللبنانية





البدايات:

بعد الحرب العالمية الثانية، وفي سياقات الحرب الباردة، بادرت الكنائس البروتستانتية الأمريكية الكبرى للاتصال بالمسلمين، للبحث في العلاقات مع الإسلام من جهة، ومحاولة خرط المسلمين في الصراع ضد الشيوعية وتحت عنوان شراكة الإيمان في مواجهة الإلحاد والشمولية .

وانعقدت لذلك عدة مؤتمرات في لبنان، شاركت فيها شخصيات إسلامية ومسيحية عربية أرثوذكسية، وبرز الخلاف منذ البداية في الموضوعات والأولويات وشروط التعاون والاعتراف المتبادل.

فقد رأى بعض المسلمين المشاركين أنه وإن يكن المعسكر الشيوعي ملحداً ؛ فإنه لا أولوية لدينا لمعاداته لأن مشكلاتنا مع العالم ليست مشكلات دينية، بل هي مشكلات احتلال واغتصاب وامتهان لكرامة الإنسان وحقوقه مثلما حدث في الجزائر قديماً، وما حدث بفلسطين . وموقف الاتحاد السوفيتي في مساندة العرب على استعادة حقوقهم أفضل بكثير من موقف الولايات المتحدة والدول الغربية بشكل عام.

ثم إن شراكة الإيمان تقتضي شراكة في القيم الأخلاقية الكبرى ، ومرة أخرى فإن الدين والأخلاق يقتضيان العمل معاً من أجل إحقاق الحق، والإسهام في إقامة السلام العادل، ومن ذلك قضية فلسطين، وقضايا التحرر من الاستعمار.

وكان هناك أيضاً من المشاركين من أدرك استمرار جهود ونشاطات التبشير



في أوساط المسلمين في بقاع عديدة من آسيا وأفريقيا .

بيد أن الأجواء ما ظلت تصادمية في الستينات، بعد ظهور مجلس الكنائس العالمي الذي يضم الكنائس البروتستانتية والأرثوذكسية ، ثم مجلس كنائس الشرق الأوسط، وصيرورة المؤتمرات أكثر انتظاماً وموضوعية.

ويبدو من البيانات الصادرة ما بين الستينات والثمانينات من القرن الماضي التأكيد على الميراث الإبراهيمي الديني والأخلاقي، والاهتمام بقضايا العدالة والحرية في العالم الثالث، والدعوة لنظام عالمي يصنع عالماً أكثر سلاماً وأمناً، ويؤمن حلاً للقضية الفلسطينية، ويزيل أخطار الحروب في منطقة الشرق الأوسط، مهد الديانات السماوية.

وبدأ الحوار مع الكنيسة الكاثوليكية على أسس أكثر وضوحاً وثباتاً. فبعد المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ـ١٩٦٥) والذي اعتراف باليهودية والإسلام باعتبارهما دينين توحيدين، وبقابلية أتباعهما للنجاة يوم القيامة بسبب ذلك، أقبل الفاتيكان على إرسال بعثات ووفود وإقامة مؤتمرات، وكان الكاثوليك أكثر ميلاً وحرصاً من البروتستانت على التحدث إلى جهات رسمية وشبه رسمية إسلامية في العالمين العربي والإسلامي، كما بدوا أكثر ميلاً للحديث في المعاني والقيم الروحية المشتركة والمتبادلة من ضمن الميراث الإبراهيمي.

وفي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي دعم الكاثوليك أيضاً إنشاء معاهد ومراكز للدراسات المسيحية ـ الإسلامية والحوار المسيحي/ الإسلامي في لبنان ومواطن أخرى. واشتهر معهدهم بالفاتيكان ، ومراكزهم بأوروبا بالانفتاح على الحوار، والسعي لتحقيق إيجابيات من خلاله.



والواقع أن التحاور مع البروتستانت والكاثوليك ، لم يبدأ سياسياً مغلفاً بالدين فقط، بل ظل الجانب السياسي أيضاً ملحوظاً على مدى العقود الماضية.

فالقدس بالنسبة للمسيحيين عموماً تشكل ركيزة من ركائز مقدساتهم، مثل سائر فلسطين التي عاش على أرضها السيد المسيح .

ثم إن المسيحيين في لبنان وسورية والعراق، ظلوا موضع اهتمام من جانب الفاتيكان ، رغم أن الأرثوذكس أكثر عدداً من المسيحيين العرب.

بيد أن المسلمين لم يفيدوا كثيراً من مجريات الحوار مع المسيحيين على مدى خمسين عاماً، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: ما كان الحوار مع الفاتيكان أو البروتستانت يوماً مشروعاً للمسلمين إذ لم يتم بمبادرة منهم، بل كان البروتستانت أو الفاتيكانيون يأتون لزيارة الجهات الإسلامية ، والتحدث إليها ، أو يدعون أفراداً من المسلمين إلى مؤتمرات غالباً ما يحددون هم جدول أعمالها.

ثانياً: وما أحدث الحوار على مدى عقود متطاولة حركية ملحوظة لدى المسلمين باتجاهه أو اهتماماً دراسياً . فهو لم يكن مشروعهم، وهم إنما كانوا يستجيبون أفراداً أو جهات لدعوات من الجهات المسيحية الكاثوليكية أو البروتستانتية . وفي حالات أخرى وقبل اضطراب الوضع بلبنان ، كان كبار رجال الدين من الفريقين يأتون إلى بيروت ، ويستقبلون وجهاء مسلمين من مختلف طوائفهم ، أو ينهمكون في الإعداد لمؤتمر ما يلبث أن ينعقد ويناقش ويصدر بياناً.



وما تحول المسلمون إلى المبادرة في السبعينات والثمانينات، ربما بسبب تصاعد تيارات الإحياء الإسلامي، والتي تفضل الإقبال على الذات وصون الهوية، ولا تقبل المراجعة أو الإصغاء للآخر. وهذا فضلاً عن الضعف العام في المؤسسات الإسلامية التعليمية والثقافية والاجتماعية، بحيث ما كان بوسعها مجاراة الكنائس في الدعوة للحوار أو إقامة المؤسسات له. وقد كانت خطوة محمودة إقدام عرب مسيحيين ومسلمين على تكوين الفريق العربي للحوار، أي للتحاور بين المسلمين والمسيحيين العرب.

ثالثاً: تراجعت اهتمامات الحوار ونشاطاته منذ أواسط التسعينات من القرن الماضي دون أن تنقطع ، وذلك بسبب الإحساس بعدم رغبة المسلمين أو حماسهم، ولأن الأصولية تصاعدت وتيرتها وصولاً إلى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

رابعاً: ظهور مشكلات كبرى في الكنائس البروتستانتية التقليدية ، إذ تفشت فيها الأصوليات (الإنجيليون الجدد) ففقدت وجهتها، وما عادت لديها استراتيجيات بعيدة المدى ، كما كان عليه الأمر حتى أواخر الثمانينات من القرن الماضي. أما في الفاتيكان فإن دعوة المجمع الفاتيكاني الثاني ضعفت بسبب الفوضى التي أعقبت سقوط الاتحاد السوفيتي، واتجاه الولايات المتحدة للتفرد، وصعود الأصوليات في البروتستانتية والإسلام.

●●●

خاض المسلمون وطوال خمسين عاماً تجربة للحوار مع الكنائس المسيحية، كانوا فيها دائماً مدعوين لا داعين، وما كانوا يرون في تلك التجارب مصلحة



قوية أو حاكمة فضلاً على أنه في كثير من الأحيان فإن المشاركين من المسلمين كانوا أفراداً غير مختصين أو لم يتابعوا بعد نهاية المؤتمر أو اللقاء، ثم إنه ما كانت هناك استراتيجية ذات أهداف محددة ووسائل ملائمة.

ولذا فإنه وبمناسبة دعوة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز لحوار الأديان، ولأن المسلمين بحاجة بالفعل لمسار جديد في العلاقة بالعالم ودياناته، والعالم وثقافاته، يمكن تقدير المقترحات التالية لتطوير الحوار وفتح آفاقه:

أولاً: إمكان اعتبار دعوة الملك عبد الله بن عبد العزيز للحوار مبادرة تخرجنا من حيز المستجيب أو المستنكف إلى حيز الداعي والمبادر. وهذا موقع أفضل بما لا يقاس، لأنه يتيح تحديد الاحتياجات والأهداف، ووضع استراتيجية ليس لصون المصالح وحسب، بل ولتطويرها. وهذا التطور هو الأول والأبرز في المرحلة الجديدة التي دخلناها، والتي ينبغي الإصرار على السير فيها.

ثانياً: سيطرت على علاقات المسلمين بالعالم في العقد الأخير خطابات وسياسات المواجهة، وذلك لسببين: صعود التطرف باسم الإسلام والذي أفضى إلى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ومئات الأعمال الإرهابية الأخرى، وأكثرها في ديار العرب والمسلمين. والسبب الثاني الهجمات الثقافية والعسكرية على دين المسلمين وأرضهم وحرماتهم، في سلسلة من الأفعال وردات الفعل، التي نشرت الخراب، وأعمت الأبصار والبصائر. والدعوة للحوار هي المنطق الثالث إذا صح التعبير.



إنها ليست منطق الهجوم والاعتداء، ولا منطق رد الفعل والدفاع . بل إنها مبادرة تريد الإسهام في تصحيح الموقع ، والاندفاع باتجاه المشاركة مع العالم وفيه، وفي تقدمه وأمنه، وهذا هو الشأن التطوير الثاني. شأن بناء الجسور التي هدمتها الخصوم أو هدمناها بأنفسنا في مراحل الحصار والقطيعة، فبالحوار نحن نخرج من الخنادق أو الحصون إلى العلن والضوء.

ثالثاً: والتطوير الثالث المطلوب يقتضي تحويل الجهد الحواري إلى عمل مؤسسي . فقد كان العمل الفردي أو المتقطع أو المنقطع هو مشكلة المرحلة الماضية. ولذلك ما أدى الحوار إلى نتائج كبرى أو مؤثرة بالنسبة لنا على الأقل. وأول مهمات المؤسسة بناء المعرفة الحقيقية الواقعية بالذات وبالآخر. ومعرفة كهذه تقوم على التوثيق والمراكمة والنقاش واللقاءات والوصول في النهاية إلى رسم سياسات بالانفراد وبالمشاركة، والحق أن ما ينقصنا ليس المعرفة بالآخر المسيحي واليهودي والعالمي وحسب ، بل تنقصنا أيضاً المعرفة الواقعية بالذات وبالإمكانيات وبالقدرات . فالتطوير المطلوب السير في بناء المؤسسة التي تتولى تحديد الأهداف والتخطيط لكيفيات بلوغها.

رابعاً: والتطوير الرابع المطلوب تحديد الأولويات .

أ ـ كان الحوار من قبل مسيحياً ـ إسلامياً وهو اليوم كذلك . لكن المحاورين من المسلمين كانوا يصرون على تجنب الموضوعات العقدية والدينية البحتة خوفاً من الجدال. وهذا الأمر ما عاد ممكناً ، فهناك مسائل كثيرة يؤدي فيها الفهم المعين للدين دوراً سلبياً أو إيجابياً . ولذلك فإن الموضوعات الدينية البحتة لا يمكن استبعادها ، لكن لابد من تلمس



المشتركات الكبرى فيها بالمقارنة وبالتفهم، وبالتأكيد على الميراث الواحد.

ب ـ كان البروفسور هانس كينغ قد قال : لا سلام بين الأمم بدون السلام بين الأديان. ولا سلام بين الأديان بدون حوار. ولا حوار إلا على أساس وجود أخلاق عالمية مشتركة.

لكن في الأعوام الأخيرة ، وبسبب الحملة على الإرهاب ، تقزم الموضوع الأخلاقي الكبير إلى حدود الإصرار على عدم استخدام العنف، وخاض المسلمون بالفعل جدالات ومشكلات دفاعاً عن الإسلام في مواجهة الاتهام بالعنف، والمطلوب من أجل التطوير العودة إلى الموضوع الأخلاقي الكبير المتعلق بالصبغة الإنسانية لصون الإنسان والبيئة والحياة.

ج ـ والموضوع الأخلاقي لا يتناول وحسب مشتركات القيم الكبرى كما جاءت في الكتب المقدسة والآثار . بل هو يتناول أيضاً فقه الإنسان، والذي أسهم الفقهاء المسلمون بتطويره من خلال مقولة الضروريات الخمس (الشاطبي) وهي التي تضع تلك المبادئ بين الحقوق والالتزامات والتكاليف. وقد قال الشاطبي بعد ذلك : وقد قيل إنها مراعاة في كل ملة . وبذلك نعود إلى موضوع القيم والاشتراك.

د ـ وعلى الموضوع الأخلاقي تتأسس بقية المعاني المتعلقة بحريات الإنسان وحقوقه، وقد تستطيع الجهات المسيحية المشاركة إحراجنا هنا بذكر مسائل مثل الحرية الدينية، والعلاقة بين الدين والدولة من باب عدم القول بالدولة الدينية، وتقتضينا الشفافية أن نقول أن مسائل الحرية الدينية يدور



عليها في مجالنا الحضاري نقاش كثير لكنها لم تجد حلاً بعد. وفي عوائق الدين بالدولة ، فإن تجربتنا الكلاسيكية عرفت انسجاماً شبه كامل بينهما في أكثر الفترات لكن العقود الأخيرة تشهد نزاعات متفاقمة بين الطرفين أو الأطراف المتعددة وليس بالتجربة الكاثوليكية بأفضل في الموضوعين من التجربة الإسلامية ولذا لابد من تشاور عميق في هذين الموضوعين ، وفي موضوع المعاملة بالمثل في بناء المساجد والكنائس.

خامساً: والأمر الخامس الذي يدخل في باب التطوير دور المسيحيين العرب فيما نحن مقبلين عليه من حوار . ففي الحوارات السابقة كانوا يحضرون معنا بدون تحديد لموقعهم. أما اليوم فبحكم الخبرة ، وبحكم الالتزام ، لابد من مشاركتهم لنا بالصيغة التي يرونها مناسبة . وكما سبق القول فهم يملكون المعرفة والخبرة والالتزام.

سادساً: والكنيسة الكاثوليكية التي نقبل على الحوار معها بالأولوية مؤسسة هرمية ومركزية ، وهي الدين الوحيد الذي لم تظهر فيه أصوليات متمردة. وهاتان خصيصتان ما جرت مراعاتهما من جانبنا من قبل، فيدخل في باب التطوير الاهتمام بهذين الأمرين، من أجل فتح الأفق، ومن أجل اختيار الوسائل المناسبة للوصول بالحوار إلى أهدافه المفيدة للجميع.

الحوار "بين الأديان" ومشروعيته في الإسلام

د. سعيد إسماعيل صيني





المقـــدمـــة:

لقد أصبح الحوار عبر الحضارات تقليعة اشتغل بها الأفراد والمنظمات والدول. ولا أظن أن هناك أحداً لا يعرف شيئا عن الحوار أو لم يستعمله في حياته أو ينكر استعماله.

بيد أن البعض ينكر أشكالاً محددة منه، مثل: علم الجدل اليوناني[(١)] وعلم الكلام في المسائل العقدية[(٢)] والمناظرات الفقهية[(٣)] والحوار بين الأديان أو أصحاب الأديان[(٤)] مستندين إلى فهم معين لهذه الأشكال.

ومن جهة أخرى، فإن أحمد بن عبد الرحمن الصويان يدلل على مشروعية الحوار ببعض النماذج من القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الصحابة[(٥)].

وبعد أن يورد يحيى زمزمي أقوال العلماء في علم الجدل والمناظرة الذي يتأرجح بين الإباحة والكراهية يخلص إلى القول بأنه "على أهل الإسلام من العلماء والدعاة وطلبة العلم من أهل السنة والجماعة أن يعنوا بمثل هذا الموضوع..."[(٦)] ويضيف أيضا بأن "حكم الجدال والحوار والمناظرة، يرجع إلى القصد منه والغرض من استعماله. فإن كان بالحق وللوصول إلى الهدى والصواب

---

(١) محمد حسني الزين ص ٣٦-٣٩؛ حسن عزوزي ص ٧٣-٨١ يجمع بعض الأقوال في الموضوع.
(٢) العبدة و عبد الحليم ص ٤٠-٤٥ ، وينظر ابن تيمية
(٣) حجة الإسلام الغزالي ,إحياء علوم الدين ج١: ٤١-٤٨ .
(٤) مؤتمر الرابطة مجلة التوعية الإسلامية في حديثها عن الدعوة إلى وحدة الأديان ص ٢١٢-٢٢٢ .
(٥) الصويان ص ١٨-٢٧ .
(٦) يحيى زمزمي ص ٤٠ وانظر ص ٣٢-٤٧ .



ولكشف الباطل ودحض الشبهات فهو مباح جائز، وربما كان واجبا إن كانت الحاجة ملحة... "[(١)] بيد أنه يعود فيحذِّر من "الحوار بين الأديان" و"مشروعات السلام..." فهي "مؤامرات هزيلة" وأن جوهر هذه الدعوات "هو أن يحصل بعض أصحاب الأديان على "الاعتراف من المسلمين بصحة دينهم"[(٢)].

ويصنف إبراهيم الحوار بين الإسلام والدين المسيحي في ثلاثة أنواع: حوار تنصيري، وحوار تعارف، وحوار تقارب تتخلله مظاهر تلفيقية، مثل الاتفاق على شهادة من سبع نقاط مأخوذة من المسيحية والإسلام، أو حضور المؤتمرين صلاتين إحداهما في الكنيسة والأخرى في المسجد أو بترديد دعاء ملفق من القرآن الكريم والزبور...[(٣)] ويرى القاضي بأن الحوار مع أتباع الأديان الأخرى يجوز فقط في القضايا التي لا تتعلق بالدين مثل التعايش.[(٤)]

ويشترط للاشتراك في ندوات الحوار بين الأديان أن تُستغل للدعوة إلى الإسلام، وأن لا يرتبط موعد الندوة أو المؤتمر بمناسبة دينية غير إسلامية، وأن لا يشترك المسلم في طقوس دينية جماعية مثل الدعاء من أجل السلام العالمي برئاسة البابا مثلا[(٥)].

ويقول صيني بأن الحوار بصفته وسيلة للاتصال والتعامل فإن الإسلام يرى أنه سنة من السنن الكونية التي لا تكون الحياة البشرية بدونها ولا تنتعش

(١) يحيى زمزمي ص ٧١، وانظر الصفحات ٦٠-٧٠ .

(٢) زمزمي ص ٥١٥؛ ويشير إلى أنه استفاد هذا القول من العلياني ص ٤٤٩ .

(٣) إبراهيم، الحوار الإسلامي المسيحي. ومثال للأبحاث التلفيقية التي تقدم في مثل بعض المؤتمرات المبكرة ورقة خضر التي تتحدث بروح المسيحية الغامضة وتستشهد بالآيات القرآنية.

(٤) القاضي ص ١٤-١٦ .

(٥) القاضي ص ٩٠-٩١ .



إلا بها. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣)(١) والتعارف يتطلب الحوار بأشكاله المختلفة. فالمخلوق الحي لا يمكنه أن يتجنب الحوار التلقائي المدمج في المعاملات التي تجري في الحياة اليومية بين أصحاب الديانات والحضارات المختلفة، والتي يستخدم فيها الأطراف المشتركة فيه وسائل التعبير اللفظية وغير اللفظية، عن قصد أو بطريقة عفوية. بيد أنه لا يجوز للمسلم التنازل عن شيء من عقيدته ومبادئه الإسلامية باسم المشاركة في الحوار بين الشعوب أو الأديان...

وبهذا نلاحظ أن هناك اتجاهين: اتجاه يميل إلى الإنكار على بعض أشكال الحوار، واتجاه يرى ضرورته عموما. وهذه الحقيقة تطرح عدداً من التساؤلات، منها:

١- ما المقصود بالحوار؟

٢- ما المقصود بالحوار بين الأديان؟

٣- ما موقف الإسلام من الحوار بعامة؟

٤- ما موقف الإسلام من "الحوار بين الأديان"؟

وللإجابة على هذه التساؤلات سيتم استقراء نصوص القرآن الكريم ونصوص السنة ومعاجم اللغة للتعرف على مدلول كلمة "الحوار" وصفاته وأنواعه إذا كان هناك أكثر من نوع. ثم يتم استنتاج حكمه في القرآن الكريم والسنة النبوية الموثقة مع الاستشهاد بفعل الصحابة وأقوال العلماء. وعموما

---

(١) صيني، الحوار بين الحضارات، دمشق؛ تأصيل الحوار وانظر
Sieny, Muslim and non-Muslim Relation pp 44-53



فإن الدراسة تستند بدرجة كبيرة على كتاب "الحوار النبوي مع المسلمين وغير المسلمين" ومشاركات الباحث في بعض ندوات ومؤتمرات الحوار عبر الأديان. وسوف تتم الإجابة على هذه التساؤلات في ظل العناوين الرئيسسة التالية: المقصود بالحوار، المقصود بالحوار بين الأديان، موقف الإسلام من الحوار عموما، موقفه من الحوار بين الأديان، توفير البيئة المناسبة لنجاح الحوار.

المقصود بالحوار:

لقد وردت في القرآن الكريم إشارات عديدة إلى أشكال من الحوار. فهناك الحوار بين الله تعالى وملائكته قبل خلق آدم عليه السلام(١) وبينه سبحانه وتعالى وبين إبليس بعد خلق آدم(٢). وعندما نستقريء مدلول كلمة "الحوار" واستعمالاته في نصوص الكتاب والسنة ونعود إلى معاجم اللغة نجد أن الحوار بمعناه الواسع يعني المراجعة والتفاعل بين طرفين أو أكثر تتبادل فيه الأطراف المتحاورة المشاعر والاحتياجات والآراء والأفكار والمعتقدات(٣).

ويُفترض في الحوار بين المخلوقات وجود نوع من التكافؤ بين الطرفين من زاوية واحدة على الأقل. وهذه الزاوية هي وجود احتمال لأن يؤثر كل طرف على الآخر أو أن يتأثر به. فيندرج في الحوار أن يقول شخص شيئا أو يفعل شيئا ما فيقول الآخر شيئا أو يفعل شيئا كرد فعل له مع وجود احتمال لأن يؤثر رد الفعل هذا على الطرف الأول... وهذا صحيح حتى بالنسبة للحوار مع النفس والحوارات الافتراضية. ولا يندرج في الحوار طرفان أحدهما يقول

(١) سورة البقرة: ٣٠- ٣٣ .
(٢) سورة ص: ٧٥- ٨٥ .
(٣) ابن منظور، أنيس وآخرون.



شيئا فيردده الآخر كما هو، أو يفعل أحد الأشخاص شيئا فيقلده الآخر. ولا يندرج فيه أن يصدر طرف أمرا ثم ينفذه الآخر بدون نقاش.

ويندرج تحت كلمة "الحوار": المناقشة، المحادثة، االمباحثة، المفاوضة، المحاجة، المجادلة، المراء، المناظرة، المباهلة...[١] وهي في الحقيقة أنواع من الحوار، لكل منها بعض الصفات المميزة. فالمناقشة لا تحتاج دائما إلى طرف آخر. والمفاوضة تخدم الوصول إلى حلول وسط قد ترجح فيها كفة الأقوى، أي الطرف الذي يحتاج إليه الآخر أكثر، أو الأكثر مهارة في المفاوضة. وأما المحادثة فتتسم بالتلقائية وقد تكون للترفيه. أما المحاجة، والمجادلة، والمراء، والمناظرة، والمباهلة فيجمع بينها سيطرة روح التحدي فيها بين الأطراف المتحاورة. وهي تتفاوت من حيث الشدة، ولعل أشدها المباهلة التي تعني أن يدعو الطرفان على أن لعنة الله على الكاذب منهما[٢].

ومن زاوية أخرى، فإن الحديث عن "الحوار" ينبغي أن لا يغفل عددا من العناصر.

العناصر الرئيسية للحوار:

يتكون "الحوار" من عناصر رئيسية، وهي عموما تتمثل في التالي:

١- المتحاورون.

٢- أهداف الحوار.

٣- مضمون الحوار.

٤- الحوار وسيلة اتصال.

---

(١) صيني، الحوار النبوي ص ٧٣-٧٥، صيني، الإسلام والحوار بين الحضارات.

(٢) صيني، الحوار النبوي ص ٥٩-٧٥ .



٥- طريقة الحوار.

٦- الحوار علم وفن.

المتحاورون:

عندما نتحدث عن المتحاورين من البشر فالمقصود البشر جميعا. قد يتشابهون في صفات كثيرة وقد يختلفون في أمور كثيرة ذات علاقة بالحوار، وذلك بسبب اختلاف ثقافتهم وحضارتهم والجماعات التي ينتمون إليها. وهذه الانتماءات قد تكون ذات حدود معلومة واضحة (دينية، سياسية) أو حدود غامضة فكرية (محافظ، متحرر) أو انتماءات رأسية، وراثية (عشيرة، قبيلة) أو أفقية (الجمعيات، المؤسسات). ومن المحاورين من هم أكفياء في موضوع المحاورة، وفي فن المحاورة ومنها آدابها، ومنهم من تنقصه الكفاية في أحد الجانبين أو في كليهما.

ومن الخطأ اختيار المتحاورين في الحوارات الرسمية في ضوء الكفاءات الوراثية أو المكتسبة التي لا علاقة لها بالكفاية في الموضوع أو المهارة الحوارية.

أهداف الحوار:

قد تتفق أهداف المتحاورين بنسبة معينة، مثل حل خلاف وإيجاد تفاهم حول قضية مختلف فيها، ولكن يغلب على المحاورات باختلاف أنواعها أنها تتعدد وتختلف من طرف إلى آخر. فهناك من يدخل في حوار بغرض التسلية وآخر بغرض تنمية المعرفة؛ وهناك من يريد تحقيق مصالح خاصة به أو بالجماعة التي يحاور بسمها وقد تضر بمصلحة الطرف الآخر؛ وهناك من يريد النصر لمن يتحزب له أو للرأي أو العقيدة التي يتحيز لها...



وقد يكون هدف الحور هو محاولة طرف إقناع الطرف الآخر بما يعتقده أو يراه، وقد يكون الحوار خصومة حول شيء. وقد يكون الهدف من طرف هو الشكوى والتظلم وهدف الطرف الآخر توضيح الحقيقة أو التهدئة؛ وقد يكون الهدف إنجاز شيء أو تطوير فكرة...

وقد يكون الحوار بدون هدف محدد، أي حوار عملي تلقائي ومدمج في التعامل اليومي في أمور الدنيا بين أصحاب الأديان والحضارات المختلفة، مثل الاتصال التبادلي الذي يحدث أثناء إنجاز عمل لأحد الطرفين أو لصالح الطرفين أو لطرف ثالث. ويندرج فيه جميع أنواع السلوك أثناء التعامل الروتيني اليومي بين الجيران والزملاء في الفصل الدراسي أو المصنع أو المتجر أو المكتب أو حتى في اللقاء العابر في الشارع وفي الفندق والمطعم وفي الحافلة. فنحن -عمليا- نتحاور أثناء تبادل التحية وأثناء البيع والشراء وأثناء أداء أي عمل جماعي، تختلف فيه وظيفة كل فرد عن الآخر. وبهذا يتضح أن طرق التعبير في الحوار تتعدد لتشمل جميع وسائل التعبير اللفظية وغير اللفظية، ومنها السلوك الطبيعي وجميع وسائل التعبير الفنية.

وهذا النوع التلقائي أكثر فعالية من كثير من المحاورات اللفظية المرتبة مسبقا بين قادة الفكر لتنمية الاحترام المتبادل والعيش بسلام والتعاون بين أتباع الأديان المختلفة. فهي محاورات عفوية عملية، ترتكز على الفطرة البشرية وعلى المصالح المشتركة، وتجري في الواقع وليس فقط في الأذهان أو على صفحات الورق في شكل قرارات وتوصيات.

والحقيقة، لولا تدخل بعض القيادات التي تستغل الاختلاف لتحقيق



المصالح الشخصية، مثل كسب الشعبية أو كسب مصالح مالية... لعاش الناس مع اختلاف أديانهم في سلام ووئام في الغالب. ومن المؤكد أن الإسلام يحث على الحوار الذي يهدف إلى الإصلاح بين الناس وتأليف القلوب وخلق روح التعاون في سبل الخير.

مضمون الحوار:

تتنوع موضوعات الحوار بحيث يشمل كل ما يخطر في الذهن بالنسبة للحوار الفردي أو الجماعي التلقائي. أما موضوعات الحوار الرسمي المرتب له فتكون في العادة محددة ومختارة في ضوء أهميتها. وتتفاعل هذه الموضوعات مع طبيعة الأهداف المرسومة مسبقا، بحيث يصعب الفصل بينهما. فقد تكون في مجال السياسة أو الاقتصاد أو التعليم أو أمور الدين الإجرائية والتنظيمية...

الحوار وسيلة اتصال:

إن أول شيء يخطر في أذهاننا من حيث الشكل والمظهر هو الحوار اللفظي المرتب له مسبقا. ولكن هل الحوار -فعلا- يقتصر على هذا النوع؟ إذا تأملنا في الحياة من حولنا فإنه يمكننا جعل الحوار من حيث الشكل في ثلاثة أقسام رئيسة هي:

١ - الحوار اللفظي التلقائي بين الناس عموما.

٢ - الحوار اللفظي المرتب له مسبقا. والترتيب قد يأتي من طرف واحد أو بالاتفاق بين بعض المشاركين أو جميعهم.

٣ - الحوار السلوكي بوسائل التعبير اللفظية وغير اللفظية المدمج في التعامل اليومي بين الناس عموما من أصحاب الديانات المختلفة.



الحوار فن وعلم:

إن أصل الحوار سلوك فطري، قد يمهر فيه البعض لامتلاكهم موهبة فطرية فيه، أو لقيامهم بتدريبات مضنية في الغالب. فأصله الممارسة التلقائية ثم وُضعت له بعض القواعد (العلم) المستنتجة من الممارسات الجيدة.

ويعرف حاجي خليفة "الجدل" بقوله: "علم باحث عن الطرق التي يقتدر بها على إبرام ونقض"[1] ويسميه العميرين في بعض المواضع من مؤلفه "فن الجدل"[2] وكان اليونانيون أول من اعتنوا به، وظهر باسم الجدل بصفته فرعا من المنطق اليوناني وأداة من أدوات التفكير العقلاني، ليسهم في تنمية الفلسفة اليونانية وتنقيحها[3].

وأما علم الكلام الذي يعنى بمسائل العقيدة فقد أنشأه بعض المسلمين في محاولة لرد شبهات أعداء الإسلام بأساليبهم المنطقية نفسها، مستفيدين بما يزخر به القرآن الكريم والسنة النبوية من الأدلة العقلية، ومستفيدين أيضا مما وصل إليهم من التراث اليوناني أو المسيحي (علم اللاهوت) المتأثر بالمنهج العقلي اليوناني. غير أن هذا التوجه غالى في اعتماده على العقل حتى جعله أحيانا حكَما على النقل الموثق فانحرفوا عن الصراط المستقيم[4].

ثم جاء علم الجدل الفقهي أو المناظرة الفقهية. ويقول عنه ابن عقيل: إن

---

(١) خليفة، كشف الظنون ٢: ٥٧٩، ٧٢١، نقلا عن العميريني ص ٤٣ .

(٢) العميرين ص ١٤ .

(٣) Encyclopedia Britannica, dialectics، ابن خلدون، المقدمة ص ٤٧٥-٤٧٦ .

(٤) انظر مثلا: ابن خلدون، المقدمة ص ٤٢٩؛ صبحي ص ١٥؛ حيا الله ص ٣٨؛ النشار، نشأة الفكر ص ٥٤؛ عبد الحميد ص ١٠٣-١٠٩؛ حيا الله ص ٤١؛ صيني، الحوار النبوي ص ٨٠- ٩٧ .



النظر أو الجدل هو عبارة عن فتل الخصم عن مذهبه إلى مذهب آخر، ودفعه إليه عن طريق الحجة والاستدلال. وهذه الحجة قد تكون صحيحة وظاهرة، وقد تكون شبهة، وقد لا يعدو الأمر أن يكون شغبا، لهذا نشأ علم الجدل ولا بد له من شروط وآداب تحقق المقصود من المجادلة والمناظرة[١]. وهو يتكون من مجموعة من التعريفات للمصطلحات الرئيسة والقواعد التي تخدم عملية التمحيص في إطار الأدلة النقلية. ولم ينشأ هذا العلم إلا بعد أن تُرجمت الثقافات والعلوم اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية وبعد قرون من نشأة علم الكلام وعلم أصول الفقه[٢].

المقصود بـ" الحوار بين الأديان " :

إن عبارة " الحوار بين الأديان " أصبحت تتردد كثيرا في العقد الحالي وتقام لها الندوات والمؤتمرات. فتخيل البعض أنه حوار تفاوض حول التعاليم الدينية بين أتباع الديانات المشاركة فاتخذوا منه موقف الرفض. وقام البعض بتلطيف العبارة فأطلقوا عليه " الحوار بين أصحاب الأديان " أو " أتباع الأديان " ويتحمسون له.

والصواب يختلف عن هذا وذاك قليلا، وذلك لأن الحوار بين أصحاب الأديان كان موجودا منذ كانت هناك ديانات مختلفة وبشر من أتباع الديانات المختلفة يلتقون في مكان محدد. ومن أنواع الحوار حتى الرسمية: المحاورات السياسية، والعسكرية والاقتصادية، والتقنية والتعليمية... بل كان هناك حوار

---

(١) العميرين ص ٤٠-٤١، ٢٤٣ .

(٢) الألمعي، مناهج ص ٣١؛ حسن ص ٥١-٥٧؛ العميرين ص ٦٣-٧٧ .



في كافة مجالات الأنشطة البشرية، سواء أكان حوارا بين الأفراد غير رسمي أم حوارا رسميا. فما الجديد في "الحوار بين الأديان"؟

إن الجديد فيه أنه حوار يدور بين رجال الدين أو الدعوة من أصحاب الديانات المختلفة (ممثلي الأديان المختلفة) وليس بين سياسيين أو اقتصاديين، أو مهنيين... وحتى في حالة تمثيل السياسيين في مثل هذه الحوارات فإنهم يمثلون ديانتهم في الغالب. فالجديد ليس أنه حوار خاص بالدين، وليس أن المشاركين من أصحاب ديانات مختلفة.

ومن المعلوم أن لممثلي الديانات أهمية كبيرة لأنهم لا يمثلون دولا محددة، ولكن أديانا تنتشر في دول عديدة، ولأنهم قادة روحيين وفكر ومنهج حياة، مهمتهم الأساسية هي الإرشاد والدعوة إلى مبادئ مقدسة تؤثر في حياة الناس بدرجات متفاوتة بحسب نوع الديانة. ويتدرج هذا الأثر بين تكييف معتقدات الأتباع أو حياتهم كلها كما هو الحال في الإسلام.

وبالنسبة للتصور الأول، أي التفاوض حول التعاليم الدينية فإن من شاركوا في هذه الندوات والمؤتمرات يستبعدونه تماما. ويرون أنه حوار يأخذ أشكالا مختلفة وينطوي على أهداف متعددة بالنسبة لكل طرف يشارك فيه. ويقول إبراهيم[١] بأن المناظرات بين أصحاب الأديان كانت موجودة في صورتها الفردية منذ زمن طويل فإن عام ١٩٦٤ ميلادية يشكل نقطة بداية للحوارات الجماعية عبر الأديان. ففي هذا العام أصدر المجمع الفاتيكاني

---

(١) إبراهيم، الحوار الإسلامي المسيحي: رؤية إسلامية. وهو تقرير يسجل ما حصل في مؤتمرات عديدة، شارك فيها الدكتور عز الدين إبراهيم بنفسه وحضرها منذ ظهورها بصورة رسمية.



الثاني بيانا يذكر فيه الإسلام بخير لأنه يدعو إلى التوحيد وإلى الأخلاق العالية. كما يدعو البيان إلى فتح صفحة جديدة مع الإسلام يسودها التعاون وتصحيح الأفكار المغلوطة عن الديانتين والتعاون بين أتباع الديانتين في المجالات الفكرية والسلوكية والاجتماعية والسياسية. وبما أن من يصرف على هذه الندوات والمؤتمرات ويتبناها لابد أن يترك بصماته عليها أخذت هذه المؤتمرات الصور التالية:[١]

١- كانت هناك بصمات تنصيرية، ليس بمعنى تنصير المشاركين ولكن تعزيز مواقعهم في البلاد الإسلامية، مثل: محاولة الحصول على الاعتراف الرسمي بوجودهم في البلاد الإسلامية التي لم يكن لهم فيها وجود، والحصول على فرصة الدعوة فيها، ولا تزال هذه المحاولات تظهر من وقت لآخر. وفي المقابل فإن بعض المشاركين من المسلمين ينتهزونها فرصة للتعريف بالإسلام والدفاع عنه بتوزيع بعض المطبوعات المناسبة التي لا تدعوا إلى الإسلام بطريقة مباشرة ولا تهاجم الطرف الآخر. وهي حالة نادرة يجب تكثيفها انتهازا لفرصة الالتقاء بقادة الدين في الديانات الأخرى.

٢-تطورت هذه المؤتمرات الثنائية (المسيحية الإسلامية) لتعزز فكرة تبادل المتحاورين المعلومات والأفكار والحقائق في جو يسوده الاحترام المتبادل، وذلك للتخفيف من حدة العداء وتصحيح المعلومات المشوهة عن الأطراف المعنية.

٣-وتخلل بعض هذه المؤتمرات قليل من الجهود التلفيقية مثل محاولة

---

(١) إبراهيم، الحوار الإسلامي المسيحي، صيني، وله بعض المشاركات الحديثة على المستوى الرسمي.



تبني " شهادة " من سبع نقاط مأخوذة من الإسلام والمسيحية بدل الاقتصار على الشهادتين الإسلامية، أو بدء الاجتماع بدعاء من القرآن ومزامير داود. وعلى وجه العموم كان الطرف الإسلامي يرفضها. ومن المحاولات التلفيقية اقتراح حضور المشاركين صلاتين إحداهما في المسجد وأخرى في الكنيسة. وأحيانا هذا لا يعني بالضرورة المشاركة في الصلاة ولكن مجرد حضور مشاهدة. وفي الغالب كانت هذه المقترحات عن حسن نية، وذلك للمرونة الكبيرة التي تتمتع بها مسيحية اليوم في المعتقدات والعبادات والمعاملات بسبب ذوبانها في الفكر العلماني.

والملاحظ في السنوات الأخيرة أنه يغلب على هذه الندوات أو المؤتمرات أنها جهود لإيجاد التعاون للعيش بسلام في بيئة جغرافية واحدة أو على مستوى العالم بالتعاون في المجالات الاجتماعية، والتنموية، وفي الدفاع عن حقوق المظلومين. وبدأ هذا التوجه يبرز بشكل واضح، سواء أكان الممول أم المنظم للندوة جهات مسيحية أم إسلامية أم مشتركة.

ولعل من نتائج هذه المؤتمرات ما شهدناه مؤخراً من تعاطف الفاتيكان وعدد من الأساقفة ومنهم أسقف كانتربيري مع المسلمين في الإنكار على سخرية المؤسسة الصحفية الدانمركية على شخصية الرسول ﷺ [1] إضافة إلى ذلك لا يمكن إنكار جهود الفاتيكان في الحصول على تراخيص لفتح مزيد من الكنائس، ولاسيما في البلاد التي لا توجد فيها كنائس رسمية وفرصة الدعوة العلنية غير متوفرة.

---

(١) جريدة الوطن ص ٢٠ .



إضافة إلى هذه الصفات التي اتسمت بها ندوات الحوار بين ممثلي المسيحية والمسلمين فإنه يمكن تصنيف الحوار بين ممثلي الأديان المختلفة على المستوين الفردي والجماعي، العفوي (التلقائي) أو المنظم إلى الأصناف التالية:

١- حوار للتقريب بين ديانتين أو أكثر للبحث عن أشياء مشتركة، أو لإيجاد أشياء مشتركة (مثل دعاء مشترك مزيج من الكتب المقدسة عند الأطراف المتحاورة، جهد دعوي مشترك فيه دعوة إلى الأديان المشاركة معا) ومحاولة أحد الأطراف الحصول على اعتراف من الطرف الآخر بصحة ديانته.

٢- حوار يحاول فيه أحد الأطراف أو كلاهما إقناع الآخر بما يعتقد أنه الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى السعادة في الحياة الأبدية خاصة.

٣- حوار يحاول فيه كل طرف من الأطراف إثبات أن دينه هو الحق ودين الآخر باطل، أي مناظرة.

٤- حوار حول المعتقدات الدينية والتشريعات، ليس للتلفيق بينها أو الدعوة إليها، ولكن لإزالة الوحشة، ولتنمية الألفة وربما لتبادل المعلومات.

٥- حوار حول شؤون الحياة الدنيا عامة. ويهدف هذا الحوار إلى أن يتعرف كل صاحب دين على ما عند الآخرين مما يتفقون عليه، ليتعاونوا فيه مثل: محاربة الإلحاد والرذيلة والفساد والظلم والطغيان...[1] ويهدف إلى التعرف على المختلَف فيه، ليتم الاتفاق على مبادئ مناسبة للتعامل معه بطريقة تحقق السلام والرفاهية للجميع. وهذا يسهم بدوره في فتح باب التعاون المثمر للطرفين في مجالات الحياة المتعددة: الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية عموما.

(١) انظر مثلا: التويجري، الحوار من أجل التعايش ص ٢٠؛ الزقزوق ص ١٤٩٧ .



٦- حوار عملي تلقائي يجري أثناء التعامل اليومي أو الطارئ بين بعض رجال الدين والدعاة من أديان مختلفة، تستعمل فيه وسائل التعبير اللفظية وغير اللفظية.

ويلاحظ أن بعض هذه الأصناف قد تحدث في جو هادئ تسيطر فيه المجاملات والسياسة، وبعضها قد تأخذ أشكالا عنيفة مثل الصنف الثالث.

موقف الإسلام من الحوار بعامة:

من المعلوم أن الإنسان يعيش شبكة معقدة من الانتماءات يقصر عنها الحصر. وبعض أنواع هذه الانتماءات جبرية أو وراثية (صلة الرحم، والقرابة، وفئات الأعمار، ودرجات الذكاء الفطري...) وبعضها الآخر اختيارية أو مكتسبة (الانتماءات المهنية، وكثير من الروابط الاجتماعية مثل النوادي والجمعيات، والمؤسسات...) وبعضها يتأرجح بين هذا وذك (الثروة، والجاه).

ويختلف موقف الإسلام من اشتراك المسلم في المحاورة باختلاف طبيعة العناصر الرئيسية للحوار. وسيتم استعراض موقفه من الحوار بصفة عامة تحت العناوين التالية: القاعدة الأساسية في تحديد موقف الإسلام من الحوار، موقف الإسلام من العناصر الأساسية للحوار، توفير البيئة المناسبة للحوار الناجح.

القاعدة الأساسية في تحديد الموقف:

إن الحكم الصائب ليس إلا تفاعلا متقنا بين تشخيص الواقع واختيار النص أو النصوص المناسبة لتطبيقها أو الاستنباط منها أو القياس عليها. وكثير من الأحكام تجانب الصواب ليس للقصور في فهم النصوص ولكن للقصور في تشخيص الواقع.

لقد تبيّن من الحديث عن الحوار وأنواعه أن الإسلام لا ينكر الحوار، وذلك



لأنه ليس إلا وسيلة أو أداة. ومن المعلوم أن الأداة أو الوسيلة شيء محايد يمكن تسخيره للخير أو للشر. والحوار وسيلة اتصال أو مهارة نافعة مقننة يكتسبها الإنسان، وله إيجابيات كثيرة، ولبعض أنواعه واستعمالاته سلبيات أيضا. وللإسلام مواقف متعددة بحسب تعدد الأصناف. وسيتم الحديث عنها تحت العناوين التالية: الموقف وكفاءة المحاور المسلم، الموقف في ضوء الهدف، الموقف في ضوء المضمون، الحوار وسيلة اتصال، طريقة الحوار، الحوار علم وفن.

الموقف وكفاءة المحاور المسلم:

يختلف الحكم باختلاف طبيعة المحاور الآخر. فالمسلم يجوز له أن يحاور غير المسلم أو الجاهل في أي موضوع يتقنه، سواء أكان يتعلق بالعقيدة أم التشريع الإسلامي بالأساليب العقلية في محاولة لإقناعه بما شرع الله، أم كان الطرف الآخر متحدياً يريد أن يفند مزاعمه ويظهر باطله إذا لزم الأمر. أما بالنسبة للمسلمين فلا يجوز لهم أن يتجادلوا في بعض الموضوعات التي سيتم الحديث عنها لاحقا. ويمكنهم التحاور حول هذه الموضوعات المحظورة أصلا لبيان الحكمة من بعض المعتقدات والتشريعات حوار تعليم وتفكُّر. أما إذا لم تكن لدى المسلم المعرفة بالموضوع أو ليست عنده مهارة الإقناع بالأدلة العقلية والعاطفية فينبغي له أن لا يحاور فيها أحداً إلا عالما للتعلم. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء:٣٦).

الموقف في ضوء الهدف:

وفي الوقت الذي يذم فيه ابن تيمية علم المنطق اليوناني بما في ذلك الجدل اليوناني فإن له رأياً آخر في الجدل المنضبط بالضوابط الإسلامية. ويعبر عن



رأيه في المهارة في هذا النوع من الجدل واستعمالاته بقوله: "...فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بواجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين."[١] ويقول الشنقيطي إن أقل مراتب حكم المناظرة الجواز، إن كانت على الوجه المطلوب.[٢] ويعنون الويشي مقالاً له بـ" حوار الحضارات فريضة إسلامية وضرورة بشرية".[٣]

وكما هو ملاحظ فإن ابن تيمية يقرر بأن الحوار المسمى بالمناظرة واجب على المسلم القادر لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وهو جزء من مهمة العلماء. ولا يكون العالم قادرا على ذلك إلا إذا كانت لديه ملكة الحوار أو استطاع تنميتها بالتعرف على قواعدها والتدرب عليها.

فمن أهداف الحوار الدعوة إلى الإسلام، والوصول إلى الحق والرأي الراجح، وبيان الباطل وكشف شبهاته. وقد يكون الحوار لتثبيت المؤمنين بدحض الباطل، وللإرشاد والتعليم، ولحسم الخلاف، وللتقريب بين وجهات النظر، وللمساهمة في تأليف القلوب.[٤] كما أن الحوار نوع من المشورة بين المسلمين لتحقيق مصالحهم العامة، ويسهم في تنمية المعرفة وتنقيتها[٥] ويسهم في إيجاد الحل الوسط الذي يرضي الأطراف المختلفة، وفي التعرف على وجهات نظر الأطراف الأخرى المختلفة.[٦] فالحوار وسيلة

---

(١) ابن تيمية، فتاوى ج ٢٠: ١٦٤-١٦٥ .
(٢) الشنقيطي ج١: ٣٩، ج ٢: ٤ .
(٣) الويشي.
(٤) زمزمي ص ٤٢-٤٧؛ يلجن ص ٢٤-٢٥ .
(٥) الصويان ص ٦-٧، ٢٨-٤٠؛ اللبودي ص ١٦ .
(٦) بن حميد ص ٧ .



للتفاهم لا غنى عنه ووسيلة للتعاون والتنسيق بين الجهود المتفرقة والطاقات المبعثرة.[١] ويقول التويجري بأن الحوار يحقق التعايش السلمي بين الأمم والشعوب ويحقق لهم المصالح المشتركة.[٢] ولا أعتقد أن أحدا يخالف في ذلك. وكل ما سبق وظائف إيجابية لا يشك مسلم بأن الإسلام يحث على الحوار لتحقيقها.

فالقرآن الكريم يحث على الحوار لفض المنازعات بين الزوجين، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء:٣٥)

وأما ما ورد من ذم للجدل والمناظرات الفقهية بين المسلمين في بعض العصور خاصة، فذلك لأن الجدل والمناظرة أصبحتا في تلك العصور تقليعة بين بعض العلماء، في بعض مسائل العقدية لا يؤثر الاختلاف فيها على العبادات المشروعة أو المعاملات اليومية الملزمة للمسلم، وفي مسائل فقهية هي في الأصل ليست ذات خطورة. ومن هذه المسائل التي كانت تثير الشقاق والعداوة بين المسلمين صفات الخالق والغيبيات التي لم ترد فيها نصوص صريحة.

الموقف في ضوء الموضوعات:

هناك موضوعات لا يجيز الإسلام للمسلم الخوض فيها خوض جدال، وذلك لأن الجدل كما سبق تعريفه يتضمن المعارضة بالضرورة. وتشمل هذه الموضوعات جميع أوامر الله ونواهيه التي جاءت بأدلة قطعية الثبوت

---

(١) الشيخلي ص ١٥ .

(٢) التويجري، الحوار والتفاعل ص ٨ وانظر الحوار من أجل التعايش السلمي أيضا.



والدلالة، وبصورة جازمة، أي ما يمكن تسميتها بالثوابت.

والثوابت مشتقة من كلمة "ثبت" أي استقر في مكان واحد أو على حالة واحدة، أي صحّ وتحقق.[١] ويقابلها المتغيرات وهي القابلة للتحريك والتغيير. والثوابت الإسلامية هي قمة الثوابت عند المسلمين، وذلك لأن مصيرهم في الحياة الأبدية يعتمد عليها.

والثوابت من حيث المصدر ما ثبتت نسبته إلى الخالق (مثل القرآن والسنة، والفطرة السليمة). والثوابت من حيث الحكم فهي التي يوضحها الرسم التالي: [٢]

فرض---- مستحب---- مباح---- مكروه----حرام

وبعبارة أخرى، فإنه في ظل التصنيف المشهور للأحكام يمكن القول بأن الثوابت تقع في دائرة الفرض والحرام، أي أداء الفروض واجتناب المحرمات. وأما المتغيرات فتقع في دائرة المستحب الذي لا عقوبة منصوصة على تركه، والمباح، والمكروه الذي لا عقوبة منصوصة في فعله. ومن المعلوم أن الدين الإسلامي أو تعاليمه منهج للحياة في الدنيا ووسيلة لتحقيق الفلاح في الحياة الآخرة الأبدية. وتتكون من معتقدات يؤمن بها المسلم، وعبادات يؤديها، وتشريعات يطبقها، ومبادئ أخلاقية عامة يحث الإسلام على التمثل بها.

ومن زاوية أخرى، فإنه ينبغي التفريق بين جزأين من التراث الديني: النصوص المقدسة نفسها (مثلا القرآن والسنة)، وبين فهمنا البشري غير

---

(١) ابن منظور، لسان العرب؛ أنيس، المعجم الوسيط حرف الثاء.

(٢) صيني، إشكالية التعايش؛ ولدرجات الأحكام انظر مثلا: ابن الحاجب، أبو زهرة، الخلاف، الزحيلي.



المقدس، وذلك لاختلاف منهج التحقق من مصداقية النوعين. فالأول إذا ثبتت مصداقيته عن طريق رواة ذوي مصداقية عالية فإنه بمنأى عن تقييم العقل البشري المحدود له. وأما الثاني، أي الفهم البشري للنصوص، فهو من إنتاج العقل البشري وتتراوح مصداقيته بين درجة عالية وأخرى منخفضة جدا. وهذا يعني أن هناك منهجين مختلفين نحتكم إليهما لتحديد مصداقية التراث الديني. أحدهما خاص بالنصوص المنسوبة إلى الخالق ويعتمد على درجة مصداقية الرواة لتلك النصوص، والآخر يعتمد كلية على القدرات العقلية المحدودة للبشر، أي نقد المتن.

ومن زاوية ثالثة، فإنه ينبغي التفريق بين النصوص المقدسة التي تحتفظ بأصالتها، والنصوص المقدسة التي تعرضت للتحريف. فالأخيرة معرضة للتقييم بواسطة العقل البشري، مثلها مثل الاجتهادات البشرية في فهم النصوص المحتفظة بأصالتها. وهذا كان منشأ العلمانية في البيئات المسيحية، حيث تصادمت النصوص المحرفة عن الفطرة والعقل السليم. إضافة إلى كثير من الفهم السقيم لتلك النصوص.

ولعل من أبرز الموضوعات التي نهى العلماء عن المجادلة فيها صفات الخالق. فعلى المسلم الحق أن يؤمن بها كما جاءت في القرآن والسنة بدون زيادة ولا نقصان، لا يفسرها أو يؤولها عن معناها الظاهر في سياقها الظاهر الجلي، ولا يشبهها بصفات المخلوقين.(١)

وهناك موضوعات يكره بعض علماء المسلمين الجدال فيها مثل القضاء

(١) ابن تيمية، نقض المنطق ص ١ – ٢٤؛ وانظر مثلا: ولد أباه، إيسسكو؛ هاشم؛ في إيسسكو.



والقدر. أما الخوض فيها عن علم مع مراعاة ترجيح النقل في جميع الأحوال فقد أجازها كثير من العلماء، بل وكتبوا فيها، تعليقا على تساؤلات المتشككين أو المعترضين.(١) وليس عجبا أن يخوض علماء المسلمين فيه، فالمسألة ذات علاقة وثيقة بالتكليف والجزاء والعقاب.

وعموما فإن جميع الموضوعات الدينية والدنيوية قابلة للحوار التعليمي، أي الافتراضي، حيث يسأل أحد المتحاورين ويجيب الآخر من الكتاب أو من السنة أو من استنباطات العلماء منهما أو من هذه المصادر جميعا مع احتمال تأثر المتحاورين بما يرد أثناء الحوار. بل إن موضوع تطبيق بعض التعاليم الدينية قابل للحوار حوار تفاوض بين الأقلية المسلمة التي تعيش بين أغلبية غير مسلمة. ومثال هذه التعاليم الإسلامية ما يندرج في المعاملات وفي الحقوق العامة، كتطبيق الحدود في الدولة التي أغلبيتها غير مسلمة.(٢) فقد يكون ثمن الاعتراف بالإسلام رسميا ومنح المسلمين حق حرية العبادة وإقامة دور العبادة والدعوة إلى دينهم هو السكوت عن تطبيق الحدود بين المسلمين والتسليم للقانون العام للبلاد.

ولا يجوز للمسلم أن يجادل في أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه قطعية الدلالة والثبوت إلا مع غير المسلمين أو المتشككين بهدف إقناع الطرف الآخر، مع التأكيد على أن الحكمة من هذه التشريعات لا يعلمها ولا يحيط بها كلها إلا الله سبحانه وتعالى. أما تحليلات الإنسان وتعليلاته مهما بلغ هذا الإنسان من العلم فإنها مجرد اجتهادات بشرية تقبل الخطأ ولا يمكن الجزم بصحتها.

---

(١) انظر مثلا: ابن تيمية، ابن القيم، الرازي، إسماعيل، كشف الغيوم عن القضاء والقدر.
(٢) المجمع الفقهي، بيان مكة المكرمة.



ويشترط في هذا الإذن أن يوضح المحاور المسلم أن أدلته العقلية ليست ملزمة للإسلام وإنما هي توضيحات بشرية. فالله أعلم بمن خلق وهو أعلم بما هو أصلح لخلقه من التشريعات. والأصل أن لا يخوض المسلم فيها ابتداء ويجادل فيها من غير ضرورة سواء مع المسلم الجاهل أو مع غير المسلم.

الموقف من الحوار وسيلة:

سبق القول بأن الحوار من حيث هو وسيلة اتصال، ينقسم إلى: حوار لفظي تلقائي بين الناس، وحوار مرتب مسبقا، وحوار عملي. وعندما ننظر إلى موقف الإسلام من هذه الأشكال مجردة من أي سياق فإن الإسلام يرى أن الحوار سنة من السنن الكونية التي لا تكون الحياة البشرية بدونها ولا تنتعش إلا بها. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

لقد خلق الله الناس من أصل واحد؛ فهم جميعا يشتركون في أشياء كثيرة بالفطرة. ثم جعلهم يختلفون في أشياء ليتعارفوا. والتعارف لا يكون إلا بالاتصال ومنه الحوار بأشكاله المختلفة. وهذا التعارف سيدفعهم إلى التعاون والتنافس لكي يتمكنوا من تحقيق أقصى حدود السعادة في الدنيا فقط أو في الدنيا والآخرة معا. وجعل الإسلام التقوى المعيار الحقيقي الذي يفرق بين المتنافسين لكي يدركوا أن التنافس الحق ينبغي أن يكون على السعادة الأبدية في الآخرة.

وبعبارة أخرى، فإن بعض أنواع الاختلاف ضروري لسعادة البشرية في الدنيا والآخرة، مثل الاختلاف في المهارات الذي يسهم في توفير الاحتياجات البشرية المتنوعة بطريقة تكاملية. والحوار وسيلة فعالة للاتصال والتنسيق والتعاون بين المختلفين في القدرات والمشارب...



وعموما فإن أمثلة الحوار في القرآن وفي السنة وفي حياة علماء المسلمين كثيرة، ومن أمثلة الحوار في القرآن الكريم حواره تعالى مع مخلوقاته الملائكة عند خلق آدم وبعد خلقه(١) والحوار بين موسى والخضر عليهما السلام(٢) وحوار الأنبياء مع أقوامهم.

الموقف وطريقة الحوار :

لقد تبين في الحديث عن أشكال الحوار المختلفة أن منها ما هو مذموم لاتصافه بصفات مذمومة، مثل المراء؛ ومنها ما ينبغي اجتناب استعماله إلا للضرورة، مثل المناظرة والمباهلة. ومنها ما هو حيادي ولكن لا يصلح لكل الموضوعات مثل، المفاوضة. ومن المعلوم أن المحاورة التي يسيطر فيها روح التحدي أو الاستشارة المذمومة حتى مع الكافرين. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام:١٠٨)(٣).

ومن طريقة الحوار المنهي عنه الجدال ابتداء بعنف حتى مع غير المسلمين من أهل الكتاب. يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾(٤). ومن الجدال المذموم المجادلة عن جهل أو بالباطل وإن كان مزحا.(٥)

(١) سورة البقرة: ٣٠-٣٢؛ سورة الإسراء: ٦١- ٦٥ .
(٢) سورة الكهف: ٦٥-٨٢ .
(٣) سورة الأنعام: ١٠٨؛ صيني، الحوار النبوي ص ١٦- ٣٩ .
(٤) سورة العنكبوت: ٤٦ .
(٥) سورة الحج: ٨-١٠؛ سورة النساء: ١٤٠ .



الموقف من فن الحوار وعلمه:

يعترض بعض الباحثين على استخدام بعض علوم الحوار وفنونه بسبب عدم التفريق بين القواعد التي تمثل تلك العلوم أو الفنون وبين سوء استعمالها. ويستشهدون بأقوال بعض علماء السلف. ومن هذه العلوم الجدل اليوناني، وعلم الكلام، الجدل الفقهي.

ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى قد ميّز الإنسان بالعقل على سائر المخلوقات ويحثه على التفكر في خلقه. وقد يسيء الإنسان استخدام العقل فيجادل بالباطل أو يمنح العقل صلاحيات أكبر من قدراته فيجعله حَكَما في مصداقية حقائق لا سبيل له إلى معرفتها إلا بالنقل. فهي حقائق مما جاءت به الأنبياء والرسل من رب العالمين أو ما نقله الآخرون من خبراتهم أو تجاربهم العلمية التي يصعب على العقل البشري المحدود استيعابها أحيانا. فهل نلوم العقل أم نلوم طريقة استخدامه؟

بيد أنه عند الرجوع إلى المصادر الأصلية لعلماء السلف ولأقوالهم في سياقاتها الأصلية نجد وضوحا وواقعية في حكمهم على المنطق الذي يضم الجدل اليوناني. فابن تيمية مثلا يعلق على القول بأن تعلم المنطق فرض كفاية فيقول بأن هذا الادعاء قول فاسد لأسباب منها: (١)

١- يشتمل المنطق على أمور فاسدة، وإن كان فيه أمور صحيحة كانت سببا في رجوع كثير عن باطلهم.

٢- الحذاق في المنطق لا يلتزمون بقوانينه في كل علومهم إما لطولها أو

(١) ابن تيمية، فتاوى ج٩: ٥-٩ .



عدم فائدته أو قلة فائدته أو لفساده.

ويقول في فتوى أخرى: "فبعضه حق وبعضه باطل. والحق الذي فيه كثير منه أو أكثره لا يُحتاج إليه، والقدر الذي يُحتاج إليه منه فأكثر الفطر السليمة تستقل به، والبليد لا ينتفع به، والذكي لا يحتاج إليه، ومضرته على من لم يكن خبيرا بعلوم الأنبياء أكثر من نفعه، فإن فيه من القواعد السلبية الفاسدة ما راجت على كثير من الفضلاء."(١)

وواضح أن ابن تيمية إنما كان يتحدث عن علم المنطق اليوناني الذي انبهر به بعض علماء الإسلام وغالوا في قيمته وأصبح اليوم في حكم المنقرض، ولا يتحدث عن المنطق بمعنى استعمال الأدلة العقلية في إثبات الحقائق أو نفيها إذا كان في إطار التعاليم الإسلامية.

ومن الراجح أن دراسة علم الجدل اليوناني أو الجدل الإسلامي (في العقيدة والفقه) أو اكتساب مهارة الجدل وتعلمه يلحق عموما بحكم الإسلام في الحوار بصفته وسيلة نافعة، في كثير من ميادين المعرفة. والجدل العلمي الذي يعتمد على العقل البشري، كأي وسيلة أخرى يكتشفها الإنسان أو يصنعها تحتاج إلى تطوير مستمر لتواكب الاحتياجات البشرية المتنامية.(٢) ولهذا ليس من الحكمة تضييع الوقت في تعلم الجدل اليوناني في هذا العصر وإن كان لأغراض دعوية، وإن كان الغرب قد استفاد منه في تطوير مناهجه العلمية.(٣)

---

(١) ابن تيمية ج٩: ٢٦٩-٢٧٠ .

(٢) صيني، الحوار النبوي ص ٨٢-٨٣ .

(٣) انظر مثلا: Encyclopedia Britannica, Aristatoles, logic



فقد أثبت التاريخ أن فائدته قليلة في الدفاع عن الإسلام، بل ربما كان شره أكثر. فقد كان سببا في وجود كثير من الفرق التي تجرأت على العقائد الإسلامية بإخضاعها للجدل العقيم. أما فائدته في هذا العصر فيمكن أن يقال أنها منعدمة.

ولعل أفضل وسيلة للدفاع عن الإسلام هو أن نتعرف جيدا على واقع حياة المنكرين على الإسلام بعض تعاليمه. ثم نكشف لهم التناقض بين موقفهم من هذه التعاليم الإسلامية وبين موقفهم من بعض ممارساتهم المشابهة المشروعة عندهم سواء أكانت ممارسات فردية أم جماعية.(١)

فعلم الجدل أداة محايدة، والمناسب منه للدفاع عن الحق ولإزهاق الباطل لا غنى للمسلمين عنه، ولاسيما في عصرنا الحاضر التي سيطر فيه الفكر اللاديني. ومن زاوية أخرى، فإن اكتساب مهارة الحوار وتعلم قواعده وآدابه الفطرية أو الإسلامية لا يضر في ذاته ولا ينفع بدون استعمالها.

الحوار بين ممثلي الأديان:

لقد تقدم معنا بأن الحوار يجوز مع غير المسلمين بشروطه في مجالات الحياة الكثيرة ومنها التعاليم الدينية، فما هي القاعدة العامة في الموضوع؟

إن التعدد في العادات والتقاليد والحضارات التي تخرج عن دائرة الدين لا تشكل عقبة كبيرة في طريق الحوار بين الحضارات ما لم تكن هذه التقاليد مبنية ومقيدة بالأنظمة المكتوبة أو التشريعات الربانية. فالعادات والتقاليد

---

(١) انظر مثلا إسماعيل، تساؤلات جدلية حول الإسلام. وهو مثال لاستخدام المنطق المبني على واقع حياة غير المسلمين لتوضيح التعاليم الإسلامية التي تثير التساؤل عندهم.



والتراث الفكري والمادي - في الغالب - هي من صنع الإنسان وتنمو بصورة تلقائية وتتغير عبر الأزمان، وتتسم بشيء من المرونة ملحوظة. لهذا يمكن أن تنتقل بسهولة من فرد إلى آخر ومن مجتمع إلى مجتمع آخر. أما بالنسبة للدين فإنه أكثر رسوخا ومصدره خارجي ويرتبط بمجموعة من المعتقدات الراسخة التي لها قدسية خاصة. فإما أن تكون منتميا- ولو اسميا - إلى هذا الدين أو إلى ذاك أو لا منتميا. والدين الصحيح بعد بعثة النبي محمد ﷺ واحد في نظر الإسلام. ولهذا هناك حساسية بين بعض المسلمين تجاه ما يسمى "الحوار بين الأديان" ظنا منهم بأنه نوع من التفاوض على الثوابت الدينية. ويسارع بعضهم إلى إصدار الحكم بالتحريم بناء على الصورة الذهنية التي تكونت عندهم نتيجة معلومات قديمة أو مُبالغ في سلبياتها. والأصل أن لا يتعجل المسلم في إصدار الأحكام على أشياء لم يتعرف عليها بصورة كافية.

وينطلق الإسلام من قاعدة عامة، بل ويجب الانطلاق منها لإنجاح أي عملية حوار هدفها تأليف القلوب وإنشاء التعاون في الأمور الدنيوية. وتتمثل هذه القاعدة في أن يؤمن المشارك المسلم بأن أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو السلم، وتبقى العلاقة سلمية إلا أن يبادر الآخرون في عداوة الإسلام أو عداوة المسلمين من أجل دينهم. بل إن من حق غير المسلم على المسلم أن يعرفه بالإسلام ويدعوه إليه، ولكن دعوة الند للند (١) أي أن تقتصر الدعوة على أسلوب الإقناع دون إكراه. يقول تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦) فالإسلام يدعو إلَى الخَير

(١) صيني، حقيقة العلاقة ص ٦- ٥٤ .



الشامل في الدنيا والآخرة لجميع المخلوقات المكلفة (الإنس والجن). وحتى من يرفض الإسلام طريقا للنجاة في الآخرة، دون أن يعادي الإسلام أو يظلم المسلمين ولا يساند من يظلمهم، فإن الإسلام يجعل حسن المعاملة هي القاعدة في التعامل معه.[1] يقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة:٨-٩) ويحث الإسلام على التعاون مع غير المسلمين لتحقيق المصالح المشتركة، في الحياة المؤقتة ما لم يكن لهذا التعاون أثر سلبي على سعادة المسلم في الحياة الأبدية. فالله سبحانه وتعالى جعل التعاون بين الناس ميلا فطريا، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

وبعبارة أخرى، فإن الإسلام يحث جميع المخلوقات المكلفة (الإنس والجن) على التعاون لتحقيق السلام في الدنيا والآخرة. والسلام -كما هو معلوم- معناه إتاحة الفرصة لكل فرد راشد لأن يعمل على إسعاد نفسه دون تدخل من الآخرين إلا أن يحاولوا مساعدته بدون إكراه لتحقيق السعادة التي ينشدها أو التي هي أفضل منها.

وهذا يؤكد حقيقتين مهمتين:

١) أن جزءا من الاختلاف بين الناس أمر فطري، ليتعارفوا ويتنافسوا .

(١) صيني، حقيقة العلاقة ص ٥٥-٨٨ .



٢) أن وجود بعض الاختلافات بين الناس، وإن كانت في الدين، لا تمنع من التعاون مع الآخرين في الأمور المشتركة الكثيرة. بل ينبغي أن يتعاونوا فيها ليكمل بعضهم جهد البعض الآخر لتحقيق السعادة للجميع في الحياة الدنيا.

ولهذا من الطبيعي أن يكون للإسلام مواقفه الواضحة بالنسبة للحوار بين أتباع الأديان المختلفة ومنها الحوار بين ممثلي الأديان المختلفة. وسيتم فيما يلي استعراض موقف الإسلام من الأصناف المختلفة من الحوار بين ممثلي الأديان.

الموقف من الحوار للتقارب:

هذا النوع من الحوار يعني أو يقتضي استعداد أصحاب الأديان المتحاورة أو الحضارات للتنازل عن بعض معتقداتهم وتشريعاتهم الدينية طواعية وقبول الحلول الوسطى، وإن كانت أشياء محدودة جداً تندرج ضمن المجاملة عند كثير من الناس. وبعبارة أخرى، فإن الأطراف المشتركة في هذا النوع من الحوار يعترفون بالتعددية في الدين قناعة بصوابها جميعا، وأن مسألة الانتماء إلى دين محدد هي مسألة ارتياح شخصي وتفضيل.

والأصل أن الحوار بهذا المعنى ترفضه جميع الأديان ذات الطبيعة الدعوية التي تحرص على فلاح البشرية جمعاء في الآخرة على الأقل. فهذا يؤدي إلى مسخ الأديان ويرفضه الإسلام بصورة جازمة. ولعل من الأنشطة التي تقع في إطار هذه التعددية ما سماه إبراهيم بالتلفيق وهي مرفوضة إسلاميا. ومن هذه الأنشطة المرفوضة: إصدار مجلد أو سلسلة من المجلدات تضم الكتب المقدسة كلها للأطراف المعنية بالتعاون في تمويلها ونشرها، ومنها بناء معابد مشتركة ، أو المشاركة في صلاة الديانة الأخرى، أو مزج النصوص أو الأدعية



الخاصة بديانتين مختلفتين.

وهذا المعنى يختلف عن قبول التعددية باعتبارها واقعا موجودا، وينبغي التعامل معها بطريقة تحقق السلام لأصحاب الأديان جميعا، وذلك:

١- بضمان حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية الخاصة. ثم يتحمل أتباع كل دين نتيجة اختيارهم في الآخرة بصفة خاصة.

٢- تعاون الأقلية مع الأغلبية لتحقيق المصالح الدنيوية المشتركة التي لا تقبل التعدد داخل الانتماء الواحد (مثل الوطن) وإن كانت تتعارض مع بعض التشريعات الدينية بالنسبة للأقلية المسلمة. وهذا لا يعني التنازل بالكلية، ولكن الإيقاف الاضطراري للتطبيق.

والحق يقال فإن الإسلام عمل بهذه المبادئ منذ أربعة عشر قرنا، ولم تطبقها الشعوب المسيحية إلا عندما سيطر عليها الفكر العلماني في القرن الأخير. ومن المعلوم أن العلمانية هي وليدة الصراع بين المسيحية المنحرفة عن النصرانية الأصلية وبين العقل والمنطق.

الحوار لدعوة كل طرف الآخر:

لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا أن جميع الأديان ذات الطبيعة الدعوية تنادي به وتحث عليه. فالمسيحيون والمسلمون مثلا جميعا يحرصون على عدم احتكار الطريق الذي يعتقدون أنه الطريق الصحيح الذي يحقق الفلاح في الحياة الأبدية للبشرية جمعاء. ولهذا كان من الطبيعي أن يحرص كل صاحب دين دعوي على دعوة الآخرين ومحاولة إقناعهم بما يؤمن به، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

والدعوة إلى الدين ليست إلا عملية إنشاء لهذا النوع من الحوار؛ وهي من وجهة النظر الإسلامية واجبة على كل مسلم راشد في حدود معرفته. فالإسلام إذاً يحث المسلمين على هذا النوع من الحوار ويضع له الضوابط المناسبة، ومنها:

١- أن تتم الدعوة في ظل ضوابط منصفة. وعلى رأس هذه الضوابط كفالة حرية الاختيار للآخرين وعدم الإكراه بأي أسلوب، أو الخداع. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ (البقرة:٢٥٦).

٢- استخدام اللطف وتجنب التحدي ابتداءً، بل واستخدام الاستعطاف فهو سنة الرسل جميعا.(١)

وبالنسبة للطرف المسلم فإن عليه أن يتبع سنة الأنبياء في آداب الحوار، ولكن دون أن يتنازل عن الثوابت من معتقداته أو عباداته وتشريعاته، إلا في الحدود التي يسمح بها الإسلام بها وبأدلة واضحة، مثل حالة الاضطرار.(٢)

الحالات الخاصة:

تمنع بعض الدول التي يمثل المسلمون فيها أغلبية السكان الأنشطة التي تدعو إلى الأديان أو المذاهب الفكرية الأخرى، ومنها المملكة العربية السعودية، وذلك لسببين رئيسين:

أولاً - لأن جميع السكان أو غالبيتهم اختاروا الإسلام دينا يتم التعبد به، وشريعة تضبط علاقتهم فيما بينهم وبين غيرهم. ومن أساسيات الإسلام الإيمان بالتالي:

(١) انظر مثلا: سورة النحل: ١٢٥؛ الأنعام: ١٠٨؛ هود: ٦٣؛ غافر: ٤١

(٢) صيني، كيف نشرك غير ص ١٠-٥٢ .



١) وجود خالق واحد للكون كله هو الله الواحد الأحد، يقول تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ (سورة الإخلاص)(١).

٢) الخالق واحد ولا يستحق العبادة أحد سواه.

٣) الخالق لا يحتاج إلى وسيط يخبره بحاجة مخلوقه.

٤) ميز الله الجن والإنس بصفات هي: العقل، وحرية الاختيار النسبية، وزودهم بالهداية المتمثلة في الفطرة السليمة وفيما جاءت به الرسل. وهم محاسبون على أعمالهم في الحياة المؤقتة ليجنو ثمارها في الحياة الآخرة، حيث الجنة أو النار.

٥) لا بد للمخلوق المكلف (الجن والإنس) أن يطيع أوامر الله التي أنزلها على آخر رسله، محمد ﷺ.

وبهذا يتضح أن الأديان الحالية والمذاهب الفكرية تتعارض مع الإسلام في واحدة أو أكثر من هذه الأساسيات. وبث الأفكار المعارضة يهدد أمن المواطنين ليس في الحياة المؤقتة فحسب؛ ولكن في الحياة الأبدية أيضاً.

ثانياً - إن حرية الاختيار ولاسيما في مسألة مصيرية تؤثر على الحياة الدنيا والآخرة ينبغي أن تقيد ببلوغ الإنسان سن الرشد. وسكان أي بلد في الغالب ليسوا جميعا راشدين. فهناك الكثير من المواطنين الذين لم يبلغوا سن الرشد. وهؤلاء في حاجة إلى الحماية من الأفكار والمعتقدات التي تهدم المعتقدات التي تتمسك بها أغلبية المواطنين في البلاد أو جميعهم. وهذا أمر طبيعي تقره

(١) لفظ الجلالة "الله" في العربية يطلق على الإله ولا يقبل التثنية ولا الجمع، بخلاف ترجماته في اللغات الأخرى.

المواثيق الدولية للحقوق الثقافية التي تمنح الأب والوصي الشرعي حق اختيار نوع التربية لأولاده.(١)

ومن الطبيعي أن تمنع بعض الدول داخل حدودها السياسية أنشطة تعتبرها خطيرة من وجهة نظرها الخاصة، وتؤثر على أمنها الداخلي أو سلامة مواطنيها، وإن كانت هذه الأعمال لا تؤثر إلا في حدود الحياة الدنيوية المؤقتة. وهذا ما تفعله جميع الدول، حتى الديموقراطية منها. فكيف إذاً كانت هذه الأنشطة خطيرة لا يقتصر أثرها على الحياة الدنيوية المؤقتة ولكن على مستوى الحياة الأخروية الأبدية أيضاً؟

وما دامت هذه القرارات لا تلحق أضرارا حتمية بالآخرين، فإن هذا يتسق مع مباديء الأمم المتحدة التي تؤكد على استقلالية الدول الأعضاء وحمايتها.

وعلى الرغم من منع الجهود التي تنشر الأديان أو الأفكار المتعارضة مع الإسلام فإن جميع الدول ذات الأغلبية الإسلامية تسمح لمواطنيها من غير المسلمين ممارسة عباداتهم الخاصة، وتطبيق تشريعاتهم الخاصة بالنسبة للأحوال المدنية في الحدود التي لا تتعارض مع تشريعات الأغلبية. وللبقعة التي تحتلها المملكة حرمة خاصة في الإسلام.(٢) وبالنسبة للأمور التي لا تقبل التعدد فإن على الأقلية التسليم لما تقرره الأغلبية حسب الأنظمة الشائعة في العالم وعلى رأسها النظم الديموقراطية.

أما بالنسبة للمقيمين أو الزائرين من غير المسلمين في البلاد الإسلامية

---

(١) الميثاق الدولي لحقوق الإنسان، المادة ٢٦: ٣؛ الاتفاقيات الدولية الخاصة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ١٣: ٣ .

(٢) للتفاصيل انظر إسماعيل، تساؤلات حول الإسلام ص ١٥-٢١ .



فتطبق عليهم الدولة الإسلامية أنظمة البلاد، وإذا لم يرغبوا في البقاء فيها بهذه الشروط فإن الدولة لن تجبرهم على البقاء إلا في حدود العقود التي التزموا بها.

حوار التحدي أو المناظرة:

لا يجيز الإسلام هذا الحوار ابتداء، ولكن يجيزه كرد فعل مناسب لهجوم مسبق من الطرف الآخر، وذلك توضيحا للحق ومنعا للالتباس فيه، وحماية لإيمان من لم يتمكن الإسلام من قلبه، ولم يكتسب المناعة الكافية ضد جهود التشكيك.

الحوار لتبادل المعرفة:

إن موقف الإسلام من جميع أنواع الحوار التي تهدف إلى تحقيق التعارف وإزالة الوحشة بين أصحاب الأديان المختلفة والتأليف بين قلوبهم والتعاون فيما بينهم ولتبادل المعرفة هو تشجيع ذلك، ليس اعترافا بصحة الأديان الأخرى، ولكن تعرفا على واقعها ليسهل التعامل مع أصحابها بطريقة سلمية. وهذا التوجه ينطلق من قوله : "الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ".(١)

الحوار التلقائي بين رجال الدين:

لقد سبقت الإشارة إلى أن أكثر أنواع الحوار فعالية في تحقيق الألفة والسلام بين أتباع الأديان المختلفة هو الحوار التلقائي الذي يجري في الحياة العامة. وفعالية هذا النوع من الحوار ترتكز إلى أنه تلقائي غير مصطنع؛

(١) صحيح البخاري: أحاديث الأنبياء.



ويستخدم وسائل التعبير اللفظية وغير اللفظية. وما ينطبق على عامة الناس فإنه ينطبق أيضا على رجال الدين والدعاة إلى الأديان المختلفة.

حوار للتعاون على البر والتقوى:

وهذا النوع من الحوار يهدف إلى أن يتعاون أتباع الأديان المختلفة فيما بينهم لتحقيق المصالح المشتركة في المجالات التي يتفقون فيها. وهي فوق الحصر حتى مع اشتراط عدم تضحية المسلم بالسعادة في الحياة الأبدية. وأوجه التعاون لا تقتصر على التواصي بالحق ولكن تشمل أنشطة لا تعد ولا تحصى. والأمثلة على ذلك بارزة في واقع حياتنا اليومية. ويكفي أن ينظر المسلم إلى ما يأكل ويشرب، وفي مسكنه وفي وسائل مواصلاته واتصالاته... بل إن الإسلام يحث على التعاون في رفع الظلم عن المظلومين.[١]

أما في حالة رفض البعض التعاون لتحقيق السعادة على مستوى الدارين: الدنيا المؤقتة والآخرة الأبدية، فإن الإسلام أيضاً يحث المسلم على التعاون لتحقيق العيش بسلام وتحقيق السعادة في الدنيا لكل فريق من زاويته الخاصة كما سبق بيانه. بل إن الإسلام أحياناً يقبل حكم الأغلبية في تعامله مع غير المسلمين في الأمور العامة، مثل إعفائه الأقلية المسلمة من تطبيق الحدود. ويحث هذه الأقلية على أن يكونوا مواطنين صالحين في بلادهم، بل وأن يكونوا قدوة طيبة، وذلك لأن الإسلام دين واقعي، ولكن دون تنازل عن معتقداتهم وتهاون في عباداتهم وفي تطبيق التشريعات الإسلامية غير الممنوعة.[٢]

---

(١) صيني، علاقة المسلمين بغير ص ٥٩- ٦٥ .
(٢) المجمع الفقهي، بيان مكة المكرمة.



والسلام -كما هو معلوم- معناه إتاحة الفرصة لكل فرد أن يعمل على إسعاد نفسه دون تدخل من الآخرين إلا أن يحاولوا مساعدته بدون إكراه له لتحقيق السعادة التي ينشدها أو التي هي أفضل منها. فأصل التعامل بين جميع الأفراد الراشدين من المخلوقات المكلفة هو تعامل بين الأنداد وليس بين وصي وموصى عليه.[١]

وبهذا يتبين أن الإسلام لا يرى اختلاف الدين مانعاً للتحاور بين أصحاب الأديان المختلفة ومنهم ممثلي الأديان، بما في ذلك التفاوض في كثير من الأمور، ولاسيما إذا كان يسهم في تحقيق العدالة والسلام في العالم ويكافح الإرهاب العدواني. بل يشجع جميع أشكال الحوار التي تحقق السعادة لأطراف المحاورة ما لم يكن ذلك على حساب سعادة المسلم في الدار الآخرة الأبدية. وينبغي للمسلم أن لا يدخل طواعية في حوار رسمي إلا إذا كان دينه يسمح بذلك. كما ينبغي للأطراف المتحاورة أن لا تغفل عن بعض الأسس اللازمة لنجاح الحوار عبر الأديان، ومنها ما يلي:

١- الصراحة. فبدونها تدور هذه الحوارات في جو المجاملات التي لا تؤدي إلى أية نتائج عملية. ولضمان نجاح هذه المؤتمرات أو الندوات بين أصحاب الأديان المختلفة فإنه لابد من بناء الحوار على أسس واضحة وليس على المجاملات التي لا تمس ما في القلوب أو النفوس. فيكون التعامل ذو وجهين: وجه عند اجتماع أصحاب الأديان في الندوات، ووجه عند اختلاء أصحاب الدين الواحد برفاقهم. ويقول البعض في هذا المعنى ينبغي الدخول

---

(١) صيني، حقيقة العلاقة ص ١١١-١١٤ .



في هذا الحوار بصدق وشجاعة وتواضع وأن نتجنب الحوار الذي يمكن تسميته بالنفاق المتبادل.[1] وبدون صدق الطرفين وإخلاصهما فإن أحدهما -غالبا - سيكون ضحية للطرف الآخر. وهو ما أشار إليه الشريف عندما تحدث عن طبيعة الحوار اليهودي الصهيوني مع الأديان الأخرى.[2]

٢- أن يكون القائمون به من أصحاب النفوذ والقيادات التي لها أثرها في الجماهير، أو يمثلون منظمات لها شعبيتها، ولديهم وسائل تمكنهم من نشر ما يتم التوصل إليه والدعوة إليه وتطبيقه. وبدون توفر ذلك فإن المسألة تصبح وكأن الإنسان يتحدث إلى نفسه.

٣- توفير البيئة العملية المناسبة للحوار في الحياة اليومية. فبدون ذلك يبقى الحوار المنظم -كما يقولون- حبرا على ورق بالنسبة لعامة الناس. ومن عوامل توفير البيئة المناسبة للحوار عدم نشر الإشاعات والأكاذيب التي تحاك ضد الأديان وتتهمها بالرعب والإرهاب، وعدم الإساءة إلى المقدسات والشخصيات لدى الأديان المختلفة.

٤- مراعاة آداب الحوار، ومنها مناداة كل طرف الآخر بما يحبه من الأسماء والألقاب. فالإسلام مثلا يجيز مناداتهم ب يا أهل الكتاب[3] يا أبت[4] يا بني [5] يا قوم [6] ويخاطب النبي ﷺ عمه أبا طالب الذي مات

(١) جبور، من أجل تعاون أفضل؛ الزفزاف ص ٧- ١٣ .

(٢) الشريف، ٢٢-٢٥ .

(٣) سورة آل عمران: ٦٤ .

(٤) سورة مريم: ٤٢ .

(٥) سورة هود: ٤٢ .

(٦) سورة هود: ٦٣ .



على الشرك "يا عم".[١] وبكنيتهم كما فعل الرسول ﷺ وهو يخاطب أمية ابن صفوان قبل إسلامه "انزل أبا وهب".[٢] ولا غرابة في ذلك فقد جعل الله سبحانه وتعالى للمؤلفة قلوبهم نصيباً من زكاة المسلمين، ويزودنا في القرآن الكريم بنماذج استخدم فيها الأنبياء الاستعطاف لإقناع أقوامهم بالحق. كما يحثنا سبحانه وتعالى بوضوح على حسن التعامل مع الآخر بقوله تعالى ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).

ولعل من المناسب أن نستعرض بعض سمات البيئة التي يوفرها الإسلام لنجاح الحوار المخلص بين ممثلي الأديان، وكذلك استعراض البيئة التي توفرها الشعوب التي تدين بديانات أخرى. فنجاح أي نوع من الحوار اللفظي الرسمي يتأثر كثيرا بالبيئة التي يوفرها أتباع الأديان المختلفة لهذا الحوار.

توفير البيئة المناسبة لنجاح الحوار:

إن الحوار بأشكاله المختلفة يحتاج إلى بيئة مناسبة تتوفر فيها فرصة التعايش السلمي بين المختلفين في بعض الأمور والمتشابهين في كثير من الأمور التي فطر الله المخلوقات المكلفة عليها ومنهم البشر. لهذا حرص الإسلام على توفير مثل هذه البيئة المناسبة للحوار بين أتباع الحضارات والأديان المختلفة لتحقيق أقصى حدود السعادة في الحياة المؤقتة والأبدية للجميع.

ويمكن تقسيم المساهمات الإسلامية إلى قسمين رئيسين: مبادرات إسلامية، ثقة وتعاون مع غير المسلمين.

(١) الترمذي: تفسير القرآن رقم ٣١٥٦.
(٢) مالك: النكاح ٩٩٧.



مبادرات إسلامية:

فمن قواعد الإسلام الثابتة أنه يشجع على تعزيز الروابط المختلفة الموروثة والمكتسبة بين المخلوقات المكلفة مادامت تلك الروابط تحقق للإنسان الخير في الدنيا بدون تفريط بخير الآخرة أو تحقق له الخير في الدارين. ولكن هذا التشجيع مشروط بالموازنة بين حقوقها، كل واحدة حسب أهميتها النسبية في ضوء المعايير الربانية. والرابطة العقدية التي لا تقبل التعدد هي أعلاها. فهي المعيار الرباني الذي يحدد أهمية الروابط الأخرى. ومن الروابط التي يشجع الإسلام على تعزيزها رابطة الإنسانية أو رابطة الانتماء إلى مخلوق له أصل واحد، ورابطة الرحم، ورابطة الجوار.

ومن الروابط التي عُني الإسلام بها رابطة الوطن الواحد. فقد عرف الإسلام التعددية في أول وحدة سياسية إسلامية نشأت في المدينة قبل أربعة عشر قرنا.(١) وكانت وحدة متعددة الأعراق (قبائل الأنصار وقبائل المهاجرين، واليهود)، ومتعددة الدين (المسلمون واليهود والوثنيون). فالإسلام يحث على التعاون في سبل الخير بين الناس عامة. يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (المائدة:٢).

وهذا التعاون يندرج تحته كلَ مساهمة تؤدي إلى توفير الخير العام في البلد الذي ينتمي إليه المسلم ويعيش فيه كمواطن، وإن كانت أغلبية السكان من غير المسلمين.

ولو أخذنا بعض النماذج الأخرى لوجدنا أن الاختلاف في العقيدة لم يمنع الرسول ﷺ من العناية بالعلاقات الودية حتى في المستوى الدولي. فقد أوصى خيرا بأهل مصر عموما في قوله: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض

---

(١) ابن هشام ج٢: ١٠٧ - ١٠٨، حميد الله ص ٣٩-٤٧؛ العوا ص ٥٠-٦٤ .



يسمى فيها القيراط (عملة كانت سائدة في مصر) فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما." وذلك لأن هاجر أم إسماعيل عليهما السلام، الجد الأعلى للنبي ﷺ، كانت من مصر. وكذلك كانت مارية مصرية. وهي إحدى أمهات المؤمنين، أنجبت له إبراهيم، رضي الله عنهما.(١)

ولم يمنعه من التصريح بحق الرحم، إذ يروي لنا عمرو بن العاص رضي الله عنه قول النبي ﷺ: إن آل أبي فلان... ليسوا بأوليائي، إنما وليّي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها ببلالها." يعني أصلها بصلتها.(٢) بل، وصل النبي ﷺ الرحم حتى في حالة العدو المحارب، حيث أذن لثمامة أن يبيع قريشا ما تحتاجه من الحنطة، عندما سألته قريش بحق الرحم أن يأذن له بذلك. وكان ثمامة سيد بني حنيفة قد حلف أن لا يفعل إلا أن يأذن النبي ﷺ له بذلك.(٣)

وأُسر أبو العاص ابن الربيع، زوج زينب بنت النبي ﷺ، في غزوة بدر فأرسلَت زينب تفديه بقرط كانت ورثتها عن أمها خديجة رضي الله عنهما، فرقّ لها الرسول ﷺوأطلق لها زوجها الذي كان لا يزال على شركه.(٤) وتم إطلاق سراحه بشرط إرسال زينب إلى أبيها فوفى العاص بوعده. فأثنى عليه الرسول ﷺ بما يستحق -في إحدى المناسبات- إذ قال: "...أما بعد فأنكحت أبا العاص ابن الربيع فحدثني وصدقني..."(٥)

(١) مسلم: فضائل الصحابة، وصية النبي؛ وانظر الصالح ج١: ٢٥٤-٢٥٥ .
(٢) البخاري: الأدب، تبل الرحم.
(٣) البخاري: المغازي، وفد بني حنيفة؛ ابن القيم، زاد ج٣: ٢٧٧ .
(٤) العسقلاني: ج٧: ١٠٧، وانظر ابن القيم، زاد ج٣: ٢٨٢ .
(٥) البخاري: فضائل الصحابة، ذكر أصهار النبي.



وأجاز النبي ﷺ الأمان الذي أعطته أم هاني لمشركين من ذوي رحمها، عند فتح مكة.(١)

وانطلاقاً من المبدأ نفسه أهدى عمر بن الخطاب لأخيه المشرك ثوبا(٢)، وذلك بالرغم من الحزم المعروف عن الخليفة الراشد، حتى أن الشيطان كان يهرب من طريقه.(٣)

بل إن القرآن الكريم يصرح بحسن معاملة الوالدين المشركين في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٨).

وكذلك يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:١٤-١٥).

ولهذا أذن الرسول ﷺ لأسماء رضي الله عنها بإكرام أمها عندما قدمت عليها في المدينة مع أنها كانت مشركة.(٤)

وانطلاقا من هذا المبدأ الذي يوفر البيئة المناسبة للحوار من أجل الأفضل للجميع كان الرسول ﷺ يكرم أضيافه وإن كانوا غير مسلمين فقد سمح -من باب إكرام الضيف- مثلا لوفد نجران النصراني أن يؤدي صلاته في

(١) البخاري: الجزية، أمان النساء.
(٢) البخاري: الأدب، صلة الأخ المشرك.
(٣) البخاري، فضائل الصحابة، مناقب عمر.
(٤) البخاري: الأدب، صلة الوالد المشرك.



مسجده.(١) وكذلك قال ﷺ مثلا: "ما من مسلم غرس غرسا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة".(٢) فهو يحث على عمل الخير بصرف النظر عن المستفيد منه. ويندرج تحت هذا كل مساهمة تؤدي إلى توفير الخير العام في البلد الذي ينتمي إليه المسلم ويعيش فيه كمواطن، وإن كانت أغلبية السكان من غير المسلمين.

وأوصى الإسلام برابطة الجوار خيرا، حيث يقول الرسول ﷺ: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" دون تقييد أن يكون الجار مسلما أو غير مسلم.(٣) ويعلق العسقلاني علي الحديث مستدلا بالآيات التي توصي بالجار ذي القربى والجار الجنب فيقول: "الجار القريب المسلم والجار الجنب غيره." وحمل عبدالرحمن بن عمرو هذا الحديث على وجه العموم "فأمر لما ذُبحت له شاة أن يُهدي منها لجاره اليهودي.

ومن الأدلة والأَمثلة التي أشار إليها القرضاوي في هذا المعنى أن الرسول ﷺ بعث إلى أهل مكة وهم في كفرهم مالاً لما قحطوا ليوزع على فقرائهم، وأنه عليه الصلاة والسلام تصدق بصدقة على أهل بيت من اليهود، فهي تُجرى عليهم. كما أشار إلى أن عمر بن الخطاب رأى نصارى مجذومين فأمر لهم بمساعدة اجتماعية، واغتاله ذمي فلم يمنعه ذلك من أن يوصي بهم خيراً. ويرى بعض العلماء مثل عكرمة وابن سيرين جواز إعطاء فقراء أهل الذمة من الزكاة.(٤)

ومن مباديء الإسلام أن يرجو المسلمون للأحياء من المخلوقات المكلفة (الإنس والجن) ما يرجونه لأنفسهم من الخير فيدعون لهم بالهداية والرشاد.

---

(١) ابن القيم، زاد ج٣: ٦٢٩ .

(٢) البخاري: الأدب، رحمة الناس والبهائم.

(٣) البخاري: الأدب، الوصاية بالجار. وبقية الباب وتعليق العسقلاني ج١٠: ٤٥٥-٤٥٧ .

(٤) القرضاوي ص ٤٣-٥٤ .

وهو مبدأ أنبياء الله جميعا، بل وأن يبذلوا الوقت والمال والجهد لإقناعهم بالحق حتى تُكتب لهم السعادة في الدارين، وتبرأ ذمتهم ويكسبون الأجر العظيم.(١)

وانطلاقاً من مبدأ التفريق بين المعادين والمسالمين فإن الإسلام ضمن للمسالمين من غير المسلمين عدداً من الحقوق في الإطار العام لقوانين الدولة الإسلامية التي ينتمون إليها. ومن هذه الحقوق الاعتراف بحقوق غير المسلمين في ممارسة عباداتهم، وتطبيق تشريعاتهم فيما يتصل بالشؤون المدنية مثل شؤون الزواج والطلاق والإرث وغيرها فيما بينهم. ومن هذه الحقوق الاعتراف لهم بما هو مباح من المأكل والمشرب في صميم عقيدتهم بشرط عدم ترويجها بين غيرهم.(٢)

وهذه الحقوق مضمونة ما دام غير المسلم يحترم القوانين العامة للبلاد الإسلامية ومعتقداتها، وما دامت ممارساته لحقوقه لا تشكل خطراً على سلامة الدولة التي يعيش فيها ومواطنيها عامة، أو ليس فيها ازدراء صريح لدين الأغلبية المسلمة، أو لا تُعتبر خرقا لقوانينها الأساسية المشتركة. وهذا الشرط الأخير طبيعي لأن المسلم في البلاد غير الإسلامية أيضا لا يستطيع تطبيق بعض تعاليمه الدينية الأساسية، مثل تنفيذ حكم الإعدام في القاتل المتعمد وقطع يد السارق وجلد الزاني والزانية على المستحقين من بني عقيدتهم.

ثقة وتعاون مع غير المسلمين:

هناك جهود متبادلة عديدة، تعاونَ فيها المسلمون مع غير المسلمين لتوفير البيئة الصالحة للحوار الحضاري عديدة. ومن هذه كانت ثقة رسول رب

(١) علاقة المسلمين بغير المسلمين ص ١٩ – ٢٣ .
(٢) انظر مثلا ابن القيم أحكام أهل الذمة للحقوق المختلفة والالتزامات.



العالمين في عبد الله ابن أريقط الذي كان مشركا. وهذه دلالة قوية على أن هناك فئة من غير المسلمين ليسوا فقط محايدين ولكن موضع ثقة في أصعب الظروف. فقد كان بن أريقط الدليل الذي استخدمه الرسول ﷺ ورفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند هجرتهما إلى المدينة متخفيان.(١) كما استعان الرسول ﷺ بعبد الله بن أبي حدرد السلمي الذي كان يومها مشركا ليتجسس على جيش المشركين.(٢) وهذه درجة عالية من الثقة في مشرك. كما اختارت خزاعة، مسلمهم ومشركهم، أن يكونوا حلفاء للمسلمين بعد انعقاد صلح الحديبية وشاركوا في فتح مكة.(٣)

ونصيحة النبي ﷺ لأصحابه المضطهدين بالهجرة إلى الحبشة وهي دولة مسيحية دليل آخر على وجود هذا النوع المحايد من غير المسلمين. فقد قال النبي ﷺ لأصحابه المضطهدين: " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق. "(٤) لقد كانت نصيحته ﷺ في مكانها فقد رحب بهم النجاشي في أرضه وردّ مبعوث قريش الذي جاء ليستعيدهم خائبا.(٥)

ومن الجهود المتبادلة في توفير البيئة المناسبة للحوار الثناء على العمل الذي يمثل الخير وإن صدر ممن نختلف معه في الدين ومنها العقيدة. فقد أشار

(١) البخاري: مناقب الأنصار، هجرة النبي؛ وانظر العسقلاني ج٧: ٢٨٠ .
(٢) ابن هشام ج٤: ٦٢ .
(٣) المدخلي ص ٤٧، ابن القيم، زاد ج٣: ٣٩٥ .
(٤) ابن هشام ج١: ٢٨٠ .
(٥) البخاري: مناقب الأنصار، هجرة الحبشة وانظر العسقلاني ج٧: ٢٢٧-٢٣٠؛ ابن هشام ج١: ٢٨٠-٢٩٠والندوي ص ١٣١-١٣٥ .



الرسول ﷺ بصيغة الثناء إلى حلف الفضول ومن دعا إليه، ومن أسدى إليه معروفا من المشركين مثل المطعم بن عدي بعد موته، والعاص بن الربيع وأثنى على ملك الحبشة الذي كان نصرانيا في وقتها.(١)

ولا يرى الإسلام مانعا من التعاقد مع الآخر للعمل في مؤسسته بأجر محدد بالساعات أو بالإنجاز، ولكن ليس في عمل فيه مهانة، أو في عمل طبيعته محرمة مثل بيع الخمر وغيره. وإذا عمل المسلم عند غير المسلم فعليه أن ينصح في عمله ويؤديه بأمانة.

ويروي ابن القيم أن عليا رضي الله تعالى عنه قد آجر "عن نفسه من يهودي يستقي له كل دلو بتمرة، وأكل النبي ﷺ من ذلك التمر." بل ذهب العلماء إلى جواز الوقف على ذوي قرابة منهم الكافرون، دون أن يخصهم بذلك. وأوصت صفية أم المؤمنين لأخ لها كان يهوديا بسهم.(٢)

وقد أباح الإسلام شراكة الزوجية بين المسلم والكتابية، وأباح الشراكة التجارية مع الآخر بشروطها.(٣) وكذلك من المباحات مؤاكلتهم والشرب معهم في حدود المباح للمسلمين والاستفادة من علوم الكافرين وحتى المنافقين منهم في أمور الدنيا، والسكنى في ديارهم ولبس ثيابهم وشراء أسلحتهم والانتفاع بخبراتهم ومهاراتهم في الطب وغيره.(٤) ومن الأمور المعلومة أنه يجوز شراء منتجاتهم الصناعية والزراعية...

ولا يمنع الإسلام في أن يستفيد المسلم من الآخر ويتعاون معه عند الثقة في

---

(١) الحلبي ج١: ١٤٣-١٤٧؛ وانظر الحواشي: ١٩١،٢٣٣، ٢٣٨ .
(٢) ابن القيم، أحكام ص ٢٧٠-٢٧٤ .
(٣) ابن القيم، أحكام ص ٧٧٦-٧٧٨ .
(٤) ابن تيمية، فتاوى ج٤: ١١٤-١١٦؛ ابن القيم، أحكام ص ٢٧٧-٤٠٠؛ أيوب ص ٩٠-٩٢ .



معلوماته وخبراته في الأمور الدنيوية. فالمسلم قد يتلقى المعرفة الدنيوية عن غير المسلم أو يعمل لديه أو يتخذه طبيباً أو مستشاراً... ما دام ذلك يحقق مصلحة يحتاج إليها المسلم. ولكن لا يجوز الولاء العام للآخر لأن الولاء العام يدخل فيه شؤون الآخرة. وهذا الولاء محصور في الله سبحانه وتعالى وفي رسوله والمؤمنين.(١)

وكان المسلمون يتعاملون مع هذه الأقليات باحترام حتى أن النبي ﷺ يقوم لجنازة يهودي(٢) وتموت نصرانية فيشيّع جنازتها أصحاب رسول الله ﷺ(٣).

ومن مباديء الإسلام احترام العهود الصريحة والضمنية (٤) والأمر بالعدل رغم وجود العداوة. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨).

مساهمات غير المسلمين:

من يراجع أحداث السيرة وأحداث التاريخ الإسلامي يجد أن غير المسلمين ليسوا جميعاً محاربين للإسلام ولأهله، وليسوا جميعاً ممن تنطبق عليهم الآيات التي نزلت في المعادين منهم. بل منهم المحايدون والمعينون للمسلمين والمتعاطفون معهم.

فمن قرأ السيرة النبوية لا يخفى عليه ما بذله عم النبي ﷺ أبو طالب في

---

(١) سورة المائدة: ٥٥؛ البخاري: الأدب، تبل الرحم.
(٢) صحيح البخاري: الجنائز.
(٣) القرضاوي ص ٤٣-٥٤.
(٤) سورة الإسراء: ٣٤.



الدفاع عنه، حمية لابن أخيه -الذي عادته قريش بسبب دينه- وبالتالي عن الإسلام.(١) وإعارة صفوان بن أمية أدرعا له للمسلمين في غزوة هوازن، وهو على شركه، قصة معروفة.(٢) ونصح اليهودي ابنه بطاعة النبي ﷺ عندما دعاه النبي إلى الإسلام وهو في حالة الاحتضار ثابتة في كتب السنة.(٣)

كما أن بني هاشم دخلوا طواعية وحمية لبني عبد المطلب في الحصار الذي فرضته قريش على بني عبد المطلب مع أنهم كانوا في وقتها مشركين.(٤) ومساعدة بعض المشركين للمسلمين المحاصرين في الشعب بالطعام سرا، وقيام بعضهم بنقض صحيفة الحصار ثابت في السيرة.(٥) وعندما خذل أهل الطائف رسول الله ﷺ وعاد إلى مكة دخلها في جوار المطعم ابن عدي. فحفظها له الرسول ﷺ رغم موته مشركا. وقال في أسرى بدر: "لو كان المطعم بن عدي حيّا ثم كلمني في هؤلاء النَّتنى لتركتهم له."(٦) وهو وفاء يليق برسول رب العالمين. وعندما أراد أبو بكر الصديق الهجرة أجاره ابن الدغنة الذي كان مشركا ومنعه من الخروج وقال له: "فإن مثلك لا يخرج ولا يُخرج. إنك تُكسب المعدوم وتصل الرحم وتُعيل الكَلّ وتُكرم الضيف وتُعين على نوائب الحق."(٧)

(١) ابن هشام ج١: ٢٣٨-٢٤٣ .
(٢) ابن هشام ج٤: ٦٢ .
(٣) البخاري: الجنائز، إذا أسلم الصبي؛ ابن القيم، أحكام ص ٢٠٠-٢٠٢ .
(٤) ابن هشام ج٢: ٣ .
(٥) ابن هشام ج٢: ١٧-٢١، ٣٢-٤٠ .
(٦) البخاري: فرض الخمس، ما من النبي؛ وانظر تعليق العسقلاني على الحديث.
(٧) البخاري: مناقب الأنصار، باب هجرة النبي.



ومن يتأمل في النظم غير الإسلامية اليوم يجدها متأثرة بدرجات متفاوتة بالعلمانية التي أسهمت في تحرير الأقليات المسلمة من تسلط الأغلبية من أصحاب الديانات الأخرى. فقد اكتسحت العلمانية المعتدلة معظم دول العالم فخففت من ظاهرة الاضطهاد الديني المكشوف أو المبطن لفترة زمنية طويلة. فالنظام العلماني المعتدل لا يعبأ بالمعتقدات والعبادات ما لم تؤثر بطريقة سلبية على إدارتها لشئون الحياة العامة. وبهذا اختفت بعض إشكاليات التعايش السلمي في النظم العلمانية أو خفّت حدتها حتى أحداث ١١ سبتمبر التي أحدثت انتكاسة كبيرة للتعايش السلمي في كافة أنحاء العالم. وهدمت جهود عشرات العقود التي بذلها الآلاف من المسلمين والآخر المحايد. وقد استغل الإعلام المعادي هذه الأحداث بصورة بشعة، وتناقلتها وسائل الإعلام الأخرى ومنها وسائل إعلام إسلامية وعربية. ورغم أن الأدلة تؤكد أنها مؤامرة صهيونية فإن كثيراً من المسلمين صدقوها.

بيد أن انتشار الفكر العلماني أدى إلى إشكاليات مبطنة تحت ثوب "الحرية الفردية" التي أخذت تحطم حواجز القيم الأخلاقية والدينية. فأدى إلى المروق من الأديان ومنها الدين الإسلامي باعتبار هذا المروق تطورا فكريا وسلوكا طبيعيا، وليس باعتباره تمردا على الله سبحانه وتعالى وعلى أوامره. وكان من مظاهر هذا التأثر الدعوة إلى التفريق بين الدين والعلم، والاستشهاد بأقوال نشأت في بيئات يتصارع فيها التوجه الديني مع اللاديني، لا تتناسب تماما مع البيئة الإسلامية التي تحافظ على الوحي في صورتها الأصلية. وكان من مظاهرها أيضا تقليد الأدب اللاديني باسم التحديث.



والأصل أن نستفيد من إيجابيات العلمانية فيما لا يتعارض مع الإسلام، ونحذر الوقع في فخاخها التي قد تؤدي إلى أن يخسر المسلم آخرته. فظهرت إشكاليات جديدة لا تقتصر آثارها السلبية على التعايش السلمي مع الآخر فحسب، بل وبين المسلمين أنفسهم. ومن إشكاليات التعايش السلمي في البلاد التي تسيطر فيها الأغلبية العلمانية ما يلي:

١- ما تفرضه الأغلبية غير المسلمة أحيانا على الأقلية المسلمة من نظم تتعدى بها على الحقوق الشخصية. ومثاله منع بعض الحكومات الديموقراطية استعمال الحجاب الإسلامي أثناء العمل في المؤسسات الحكومية وفي المدارس العامة، وحرمان المواطن المسلم والمسلمة من الاستفادة من المدارس الحكومية لتنمية المعلومات اللازمة عن دينهم، مع أنهم يسهمون في إنشاء هذه المدارس وفي تشغيلها بدفع الضرائب المقررة. ومثاله تورط بعض النظم الديموقراطية باستحداث إجراءات تعكس حالة الهلع بدلا من الحفاظ على المثل الديموقراطية التي تحرص على حقوق المواطنين ومنهم المسلمين والزائرين.

٢- إن الأغلبية والأقلية في الإسلام مقيدة بحكم الله، ولكن في النظام العلماني لا يوجد ضابط خارجي تحتكم إليه الأقلية أمام طغيان الأغلبية. وهذا قد يتسبب في فرض ظروف قاهرة على الأقلية المسلمة تمنعها حتى من ممارسة عباداتها بصورة كاملة، أو تطبيق تعاليم الإسلام في حياتها الشخصية، مثل الحالة التي عاشتها الأقلية الإسلامية ردحا من الزمان في الدول الشيوعية عندما كانت في عنفوانها.



٣-الآخرون ليسوا دائما متحيزين، وليسوا دائما معادين للإسلام وللمسلمين، بل الحقيقة تقول: إن الغالبية محايدة، ولكن لهم مصالح ومواطنون يغيرون على مصالح أوطانهم، وينتسبون إلى أديان وفلسفات يغيرون عليها إذا تعرضت للهجوم. ولهذا من السهل وقوعهم ضحايا للمتحيزين أو لمن يثيروا الفتن بين الأمم ليحققوا مصالح شخصية لهم، ولاسيما إذا كان بعض المسلمين يوفرون للخبثاء منهم بعض المبررات لمعاداة الإسلام والمسلمين.

٤- على مستوى المجتمع والمؤسسات الخاصة فإن التعامل بالربا بأشكاله المختلفة متغلغل في الأنشطة الاقتصادية بحيث يصعب التخلص منه، ولاسيما مع الحضارة التي تسيطر فيها المادية والجشع المادي. ومثال ذلك أن كثيرا من صغار المزارعين من الأقليات المسلمة مثلاً لا يجدون سبيلا إلى تسويق منتجاتهم ما لم يقترضوا بالربا من الشركات الكبيرة لغير المسلمين التي تقوم بتوزيع المنتجات، حتى وإن كانوا قادرين ماديا ولا يحتاجونه. وضرورة التعامل مع البنوك الربوية هي إشكالية متأصلة على مستوى التجارة العالمي؛ وهي تظهر بصور مختلفة، وأقلها الضمانات البنكية.

وبهذا يتضح لنا أن الإسلام يحث على الحوار عبر الديانات والحضارات لتحقيق العدالة والسلام العالمي بين الناس، ويحث على الحوار لتأليف القلوب وتسوية الخلافات وللتعاون على البر والتقوى في أمور الدنيا، إذا تعذر تحقيق السلام في الدنيا والآخرة لجميع المخلوقات المكلفة (الجن والإنس) بسبب رفض البعض قبول آخر رسالة بعث بها الخالق إلى عباده.



بيد أن الكيس لا بد أن يدرك أن للحوار الرسمي، ـ ولاسيما بين رجال الدين ودعاتها ـ مخاطر كثيرة ومزالق كبيرة، ولاسيما إذا كان الطرف الآخر يعمل على تسخيره للحصول على الاعتراف بصحة ديانته وعلى حق ممارسة طقوسه علنا، والدعوة إلى ديانته. وهذا يقتضي الحذر ووضع خطط بعيدة المدى وبرامج تنفيذية محكمة الأهداف والمكونات. ويقتضي حسن اختيار الموضوعات، وحسن اختيار المشاركين. فنتائج الحوارات الرسمية عادة تتدرج بين إقرار بعض المبادئ أو الالتزام بتطبيقها.

وكلاهما يمكن أن يُستخدم حجة ضد المسلمين أو الدولة المسلمة، ويستغل من قبل المنافسين للإسلام أو المعادين له.



مصادر الدراسة:

- إبراهيم، عز الدين، الحوار الإسلامي المسيحي (رؤية إسلامية) في الحسن، حوار الحضارات ص ٢٢٣-٢٣٨ .
- إسماعيل، سعيد، تساؤلات جدلية حول الإسلام وتعليقات (المدينة المنورة: مكتبة دار الفجر الإسلامية ١٤٢٦هـ).
- ابن تيمية، القضاء والقدر، تحقيق وشرح أحمد عبد الرحيم السايح السيد الجميلي (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١١).
- ابن القيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تصحيح السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعسالي الحلبي. (القاهرة: دار الفكر ١٣٩٨).
- إسماعيل، سعيد، كشف الغيوم عن القضاء والقدر (المدينة المنورة: المؤلف ١٤١٧هـ).
- إسماعيل، سعيد، تساؤلات جدلية حول الإسلام وتعليقات ط٣ (المدينة المنورة: مكتبة دار الفجر الإسلامية، أو مكة المكرمة: ركن الدعوة ١٤٢٨هـ).
- ابن تيمية، أحمد، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن محمد الحنبلي، قاسم العاصمي النجدي (الرياض: الجامع نفسه ١٣٩٨).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي (بيروت: المكتبة العصرية ١٤٢٤ هـ).
- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ط٢ (بيروت: دار صادر ١٤١٢).
- البخاري، صحيح البخاري، تعليق وشرح أحمد بن على بن حجر العسقلاني، أحمد ابن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ترقيم وتصحيح ومراجعة محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب وقصي محب الدين الخطيب (القاهرة: دار الريان للتراث ١٤٠٧).
- ابن حميد، صالح بن حميد، أصول الحوار وآدابه في الإسلام (مكة المكرمة: دار المنارة للنشر والتوزيع ١٤١٥).
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح: سنن الترمذي،



تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر (بيروت: دار الكتب العلمية).
- التويجري، عبد العزيز بن عثمان، الحوار من أجل التعايش (القاهرة: دار الشروق ١٩٩٨).
- التويجري، عبد العزيز بن عثمان، الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي (المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ١٩٩٧) أو في آفاق الإسلام، الصادرة عن الدار المتحدة للنشر العدد كانون الأول ١٩٩٨م ص ٦٤-٨٥ .
- جبور، رياض، من أجل تعاون أفضل ما بين الشعوب والأديان، البحرين: الدورة العاشرة لمؤتمر الحوار الإسلامي-المسيحي المنعقد بين ٢٨-٣٠ أكتوبر ٢٠٠٢ .
- حسن، عثمان علي، منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد (الرياض: دار أشبيليا ١٤٢٠).
- الحليبي، أحمد بن عبد العزيز، أصول الحكم على المبتدعة عند شيخ الإسلام ابن تيمية (قطر: كتاب الأمة ١٤١٧هـ).
- حيا الله، حمدي، أثر التفلسف في الفكر الإسلامي (القاهرة: مطبعة الجبلاوي ١٣٩٥/ ١٩٧٥).
- الخزندار، محمود محمد، فقه الائتلاف: قواعد التعامل مع المخالفين بالإنصاف (الرياض: دار طيبة ١٤٢١هـ).
- خضر، المطران جورج، الحوار الإسلامي المسيحي في الحسن، حوار الحضارات ص ٢١٥ .
- رابطة العالم الإسلامي، ندوات علمية في الرياض، والفاتيكان، ومجلس الكنائس العالمي في جنيف، والمجلس الأوربي في ستراسبورغ حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي).
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، القضاء والقدر (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١٠).
- زمزمي، يحي بن محمد حسن بن أحمد، الحوار: آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة (مكة المكرمة: دار التربية والتراث ١٤٤).



- الزين، محمد حسني، منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري (بيروت: المكتب الاسلامي ١٣٩٩هـ).
- السابعي، ناصر بن سليمان، أسباب الاختلاف، في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (جامعة الزيتونة ١٤٢١) ص ٢٩-٤٩ .
- الشريف، كامل، حول حوار الحضارات القاهرة: المجلس الأعلى العالمي للدعوة والإغاثة).
- الشنقيطي، محمد الأمين، آداب البحث والمناظرة (القاهرة: دار ابن تيمية للطباعة والنشر).
- الشيخلي، عبد القادر، أخلاقيات الحوار (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع ١٩٩٣).
- صبحي، محي الدين، مطارحات في فن القول : محاورات مع أدباء العصر (دمشق : اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٧٨).
- الصويان: أحمد بن عبد الرحمن، الحوار: أصوله المنهجية وآدابه السلوكية (الرياض: دار الوطن ١٤١٣).
- صيني، سعيد إسماعيل صالح، الحوار النبوي مع المسلمين وغير المسلمين (الرياض: مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني ١٤٢٦هـ).
- صيني، سعيد إسماعيل، الإسلام وحوار الحضارات، مقدم لمؤتمر "الحوار بين الحضارات من أجل التعايش" المنعقد في دمشق بين ١٨-٢٠ / ٥/ ٢٠٠٢ م
- صيني، سعيد إسماعيل، الأسس المشتركة للعلاقة الودية بين المسيحيين والمسلمين، مؤتمر الحوار الإسلامي- المسيحي العاشر المنعقد في البحرين بين ٢٨-٣٠ أكتوبر ٢٠٠٢م.
- صيني، سعيد إسماعيل، القواعد الإسلامية في الحوار بين الأديان، تم تقديمه في مؤتمر الحور الإسلامي المسيحي وما بعد، جنيف ٢٠٠٢م.
- صيني، سعيد إسماعيل، حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ).
- صيني، سعيد إسماعيل، علاقة المسلمين بغير المسلمين (المدينة المنورة: مكتبة دار الفجر



الإسلامية ١٤٢٦).
- صيني، سعيد إسماعيل، خلق الإنسان والقضاء والقدر، المؤتمر العالمي للحضارات والفلسفة، المنعقد في مدينة سانت بيترزبورق، روسيا من ٧-١٢ سبتمبر ٢٠٠٢ م. (أصل الورقة بالإنجليزية وعنوانها: .(and fate Creation of Man)
- صيني، سعيد إسماعيل، الخطاب الإسلامي بين الرفض والتسليم، مقدم للمؤتمر السنوي الثامن لرابطة العالم الإسلامي، المنعقد في الفترة بين ٥-٧ ذي الحجة ١٤٢٨ للهجرة.
- صيني، سعيد إسماعيل، مدخل إلى الرأي العام (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢١هـ).
- صيني، سعيد إسماعيل، إشكالية التعايش السلمي بين الثوابت والخصوصيات، مقدم في مؤتمر "نحن والآخر" المنعقد في الكويت بين ٦-٨ صفر ١٤٢٧هـ.
- عزوزي، حسن، الإسلام ومبدأ الحوار مع الآخر، في الوعي الإسلامي ذو الحجة ١٤١٨هـ ص ٥١- ٥٣ .
- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين (- دار الريان للتراث-).
- القاضي، أحمد بن عبد الرحمن، الحوار مع أتباع الأديان الأخرى في عصر العولمة (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي المؤتمر الإسلامي الرابع ١٤٢٣هـ).
- اللبودي، مني إبراهيم، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه (القاهرة: مكتبة وهبة، 14هـ).
- مجلة التوعية الإسلامية، مسك الختام: حقيقة الدعوة إلى وحدة الأديان في مجلة التوعية الإسلامية العدد: ٢١٤رجب-شعبان-رمضان ١٤١٨هـ ص ٢١٢-٢٢٢ .
- المجمع الفقهي، بيان مكة المكرمة (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي ١٤٢٢/ ٢٠٠٢).
- الميثاق الدولي لحقوق الإنسان، المادة ٢٦: ٣؛ الاتفاقيات الدولية الخاصة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ١٣: ٣ .
- الويشي، عطية فتحي، حوار الحضارات فريضة شرعية وضرورة بشرية، في القافلة العدد ربيع الآخر ١٤١٩هـ ص ١-٢ .
- الوطن، مؤسسة عسير للصحافة والنشر عدد يوم الثلاثاء بتاريخ ٨/ ١/ ١٤٢٧هـ



- Encyclopedia Britannica (London: Encyclopedia Britannica, Inc
- BRITANNICA JUNIOR ENCYCLOPEDIA (LONDON: ENCYCLOPEDIA BRITANNICA, INC. 1981).
- Sieny, saeed I. the Islamic Foundation of Dialoggue cross Religions, presented to Cross Religion Conference in Geneve between 16-18 October 2002.
- Sieny, Saeed E., Creation of Man and Fate, The Fifth International Congress on Philosophy and Culture, St. Petersburg, Russia, September 7-12, 2002.

الحوار الرسالي مع الغرب موضوعا ومنهجا

د.عبد المجيد النجار

الأستاذ في المعهد الأوربي للعلوم الإنسانية - فرنسا



تمهيـــد

إن الله تعالى قد تعبدنا بأن نكون شهداء على الناس كما جاء في الذكر الحكيم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٤٣) وهذه الشهادة إنما هي تعريف الناس بالمنافع والخيرات المعنوية والمادية التي يتضمنها الإسلام، ودعوتهم إلى تفهّمها والاقتناع بها والعمل بمقتضاها، وبما أنّ هذه الشهادة واجبة على المسلمين دائمة إلى آخر الدهر، فإنهم إذن يتوفّرون على ما يقدمونه للبشرية من خير في كل زمان مهما ظنّ الظانّون أنهم قد بلغوا من التقدّم الحضاري ما لا يحتاجون معه إلى خير من خارجهم، ولا يُستثنى زمننا هذا من أن تنطبق عليه هذه السنة الماضية إلى آخر الدهر.

وقياماً بهذا الواجب في الشهادة على الناس يكون من الضروري أن يسلك المسلمون مسلك الحوار مع هؤلاء المشهود عليهم، إذ الهدف هو التعريف بما في دينهم من خير، والإقناع به في سبيل الاستفادة منه، وذلك لا يمكن أن يتمّ إلا خلال منهج حواري بين الطرفين، تتبادل فيه الآراء، وتتدافع فيه الحجج، حتى يبلغ الحوار غايته المبتغاة منه ضمن مبدىء الشهادة.

ولذلك فإن الحوار المطلوب اليوم مع الغرب ليس هو الحوار الذي يكتفي بتبادل الآراء، أو بالتعاون في بعض المجالات التي هي ساحة التقاء، أو ببيان كلّ لما هو عليه من حقّ وما عليه الطرف المقابل من باطل، أو بالحوار الذي



يتصدّى لفكّ مفاصل الاشتباك التي قد تنشب بين الطرفين بين الحين والآخر، وإنما ينبغي أن يكون من قِبل المسلمين حوار رسالة قائماً على مبدء الشهادة التي تقتضي أن يقدّموا فيه للناس ما فيه خيرهم، وما يسهم في حلّ المشكلات التي تؤرّق الإنسانية عامّة وأهل الغرب بصفة خاصّة، وبذلك يكون الحوار ذا مضمون نفعي، من شأنه أن يرتقي بالإنسانية إلى ما فيه الخير والأمن والتعايش السلمي والبناء الحضاري.

ربما ظنّ أهل هذا الزمان من روّاد الحضارة الغربية أنهم قد بلغوا في سلّم الحضارة شأوا بعيدا، فأصبحوا هم المتصدرون للشهادة على العالمين بكسوبهم الحضارية، مستغنين عن كلّ من سواهم أن ينفعوهم بشيء، وربما قوي هذا الظنّ عندهم بالنظر إلى المسلمين بصفة خاصة، فما عسى أن يشهدوا به عليهم وهم القابعون في أدنى السلّم الحضاري؟ وهل لفاقد الشيء أن يعطيه؟

ولكنّ المتأمّل بنظر العقل في واقع العالم الغربي وأوضاعه، وفيما يتوفّر عليه الإسلام من القيم يصل - لا شكّ - إلى نتيجة مخالفة لهذا الظن الموهوم، فأهل الغرب وإن هم قد بلغوا من التقدّم الحضاري المادي مبلغا عظيما إلا أنهم وهم البشر كسائر البشر يتعرضون ويتعرض العالم معهم إلى أزمات حادة في المجال النفسي والاجتماعي والأخلاقي والبيئي؛ ذلك لأن الحضارة التي أقاموها وعمموها أشبعت في الإنسان مطالبه المادية فهي حضارة قامت على فلسفة الاستهلاك المادي باعتباره الغنم الأكبر في هذه الحياة التي ليس بعدها حياة، وتناست الأشواق الروحية للإنسان التي تربطه بعوالم تتجاوز الأبعاد المادية، وهكذا آلت الحياة الفردية والجماعية إلى جفاف



ضارب وقحول رهيب، ظهرت آثارهما في معاناة مضنية من القلق والاكتئاب والتفكك الأسري والحروب المدمرة والخوف من مصير مجهول للبيئة بما أصابها من خراب ينذر بمآلها إلى الفناء.

إزاء هذا الوضع فإن نظرة موضوعية إلى ما يتضمنه الإسلام من القيم الفلسفية توجّه حياة الإنسان في نفسه ومجتمعه وبيئته تفضي إلى اليقين بأنّ المسلمين يمكن أن يقدّموا للعالم في وضعه الراهن ما يكونون به شهداء على الناس، نافعين بالخير، مسهمين في حلّ المعضلات التي تتخبّط فيها الإنسانية، ولا يضيرهم في ذلك أن يكونوا في ميزان التحضر المادي في درجات متخلفة، فالمصلحون المبشرون بالخير لم يكونوا دوما في التاريخ الإنساني من روّاد التحضّر المادي؛ ذلك لأن القيم الكبرى كما نؤمن هي التي تحرك التاريخ في أبعاده المادية، وقد كان للمسلمين تجربة تاريخية شاهدة على ذلك، فحينما بشّروا بالقيم الإسلامية التي أنشأت الحضارة المشهودة لم يكونوا في سلّم التقدّم المادي إلا في درجات متأخرة منه، فكيف لا يستطيعون اليوم – وهم في هذا الشأن – أفضل وضعا أن يقدموا للبشرية الحائرة ما فيه خيرها وعلاج أسقامها.

ولكنّ هذا الدور الشاهد المطلوب من المسلمين اليوم إزاء أهل الغرب بصفة خاصّة لا يمكن أن يتمّ إلا عن طريق حوار جادّ قائم على استعداد علمي، وتتعاون فيه قوى متعددة من قوى المجتمع الإسلامي، فيما يشبه أن يكون علما قائما بذاته يمكن أن يُسمّى بعلم الحوار مع أهل الغرب، ويكون محدّدا فيه المضمون الذي يُراد أن يُبلّغ للناس من أجل الإسهام في حلّ المشكلات التي تعترض الحياة الإنسانية، ومحدّدا فيه المنهج الذي ينبغي أن يُقدّم فيه ذلك المضمون من أجل أن يبلغ ذلك المضمون هدفه...



١ ـ مضمون الحوار الرسالي

إذا كان المسلمون ليس بإمكانهم حاليا أن يقدموا للإنسان علوما كونية وتقنية، ومبتكرات صناعية مادية لتخلفهم في ذلك جميعا، فإنّ في مخزونهم القيمي الكثير مما يمكن أن يقدّم للإنسانية، ويكون فيه الخير العميم، والعلاج الناجع للكثير من المشكلات التي يعاني منها الإنسان. ويمكن في هذه العجالة أن نشرح ثلاثة نماذج من القيم التي يعاني في شأنها أهل الغرب خاصة والإنسان عامّة معاناة شديدة تؤرّق الحياة وتنذر بسوء المصير، ويتعلّق كل واحد منها بمجال من مجالات الحياة.

أ ـ معادلة الروح والمادة في مجال الوجود

إذا كانت الفلسفة الغربية التي تقود الحضارة الراهنة قد اتخذت من البعد المادي في التصور الوجودي عامة وفي تصور الوجود الإنساني خاصة البعد الأوحد الذي تؤسس عليه الحياة، فإنّ فلسفات وأديانا أخرى شطّت في عكس ذلك، فاتخذت من البعد الروحي البعد الحقيقي إن لم يكن الأوحد الذي أقامت عليه حياتها في كلّ المجالات، فأغرقت تلك في إشباع المطالب المادية لاغيةً أو تكاد تلغي مطالب الروح، وأغرقت هذه في إشباع مطالب الروح لاغية أو تكاد تلغي مطالب الجسم.

وقد أصاب الإنسان في كلّ من الحالين رهق شديد جرّاء هذا التعسّف على الفطرة الإنسانية التي خلقت على تركيب مزدوج من مادة وروح لكل منهما مطالب يسعى إلى تحقيقها، فإذا ما قُمعت تلك المطالب باء الإنسان بالأوجاع، وتعثّرت مسيرته في التعمير. وهاهو إنسان الغرب اليوم يشبع



الجسم ألوانا غير محدودة من المباهج المادية ولكنه يتجرع آلاما روحية ظهرت في أمـراض من الاكـتـئـاب والقلق واليـأس، أو في الهـروب من الحـيـاة بالمخدرات والانتحارات، ولا غرو فإن تلك نتيجة طبيعية للشعور بأن الحياة قد استنفدت أغراضها المنحصرة في المتع المادية، وإذ قد تحققت هذه المتع فماذا بقي للحياة من معنى يدفع إلى الحفاظ عليها؟

إن الإسلام قد انفرد كما نعتقد من بين الفلسفات والأديان بأن أقام مطالب الحياة على معادلة دقيقة بين الجسم والروح، فقد اعتبر البعد المادي في كينونة الإنسان حقيقة مشروعة لبّى مطالبها الفطرية لإشباع أشواق الشهوات، واعتبر البعد الروحي فيها حقيقة مشروعة، أيضا لبّى أشواقها في طلب السموّ والاتصال بالمطلق، وهكذا يعيش الإنسان بهذه المعادلة رضيّ النفس بمتع الحياة الدنيا، ولكنّه ممتدّ بالأمل تحدوه أشواق الروح إلى ما لا نهاية، فلا هو مأزوم بكبت مطالب فطرته الجسمية، ولا هو يائس من الحياة لاستنفاد أغراضها المنحصرة في تلبية تلك المطالب، وبذلك يكون معمّرا في الأرض عاملا العمل الدؤوب لإشباع جسمه كأنه يعيش أبدا، ولإشباع مطالب روحه كأنه يموت غدا.

ألا تكون هذه القيمة العليا من قيم الحياة جديرة بأن يقدّمها المسلمون اليوم إلى عالم برّحت به آلام المجاعة الروحية كما برحت به آلام التخمة المادية، فإذا هو يعيش حالة من قلق وجودي واضطراب نفسي انعكس في سيرته عنفا فرديا وجماعيا، أو اكتئابا ويأسا، أو استهتارا بفطرته الإنسانية ينقلب به إلى ممارسات من الشذوذ الحيواني، فإذا ما نزعت الفطرة في بعض النفوس إلى تعديل الميل الحاصل فيها اتجه ذلك النزوع إلى ميل نحو



روحانية مفرطة باتباع مذاهب شرقية إشراقية مغالية، فإذا المعادلة تنخرم من جديد نحو ذلك الجانب الروحاني، فلا يكون لها استواء إلا بهذه القيمة الإسلامية المعادلة بين الجسم والروح في الإنسان.

ب ـ السّكَنُ في المجال الأسري

لا يخفى ما يعانيه الغرب اليوم من تفكك أسري رهيب، لا يأتي فقط على تلك الروابط الروحية بين أفراد الأسرة، ولا يذهب بذلك السكن الذي يجده الفرد في أحضانها، ولا يصيب الأفراد بجفاف العواطف، وقحول الحياة، وإنما هو مع ذلك كله يهدّد هذه المؤسسة الاجتماعية القديمة بالتلاشي، ويهدد بذلك كلّ الكسب الإنساني في هذا المجال منذ وجد الإنسان بأن يذهب هباء.

وليس هذا المآل الذي آلت إليه الأسرة في الغرب نتيجة لمسار سلوكي عملي انساقت فيه الحياة على وجه التلقائية، أو تحت ضغوط النسق الحضاري الشديد الوطأة، وإنما هو وإن بدا في أول أمره كذلك إلا أنه أصبح منذ بعض الزمن يصاغ عند كثيرين صياغة نظرية فلسفية مؤصّلة، تمتدّ إلى الأسرة في أصل وجودها بما يمكن أن يؤول بها إلى الانقراض، إذ هي على رأي هؤلاء ليست إلا نمطاً موروثاً بالعادة، فيمكن أن تمتدّ إليه يد التغيير كما تمتدّ إلى سائر العادات، وفي هذا السياق شُرّع للشذوذ الجنسي أن يكون قاعدة للأسرة الجديدة، وهو ما لو فشا في الناس لأدّى إلى انقراض الذرية وفناء النوع الإنساني، وفي هذا السياق أيضا ظهرت فلسفة الأسرة الطبيعية التي لا تقوم على ميثاق، بل تكتفي بمجرد اللقاء الحيواني، كما تندرج ضمنه فلسفة الجندر التي تسوي بين الجنسين تسوية تكاد تكون تامة فتنتهي في آخر الأمر إلى ذات



النهاية الكئيبة في المجال الأسري.

لقد كان الحصاد مراً في هذا التفلّت الأسري عملية ونظرية، إذ انتهى إلى انحلال الروابط بين أفراد الأسرة، وتمزّق الوشائج العاطفية بينهم، وانعكس ذلك على الأوضاع النفسية يتجرعها أوجاعا أولئك الأفراد وخاصة منهم من كان في طرفي العمر صبى أو شيخوخة، والشواهد على ذلك تتواتر يوما بعد يوم في الواقع الأوروبي على نحو ما وقع في فرنسا منذ بعض السنوات من أنّ ثلث الخمسة عشر ألفا من المسنين الذين قضوا في موجة الحرّ لم يدلّ على موتهم إلا الروائح الكريهة التي انبعثت من منازلهم، وعلى نحو ما تناقلته الأخبار من النمسا من أنّ أباً حبس ابنته في قبو منزل أربعة وعشرين عاما وأنجب منها سبعة أبناء، إنها مأساة الأسرة في العالم الغربي التي لا تهدّد الإنسان في سعادته وإنما تهدّده أيضا في وجوده.

وفي الإسلام تحتلّ الأسرة درجة عليا في سلّم القيم الأخلاقية والاجتماعية، فقد شرع من القوانين التي تحميها وتحافظ عليها ما لم يشرع في أي مجال آخر من المجالات الاجتماعية، وأحيطت بضرب من القداسة عبّر عنه القرآن الكريم بالميثاق الغليظ من شأنه أن يعلي من مقامها في الضمير الفردي والجمعي بما يجعلها السكن الذي تسكن إليه النفوس وتتمتّن به الأواصر المادية والمعنوية فيعصمها ذلك من الانحلال، وقد أثبتت التجربة التاريخية أنّ هذا التشريع كان هو الضامن لاستمرارية القيم الأسرية، وبما هو تشريع ثابت فإنه سيظلّ كذلك إلى آخر الدهر مهما تناوشته الأحداث في زمن من الأزمان أو ظرف من الظروف.



إنّ هذه القيم الأسرية يمكن للمسلمين أن يشهدوا بها على الناس في الواقع الغربي وقد أرهقته آلام التفكّك الأسري، وغدت هذه الآلام مصدر شكاة يزفر بها الكثير من المفكرين المهتمين بالشأن الاجتماعي والحضاري، فلو قُدّمت لهم هذه القيم بالطريق الأقوم فإنهم سيجدون فيها مادة للتبشير، ودواء للإنقاذ، من شأنه أن يوقف هذا التردّي الذي تتدحرج به الأسرة الغربية إلى المصير المظلم الذي يهدّد فيه المجتمع بأكمله في استقراره بل في وجوده واستمراره.

ج ـ التوازن في المجال البيئي

لا يخفى ما يشغل العالم اليوم من أزمة خطيرة عُرفت بأزمة البيئة، تلك المتمثّلة في الخلل الذي يحدثه الإنسان في الطبيعة بشراهته في الاستهلاك المفرط الذي نجم عنه استنفاذ لبعض عناصرها، وتلويث لهوائها وبحارها، وتحطيم لبعض مكوّناتها الحامية، فغدت بيئة مختلاً توازنها، مكشوفة من حامياتها، مسمومة في مساحاتها الحيوية. وإذا كان هذا الوضع لم يبلغ الآن حدّ الخطر الأكبر إلا أنّه لو تطوّر على نفس النسق فإنه سيؤول يوما ما قد لا يكون بعيدا إلى أن تعجز البيئة عن إعالة الحياة، فتكون تلك النهاية للوجود الإنساني على وجه الأرض، وهو الأمر الذي أصبح يقضّ مضاجع العارفين بهذا الشأن، فرفعوا أصواتهم منذرين بمصير بيئي تنتهي به الحياة، ويصبح الإنسان أسطورة كأساطير الدينصور المنقرض منذ ملايين السنين.

وليست هذه الأزمة بناشئة في أصلها من التصرّفات العملية السلوكية للإنسان فيما تمتدّ به يده للإفساد في الأرض، وإنما هي ناشئة في حقيقتها من الخلفية الفلسفية الثقافية التي تصدر عنها تلك التصرّفات، فالفلسفة الغربية



التي أنشأت هذه الحضارة الراهنة قامت على اعتبار الطبيعة عدوا للإنسان فينبغي غزوها لافتكاك المنافع منها، تلك المنافع التي ينبغي أن تفتكّ بأكبر قدر ممكن إذ هي الغنم الأكبر والوحيد في حياة ليس بعدها من حياة، وفي هذا الغزو الاستهلاكي المفرط تتمّ المفاسد التي تنال البيئة بالخلل في توازنها خللا إذا لم يتمّ فيه علاج فإنه سينتهي إلى تلك النهاية المأساوية للحياة على الأرض.

وقد جاء الإسلام بقيم في هذا الشأن هي أعلى القيم وأرقاها، وهي الكفيلة وحدها بأن تحافظ على البيئة الطبيعية صالحة لاستمرارية الحياة وإعمارها. وقد تأسّست تلك القيم ابتداء على تصوّر للطبيعة على أنها مجلًى لصفات الله تعالى تتجلّى فيها الآيات الدالّة عليها، فتكتسب إذن في النفوس من الحرمة ما تقتضية عظمة تلك الصفات وقداستها. كما تأسّست أيضا على تشريع يصف الطبيعة على أن بينها وبين الإنسان أخوّة وصداقة ومودّة إذ هما جميعا توأمان في خلق الله تعالى وتدبيره، وذلك ما يقتضي التعامل بالرفق والرحمة لا بالغزو والقسوة. وقد جلّلت هذه المبادئ العقدية المتعلقة بالبيئة الطبيعية بتشاريع عملية تمنع التصرّفات العبثية والتبذير المفرط مما يحدث في البيئة الخلل، فاكتملت إذن دائرة القيم البيئية التي تحفظ الطبيعة من أيّ خلل قد يفضي بها إلى الفساد.

إن هذه القيم البيئية كنز عظيم يمكن للمسلمين أن يقتحموا به السوق العالمية لمعالجة الأزمة البيئية، وهي قيم من شأنها أن تعالج الجذور التي أفرزت هذه الأزمة، ولا تقتصر على معالجة الظواهر بمعالجات تقنية سرعان ما يتلاشى مفعولها إذا لم تعالج الأزمة من جذورها بمثل هذه القيم البيئية،



وذلك أمر تفطّن إليه عالم البيئة الأمريكي آل قور حينما قرّر أن أزمة البيئة ليس لها من علاج إلا العلاج الثقافي الفلسفي، ولكنه لئن أشار في هذا الشأن إلى القيم الإسلامية فإنه لم يوفّها حقها من البيان، فهل يقوم المسلمون بهذا البيان فيما يشهدون به اليوم على الناس؟

٢ ـ منهج الحوار الرسالي

قد تكون القيم الإصلاحية تحمل في ذاتها من القوّة ما تقدر به على تغيير التاريخ، ولكنّ هذا التغيير لا يقع؛ ذلك لأن هذا التغيير لا يحصل بمجرّد القوّة الذاتية للقيم، وإنما يحدث إذا بُلّغت تلك القيم للناس على الوجه الذي يكون به تأثير عليهم، فيتحمّلونها التحمّل الفاعل في النفوس المؤثّر في السلوك، وإذن فإن منهجية الشهادة على الناس أمر لا يقلّ في الأهمّية عن قيمة المشهود به من القيم، وهو ما يطرح على المسلمين مسؤولية كبرى فيما يقدّمونه للناس من قيم هي من حيث ذاتها من صياغة الدين، ولكن عليهم هم أن يصنعوا في تقديمها للناس من المناهج ما يجعلها مقبولة لدى أهل الغرب، مؤثرة في النفوس، فاعلة في السلوك.

إنّ ما يقدّمه المسلمون للغرب من القيم وإن كان في ذاته مشتقّا من الدين، إذ الدين هو القيّم على كلّ الحياة، إلا أنه لا مانع من أن تقدّم هذه القيم باعتبارها قيما إنسانية عامّة، محقّقة لمصلحة الإنسان، معالجة لأوجاعه، فمن تقبّلها من الناس على أنها دين فله ذلك، ومن أرادها قيماً إنسانية فله ذلك أيضاً عسى أن تصبح يوماً نافذة يُطلّ منها على الدين فتكون برهاناً على صحته يؤدّي به إلى الدخول فيه. وفي كلّ الأحوال فإنّ المسلمين ـ وهم يقدّمون قيمهم للعالم ـ



مطالبون بأن يأخذوا بعين الاعتبار مسالك منهجية ثلاثة:

أ ـ العلم بالغرب وأهله

من أوّل الشروط في التبليغ أن يكون المبلّغ عالماً بالمبلَّغ إليه. وإذا كنا نتحدث عما يقدمه المسلمون لأهل الغرب فإن ذلك يقتضي أول ما يقتضي علما بهؤلاء المبلَّغ إليهم المشهود عليهم؛ ذلك لأنّ للناس في الإصغاء والتفهّم والاقتناع مداخل لا يمكن حصولها إلا عن طريقها، فإذا لم يقع الاهتداء إليها أصبح الحوار أقرب إلى أن يكون حوار الصمّ، فيكون التقديم عقيماً.

والاهتداء إلى تلك المداخل لتقديم ما يراد أن يُقدّم بواسطتها أمر ليس بالهيّن على عكس ما يُظنّ، وهو ما يبلغ درجة عليا من الصعوبة في قضية الحال، وذلك بالنظر إلى تعقّد الحياة وتشابكها وتداخلها في عالم اليوم؛ ولذلك فإنّ الأمر يقتضي من المسلمين في سبيل عرضهم قيَمهم أن يؤسّسوا ذلك على علم متين بالغرب وأهله المعروض عليهم، وهو العلم الذي ينبغي أن ينفذ إلى الأعماق لتتبيّن في ضوئه طرق الولوج إلى العقول لإفهامها بالمعروض، وإقناعها به.

وقد يظنّ الكثير من المهتمين بهذا الشأن ومنهم من يعيش السنوات الطويلة بالغرب أنهم وقفوا على حقيقة هذا الواقع الذي يعيشون فيه، لطول عهدهم به وإقامتهم فيه، ولكن عند التبيّن يظهر أن علمهم به لم يكن إلا علما سطحيا تناول المظاهر ولم يتناول الأعماق، فلم يكن إذن كافيا ليُبنى عليه منهج صحيح في الخطاب بالقيم المراد تبليغها.

إن الواقع الغربي يضرب بجذوره في التاريخ الثقافي البعيد الذي يعود



إلى العهد اليوناني وما بعده من عهود، ثم إنه تشكّل بسلسلة متشابكة من المذاهب والفلسفات والأديان، فإذن هذا السطح المرئي منه تحركه وتوجّهه خيوط من الرواسب الفلسفية والثقافية بعيدة الغور متشابكة الأطراف، وإذن فإنّ فهم المداخل التي تتقبّل خطاب القيم يتطلّب علما عميقا بهذه الخلفيات الثقافية والفلسفية والدينية الممتدّة إلى الماضي والمتواصلة مع الحاضر لتتبيّن خلال ذلك التشكيلة العقلية والنفسية التي يتشكّل بها العقل الغربي المخاطَب بهذه القيم، فتتبيّن إذن الأبواب التي يمكن أن ينفذ منها الخطاب، فيُتلقّى بالقبول، ثم بالتفهّم الذي قد ينتهي بالاقتناع، وبذلك يكون هذا الخطاب قد خطا الخطوة المنهجية الضرورية الأولى فيما نقدمه للغرب من قيم.

ب ـ البرهان العلمي

حينما يُدرس الغرب من الجهات التي أشرنا إليها آنفا فإنه يتبيّن أن العقلية الغربية قد تشكّلت منذ زمن على المنهاج العلمي الذي يقوم على اعتماد حقائق العلوم الكونية وقوانينها ميزانا أساسيا توزن به الأفكار والآراء من أجل اتخاذ الموقف منها قبولا وردّا، وقد يُلحق بالعلوم الكونية والرياضية في هذا الشأن العلوم النفسية والاجتماعية والاقتصادية، فإذا العقل الغربي بسبب ذلك لا يأبه كثيرا بما تقدّمه إليه من أفكار إذا لم تكن مؤسسة على برهان يتخذ مادّته من هذه العلوم، فإذا ما كانت مؤسّسة عليها أصغى السمع وبادر بالتفهّم الذي قد ينتهي إلى الاقتناع.

وهذا الواقع الثقافي الغربي يقتضي من المسلمين وهم يقدّمون قيمهم أن يصوغوا هذه القيم في مضمار عرضها على الناس صياغة برهانية تستعمل حقائق



العلوم مقدمات للاستدلال عليها ومن شأنها أن تسهم في حلّ المشكلات التي تؤرّق الإنسان في عالم اليوم، فإذا ما قُدمت هذه القيم على هذا النحو البرهاني العلمي جلبت انتباه الناس لما يحدث من تطابق مع تشكّلهم العقلي الثقافي، فتوجّهوا إليها بالدرس من أجل التفهّم، وربما انتهوا من ذلك إلى الاقتناع بها فيبلغ إذن الخطاب أغراضه في أن يقدّم من القيم ما ينفع الناس.

ومن منطلق إيماني فإننا نعتبر أنّه ما من قيمة من القيم الدينية موضوع حديثنا إلا ويمكن أن يُصاغ لها برهان من الحقائق الكونية؛ ذلك لأنّ هذه القيم هي من صنع الله تعالى بطريق الوحي، والكون كله من صنعه عن طريق الخلق، فلا بدّ إذن أن يواطئ وحيه خلقَه ولا يناقضه أبدا؛ ولذلك فإن الله تعالى كلما عرض علينا حقيقة من الحقائق العقدية الكبرى وجّهنا في سبيل التصديق بها إلى آياته في الكون لنتّخذ منها دليلا على صدقها فنؤمن بها بناء على ذلك الدليل الكوني. وهذا المنهج القرآني هو المنهج الذي يبقى صالحا على مرّ الزمان، فليستعمله المسلمون في عرضهم قيمهم على أهل الغرب وقد توفّر اليوم من العلوم الكونية ما يساعد كثيرا على هذه المهمة.

ج ـ البرهان النفعي

لا يغيب على الأذهان ما شاع في العالم اليوم بصفة عامة، وفي العالم الغربي بصفة خاصّة من فلسفة نفعية ذرائعية، حتى لكأنّ العقول قد تشكّلت في بنائها المعرفي على هذا النحو من النفعية، وذلك على معنى أنها حينما تعرض عليها الأفكار لامتحانها بميزان الحقيقة فإنها تنظر إلى ما تحققه من منفعة لإنسان في حياته الفردية والجماعية، فإن وجدت فيها نفعا تلقّتها



بالقبول ووضعتها في قوائم الحقيقة، وإن لم تجد فيها نفعا تلقّتها باللامبالاة إن لم يكن بالإهمال أو بإدراجها في قوائم الباطل.

ولم يبق هذا السمت المنهجي في التعامل النفعي مع الأفكار منحصراً في الفلسفة النظرية كما بناها وليم جيمس وأتباع مدرسته، وإنما أصبح مسلكا عمليا في السلوك اليومي للعالم الغربي، وهو ما لا تخطئه العين في المواقف الفردية للأشخاص في تعاملهم الاجتماعي، وفي المواقف الجماعية سياسية كانت أو اقتصادية، حتى ليكاد ينتهي الأمر إلى أنّ العلاقات التي تحكم العالم اليوم إنما هي علاقات متأسسة على الفلسفة النفعية التي تقبل الأفكار وتردّها على أساس ما تحققه من نفع.

وإذا كان الدين كله بما فيه من قيم وتشريعات إنما جاء ليحقق للناس المنافع في هذه الدنيا قبل الآخرة، فإن تقديم القيم الإسلامية للعالم الغربي بمنهج نفعي يكون أمرا مشروعا، كما يكون منهجا ناجعاً في العرض، فما من قيمة من القيم الإسلامية إلا وهي تحقّق للإنسان مصلحة في حياته الفردية والجماعية، والموادّ الاستدلالية على ذلك تتوفّر اليوم على نطاق واسع بما توفره العلوم الإحصائية والنفسية والاجتماعية من حقائق تساعد كثيرا في هذا الشأن، وهو الأمر الذي يدعو إذن إلى أن تقدّم هذه القيم لأهل الغرب في صياغة منهجية نفعية، فذلك من شأنه أن يجعل الناس إذا ما وجدوا منفعة لهم فيما يقدّم إليهم يستمعون فيتفهّمون، وهو أول الطريق إلى الاقتناع.

وقد كان هذا المنهج منهجا قرآنيا أيضا، فالقرآن الكريم إذا ما عرض القيم العقدية والاجتماعية فإنه كثيرا ما يعقب عليها ببيان منفعتها دفعا إلى التأمل



فيها للتصديق بها، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

ولعلّ من أبلغ البيان للمنفعة التي تحصل من القيم هو أن تعرض تلك القيم في نماذجها العملية المتمثلة في سلوك المسلمين الفردي والجماعي، فحينما يكون هذا السلوك مجسدا للقيم في واقع الحياة، متحققة به المنفعة عيانا، فإن ذلك يكون برهانا في أعلى درجاته من الإقناع ، فتتوجه العقول إليه إذن بالتأمّل ثم سريعا يحصل به الاقتناع إذ ثمرته النفعية حاصلة بالفعل فلا تحتاج إلى كبير جهد للاستنتاج، ولعلّ هذا المنحى في عرض المسلمين قيمهم على أهل الغرب هو المنحى الذي يواجه التحدّي الأكبر في شهادتهم اليوم على الناس، فبقدر ما يكون عليه حالهم في الواقع فيما يتعلق بتطبيقهم للقيم التي يعرضونها يكون نجاحهم فيما يقدمونه إلى أهل الغرب من تلك القيم، فهل يستطيع المسلمون عامة والمسلمون الذين يعيشون في الغرب خاصة أن يواجهوا هذا التحدي بكفاءة؟ ذلك ما يجب أن يعمل من أجله العاملون لتكون شهادتهم على الناس شهادة حق كما طالبهم بذلك ربّ العزّة حينما كلّفه بأن يكونوا شهداء على الناس

والله تعالى ولي التوفيق. . .



نظرات في أسس التعامل مع الآخر في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة السلف الصالح

الشيخ: محمد أحمد حسين

أمير الجماعة الإسلامية

باكستان



تمهيـــد

تتباين مواقف الناس في أهم القضايا وأبسطها، والمتخالفون من ناحيتنا قد يكونون مسلمين يحملون أفكاراً أو اجتهادات مختلفة، وقد يكونون غير مسلمين يعيشون مع المسلمين في مجتمع واحد أو في مجتمعات أخرى.

ولا يجد المتباينون في كثير من الأحيان مناصاً من الاحتكاك بعضهم ببعض، ولا مفر لهم من بناء علاقات في مجالات الحياة المختلفة مع بعضهم بعضا، تحت إطار فهم الآخر، سواء داخل المجتمع الواحد، أو خارجه.

ويشار هنا إلى سلامة السبيل الذي يهتم فيه الناس بالبحث عن نقاط الالتقاء والاتفاق أكثر من اهتمامهم بالعزف على أوتار الاختلاف والتغاير والشقاق.

لكن فهم الآخر ليس أمراً انتقائيا، يطلب في مواقف ويتجاهل في أخرى، ينتقد به قوم ويعفى من ضوابطه آخرون، فمثلما يطلب الفهم من طرف للآخر، فإنه يطلب كذلك من الآخرين تجاه هذا الطرف،وإن لم تتم هذه التبادلية والمماثلة في التعامل،فإن تهمة الكيل بمكيالين تكون لاصقة بالانتقائيين ولازمة لهم.

فمثلما يطلب من المسلم أن يفهم غير المسلم في إطار ضوابط الشرع، فإن فهم الآخر مطلوب بين المسلمين أنفسهم، على اختلاف اجتهاداتهم وتنظيماتهم وتصوراتهم ومذاهبهم.

وكذلك فإن غير المسلم مطالب بفهم المسلم، يتقبله بإسلامه الذي يدين به، دون أن يشترط عليه الأخذ بإسلام مبتدع، على موَّال فلان ،أو طريقة علاَّن.

نعم إن فهم الآخر شعار جميل، وسيكون أجمل لو اتسم بالشمول، لأنه



سيلطف الأجواء بين الناس، ويفتح الآفاق للحوار الموضوعي الهادئ بينهم، في جو من الاحترام وحفظ الحقوق، مما يساعد في تخفيف الأحقاد، وإطفاء فتيل النزاع على أكثر من مستوى وصعيد.

وفي ظل التساؤل عن موقف الإسلام من العلاقة بالآخر وفهمه، يحاول بحثنا هذا الإجابة عن بعض الأسئلة التي تتفرع عن هذا التساؤل، وهي على النحو الآتي:

١- ما القواسم المشتركة التي يلتقي فيها المسلم مع الآخر في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية؟

٢- ما حقيقة وجود الاختلاف بين الناس وكيفية التعامل مع الآخر في ضوئه وفق الكتاب والسنة؟

٣- كيف يمكن التوفيق بين النصوص الشرعية التي تذم المناهج المغايرة للإسلام وبين النصوص الأخرى التي تفتح آفاقاً للاعتراف بوجود الآخر وتتيح المجال للتعامل معه؟

٤- ما الحد المقبول للاختلاف بين المسلمين في الرأي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية؟

٥- ما الصورة المثلى لعلاقات المسلمين مع بعضهم بعضا في ظل تعدد آرائهم ووجهات نظرهم؟

وسوف يجري التركيز في هذا البحث على ما تيسر من الشواهد القرآنية خلال الإجابة عن تلك الأسئلة، بهدف التأكيد على أن الحديث عن إمكانية التعايش مع الآخر ومحاورته في إطار الضوابط الشرعية، إنما يستند إلى ما أوحى الله لرسوله الكريم ﷺ من القرآن الكريم، والسنة المطهرة.



القواسم المشتركة التي يلتقي فيها المسلم مع الآخر في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

رغم ما بين الناس من اختلاف وتباين، فإنهم لو بحثوا عن أمور مشتركة بينهم لوجدوا الكثير، وتشير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة إلى عدد من الأمور التي تشكل قاسماً مشتركاً بين الناس، سواء المسلمين منهم أوغيرهم، ومن تلك الأمور:

-خالق الناس واحد، وهو الله سبحانه وتعالى :

أشار القرآن الكريم في عدد من آياته إلى حقيقة خلق الله سبحانه للناس كافة، كما في مطلع سورة الرحمن، إذ قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ﴾(الرحمن: ١-٣).

ولما طلب الله من الناس أن يعبدوه ذكرهم بأنه سبحانه خالقهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:٢١) .

ولا يجد الناس مهما كانت توجهاتهم مناصاً من الاعتراف بهذه الحقيقة، يقول تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف:٨٧)

فهذا القاسم عظيم، ويشكل الركيزة المهمة في جانب التوافق الإنساني،وهو مؤشر مهم لإمكانية التعايش بين الناس.

- يرجع الناس لأب واحد وأم واحدة- إخوة في الإنسانية

معروف أن الله خلق آدم أولاً وأعلن للملائكة أنه سيكلفه بمهمة الخلافة



في الأرض فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠).

ثم خلق منه زوجه، ثم تناسل الخلق وتكاثروا، مصداقاً لقوله تعالى في مطلع سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾ (النساء:١)[(١)].

فأبو البشر واحد، وهو آدم عليه السلام، وأمهم واحدة، وهم بذلك إخوة في الإنسانية.

- أصل خلق الناس واحد

أخبر القرآن الكريم أن الله بدأ خلق الإنسان من تراب، وجعل الله خلق الإنسان من هذه المادة آية على عظمة الله وقدرته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ (الروم:٢٠).

وبين سبحانه في آيات أخرى أنه خلق الإنسان من طين، وهو مزيج من تراب وماء[(٢)]، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (الأنعام:٢).

وذكرت آيات أخرى نوع الطين الذي خلق منه الإنسان فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾ (الصافات:١١).

وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن:١٤).

---

(١) وفي سورة الزمر يقول تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾ (الزمر:٦)

(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون:١٢)، وقال سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ من طِينٍ﴾ (السجدة:٧)، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ﴾ (ص:٧١).



وتذرع الشيطان بهذا السبب لامتناعه عن السجود لآدم عندما أمره الله به[١]، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ (الإسراء:٦١).

وبينت آيات أخرى أن الإنسان خلق من ماء مهين[٢]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾ (المرسلات:٢٠)

وفصلت آيات أخرى مراحل خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج:٥)[٣].

---

(١) وقال سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف:١٢)،
وقال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص:٧٦).

(٢) وقال تعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٧-٩)

(٣) وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (فاطر:١١)
وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (غافر:٦٧).



فالناس خلقوا من مادة واحدة، ويرجعون إلى أصل واحد، ويمرون في مراحل خلقية واحدة، ويبدأ خلقهم بحالة من الضعف واضحة للعيان، ثم يشتد عود الإنسان ويقوى عضده، ثم يعود لا محالة إلى ضعف في نهاية المطاف، مهما طال به الزمان أو قصر على اختلاف بين الناس وتفاوت في المدى والمستوى، يقول تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم:٥٤).

فأصل الخلق واحد، ويرجع إلى هذا الأصل جميع بني آدم، على اختلاف مذاهبهم وألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وقوتهم وضعفهم وعلمهم وجهلهم، ويشكل هذا الأصل أساساً لالتقاء بني البشر، وداعياً لأن يرحم بعضهم بعضاً، كما يشكل مانعاً من تطاول بعضهم على بعض.

- الولادة على الفطرة السوية

يولد الناس في الأصل على الفطرة السوية، يقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ (الروم:٣٠).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي).

وفي رواية، قال رسول الله ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا



أنتم تجدعونها قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير قال الله أعلم بما كانوا عاملين" (صحيح البخاري، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين).

فالخير أصل في الناس، بينما الشر طارئ أو دخيل عليه، مما يعني ضرورة البحث عن جوانب الخير في الناس، والعناية بها وتعزيزها، ومعالجة جوانب الشر، وتعديلها فيهم، وقد كان الرسول ﷺ قدوة في ذلك، إذ لم يغفل ما في شخصيات خصومه من إيجابية، فهو القائل عليه الصلاة والسلام: "الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم، والناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، تجدون من خير الناس أشد الناس كراهية لهذا الشأن حتى يقع فيه" (صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾.

فلم يجعل الرسول ﷺ من المخالفة سبباً لتجاهل الحقيقة، ولا مبرراً لبخس الناس، وفي ذلك درس مهم لنا ونحن نعايش عالماً لا نجد بداً من التعامل معه، والاستفادة من خبراته في كثير من مجالات حياتنا العملية وغيرها، رغم ما بيننا وبينه من اختلاف عقائدي وفكري وقيمي في كثير من الأحيان.

- تكريم الإنسان وإحسان خلقه وصورته

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ...﴾ (الإسراء: ٧٠) فالله لم يقل كرمنا صنفاً من الناس دون صنف، وإنما أصل التكريم يشمل الناس جميعاً لمجرد أنهم من أبناء آدم، وللتكريم مقتضيات ينبغي مراعاتها، في كل أحوال التعامل مع الانسان وظروفها، فهي قيمة معتبرة حتى في حالات الحروب والعقاب، من هنا جاءت السنة النبوية باحترام كرامة الإنسان حياً وميتاً، ومما



يدل على ذلك، ما روي عن جابر، أنه قال: " قام النبي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت " (صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة).

والله فاضل بين الناس في مستوى التكريم، بناء على درجة التقوى لديهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣).

والله خلق الإنسان في أحسن صورة، يقول تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن:٣)

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤).

ويأتي حسن الخلق للناس في إطار القاعدة الكلية، التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة:٧).

- الناس على اختلاف ألوانهم وأطيافهم تستهدفهم رسالة الإسلام بالهداية والرحمة والإسعاد

إن الإنسان أياً كان موقعه أو مذهبه أو لغته أو جنسه فإنه محط رعاية الإسلام ومقصود للهداية ونيل الخير الذي جاء به هذا الدين، فالله أرسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (ص:٨٧)[١].

وأنزل الله القرآن نذيراً للعالمين، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان:١).

---

(١) ومثله في سورة القلم، يقول تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (القلم:٥٢) وفي سورة التكوير ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (التكوير:٢٧)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: "قدم الطفيل بن عمرو على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن دوسا قد عصت وأبت، فادع الله عليها.- فظن الناس أنه يدعو عليهم- فقال: "اللهم اهد دوسا وأت بهم" (صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء للمشركين).

ومن منطلق رحمته ﷺ بالعالمين، أنه حرص على التحذير من تجاوز الرحمة في العلاقة مع الناس، فقال ﷺ: "لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ" (صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن).

ومعلوم أن لفظ الناس عام، يشمل جنس الناس مسلمهم وغيره.

وبين ﷺ أن الإحسان مطلوب في كل الأمور، وكل العلاقات، فقال: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء" (صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة).

وهذا التوجيه النبوي ينسجم تماماً مع قوله تعالى: ﴿..وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥) وقوله سبحانه: ﴿...وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤).

ودعا الله إلى العفو والإحسان حتى مع من قال فيهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:١٣).

وحث القرآن الكريم على الإحسان لأسير الأعداء الذي يقع في أيدي المسلمين، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ (الإنسان:٨).



- **عداوة الشيطان لعموم الناس**

ومن القواسم المشتركة بين الناس عموماً، أنهم يواجهون عدواً لدوداً، يستهدفهم بشره وكيده، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر:٦).

فالشيطان ناصب بني آدم العداء من لدن أبيهم آدم، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٧).

وقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه:١١٧).

وعداوة الشيطان معلنة من قبله لبني آدم، وأخبر الله تعالى عن هذا في قوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٦٢).

وقد طلب إبليس أن يتيح الله له القيام بهذا العداء، قال تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٤-١٨).

وقد حذر الله بني آدم من أن تنطلي عليهم حيل الشيطان، وينساقوا وراء أحابيله، وعهد الله إليهم بتجنب عبادته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي



آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يس:٦٠).

فمن الحكمة والمنطق أن يوحد الناس جهودهم للتصدي لعدوهم المشترك الذي يتربص بهم الدوائر، ويسعى لنشر الشر بينهم، ويعمل على تفريق جمعهم.

- نهاية مطاف الناس في الدنيا تكون بالموت ومصيرهم إلى الله

فكما التقى الناس عند بداية الخلق، في وحدة المنشأ، ومراحل الخلق، فإنهم يلتقون أيضاً في النهاية الحتمية لحياة كل إنسان، فمآل الخلق من هذه الناحية واحد، فهم على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ينتهون عن الحياة بالموت، ومآب الجميع إلى الله[1] يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران:١٨٥)،وساعة الموت مجهولة للخلق جميعاً، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ؟﴾ (لقمان:٣٤).

فالدنيا بالنسبة لجميع الناس محطة البداية ونقطة الانطلاق للآخرة، يقول تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (الأعراف:٢٥).

---

(١) ووردت آيات أخرى تؤكد على هذا المعنى، منها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٥).
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت:٥٧).
﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ..﴾ (النساء:٧٨)
﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (الواقعة:٦٠)
﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ...﴾ (آل عمران:١٤٥)
﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام:٦١)



والحياة والموت لابتلاء الخلق، يقول تعالى: ﴿الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:٢).

والخلق كلهم سيبعثون لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين:٣-٦).

وسيواجهون الحقيقة لا محالة عند موقفهم للحساب في الآخرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟﴾ (الحج:١٧).

وهذا قاسم آخر يلتقي عليه بنو آدم؛ فكلهم ميتون ومبعوثون ومحاسبون.



حقيقة وجود الاختلاف بين الناس وكيفية التعامل مع الآخر في ضوئه وفق الكتاب والسنة

الاختلاف بين الناس حقيقة واقعة، سواء فيما لم يكن لهم اختيار فيه، أم فيما اختاروه بإرادتهم، فالله خلق الناس بألوان وأجناس ولغات وعقول مختلفة، وجعل ذلك آية دالة على عظمته وقدرته سبحانه ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

فالتنوع البشري من هذا الجانب واضح للعيان، ففيهم الأسود والأبيض، وفيهم العربي والعجمي، وفيهم العالم والأحمق...الخ. والشريعة الإسلامية تمنع أن يدفع هذا الاختلاف للتباعد بين الأنواع المختلفة من الناس.

والناس مختلفون كذلك فيما اختاروا بأنفسهم من العقائد والأفكار والمناهج والسلوك، لكن تعايشهم مع اختلافهم أمر ممكن، فالله أرسل لهم الرسل عليهم السلام، وأنزل إليهم الكتب، وختم الرسالات برسالة الإسلام، فتلك حقائق يجدر مراعاتها عند التعامل مع أتباع الديانات الأخرى، أو القضايا التي تنادي بها تلك الأديان، فالله تعالى يضع القاعدة لهذا التعامل، فيقول سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة: ٤٨)[١].

فالله لم يرد أن يقضي على التنوع بين البشر والتعدد في المذاهب

(١) وقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (النحل:٩٣)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الشورى:٨)



والتوجهات، فقد جعل الاختلاف بين الخلق وارداً لا محالة، ونتج عن ذلك أصناف من الناس ومذاهب شتى، والله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (التغابن:٢).

ولو شاء الله لانتصر لبعض البشر على بعض، ولو أراد الله ما أبقى أحداً من مخالفيه، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ (الإنسان:٢٨).

ومن مقتضيات التعامل مع حقيقة الاختلاف الواقع بين أصحاب الأديان، أن لا يجبر أحد على تغيير مذهبه ومعتقده، فنزع الاعتقاد قسراً من الناس خطأ فادح، لأنه لا يوصل إلى الهدف الحقيقي والمتمثل في الهداية الحقيقية، عدا ما يؤديه النزع القهري من ظلم للناس، وذلك يتنافى مع قيم الإسلام ومبادئه، ومعلوم أن الله عز وجل نهى عن الإكراه في الدين، فقال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦).

ويخاطب الله أشد الناس مخالفة للمسلمين وهم الكافرون، فيفسح لهم المجال ليبقوا على مذاهبهم، فيقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ١-٦).

وجاءت آيات أخرى تؤكد أن اختلاف البشر في معتقداتهم وشرائعهم يقع في إطار مشيئة الله تعالى، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود:١١٨).

ويقول تعالى: ﴿... بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (الرعد:٣١).



وبما أن التعددية العقائدية أمر واقع لا محالة، فعلى المسلم أن يتعامل مع هذه القضية من هذا المنطلق، فالله تعالى يقول: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فليكفر..﴾ (الكهف:٢٩) .

فالإيمان والكفر يكونان من البشر بإرادة الله، ويبقى حساب كل إنسان وجزاؤه على ما اعتقد وعمل عند الله، ولو شاء الله لما حصل هذا الاختلاف، ولما كان الناس إلا أمة واحدة، ولكن الله ترك للناس حرية الاختيار، وهم محاسبون يوم القيامة على ما ينتهجون، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ٩٩-١٠٠)

فالأمر أولاً وأخيراً بيد الله، والحساب على الأعمال والاختيارات، والجزاء على ذلك كله لله رب العالمين، يقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج: ٦٧-٦٩)[١].

(١) وردت آيات أخرى تشير إلى مرجعية الحاكمية فيما يختلف فيه الناس ،إنها لله ومن تلك الآيات ﴿فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (النساء:١٤١)
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النحل:١٢٤)
﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (الحج:٥٦)
﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الزمر:٣).



الصبر على ما يجد المرء من معاناة خلال تعامله مع المخالفين

يثبت الله تعالى المؤمنين وهم يواجهون مخالفيهم خلال خطابه للنبي ﷺ، في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦)

ومما يشد الانتباه أن هذا الخطاب جاء أيضاً في مقدمة إحدى السور القرآنية، ففي الآية الثالثة من سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣)،

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:٨)

فلا داعي إذن للإحباط جراء ما يذهب إليه المخالفون للمسلمين، بل المطلوب الصبر في مواجهة ذلك، عسى الله أن يقضي أمراً كان مفعولا، يقول تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨)

وأمر الله بالصبر على المخالفين، ارتقاباً لحكم الله، فقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس:١٠٩).

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (الأعراف:٨٧).

وبين الله للمؤمنين سبيلهم في الدعوة في ظل الاختلاف الواقع مع مخالفيهم ،



فقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٥).

فهداية الخلق ليست ملكاً في يد الدعاة ولا الأنبياء، وإنما أمرها لله، يقول تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢٧٢)(١).

ورسوخ هذه الحقيقة في نفوس الناس وقلوبهم يساهم في تلطيف الأجواء بينهم، ويساعد في تخفيف حدة الاحتقان بين المختلفين الناتج من تعدد آرائهم ومذاهبهم.

ورغم الاختلاف بين الناس فإن التعارف بينهم مطلوب، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

من هنا يكون المطلوب من المسلم الدعوة للخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما النتائج فتترك لله، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ

(١) ومن الآيات القرآنية التي تبين أن أمر الاختلاف بين الناس في العقائد مرده إلى الله، مايلي:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام:١٠٧)

﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام:١١١)

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام:١٤٩)، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦).



وإن تولَّواْ فإنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران:٢٠)(١).

ويقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشية: ٢١-٢٦).

وينسجم مع هذا المبدأ الموقف الشرعي من دور العبادة الخاصة بغير المسلمين، فالإسلام يأمر بحمايتها والحفاظ عليها، ويجعل ذلك هدفاً نبيلاً للقتال المشروع، فالله يبين أن لحماية الكنائس والمعابد هدفاً، وأمراً منشوداً، بغض النظر عن الموقف من أصحابها، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾ (الحج:٤٠).

فأماكن العبادة أياً كان أصحابها، هي محمية وفق الشريعة الإسلامية، فلا يجوز التعرض لها بالهدم أو التخريب، ولا يجوز التعرض لمرتاديها بأي شكل من أشكال الأذى أو المضايقة، وقد اعتبر القرآن الكريم من أشد أنواع الظلم السعي في خراب مساجد الله، ومنع ذكر الله فيها، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة:١١٤)

ولم يقصر المسلمون الحماية الواجبة على المساجد، وإنما فقهوا من روح دينهم ومبادئه وأحكامه وقيمه لزوم حماية دور العبادة ومرتاديها بغض النظر

(١) وقال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد:٤٠)
وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل:٨٢)



عن معتقدات أصحابها، فكان ولاة أمر المسلمين يوصون الجيوش وقادتها بعدم التعرض بالأذى للصوامع ومرتاديها، عملا بالهدي النبوي.

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: " اخرجوا بسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع، (مسند الإمام أحمد، ومن مسند بني هاشم ، مسند عبد الله بن العباس) .

ومن التطبيقات العملية التي ترد في هذا السياق، العمل المشهور الذي قام به الخليفة عمر بن الخطاب عند كنيسة القيامة لما حان موعد الصلاة، يصف ميخائيل مكسي في كتابه "القدس عبر التاريخ" كيف وصل الخليفة "ممتطياً جملاً صغيراً ، ولم يكن معه سوى عبده وسلاحه ، واستقر على جبل الزيتون، ثم رحل إلى القدس ، ففتحت له المدينة أبوابها سنة ٦٣٨ م ، دون أن يتم تدمير أي شيء فيها ، وتسلم مفاتيحها من البطريرك صفرنيوس في حفل كبير ، ثم زار كنيسة القيامة .

وتجمع كل المصادر التاريخية الإسلامية والمسيحية على أنه لما حان موعد الصلاة طلب منه البطريرك أن يؤديها حيث كان فاعتذر عمر حفاظاً على المقدسات المسيحية كي لا تكون صلاته هناك سنة لمن يجيء بعده . ولهذا اختار مكاناً آخر إلى الجنوب وصلى هناك (عن موقع المركز الفلسطيني للإعلام، تاريخ القدس منذ الفتح العربي، قدس برس (الدكتور/ أحمد صدقي الدجاني).

وقد تبع هذا الموقف النبيل لثاني خليفة مسلم بعد الرسول ﷺ وهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إعطاؤه الأمان والعهدة لنصارى بيت المقدس فيما بات يعرف بالعهدة العمرية التي كتبها لأهل القدس، وفيها: "بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من



الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم ،ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم .. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين " .(تاريخ الطبري، ٤/ ٤٤٩)

وورد في الخبر الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: " وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم " (صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل عن أهل الذمة ولا يسترقون) .

وعلى غرار هذا النهج سار الخلف مقتفين آثار السلف، فهذا خالد بن الوليد يعطي عهداً لأهل دمشق على غرار العهد الذي أعطاه سلفه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل القدس، ونص العهد الذي أعطاه خالد: " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق، أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم و كنائسهم، وسور مدينتهم لا يهدم. و لا يسكن شي من دورهم ، لهم بذلك عهد الله و ذمة رسوله ﷺ والخلفاء و المؤمنين " (البلاذري في فتوح البلدان، ١٦٦).

ويشهد الواقع على حفظ الإسلام حقوق الآخرين في الحياة والوجود، وحفظ معابدهم وكنائسهم، وليس أدل على هذه الحقيقة من بقاء السلالات البشرية المنحدرة من أصول غير مسلمة في بلاد المسلمين، وبقاء كنائسهم ومعابدهم التاريخية في ديار المسلمين دون أن تمس من قبل المسلمين بسوء عبر الزمان الذي حكمت فيه ديار المسلمين بالإسلام ومن قبل المسلمين.



ضوابط العلاقة مع الآخر وحدودها

للعلاقة التي يقيمها المسلم مع غيره ضوابط في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن تلك الضوابط:

التمييز بين الناس حسب مواقفهم من المسلمين، فالله تعالى يقول: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران:١١٣)

فمن الإجحاف معاملة غير المسلمين بنفس المستوى والأسلوب، والله يجعل المودة مطلباً منشوداً بين الأعداء عند توفر مقتضياتها، يقول تعالى: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة:٧).

ومن التعايش الودي بين المسلمين وغيرهم، عيادة مرضى الآخر، والتعامل المعاشي معه، عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبيﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له أسلم فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم فخرج النبيﷺوهو يقول الحمد لله الذي أنقذه من النار" (صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي).

وكان الرسولﷺ يقبل الهدية من غير المسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: "أن يهودية أتت النبيﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها فقيل ألا نقتلها



قال لا فما زلت أعرفها في لهوات[١] رسول الله ﷺ" (صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين).

وفي رواية لمسلم: عن أنس: أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك ، قال: ما كان الله ليسلطك على ذاك،- قال أو قال علي - قال: قالوا ألا نقتلها؟ قال :لا قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ" (صحيح مسلم، كتاب السلام، باب السم).

وعن أبي حميد الساعدي قال: "غزونا مع النبي ﷺ تبوك وأهدى ملك أيلة للنبيﷺ بغلة بيضاء وكساه بردا وكتب له ببحرهم" (صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إذا وادع الإمام ملك القرية هل يكون ذلك لبقيتهم) .

وفي المقابل فإن النبي ﷺ أعطى حلة لعمر بن الخطاب فأهداها عمر لأخ له مشرك، ففي صحيح الحديث، رأى عمر بن الخطاب حلة سيراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريتها فلبستها يوم الجمعة وللوفد، قال: "إنما يلبسها من لا خلاق له في الآخرة"، ثم جاءت حلل فأعطى رسول الله ﷺ عمر منها حلة وقال: أكسوتنيها وقلت في حلة عطارد ما قلت؟ فقال: إني لم أكسكها لتلبسها فكساها عمر أخا له بمكة مشركا" (صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب هدية ما يكره لبسها).

---

(١) في لهوات: بفتح اللام جمع لهاة وهي سقف الفم أو اللحمة المشرفة على الحلق وقيل هي أقصى الحلق وقيل ما يبدو من الفم عند التبسم . (فتح الباري -لابن حجر العسقلاني).
كأنه بقي للسم علامة وأثر من سواد أو غيره. (صحيح مسلم بشرح النووي)

وفي مجال القتال والخصام أمر الله بقتال المقاتلين المعتدين، ومنع الاعتداء على غيرهم، فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠).

فمع مشروعية قتال المعتدي، يجيء التحذير من القيام بدوره، إذ الاعتداء مذموم بغض النظر عن فاعله.

والله يأمر المسلمين بالاستجابة إلى السلام حين يطلبه عدوهم، مع مراعاة التقيد بالأحكام الشرعية الخاصة بذلك، يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال:٦١)

والسلام غاية إسلامية، بل هو اسم من أسماء الله الحسنى، يقول تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَه عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الحشر:٢٣).

والسلام اسم من أسماء الجنة، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام:١٢٧) والله يدعو إلى دار السلام ويهدي إلى سبله من يشاء ، قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾ (يونس:٢٥)[1] .

وكان السلام هدفاً للرسول ﷺ، فكان ﷺ من بين وصيته لأمراء الجيوش والسرايا : " إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما

(١) وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ﴾ (المائدة:١٦)



على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا " (صحيح مسلم، كتاب المغازي، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب).

ولما قصد ﷺ مكة معتمراً وصدته قريش، عقد معها صلح الحديبية، الذي تضمن شروطاً متبادلة من الطرفين، حتى إن بعض الصحابة لم يستوعب مبرر القبول ببعضها، وكانت حكمة الرسول ﷺ هي المنتصرة في النهاية.

ويرفع الله عن المسلمين الحرج من مسالمة المسالمين من غيرهم، بل يأمر ببرهم، والعدل لهم، يقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).

وَالَبِر معناه عام يشمل كل خلق حسن، عن النواس بن سمعان الأنصاري، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: " البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس " (صحيح



مسلم، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تفسير البر والإثم).

وخص الله القسط بالذكر إلى جانب البر في هذه الآية الكريمة، وهي تحث على فعلهما لمن لم يكن معادياً للمسلمين منهم، بل حفزت الآية الكريمة على التشبث بالقسط خلال الأمر به مقروناً ببيان حب الله للمقسطين، فكفر الكافر لا يمنع من العدل له، وإن لم نكن راضين عن مناهجه وأفكاره، فالله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨).

حتى لو كان الآخر معتدياً فإن اعتداءه لا يبرر تعدي الحق في التعامل معه، فالله تعالى يقول: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ (المائدة:٢).

فلا يجوز قتل نفس منهم بغير حق، يقول النبيﷺ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّة وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا" (صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم).

ويشمل ذلك منع الاعتداء على معاهد أو من له هدنة أو أمان عند المسلمين. (فتح الباري، ج ١٢)

ومن الشواهد الرائعة على عدل المسلمين مع غيرهم، ما حصل مع الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بشأن درعه التي فقدها ثم وجدها عند يهودي، فاحتكما إلى شريح القاضي، فحكم بها لليهودي، فأسلم اليهودي وقال: "أما إني أشهد أن هذه أحكام أنبياء! أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه، فيقضي لي



عليه! أشـهـد أن لا إله إلا الله، وأن محـمـداً رسـول الله، الدرع درعك يـا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الأورق" .
فقال علي كرم الله وجهه: أما إذ أسلمت فهي لك.(البداية والنهاية، ج ٨)

فالاختلاف الواقع بين المسلم وغيره من الناس، لا يبرر التخلي عن القيم التي ينادي بها الإسلام عند التعامل مع المخالفين، وقد فقه غير المسلمين هذا الموقف الإسلامي، فتعاملوا مع معطياته في واقعهم، عندما كانت تواجههم بعض المشكلات والقضايا، فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ("كُنا عند عمر بن الخطاب إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، قال: و ما لك؟ قال: أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر فأقبلت فرس لي فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال : فرسي ورب الكعبة فلما دنا مني عرفته فقلت: فرسي ورب الكعبة، فقام يضربني بالسوط، ويقول: خذها، وأنا ابن الأكرمين: قال فوالله ما زاد عمر على أن قال: اجلس، ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابي هذا فأقبل وأقبل معك بابنك محمد. قال: فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت أنت جناية؟ قال: لا، قال فما بال عمر يكتب فيك؟ قال: فقدما على عمر. قال أنس: فوالله إنا لعند عمر بمنى إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه فقال: أين المصري؟ فقال ها أنا ذا. قال: دونك الدرة اضرب ابن الأكرمين قال: فضربه حتى أثخنه، ثم قال: اجعلها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال: يا أمير المؤمنين لقد ضربت من ضربني، فقال أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه. يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ ثم

التفت إلى المصري. فقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب لي "

ولما رأى عمر بن الخطاب شيخاً كبيراً من أهل الذمة يسأل الناس، قال: (ما أنصفناك إن أكلنا شبيبتك، ثم نأخذ منك الجزية، ثم كتب إلى عماله أن لا يأخذوا الجزية من شيخ كبير) (كتاب الخراج، لأبي يوسف، ص ١٥٠-١٥١).

ولم يغب عن بال الفاروق عمر بن الخطاب وهو على فراش الموت أن يوصي بالعدل لأهل الذمة، حيث قَالَ: " وأُوصيه بذمَّة الله وَذمَّة رَسُوله ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بعَهْدهمْ وأَنْ يُقَاتَلَ منْ وَرَائهمْ وَلاَ يُكَلَّفُوا إلاَّ طَاقَتَهُمْ" . (صَحيح البخاري، كتاب الجَهاد والسير، باب يقاتَل عن أهل الذمة ولا يسترقون).

وكثيرة هي أخبار السلف الصالح التي تؤكد حرصهم على التعامل بكل شفافية وعدل مع غير المسلمين، وما هذه المواقف إلا نهجاً يسير عليه المسلمون، على هدي دينهم الحنيف، ومن أخبارهم في هذا المجال: أن عمير بن سعد ترك ولاية حمص لإساءته إلى ذمي، وقال للخليفة مستعتباً عن الرجوع إلى الإمارة: (إن ذلك لسيء، لا عملت لك، ولا لأحد بعدك، والله ما سلمت، بل لم أسلم، قلت لنصراني: أخزاك الله، فهذا ما عرضتني به يا عمرَ، وإن أشقى أيامي يوماً خلفت معك يا عمر) ولم يجد الخليفة بُداً من قبول هذه الاستقالة. (المعجم الكبير للطبراني، ج ١٧)

ولما ولي أمير العدل عمر بن عبد العزيز أمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي يشكو الأمير العباس بن الوليد بن عبد الملك في ضيعة له أقطعها الوليد لحفيده العباس، فحكم له الخليفة بالضيعة، فردها عليه. (البداية والنهاية، ج ٩)



وإلى الذين يتلذذون في صلب المستضعفين من المسلمين في طوابير الانتظار في الطرقات والمعابر وتحت أشعة الشمس أو مطر السماء، نسوق رواية وردت في صحيح مسلم مَرَّ هِشَامُ بْنُ حَكِيم بْنِ حِزَامٍ عَلَى أُنَاسٍ مِنْ الأَنْبَاطِ بِالشَّامِ قَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ فَقَالَ مَا شَأْنُهُمْ قَالُوا حُبِسُوا فِي الْجِزْيَةِ فَقَالَ هِشَامٌ أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا " وَزَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ قَالَ وَأَمِيرُهُمْ يَوْمَئِذٍ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى فِلَسْطِينَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَحَدَّثَهُ فَأَمَرَ بِهِمْ فَخُلُّوا" . (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق).

أما القائمون على عدوانهم، فليس لهم مسالمة ولا ود لهم ، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة:٩).

والله أباح لنا الأكل من طعام أهل الكتاب، ولكن في إطار التزام الأحكام الشرعية الخاصة بالمطعومات والمشروبات، فلا يحل لنا أن نأكل منهم الخنزير ولا الميتة، ولا شرب الخمر. فمن ثبت أنه لا يذبح وإنما يصعق المواشي والدواجن والطيور التي يباح أكلها أصلاً، فإن ذبائحه التي تذبح بهذه الطريقة يصبح حرام أكلها لهذا السبب، سواء فعل ذلك بها من قبل مسلم أو أحد من أهل الكتاب، وفي إباحة طعام أهل الكتاب إشارة دالة، حتى لا يفهم أحد أن هناك حظراً خاصاً بالطعام بسبب أنه من أهل الكتاب، فقد أكد الله على رفع هذا الحظر بهذا الحكم الذي تضمنته الآية الكريمة.

وأباح الله لنا الزواج من نساء أهل الكتاب ضمن الحدود التي فرضها الله



للبيوت المسلمة، والمعاشرة الزوجية بين الأزواج المسلمين.

ولا بد للحديث عن العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أن ينطلق من الموضوعية والإنصاف والوعي، فالإسلام يمقت التعصب الأعمى، لأنه يدرك خطورة عواقبه، عدا عن كونه أسلوباً فاشلاً، لا يجلب للمسلمين خيراً.

ومن ضوابط العلاقة التي يقيمها المسلم مع غيره في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، الامتناع عن السب والشتم لمعتقدات المخالفين، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:١٠٨)

عن أبي هريرة قال: "قيل: يا رسول الله ادع على المشركين. قال: إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة". (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها).

واستخدام الأساليب الاستفزازية تسيء لمستخدمها أكثر مما تحسن في معظم الأحيان والظروف، لهذا علل الله النهي عن سب معتقدات غير المسلمين حتى لا يستدرجوا لممارسة نفس الأسلوب مع معتقدات المسلمين.

وقد أمر الله بملاطفة الوالدين المشركين، حتى وهما يمارسان الضغوط على ابنهما لرده عن دين الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٨) بل أمر الله بحسن صحبتهما وهما على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ



مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:١٥).

عن مصعب بن سعد عن أبيه، أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب قالت زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك وأنا آمرك بهذا. قال: مكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة، فسقاها فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية. ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي﴾ (صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه)

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: " قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي قال نعم صلي أمك" . (صحيح مسلم، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين)

وقال الخطابي : " فيه أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلما" . وفيه موادعة أهل الحرب ومعاملتهم في زمن الهدنة. (فتح الباري، ج ٥)



الحوار وسيلة مهمة للتواصل مع الآخر

في ظل الاختلاف الواقع لا محالة بين الناس، لا بد من وسيلة للتواصل بينهم، فهم يعيشون في عالم متشابك المصالح، يشترك فيه الناس في كثير من الأمور المهمة، سواء البيئية أم المعيشية، أم الصحية ..الخ، وبخاصة الذين يعيشون في مجتمع واحد، أو مجتمعات متجاورة.

ويجدر التنبيه في هذا المقام إلى أن الدعوة إلى الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يؤديا وفق المنهاج الذي أرسيت أسسه في القرآن والسنة، فالله تعالى يقول: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل:١٢٥).

وقد ثبتت مشروعية الحوار في كثير من الآيات القرآنية، فالله حاور الملائكة، بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠).

وحاور الله إبليس، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ



مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٣٢-٤٢).

وحاور الله أنبياءه، فحاور إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٢٤)[١].

وحاور الله موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ..﴾ (الأعراف:١٤٣)

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (طه:١٧- ٢١)

وحاور إبراهيم عليه السلام الملائكة، وورد ذكر ذلك في عدة مواضع قرآنية، منها قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْراَهِيمَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (الحجر: ٥١-٦٠).

---

(١) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٠)



والحوار أسلوب استخدمه الناس عبر الزمان مع مخالفيهم أو في معالجة قضاياهم ومشاكلهم، انظروا المؤمن الذي حاور مخالفه، الذي وصفه الله بصاحبه، ولم يكن ذلك أمراً عابراً، وإنما هي إشارة إلى إمكانية أن تكون بين المؤمن ومخالفه مصاحبة، يقول تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (الكهف:٣٧)

وكذلك حاور الجاحد صاحبه المؤمن الشاكر، قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ (الكهف:٣٤).

وحاورت المرأة التي ظاهر منها زوجها الرسول ﷺ حول مشكلتها، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة:١).

وحاور الأنبياء أقوامهم، واستخدموه أسلوبا في محاجة أقوامهم ودعوتهم، ومن شواهد ذلك، ما ورد في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ...﴾ (الأنعام: ٨٠).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨)

وحاور إبراهيم والده المشرك، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً



سَوِيّاً يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ (مريم: ٤١-٤٨).

وحاور إبراهيم عليه السلام ابنه اسماعيل الحليم، في أمر الذبح، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢)

فالحوار أسلوب رئيسي يستخدمه الناس في علاقاتهم مع بعضهم بعضا، ومن دلالاته أنه الأسلوب البديل عن فرض الرأي، وانتزاع الموافقات في المواقف المختلف عليها بين الناس، ومن متطلباته اللين والملاطفة، وبهما أرشد الله موسى وهارون في حوارهما الدعوي، حتى مع أشد الناس كفراً وعناداً وتبجحاً، فخاطبهما الله تعالى قائلاً: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (طه: ٤٣- ٤٧).

وقد حرص الإسلام على فتح كل الآفاق السلمية للحوار مع الآخر، فدعا القرآن الكريم أهل الكتاب للحوار السلمي، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً



وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤)

ونظم الله المحاورة لتكون في جو من الإحسان والملاطفة، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦)

والتوجيه في هذه الآية واضح الدلالة على فهم الآخر، كيف لا؟ والآية الكريمة تأمر صراحة ودون لبس أو غموض بأن يختار المسلم أسلوب الملاطفة وحسن التعبير والاحترام عند مجادلة أهل الكتاب، ومن المؤكد أن التوجيه القرآني المتضمن الحث على المجادلة بالتي هي أحسن لم يغفل حقيقة الاختلاف الثابت بين المسلم وغيره من أهل الكتاب، سواء في بعض العقائد أم القيم أم العبادات أم الأحكام والشرائع أم المواقف .....الخ ورغم هذا التباين فإن الآية ترشد إلى أسلوب الملاطفة في النقاش عند إثارة مثل هذه القضايا الخلافية، والمجادلة تكون عادة في مواطن الاختلاف ، أما اللقاء البعيد عن الاختلاف، والمحفوف بالمجاملة الحسنة، فلا تلزمه المجادلة، وبالتالي يكون أولى بالملاطفة الحسنة.

ومن جانب آخر فإن الملاطفة في الحوار تعبر عن أدب المسلم، وتبرز سماحة الاسلام.

وكان ﷺ القدوة الحسنة للمؤمنين في عمل ما يسهل الحوار، ويلطف جوه، ضمن دائرة المسموح شرعاً، عن أنس أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى



كسرى وقيصر والنجاشي فقيل إنهم لا يقبلون كتابا إلا بخاتم فصاغ رسول الله ﷺ خاتما حلقته فضة ونقش فيه محمد رسول الله" . (صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب في اتخاذ النبي ﷺ خاتما لما أراد).

والنتائج الإيجابية للحوار ليست مضمونة ولا ينبغي أن تكون مشروطة مسبقاً، فالله تعالى أمر رسوله ﷺ بالدعوة ووضح له أن الاستجابة ليست بيده، وينبغي أن لا تعتبر حتمية بعد عرض الدعوة، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢٧٢).

ويجدر كذلك أن لا تحبط النتائج السلبية المتوقعة محاولة الحوار وطرق أبوابه، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:١٦٤) .

فلا مبرر مطلقاً لغلق باب الحوار، تحت أية ذريعة، ما دام الهدف منه نبيلاً ومشروعاً، وعلى هذا الهدي سار الرسول ﷺ وصحبه الكرام، فلم يحكموا الناس بالحديد والنار، وإنما سلكوا أسلوب الحوار في كل المناسبات والمواقف التي وجدوا له سبيلاً مع أتباعهم وخصومهم.

التوفيق بين النصوص الشرعية التي تذم المناهج المغايرة للإسلام وبين النصوص الأخرى التي تفتح آفاقاً للاعتراف بوجود الآخر وتتيح المجال للتعامل معه إلى جانب الآيات التي تتحدث عن الاختلاف مع كثير من أصحاب الأديان والمذاهب، فإن آيات أخرى تثني على من يلتزم الحق منهم، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٦٢)



﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة:٦٩)

وورد في الحديث الشريف عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر: "لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له" (صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما من النبي ﷺ على الأسارى من غير).

في إشارة واضحة إلى مشروعية التمييز في المواقف بين المحسن والمسيئ من غير المسلمين، فكان المطعم بن عدي ممن عملوا على نقض صحيفة المقاطعة التي فرضتها قريش على المسلمين وهم في مكة قبل الهجرة، فذكر الرسول ﷺ مواقفه المسالمة من المسلمين، فجعل له شأناً، عبر عنه بما ورد في الحديث سالف الذكر.

فالإسلام يؤكد والواقع يشهد أن غير المسلمين ليسوا سواء في قربهم وبعدهم من حقائق الدين، وليسوا سواء في معاملتهم للمسلمين. وإذا كانت هذه حقيقة فيجب أن لا نغفلها في تعاملنا معهم. يجب أن نعامل كل فرد أو جماعة منهم بحسب ما نعرفه من حالهم. وهذا ليس إنصافاً لهم فحسب لكنه أمر ضروري لتحصيل كثير من المصالح ودفع كثير من المفاسد.

ومن الأمور التي ينبغي مراعاتها عند تفسير آيات القرآن الكريم، أو عند البحث عن حكم شرعي أو أمر ورد ذكره في القرآن الكريم، ضرورة جمع الآيات ذات العلاقة بالموضوع، والنظر فيها مجتمعة،

وفي الموقف من غير المسلمين و مناهجهم وبخاصة أهل الكتاب، فإن



القرآن الكريم يذكر أحياناً آيات تذمهم، وتجده أحياناً أخرى يمدحهم، مما يستدعي البحث في تفسير الآيات ذات العلاقة جميعها.

فمن الآيات التي تذم وتحذر، قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة:١٠٥)

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٩)، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ (آل عمران:٦٩)، ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران:٧٢)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ﴾ (التوبة:٣٠)، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة:١٢٠).

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:١١١)، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة:١٣٥)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة:٥١)

وفي الآيات القرآنية نفسها تمييز بين طوائف أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران:١١٣)



﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٧٥)

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران:١٩٩)

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ (النساء:١٥٩)

ومن الآيات التي تذكر غير المسلم بالخير ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة:٨٢)

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:١٨).

فبعض غير المسلمين، وبخاصة النصارى، لا يظهرون لنا عداوة، بل على العكس من ذلك يقدمون دعماً أو مساندة أو....لقضايا المسلمين، فينبغي أن يعاملهم المسلمون حسب مواقفهم من حيث العداء أو المسالمة، ومن خير الشواهد وأوضحها دلالة على ضرورة فحص المواقف، وتصرف المسلمين بناء عليها مع غيرهم، قوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ



الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).

فهو موقف الود والمسالمة مع غير المعتدين، أما المعتدون فالموقف معهم يختلف، ففي مقابل الآية سالفة الذكر، وردت آية تالية لها في نفس السورة الكريمة، تقول: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة:٩).



إمكانية اختلاف آراء المسلمين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

المسلمون بشر ممن خلق الله، يحبون ويكرهون، ويحلمون ويغضبون، ويصيبون ويخطئون، وتتفاوت مداركهم ومستويات تفكيرهم واجتهاداتهم، ومن الخيال بمكان تصور اتفاقهم على رأي واحد في كل القضايا والأمور، وبخاصة المستجدة منها، حتى والرسول ﷺ بين ظهرانيهم حدث أن اختلفوا في تفسير بعض النصوص واستنباط بعض الأحكام، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: "لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأدرك بعضهم العصر في الطريق. فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدا منهم". (صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه).

حتى إن بعض الصحابة كانت له وجهة نظر اجتهادية في أمور وقعت في عهد الرسول ﷺ، وكانوا يطرحون آراءهم بوضوح أمام الرسول ﷺ، ويقفوا عند حدود الحكم الشرعي، فحين كانوا يشعرون أن رأيهم يتعارض مع حكم شرعي، كانوا يلقون بآرائهم جانباً ويتبعون حكم الله وسنة رسوله ﷺ، ومن الشواهد على هذا المنحى ما حصل من بعض الصحابة يوم الحديبية، فلما فرغ الرسول من قضية كتاب الصلح الذي عقده مع مشركي قريش، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فو الله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك: اخرج ثم لا



تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غماً" . (صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط)

واختلاف وجهات النظر، وبيان المواقف لا يصح أن ينسينا الحكمة في التصرف، والاعتدال في معايشة المخالف، فإن المغالاة مرفوضة حتى وإن كانت في جانب الالتزام في الدين الحق، قال رسول اللهﷺ إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا ..." . (سنن النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب الدين يسر)

فالرسول ﷺ يحثنا على التزام السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، وإن لم نستطع الأخذ بالأكمل نعمل بما يقرب منه، وبشرنا بالثواب على العمل الدائم وإن قل، أو المراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنعه لا يستلزم نقص الأمر. فالرفق مطلوب في الأمر كله، والعنف مرفوض، فرسول اللهﷺ قال: يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه" . (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق)

فالاختلاف في الرأي ممكن وقوعه بين المسلمين، في الأمور التي تحتمل الاجتهاد، فمستوى عقول الناس وتصوراتهم وفهمهم متفاوت، مما يعني إمكانية تعدد الآراء في المسألة الواحدة، لكن اختلاف الرأي ينبغي أن لا



يفسد للود قضية.

وقد وجدت التعددية في الرأي مجالها الرحب في واقع المسلمين وفقههم، فالنصوص الشرعية كثير منها يحتمل التأويل، ومعظم مسائل الفقه اجتهادية، وردت فيها آراء لعلماء المسلمين، بدءاً من الصحابة رضوان الله عليهم، ومروراً بعلماء الأمة في مختلف الحقب التالية، ولن يحجر على الآراء أن تبدى حول القضايا التي تستجد في حياة الناس حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه التعددية لا تبرر التعصب للرأي الواحد، أو احتكار الحقيقة، فكان سلف الأمة الأفذاذ يقول عالمهم ومجتهدهم: رأيي صحيح يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.



الصورة المثلى لعلاقات المسلمين مع بعضهم بعضاً في ظل تعدد آرائهم ووجهات نظرهم

فإذا كان التعايش بين المسلم ومخالفه ممكناً في ضوء التشريع الإسلامي، فهو بين المختلفين في الآراء من المسلمين واجب شرعي وضرورة منطقية.

فالعلاقات تبنى على أساس من الأخوة، فالذي يجمعنا أكثر من الذي يفرقنا، فربنا واحد، ورسولنا واحد، وقرآننا واحد، ونواجه مصيراً واحداً.

والقرآن الكريم يقرر أن أمة الإسلام واحدة، فالقرآن الكريم الذي تقدسه الأمتين العربية والإسلامية يقرر أن أمة الإسلام واحدة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢) وقد وردت هذه الآية الكريمة في سورة المؤمنون، مع اختلاف في لفظ الطلب الذي ورد عقب تقرير وحدة الأمة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥٢)

ففي الآية الأولى تضمن الأمر طلباً للعبادة، وفي الأخرى كان الطلب للتقوى، وكلا الطلبين يحملان من الإشارات والدلالات المهمة التي تجعل المرء يتساءل عن وجه الصلة بين كل من التقوى والعبادة وبين قضية وحدة الأمة، فلا شك أنها صلة وثيقة، وذات دلالة، فهي أمور من الصنف الأول في الأهمية، وهل يشك في ذلك مؤمن؟ وهل ينكر ذلك مطلع على كتاب الله، ومبادئ الإسلام؟ فالتقوى عنوان الطاعة المطلقة لله، والعبادة عنوان الخضوع المطلق لله، ووحدة الأمة عنوان النجاة، وطوق الخلاص من الفشل المتمثل



بخسران الدين والوطن والذات والهوية.

والقرآن الكريم الذي قرر أن أمة الإسلام واحدة، يفرض على أبنائها العمل بمقتضى هذه الوحدة، وتجنب دواعي فرقتها. ففي السورة التي عين لها الله اسم الصف، أنزل الله آيات تؤكد على أهمية الوحدة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف:٤) في دلالة واضحة ومهمة على أهمية وحدة الصف لقوة الأمة، والحفاظ على حرماتها وهيبتها.

وفي المقابل يحذرنا الله من الفرقة والنزاع، فيقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ (آل عمران:١٠٣)

ويقول سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٦)

وورد في صحيح الحديث الشريف نهي جامع عن مسببات الفرقة والاختلاف والتشاحن، وأمر بالوحدة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره – ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه". (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب)

فليس عجيباً بناء على هذا أن يسلك أعداء الأمة سبيل التفريق بين



المسلمين، وإيجاد الأرضية الخصبة للتناحر والنزاع والبغض بين أبنائها ومجتمعاتها، لتصبح لقمة سائغة للآكلين، فيروى أن رجلاً حكيماً دنت منيته، استدعى أبناءه .. ثم طلب منهم إحضار رماحهم مجتمعة، وقال لهم اكسروها، فلم يقدروا على كسرها مجتمعة، فقال لهم: فرقوها، وليأخذ كل واحد رمحه ويكسره، فكسروها بسهولة ويسر فقال لهم: اعلموا أن مثلكم مثل هذه الرماح، فما دمتم مجتمعين يساند بعضكم بعضا، فلن يستطيع عدوكم أن يهزمكم، أما إذا اختلفتم وتفرقتم، فإنه يضعف أمركم، ويتمكن منكم أعداؤكم، ويصيبكم ما أصاب الرماح، وأنشد:

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى ... خطب ولا تتفرقوا آحادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً ... وإذا افترقن تكسرت أفرادا

ومن الأمور التي تساعد في نجاح الحوار الملاطفة والإحسان، فهما يذهبان نار الخلاف والشقاق، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)

ولا بد للحوار بين الأشقاء حتى ينجح أن يبنى على أساس الاتفاق على مرجعية شرعية مبينة وموحدة، والله تعالى نبه المسلمين إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء:٥٩)

ومن الضروري التحلي بقيم العفو والإحسان عند التعامل مع المخالفين في الرأي أو محاورتهم



قال عمر رضي الله عنه: " أوصي الخليفة بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم وأوصي الخليفة بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل أن يهاجر النبي ﷺ أن يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم " . (صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب والذين تبوءوا الدار والإيمان)

توصيات قرآنية خاصة بآداب وأسس الاختلاف مع الآخر ومحاورته والتعايش معه

في ظل حتمية التعددية في الآراء والمواقف بين الناس، ينبغي للمسلم أن يراعي عدداً من الآداب وهو يتعامل مع مخالفيه سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، ومن تلك الآداب:

- التمسك بالثوابت الشرعية، التي يطلب من المسلم التزامها في كل الظروف والأحوال، باستثناء حالات الضرورة، حيث يجب التقيد بالحكم الشرعي الخاص بكل حال أو ظرف، سواء تعلق بحياة الفرد أم الجماعة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾ (الأحزاب:٣٦) ويقول تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ (الشورى:١٠)

فينبغي أن ينطلق التعامل مع الآخر من منطلقات الشرع الحنيف، التي تحدد مجالات هذا التعامل وأحكامه، وقيمه، سيراً على نهج الرسول وإذا افترقن تكسرت أفرادا ومن أخذ بنهجه، فالله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١)



وقال تعالى: ﴿...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا..﴾ (الحشر:٧)

وأمر الله المسلمين أن يرجعوا بالطاعة فيما يختلفون، إلى الله والرسول وأولي الأمر، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء:٥٩).

- الصبر على ما يجد المرء من مخالفيه، يقول تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس:١٠٩) ويقول سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ (طه:١٣٠).

وأن يحتسب المسلم الأجر والثواب من الله في صبره على ما يعاني من مخالفيه، بأن ينوي صبره لله، أخذاً بقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر:٧)

- مراعاة احترام الشخص الآخر سواء عند محاورته أو الحديث عنه، فالسخرية والتهكم تنفر وتجلب سلبيات للساخر ودعوته، والله تعالى نهى عنها وغيرها من أنواع السلوك الذي يجرح مشاعر الآخرين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ (الحجرات:١١)

ويجدر تجنب الحديث عن الآخر بما يسيء إليه في حال غيابه، فالله تعالى نهى عن الغيبة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات:١٢)

- تجنب سب الآخر أو شتم مبادئه، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام:١٠٨)و إذا كان الله قد

حظر سب غير المسلمين وآلهتهم، فمن باب أولى أن يسري هذا الحظر بين المسلمين الذين يختلفون في الرأي والاجتهاد، بدلاً من تبادل أوصاف التكفير والتفسيق والتخوين،والذين يحملون هذه الرايات فهؤلاء هم دعاة الفتنة والفرقة، والله تعالى حذر من الفرقة في الدين، فقال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى:١٣) وقال سبحانه: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (ل عمران:١٠٥)

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣٢).

وقد أعلن الله البراءة من الذين يفرقون الدين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام:١٥٩)

والبديل الصحيح عن الفرقة هو الاعتصام بدين الله، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:١٠٣)

وأود في هذا المقام ذكر فتوى أصدرتها بصفتي المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية حذرت فيها من ظاهرة التكفير، تضمن نصها: الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد : فيقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم



مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء:٩٤) من أخطر الظواهر التي تواجه الأمة الإسلامية في هذه الأيام «ظاهرة التكفير» التي أخذت حيزاً في ذهن وفكر كثيرين من أبناء المسلمين الذين يحسبون انهم ملكوا الحقيقة الدينية وأصبحت حكراً عليهم يطلقون وصف الكفر على من يخالفهم الرأي من المسلمين ولا يقول بقولهم. وقد تجاهل القائلون بتكفير المسلمين أن من نطق بشعار الاسلام وهو الإقرار بالشهادتين يصبح مسلماً معصوم الدم والمال لحديث الرسول ﷺ: (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) .(صحيح البخاري،كتاب الزكاة،باب وجوب الزكاة)

وقال رسول الله ﷺ: فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ثم قرأ ﴿إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ (صحيح مسلم ،كتاب الإيمان، الأمربقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله). وفي حديث جبريل عليه السلام حينما سأل عن الاسلام ، قال له الرسول ﷺ أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺوتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت.

قال فأخبرني عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن أمارتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.



قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " (صحيح مسلم،كتاب الإيمان،باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان).

وفي حديث آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما " رواه أحمد في مسنده ،كتاب مسند المكثرين من الصحابة،باب باقي المسند السابق) .

ولم يقبل رسول الله اعتذار الحب ابن الحب أسامة بن زيد -رضي الله عنهما - حينما قتل الجهني بعدما قال " لا إله إلا الله - يقول أسامة - رضي الله عنه - "بعثنا رسول اللهﷺ إلى الحرقة من جهينة قال فصبحنا القوم فهزمناهم قال ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم قال فلما غشيناه قال لا إله إلا الله قال فكف عنه الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ قال فقال لي يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله قال قلت يا رسول الله إنما كان متعوذا قال أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله قال فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم "(صحيح البخاري ،كتاب المغازي ' باب بعث النبي اسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة).

إن هذه النصوص من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة تظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن من شهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله هو مسلم لا يجوز تكفيره ويحرم الاعتداء عليه باستباحة دمه أو ماله أو عرضه إذ يصبح معصوم الدم والمال والعرض بنطقه الشهادتين ، وأن باطنه متروك إلى الله سبحانه وتعالى الذي يعلم السر و اخفى ، وأن عقيده أهل السنة



والجماعة التي مات عليها أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من التابعين والسلف الصالح واجمع عليها علماء الأمة "أننا لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب . لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ (النساء:٤٨) .

وبناء على ما تقدم ، فإن ظاهرة التكفير التي يروج لها بعض المنتسبين للإسلام هي من أخطر الظواهر التي تواجه المجتمعات الإسلامية باسم الإسلام ، ويجب على جميع علماء المسلمين وأحزابهم وجماعاتهم أن يحاربوها ويقاوموها ويقضوا عليها في مهدها حتى لا تستغل في ظروف تشهد فيها الأُمة حرباً ثقافية واستعمارية وانقسامات عرقية ومذهبية وطائفية إذ إن ظاهرة التكفير هي الأخطر من هذه الظواهر جميعها ومن شأنها إذا انتشرت في المجتمعات الإسلامية أن تثير فتناً عمياء تقضي على كل محاولات توحيد الأمة الإسلامية وجمعها على كلمة الإسلام والإيمان . والله يقول الحق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

- التعاطي مع قضايا الاختلاف بموضوعية وإنصاف، فالله تعالى نهى عن مجانبة العدل مع الخصم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة:٨)

- التحلي بالرفق واللين في محاورة الناس ومعايشتهم، قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥)

وخير قدوة في ذلك هو الرسول ﷺ، الذي أثنى الله عليه، فقال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩)

- الامتناع عن ممارسة الاقتتال الداخلي بين الفئات المجتمعية المختلفة، أفراداً وجماعات، حيث اعتبر الله التنازع في الأمر من مسببات الفشل، فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٥٢)

وأود هنا ذكر فتوى أصدرتها بصفتي المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية حول حرمة الاقتتال الداخلي، جاء فيها:

قال تعالى:﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة٢٨:)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد: فقد آلم كل مسلم ما شاهده خلال وسائل الاعلام من الاشتباكات والاقتتال الداخلي بين أبناء الوطن الواحد فوق الارض الفلسطينية وبالتحديد بين أبناء حركتي فتح وحماس مما أضر ويضر بمصالح الشعب الفلسطيني وبقضيته العادلة كما ينتهك محرما حرمه الله تعالى ورسوله فالله يقول :﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً﴾ (النساء:٩٢) ويقول : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ (النساء : ٩٣).

وقال رسول الله ﷺ: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا " (صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى) إن مجلس الفتوى الأعلى وأصحاب



الفضيلة المفتين يؤكدون على حرمة دم المسلم ويحرمون الاقتتال الداخلي بين الإخوة في فلسطين وفي كل مكان من ديار المسلمين ويعتبرون من يقتل أو يأمر أو يعين على قتل أخيه المسلم عمدا أو ثأراً أو ظلما خارجا عن تعاليم ديننا الحنيف الذي أمر بحقن الدماء وحرم دم المسلم وماله وعرضه. والله يقول الحق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

خاتمـــة

فهذه نظرات مختارة في علاقة المسلم مع الآخر، في ضوء الهدي القرآني والنهج النبوي، وسلوك السلف الصالح من المسلمين، تأكد خلالها أن الاختلاف بين الناس أمر واقع لا محالة، وأن الإسلام لا يطلب من المسلم أن ينعزل عن الآخرين، فهو يعايش غيره، ويحاور مخالفيه، ولا يعني تعايشه مع الآخر قريباً كان أو بعيداً أن يقف موقفاً سلبياً في مواجهة سلبيات القيم والسلوك التي قد تقضي نتائجها على الأخضر واليابس، داخل المجتمع الذي تنتشر فيه، وقد تمتد نارها للمجتمع الإنساني، والرسول ﷺ حذر من هذا المنحى في المواقف فقال: " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا " . (صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه)

وهذا يعني ضرورة تناصح أبناء المجتمع الواحد فيما بينهم، فهم يواجهون



مصيراً مدمراً واحداً، جراء تعرضهم لمسببات الهلاك الناجمة عن الانحراف في السلوك الإنساني، لكن التناصح ينبغي أن يكون وفق المعايير المستوحاة من روح الشريعة وقيمها النبيلة، فيراعى فيه الوعي والصبر والمسامحة وسعة الصدر والموضوعية والقواسم المشتركة بين الناس.

وبما أن التعددية العقائدية أمر واقع لا محالة، وقد جاءت الآيات القرآنية تؤكد أن اختلاف البشر في معتقداتهم وشرائعهم يقع في إطار مشيئة الله، فعلى المسلم أن يتعامل مع هذه القضية من هذا المنطلق، ومن مقتضيات هذا التعامل، أن لا يجبر أحد على تغيير مذهبه ومعتقده، فنزع الاعتقاد من الناس قسراً خطأ فادح، ورسوخ هذه الحقيقة في نفوس الناس وقلوبهم يساهم في تلطيف الأجواء بينهم، ويساعد في تخفيف حدة الاحتقان بين المختلفين الذي يمكن أن ينتج من تعدد آرائهم ومذاهبهم.

من هنا يكون المطلوب من المسلم الدعوة للخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما النتائج فتترك لله، وينسجم مع هذا المبدأ الموقف الشرعي من دور العبادة الخاصة بغير المسلمين، فالإسلام يأمر بحمايتها والحفاظ عليها، أياً كان أصحابها، فهي محمية وفق الشريعة الإسلامية، فلا يجوز التعرض لها بالهدم أو التخريب، ولا يجوز التعرض لمرتاديها بأي شكل من أشكال الأذى أو المضايقة، ويشهد الواقع على حفظ الإسلام حقوق الآخرين في الحياة والوجود، وحفظ معابدهم وكنائسهم، وليس أدل على هذه الحقيقة من بقاء السلالات البشرية المنحدرة من أصول غير مسلمة، في بلاد المسلمين، وبقاء كنائسهم ومعابدهم التاريخية في ديار المسلمين دون أن تمس من قبل المسلمين



بسوء عبر الزمان الذي حكمت فيه ديار المسلمين بالإسلام ومن قبل المسلمين.

أما بالنسبة لعلاقة المسلم مع مخالفيه من المسلمين أنفسهم، فهي تقوم أيضاً على أساس أن الاختلاف في الرأي ممكن أن يقع بينهم في الأمور التي تحتمل الاجتهاد، فمستوى عقول الناس وتصوراتهم وفهمهم متفاوت، مما يعني إمكانية تعدد الآراء في المسألة الواحدة، لكن اختلاف الرأي ينبغي أن لا يفسد للود قضية. وقد وجدت التعددية في الرأي مجالها الرحب في واقع المسلمين وفقههم.

وإذا كان التعايش بين المسلم ومخالفه ممكناً في ضوء التشريع الإسلامي، فهو بين المختلفين في الآراء من المسلمين واجب شرعي وضرورة منطقية. فالعلاقات بينهم يجب أن تبنى على أساس من الأخوة، فالذي يجمعنا أكثر من الذي يفرقنا، فربنا واحد ، ورسولنا واحد، وقرآننا واحد، ونواجه مصيراً واحداً. والقرآن الكريم يقرر أن أمة الإسلام واحدة، وفي المقابل يحذرنا الله من الفرقة والنزاع، ولا بد لأفراد الأمة وجماعاتها من الارتقاء إلى مستوى الخطب، فلا مجال للتشاحن أو التنافس، والحوار بديل مفضل عن الحرب والدمار.



المراجع والمصادر

- القرآن الكريم
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي أبو الفداء، د.ت. البداية والنهاية. بيروت: مكتبة المعارف.
- أبو يوسف، ابن إبراهيم يحيى بن آدم القرشي، ١٩٨٧م. الخراج. ط١، دار المعرفة للطباعة والنشر.
- البخاري، محمد بن إسماعيل ،١٩٨٧م. صحيح البخاري. تحقيق د. مصطفى البغا.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود ، ٢٠٠١م. فتوح البلدان. ط١، دار مكتبة الهلال.
- حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، د.ت. مسند أحمد بن حنبل .القاهرة: مؤسسة قرطبة.
- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، ١٩٨٣م. المعجم الكبير. ط ٢، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي.
- الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر، ١٤٠٧هـ. تاريخ الأمم والملوك. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.
- العسقلاني، أحمد علي بن حجر ، د.ت. فتح الباري. دار المعرفة، بيروت.
- مسلم، مسلم بن الحجاج، ١٩٧٨م. صحيح مسلم. ط٣، بيروت: دار الفكر.
- النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، ١٩٨٦ م . المجتبى من السنن (سنن النسائي) حلب. مكتب المطبوعات الإسلامية. الطبعة الثانية، تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري،١٣٩٢هـ. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. ط ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

دوريات صحفية ومصادر الكترونية

- تاريخ القدس منذ الفتح العربي، موقع المركز الفلسطيني للإعلام
- ربيع الحق، (٢٠٠١) معالم في معاملة غير المسلمين، موقع إسلام أون لاين.





المسلمون وقضايا الحوار منطلقات ومقاصد وأولويات

د.محمد الطاهر الميساوي

الأستاذ في الجامعة الإسلامية

العالمية بماليزيا

تمهيـــد

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله وخاتم المرسلين وعلى أنبياء الله أجمعين

يبدو أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ - التي لا يعلم إلا الله تعالى مهندسيها وفَاعليها الحقيقيين - كانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير في مسار علاقات بين العالم الإسلامي والغرب الأوروبي- الأمريكي، لم تكن قطُّ سالمةً من الاهتزاز، خالية من التوتر، كما لم تكن في غالب أحوالها خالصة من الريبة وانعدام الثقة، بسبب عوامل تاريخية وثقافية وسياسية واقتصادية واستراتيجية، ليس أقلَّها الإرث الثقيل لذهنية عهود الاستعمار والاستمرار المقيت لمحنة فلسطين وأبنائها، امتهاناً لكل القيم، وانتهاكًا لكل الأعراف، وتجاوزاً لكل المواثيق، وتحديًا لكل القوانين - يستوي في ذلك الساند والمسنود(١) .

ومهما كان من أمر هذه العوامل وبقطع النظر عمَّنْ دبر لتلكم الأحداث وعمن أخرجها ونفذها، فإن ما وقع في ذلكم اليوم قد جرى توظيفُه والتذرع به على أنحاء لا يخفى ما وراءها من دوافع غير بريئة ومن مقاصد غير نبيلة،

---

(١) الكتابات والتقارير في هذا المعنى كثيرة ومتنوعة سواءً في ذلك ما كتبه كتاب مسلمون وما كتبه غيرهم، مما لا مجال هنا لاستعراضه. انظر في ذلك مثلاً:

Stephen Zunes: Tinder Box: US Foreign Policy and the Roots of Terrorism (London: Zed Books, 2003); John J. Mearsheimer & Stephen M. Walt: The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy (Farrar/USA: Straus and Giroux, 2007).



وذلك لتأييد أطروحة صراع الحضارات وزرع فتائل تصادمها، ولتحقيق نبوءة نهاية التاريخ وتأكيد أيلولته إلى نموذج حضاريٍّ ظاهر قاهر، مهما كانت الشعارات البراقة التي رُفعت والعناوين الخلابة التي رُوِّجت لتغطية الحقيقة الماثلة التي لا مجال لأن يخطئها البصر فضلاً عن البصيرة.

وإنما يُرادُ لشعوب العالم من وراء ذلك كله أن تتماهى مع نمط محدد في الفكر والحياة وأن تسَّاقط خصوصياتُ ثقافاتها وتنماع نظمُ قيمها وتتحلل أساليب حياتها وتذوب هوياتها في بوتقة خاصة للعولمة، اتباعاً لما تحدده قواها النافذة من وجهة وما ترسمه من مسالك لا ينبغي لأحد أن يتلكأ في متابعة السير عليها بله أن يفكر في الحياد عنها؛ فليس لسائر شعوب الأرض طبقًا لفلسفة ذلك النموذج الموجِّهة وعقيدته المحركة إلا أن ترى ما يراه سادةُ العالم وإلا أن تنهج ما يرتضيه لها مهندسو نظامه الجديد من سبل، على منوال فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾ (غافر: ٢٩).

وليس لأحد كائنًا مَنْ كان أن يُنكر فظاعةَ مشهد الأحداث التي وقعت في ذلك اليوم ولا أن يقلل من وخامة عواقبها سواء في أبعادها الإنسانية النفسية أو في مظاهرها المادية الحسية، مهما كانت المعايير التي يستند إليها والمرجعية التي يصدر عنها. ولا يمكن أن يجرؤ على ذلك إلا شخصٌ قد انطمست فطرتُه الإنسانية، وماتت حاسته الخلقية، واختلت مداركه العقلية. إلا أن تلك الفظاعة والوخامة ليستا بشيء بالنظر إلى ما جرت به السنواتُ القلائل الماضيات من وقائع كارثيات، وما آلت إليه أحوالُ العالم من أوضاع انفجارية لا تكاد تذر جانبًا من حياة الناس إلا هزته آثارها، ولا بلداً من بلدان العالم



إلا أصابته شظاياها. ولقد كان الإسلام والمسلمون في قلب الصورة من كل ذلك، تُكال لهم التهم وتُلقى عليهم التبعات وتُسلَّط عليهم الضغوط وتُوجَّه إليهم التهديدات، وتُشوَّه عقائدهم وتزيَّف قيمُهم وتُمْتهن مقدساتُهم ويُستهان برموزهم، فكتابُهم عنوانُ شرٍ وفكرُهم سببُ تخلف وثقافتُهم منبع كراهية وإنسانهم عامل دمار وأداة خراب!

والنتيجة في الواقع - لا النظر - هي ما تضج به الأرض وما يصرخ به الضحايا، فتعكسه الشاشات والمرايا صوراً حية يشاهدها مئات بل آلاف الملايين من البشر في كل ركن من أركان كوكبنا الأرضي الذي زُويت أطرافه وتقاربت مسافاته وتشابك ساكنوه، قريةً صغيرة لا مجال فيها لأن يند شأن من شؤونها عن أحد! ولسنا مع ذلك نريد - ولا ينبغي لنا - أن نبرئ المسلمين من مسؤولية مباشرة أو غير مباشرة على غير قليل مما يتعرضون له، وإنما يتطلب الأمر جرأة في كشف الحساب لا مجرد الملامة والعتاب.

لقد شهد العقدان المنصرمان على وجه الخصوص جهوداً كثيفة ومساعيَ حثيثة في مجالات الفكر والثقافة والإعلام والسياسة والاقتصاد والاجتماع، نهضت بها مؤسساتٌ عالمية ومنظمات إقليمية رسمية وشبه رسمية، لا يخفى على المتابع البصير والملاحظ الحصيف ما تهدف إليه من تهيئة للمناخ وتمهيد للسبل لأَطْر شعوب العالم ودوله وأفراده وثقافاته في تلك البوتقة أطراً وقسرها قسراً للقبول بذلك النموذج والاستسلام لمقتضياته على أن الأمر فيهما ضربةُ لازب لا خلاصَ منها وقدرٌ حتم لا محيصَ عنه.

وقد تتنوع في سبيل ذلك الوسائل وتتعدد المقاربات وتتباين المناهج، ولكن



القصد ثابت والغاية واحدة، وإنما هي مسالك متراكبة، متوازية أو متتابعة، يفضي بعضها إلى بعض، في إطار خطة أو استرتيجية أمٍّ متكاملة، لن نجانب الحقيقة إن قلنا إن الإسلام والعالم الإسلامي يحتلان مركز الدائرة والاهتمام فيها.

إن هذه الصورة لمجريات علاقات المسلمين بغيرهم - وخاصة دول الغرب وامتدادات نفوذها في العالم - ليست بحال من نسج الخيال، وإنما هي مما يحكيه الواقع الماثل للعيان. إنها صورة قد تثير في النفس الشكَّ في جدوى ما يتنادى به الكثيرون - مسلمين وغير مسلمين - من دعوات للحوار، بل قد تورث اليأسَ من أية نتائج إيجابية يمكن أن يؤدي إليها أو أية قيمة فعلية يمكن أن يسفر عنها. ولن يعدم المتشائمون شواهدَ من وقائع قريبة وتجارب حديثة انخرط بها المسلمون في مستويات متنوعة من الحوار في قضايا الدين والثقافة والاقتصاد والسياسة وغيرها، ولم ينتهوا منها إلى طائل، إلا مزيد تراجع في مكانتهم وتنازل عن حقوقهم.

بل لقائل أن يقول: أنَّى لحوارٍ حقيقيٍّ أن يُدار ويؤتيَ من الثمار ما من شأنه أن يعمق التفاهم ويوطد الاحترام ويعزز سبلَ التعاون بين أطرافه ما دام يكتنفه عدمُ التكافؤ بين المتحاورين: من ضعفاء تابعين مغلوبين، وأقوياء متبوعين قاهرين؟ أفلا تكون الدعوةُ للحوار عندها مجردَ ملهاة يلوذ بها من لا حيلة له ويأوي إليها من لا خيار غيرها أمامه!؟[١]

إن ذلك - وغيره كثير - مما يمكن أن يُعترض به على أية دعوة للحوار، حُججًا قد لا تكون أقلَّ إقناعًا مما يستند إليه مؤيدوه والدعاة إليه. ولكن هل

---

(١) انظر في ذلك مثلاً: ناصر الدين الأسد: نحن والآخر: صراع وحوار (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٧).



تلك هي نهاية المطاف؟ وهل ما وقع هو فعلاً قدر لا يرتفع؟ كلا ثم كلا! فلا عَقْدُ الإيمان ولا منطق الإسلام ولا إرشادات القرآن ولا سيرة الرسول ﷺ تسمح للمسلم أن يركن للواقع مهما ثقلت وطأته، أو أن يستسلم لليأس مهما تكاثفت أسبابه وتواردت الدواعي إليه؛ إذ ﴿لاَ يَيْأَسُ من رَّوْحِ اللّه إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧)، ولا يقنط من رحمته إلا الضالون.

الحوار: أصول ومنطلقات

لقد صُنفت مؤلفاتٌ رصينة كثيرة وكُتبت بحوثٌ علمية عديدة عن الحوار في القرآن الكريم وسنة الرسول الأمين، كما كتب مثلها عما يزخر به التراث الفكري والتاريخ الحضاري للمسلمين، تأكيداً لقيمة الحوار وأهميته، وتتبعاً لصيغه ومفرداته، ورصداً لمظاهره وتجلياته، وبياناً لموضوعاته ومجالاته، وشرحاً لشروطه وأساليبه وأدواته، وتحديداً لأهدافه وغاياته(١).

ولذلك لن نأتي بجديد في الفكر أو نقرر بدعاً من القول، إن نحن قلنا إن الحوار أصلٌ أصيل في تعاليم الإسلام؛ نطقت به نصوصُ الوحي وجسدته

---

(١) انظر في ذلك مثلاً: إبراهيم أحمد الوقفي: الحوار لغة القرآن الكريم والسنة (مدينة نصر/ مصر: دار الفكر العربي، ١٤١٤/ ١٩٩٣)؛ محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن (بيروت: دار الملاك، ١٤١٧/ ١٩٩٦)؛ حمد بن إبراهيم العثمان: أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٥/ ٢٠٠٤)؛ محمود حمدي زقزوق: الإسلام وقضايا الحوار (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤)؛ حسن الصفار: الحوار والانفتاح على الآخر (بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)؛ هربرت بوسيه: أسس الحوار فى القرآن الكريم دراسة فى علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية، ترجمة محمد خليفة حسن (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥)؛ رقية طه جابر العلواني: فقه الحوار مع المخالف في ضوء القرآن والسنة (المدينة المنورة: جائزة نايف ابن عبد العزيز آل سعود العالمية للسنة والنبوية والدراسات الإسلامية، ١٤٢٦/ ٢٠٠٥).



سيرة المصطفى، واجتهد المسلمون عبر تاريخهم في العمل بمقتضاه فتفاوتت أجيالهم وأمصارهم في أقدار تمثله والالتزام به. ومع ذلك فإن من الحقائق البديهية ما قد يحتاج الناسُ إلى تأكيده حيناً بعد حين والتذكير به مرة تلو أخرى، وخاصة عندما تلتبس المسالك وتتطاير الشبهات وتتضارب الأقوال، وسواء كان مصدر ذلك التشويش المسلمون أو غيرهم، وذلك لكي لا تهتز البوصلة عن مدارها، أو توضع الأمور في غير نصابها.

بيد أننا - ونحن نفعل ذلك - لن ننهج النهج ذاته الذي سار عليه سائرُ الذين تناولوا موضوع الحوار، فنتتبع مواردَ الألفاظ المعبرة عنه أو نسرد الأمثلة الدالة عليه. فذلك أمر قد كُفينا مؤنته، فجزى الله الذين سبقونا فيه فأحسنوا وما قصروا. ولكن ذلك لا ينبغي أن يثنينا من أن نحاول الإضافة إلى ما قدموا ولو كان شيئًا يسيراً، لا استدراكًا عليهم أو تغليطًا لهم، وإنما تزكية لما فعلوه وبناءً على ما مهدوه، فنقول وبالله التوفيق:

١ - إن القرآن الكريم خطابُ الله إلى الناس كافة، يتوجه إليهم من حيث هم بشر، فيذكرهم بوحدة الأصل الذي منه تفرُّعُهم وبوحدة الروح الذي به قوامُهم وبوحدة الفطرة التي عليها خلقتُهم، صنع الله الذي أتقن كل شيء. فهم بذلك أسرة واحدة، تجمعهم آصرة نسب واحد، ويشتركون في طبيعة واحدة: ﴿وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ (الروم: ٢٠)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَاحِدَة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١)، ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْس وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ (الأنعام: ٩٨)، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا



زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف: ١٨٩)، ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الزمر: ٦)، كما أن مصيراً واحداً ينتظرهم: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٧)، ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة: ١١).

٢- وما بين وحدة المبدأ ووحدة المصير، اقتضت حكمة الخالق القدير الذي أنبتهم من الأرض نباتًا أن يبثهم فيها ذكوراً وإناثًا متكاملين، ومتناسلين متكاثرين: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١)، وشعوباً وقبائل متنوعين متعارفين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣)، ليستووا فيها على قاعدة التسخير: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة: ٢٩)، فينهضوا بمهمة الخلافة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) ويحملوا أمانة التكليف: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ (الأحزاب: ٧٢)، إعماراً للأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، وقياماً فيها بالعدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥). وذلك كله إنما يتم في إطار من تكريم الله سبحانه لهم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ



وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠)، اصطفاءً لهم من دون الخلق أجمعين، لا يتفاضلونَ إلا بالتقوى وصالح الأعمال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا﴾ (فصلت: ٤٦)، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (الكهف: ٤٦).

٣- وبذلك ينهض منطلقان أو أصلان كليان عظيمان عليهما تتأسس رؤيتنا الإسلامية إلى البشر كافة، وبهما تتحدد وجهتنا في الحوار معهم جميعاً: من آمن منهم بالله تعالى ومن لم يؤمن، من استجاب لدعوة محمد ﷺ وتبع طريق القرآن ومن نكص.

أما الأصل الأول فهو أنهم جميعاً متحدون في مبدأ صدورهم وأصل نشأتهم، متحدون في طبيعة تكوينهم وصبغة فطرتهم، متحدون في الغاية من وجودهم، متحدون في التكريم الإلهي لهم، ومشتركون فيما به أسباب حياتهم وقوام بقائهم، متحدون فيما يؤولون إليه في ختام رحلتهم في هذا العالم.

وأما الأصل الثاني فهو أنهم خلال وجودهم في هذه الدنيا مبتلون بالاختلاف فيما بينهم قبائل وشعوباً وأمماً: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨)، وبالاختلاف في لغاتهم والتباين في أعراقهم طرائق قدداً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (الروم: ٢٢)، بل وبالتنازع والتدافع فيما بينهم بدوافع قد تتقارب أو تتباعد ولمقاصد قد تتباين أو تتناقض: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:



٢٥١)، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (الأنعام: ٦٥)، ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج: ٤٠)، ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الحجرات: ٩).

٤- وفي إطار من جدل الوحدة والاختلاف والتنوع، آيةً للحكمة الإلهية البالغة في خلق الإنسان وبناء الكون وإجراء نواميس الحياة فيه، يأتي التعارف بين البشر: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣)، إلهاماً لهم من الله تعالى فيحصل "طبقة بعد طَبقة متدرجًا إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة. وهكذا تتعارف العشائر مع البطون، والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها. فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه نظامًا محكمًا لربط أواصرهم دون مشقة ولا تعذر؛ فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل ثم يُبث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل ثم بينه وبين جماعات أكثر. وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات المتماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم."(١)

وإنما يحصل هذا التعارفُ الذي في ضوئه تتنامى استعداداتُ البشر وعلى

(١) محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ج١٢/٢٦، ص٢ , ٦٠ وقارن في هذا الصدد زكي الميلاد (محرر): تعارف الحضارات (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٦).



أساسه تتكامل أعمالهم وبسببه تقوم حضارتهم تساوقًا مع فطرتهم وبناءً على وحدة انتسابهم إلى أصلهم الواحد، فيستخدمون ما أودع الله فيهم من قوى الإدراك والفهم: ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)، ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء: ٣٦)، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١)، ويوظفون ما آتاهم من وسائل التواصل والبيان والإفهام: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ٣-٤)، سعيًا لسد حاجاتهم وتحقيقًا لما فيه صلاحهم وطلبًا لما به سعادتهم، في الدنيا والآخرة إن كانوا من أهل الإيمان وعباد الرحمن، وفي الأولى دون الأخرى لمن أراد العاجلة الفانية دون الثانية الباقية. ذلك أن الشكر منازل ودرجات، أعلاها أن يقر الإنسان بمربوبيته لخالقه عز وجل وأن يدين له بالعبودية، طاعةً لأمره ووقوفًا عند حدوده، واستعمالاً لما آتاه من نعمة الوجود والحياة وما سخره له من خيرات الكون فيما يرضيه ويستجلب رحمته ويستمطر رضوانه، فيكون بذلك عبداً لله اختياراً كما هو عبد له اضطرارا[١] .

وأما أدنى منازل الشكر فأن يسعى بما أوتيه من قوى ووسائل في طلب ما فيه النفع واستدفاع ما فيه الضر، له ولإخوانه في الإنسانية، بل لسائر المخلوقات، وأن لا يفسد في الأرض بعد إصلاحها.

٥- ذلكم هو الإطار الكلي الجامع - في أبعاده الفكرية والروحية

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز (بيروت: دار المعرفة، ١٤١٦/ ١٩٩٦)، ج١/ ٢، ص٤٦٩ .



والخلقية والمادية - الذي يتنزل فيه كلامُنا على قضايا الحوار، سواء بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان والعقائد والثقافات المختلفة، أو بين بعضهم بعضًا - بما في ذلك ما جرت تسميتُه بحوار الحضارات. وليس غرضُنا هنا متجهًا إلى هذا النوع من الحوار الذي كثر الحديثُ عنه في العشرين سنة الماضية بوصفه ترياقًا لمقولة صراع الحضارات، لا إنكاراً له أو تقليلاً لشأنه، بل لكونه ظاهرة تاريخية كونية تجري عفواً بين مختلف الثقافات والحضارات فيحصلُ التفاعل والتقابس بينها حتى في أشد حالات الحرب والتقاتل بين أبنائها، سُنَّةً ماضية في العمران البشري والاجتماع الإنساني منذ أقدم العصور. وإنما الذي يعنينا تأكيدُه في هذا المقام هو ذلك الحوار المنهجي المنظم الذي يجري وفقًا لرؤية محددة وخطة مضبوطة وغايات واضحة معلومة، بحيث يعلم الفرقاء المختلفون فيمَ ولمَ وكيف يتحاورون.

٦- وقبل أن ننقل الكلام إلى ذلك، لا بدَ - فضلاً عما سبق بيانُه - من تقرير حقيقة أساسية بشأن قيمة الحوار ومكانته في القرآن.

إن الناظر في هذا الكتاب: في عظاته وأحكامه، وفي قصصه وحكاياته، وفي إرشاداته وتقريراته، وفي "مجادلاته" و"استدلالاته"، لا يملك إلا أن يدرك كم أن بنية خطابه بنية حوارية في جوهرها، توجيهاً وتعليماً للمخاطَبين به أن لا سبيل للتواصل والتفاهم فالتعارف والتعاون بين البشر من غير سبيل التحاور أو "المرادة في الكلام."(١).

بل إن مفهوم الحوار في القرآن الكريم تمتد جذورُه إلى ما قبل الوجود الأرضي للإنسان في ذلك المشهد المهيب حين أخبر الله تعالى الملائكة

(١) هكذا حدد الراغب معنى الحوار والمحاورة والتحاور. الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي (دمشق: دار القلم / بيروت: الدار الشامية، ١٤١٨/ ١٩٩٧)، ٢٦٢.



باستخلاف آدم، وهو ما قصه القرآن الكريم في هذه الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٣).

إنها محاورةٌ بين الخالق وبعض مخلوقاته بخصوص أهم حدث سيشهده الكون بعد خلق السماوات والأرض، إنها محاورةٌ حول نوع المخلوق الذي اختاره الله سبحانه من بين المخلوقات كافة لتعمير الأرض والتصرف فيها، وحول صفاته وأهليته لهذا المقام.

وقد استروح منها بعضُ العلماء - كالفخر الرازي - أن فيها تعليمًا للإنسان معنى الاستشارة وأن لا يستبد برأيه. وعبر عن ذلك المعنى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في لغة فلسفية دقيقة بقوله:

" وعندي أن هاته الاستشارة جُعلت لتكونَ حقيقةً مقارنةً في الوجود لخلق أوَّل البشر حتى تكونَ ناموساً أُشْرِبَتْه نفوسُ ذريته؛ لأن مقارنَةَ شيء من الأحوال والمعاني لتكوين شيء ما تُؤْثِرُ تآلُفًا بين ذلك الشيء وبين المقارن. ولعل هذا الاقتران يقوم في المعاني التي لا توجد إلا تبعًا لذوات مقام أمرَ التكوين في الذوات. فكما أن أمره إذا أراد شيئًا - أي إنشاء ذات - أن يقول له كن فيكون، كذلك أمره إذا أراد اقترانَ معنًى بذات أو جنس أن يُقدِّرَ حصولَ مبدأ ذلك المعنى عند تكوين أصل ذلك الجنس أو عند تكوين الذات. ألا ترى أنه تعالى لما أراد أن يكون قبولُ العلم من خصائص الإنسان، علم آدم الأسماء عندما خلقه. "(١)

---

(١) ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج١، ص٤٠٠ .



وعلى النهج ذاته نسير فنقول: لقد اقتضت إرادةُ الله سبحانه وتعالى وحكمتُه أن يكون الحوارُ والتحاورُ معنًى مقارناً لخلق الإنسان واصطفائه للخلافة في الأرض وتحمل أمانة التكليف، حتى يكَون ذلك المعنى جزءاً من فطرته وخَصيصةً من خصائصه. فكما أن الإنسان مفطورٌ على التدين والتعلم وتطلب ما فيه جَلبُ صلاحه ودفع ضره، فهو كذلك مفطورٌ على التحاور مع غيره. وبذلك يكون معنى الحوار في المنظور الإسلامي أصلاً مركوزاً في الطبيعة الإنسانية لا مجردَ صفة عارضة اكتسبها البشر خلال تطورهم التاريخي والثقافي.

وتماشياً مع هذا الأصل وغيره من أصول الفطرة التي أودعها الخالقُ الحكيم في تكوين الإنسان، سارت دعوةُ الأنبياء والرسل عليهم السلام في مراحلها المتعاقبة حواراً وجدالاً بالحسنى مع أقوامهم، مما حفل القرآنُ الكريم بتصوير مشاهده ورسم وقائعه في أسلوب أخاذ ينبض بالحياة ويتدفق بالحركة. وإن في الإسلام لاهتماماً شديداً بالفطرة وتعويلاً كبيراً عليها حتى جعلها هي الدين أو الدين هي، فقال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠). وحتى إذا ما عرضت لتلك الفطرة غاشياتُ الانحراف من الهوى والجهل والطغيان إلخ فانطمست أو كادت، فإن الإسلامَ لا يفقد ثقتَه فيها ولا يرتد عن تعويله على ما هو مركوز فيها من بذور الخير والصلاح الأولى التي أودعها البارئ سبحانه وتعالى فيها. وإن فيما حكاه لنا القرآن الكريم من قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون لدلالةً بالغة على هذا، حيث قال:

(١) وقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (النحل:٩٣)، ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الشورى:٨)



﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (طه: ٤٢-٤٧).

إن الذي أمر اللهُ تعالى موسى وهارون بمخاطبته هذا الخطاب هو فرعونُ الذي بلغ به الصلفُ والجبروتُ أن ادعى الألوهية لنفسه والذي حكى القرآن قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤). وسواءاً كان ادعاؤه هذا قبل محاورة موسى وهارون إياه أم بعدها، فإن ذلك كان في علم الله المحيط من قبل وبعد، ولكنه سبحانه لم يرد لموسى وهارون - ومن ورائهما كل مؤمن برسالات أنبياء الله وكل داعية إلى ما جاؤوا به من قيم التوحيد والحق والعدل والخير والعبودية له سبحانه - أن يَدَعا اليأسَ يتسرب إلى نفسيهما ويثبط سعيهما، بل على العكس أمرهما بألا يسقطا من حسابهما ذلك الجذرَ الأصيل في التكوين الإنساني لفرعون، وأن يرفقا له في القول: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، مهما رانت على قلبه وعقله الغشاواتُ وتكاثفت على فطرته عواملُ التشويه والتحريف والإفساد. وقد أحسن التعبيرَ عن هذا المعنى المفكرُ الإيراني الراحل المطهري حيث قال: "النظرةُ القرآنية تؤكد أصالةَ الفطرة، وتعتقد أن الكائن الإنساني - مهما بلغ درجةً من المسخ والانحراف، بل وحتى إذا بلغ مرحلة فرعون - يحمل في أعماقه فطرةً إنسانية مغلولة مكبَّلة. ولهذا يمكن لأكثر الأفراد مسخًا أن يتحرك في اتجاه الحق والحقيقة، وإن ضعف هذا الإمكان."(١)

(١) مرتضى المطهري: المجتمع والتاريخ (بيروت: دار المرتضى، ١٤٠٨/ ١٩٨٨)، ص٢٣٧-٢٣٨ .



بل إن القرآن الكريم لم يكتف بمثل ذلك من مشاهد الحوار في مسيرة دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد قص علينا كذلك مشاهد مما جرى في غيب الأزل من حوار بين الله سبحان وتعالى وإبليس الذي عصى الأمر الإلهي بالسجود لآدم احتجاجاً بتميز عنصره. وفي ذلك نقرأ مثلا:

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٣٢-٤٢).

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ (الإسراء: ٦٠-٦٤).



الحوار: مقاصد وأولويات

ذلك عن شأن الحوار نظراً وتأصيلاً، وقد دار الكلام عليه من أفق مفهوم الفطرة الذي عده بعضُ العلماء الينبوعَ الذي تنفجر منه " جميع أصول الإسلام وقواعده "[١] و " أساسُ النظم التي أُقيمت عليها الحضارةُ الأولى في البشر من توخِّي الصلاح ودرء الفساد وإصابة الحق. "[٢]ولى أولى في البشر من توخي وإذ نؤكد أهميةَ الفطرة في تأصيل معاني الحوار، فإننا نصدر في ذلك عن اعتبار رئيسي استقرَّ لدينا من إدراك لما آل إليه حالُ الفكر الفلسفي والاجتماعي والأخلاقي الحديث الذي يكادُ يسيطر على العالم كله في ظل سطوة الحضارة الغربية وهيمنتها. ذلكم الاعتبار هو أن من السمات الغالبة لهذا الفكر منذ بدايات تشكله الأول فيما عرف بعصر التنوير، النزوعُ إلى النفي المنهجي لأن تكون هناك طبيعةٌ إنسانية ثابتة هي مناط ما يناسب البشرَ في حياتهم الفردية والاجتماعية من قيم وأحوال ونظم ومؤسسات. وهو نزوعٌ يستمدُّ أسسه وقواعده ومسوغاته من الرؤية العلمانية المادية للحياة والوجود والإنسان التي تتابع نمُّوها وتبلورها عبر أطوار أساسية، أهما طورا الحداثة وما بعد الحداثة.[٣]

(١) محمد الطاهر ابن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تحقيق محمد الطاهر الميساوي (عَمَّان: دار النفائس، ١٤٢١/ ٢٠٠١)، ص٤٠ .

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٨,

(٣) لم يعد هذا أمراً قاصراً إدراكه على فئة خاصة من أهل الفكر والنظر، وإنما أصبح من الحقائق العاملة التي نبه عليها كثير من المفكرين والعلماء الغربيين وغيرهم وكتب بشأنها العديد من البحوث والدراسات العلمية الرصينة. انظر في ذلك مثلا:
René Dubos: So Human an Animal (New York: Charles Scribner's Sons, 1968); Roger Trigg: Reality at Risk (Sussex & New Jersey: The Harvester Press & Barnes and Noble Books, 1980); Seyyed Hossein Nasr: Man and Nature: The Spiritual Crisis of Modern Man (Chicago: ABC International Group, 1997); Robert Cummings Neville: Recovery of the Measure: Interpretation and Nature (New York: State University of New York Press, 1989; Denis Alexander: Rebuilding the Matrix: Science and Faith in the 21st Century (Oxford: Lion Publishing, 2001.



أما شأنُ الحوار عملاً وتفصيلاً فندير الكلام عليه في مقامين اثنين: ننظر في المقام الأول في المقاصد والغايات التي يسعى الحوار إلى تحقيقها، بينما ننظر في المقام الثاني في الأولويات التي تتطلبها الأوضاعُ الراهنة التي آلت إليها العلاقاتُ فيما بين الشعوب والثقافات وتقتضيها طبيعةُ المشكلات التي تواجهها الإنسانية كافة على نحو غير مسبوق في تاريخها.

١ - إن مفهوم الحوار أو التحاور أو المحاورة في السياق الذي سارت فيه هاته الورقة منظورٌ إليه في مداه الإنساني الكوني دون تخصيص له بقبيل من الناس دون قبيل، ولا بنوع من القضايا دون سواه، كما أنه لم يجر حصره في فئة معينة من الألفاظ أو المفردات المعبرة عنه (مثل الجدل والمجادلة والمناظرة، إلخ). ولذلك يمكن تعريفُه تعريفًا عامًّا صالحًا للانطباق على ذلك المدى الرحيب، شمولاً لأبعاده ومستوياته، واستيعابًا لأطرافه وموضوعاته، وإحاطة بآلياته وغاياته. ومن ثم نقول، بناءً على ما ذكره الراغب الأصفهاني في تحديد معناه وتزكيةً له بما جاء في كثير من كتب اللغة والتفسير: "الحوار هو المرادَّةُ أو المراجعةُ في الكلام بين المتخاطبين بإقامة الدليل على ما اختُلف فيه، تطلبًا للصواب من أجل الوصول إلى الحقيقة فيه، رأيًا كان أو عملا ".(١)

(١) انظر في ذلك مثلاً: إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار (بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧/ ١٩٨٧)، ج٢، ص٦٤٠ وج٤، ص١٦٥٣؛ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٤١٠/ ١٩٩٠)، ج٤، ص٢١٨ وج١١، ص١٠٥؛ فخر الدين الرازي: التفسير الكبير (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١/ ١٩٩٠)، ج١٠/ ٢٠، ص١١١؛ ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج٧/ ١٤، ص٣٢٨ وج١٠/ ٢١، ص٦-٨؛ محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤١١/ ١٩٩١)، ج١٣، ص٣٧٢-٣٧٣؛ محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي (القاهرة: أخبار اليوم، بدون تاريخ)، ج١٣، ص, ٨٢٨٦



٢- وعلى أساس هذا التحديد العام لمفهوم الحوار نستطيع أن نقرر أن الغايات التي تتحرك إليها العملية التحاورية تتلخص في مقصدين رئيسين اثنين يجسدان جانبيْ النظر والعمل فيها وهما:

١- السعي لمعرفة حقيقة الأمر المختلَف فيه بين المتحاورين والتسلم بشأنها،

٢- العمل على تمثل مقتضيات الحقيَقة المدركة والالتزام بها على مستوى السلوك والعمل. فهذان المقصدان هما اللذان يضفيان على عملية التحاور بين المختلفين قيمتَها النظرية ووظيفيتَها العملية وغائيتَها الخلقية، وهي أبعاد بدونها يصبح الحوار ضرباً من العبثية لا يليق أبداً بالإنسان الذي كرمه الله تعالى تكريماً لم ينله حتى الملائكة المقربون المبرؤون.

وهذان المقصدان من العموم والشمول بحيث يندرج في إطارهما كلُّ ما يمس الحياةَ الإنسانية في جوانبها المختلفة، من أجلها شأناً وأعمقها وقعاً وأبعدها مدى إلى أدناها رتبة وأقلها أثراً وأضيقها نطاقاً، مما ليس هنا المجالُ لتفصيل القول فيه. وفي هذا الأفق الرحيب لمقصدية الحوار وغائيته، يمكننا الكلام على القضايا والموضوعات التي يشملها الحوار ويحتاج الأمر فيها إلى الاستبصار بالأولويات التي ينبغي الانطلاق منها والتركيز عليها. كثيراً ما ينصرف الخاطرُ عند الحديث عن الحوار في مثل مقامنا هذا إلى الحوار بين الأديان، وخاصة بين أديان التوحيد الثلاثة، وعلى الأخص الحوار بين أتباع دين الإسلام والمسيحية، أو المسلمين والمسيحيين حتى نكون أكثر دقة. ولهذا بطبيعة الحال أسبابُه التاريخية والجغرافية ودواعيه الثقافية والحضارية، ومسوغاته الدينية من حيث العلاقة النسبية بين هاتين الديانتين. وقد كُتب الكثير في هذا الشأن من لدن المسلمين والمسيحيين، وانطلقت مبادراتٌ عديدة في سبيل دفع عملية الحوار بين



الطرفين، رعتها مؤسساتٌ ومنظمات رسمية وغير رسمية، وقد تحقق لها بعض ما سعت إليه من أهداف وأخفقت في البعض الآخر. ولكنها في كل الأحوال مهدت جانباً مهمًّا من الطريق، وكشفت عن غير قليل من العقبات، بما من شأنه أن يجعل استئنافَ الحوار أمراً يسيراً غير عسير.

٣- وإن الناظر فيما دار من حوار بين المسلمين والمسيحيين خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية لا يسعه إلا أن يلحظ أن القضايا العقدية والكلامية (theological issues) هي التي استحوذت على اهتمام المتحاورين في غالب الأحيان. ودون أن نقلل من قيمة الحوار في هذا الجانب - الذي ليس التحاور فيه على أي حال أمراً جديداً بل هو ممتد امتداد العلاقة التاريخية بين الإسلام والمسيحية[١] - فإن ما تحقق من خلاله قد لا يرقى إلى مستوى ما يرومه كلٌّ طرف منه، وخاصة إذا كان القصدُ تحويلَ طرف من عقيدته إلى عقيدة الآخر. وهذا أمر طبيعي، ذلك أن مسائل العقد والإيمان ليست من الأمور التي تقبل مثل ذلك التحويل. وربما كان من الخطأ الذي يباعد بين المتحاورين ويزيد الجفوة بينهم أن يجعلوا ذلك القصد هو الغاية من عملية الحوار وأن يتخذوه معياراً أعلى للحكم عليها بالنجاح أو الإخفاق. وهذا لا يعني أن كثيراً من الحقائق الموضوعية والتاريخية التي تتصل بالإسلام والمسيحية في أصولهما النصية ومفاهيمها التأسيسية وقيمهما الروحية والخلقية ومكانة ذلك جميعًا في حياة كل طرف أصبحت أكثر جلاءً في

---

(١) انظر مثلاً: عبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/ العاشر (بيروت: دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٧)؛ محمد أو شامة: بين الإسلام والمسيحية (كتاب أبي عبيدة الخزرجي)، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٢٨/ ٢٠٠٧).



الأذهان وأنه قد حصل بشأنها مستوى معقول من التفاهم[(١)]

٤- ومهما يكن من أهمية الحوار بين أهل ديانات التوحيد الثلاث بسبب الخصوصيات التي تجمعها والإشكاليات التي تنطوي عليها العلاقةُ بينها، فإن الحاجة بالنسبة للمسلمين ماسة جداً إلى توسيع دائرة الحوار الديني لتشمل أتباعَ الديانات الأخرى، وخاصة الكبرى منها كالبوذية والهندوسية وغيرهما. ومنشأ الحاجة إلى ذلك هو أن الإسلام لم يعد - وذلك منذ قرون عديدة - ديناً محصوراً في محيط جغرافي محدود يقتصر التماس فيه بينه وبين المسيحية واليهودية، وإنما أصبح الوجود الإسلامي شاملاً لكل قارات الكرة الأرضية وأقطارها، متماساً بل متداخلاً مع وجود غالب الأديان إن لم يكن كلها. ومن شأن ذلك التماس والتواصل أن يثير من المشكلات

(١) انظر في هذا الصدد على سبيل المثال لا الحصر الأعمال التالية: بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي (طرابلس/ ليبيا: ٢-٦ صفر ١٣٩٦/ ١-٥ فبراير ١٩٧٦)؛ محمد الطالبي: الإسلام حرية وحوار، ترجمة حسني زينة (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩٩)؛ محمد السماك: مقدمة إلى الحوار الإسلامي-المسيحي (بيروت: دار النفائس، ١٤١٨/ ١٩٩٨)؛ وكذلك:

Jutta Sperber: Christians and Muslims: The Dialogue Activities of the World Council of Churches and their Theological Foundation (Berlin/ New York: Walter de Gruyter, 2000); Jerald F. Dirkis: The Cross and the Crescent: An Interfaith Dialogue Between Christianity and Islam (Beltsville, Maryland: Amana Publications, 2001); Hans Kung et al: Christianity and World Religions: Paths to Dialogue (New York: Orbis Books, 2002 [1986]).

وقد ترجم الجزء الخاص بالإسلام والمسيحية من الكتاب الأخير (وكاتباه هما هانس كونج وجوزيف فان إس) وعلق عليه الدكتور السيد محمد الشاهد ونشره بعنوان: التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام: دراسة تحليلية نقدية (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٤١٤/ ١٩٩٤).



والحساسيات للمسلمين ولغيرهم ما يستدعي التحاورَ حوله للوصول فيه إلى كلمة سواء، ضماناً للاحترام المتبادل والتعايش السلمي بين الجميع(١)

٥- على أنه من الواجب أن ننبه في هذا السياق إلى أن أساس المشكلات التي تواجهها الإنسانية ومصدر أكبر المخاطر التي تتهدد الوجود البشري في عصرنا هذا بل تتهدد عالمنا كله بإنسه وحيوانه وشجره وبره وبحره وجوه وسائر ما فيه من الكائنات التي لا نعلم، ليست الأديانُ هي المسؤولة عنها بالدرجة الأولى. ودون التقليل من قيمة نظر من رأى أن "لا سلم بين الأمم دون سلم بين الأديان"، وأن "لا سلم بين الأديان من دون حوار بين الأديان"(٢)، فإننا لا نتوانى أن نؤكد أن الفكر المادي والعقل الوضعي والرؤية العلمانية هي المصدر الحقيقي للمخاطر التي توشك أن تدفع بالإنسانية كلها إلى هاوية اللامعنى وسحيق اللاقيمة وعبثية الوجود. إن الإنسانية الآن تعيش وطأة العصر العلماني في جوانب الحياة كلها، تحللاً في قيم الأخلاق، وانهياراً في نظم المجتمع وخاصة الأسرة، وجفافاً في الفروح، وخواءً في العلاقات الإنسانية، وأداتية في العقل والتفكير، وتدهوراً في

---

(١) انظر في هذا الصدد:

Osman Bakar & Cheng Gek Nai (editors): Islam and Confucianism: A Civilizational Dialogue (Kuala Lumpur: Centre for Civilizational Dialogue, University of Malaya, 1997).

ومن المناسب أن نشير هنا إلى ما قام به قبل حوالي ثلاثة عقود المفكر الياباني الراحل بصدد الدراسة الفلسفية العميقة المقارنة للفكر الإسلامي والطاوية وذلك في كتابه الفريد عن التصوف. انظر:
Toshihko Izutsu: Sufism and Taoism: A Comparative Study of Key Philosophical Concepts (California: The University of California Press, 1984 [1983]).

(٢) ذلك ما قرره هانز كونج في خاتمة الكتاب المشترك عن المسيحية وأديان العالم:
Hans Kung et al: Christianity and World Religions, p. 443.



أوضاع البيئة واختلالاً في توازنها، إلخ. وتلك حقائق لا مجال لأحد - بما ذلك العقائديون العلمانيون - لأن ينكرها.[١]

٦- إن العقل الوضعي والفكر المادي العلماني اللذين أعلنا - على لسان فيلسوف مثل نيتشه -موت الآلهة ونهاية الأديان لم يلبثا إلا قليلاً حتى بَشَّرا - في سياق فكر ما بعد الحداثة - بنهاية التاريخ وبنهايات أخرى كنهاية الإيديولوجيا ونهاية العقل، مما لا يتسع المجال لمناقشته. وإنه لمن بالغ الدلالة وعميق المغزى أن تجد ذات المفكر الذي كتب مغتبطًا ومهللاً ليبشر بنهاية التاريخ وبلوغ الإنسانية غاية نموها ومنتهى تطورها من خلال النظام الاجتماعي الرأسمالي كما تجسد في الولايات المتحدة الأمريكية،[٢] إن هذا الداعية نفسه عاد بعد سنوات قلائل لينذر من نهاية الإنسان وانهيار علاقاته الإنسانية وسقوط مؤسساته الاجتماعية واضمحلال القيم والمبادئ التي تسمح لذلك كله بالتماسك، وذلك بسبب ما آل إليه وضع البحث العلمي وتطبيقاته في الحياة الإنسانية من هوة سحيقة جردت الإنسان من أية قيمة إلا كونه كتلة من عزم ولحم. ولذلك أطلق صاحبنا صفارة الإنذار منادياً بالعودة إلى حكمة أولئك الفلاسفة الذين تحدثوا عن طبيعة الإنسان وعن ماهية القيم المناسبة له![٣]

---

(١) انظر في هذه المعاني:
Charles Taylor: A Secular Age (USA/England: The Belknap Press of Harvard University Press, 2007).

(٢) ذلكم هو المفكر الياباني أرومةً الأمريكي مولداً ونشأة في أطروحته المعروفة. انظر:
Francsi Fukuyama: The End of History and the Last Man (New York: The Free Press, 1992).

(٣) راجع:
Francis Fukuyama: Our Posthuman Future: Consequences of the Biotechnology Revolution (London: Profile Books, 2002).



٧- وبناءً على ما سبق بيانه نقول: إن الحوار بين الأديان أو أتباعها ليس مطلوباً فقط لتسوية ما بينها من مشكلات والتواصل إلى إطار معين من التفاهم والتعايش بينها، وإنما هو أكثر ضرورة لإنقاذ الإنسانية من المهاوي التي دفعها العقل الوضعي بماديته وعلمانيته وإلحاده رويداً رويداً، باسم التحرر وباسم العلم تارة أخرى. وإن حوار الأديان ينبغي أن يكون مهاداً لحوار كل عقلاء الإنسانية ممن ما زالت فطرتهم تناضل وتغالب من أجل الحفاظ على إنسانية الإنسان.

٨- وإذا كان المقصد العام لشريعة الإسلام التي ينبغي أن ندير على أساس هديها الحوار حفظ نظام العالم "واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان" صلاحًا يشمل "صلاحَ عقله، وصلاحَ عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه"،[١] فإن أمام المسلمين في ذلك تحديات جسيمة عليهم تقع مسؤولية عظيمة ليعطوا الحوار بين الأديان والحضارات والثقافات مداه الروحي ومغزاه الإنساني الكوني.

وإذ نسير في هذا الطريق فإننا في ذلك ننسج على منوال التوجيه القرآني بالانطلاق مما هو مشترك بيننا وبين من نحاورمن أهل الأديان والملل والثقافات مهما كانت درجات التقارب أو التباعد بيننا وبينهم،[٢] ذلك التوجيه الذي نقرؤه في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

(١) محمد الطاهر ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الطاهر الميساوي (عمان: دار النفائس، ١٤٢١/ ٢٠٠١)، ص٢٧٣ .

(٢) راجع في هذا المعنى: أنراوس بشته وعادل تيودور خوري (بالاشتراك مع محمد طالبي وناصرة إقبال والسيد محمد الخامنئي وكريسيان ترول وهاينرخ شنايدر): عالَم واحد للجميع (أعمال المؤتمر المسيحي الإسلامي الدولي الثاني)، (بيروت: المكتبة البولسية، ٢٠٠٠).



خاتمة وتوصية

إن الوقفات الماضية مع معنى الحوار وأهميته وغايته وقضاياه لا تزيدنا في الحقيقة إلا إدراكًا لثقل ما يتطلبه النهوضُ به من جهد فكري وذهني، ومن تجرد خلقي، ونزاهة إنسانية، وشفافية روحية، وصبر على مطالبه، واستعداد لقبول الحقيقة فيه. كما تضعنا أمام مقتضياته العملية وتكاليفه المادية التي لا يمكن أن تفي بها الجهود الفردية والمبادرات العفوية والاحتفالات الموسمية، وإنما يستدعي الأمر خطة استراتيجية محكمة وإطاراً مؤسسيًّا ناضجًا مستقلاًّ يمضي في سبيله على بصيرة.

والله من وراء القصد وهو العاصم من الزلل والهادي إلى أقوم السبل.

الإسلام والحوار بين الأديان: الأسس والآليات

د. مزمل حسين الصديقي

رئيس المجلس الفقهى لأمريكا الشمالية





الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

لقد تلقينا وتلقى العالم كله دعوة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبد العزيز آل سعود ـ حفظه الله ورعاه ـ للحوار بين الأديان والثقافات بكل فرح وسرور ، كما نشكر رابطة العالم الإسلامي وعلى رأسها معالي الدكتور عبدالله عبدالمحسن التركي على هذا الاجتماع القيم وعلى حسن الاستقبال وكرم الضيافة، ندعوا الله تعالى أن يجزي المملكة وأهلها وكل القائمين بأمور الرابطة العزيزة عنا وعن المسلمين خيراً في الدنيا والآخرة .

إن لهذا الاجتماع أهمية كبرى، وأرى أن هذا الاجتماع هوالأول من نوعه على هذا المستوى الرفيع الكبير في بلد الله الحرام، للمناقشة العلمية في موضوع الحوار في الإسلام، وأرجو أن يجعله الله تعالى فاتحة خير ونفع لهذه البلاد ولجميع بلدان المسلمين وللبشرية كلها. وأدعو الله تعالى أن يبارك هذه الجهود وأن ينفع بها وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

الحوار ـ كما لا يخفى عليكم ـ هو مراجعة الكلام وتبادله بين طرفين أو أكثر في جو هادئ ، يعطي كل طرف فيه للآخر مجال الكلام بحرية كما يستمع زملاء الحوار بعضهم إلى بعض بكل احترام ، وهدفه هو قبول الحق أو التفاهم بين الطرفين أو الأطراف للتعاون أو التعايش.

يعرف الحوار في الإنجليزية بـ «الديالوج» وهذه الكلمة هي من الأصل اللاتيني مركبة من« ديا»، ومعناها مواجهة أو في الجانب



الآخر.....و«لوجوس»، ومعناها المحادثة، فكلمة «ديالوج» تعني المحادثة مع الآخر أو الآخرين، أماالتعبير القرآنى فقد ورد على صورة فعل.. ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ (الكهف : ٣٧)، وورد على صورة اسم الفعل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة:١).

والفعل حاور وتحاور بنفس المعنى، والاسم منه هو الحوار أو التحاور، ومعناه التواصل والتناقش والمجادلة البناءة بين طرفين أو عدة أطراف، والمجادلة إن كانت بالتي هي أحسن فهي الطريقة المثلى للغة الحوار التي طلبها الله تبارك وتعالى من عباده الصالحين، كما قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥)... ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤).. وهذا أبلغ دليل على دعوة الله لعباده المسلمين .. في القرآن بالتحاور مع بعضهم البعض ومع أهل الكتاب .. وحتى مع أعدائهم ..فالحوار مطلوب في الإسلام بشهاة القرآن ..

وقد حدد الله تبارك وتعالى لغة الحوار المثلى ووصفها ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.. وضمن النجاح مقدماً إذا كان ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بأن تكون نتيجته تضييق أسباب الخلاف وتقريب وجهات النظر إلى حد يصعب تصوره وهو أن يصير العدو صاحبا قريبا منا.. و﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ويمكن القول إن هذا المستوى الرائع في الحوار والمتميز في الأسلوب والتشجيع له مما ينفرد به الإسلام.

ولقد ورد الحوار في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، منها الحوار بين الله

سبحانه وتعالى والملائكة ، ثم بين الله وآدم وزوجه، ثم بين الله وإبليس، ثم بين الله ورسله خاصة نوح و إبراهيم وعيسى وموسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهناك حوار بين الملائكة وكل من المؤمنين والكافرين الذين ظلموا أنفسهم عند الموت ولحظة قبض الروح ، وفي الآخرة لحظة الدخول إلى نعيم الجنة أو إلى عذاب جهنم، ثم في الجنة (سلام عليكم طبتم)و.(تحيتهم فيها سلام) أوالمجرمين في النار (ما سلككم في سقر).. ثم هناك حوار بين المؤمنين والكافرين في الملأ الأعلى.

ونستخلص مما سبق أن الإسلام يعتبر الحوارعلى درجة كبيرة من الأهمية في حياة المسلمين ويشجعهم على التحاور بالتي هي أحسن.

إن الإسلام هو دين الحوار ، لأنه لا يكره الناس على قبوله بالقوة أو الضغط إنما يعطي المجال للتفاهم والنقاش ، إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحاورنا وأرسل الرسل ليخاطبوا الناس ويتكلموا معهم للدعوة إلى الحق وإلى السداد.

ونبينا محمد ﷺ كان خير قدوة للحوار حيث كان يحاور أصحابه والمشركين واليهود والنصارى وغيرهم ، وكان دائماً يحاول إقناعهم بالحجج والبراهين، وكان يعطى المجال للجميع أن يتكلم ويبدي ما عنهم. والنبي ﷺ كان ينهى عن الجدل فيقول: (ما أعطى قوم الجدل إلا ضلوا). والإسلام يدعو إلى الحوار مع الجميع إلا الذين ظلموا .

نحن الآن نعيش في عصر الحوار، لقد كثرت وسائل الإعلام في عصرنا



الحاضر وتقاربت الأبعاد بسبب وجود وسائل النقل الحديثة، فأصبح العالم كقرية، ولا يمكن لأمة أن تعيش في معزل عن الأمم الأخرى.

إن التقدم غير المسبوق الحادث في مجال وسائل النقل والاتصالات ساهم إلى حد بعيد في تقريب المسافات بين البشر على اختلاف مواقعهم وأماكنهم في خريطة العالم اليوم، وأصبحت الأحداث التي تجري في أي مكان مهما بعد موقعها تعرف للجميع في اللحظة، بل وأصبح في استطاعتنا مشاهدتها وقت حدوثها مباشرة.

وبما أن الظروف والتغيرات السياسية والاقتصادية والحالة المعيشية الناتجة عنها في معظم دول العالم منذ العقود الأخيرة في القرن الماضي وحتى الآن، قد دفعت الملايين من بني البشر على اختلاف أجناسهم وثقافاتهم ودياناتهم إلى الهجرة إلى أماكن جديدة يضطرون فيها للمعيشة المشتركة والعمل معاً مع الكثيرين من غيرهم من بلاد أخرى حيث ينصهر جميع الناس من مختلف الألوان والأجناس والثقافات والأديان في بوتقة واحدة.

فإننا لاشك أصبحنا ندرك جيداً يوماً بعد يوم مدى اعتمادنا على الآخرين وعلى بعضنا البعض في أمور معيشتنا وحاجاتنا الأساسية، وهذا يعكس مدى أهمية أن نتواصل ونتفاهم ونتحاور مع بعضنا البعض.

واستناداً إلى هذه النقطة فإنه يمكن القول بأن الحوار اليوم بين أبناء الجنس البشري على اختلاف أماكنهم وثقافاتهم وأديانهم وفي ظل وسائل الاتصالات الحديثة ليس مجرد رغبة أوترف فكري يبتغيه البعض ، بل هو ضرورة ملحة لنا جميعاً سواء كان ذلك بين أصحاب ديانة وثقافة واحدة أم

بين الأديان والثقافات اقتضتها الظروف المعيشية المشتركة والعمل المشترك والمتطلبات العصرية الأخرى.

لا يخفى على الكثير من الناس أن دور الدين في المجتمع ومدى تأثيره في عالمنا اليوم قد صار ينحسر ويقل يوماً بعد يوم، فالعصر الذي نعيشه الآن هو عصر المادية والعلمانية للأسف الشديد، وليس عصر الدين، وليس أدل على ذلك من أن معظم الصراعات الدائرة في عالمنا حالياً حتى وإن ادعى البعض أن للدين دخلاً فيها ، فإنها في واقع الأمر لا تخرج عن كونها صراعات سياسية (من يتحكم في السلطة) أو اقتصادية (الثروات الطبيعية خاصة مصادر الطاقة) أو قومية (الزعامة الأقليمية والدولية).

وليس معنى ذلك أن دور الدين قد انتهى، بل لايزال الدين يكّون دوراً هاماً في مجتمعاتنا ، وإن كان هناك من يسيئون استخدامه وذلك باللعب على الوتر الحساس واستغلال العواطف الدينية لأغراض خاصة، ولإيجاد نوع من الكراهية والعنف تجاه الآخرين من أتباع الديانات وربما المذاهب الأخرى.

وهناك من أصبح غاية همهم وبؤرة اهتمامهم أن يقوموا بحملات دعائية مشبوهة منظمة لبث الأشاعات الكاذبة المضللة والأفكار المغرضة والمسمومة، سواء ضد الدين عموماً ، أو ضد ديانات بعينها بهدف النيل منها والإساءة إليها لإبعاد الناس عنها والتقليل من شأن معتنقيها، مستغلين في ذلك جميع وسائل الاتصالات الحديثة وقدرتهم الفائقة على مخاطبة غرائز البشر.

وقد أصبح كما لا يخفى على أحد اليوم، أن الإسلام يكاد يكون الدين الوحيد المستهدف من قبل بعض هؤلاء أفراداً كانوا أم جماعات ، من الذين



صنعوا بحملاتهم المسعورة والمسمومة ضد الإسلام خاصة في الغرب ما يعرف بـ«الإسلام فوبيا» بمعنى الخوف والترقب ممزوجاً بالعداء والكراهية لكل ما يمت بصلة للإسلام والمسلمين.

نحن بحاجة إلى الحوار في زماننا أكثر من أي وقت آخر، إننا بحاجة إلى أسلوب الحوار لحل مشكلات الأمة الإسلامية في البلد الواحد، وبين البلدان المختلفة، كما نحن بحاجة أن نفتح مجال الحوار بيننا وبين أصحاب الأديان والمذاهب، إن الحق لا يخاف من الحوار لأنه يعلو، ولا يعلى عليه، والحوار لا ينفع إلا الحق وأهله إذا قام به ذوو الكفاءة بجد وإخلاص.

وثلث المسلمين في العالم يعيشون كأقليات في البلدان التي أكثريتها غير مسلمة فيجب على هؤلاء المسلمين أن يحاوروا جيرانهم غير المسلمين، وبهذه الطريقة يزيلون حواجز الشكوك والعداء والتعصب من أذهانهم ، ويعطونهم الفهم الصحيح عن دينهم وثقافتهم.

وبناء على ماسبق ، فإننا أولاً نحن البشر ننتمي إلى الأسرة الإنسانية الواحدة، وثانياً من موقعنا نحن قادة العمل في مجال الدين فإن مسؤوليتنا لاشك كبيرة في العمل لتقوية الدور الإيجابي للدين في المجتمع لما فيه الخير للجميع ..وأن نعمل سوياً على وقف تأثير من يسيئون استخدام الدين لإيجاد صورة سلبية لا تمت للدين بصلة عند الآخرين...وكذلك الوقوف معاً في وجه أصحاب الحملات المغرضة ضد كل الأديان ، ومن مسؤوليتنا أيضا أن نبتعد عن الحرص على المصالح الشخصية، وأن نركز جهودنا لخدمة رسالة الدين والإنسانية ونصرة العدالة ونشر الحب والخير ونبذ الكراهية والعنصرية



ضد أي إنسان مهما كان لونه أو جنسه أو دينه، ويجب أن نتعاون على حماية الجنس البشري من الهدم والضياع والمعاناة والألم ، وأن نعمل معاً على تحقيق العدالة والمساواة والسلام للإنسانية البائسة، إننا نأمل أن ينتشر الحوار البناء بين الناس من مختلف الأديان، ويجب أن نبتكر ونشجع مايمكن تسميته «ثقافة الحوار» فيما بيننا.

ويمكن تلخيص أسس الحوار في الإسلام كما يلي:

١-أن الحوار في الإسلام يأتي من منطلق الإيمان العميق بأن البشر، كل البشر يعتبرون عائلة إنسانية واحدة، يقول الله تبارك وتعالى في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١) .. فأفراد العائلة عادة يتواصلون ويفهم بعضهم بعضاً، وبهذا الأسلوب الطيب يجب أن يكون التعامل بين أفراد الأسرة الإنسانية أي عن طريق الحوار والتفاهم، وكلما زادت لغة الحوار والتفاهم ازدادت الأسرة سعادة وهناء.

٢- الحوار في الإسلام يأتي من منطلق إيماننا العميق بأن الاختلاف بين البشر من شعوب وقبائل قد جعله الله من أجل أن يتعارفوا على بعضهم البعض، وليس من أجل التمييز العنصري بينهم لأي سبب من جنس أو لون أو دين، ويجب أن يتعرف كل منا على الآخر وأن نعمل معاً لما فيه الخير لنا وللبشرية جميعاً.

إن الحوار السليم يلغي الحواجز بين البشر من الوجود ويحسن علاقاتهم



ويحض على التعاون بينهم . يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات :١٣).

٣-الحوار في الإسلام يأتي من منطلق إيماننا بأن الخير في الجنس البشري هو صفة أصيلة، وأن لديهم القدرة على استعمال العقل والمنطق للوصول إلى الحقيقة.. وأن الله جل في علاه قد كرم بني آدم، وحباهم فطرة سليمة وطبيعة طاهرة نقية تمكنهم من اتباع تعاليمه والعيش وفق أوامره، وأن الكلمة المنطوقة لها قوة ، وهي تستطيع أن تغير مسار الناس ، ونحن نعرف أن الله تبارك وتعالى خلق الكون كله بكلمة (كن)... ثم إنه بعد ذلك أرسل عن طريق رسله الكرام كلماته المجيدة هدى للناس ونوراً يسترشدون بهديه... يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر:٢١) وهدانا إلى استخدام القول اللين وكلمات الحكمة والموعظة عند خطاب الناس.

٤- الحوار في الإسلام ينبع من رؤية متأصلة لدينا بأن الرسول محمداً ﷺ قد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧). فالله عز وجل لم يرغم الناس على اتباع أنبيائه ورسله ، بل أمرهم أن يبلغوا الرسالة للناس فقط عن طريق الدعوة والتبليغ والحوار، وهي آليات لتبليغ الرسالة ، وهذه الآليات والوسائل هى الطرق الأصلية للاتصال وأفضل الطرق لتبادل الآراء والأفكار مع حفظ عزة الإنسان وكرامته .

إن الإكراه والإجبار – لإدخال الناس في الدين – أمران غير مسموح بهما



في الإسلام أبدا .

٥-الحوار ينبع من إيماننا بأن الله يشمل برحمته كل الناس، وأنه أرسل الأنبياء لهداية الناس من كل الأمم والشعوب، ومهمتهم إبلاغ رسالة الله إلى البشر.. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:٣٦).

أهداف الحوار في الإسلام:

– الحوار في الإسلام ليس لأجل أسلمة الآخرين بالقوة أو إخضاعهم لقبول هذا الدين، و لكنه لأجل التعارف والتفاهم.

– الحوار للبحث عن جذور مشتركة ومبادئ مشتركة لنبني عليها علاقتنا مع الآخرين بجانب أن نعطي شهادتنا للحق بطريقة سلمية وودية. كما جاء في القرآن : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).

الحوار لإزالة الكراهية والعنف

– الغرض من الحوار هو ايجاد طرق ووسائل لما فيه الخير والفائدة للإنسانية كلها وغيرها من خلق الله.

– الغرض من الحوار هو تشجيع نشر العدل والمساواة في العالم.

– الغرض من الحوار أن نتعاون في برامج وأنشطة لتشجيع القيم والفضيلة



في المجتمع.

- الغرض من الحوار هو إرضاء الله سبحانه وتعالى وترسيخ حسن الظن بين العباد.

منهج الحوار :

الحوار يجب أن يتم بعناية وفهم، وبدون ذلك لايكون مؤثراً، ولا يؤدي إلى النتائج المرجوة . وينبغي على من يشتركون في الحوار أن يتعلموا وأن يكونوا على دراية بالمبادئ الأساسية للحوار.

وفيما يلى بعض المبادئ الحوارية الأساسية التي على كل مسلم متحاورأن يضعها في اعتباره:

١-**العلم** : يتطلب الحوار معرفة جيدة بالدين. فعلى المتحاورالمسلم أن يكون على معرفة جيدة وإلمام كامل بدينه، كما يتطلب أيضاً إلماماً بديانات وأفكارالآخرين، أما الذين ليست لديهم معرفة وكفاءة ، فلا يجوز لهم الخوض في الحوار، بل عليهم أن يكلوا الأمر لمن يعلمه، لأن الجهل لا يمكن أن يثمر حواراً بناء.

٢- **الأمانة والإخلاص** : ينبغي على من يحاور أن يتحدث بالصدق، وأن يكون مخلصا، وأن يضع في اعتباره أو يفترض صدق الطرف الآخر، مما يساعد على بناء الثقة بين المتحاورين لإنجاح الحوار.

٣- **اللطف والكياسة**: يجب أن يكون المتحاورمهذبا، بأن يعطي الفرصة للآخرين للتحدث ، فالحديث والاستماع كلاهما على نفس الدرجة من الأهمية.

٤- **القـدرة على الفـهم** : يجب الاسـتـماع إلى الآخـر، ويجب أن يـعطي الآخر الحرية والفرصة ليعبر عن الموقف الذي يمثله .

٥- **اختلاف الرأي**: الحوار لا يمكن أن يأتي بالتوافق في الرأي دائماً، بل على المتحاور أن يبدي رأيه بصدق وأدب ، والنقد المؤدب لآراء الاخرين لا يعتبر ضد روح الحوار.

٦- **الحصول على الموافقة قدر المستطاع** : الموافقة الكلية ليست مطلوبة بل يجب الحصول على أكبر قدر من الموافقة ، فيمكن البناء على أساس إيجابي.

٧- **الصبر**: الصبر مفتاح الحوار الناجح، فحين يفقد الناس الصبر يفقدون معه الحوار الناجح، يجب على المتحاورأن يتحلى بالصبر خاصة حين يرى أن الآخر لا يستطيع فهم موقفه ، عليه أن يجيب على الاعتراضات بالمنطق والخلق المهذب.

٨- **الانبساط والجدية** : المتحاور يجب أن يكون بشوش الوجه ولكن يجب أن يتحدث بجدية ومسؤولية في نفس الوقت، فالبشاشة تكسب القلوب وتفتح العقول فإذا تراكم الثلج فليكسره بابتسامة رقيقة وكلمات مهذبة ومرح حسن.

٩- **الإكرام** : الحوار ليس مناظرة وبالتأكيد ليس حرباً ، لكن الحوار المثمر يستمر وينمو في جو من التراحم والإكرام وحسن الخلق.

١٠-**الدعاء والاخلاص في العهد مع الله**: يجب على المتحاورالمسلم أن يراقب الله دائما في علمه وعمله، وأن يطلب منه أن يعينه و يوفقه ويسلمه من الوقوع في الضلال أو إضلال الآخرين.



لا شك أننا سنختلف أثناء الحوار في مسائل تتعلق بالعقيدة والممارسات والطقوس الدينية مع الآخرين، ولكن في الوقت نفسه يجب علينا أن لا نسيء في التعبير عن الديانات الأخرى حين نتكلم عنها وأن لا نقلل من شأنها أو نتعمد تشويه صورة تعاليمها وأن لا نحتقر الديانات الأخرى أو ننظر إليها ولمعتنقيها بعين الاستهزاء أو الإزدراء.

ويجب أن نتعامل مع الخلافات في التعبير أو التفسير بجد وهدوء بدلاً من الانخراط في حملات الدعاية والتشهير.

إن العالم يمر اليوم بعديد من المشكلات: تفكك نظام الأسرة ، زيادة الفساد الأخلاقي ، العنصرية والعصبيات ، التدني الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، الكيل بمعيارين في التعامل السياسي ، العنف والإرهاب والحروب، تلوث البيئة وإضاعة الثروات الطبيعية وما إلى ذلك، يجب أن نركز جهودنا وانتباهنا على كيفية النهوض بالإنسانية وتجديد الاهتمام بالقيم والأخلاق، والترابط الأسري والقيم الأسرية الموروثة، والسلام والسماحة بين الأعراق والأجناس المختلفة وتحقيق العدالة والمساواة واستبعاد الظلم والعنف من كل مجتمعات العالم ، يجب أن نكون عمليين وواقعيين، وأن نتحلى دائماً بالصبر، وأن نستعمل الحكمة في حل كل ما يواجهنا من مواضيع ومشكلات.

خبرتنا في الحوار في الولايات المتحدة الأمريكية:

أتشرف بأنني كنت عضوا ممثلا للجانب الإسلامي في كثير من جلسات الحوار بين الأديان ومعي البعض من الزملاء الأفاضل ممن شرفت بالعمل



معهم في مجال العمل الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك منذ مطلع الثمانينات من القرن الماضي وحتى الآن ..مما أكسبنا الكثير من الخبرات والتجارب التي يمكن لغيرنا من المسلمين وخاصة الأجيال الجديدة من القادة أن يأخذوها نصب أعينهم ليستفيدوا منها ويسترشدوا بها ويبنوا عليها خلال عملهم الدؤوب في هذا المجال .

لا يمكن إنكار مدى تهيب الكثير من المسلمين في البداية من مجرد فكرة الخوض في تجربة الحوار بين الأديان لقد كانوا متخوفين ومتشككين في النتائج المترتبة على مثل هذا الحوار.

فالبعض ظن أنه قد يؤثر بالسلب على قوة العقيدة ويزعزعها بعض الشيء والبعض الآخر ذهب بظنه بعيدا..بأن تكون هناك محاولات حثيثة لإيجاد ديانة جديدة وذلك بعمل توليفة وخليط من الأديان الكتابية الثلاث، والبعض شكك حتى في نوايا المتحاورين سواءً كانوا مسلمين أم غيرهم، ولكن على العكس من ذلك فقد ساهمت جلسات الحوار المتعاقبة في كسر الحواجز الكثيرة من الخوف والشك وآثار حملات التشويه المغرضة والإشاعات المسمومة خاصة ضد الإسلام والمسلمين، وساعدت هذه الجلسات أيضاً على بناء أرضية مشتركة من الفهم المتبادل بيننا وبين الآخرين من أصحاب الديانات الأخرى إلى درجة أن الكثير منهم - خاصة ممن كان يشارك معنا في الحوار- أصبحوا أصدقاء لنا وللمسلمين عموما ، ووقفوا بجانب المسلمين في المطالبة بحقوقهم الوطنية.

وقد ظهر ذلك جلياً بعد أحداث ١١ سبتمبر المشؤومة وكان هناك تخوف



كـبـير مـن أن يكون هناك تـعـديـات على المسلمـين وجـرائـم كـراهـيـة تـرتكب ضدهـم ، ولكن والحق يقال أن الفـهـم المتبـادل والصداقـات التي كسبناها من الحـوار بين الأديان قـد سـاعـدنا كـثـيرا على تجاوز تلـك الأزمـة الطارئة وتلك الظروف العصيبة بحمد الله.

واليـوم نجد أن كـثـيراً من المسلمين في أمريكا قـد أدركـوا مـدى أهمـيـة ذلك العـمـل الذي كنا ولازلنـا نقـوم به؛ كـونه أحـد الـبـرامج والأنشطة الهـامـة في مجال العـمل الإسلامي، وليس أدل على ذلك من أن معظم المسـاجد والمراكز الإسلامـيـة قـد أصـبـح من نشـاطهـا المشـاركـة في برامج الحـوار بين الأديان وأنشطتها، وأصبح أكثر الذين كانوا يـعارضوننا بالأمس، إما مشاركين فاعلين أو أنهم خفضوا أصواتهم وهدأوا في معارضتهم.

من ناحـيـة أخـرى وعلى نفس الدرجـة من الأهمـيـة .. فإن الحـوار الإسـلامي الإسلامي تم فتحه حديثاً مستعينين بخبرتنا التي اكتسبناها طوال هذه السنين في مجال الحـوار الديني، وذلك لتقريب وجـهـات النظر بين السنة والشيعة استـجابة لما يتطلبه الموقف الآن من ضـرورة وحدة المسلمـين وترابطهم وتعاونـهم جـمـيعـاً سُنة وشيـعـة من أجل ما فيه الخير للإسلام والمسلمين جميعاً، بل وللبشـرية كلها ...فـعلنا ذلك إثـر مـانسـمـعـه في الأخـبـار كل يوم من صـراعـات ومنازلات بالأسلحة النارية بين السنة والشيعة كما في العراق وباكستان وأفغانستان.

هذا وقد تم بحـمد الله ماسمـيناه بـ«ميثاق الشـرف» للتنسيق والتفـاهـم والتواصل وإيجاد أفق جـديدة للعلاقة بين السنة والشيعة، وقد أقـرت هذا الميثاق ووقعت عليه مئات الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في أمريكا بحمد الله وتوفيقه.



ومما هو جدير بالذكر هنا أن الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية ISNA ظل يعمل في هذا المجال لسنين طويلة وأصبح له باع طويل فيه، وفي هذا العام فتح الاتحاد مكتباً خاصاً للعلاقات العامة بين الأديان والمجتمعات في العاصمة الأمريكية واشنطن ، و قد أحرز هذا المكتب نجاحاً باهراً في بناء علاقات جيدة مع مجتمعات وهيئات مسيحية مختلفة ، كما قمنا أيضاً بتأسيس برنامج خاص للحوار مع مواطنين من اليهود.

وأذكر أنه في المؤتمر الأخير للاتحاد الإسلامي في أمريكا ألقى رئيس طائفة الإصلاح الديني اليهودي في أمريكا كلمة مهمة للتقارب والتعاون بين اليهود والمسلمين وفي الشهر الماضي في نيويورك اجتمع ستة أئمة مسلمين مع ستة حاخامات من اليهود(رابايز) معاً للتحضير لعمل ما يسمى PSA (Public Service Announcement) لبرامج التلفزيون الأمريكية، وذلك من أجل إيجاد وعي عام لدى العامة ضد «الإسلاموفوبيا» وعداء السامية كونهما ظاهرتين منشأهما جميعا الحقد والكراهية والعنصرية . وهذا البرنامج سوف يبث على الهواء مباشرة في التلفاز خلال شهر رمضان القادم ـ إن شاء الله ـ .

هناك برامج أخرى كثيرة يتم العمل فيها والتحضير لها، ونحن الآن عاكفون على تحضير سلسلة من الدراسات والخطوط العريضة لهذه البرامج والأنشطة ، والله ولي التوفيق.

ورقة حول مرتكزات الحوار بين الأديان والثقافات والحضارات

د. محمد صالح الجابري

المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم - تونس



الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد :

فإن الحوار بين الأديان يعتبر مدخلاً أساسياً وهامًا للحوار بين الحضارات والثقافات، نظراً لأهمية المقدسات في حياة البشر، ولأن الدراسات العلمية أثبتت أن عصرنا يتوق للعودة إلى الروحانيات، وإلى التعاليم والينابيع الأولى لمصادر القيم والأخلاق وهي الرسالات السماوية. كما يعتبر الحوار بين الثقافات والحضارات مدخلاً للتواصل والتقارب والتفاهم بين الأمم والشعوب وأسلوباً للتعايش وتنمية روح الانفتاح والتسامح والعدل والمساواة بين بني البشر، والتقريب بين المنظومات القيمية الإنسانية، واحترام كرامة الإنسان والخصوصيات الثقافية، ووضع معايير تشريعية وسلوكية تحمي الهوية الحضارية والتنوع الحضاري، وقد كانت المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) قد أصدرت إعلانها في شهر نوفمبر ٢٠٠١ بشأن التنوّع الثقافي واعتبرته سمة من سمات إثراء الحضارات وإخصابها، والنأي بها عن الصراع والصدام الذي رفعت لواءه أصواتُ غلاة التعصّب والمتطرفين في الغرب بغيةَ إحداث الوقيعة بين الحضارتيْن الإسلامية والغربية، وبين الديانات السماوية التوحيدِية.

وإسهامًا من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي أنتمي إليها وبرعاية من مديرها العام الأستاذ الدكتور المنجي بوسنينة، وبالتعاون مع العديد من المنظمات العربية، والإسلامية، والدولية، والثقافات الغربية والإفريقية، والأميركية، واللاّتينية والآسيوية، والروسية، أفضت تلك الجهود



إلى وضع تصوّر لمرتكزات هذا الحوار في مجالات الدين، والثقافة والحضارة، من بين أوجه هذه المرتكزات العناوين الواردة في هذه الورقة التي نأمل إمكانية الاستفادة منها في الاستراتيجية المطلوب وضعها من قبل المؤتمر الإسلامي العالمي للحوار الذي يعقد بدعوة من رابطة العالم الإسلامي خلال الفترة ٣٠ جمادى الأول ١٤٢٩هـ/ يُونية ,٢٠٠٨

أولاً : مرتكزات الحوار بين الأديان:

١- النأي عن كلّ الإشكالات الدينية والبُنى اللاَّهوتية، والمسلَّمات العقَدية التي لا يفْضي النقاش حولها إلى أية نتيجة.

٢- تجنُّب إثارة التركات التاريخية الموروثة عن مراحل الحروب الصليبية التي ارتبطتْ أساسًا بأوضَاع وظروف معيّنة لعب خلالها الاستعمار دورَ الشيطان، متّخذاً من الدين ستاراً وشعاراً لإشعال تلك الحروب.

٣- الاتفاق على المشتَرك بينَ الأديان، وهو إفرادُ الإله الواحد بالربوبية، والإيمان بالرسالات السماوية التي أرسلها الله.

٤- إعادةُ الاعتبار لموقع الأديان في حياة الأمم والأقوام والشعوب، وبلورةُ استراتيجية نظرية وعملية لتصحيح التصورات المشوّهة لطبيعة الدين ودوره في الشأن الاجتماعي.

٥- مراجعةُ الأحكام التمييزيّة ضدَّ أتْباع الديانات الأخرى التي نجمت عن اجتهادات بعض المؤوّلين للأديان لأغْراض ومصالح آنية.



٦- إدانةُ المتطرفين في الأديان الثلاثة (الإسلام - اليهودية - المسيحية) الذين يسعون بتطرّفهم لإشعال فتيل حرْب دينية بينَ أبناء البشرية، وإحياء الصّراعات والخلافات الدينية التي أفرزتْها عصورُ الانحطاط والتخلّف.

٧- إحياءُ المشترَك بينَ الأديان وأتباع النِّحل الأخْرى الذين يدينُون بالمشترك من المبادئ والقيمِ التي تحظُّ على التَّعايش، والتسامح، والسّلام، والتضامن، والتكافل.

٨- بعثُ مؤسسة تجمعُ بين أقطاب الديانات التوحيدية الثلاثة، وأصحاب النحل والمذاهب الكبرى الأخرى للإشراف على إدارة حوار إيجابي وهادئ، ومواجهة سوء التفاهم، وتجاوز الصعوبات التي تنْجَم بين الحين والآخر بين أتباع الديانات، ويكونُ من أهداف هذه المؤسسة خدمةُ القضايا الدولية الهادفة، ومواجهةُ الظّلم، وتعزيزُ رسالة الدياناتَ التوحيدية في نشر قيم السِّلم والتّسامح والتضامن بين أبناء البشر، ومحاربة ظواهر التمييز والاضطهاد والتطرّف والإرهاب، والتآزر على أعمال البرِّ والإحسان والخير.

٩- تنظيمُ ممارسات الأديان داخلَ المجتمعات، وتوفيرُ أماكنَ لائقة لتعاطي الشعائر الدينية في المهَاجر، مما ييسّر إدماج هذه الأديان داخلَ المجتمعات، والابتعاد عن التمييز بين دين وآخر، للحيلولة دون إثارة التوتّرات والإحن، ومنعِ إشاعة البغضاء والعنصرية والتَّمْييز.

١٠- السَعيُ لرأب الأصْداع بين أبناء المذاهب الإسلامية داخلَ الأوطان الإسلامية وخارجها حقنًا للدماء، وسعيًا للتوَحيد بين أبناء هذه المذاهب الذين ينتمون لدين واحد، واعتبارِ المذاهب صورةً من الاجتهادات فَي الرأي،



وضرباً من حرية التعبير والتدبّر وإعمال الرأي التي يدعو إليها الإسلامُ نفسه.

١١- توثيقُ الصلات بين أبناء الجاليات الإسلامية في المهاجر المختلفة، ودعوتهم إلى التضامن والترابطَ، والتكتّل للدفاع السلمي المشروع لتأمين مصالحَهم، والذّود عن مقدساتهم بالجدل والحوار، وبالتي هي أقوم.

ثانياً : مرتكزات الحوار بين الثقافات والحضارات:

١- الإيمانُ بالحوار ذاته كعاملِ تقارب وتفاهِم وتواصل بين مختلف الأمم والشعوب والحضارات.

٢- التأكيدُ على أنَّ الحوار بين الثقافات أساسُه الاتفاق حول جملة من المبادئ الأساسية أولُها وحدةُ الإنسانية، وثانيهما احترامُ الخصوصيات الثقافية لكلِّ مجتمع وأنَّ أهمية الحوار البشري ترتبط جوهريًّا بالقدرة على تجسيم المعادلة بين هذين المبدأين.

٣- قناعةُ الأطراف المتحاورة بالندية في التعامل وقبولِ الآخر، ورفضِ الأحكام المسبقة.

٤- الاعترافُ بتنوع الثقافات والخصوصياتِ التي تتمايز بها.

٥- التخلي عن النظرة الأُحادية للثقافات المهيمنة، والابتعادُ عن التعالي والهيمنة، والتخلّص من النظرة الدونية للآخرَ.

٦- تضمينُ البرامج التربوية مبادئَ أخلاقيات الحوار بين الحضارات، واحترامَ الحوار الديني واللغوي والثقافي، وتلقينُ الشباب مبادئ التعاون والتضامن والتكامل، وتنويع رصيدِه المعرفي حول ثقافات الشعوب ولغاتِها



وأديانها وخصوصياتها.

٧- تربيةُ الناشئةَ على التعرّف على محيطها البشري الواسع، وتقبُّل الآخر، والاستعداد للعيش معه رغم الاختلاف في إطار احترامِ الخصوصيات الدينية والثقافية والحضارية.

٨- مراجعةُ الكتب المدرسية لتنقيتها من الأفكار المسْبقة حولَ الثقافات الأخرى ومن إشارات الاستعلاء الثقافي، واستنقاصِ الآخر.

٩- فتحُ مجالات الحوار بين المبدعين وأهلِ الفكر والرأي، وفسْح الحدود ورفعِ الحواجز التي تحُولُ دون لقاءاتهم بصورةَ مباشرة مثلُ التأشيرات ومثلُ الممارسات العنصرية التي أصبحت مظهراً مشيناً في المطارات ومراكز الحدود في الدول الغربية.

١٠- تكثيفُ الترجمة والتعريب ومن جميع اللغات حتى يُفسح المجالُ لتبادل الأفكار والتصورات بما يساهم في تحقيق التفاهم والحوار والتواصل بين الحضارات والأمم خلال الاطلاع على منجَزاتِ هذه الأمةَ ولاسيمَا منجزات الحضارة الإسلامية.

١١- الدفاعُ عن مبدأ تعدّد اللغات الذي هو دفاع عن تعدّد الثقافات وعن نظرات مختلفة إلى العالم وطرق متنوعة للحوار، وأنماط إبداعية يمكن أن تشكّلَ في مجموعها نهرَ الإبداع الإنساني العظيم.

١٢- عدمُ فصل الحوار الحضاري عن الأبعاد الأخلاقية للقيم الثقافية والدينية عامة، لأنَّ ثقافتنا العربيةَ الإسلامية انبثقتْ تاريخيًّا عبر منظومة القيم التي كانت ولا تزال تمثّل جزءا من رصيدِنا الحضاري، وهي منظومةٌ تميّز



نسيجَنا الاجتماعي بمختلف خلاياه.

١٣- الكفُّ عن النظر إلى الحوار الحضاري باعتباره وسيلةً لتحقيق المنافع من الآخر، واكتساب الأسواق وتبادل السلع، وفي أغلب الأحيان فسحُ المجال لتدفّق السلع من طَرف واحد، والكفّ عن ربط الحوار بالنزعة الأمْنية من منطلَق أن العربَ والمسلمين يمثلون تهديداً دائما وخطراً مستمراً على الغرب!.

١٤- تصحيحُ صورة حضارتنا المشوَّهة والمنقُوصةَ والمُفترى عليها في وسائل الأعلام الغربية، وشركات الإنتاج السنمائي التي دأبت على تكريس مفاهيمَ وتصوّرات مشوِّهة ومضلِّلَة حول الحضارة العربية والدين الإسلامي، ولا تخفى خطورةٌ مثل هذا الإعلام المغلوط في بلورة السياساَت وتوجيه الرأي العام واتخاذ القراراتِ لدى الجمهور وحتى لدى النخبة المَهيمنة في أعلى هرَم الدولة.

وأظهر صورة لذلك الحملاتُ الكاريكاتورية على سيّد الخلق الرسول الأعظم (وما تبع تلك الحملات من مواقِف بعض الساسة في بعضِ حكومات الغرب.

١٥- إرساءُ استراتيجية بعيدة المدى، تجعل الحوارَ عمليةً تفاعلية ودائبةً، ومتعددة المجالات، وبمشاركة كلِّ الفئات الدينية والحضارية، والعلمية، والإعلامية، ومختلف منظمات المجتمع المدني، وأساتذة الجامعات، والمغتربين، وكذلك رجالاَت الأمة الإسلامية وعلى مختلف المنَابر.

وتعزيز هذه الاستراتيجية ببرنَامج تنفيذيّ يشرفُ ويسهر على تجسيمه نخبةُ من ذوي الرأي المستنير والسمعةِ الدوليةَ.



١٦- الاستفادةُ في تنفيذ هذه الاستراتيجية لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية المغرضة من مؤسسات الإشهار، ومن الخبراء العرب والأجانب المنْصفين والموضوعيين والمناصرين لَقضايا العدل.

١٧- ضرورةُ قيام حلف بين الدول العربية والإسلامية لمقاومة الفقْر وسدِّ منابعه، وإرساء ثقافة تضامنيَّة، ووضع حلول لمشكلة الديون، في إطار الفضاء الجغرافي العربيَ أوّلاً، والفضاءِ الإسلامي الأرحب ثانيا، ثم في إطار الأسرةَ الدولية بصورة عامة.

ذلك أن الفقر يتسبَّب في الفوارق المجحفة بين من يملكون ومن لا يملكون، وبين من يحصلون على الخدَمات الصحية ومن لا يحصلون عليها، وبين من يتعلّمون ومن لا يصلُون إلى التعليم، وبين من همْ داخلَ المنظومة التكنولوجية ومن هم خارجها. ومن شأن كل تلك المعوقات أن تمنعَ إرساءَ حوار متكافئ بين حضارات وثقافات مزدهرة وأخرى متخلّفةَ.

١٨- كبحُ جماح العولمةً المتوحّشة، والتصدي الجماعي لتدخّلاتها التي تعتمد القوةَ وسيلة والسوقَ هدفًا، والربحَ السَريع غايةً، وأحاديةَ الثقافة منهجًا، إذ لا مناص من أنْسنة العولمة حتى تأخذ في الاعتبار الأبعاد القيمية والأخلاقية والحدَّ من نزوعها إلى تسليع المجتمع والإنسان.

١٩- الدعوةُ إلى إرساء مشروع إنساني تكافلي لمساعدة الدول الإسلامية على توفير الغذاء لأبناء الأمة الواحدة، مواجهة للتحدّيات التي يشهدها هذا القرن، فلا يبقى الإسلام مقتصراً على الجوانب الروحية أمام غوائل التهديد بالموت جوعًا.





الحوار الحضاري والثقافي
واجب ديني ومصلحة إنسانية

د. مصطفى إبراهيم تسيريتش
رئيس العلماء والمفتي العام في دولة البوسنة
والهرسك

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي أُرسل رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستخلفه في الأرض وجعلها له دار ابتلاء وامتحان، ومنّ على بني آدم بأن أرسل الرسل تبلغهم هُدَى الله، فمن تبع ذلك الهدى فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن أبى فمصيره إلى النار.

وكان كل رسول يأتي قومه بالهدى من عند الله، مصدقاً بما جاء به الرسل من قبله، إلى أن ختم الله النبوة بمحمد ﷺ، فأرسله إلى الثقلين الإنس والجن، وأنزل معه القرآن الكريم:

﴿ألم اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الفُرْقَانَ﴾ (آل عمران: ١ – ٤).

ذكر الله سبحانه في هذا القرآن حتمية وجود التنوع بين بني البشر فقال سبحانه وتعالى مخاطباً الناس في كل زمان ومكان :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)

ومن أشكال هذا التنوع، تعدد الأديان، والقرآن الكريم يعلّم المسلمين



كيفية التصرف مع التّعدّديّة الدّينيّة من جهة، وكيف يُقَدِّرون حقيقة أن هذا العالم غير مكوّن من دين واحد أو أمة واحدة فقط، فأوجب عليهم دعوة الناس إلى دين الله وحدد لهم أسلوب الدعوة واستأثر سبحانه وتعالى بالأمر والحكم على مصائر الناس في الآخرة فقال عز وجل:

﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

إنه من المؤسف جداً، أن نجد بين أتباع الأديان أقلّيّة عالية الصوت جدًّا ترى في تشابه اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام سبباً وجيهاً جداً لإثارة النِّزاعات بدلاً من السّلام، وغالباً ما يقودنا هذا الموقف إلى استنتاج خاطئ مَفاده أنّ التّشابه يثير النّزاع، بينما يجلب الاختلافُ الاحترامَ المتبادل.

لقد بلغ العطاء الحضاري العظيم الذي قدمه المسلمون للبشرية ذروته في الوقت الذي تفاعلت فيه الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى. إن فكرة العزلة غريبة على الحضارة الإسلاميّة، لأنّ النبيّ محمداً ﷺ أُرْسِلَ إلى الناس كافّة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨).

ولذلك فهو الشّاهد على العالم كله من حيث إنه جلب إليه الرّحمة بَدَلَ الشقاء:

﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ إلاّ رَحْمَةً لِلْعالَمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧).



لقد عرف المسلمون في الماضي كيف يتفاعلون مع غيرهم، كما عرفوا كيف يقدّرون التجارب المختلفة داخل صفوفهم، واضعين نصب أعينهم الطريق الواحد نحو مجد الحضارة الإسلاميّة باعتبارها إنجازا مشتركا للأمة كلها.

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

إنني أعتقد أن أحد أسباب تقدم العالم الإسلامي على باقي أجزاء العالم يكمن في حقيقة أن الإسلام قد حرّر البشريّة من عقدة الذنب، ورسَّخ مبدأ تساوي الفرص للجميع ليُظهروا جدارتهم التّاريخيّة.

إن أجيالاً متلاحقة من المسلمين فقدت الجرأة الرّوحيّة والإبداع الفكريّ، واستبدَّ بها نوع من الخجل الرّوحيّ الذي يقود الحضارة الإسلاميّة نحو العزلة، بينما نرى اقتباسا فكريّا يسيطر على المسلمين يوشك أن يفضي بالحضارة الإسلاميّة إلى الذوبان والانصهار.

إن الحضارة الإسلاميّة لم تُصْنَع للعزلة أو للانصهار والذوبان، بل إنها صُنِعَت للتّفاعل والتّعاون. لذلك ينبغي على الجيل المعاصر أن يتحرر من أخطاء الماضي، وبذلك يتحمل المسؤوليّة في مستقبل العالم، وليس بالسير في طريق الانعزال أو الانصهار والذوبان، وإنما بالسير في طريق التّفاعل الثّقافيّ المتكافئ والتعاون الحضاري المتبادل.

لقد جرّبت الحضارة الإسلامية التّفاعل في صدر الإسلام، ومن ثم في زمن التأثير الإسلاميّ العظيم في التغيير الفكريّ والرّوحيّ في الغرب. وقد



آن الأوان لتدخل في التفاعل التّاريخيّ الثّالث مع باقي العالم، ولا سيما مع العالم الغربيّ. ولكن الوضع اليوم يختلف عنه في الماضي، لأنّ الغرب اليوم لا يشعر بالحاجة لتعلّم أي شيء من الشّرق، كما اعتاد أن يكون حاله في السابق.

بل على العكس من ذلك، إن الغرب يعتقد بوجوب أن يقلِّدَهُ الشّرق في كل الأمور، حتّى في السلوك الأخلاقيّ الغريب والمخالف للحشمة والقيم الأخلاقية الإنسانيّة. ولكن لا ينبغي لمثل هذا الوضع أن يثني عزيمة المسلمين عن التّفاعل مع الغرب، بسبب ما يوجد من حاجة متبادلة ودائمة بين العالَمين ـ الشّرق والغرب ـ تلك الحاجة المتبادلة التي لم تبدأ بالأمس، ولن تنتهي في الغد.

لكن، وقبل كل شيء، يجب على المسلمين أن يدركوا هويتهم العالمية، وتوجّههم الزماني والمكاني نحو الكعبة ـ قبلة المسلمين ـ وأن يسود التضامن القائم على الإيمان بين عامة المسلمين في مختلف أرجاء العالم.

إنني أعتقد أنّه ليس أمام المسلمين اليوم خيار دون الإدراك بأن مستقبلهم يستند إلى قدرتهم على تحقيق التآلف بين ذاكرتهم الماضية والتّاريخ المستقبليّ، مما ينجم عنه تعاون داخليّ لجميع جوانب النِّعَم الرّوحيّة الغنيّة والثمار الفكريّة، وكذلك تفاعل خارجيّ لكافة إمكانيّات تَقدُّمِ الحياة البشريّة التي تقدم المعرفة البشريّة الإيجابية للفرد وللمجتمع.

إلى جانب ذلك، يجب على المسلمين اليوم أن يصلوا إلى نقطة احترام أنفسهم، كي يحظوا باحترام الآخرين لهم، ويجب عليهم أن يعرفوا أن العالم



اليوم يقوم على أساس الثّقة المتبادلة التي يحتاج بناؤها وقتا أكثر بكثير من الوقت اللازم لهدمها.

كما يجب على المسلمين مواصلة الانفتاح على الآخرين والتحاور معهم، وذلك تنفيذا للأمر الإلهي ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْـمَوْعِظَةِ الْـحَسَنَةِ وَجَادِلْـهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْـمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥). وهذا يساعدهم في التعريف بدينهم وحضارتهم، وتلك هي الوسيلة الناجعة للتفاهم مع الآخرين والتعاون معهم على مواجهة الأخطار والأمراض والآفات التي تداهم المجتمع الإنساني. كما أن الحوار يعين على دحض الافتراءات عن الإسلام، وتهميش القوى التي تحرض ضده، وتصفه بأنه عدو للحضارات لتستعدي الناس عليه وعلى أتباعه.

إن زيارة خادم الحرمين الشريفين ـ حفظه الله ـ للفاتيكان ورعايته لهذا المؤتمر تأتيان انسجاماً مع دعوته التي وجهها إلى أمم العالم مطالباً إياها بالحوار، تلك الدعوة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحرصه على أن يحل التفاهم والتعايش والتواصل والتعاون بين بني البشر مكان التنابز والتنافر والصراع، كما أن الدعوة إلى الحوار الذي يحقق التعارف بين الشعوب، يؤيدها ما ورد في كتاب الله العظيم وسنة رسوله محمد ﷺ من توجيه كريم للناس بالتعاون على إقامة المجتمع الإنساني على قواعد من التعارف والتواصل وإعمار الأرض:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ



لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢).

إن الجهود التي بذلتها رابطة العالم الإسلامي خلال ندوات الحوار التي عقدتها مع القيادات الثقافية والدينية والسياسية والعلمية في عدد من البلدان الغربية، لَتؤكدُ على وجود منافع عديدة للحوار، في مقدمتها عرض مبادئ الإسلام على الآخرين، وإزالة الشبهات عنه، وتصحيح التصورات والمفاهيم الخاطئة عن الإسلام. وإن مؤتمرنا هذا يأتي مؤكدا لاستمرار الرابطة باهتمامها بالحوار وإنجاحه وتحقيق مقاصده النبيلة. فبارك الله في جهودها.

وفي الختام أدعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظ المملكة العربية السعودية وخادم الحرمين الشريفين ذخرا للإسلام والمسلمين وعونا للبشرية على الخير، وأسأله سبحانه وتعالى أن يوفق المشاركين في المؤتمر للتوصل إلى نتائج تحقق الآمال المنشودة وتعين على تحقيق الهدف الإسلامي من الحوار مع أتباع الأديان والثقافات والحضارات المختلفة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



التنسيق بين المؤسسات الإسلامية المعنية بالحوار

د.عبد الله عمر نصيف

الأمين العام للمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة



الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي عبده.. وبعد:

فلقد أصبح الحوار اليوم بين الناس أمراً واقعاً على كافة المستويات .. وضرورة من ضروريات الحياة المعاصرة في زمن العولمة .. إلا أن الحوار عند المسلمين وعلى أساس من نهج الإسلام له بُعد وجداني واعتقادي .. فهو واجب ديني .. ومسلك أخلاقي .. ونهج حضاري .. وذلك من أجل تحقيق غاية أجلّ وأعظم عند الله، ألا وهي التعارف بين الناس .. فالتعارف هو المدخل الحكيم والموضوعي للتفاهم بين أتباع الأديان والثقافات والحضارات .. من أجل مواجهة المستجدات الحياتية .. والتحديات الحضارية المتنامية على كافة المستويات الثقافية ,والاجتماعية ,والاقتصادية ،والتنموية ،والأمنية، والبيئية ، مما يستدعي التعاون والتدافع والتعايش وغير ذلك من معايير الاتصال بين الأمم والشعوب والمؤسسات والأفراد لتوفير الاحتياجات الأساسية لبني البشر وترشيد الإنفاق .. وإعادة التوازن بين مسؤوليات الإنتاج ومسؤوليات الاستهلاك في ثقافة الأجيال .. وصون كرامة الإنسان وحياته وممتلكاته.. وتوفير التعايش العادل والآمن بين المجتمعات.

ولما كان الحوار سمة من سمات الدين الإسلامي ووسيلة من وسائله الحكيمة في إبلاغ رسالته والتعريف بمقاصدها الإنسانية النبيلة الجليلة لجميع الناس .. فقد جاء منهج القرآن الكريم ليؤصل ويرسخ ثقافة الحوار في بنية التكوين التربوي والسلوكي للمسلم..

والمتتبع والمتأمل لآيات القرآن الكريم يتجلى له بوضوح أساليب الحوار



المتعددة التي استخدمها القرآن لتصحيح العقيدة وترسيخها ,وإقامة الحجة على الكفار والمشركين والمنافقين، وعلى الشيطان الرجيم نفسه، كما أن السنة النبوية تظهر اهتمام النبي ﷺ بالحوار في نهجه بالتعريف بالإسلام ومبادئه الربانية الخالدة ، ويقف على آفاق حكمته ورقي نهجه وهو يحاور النصارى واليهود والمشركين لدعوتهم إلى دين الله، والتعاون معهم على البر والتقوى في سبيل إقامة الحياة العادلة والآمنة في ظل شرعة الله تعالى.

وعلى أساس مما تقدم؛ فإن المملكة العربية السعودية منذ أن تأسست على يد الإمام المؤسس جلالة الملك عبد العزيز - طيب الله ثراه - جعلت التفاهم والحوار مع الآخر من أساسيات نهجها السياسي والثقافي .. واليوم وبتوجيه من خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز، وسمو ولي عهده الأمين الأمير سلطان بن عبد العزيز .. جاء اهتمام المملكة العربية السعودية بالحوار الوطني .. لتجديد التأكيد على أهمية الشريعة الإسلامية منهجًا للحياة في هذا البلد الكريم ووجوب الحكم بها .. والاحتكام إلى مبادئها السمحة في جميع شؤون المجتمع، ولتأكيد وترسيخ قواعد الوحدة الوطنية التي قامت عليها دعائم المملكة العربية السعودية .. واعتماد أسلوب التفاهم والحوار بين أبناء الوطن بكافة تنوع تشكيلاتهم الاجتماعية ومدارسهم الفكرية .. وذلك من أجل تحقيق كل المعاني السامية التي تسعى قيادتنا الرشيدة إلى إنجازها في ظل شريعة الكتاب والسنة .. والمتأمل في إنجازات مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني يدرك أهمية كل ذلك والنتائج الإيجابية التي أنتجها الحوار.



ومن جهة أخرى فإن المملكة العربية السعودية قد اهتمت بالحوار مع أتباع الأديان ، والثقافات ,والحضارات الأخرى ، منذ زمن بعيد ووفق المحطات التالية من تاريخها:

- المبادرة التاريخية التي قام بها الإمام المؤسس للمملكة العربية السعودية جلالة الملك عبد العزيز – يرحمه الله تعالى –عندما عقد مؤتمراً عالمياً في مكة المكرمة عام ١٩٢٦م، دعا إليه قادة النضال الوطني في البلدان العربية والإسلامية.. وكانت جميعها يومئذ تحت سطوة الاستعمار الأجنبي ،وتدارسوا أوضاع الأمة وما يواجهها من تحديات. وانبثق عن المؤتمر أول منظمة إسلامية عالمية سميت (مؤتمر العالم الإسلامي) , وأسندت رئاسة المؤتمر لسمو الأمير فيصل بن عبد العزيز، حيث كان حينذاك نائباً لجلالة الملك عبد العزيز في الحجاز، ووضعوا ميثاقاً عاماً للمؤتمر، ومن أبرز ما جاء فيه :

١ – العمل على تحقيق التضامن العربي والإسلامي.

٢ – السعي لفتح الحوار مع الثقافات والحضارات.

وتولى رئاسة المؤتمر من بعد الملك فيصل – يرحمه الله تعالى سماحة مفتي فلسطين الحاج محمد الأمين الحسيني – يرحمه الله تعالى – ثم دولة الدكتور محمد معروف الدواليبي – يرحمه الله تعالى –الرئيس الأسبق لوزراء سوريا/ والمستشار فيما بعد في الديوان الملكي السعودي ، ولا يزال المؤتمر برئاسة كاتب هذا البحث.. يتابع نشاطه على المستويات العربية والإسلامية والعالمية، وهو أول منظمة إسلامية عالمية يحصل على العضوية



الرسمية في الأمم المتحدة وله فيها ممثل دائم، وله أمانة عامة في كراتشي - باكستان ، وكذلك ممثل لدى مقر الأمم المتحدة في جنيف .. وله مكاتب في عدد من بلدان العالم.

- والمحطة الثانية هي اللقاء التاريخي في الرياض عام ١٩٧٢م ، بين نخبة من رجال الفكر والقانون من أوروبا يرأسهم معالي السيد ماك برايد، وهو شخصية أوربية متميزة (فهو مستشار البابا بولس السادس، ورئيس المجلس الأوربي ، ووزير خارجية أيرلندا،ورئيس اتحاد الحقوقيين الدوليين، وأستاذ القانون في جامعة دبلن)، ونخبة من كبار العلماء في المملكة العربية السعودية يرأسهم معالي الشيخ محمد الحركان -يرحمه الله تعالى-وزير العدل .
- والمحطة الثالثة في عام ١٩٧٤م توجه وفد رفيع المستوى من علماء ورجال الفكر في المملكة العربية السعودية، برئاسة وزير العدل يومئذ معالي الشيخ محمد الحركان -يرحمه الله - للحوار مع نظرائهم من رجال الدين والفكر والقانون في أوربا، حيث عقد الوفد عدداً من اللقاءات في الفاتيكان -روما ، باريس،ستراسبورغ ،المجلس العالمي للكنائس.. وحصل لقاء مع بابا الفاتيكان بولس السادس.
- وفي عام ١٩٩٢ توجه وفد من العلماء من السعودية والعالم الإسلامي برئاسة كاتب هذا البحث/ أمين عام رابطة العالم الإسلامي يومئذ .. وكان ذلك بتوجيه من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - يرحمه الله تعالى -لعقد لقاءات حوار مع عدد من الهيئات الثقافية والدينية في كل

من باريس، والفاتيكان ،وجمعية سانت إجيدو، والمجلس الأعلى للكرادلة الأسبان -بمدريد.. وتم لقاء مع بابا الفاتيكان الراحل يوحنا بولس الثاني بحضور عدد من كرادلة الفاتيكان .. وجرى حوار مطول ومما قاله الوفد المسلم في بداية تخاطبه مع زملائه من الكاثوليك :

" نحن ما جئنا لندخلكم في الإسلام ..! رغم أن ذلك رغبة قائمة في نفوسنا.. لأننا نحب أن يكون الناس على مثل ما نحن عليه من الاعتقاد والإيمان بخاتم الرسل والأنبياء .. ونأمل ألا تحاولوا تنصيرنا ..! مع علمنا أن هذه كذلك رغبة قائمة في نفوسكم .. لأنكم تحبون أن يكون الناس على مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد والإيمان .. إذاً لماذا جئنا ..؟ نحن جئنا لأننا نرى أن المسيرة البشرية في خطر.. وإسلامنا يأمرنا ويحفزنا لأن نعمل ما يمكن عمله .. من أجل ترشيد المسيرة البشرية .. لتكون مسيرة عدل ، وأمن ، واستقرار، وسلام .. تجّل بها قدسية حياة الإنسان وكرامته .. وتصان البيئة من الفساد والإفساد .. ويتحقق بها تعايش آمن بين المجتمعات .. فهل لديكم رغبة للتعاون من أجل تحقيق هذه الغايات النبيلة ..؟ قالوا : نعم ..!

وانتهى الأمر إلى عقد العزم على متابعة الحوار بين المسلمين والمسيحيين لتحقيق هذه الأهداف الجليلة.. ووقع الوفد اتفاقيات للحوار مع تلك الجهات.. وصدرت بيانات مشتركة.

- و في عام ١٩٩٤ التقى وفد إسلامي عالمي برئاسة معالي الدكتور أحمد علي أمين عام الرابطة حينذاك ، ويتكون الوفد من ممثلين لكل من : مؤتمر العالم



الإسلامي ، والمؤتمر العام لبيت المقدس، ورابطة العالم الإسلامي، والأزهر، والمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة ، ومنظمة المؤتمر الإسلامي ممثلة " بالإسسكو " ، مع وفد يمثل الكنائس الكاثوليكية في العالم بقيادة رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان في الفاتيكان.

- في عام ١٩٩٣م وبمبادرة من كاتب هذا البحث / عقدت رابطة العالم الإسلامي ندوة عن القدس، شارك فيها وفد من الفاتيكان، ووفود من العالم الإسلامي، ومن أوروبا، وأمريكا، وعدد من العلماء، المفكرين، والسياسيين والإعلاميين.
- في عام ١٩٩٧م وبالتعاون بين المركز الثقافي الإسلامي -روما، والمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة -القاهرة، ومؤتمر العالم الإسلامي ممثلاً بالمنتدى الإسلامي العالمي للحوار، عقدت في مقر المركز الثقافي الإسلامي ندوة عالمية حول شؤون القدس ، شارك فيها ممثلون من الفاتيكان، وشخصيات دينية تمثل الكنائس العربية ، ومفكرون وقادة سياسيون، وإعلاميون وغيرهم.
- وفي عام ١٩٩٧ أسس مؤتمر العالم الإسلامي في مقر رئاسته بجدة هيئة عالمية متخصصة بالحوار تحت مسمى (المنتدى الإسلامي العالمي للحوار)، والمنتدى يضطلع بمهمة التنسيق في ميادين الحوار بين ما يزيد عن مائة منظمة إسلامية عالمية ، هم أعضاء المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة بالقاهرة.
- ورسالة المنتدى تتمثل فيما يلي:



١- التعريف الشامل بالإسلام ومبادئه وقيمه العالمية باعتباره الرسالة الربانية لترشيد مسيرة الإنسان في الحياة لما يحقق سعادته في الدنيا.

٢- التأكيد على وحدة الأسرة البشرية وتحقيق التعارف بين الناس من أجل تفعيل القيم الإيمانية ، باعتبارها المصدر الأساسي لضمان كرامة الإنسان وتحقيق التعايش البشري الآمن وفق إرادة الله تعالى.

٣- العمل على إيجاد تعاون بين الناس لمقاومة التيارات الإلحادية والانحرافات الخلقية ولإزالة كل أسباب التفكك الأسري والتفسخ الاجتماعي .

٤- لتأكد على أهمية المحافظة على سلامة البيئة والعمل على مقاومة كل أسباب إفسادها وتلوثها بما يبقيها سكناً أمناً للناس جميعاً ، كما أرادها الله تعالى.

وطور المنتدى فعاليات الحوار على المستوى العالمي .. حيث أبرم عدداً من الاتفاقيات بشأن الحوار مع منظمات وهيئات عالمية بالإضافة للفاتيكان مثل (المجلس العالمي للكنائس ، مجلس كنائس الشرق الأوسط ، المجلس الوطني الأمريكي لكنائس المسيح، المجلس العالمي البوذي ,المجلس العالمي الهندوسي ، مركز الفخر الثقافي الروسي ، ومعهد الشرق الأوسط للسلام والتنمية-نيو يورك، ومنتدى الجزائر لتحالف الحضارات، والمنتدى العالمي لحوار الحضارات -اليونان وغيرها).

وعقد المنتدى بالتنسيق مع مؤتمر العالم الإسلامي، والمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة ندوتين عالميتين للحوار الإسلامي - الإسلامي من أجل تأصيل مفاهيم الحوار وانتظام الرؤى الثقافية.. وتوحيد مفردات مفاهيم الخطاب الإسلامي مع الآخر .. ووضع منهجية وضوابط وآليات عملية



للتنسيق في ميادين الحوار.. وهو مستمر في عقد ندوات للحوار الإسلامي – الإسلامي.. ولله الحمد.

- يصدر المنتدى ومؤتمر العالم الإسلامي سلسلة كتب وبحوث " لتعارفوا "، وقد بلغت إصداراتها ما يزيد عن اثنين وثلاثين كتاباً. ويمكن الاطلاع على تفاصيل ذلك عبر موقع المنتدى www.dialogueonline.org الذي يزوره في الأسبوع مليونا زائر في الأوسط.

- **نشاط الحوار مع الفاتيكان:**

شكل المنتدى مع المجلس البابوي للحوار بين الأديان في الفاتيكان لجنة مشتركة للحوار تحت مسمى: " لجنة الاتصال الإسلامي – الكاثوليكي ".

وعقدت اللجنة ثلاث عشرة دورة منتظمة ,وتدارست عدداً من الموضوعات ذات الاهتمام المشترك مثل حقوق الإنسان وحقوق المرأة، وقد بلغ عدد المواد التي كانت موضع اتفاق، بين الجانبين المسلم والكاثوليكي ما يزيد عن تسع وأربعين مادة.

- والمحطة الأبرز في مسيرة الحوار المعاصر .. مبادرة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبد العزيز بزيارة بابا الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر .. في سياق جولته الميمونة لزيارة عدد من القيادات الأوربية .. وتتفرد زيارة الملك عبد الله للفاتيكان بامتياز خاص لكونه يتمتع بصفتين جليلتين: فهو زعيم سياسي.. وإمام ديني .. إنه رئيس الدولة المسلمة الأم والمركزية في جسد الأمة المسلمة.. التي يربو تعدادها على المليار ونصف المليار.. وهو إمام المسلمين وخادم رسالة قبلتهم ..

وراعي دعوة الإسلام وشؤون المسلمين في الأرض.

وتبعث المبادرة التاريخية لخادم الحرمين الشريفين رسالة شجاعة للآخر ذات دلالات مسؤولة وسامية .. ومن أبرز مقاصدها:

١-تبديد عقدة توجس الآخر من الإسلام والمسلمين.

٢- دحض أكذوبة تعصب المسلمين ورفضهم للآخر.

٣- تأكيد مصداقية المسلمين وجدية دعوتهم للحوار والتعارف بين أتباع الأديان والثقافات والحضارات.

٤- قطع الطريق على المتشنجين من الغربيين أصحاب ثقافة صراع الحضارات وصناعة الموت.. ولقطع الطريق كذلك على المتشنجين من المسلمين.

٥- تأكيد التناسق والتكامل بين خصوصية التمايز العقدي للمسلم والتعايش والتعاون مع الآخر.

٦- تأكيد التزام المملكة العربية السعودية منهج وسطية الإسلام ورسالته الإنسانية السمحة.

٧- دعوة للانعتاق من التقاليد الخاطئة التي أحدثها البشر في مفاهيم الدين والتدين.

- وقد أحسنت رابطة العالم الإسلامي صنعاً بالدعوة لهذا المؤتمر الذي نحضره اليوم بمقرها في مكة المكرمة للتشاور والتنسيق بين قادة العمل الإسلامي والعلماء والمفكرين في العالم لاعتماد الضوابط والقواعد التي ينبغي على المسلمين أتباعها في الحوار مع غير المسلمين .. وبهذا الشأن يطيب لي أن أعرض رؤية المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة، ومؤتمر العالم الإسلامي والمنتدى الإسلامي العالمي للحوار حول التنسيق.



أهمية التنسيق :

بكل تأكيد يبقى التنسيق بين المؤسسات والهيئات العاملة في الدعوة والتعليم والإغاثة ,وخاصة في مجال الحوار الرهان الأكبر ، والتحدي الأصعب أمامنا جميعًا من أجل تحقيق غاياتنا المشتركة النبيلة بالتعريف بالإسلام ومقاصد رسالته الربانية الإنسانية السمحة .. ومن أجل تحقيق آمالنا في التنسيق والانتظام لذلك نقترح الرؤية التالية:

أولاً: الحوار الإسلامي - الإسلامي:

١- رصد تجارب المؤسسات والهيئات الإسلامية في العالم التي لها حضور في ميادين الحوار.
٢- عقد ندوات لتدارس التجارب الميدانية للحوار.
٣- وضع تصور عملي مشترك في ضوء التجارب المتنوعة للحوار.
٤- الاتفاق على هدف استراتيجي أعلى للحوار.
٥- تحديد الأهداف المرحلية للحوار باتجاه تحقيق الهدف الاستراتيجي.
٦- بلورة الكليات والمفاهيم التي تخدم تحقيق الأهداف المرحلية للحوار.
٧- رسم خطط تنفيذية لتحقيق الأهداف المرحلية للحوار.
٨- تحديد ثوابت ومنطلقات المحاور المسلم.
٩- تحديد مواصفات المحاور المسلم.
١٠- تدارس الوسائل المتاحة والإبداعية لتنفيذ الأهداف.
١١- تدارس آليات الحوار والاتفاق على الأجدى والأنسب منها.
١٢- وضع برنامج تدريب لإعداد فريق إسلامي عالمي للحوار.



١٣-وضع برامج إعلامية لتأصيل ثقافة الحوار وغاياته وتوثيق نتائجه.

١٤- إصدار مطبوعات تأصل لثقافة الحوار وغاياته وتعرف بمنجزاته.

ثانياً: الحوار مع الآخر:

١- إنشاء مركز دراسات لبلورة مبادىء ومرتكزات عقائد الآخر وتوجهاته الفكرية والثقافية.

٢- الاتفاق مع الآخر على الأهداف والكليات العليا للحوار.

٣- التعرف على الأهداف المرحلية والخطط الميدانية للآخر.

٤- رصد مناشط الآخر في ميادين الحوار.

٥- إجراء دراسات دقيقة حول وسائل وآليات ومهارات الآخر في ميادين الحوار.

٦- متابعة المناشط الإعلامية والثقافية للآخر.

٧- بلورة المصطلحات المشتركة حول الرؤية المشتركة بشأن أهمية الحوار.

٨- الاتفاق مع الآخر على موضوعات مادة الحوار.

٩- رسم منهج مشترك مع الآخر بشأن أدبيات وآليات الحوار.

١٠- توثيق مداولات الحوار مع الآخر.

١١- وضع خطة إعلامية مشتركة للتعريف بمنجزات الحوار.

ثالثًا: إنشاء موقع على الإنترنت للتعريف بجهود التنسيق في ميادين الحوار.

رابعاً: رصد ميزانية مشتركة لأمانة عامة مركزية للتنسيق.

- من ثوابتنا العقدية في الحوار:



١- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾(آل عمران: ١٩).

٢- ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(آل عمران:٨٥).

٣- ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(البقرة:١٢٠).

٤- ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾(البقرة:١١٧).

٥- ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾(المائدة:٤٩).

٦- ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾(.

٧- ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(العنكبوت:٤٦).

٨- ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾(البقرة:٨٧).

***من ثوابتنا الإنسانية في الحوار:**

١- وحدة مصدرية الإيمان.

٢- وحدة الأخوة الإنسانية.

٣- صون حرمة حياة الإنسان وكرامته وممتلكاته.

٤-الأرض سكن البشرية وخزانة رزقهم المشترك.

٥- احترام حرمة سلامة البيئة.

٦-وحدة المصير وتكامل المصالح الإنسانية.

٧- الاستخلاف في الأرض مهمة إنسانية مشتركة.

٨- الخلائق مسخرة للإنسان للنهوض بمهمة الاستخلاف.

٩- الأمن البشري كلٌ لا يتجزأ وهو مسؤولية إنسانية مشتركة.

١٠- تعدد الشرائع سبيل للتنافس في الخير، وليس منطلقاً للتصادم والتصارع.

١١- التدافع والتعاون بين الناس واجب لصرف الفساد عن الأرض.



١٢- التكامل والتضامن بين الحضارات سبيل للإبداع والارتقاء.

١٣- التراحم والتناصح بين الناس منهج راشد للاستقرار والازدهار.

١٤- التكامل المتوازن أساس العلاقة بين الرجل والمرأة في مسؤوليات الحياة.

١٥- العدل والسلم أصل العلاقة بين الناس.

● **نماذج من انتظام المفاهيم مع الآخر:**

وبعد سنوات من الحوار أصبحت المباديء الآتية مقبولة من الطرفين ومعتمدة في جولات الحوار المتنوعة:

١-الحقيقة الربانية مطلقة لا تتعدد .. ولكن الذي يتعدد فهم البشر لها.

٢-التعددية الدينية منشأها اختلاف الأتباع .. لا اختلاف الأنبياء.

٣-الحوار: حوار أتباع أديان.. لا حوار أديان.

٤-الحوار وسيلة نبيلة لغاية أجل هي التعارف والتفاهم والتعايش.

٥-الحوار: واجب ديني ونهج حضاري ومسلك أخلاقي.

٦-القيم الدينية الربانية هي المصدر الأساس لتحقيق الأفضل لحياة الناس.

٧- العدل والسلام أساس العلاقة الآمنة بين الناس.

٨- كرامة الإنسان هبة من الله تعالى.

٩- الاعتراف القائم بين أتباع الأديان : اعتراف وجود .. لا اعتراف اعتقاد.

١٠- الدين يعرض ولا يفرض ,واستغلال حاجة الناس من الإكراه في الدين.

● **من أبرز الجهات التي تهتم بالحوار في العالم الإسلامي :**

١- منظمة المؤتمر الإسلامي - جدة.



٢- مؤتمر العالم الإسلامي - جدة.
٣- المنتدى الإسلامي العالمي للحوار - جدة.
٤- رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.
٥- الجامع الأزهر - القاهرة.
٦- المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة - القاهرة.
٧- مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني - الرياض.
٨- مؤسسة آل البيت لدراسات الفكر الإسلامي - عمّان.
٩-المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم والآداب (الإيسسكو) - الرباط.
١٠- معظم المراكز الإسلامية في الخارج.
١١- الجامعة العربية.

وختاماً فإن مجالات الحوار متشعبة وأطرافه متعددة وأخرى متنوعة فمنه حوار داخلي في كل قطر لتحقيق مفهوم المواطنة والمناصحة داخل البيت الإسلامي على مستوى الأمة للم الشعث ورأب الصدع ورص الصفوف لتحقيق الخير المشترك وحوار خارجي مع أطراف دينية وعلمانية لترشيد العلاقات الإنسانية وتهيئة فرص أفضل للسلام والتنمية.

وأطر الحوار على المؤسسات والهيئات والمنظمات والمراكز والجامعات ويجب أن لا نهمل أي جهة من الجهات التي تعمل في مجال من مجالات الحوار.

والحوار ليس غاية في نفسه كحوار وأنما هو للوصول إلى الحقيقة التي لا يخلفها الحوار وأنما يجلبها ﴿إنه هو الحق المبين﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

موقف الإسلام من التسامح مع المسلمين ومع غيرهم

د. عكرمة سعيد صبري

خطيب المسجد الأقصى المبارك





المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله الطاهرين وصحابته الغر الميامين المحجّلين ومن تبعهم واقتفى أثرهم وسار على دربهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد :

فإن ديننا الإسلامي العظيم لم يضق ذرعاً بالأديان السابقة، بل أقرّ التعددية، وتعامل مع أتباع الديانات الأخرى بتسامح ومحبة بعيداً عن التعصب والتشنج والمعاداة كما يطلب مبدأ التسامح مع المسلمين.

فالمسامحة هي المساهلة من التسهيل. وسمح بمعنى أعطى، ويقال: في الحق مسمح أي متسع ولا مجال للباطل.

ويعتبر التسامح من القيم الرفيعة من العناصر الإنسانية الإيجابية التي تقوي الروابط بين الناس، وتشيع فيهم الألفة والمودة والمحبة والوئام.

ومن أبسط صور المسامحة: أن يُسقط الشخص حقه ويتنازل عنه تجاه غيره أو أن يطلب المعتدي المسامحة من المعتدى عليه، فيستجيب الأخير لطلبه، فالمسامح بعمله هذا قد بدّل الكراهية إلى المحبة، والعداوة إلى الألفة ، وهذا ما نمسه ونلحظه على أرض الواقع في مراسم الصلح التي تحصل بين العائلات حين ينشب بينها خلاف .

وأتناول في هذا البحث أربعة محاور وخاتمة مع الهوامش والمصادر والمراجع. والله ولي التوفيق.

د. عكرمة صبري



المحور الأول : حث الإسلام على التسامح

١ - يدعو ديننا الإسلام العظيم إلى القيم الخلقية الرفيعة، والتي منها الصفح والعفو والمسامحة بشكل عام فيقول الله عز وجل: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥)، ويقول رب العالمين في آية أخرى: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن: ١٤) وهناك عشرات الآيات الكريمة التي تدعو إلى ذلك.

ويتوهم البعض أن التسامح يأتي عن ضعف واستكانة واستسلام!! وهذا توهم خاطيء مغاير للحقيقة فالتسامح ينطلق من القوة والمقدرة، وكما هو معلوم ومعروف أن العفو يكون عند المقدرة، والله سبحانه وتعالى يقول الله عز وجل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى:٤٠) ويقول عز وجل في آية أخرى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣)، فالذي يعفو ويصفح يكون قوي العزيمة ضابط الأعصاب كاتم الغيظ، ويقول رب العالمين في صفات المتقين: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، فالقرآن الكريم يشجع على العفو والصفح والمسامحة فيما بين الناس في عشرات الآيات الكريمة. ولا تخلو آية كريمة تتضمن عقوبة إلا وفيها حث على العفو والصفح والمسامحة.



المحور الثاني: المبدأ العام للتعامل مع غير المسلمين

لقد وضع القرآن الكريم المبدأ العام لتعامل المسلمين مع غيرهم، وذلك في ضوء قوله عز وجل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٨-٩)، ويفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أن أهل الكتاب بشكل خاص وغير المسلمين بشكل عام يقسمون على قسمين:

١- قسم مسالم والذين يعرفون بأهل الذمة.

٢- قسم معاد والذين يعرفون بالمحاربين.

والذين يعنينا هنا القسم الأول، وقد جرى الاصطلاح الإسلامي على إطلاق اسم (أهل الذمة) على المواطنين من غير المسلمين في الدولة الإسلامية بناءً على "عقد الذمة" وهو عقد بين الدولة الإسلامية من جهة وغير المسلمين من جهة أخرى؛ يتم بمقتضاه قيام الدولة بحمايتهم، أي أنهم يصبحون في عهد المسلمين وأمانهم.

والحكمة من مشروعية هذا العقد: أن يقف أهل الذمة على محاسن الإسلام عن طريق مخالطتهم واحتكاكهم بالمسلمين، وهذا مظهر من مظاهر التسامح في الإسلام مع المخالفين في العقيدة ولا بد من التأكيد بأن إطلاق "الذمة" على غير المسلمين ليس منقصة بحقهم ولا امتهان ولا احتقار لهم، بل هو تكريم لهم وتشريف، هذا وقد نعم أهل الذمة في ظل الدولة



الإسلامية بحقوق غير موجودة في أي نظام وضعي دنيوي، وقد انفرد ديننا الإسلامي العظيم عن سائر الأديان والأنظمة والقوانين بقدرته على ترسيخ مبدأ التعددية في المجتمع الإسلامي، ويعجز أي نظام أخر عن توفير الحقوق للرعايا المخالفين له في الدين.

وهذا وقد توالت وصايا الرسول الأكرم ﷺ بأهل الذمة، وتكررت أوامره بالإحسان إليهم وحفظ حقوقهم والبر بهم، كما تكررت نواهيه عن إيذائهم وظلمهم والاعتداء على حرياتهم الدينية فيقول ﷺ ((ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طبيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)) (١)وقال ﷺ في حديث نبوي شريف آخر: ((إلا من قتل نفساً معاهدة له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يزم رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً)) (٢)وقال ﷺ في حديث ثالث: ((من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة))(٣).

وأوصى رسولنا الأكرم ﷺ بأقباط مصر خيراً بقوله: ((إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً))(٤)والتزم الخلفاء الراشدون وولاة الأمر والقادة الإسلاميون بالهدي النبوي عاملوا أهل الذمة معاملة

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي عن صفوان بن سليم عن عدد من أبناء الصحابة عن آبائهم.

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي والسيوطي عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بسند حسن.

(٤) رواه أحمد عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.



حسنة وأحاطوهم بالرعاية والعناية.

كما تكلفت الدولة الإسلامية الإنفاق عليهم وتأمينهم عند العجز والفقر والعوز، ويظهر ذلك جلياً بما كتبه القائد الصحابي الجليل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صلح الحيرة- في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ه- فقد جاء في نص الصلح "وجعلت لهم أيما شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ؛ طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله؛ ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام" (١) .

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أماتهم أحراراً)، وفي رواية: (بم استعبدتم الناس...) قال ذلك حين اعتدى ابن عمرو بن العاص والي مصر على الفتى القبطي، ثم قام أمير المؤمنين بمعاقبة المعتدي، كما بلغ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قمة السماحة والرأفة مع أهل الذمة حيث أنفق على مساكين أهل الذمة من بيت المال؛ بالرغم من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أصيب بطعنة من رجل من أهل الذمة- وهو أبو لؤلؤة المجوسي- ؛ إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يوصي الخليفة الذي سيأتي من بعده، وهو على فراش الموت بقوله: (أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم) (٢) .

كما سار على هذا النهج الخلفاء الأمويون والعباسيون، فقد تولى أهل الذمة عدداً من المناصب الإدارية والمالية؛ بالإضافة إلى حضور المجالس

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف صفحة ١٥٥- ,١٥٦

(٢) كتاب إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني جزء ٥ صفحة ١٦٢ .



والندوات التي كان الخلفاء يعقدونها للعلماء والشعراء بما فيهم النصارى واليهود بمختلف التخصصات، ففي عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان الأموي أسندت الإدارة المالية إلى أسرة مسيحية ظلت تتوارث فيما بينها تلك الإدارة، وهي أسرة سرجون بن منصور الرومي(١).

المحور الثالث: الحرية الدينية والتعبدية

لقد منح ديننا الإسلامي العظيم لأصحاب الديانات الأخرى حرية العقيدة والديانة والعبادة، وقد انفرد الإسلام بهذه الميزات، وتقوم هذه الحرية على الأسس الآتية:

١- أن الأنبياء والمرسلين جميعهم إخوة لا تفاضل بينهم في النبوة والوحي، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦)، وفي آية أخرى: ﴿لا نفرق بين أحدٍ من رسله﴾ (البقرة: ٢٨٥)، ويقول في آية ثالثة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء: ١٥٢: ٨٤).

٢- لا يجوز الإكراه على العقيدة، كما لا يجوز إكراه أحد على ترك دينه، بل لا بد من الإقناع والرضا، والله عز وجل يقول: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ويقول في آية أخرى بصيغة الاستفهام الإنكاري: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط جزء ١ صفحة ٢٧٦.



أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

٣- أن تكون المناقشة والمجادلة مع أصحاب الديانات الأخرى بأسلوب حسن وبالحكمة فيقول رب العالمين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ويقول في آية أخرى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، ويقول في آية ثالثة: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

٤- أن أماكن العبادة لأصحاب الديانات الأخرى محترمة ومصانة ولا يجوز الاعتداء عليها، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج: ٤٠)، وترك الحرية لهم بممارسة شعائرهم الدينية وعباداتهم وصلواتهم في المجتمع الإسلامي فلا تهدم لهم كنيسة ولا يكسر لهم صليب، حيث إن ديننا الإسلامي العظيم يؤمن بالتعددية في المجتمع الإسلامي، فقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين دخل بيت المقدس (١٥هـ/ ٦٣٥م) تعهدوا لمواطنيها النصارى بإبقاء خمس عشرة كنيسة مع الحرية التامة في ممارسة عباداتهم(١)، وكتب تاريخ الحضارة حافلة بذلك للتأكيد على التسامح الإسلامي.

٥- ترك الحرية لهم فيما أباحت لهم أديانهم من الطعام والشراب، وإعطائهم الحرية في قضايا الأحوال الشخصية والعائلية من الزواج والطلاق

---

(١) تاريخ دمشق الكبير، لابن عساكر جزء ١ صفحة ٢٤١ .



والنفقات والميراث وغيرها، وصيانة حقوقهم وحفظ كرامتهم، فقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بإعطاء أهل الذمة، ممن لا يستطيعون العمل، مرتباً شهرياً من بيت المال وأسقط عنهم الجزية كما ثبت عنه أنه سمى الجزية التي كان يستوفيها من نصارى والعرب بالصدقة(١) .

المحور الرابع : مواقف حضارية تدل على التسامح

هناك عشرات المواقف الحضارية والتي تدل على التسامح في الإسلام، وذلك في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والأقوال المأثورة والتي تحث على العفو والصفح والرفق واللين والمسامحة، وتفّر من الغلطة والعنف، أذكر باقة منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وهذه الآية الكريمة توضح الأسلوب القديم للدعوة إلى الله، والخطاب في هذه الآية الكريمة موجه للرسول ﷺ ويشمل جميع أتباعه.

٢- قال عز وجل موجهاً خطابه لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٣-٤٤)، وقد قال أحد الصالحين تعقيباً على هاتين الآيتين: يا رب، إن كان هذا

(١) الخراج، لأبي يوسف صفحة ١٣٦ .



قولك لفرعون الذي طغى وبغى وجمع وادعى وقال: أنا ربكم الأعلى!! فماذا تقول: لمن يسبّحونك بالغداة والآصال؟

٣- العفو العام الذي أصدره رسولنا الأكرم محمد ﷺ يوم الفتح الأعظم ٨هـ/ ٦٢٨م بحق أهل مكة وسامحهم رغم أنهم تآمروا عليه وآذوه قائلاً لهم: ((اذهبوا فأنتم الطلقاء)) (١).

٤- قال الرسول ﷺ :((من يحرم الرفق يحرم الخير كله)) (٢).

٥- قال رسول الله ﷺ :((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شأنه)) (٣).

٦- قال رسول الله ﷺ : ((إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا وبشروا)) (٤).

٧- نقل أن أحد المسلمين كان يفدُ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعد مدة افتقده عمر فسأل عنه فقالوا له: يا أمير المؤمنين إنه يتابع شراب الخمر، فكتب له رسالة قال فيها: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب قابل التوب وشديد ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، ثم قال عمر لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقبل بقلبه ويتوب الله عليه.

فلما استلم الرجل الرسالة أخذ يقرؤها ويردد عباراتها ويقول: قد حذرني

(١) سيرة ابن هشام ج٢ صفحة ٢٧٤ وتاريخ الطبري ج٣ صفحة ٦١ .
(٢) رواه مسلم عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٣) رواه مسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
(٤) رواه البخاري والنسائي عن الصحابي الجليل أبي هريرة.



الله عقوبته ووعدني أن يغفر لي، فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع، فأحسن النزع- أي تاب فأحسن التوبة- .

فلما علم عمر بتوبة الرجل قال: (هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاً لكم زلّ زلة فسددوه ووثقوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه)، وهذا أسلوب من أساليب الهداية والمسامحة، فلم يحاسبه على فعلته؛ بل أعطاه فرصة للتراجع والتوبة وفتح صفحة جديدة.

٨- ورد عن الشريف الرضي أن غلامه سكب عليه الماء من قبيل الخطأ ، فظهر على الشريف الرضي آثار الغضب وعدم الرضا، فاستدل الغلام بالآية الكريمة: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، فقال الشريف الرضي: كظمت غيظي، فقَاَل الغلام ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فقال: عفوت عنك، ثم قال الغلام: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقال: اذهبَ، فأنت حر، أي حرره من العبودية.



الخاتمة

خلال المقدمة والمحاور الأربعة ألقيت الضوء بإيجاز بشأن موقف الإسلام من التسامح مع المسلمين ومع غير المسلمين على حد سواء، وذلك لنؤكد أن ديننا الإسلامي العظيم هو دين حضاري إنساني شمولي عالمي، هو دين الرأفة والرحمة والتسامح، فالمعاملة الحسنة في الإسلام ليس نظرية خيالية، ولا قيمة هوائية، كما أنه ليس حبراً على ورق، وإنما هو دين عملي واقعي إيجابي، فتطبيق فكرة العدالة والتسامح في أي مجتمع تعطي أكلها من زرع الثقة والمحبة والطمأنينة بين أفراده وجماعاته في كل زمان ومكان.

وينبغي أن نغرس هذه القيم الرائدة الرفيعة في نفوس أبنائنا فلذات أكبادنا، كما ينبغي أن ننقل ذلك عملياً إلى آفاق العالم، فلم يدخل الناس في دين الله أفواجاً إلا بهذه القيم. وعلى العلماء العاملين والدعاة المخلصين أن يبذلوا الجهد في سبيل إبراز هذه القيم للعالم أجمع.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم
٢- تفسير القرطبي.
٣- تفسير الكشاف للزمخشري.
٤- تفسير المراغي.
٥-صحيح البخاري.
٦- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني.
٧- صحيح مسلم.
٨- سنن أبي داود.
٩-مسند الإمام أحمد.
١٠- الخراج لأبي يوسف.
١١- سيرة ابن هشام.
١٢-تاريخ الطبري.
١٣-تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر.
١٤-تاريخ خليفة بن خياط.
١٥- النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح.
١٦- الرسالة الخالدة للأستاذ عبد الرحمن عزام.



١٧- روح الدين الإسلامي للأستاذ عفيف طبارة.

١٨-التربية في الإسلام للدكتور الشيخ عكرمة صبري.

١٩- اليمين في القضاء الإسلامي للدكتور الشيخ عكرمة صبري.

٢٠- قصة الحضارة للمستشرق وول ديورانت.

٢١-الدعوة إلى الإسلام للمستشرق توماس أرنولد.





في فقه الحوار وفقه التعايش

د. محمـد بشـاري
أمين عام المؤتمر الإسلامي الأوروبي





١- تعريف المصطلحات

أ-تعريف الحوار: الحوار والمحاورة مصدر حاور يحاور، ومعناه لغة الجواب والمجادلة قال أبي منظور "وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام، والمحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، والمحورة من المحاورة مصدر كالمشورة من المشاورة"[(١)].

والحوار كلمة تستوعب كل أنواع وأساليب التخاطب سواء أكانت منبعثة عن طريق المتحاورين أو عن غير خلاف، لأنها إنما تعني المجاوبة والمراجعة في المسألة موضوع التخاطب، وهو وليد تفاهم وتعاطف وتجارب كالصداقة، وبعبارة أخرى، فإن الحوار لا يمكن أن يكون إلا بين أطراف متكافئة تجمعها رغبة مشتركة في التفاهم[(٢)]، ولا يكون نتيجة ضغط أو ترغيب[(٣)].

ولذلك كان الحوار أعم من الاختلاف ومن الجدل، وصار له معنى حضاري بعيد عن الصراع، إذ الحوار كلمة تتسع لكل معاني التخاطب والسؤال والجواب[(٤)].

وقد ورد لفظ الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، اثنان منها في صيغة الفعل وهما قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف: ٣٤)، وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَقَالَ لَهُ

(١) لسان العرب، مادة "حوار".

(٢) آفاق مستقبل الحوار بين المسلمين والغرب، ص٩- د.عبد العزيز التويجري.

(٣) مقدمة إلى الحوار الإسلامي المسيحي، ص ٧٩، محمد سماك.

(٤) الحوار في القرآن، ص: ٩ آية الله محمد حسين فضل الله.



صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (الكهف: ٣٧)، والثالث في صيغة المصدر في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ (سورة المجادلة، الآية ١)[١].

فقه الحوار والتعايش والتساكن

ب-تعريف التعايش

إن التعايش نتيجة طبيعية لحركة الحوار الهادف بين مكونات المجتمع المدني الحديث، فيما بينها، وبين أسس النظام الدولي الجديد في مفهومه الجديد للدولة الحديثة.

ففي مصطلح التعايش: نجد أن المصطلح مشتق من فعل : "تعايشوا عاشوا على الألفة والمودة، ومنه التعايش السلمي، وعايشه، عاش معه، والعيش معناه الحياة، وما تكون به الحياة من المطعم والشرب والدخل[٢].

أما مصطلح الفقه: وهو معرفة الأحكام الشرعية الجزئية من أدلتها التفصيلية، من مثل أحكام الطهارة والنجاسة والعبادات والمعاملات وأحكام الزواج والطلاق والرضاع وغيرها.

وفقه الحوار أو فقه التعايش: هو معرفة حكم الشرع في حركة الحوار وعملية التعايش، وحدودهما وضوابطهما هذا من جهة.

---

(١) أدب الحوار في الإسلام، مداخلة للمحامي محمد القدوري في مؤتمر الإيسيسكو حول أدب الاختلاف حي الإسلام .

(٢) المعجم الوسيط، ج٢/ ص ٦٣٩ - ٦٤٠ -مجمع اللغة العربية بالقاهرة.



من جهة أخرى، فقه التعايش معناه عند الأقليات المسلمة - خصوصاً- مدى توافق الأحكام الشرعية مع معايشتها مع أهل الديانات السماوية ، والفلسفات الوضعية ومكونات المجتمع المدني - عموماً- وماهي مقاصد الشارع الحكيم في التنوع والاختلاف.

من هنا جاء تفصيل آية الله محمد علي تسخيري[١] في موضوع التعايش من رؤية إسلامية: " هذا التعايش الذي لا يعني فرض النمط الواحد من التفكير والسلوك أو التنازل عن الحق أو توزيعه على المتعايشين بنسبة متساوية، بل يعني في الرؤية الإسلامية، احترام الحقوق والخصوصيات، فالصورة المثلى للتعايش هي صورة دولة المدينة التي كان اليهودي والنصراني يعيشان في كنفها بأمان إلى جنب المسلم ، وكان الحبشي والرومي والفارسي يتمتعون فيها بكل حقوق المواطنة كالعربي تماماً " .

٢-ميادين الحوار

لابد لأي حوار يراد له النجاح من أن ينطلق من مبدأ أساس يومئ إلى هدف ثابت: هو البحث عن الحقيقة من وجهة نظر الطرف الآخر، باعتبار أن إيمان الشخص بصواب رأيه لا يعني أن رأي الطرف الآخر غير صواب، ومتى تحقق هذا المنهج وتلك الرغبة أمكن القول بأن ميدان الحوار واسع فسيح:

-فهناك حوار الحياة الذي يعني الاهتمام بالطرف الآخر وبخصوصياته وأفكاره وظروفه الخاصة، سعياً لإيجاد قواسم مشتركة معه.

- وهناك حوار العمل: الذي يعني تضافر الجهود لتحقيق كل ما هو في صالح

(١) عرض حول الحوار والتعايش بين الحضارات والثقافات ، برلين -ألمانيا يوليوز ٢٠٠٠ .



الإنسانية والصالح العام من الوجهات الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية.

- وهناك حوار العقل والفكر والعقيدة، الذي يعني تفهم أوجه التباين بين مختلف الديانات، واستغلال القواسم المشتركة بينها.

- **وهناك حوار التجارب وتبادل المعلومات والخبرات**[١].

وإذا تتبعنا حركة الحوار في الإسلام وجدنا أن ميدانه متسع زماناً ومكاناً، فمن حيث الزمان بدأ الحوار منذ عهد النبوة، ومايزال قائماً إلى الآن، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

ومن حيث المكان: فإن الحوار الإسلامي لا يقف عند حدود معينة بل إنه يخاطب سائر بني البشر أينما وجدوا، دونما نظر إلى لون أو شكل أو لغة أو دين: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (لقمان: ٢٨).

ثم إنه بالنظر إلى شخصية الطرف الذي تقع المحاورة معه وعقيدته؛ نجد أن الحوار يتجه صوب جميع الطوائف والأفراد، وهكذا نجد: حوار الرجل مع أهله، وحوار الصديق مع صديقه، وحوار المسلم مع المسلم، وحوار المسلم مع غير المسلم،[٢] وحوار الإنسان مع نفسه، وحوار الإنسان مع الطبيعة[٣].

٣-مجالات الحوار

تتنوع مجالات الحوار من حيث أطراف الحوار إلى حوار: الشعوب، الجماعات،

---

(١) مقدمة إلى الحوار الإسلامي المسيحي، ص ١٢٧، د محمد السماك.
(٢) مداخلة في أدب الحوار في الإسلام، محمد القدوري في مؤتمر الإيسيسكو.
(٣) أدب الاختلاف في الإسلام -الرباط-ديسمبر ١٩٩٨.



المذاهب، الحكومات، الأديان، المدنيات والحضارات الثقافات والعوائد.

إن تحديد مجالات الحوار - في عملية التعايش - يقودنا إلى جملة من المعاني محملة بمفاهيم تتضارب فيما بينها، ولكن يمكن تصنيفها إلى مستويات ثلاثة:

المستوى الأول: سياسي، إيديولوجي، يحمل معنى الحد من الصراع، أو ترويض الخلاف العقائدي بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي في المرحلة السابقة، أو العمل على احتوائه، أو التحكم في إدارة هذا الصراع بما يفتح قنوات للاتصال، وللتعامل الذي تقتضيه ضرورات الحياة المدنية والعسكرية، وقد عرف التعايش أول ما عرف على هذا المستوى.

المستوى الثاني: اقتصادي، يرمز إلى علاقات التعاون بين الحكومات والشعوب فيما له صلة بالمسائل القانونية والاقتصادية والتجارية، من قرب أو بعد.

المستوى الثالث: ديني، ثقافي، حضاري، هو الأحدث، ويشمل تحديداً معنى التعايش الديني، أو التعايش الحضاري، والمراد به أن تلتقي إرادة أهل الأديان السماوية والحضارات المختلفة في العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام العالم، وحتى تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعم بني البشر جميعاً، من دون استثناء.

انطلاقاً من هذا المستوى الثالث، وعلى ضوء المفهوم المحدد الذي نستخلصه؛ نتعامل مع مصطلح التعايش، وننظر في أبعاده ومراميه[١].

وما يجب أن تقوم به الأمة الإسلامية والأقليات المسلمة - خصوصاً- في

(١) الحوار من أجل التعايش، معالي الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، ص ,٧٦



تحريك جميع الوسائل المشروعة، ومنها الحور؛ ليستتب الأمن والأمان ويحقق حواراً هادفاً وتعايشاً سلمياً بين الإسلام والغرب في جميع مكوناته.

وقضية الإسلام والغرب "ليست قضية مقابلة عدوانية بين معسكرين وجيشين ، بل هي قضية خاطئة ومغلوطة متعمدة وإنما العكس، وذلك كما جاء في تفسير الإسلام في اللسان العربي هو : "الخضوع والاستسلام لأمر الله بطاعته والاستجابة لأوامره ونواهيه" وهو اصطلاحاً : " دين الله في الأرض منذ خلق الله الإنسان حتى قيام الساعة، فجميع الأنبياء والمرسلين كانوا مسلمين لله. وهو أيضاً ما نزل به الوحي السماوي على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم. والسلام، وهو مشتق من الإسلام- خاصية هذا الدين -، فالله السلام، ومنه السلام : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (البقرة:٢٠٨).

أما "الغرب" فهو اصطلاحاً: الحضارة الغربية التي تشمل قارتي أوروبا وأمريكا الشمالية ، وقد ازدهرت هذه الحضارة في أوروبا بداية في العصر الأوروبي الوسيط، وكان للدين المسيحي دور بارز فيها، ثم لم تلبث أن ازدهرت مرة أخرى منذ عصر "النهضة الأوروبية" مستلهمة حضارتي الإغريق والرومان في العصر الأوروبي القديم، ومتأثرة باحتكاكها بحضارة الإسلام، ودخلت "عصر التنوير" الأوروبي الذي برزت فيه "علمانية أنكرت الدين وواجهت الكنيسة، في العصر الأوروبي الحديث، وامتدت إلى قارة أمريكا الشمالية إثر الكشوفات الجغرافية الأوروبية.

وهي الآن تعيش عصر "مابعد الحداثة" الذي يشهد مراجعة لأفكار عصر "التنوير الأوروبي" وظاهرة إحياء روحي(١).

---

(١) آفاق المستقبل في علاقات الإسلام والغرب، محاضرة مخطوطة للأستاذ أحمد صدقي الدجاني.



ولإنجاح عجلة الحوار والتعايش مع الغرب بمكوناته الدينية وخصوصياته الثقافية وبنائه الحضاري، يتعين على الأمة الإسلامية في قضائها الفكري والحضاري والأقليات المسلمة بخصوصية وجودها كأقلية دينية أو بشرية في فضاء تلاقي الأبدان والأجساد ومحيط احتكاك الخصوصيات الثقافية لكل مكونات المجتمع المدني الغربي، يتعين علينا إذن وضع قواعد واضحة وثابتة لإنجاح الحوار وتجنيه كل عوامل التصدع والإخفاق والفشل.

٣- مباديء وأسس الحوار

إن صلاحية الإسلام لكل زمان ولكل مكان وباختلاف الأحوال، تجعل- منتسبيه- يضعون شروطاً لإنجاح الحوار، منطلقاً من خصوصياته في تحديد علاقة المسلمين بغيرهم، فأهمها:

- الأمة النموذج: أي الأمة الوسطية والشاهدة

- المبدئية: وهو تعايش قائم على مبدأين هما: أولاً: بين المؤمنين، ثانياً: مع الآخرين.

- نفي السبل على المؤمنين: إلغاء أي تصرف أو معاهدة تؤدي إلى هيمنة الغير على المسلمين.

- العدالة: يشكل العدل أهم أصول التصور الإسلامي للواقع، وأهم الأسس عند التعامل الاجتماعي تبعاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٨) لتأييد البعد الإنساني في عنصر العَدل.

- تأليف القلوب: باعتباره عنصراً فعالاً في تفتح النفوس على الحقيقة



وتقربها إلى الواقع وتعميق التعايش الإيجابي بين مختلف اتجاهات المجتمع.

-الوفاء بالعهد: أي الوفاء بكل العهود والاتفاقات التي تعقد بين المسلمين وغيرهم ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء:٣٤).

- التعامل بالمثل: يهدف الإسلام إلى ردع الاعتداء واستقطاب القلوب، لذا يعد مبدأ جزاء الإحسان بالإحسان ومبدأ القصاص مبدأين واقعيين يرتضيهما المنطق الإنساني والتعامل الفردي والاجتماعي(١).

وحتى نؤصل لحياة مشتركة بين الأمة الإسلامية وأقلياتها وبين الغرب بثقافاته وأديانه، يجب تحقيق أمور- كما ذهب إلى ذلك المفكر الإسلامي الدكتور أحمد كمال أبو المجد(٢) ينبغي أن يتوجه إليها أصحاب الحضارات:

الأمر الأول: الإيمان الحقيقي بالتعددية

والتعددية تقتضي التمايز، أما إذا عممنا حضارة واحدة، وغلّبنا نسقاً ثقافياً واحداً تحت ظلال الكوكبة أو العولمة؛ فإننا نكون قد قضينا على صدق دعمنا للتعددية، لأنه تعدد إلا عند الاختلاف.

وهذا الاختلاف هو الذي يصنع الثراء، ويضيف تجربة قوم إلى تجربة قوم، وخبرة أمة إلى خبرة أخرى، وبالتالي لابد في إطار التعددية من المحافظة على الهوية، وعلى الخصوصية الثقافية التي تضيف وتغذي.

الأمر الثاني: بصدق وواقعية استحالة إزالة الآخر وتصفيته.

وفي خصوص الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية، ينبغي أن

---

(١) مصدر سابق، آية الله التسخيري.

(٢) الإسلام والغرب، مداخلة للدكتور أحمد كمال أبو المجد في المؤتمر التاسع للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية -القاهرة-جمهورية مصر العربية.



يدرك المسلم بأنه لن يستطيع التخلص ممن ليس مسلماً، وينبغي أن تدرك أوروبا وأمريكا كذلك أن الحقيقة الإحصائية تشير إلى أنه من بين كل ستة أشخاص يدبون بأقدامهم على ظهر هذا الكوكب يوجد مسلم أو مسلمة ، وأن التصفية الجسدية لسدس البشرية أو التصفية الثقافية لحضارة سدس البشرية أمر غير ممكن ولا مطلوب بأي معيار من المعايير.

الأمر الثالث: ضرورة إعادة النظر في الخطاب الديني ، والدين كان وسيبقى ذا دور متعاظم في توفير البنية الأساسية الأخلاقية للنظام العالمي الجديد، وهذه المراجعة يجب أن تشمل -وهي ضرورية- جميع خطب الأديان السماوية التي تجمعها رسالة وملة إبراهيم عليه السلام.

وأهم ركيزة في الحوار بين الإسلام- كأمة وأقلية-، وبين الغرب كثقافات وأديان- ، وهي النتيجة الطبيعية لذلك هي التعايش بين الأديان، بدلاً عن الحرب المزعومة في هذا القرن كما تنبأ لذلك المفكر الفرنسي الوزير أندري مالرو حين قال: إن القرن الواحد والعشرين سيصير قرن الدين أو نقيض ذلك، أي احتدام الصراع الديني...

وشعوراً بخطورة مسؤولية التعايش بين الأديان، قامت عدة منظمات وهيئات إسلامية- بل ودول إسلامية- بالعمل على إرساء قواعد وأسس للتعايش بين الأديان داخل العالم الإسلامي لاحتواء مشاريع أزمات الأقليات المسيحية في العالم الإسلامي، أو لحماية الأقليات المسلمة من خطر الاستئصال والتطهير العرقي في أوربا.

وفي طليعة هذه المنظمات: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية وما تقوم به



في تكثيف الحوار مع النصارى والفاتيكان، ورابطة العالم الإسلامي ، والأزهر الشريف، والمنتدى الإسلامي الدولي للحوار، ومؤسسة الإمام الخوئي الخيرية، والمجلس العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وجامعة الصحوة الإسلامية المغربية، والجامعة العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي ومنظماتها المتخصصة، كالمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو.

هذا ما حدى بمعالي المدير العام للإيسيسكو- د.عبد العزيز بن عثمان التويجري في وضع هذه الأسس، أسس التعايش الديني: (١).

الأساس الأول: الإرادة الحرة المشتركة، بحيث تكون الرغبة في التعايش نابعة من الذات، وليست مفروضة تحت ضغوط، أياً كان مصدرها أو مرهونة بشروط، مهما تكن مسبباتها.

الأساس الثاني: التفاهم حول الأهداف والغايات، حتى لا يكون التعايش فارغاً من أي مدلول علمي، أو لا يحقق الفائدة للطرفين، بحيث يكون القصد الرئيسي من التعايش، هو خدمة الأهداف الإنسانية، وتحقيق المصالح البشرية العليا، وفي مقدمتها استتاب الأمن والسلم في الأرض، والحيلولة دون قيام الحروب والنزاعات، وردع العدوان والظلم والاضطهاد الذي يلحق بالأفراد والجماعات، واستنكار كل السياسات والممارسات التي تهضم فيها حقوق الشعوب، على أي مستوى من المستويات، ومحاربة العنصرية والعرقية واستعلاء جنس على جنس، تحت أية دعوى من مثل هذه الدعاوي المتهافتة المردودة الباطلة.

الأساس الثالث: التعاون في العمل المشترك من أجل تحقيق الأهداف

---

(١) الحوار من أجل التعايش، ص ٧٦-٧٧-٩١ د.عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للإيسيسكو.



المتفق عليها ووفقاً لخطط التنفيذ التي يضعها الطرفان الراغبان في التعايش.

الأساس الرابع: صيانة هذا التعايش بسياج من الاحترام المتبادل، ومن الثقة المتبادلة أيضاً، حتى لا ينحرف التعايش عن الخط المرسوم، لأي سبب من الأسباب، وحتى لا تغلب مصلحة طرف على مصلحة الطرف الثاني، مهما تكن الدواعي والضغوط، وذلك بأن يتم الاحتكام دائماً إلى القواسم المشتركة، وإلى القدر المشترك من القيم والمثل والمبادئ التي لا خلاف عليها ولا نزاع حولها، يعزز هذا النزوع الالتزام من الجانبين بما اجتمعت عليه إرادة المجتمع الدولي، من مبادئ قانونية استوحاها تطور الفكر السياسي الإنساني من قيم الأديان السماوية عبر تراكم المعرفة طوال حقب التاريخ.

ولعل الإطار الذي رسمه فضيلة الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- [١] للتعايش، يمثل في رأينا الصيغة المثلى لتحديد صورة هذا التعايش بين المسلم وبين غيره، فلقد وضع ثلاثة مبادئ للتعايش والحوار وهي:

أولاً: الاتفاق على استبعاد كل كلمة تخدش عظمة الله وجلاله، فأنا وأنت متفقان على أن الله قد أحاط بكل شيء علماً، وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وأن رحمته وسعت كل شيء، وأنه ليس متصفاً بالنقائص والعيوب التي تشيع بين البشر...

ثانياً: الاتفاق على أن الله يختار رسله من أهل الصدق والأمانة والكياسة.

ثالثاً: ماوجدناه متوافقاً في تراثنا نرد إليه ما اختلف فيه، وبذلك يمكن

---

(١) صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص ٢٩ الشيخ محمد الغزالي.



وضع قاعدة مشتركة للأديان[١].

إذن فالحوار ليس مجابهة بغيضة، وإنما هو حركة تعايش سلمي وودي بين مكونات المجتمع الدولي بقصد إحلال الأمن والسلم والفضيلة واحترام حقوق الإنسان والخصوصيات الثقافية والدينية والحضارية.

٤-القواعد المشتركة

إن الصلة بين الإسلام والمسيحية، وبين سيدنا محمد ﷺ وسيدنا عيسى عليه السلام نابعة من شهادة القرآن الكريم وقواعده حيث يقول الله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة ٨٢).

فإضافة إلى الأصول المشتركة بين المسلمين والمسيحين هناك أهداف مشتركة نابعة من كلتا الديانتين، ونابعة أيضاً من الواقع الذي يفرض نفسه أمام كل مخلص محب للإنسان والإنسانية.

وهذه القواسم المشتركة بين المسلمين والمسيحيين تتمثل من وجهة نظرنا[٢]نحن المسلمين في القواعد التالية:

القاعدة الأول: الأصول الإيمانية الواحدة

يقول النبي عليه الصلاة و السلام : ((الأنبياء إخوة لِعَلاَّتٍ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد)). (رواه البخاري)

(١) صحيفة تحذير من دعاة التنصير، ص ٢٩ الشيخ محمد الغزالي

(٢) آفاق المستقبل ودعم الحوار بين المسلمين والغرب- مداخلة لسماحة المفتي الشيخ أحمد كفتار وفي المؤتمر التاسع للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة.

ولذلك فإن الحقائق الإيمانية عند جميع الأنبياء والمرسلين واحدة ، وتتمثل فيما يلي:

١-الإيمان بالله الواحد الأحد لا شريك له، خالق الكون والمتصف بالكمال والمنزه عن النقص.

٢-الإيمان باليوم الآخر حيث الحساب والجزاء ثم الثواب والعقاب.

٣-الإيمان بالملائكة الأطهار

٤-الإيمان بجميع الرسل والأنبياء الذين أدوا دعوة الخلق إلى الله تعالى؛ بدءاً بآدم عليه السلام، وختماً بمحمد ﷺ .

٥- الإيمان بكل كتب ورسالات السماء المنزلة على الأنبياء والمرسلين.

يقول الله عز وجل : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦).

وهذه الحقيقة التي نطق بها القرآن الكريم نقرؤها وضاحة جلية في أسفار اليهود والنصارى الموجودة حاليا، فهذه الوصايا العشر واضحة تماما في العهد القديم حيث جاء: " أنا الرب إلهك، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي " (سفر الخروج ٢٠/ ٢-٥).

ونقرؤها واضحة جلية في إنجيل المسيحيين ، حيث جاء في إنجيل مرقص " إن أول كل الوصايا الرب إلهنا رب واحد، الله واحد، وليس آخر سواه " (إنجيل مرقص ١٢/ ٢٩-١٢).

وجاء في إنجيل يوحنا قول المسيح : " وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك



أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته" (إنجيل يوحنا ١٧/ ٣-٤).

القاعدة الثانية: تكريم السيد المسيح عليه السلام وعائلته.

فإنه لا يوجد كتاب على وجه الأرض قد منح السيد المسيح وأمه البتول وعائلته الكريمة تكريماً وتبجيلاً أعظم من القرآن الكريم، بل إن تكريم القرآن الكريم للسيد المسيح وأمه وعائلته يفوق بلا ريب تكريم الإنجيل الذي يؤمن به النصارى، ففي القرآن الكريم سورة (آل عمران) ، وهي اسم عائلة السيد المسيح، وهي ثاني أطول سورة في القرآن، وهناك سورة (مريم) والدة السيد المسيح، في حين لا توجد سورة تحمل عائلة سيدنا محمد ﷺ أو أمه.

القاعدة الثالثة: المثل الأخلاقية المشتركة

وحيث إن مصدر الديانات السماوية واحد، فلابد أن تكون المثل والتعاليم الأخلاقية وأيضا واحدة.

ويمكن أن نذكر أمثلة عن هذه المثل الأخلاقية التي نطق بها الإسلام ، وكان قد تحدث عنها المسيح عليه السلام:

١- تكريم الإنسان ورحمته مطلقاً. (انظر الآية ١٣ / الحجرات ، وإنجيل متى ٥/ ٢).

٢- نشر المحبة والإحسان بين الناس (انظر سورة البقرة/ ١٩٥، وإنجيل الوقا ١٠/ ٢٧).

٣-العفو والصلح (انظر آل عمران/ ١٣٤ ، وإنجيل متى ٥/ ٣٨).



٤- ترك الفواحش والتزام العفاف والطهر (انظر الإسراء ٢٤ ، وإنجيل متى ٥/ ٢٧).

٥-الأمانة (انظر المؤمنون / ٨ ، وإنجيل متى ٥/ ٢٣).

٦- حفظ اللسان عن الآثام (انظر الإسراء/ ٥٣ ، وإنجيل متى ٥/ ٢٢).

القاعدة الرابعة: السلام والأخوة الإنسانية.

وهذا أمر واضح وجلي في القرآن الكريم، وفي سيرة المصطفى ﷺ، فقد لخص الله تعالى مهمة رسوله ﷺ في كلمات قليلة واضحة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وكان النبي ﷺ يتحدث عن نفسه فيقول: ((إنما أنا رحمة مهداة))[١] بل لقد سمى نفسه نبي الرحمة. وكان دائم القول : ((خاب عبد وخسر، من لم يجعل الله تعالى في قلبه رحمة للبشر)) [٢].

ولذلك وضع قاعدة يجب أن تكون دستور العلاقات بين شعوب العالم بقوله : ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))[٣] وقال : ((من لا يرحم الناس لا يرحمه الله، ولا تنزع الرحمة، إلا من شقي))[٤].

ولقد طبق ﷺ والمسلمون بعده هذه المبادئ الإنسانية ، فنراها واضحة في قوله ((ما آمن بي ساعة من نهار من بات شبعان؛ وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم))[٥].

(١) رواه البيهقي في الشعب، انظر كنز العمال (١١/ ٤٤٥).
(٢) رواه أبو نعيم (كنز العمال ٣/ ١٦٢).
(٣) رواه الترمذي.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه الطبراني.



وبمثل هذه المنطلقات الإنسانية انتشر السلام والأخوة بين الناس ، ونجدها واضحة جلية عند المسيح عليه السلام، فقد جاء في موعظة الجبل في إنجيل متى قول المسيح عليه السلام : "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون" (إنجيل متى ٥/ ١-١٠).

٥-في فقه الحوار وفقه التعايش نحو بناء مستقبل مشترك

نرى تأسيس فقه حواري وتعايشي في إطار فقه الأقليات المسلمة- خصوصاً؛ لاعتبار العيش المشترك والاحتكاك اليومي وآفاق مستقبل الغد الموحد واجباً وضرورياً لقيام الأقليات المسلمة في الغرب بدورها أحسن دور، وذلك مراعاة لانتمائها المزدوج: إنتماؤها إلى الإسلام عقيدة وأمة، وإلى الغرب أرضاً وواقعاً، ومستقبل العلاقة بين الإنتمائيين التكامل.

وإن جملة من العوامل الموضوعية والتاريخية تساعد على بناء هذا المستقبل المشترك، منها:

أولاً: الوحدة الإنسانية

ثانياً: التقارب الجغرافي بين الشرق والغرب.

ثالثاً:وجود أقليات دينية وعرقية في كلا الجهتين.

رابعاً: انتشار لغات الغرب الرئيسية: الإنجليزية، الفرنسية، الأسبانية، الألمانية والإيطالية في بلاد المسلمين الذين هم أيضاً يطمحون أن تشيع لغاتهم

في بلاد الغرب، وفي مقدمتها العربية، وهو مما ييسر التفاهم، ويزيد التقارب بين الطرفين.

خامساً: إن التعاون بين الإسلام والغرب ضروري، وهو لصالحهما معا، ذلك أن في أيدي المسلمين ثروات استراتيجية، وفي أيدي الغربيين علوم وتقنيات متطورة، وكل في حاجة إلى هذه وتلك، ونقل التكنولوجيا وتوطينها بالعالم الإسلام وسيلة وضرورة.

سادساً: سقوط جميع المعايير الأيديولوجية وانتشار عولمة غير عادلة تقتل في الإنسان إنسانيته وأخلاقياته.

وانطلاقاً من هذه العوامل ظهرت عدة مؤتمرات وندوات عالمية، تارة بالوطن الإسلامي[١] (المغرب-ليبيا-مصر- الأردن- إيران - المملكة العربية السعودية...) وأخرى بالغرب(أوروبا-وأمريكا..)، وفي مقدمتها المبادرة السويدية "الإسلام وأوروبا" سنة ١٩٩٤ والذي نتج عنها محاولة توفيقية بين تصورات الجهتين.

وأهم التوصيات التي خرج بها هذا المؤتمر، ولقد لخصها السفير لارش لونباك-المنسق العام للمبادرة في:

١- استمرار الحوار الثقافي والديني حول القضايا ذات الأهمية المشتركة وحول القضايا المعاصرة.

٢- تطوير الأنظمة التعليمية على كافة المستويات.

(١) سرد هذه الدول-لاحصرها- التي شارك فيها المؤلف عبر ندوات ومؤتمرات موضوع الحوار



٣- تشجيع أداء أفضل وأقل تحيز في الوسائل الإعلامية.

٤- إجراء الأبحاث واتخاذ الإجراءات المناسبة لمحاربة التصورات المسبقة والتميز ضد المسلمين في أوروبا.

٥- التنسيق بين البرامج القائمة حالياً للوصول إلى تلك الغايات.

٦- استخدام وسائل وأنظمة المعلومات الحديثة لتحقيق مختلف الأهداف المعلنة.

٧- إجراء دراسات حول التاريخ المشترك.

٨-إجراء دراسات حول التراث الثقافي والديني المشترك.

ويمكن أن نؤسس فقه الحوار الهادف وفقه التعايش السلمي على هذه الاستنتاجات، ونضيف إلى ذلك نقاط ومنطلقات أخرى، منها:

١-الحوار المتكافئ البناء.

٢-التسامح واحترام الاختلاف.

٣-التعاون بنية صادقة في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية.

٤-التعايش السلمي.

٥-السعي إلى تحقيق التنمية المستدامة لشعوبها.

٦- تكثيف لقاءات المسؤولين السياسيين من الطرفين بهدف التشاور وتبادل الرأي واتخاذ القرارات وسن التشريعات ولإرساء قواعد راسخة للأمن والسلم في العالم وصالحه بأكمله.



٧- العمل على تحسين صورة كل طرف لدى الآخر:

(أ) في الإعلام بجميع وسائله.

(ب) في الكتب المدرسية.

(ج) في حذف الأخطاء التاريخية من الوثائق، ولاسيما من المنشورات الحديثة.

٨- شجب العنف ومكافحة الإرهاب بكل أشكاله.

٩- العمل على تكريس الحريات العامة، وحقوق الإنسان في العالم قاطبة.

١٠- التعاون على إخماد الفتن والحروب، واقتلاع جذور المجاعة والأمراض والفقر.

١١- عقد مؤتمرات وندوات مشتركة يدعى إليها رجال الفكر والعلماء في كل الاختصاصات لتدارس سبل التعاون والتقارب.

١٢- نشر ثقافة كلا الطرفين والتعريف بخصوصياتها ووضع أسس الاحترام المتبادل.

١٣- تطوير السياحة الثقافية وإقامة المعارض والتعريف بالمآثر في كل بلد من الجانبين.

١٤- تشجيع الحوار والتزاور بين الشبان من الطرفين.

١٥- إقامة سياسة بيئية ناجعة لحماية محيطيها، ودعم المجهود العالمي في هذا المجال.



والخلاصة أن فقه الحوار وفقه التعايش ضرورة ملحةاليوم ؛ من أجل إرساء قواعد السلم والأمن في عالم يعيش الانقلابات والتوترات في جميع الميادين، وذهب ضحية ذلك الإنسان بمقوماته الحضارية وبعده الديني، ففتح الباب لمرتزقة الفكر أن يغامروا في تأصيل "صراع الحضارات" ويتنبؤوا بنهاية التاريخ، وكل ذلك لن يخدم مصلحة الإنسان وسعادته، بل سيقضي عليه وعلى وجوده أو على الأقل على عواطفه النبيلة في مسعاه الطبيعي للسلام والعدل والطمأنينة.

إن الأقليات المسلمة بفقهها المتميز وبتطلعاتها المستقبلية لغد مشرق تلعب دوراً طلائعياً في تقريب القلوب وتصحح المفاهيم المغلوطة إعلامياً أو أكادمياً، وهي خير رسول للحضارة الإسلامية والعقيدة الحنيفية.



من أركان الحوار في الإسلام

د.محمد سيد طنطاوي
شيخ الجامع الأزهر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن من الأساليب الحكيمة والبليغة التي استعملها القرآن الكريم، في إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وعلى صدق الرسل الكرام، وعلى رأسهم خاتمهم سيدنا وشفيعنا محمد ﷺ، وعلى أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ديناً.

من أبرز هذه الأدلة، ومن أبلغ هذه الأساليب؛ أسلوب الحوار والمناقشة والمراجعة من أجل الوصول إلى الحق، عن اقتناع عقلي، وارتياح نفسي، واطمئنان وجداني، يجعل صاحبه يعيش حياته وهو ثابت على ما آمن به ثباتاً لا ينازعه ريب، ولا يخالطه شك، ولا يحوم حوله وهم.

وكلمة " الحوار " من الكلمات التي يرتاح لها السمع، لأنها كلمة من معانيها اللغوية المراجعة ، والمناصحة ، والمصاحبة ، والمعاونة، والمؤانسة.. وهي كلمة يراد بها : حديث يجري بين شخصين أو أكثر من أجل الوصول إلى الحق والخير، والتعمير لا التخريب، والإصلاح لا الإفساد، والاعتصام لا التفريق، والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

يقال تحاور القوم : إذا تراجعوا الكلام فيما بينهم.

ومن قوله سبحانه : ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾(الكهف:٣٨).



وكان هذا رداً من ذلك الرجل الصالح على صاحبه الذي قال له بتطاول وغرور : ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ (الكهف : ٣٧ ، ٣٨).

والحواري : كلمة تطلق على الناصر والصاحب الذي يخلص القول والنصح والمحبة لصاحبه.

والحواريون : هم الأتباع المخلصون الذين كانوا يحاورون عيسى ـ عليه السلام ـ ويلتمسون منه النصيحة والتوجيه.

وعندما قال عيسى ـ عليه السلام ـ منادياً قومه : من أنصاري إلى الله؟

قال الحواريون ـ كما قص القرآن عنهم ـ : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّه آمَنَّا باللَّه وَاشْهَدْ بأَنَّا مُسْلمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهدينَ﴾ (آل عمران : ٥٢ ، ٥٣).

والخلاصة أن كلمة الحوار من الكلمات الحسنة المقبولة التي يرتاح لها العقلاء، لأنها في معظم أحوالها يقصد بها المناصحة، والمجاوبة، والمناقشة، والوصول إلى الحق والإصلاح.

بخلاف كلمة الجدل والمجادلة والجدال، فإنها في معظم أحوالها ـ كما يقول علماء فن المناظرة ـ يقصد بها : إلزام الخصم ، والتغلب عليه، دون اهتمام بإظهار ما هو حق وصواب.

وبخلاف كلمة " المكابرة " فإن المقصود بها مطلق العناء واللدد، والتباهي والتفاخر، والانقياد للهوى رغبة في إثبات الوجود، الذي لا يغني من الحق شيئاً .



وإن الذي يتدبر القرآن الكريم ، يراه قد قص علينا ألواناً من المحاورات، التي فيها ما فيها من الحكم والهدايات ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قص علينا ألواناً من المحاورات التي دارت بين الرسل وأقوامهم وألواناً أخرى من المحاورات حول اليوم الآخر، أو حول القرآن الكريم ، وألواناً من الحوار مع أهل الكتاب ، أو المنافقين، أو مع غيرهم.

ولعلي لا أكون مبالغاً إذا قلت : إن المئات من آيات القرآن الكريم ، زاخرةٌ بالحوار، الذي يقذف فيه القرآن بحقه على باطل أعدائه، فيدمغه فإذا هو زاهق.

وللحوار في شريعة الإسلام أركان يجب أن يقوم عليها ، وآداب يجب أن تلتزم ، وأسس يجب أن تتبع ، ومباديء لا يجوز الخروج عليها.. ومن هذه الأركان وتلك المباديء:

أولاً: أن يكون الحوار قائماً على الصدق، بعيداً عن الكذب والسفسطة والأوهام، ولقد ساق القرآن الكريم كثيراً من الحوار الذي دار بين الرسل الكرام وبين أقوامهم .. وعندما نتدبر هذا الحوار نراه قائماً من جانب الرسل على الصدق.

ولتسمع إلى جانب من الحوار الطويل الذي تم بين موسى ـ عليه السلام ، وبين فرعون ، والذي ورد في سور شتى.

لقد أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون؛ ليبلغاه دعوة الحق.

ووصل موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون وبدأ الحوار بينهما وبينه بقول فرعون لهما ـ كما جاء في سورة طه ـ ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾(طه:٤٩).



وهنا أجابه موسى ـ عليه السلام ـ بالرد الذي يخرسه فقال له : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه:٥٠).

أي : قال له : يا فرعون ، ربنا وربك هو الله الذي منح كل مخلوق من مخلوقاته الصورة التي تلائمه، والهيئة التي تتحقق معها منفعته ومصلحته، ثم هداه إلى وظيفته التي خلقه من أجلها، وأمده بالملكات والوسائل التي تحقق هذه الوظيفة .

وكان هذا الرد من موسى كافياً لإقناع فرعون بأن المستحق للعبادة هو الله ـ تعالى ـ إلا أنه هرب من الحوار في موضوع وحدانية الله وإخلاص العبادة له، إلى موضوع آخر فقال لموسى ـ كما قص القرآن عنه ـ ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾(طه:٥١).

أي : أخبرني يا موسى عن حال القرون الأولى كقوم نوح وعاد وثمود.

فرد عليه موسى برد مفصل يبطل مكره، ويزهق طغيانه فقال : ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى﴾ (طه : ٥٢-٥٤).

وانتهى هذا الحوار الطويل بانتصار موسى ـ عليه السلام ـ بإيمان السحرة الذين جمعهم فرعون لمبارزة موسى ـ عليه السلام ـ...

وقالوا لفرعون بكل شجاعة وثقة : ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه : ٧٢ ، ٧٣).

والذي يهمنا تأكيده : أن حوار موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون ، كان



قائماً على الصدق الذي لا يحوم حوله كذب.

والحوار متى كان قائماً على الصدق ، كانت نتيجته النصر والخير، وتلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ثانياً:كذلك من أسس الحوار ومن آدابه : التزام الموضوعية، ونقصد بذلك عدم الخروج عن موضوع الحوار إلى موضوعات أخرى فرعية خارجة عن موضوع الحوار.

وآفة بعض الناس أنهم إذا حاوروا غيرهم في موضوع ، تعمدوا أن يسلكوا ما يسمى في هذه الأيام بخلط الأوراق، بحيث تتوه الحقيقة في متاهات هذه الفروع الخارجة عن موضوع الحوار.

والذي يتدبر القرآن الكريم يراه يعلم أتباعه ويأمرهم بالتزام الموضوعية في حوارهم مع غيرهم.

وهذا ما نراه واضحاً جلياً في حوار الأنبياء مع أقوامهم ، لقد كانت إجابات الأنبياء على شبهات أقوامهم منتزعة ومأخوذة من أقوالهم.

وعلى سبيل المثال : هذا نوح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ ﴾(الأعراف:٥٩).

﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الأعراف:٦٠).

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٦٢)﴾(الأعراف).

وهذا هود ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٦٥).



فيردون عليه بقولهم ـ كما قص علينا القرآن : ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(الأعراف:٦٦).

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾(الأعراف:٦٧).

وكثيراً ما نرى القرآن الكريم يأمر النبي ﷺ أن يرد على المخالفين بالجواب الذي هو من واقع كلامهم.

ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه :

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ (الأعراف).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾ (البقرة).

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ (سبأ: ٣).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً﴾ (التوبة: ٨١).



والخلاصة أن الذي يتدبر القرآن الكريم يرى أن إجابات الرسل الكرام خلال حوارهم مع أقوامهم منتزعة من أقوال هؤلاء الأقوام، ويرى كذلك أن الله ـ عز وجل ـ قد لقن نبيه ﷺ الإجابة على شبهات أعدائه من واقع دعاويهم.

وهذا هو الحوار السديد الذي يقوم على التزام الموضوعية، وعدم الخروج عن الموضوع الذي هو محل الحوار.

وليت جميع الذين يحاورون غيرهم في موضوع محدد، يسلكون هذا الطريق الحكيم طريق التزام الموضوعية، التي هي من خير الطرق للوصول إلى الحقيقة.

ثالثاً: ومن أركان الحوار وآدابه: التسامح بالبراهين الساطعة، وبالأدلة الناصعة وبالمنطق السليم الذي يلقم المكابر أو المعاند حجراً، وذلك لأن التسلح بالأدلة الواضحة وبالحجج القوية، يؤدي إلى النتيجة الحاسمة السريعة المقنعة لمن يستمع إليها.

ومن أمثلة ذلك: الحوار الذي قصه القرآن علينا، والذي حدث بين سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبين أحد الزعماء الجاحدين المغرورين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

فهذه الآية الكريمة تخبرنا بأن حواراً حدث بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ



وبين حاكم جاحد مغرور، أخذ يناقش إبراهيم ـ عليه السلام ـ في مسائل تتعلق بوجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار.

وكان من رد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن قال له : ربي وربك هو الله الواحد القهار ، الذي يحيى الخلائق فتحيا، ويسلبها الحياة فتموت، فما كان من ذلك الجبار إلا أن قال: أنا كذلك أحيى وأميت ، أي : أقتل من أريد قتله ، واستبقي من أريد استبقاءه ، فقال له إبراهيم بسرعة وحسم : إن الله يجعل الشمس تشرق من جهة المشرق ، وتغرب من جهة المغرب ، فهل في إمكانك أن تفعل ذلك؟ فبهت وتحير وانقطعت حجته في الحال . وهكذا ينتهي الحوار بالنتيجة الحاسمة السريعة ببركة الأدلة التي تقنع كل ذي عقل سليم.

رابعاً: ومن الطرق التي يجب أن تتبع في الحوار ، أن يقصد كل طرف من أطرافه ، إظهار الحق والصواب في الموضوع الذي هو محل الحوار ، حتى ولو كان هذا الإظهار على يد الطرف المخالف.

وهذا ما نراه واضحاً في حوار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في كثير من القضايا المهمة التي يترتب على نتائجها خير للأمة.

ومن أمثلة ذلك : الحوار الذي دار بين أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ في شأن قتال المرتدين الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة، وقالوا: نصلي ولا نزكي.

فقد رجع عمر إلى رأي أبي بكر في قتالهم بعد أن اقتنع برأي أبي بكر.

وكما رجع عمر في مسألة قتال المرتدين إلى رأي أبي بكر.

رأينا أبا بكر يرجع إلى رأي عمر في مسألة جمع القرآن ، بعد وفاة النبي ﷺ.



ومن أمثلة ذلك ـ أيضاً أن رجلاً سأل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مسألة فأجابه . فقال رجل لعلي : يا أمير المؤمنين : الجواب هو كذا وكذا ، فقال علي: أصبت أنت، وأخطأت أنا ، وفوق كل ذي علم عليم.

ومن أقوال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ : " ما حاورت أحداً قط فأحببت أن يخطيء ، وما كلمت أحداً في قضية إلا وأحببت أن يظهر الله الحق على لساني أو على لسانه ، وددت لو انتفع الناس بعلمي ولم ينسب إلي منه شيء " .

وقال بعض الحكماء : " من آداب الحوار : أن يكون المتحاورون في طلب الحق ، كناشد الضالة ، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد غيره ، ويرى أن هذا الغير رفيقه لا خصمه ، ويشكره إذا عرّفه الخطأ ، وأظهر له الحق " .

خامساً: كذلك من مستلزمات الحوار السليم: التحلي بخلق التواضع، وتجنب الغرور، والتزام الأسلوب المهذب الخالي من كل ما لا يليق ، ولقد ساق القرآن الكريم أمثلة متنوعة لنماذج من الحوار القائم على التواضع ، وإعطاء كل ذي حق حقه.

ومن هذه الأمثلة ما ساقه القرآن الكريم على لسان سليمان ـ عليه السلام ـ الذي جمع الله تعالى له بين النبوة والملك، والذي أعطاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، والذي علمه الله منطق الطير.

لقد تفقد سليمان ـ عليه السلام ـ جنده ، فلم ير الهدهد من بينهم ، فتوعده بالعقاب ، وأتى الهدهد بعد ذلك ، فقال لسليمان ـ عليه السلام ـ بكل شجاعة وثقة : ﴿حَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾(النمل:٢٢).

ويقبل سليمان ـ عليه السلام ـ بكل تواضع ، حجة الهدهد، ويكلفه



بحمل رسالة إلى ملكة " سبأ " ويوفق في مهمته، وتنتهي القصة بعد حوار متعدد الجوانب ، تقول فيه تلك الملكة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(النمل:٤٤)..

وهكذا نرى أن الجندي الصغير في الأمة التي يظللها العدل والأمان ، لا يمنعه صغره أن يرد على الحاكم الكبير ، وأن يدافع عن نفسه بكل حرية وشجاعة.

ونرى أن الحاكم الكبير يقابل رد الهدهد، وهو الجندي الصغير، بكل تواضع، ويفسح له المجال في أن يدلي بكل حججه، وأن يضعها موضع التحقيق والاختبار ، وهكذا الأمم العاقلة الرشيدة ، لا يهان فيها الصغير ، ولا يظلم فيها الكبير ، لأن الحوار بين أفرادها قائم على التواضع ، وإعطاء كل ذي حق حقه؛ دون تكبر أو غرور.

هذه هي بعض الأركان والأسس والآداب التي يجب أن تتوفر في الحوار بين الأفراد والجماعات.

ومتى توفرت ومعها النية الطيبة، والعزيمة الصادقة ، كانت نتيجة ذلك أفضل الثمار وأيسر طريق للوصول إلى الحقيقة التي تقرها الشرائع السماوية، والعقول الإنسانية السليمة

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ،،،

القيم الإنسانية المشتركة تنظم مسألة الحوار

الشيخ / محمد علي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية



بسم الله الرحـمن الرحـيم، والصـلاة والسـلام على أشـرف الأنبـيـاء والمرسلين؛ أبي القـاسم مـحـمـد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصـحبه الكرام الميامين، أما بعد:

فـقد لانجد أنفسنا بحـاجة إلى إعطاء تـعريف لهـذه القـيم، ولكن شـيئاً من التوضيح ضروري في هذا المجال.

فـإن المراد بالقيم ليس تلك التي يؤدي إليـهـا التـعـبير اللفظي (أي الأشـيـاء التي يقـيمـهـا الإنسان ويحـترمـهـا، بل المراد منهـا معنى أدق وهو (الأمـور التي ينطلق الإنسان فـيها من ذاته أو من ركائز عـقيدته؛ ليعطيـهـا قيماً مـعنوية مطلقة تؤثر خلالها على كل مسيرته الحياتية).

وبهذا يمكن القـول إن دور الإيمان، أو عدم الإيمان بهذه القـيم كبير جداً في الحيـاة الحضـارية للإنسـان. بل يمكن قيـاس مدى تحضر أي مـجتـمع بمدى علو قيمه المطلقة التي يؤمن بها.

فإذا فـقد أي مـجتـمع الإيمان بقيم مطلقـة فهـو لا محالة سـوف يفقـد صفته الإنسـانيـة، لأن هذه الصـفـة - كـمـا سنبين ذلك - تلازم هذا الإيمان، ولـم يعـد قادراً على التعامل مع الواقع، ولا الابداع في تطويره، لأنه لا يمتلك أية صورة عن منطلقـه، ولا عـن مـصيره ولا عـن معالـم ثابتـة في مـسـيرته بين (المبتـدأ) و(المنتـهى)، وبـالتـالـي لايملك أية روابط تنظم حـركـتــه وتربطـهـا بـالـكون والوجود، وإنما هو متحرك ضائع في عشوائية وهباء.

و من هنا نجده يطلق لذاتيته العنان، فيقتل ويسلب ويفـجر دونما أي رادع.



فعدم الإيمان بالمطلق من أكبر علل الدمار والاجرام والضياع.

كما أن الإيمان بـ(القيم الوهمية، أو النسبية) لا يقل تدميراً لحياة الإنسان عن حالة عدم الإيمان بأية قيم. ذلك أن هذا الإيمان- كما يعبر أستاذنا الإمام الشهيد الصدر - (يصبح سبباً في تطويق حركة الإنسان وتجميد قدرته على التطور والابداع، وإقعاد الإنسان عن دوره الطبيعي المفتوح في المسيرة ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّه إِلَهاً آَخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ (الإسراء: ٢٢).

وهذه حقيقة صادقة على كل الآلهة التي صنعها الإنسان عبر التاريخ، سواء ما صنعه الإنسان في المرحلة الوثنية من العبادة، أو في المراحل التالية، فمن القبيلة إلى العلم نجد سلسلة من الآلهة التي أعاقت الإنسان بتأليهها والتعامل معها مطلقاً عن التقدم الصالح)[١].

بعد هذا نقول: كيفما عرفنا الحضارة فإنه يجب أن نقر بأن الصفة الإنسانية- بمعنى: امتلاك الاتجاه العام لخدمة الإنسان وتطوير إمكاناته الذاتية والعرضية - هي أهم مقوماتها بلا ريب.

ولا يمكن أن يتسم أي مذهب أو تخطيط أو حتى مجرد سلوك بالسمة الحضارية إلا إذا اتسم بالصفة الإنسانية.

والصفة الإنسانية، عبر ادراكات الوجدان ، وبلا حاجة إلى استدلال، تلازم الإيمان بمجموعة من القيم المطلقة والمشتركة ، فلا يمكن أن نفترض النسبية في كل شيء ، ثم نفترض وجود خصائص إنسانية؛ فإن ذلك يستبطن نوعاً من التناقض مفاده: الاعتراف - من جهة - بأن الإنسان له هويته المتفردة جزئياً - إن لم يكن

---

(١) الفتاوى الواضحة ص ٧٥٤ - طبعة قم ايران .



تفرده كلياً – ورفض أي تمايز إنساني أو قيمة ثابتة فيه من جهة اخرى.

فما هي هذه السمة الثابتة المميزة؟

إن الجواب الوجداني (ونؤكد على وجدانيته لأن ذلك يغنينا عن الاستدلال) هو: الفطرة الإنسانية.

والمقصود بالفطرة هو أن الإنسان مخلوق إلهي أودعت الحكمة الإلهية في وجوده وطينته الأصلية مجموعة من القضايا البديهية والقدرات العقلية والميول والغرائز التي تضمن له سيراً طبيعياً نحو تكامله المرسوم له.

وكل الحضارات والمذاهب والأديان إنّما جاءت لتثير له دفائن العقول – كما يعبر الإمام علي (ع) – وتهيئ الجو المناسب لبروز هذه الطاقات الكامنة على سطح حياته؛ فتهديه سبيلاً يختلف كل الاختلاف عن السلوك الذي تسلكه الحيوانات العجماء التي لا تتمتع بما يتمتع به من طاقات.

أما القضايا البديهية فهي التي تمنحه القدرة على المعرفة: معرفة نفسه ومعرفة الكون والواقع، وفلسفة الوجود والعلاقات القائمة بين الأشياء وتلك من قبيل: الإيمان بمبدأ العلية، والإيمان بمبدأ استحالة التناقض (الجمع بين النقيضين، وارتفاع النقيضين) و(بعض القضايا الأخرى) فهذه قضايا مغروزة في القناعة والوجدان الإنساني لا يحتاج للاستدلال عليها؛ وإلا دخل في طريق مسدود؛ لأنّ الاستدلال نفسه يتوقف عليها كما هو واضح.

أما القدرات العقلية فهي نفس قدرة النفس الإنسانية على التأمل والتفكير وتجريد القضايا من ملابساتها، والصعود من مرحلة الجزئيات إلى مرحلة الكليات، والقيام بقياس الأشياء للوصول إلى تصورات جديدة، والتخطيط



الذهني لمراحل غير موجودة على صعيد الواقع القائم. إن هذه القدرة الذهنية هي من مختصات الإنسان، وهي سرّ مسيرته التكاملية وإبداعه ونموّه.

وأما الميول الغريزية فهي التي تقوده نحو كماله وتدفعه للاستفادة من طاقاته في هذا المجال:

ومن هذه الميول: ميله نحو الكمال، والسير نحو الكمال المطلق، ومحاولة سد جوانب العجز في وجوده، والركون إلى هذا المطلق القادر، وأداء حقه وشكر نعمه، والقيام بحق طاعته - فهذه أمور يجدها الإنسان مغروزة في الطينة الإنسانية وإن اختلفت تجلياتها وتعددت أساليبها وربما غطت الشبهات على هذه الميول وكبتتها.

ومنها أيضاً غريزة حب الذات والعمل على تحقيق طموحاتها فهي من الغرائز الأصلية في الإنسان والتي لا يمكن تجاوزها والقضاء عليها، كما تصورت الماركسية يوماً ما أنها ظاهرة فوقية يمكن حذفها من الوجود الإنساني من خلال تحريم الملكية.

ومنها التذوق الفني: والابتهاج لعناصر الجمال التي يزخر بها هذا الكون.

وعلى هذا فالذي يبدو لنا بكل وضوح أيضاً أن مسألة الإيمان بنظرية الفطرة الإنسانية يفسح المجال للحديث عن جملة مفاهيم من قبيل مفاهيم (الحقوق) و(التكاليف) و(العدالة) و(الإنسانية) و(الأخلاق) و(الذوق الفني العام) و(القيم المشتركة) و(الحضارة) و(الحوار) و(الدين) و(المعرفة) و(التصديق) و(المنطق) بل وحتى (البرهان والاستدلال) و(العلم) لأنهما يعتمدان على عنصر ثابت بدونه لا تسلم لهما حدود ومعالم.

وبدون الإيمان بهذه النظرية يبقى الإنسان حبيس نفسه، ولا يتصل إلا

بصوره الذهنية – كما يعبر جورج باركلي – بل يمكن القول بأنه لا يستطيع الإيمان بذاته هو وهذا منتهى الخواء.

وبدونها فكل حديث عما مضى إنما هو حديث بلا معنى كما نتصور. وهذه حقيقة كبرى تصطدم بها الاتجاهات المادية بقوة، ومن هنا جاءت النصوص الإسلامية لتؤكد على (الفطرة) وأن الدين في الحقيقة ينسجم مع (الفطرة) لأنها واقع أصيل والدين مشروع واقعي لاصلاح الإنسان يقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم:٣٠).

وهذه الآية الكريمة تقرر كما يقول الإمام الشهيد الصدر (قدس سره) في كتابه «اقتصادنا» (ص ٣١٢) الحقائق التالية:

أولاً: أن الدين (بكل مافيه من حقوق وتكاليف ومنظورات للعدالة) هو من شؤون الفطرة الإنسانية التي فطر الناس عليها جميعاً لا تبديل لخلق الله.

ثانياً: أن هذا الدين الذي فطرت الإنسانية عليه ليس هو إلا الدين الحنيف الخالص أما أديان الشرك والإيمان بالآلهة الوهمية النسبية، فهي لا يمكن أن تحلّ المشاكل الإنسانية.

يقول سيدنا يوسف لصاحب السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (يوسف:٤٠).

وثالثاً: أن الدين الحنيف الذي فطرت عليه الإنسانية يتميز بكونه ديناً قيماً على الحياة قادراً على التحكم فيها وصياغتها في إطاره العام.



ذلك أن المسألة الاجتماعية المهمة في تاريخ الإنسان هي التعارض الذي ينشأ بين المصالح الفردية (وهي تؤدي لأن يتصور الإنسان لنفسه حقوقاً يسعى للحصول عليها بمقتضى حب ذاته و(المصالح الاجتماعية) التي يطرحها النظام الاجتماعي الذي يعيشه ويفرض عليه (تكاليف) تجاهها باسم (العدالة)، وهذا التعارض بين المصالح الفردية والاجتماعية لم يستطع العلم وحده أن يحلّه، فإن علم الإنسان لن يقف مطلقاً أمام ترجيح مصالحه الشخصية.

ولم تستطع المادية التاريخية عن طريق قوانينها التاريخية أن تقدم الحلّ، أيضاً فيبقى إذاً للدين الحل النهائي لهذا التعارض مع تحقيق العدالة، وذلك من خلال ربطه بين المصالح الذاتية وسبل الخير، إذ يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر: ٤٠)، ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (فصلت: ٤٦).

وهكذا تتلاحم المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية و(الحقوق) و(التكاليف) تلاحماً رائعاً ينفي التعارض.

وهنا يؤكد المرحوم الشهيد الصدر (قدس سره): «فللفطرة الإنسانية إذن جانبان، فهي من ناحية تملي على الإنسان دوافعه الذاتية التي تنبع منها المشكلة الاجتماعية الكبرى في حياة الإنسان (مشكلة التناقض بين تلك الدوافع والمصالح الحقيقية للمجتمع الإنساني) وهي من ناحية أخرى تزود الإنسان بإمكانية حل المشكلة عن طريق الميل الطبيعي إلى التديّن»[١].

(١) اقتصادنا، ص ٣١٠ – ٣١٢، طبعة مشهد.



ونضيف إلى ماسبق أن الإنسان بفطرته يطمح إلى (التغيير) أي تغيير الواقع الذي يعيشه إلى الأفضل باستمرار. فهذا من نوازعه الفطرية التي قد تخمد لديه أحياناً، ولكنها لن تنمحي من صفحة الذات، وهو مجهز بإمكانات التعالي على الواقع والخلاص من ضغوطه وتصور الحالة الأفضل تصوراً إجمالياً - وربما كان تفصيلياً-، ثم العمل على تغيير الواقع إلى الصورة المفروضة. وهي حالة لا يتمتع بها أي مخلوق آخر.

ومن هنا تنشأ عملية التغيير وتطبع الحياة الإنسانية بطابعها الحضاري دون غيره من المخلوقات.

وهكذا يمكن أن نقرر أن العملية الحضارية تحتاج في كل مراحلها إلى الإيمان بالقيم الثابتة، وعلى النحو التالي:

أولاً : في مرحلة إيمان الإنسان بذاته.

ثانياً: في مرحلة العبور إلى خارج الذات.

ثالثاً: في مرحلة صياغة الفكر ووضع التصور عن الحاضر والمستقبل انطلاقاً نحو التغيير إلى الأفضل .

رابعاً: في مرحلة نقل الفكرة إلى الآخرين واستلام أفكارهم .

خامساً: في مرحلة السبر والتقسيم والتمحيص والتداول.

سادساً: في مرحلة الاستنتاج والاقتناع .

سابعاً: في مرحلة التخطيط للتغيير.

وأخيراً : في مرحلة تنفيذ التغيير وتحقيقه.

وخلاصة الأمر: أن هناك تلازماً تاماً بين المسيرة الحضارية الإنسانية التغييرية وعملية الحوار والإيمان بالقيم المشتركة والمطلقة.



القيم المشتركة مطلقة واقتضائية:

إننا وبالتحليل النفسي الوجداني الذي اعتمدناه في مسيرتنا هذه ندرك وجود منظومتين من القيم إحداهما مطلقة التأثير لا تحدها حدود أو ظروف معينة، والأخرى هي قيم الحالة الطبيعية أو (قيم الأصل) ؛ مما يعني تحولها إلى النقيض أو فقدانها التأثير المطلوب إذا طرأت ظروف أخرى.

ومن أمثلة المجموعة الأولى:

قيمة العدالة فهي مطلوبة مهما كانت الظروف.

وكذلك تقديم الشكر للمنعم المتفضل.

ومن أمثلة المنظومة الثانية:

حفظ الذات، حفظ الكرامة، التعاون، الدفاع عن المستضعفين و السلام والأمن، التغيير إلى الأفضل، الرحمة، الإيثار، الأمانة.

فقد يكون الصدق في بعض الأماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلماً لا عدالة، وكذلك السلام أحياناً بما يؤدي إليه من جرأة على حرمات الإنسانية. فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة فإن السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقه إذا عادت وجهاً من وجوه العدالة، ونرفضه إن كان ظلماً، ولكن التساؤل الأساس هو: ماهي معايير العدالة؟ وكيف نتأكد من تحقيقها.

إن الأديان السماوية كلها تؤكد على معيارين:

الأول: معيار تعبدي نستفيد فيه من علم العالم المطلق، وهو الله تعالى، وهو تعليمات الدين الثابتة، والتي نتأكد من كونها صادرة من الله سبحانه؛ ذلك أننا نتأكد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان



المخلوق ومن عدالته وتمتعه بكل صفات الكمال، فهو لا يريد بالإنسان إلا الخير، ولا يخدع الإنسان، وإنما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير.

الثاني: معيار وجداني يكفي فيه التأمل في الأعماق وقناعاتها، أو فلنعبر بأنه يكفي فيه الرجوع إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري هو كون هذه القناعة – أيّة قناعة كانت – من ملازمات الطبيعة الإنسانية، ولذلك نجدها متوفرةً لدى كل أبناء الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وأزمنتهم وأمكنتهم.

ولكي نتأكد من هذا المعنى نستطيع أن نطرح هذا السؤال على أي إنسان: (هل تعتبر أن السلوك الفلاني سلوك إنسانيا جداً، أم سلوك حيواني؟)

فمثلاً لنركز على (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهي والتشهي) مثل هذا السلوك يعد سلوكاً وحشياً من قبل أي إنسان بلا ريب، والقرآن الكريم أحياناً يعيد الإنسان إلى تأمله الوجداني وقناعته الفطرية حينما يقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ (المائدة: ٥)، ويترك أمر تعيين الطيبات له ، ويقول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ (الحشر: ١٩) ويترك أمر تعيين الفواحش له أيضاً ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقاً) وانحرافاً عن الطبيعة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣).

وهكذا ننتهي إلى هذه الحقيقة، وهي: أن الأديان تؤمن بالفطرة الإنسانية، وأن الفطرة تقرر كون العدالة مطلوباً مطلقاً ، وكون السلام مطلوباً إذا شكل مصداقاً من مصاديق العدالة وتجلياً لها، ومن هنا كان التأكيد الدائم على (السلام العادل) تأكيداً إنسانياً صحيحاً.



القيم والمصالح تنظم العلاقة بين أتباع الديانات والثقافات وتبلور النظم الدولية

بعد أن تم عقد اتفاقية (وستفاليا) عام ١٦٤٨ في أوروبا طرح مفهوم النظام العالمي وكان يقوم على مبدأ (توازن القوى) لمدة ٢٥٠ عاماً، وبعد الحرب العالمية الأولى قام نظام (الأمن الجماعي)، وجاءت الحرب العالمية الثانية فأفرزت نظام القطبين والحرب الباردة بينهما.

ولكن قيام المؤسسات الشمولية في العالم الإسلامي في أواخر الستينات كرابطة العالم الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ونجاح الثورة الإسلامية في إيران، وانتشار المطالبة بتطبيق الإسلام في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وتنامي الشكوك تجاه نوايا الغرب تجاه العالم الإسلامي، بحيث أوجد صحوة إسلامية كبرى، وما تبع ذلك من هزيمة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان وبالتالي انهياره تماماً، كل ذلك دفع بعض الدول العظمى كأميركا لتغيير استراتيجياتها للتخطيط لنظام القطب الواحد واعتبار الإسلام هو العدو الأول.

كما دفع بعض المفكرين ليعيدوا النظر في تحليلاتهم الحضارية وأسلوب التعامل بين الحضارات، ودفع كذلك بعض ذوي النظريات المتطرفة إلى العودة إلى نظريات تقسيم العالم إلى متحضر ومتوحش، وبالتالي تطبيق مبدأ قانون الغابة مع سكانها، وعدم التعامل معهم وفق المبادىء الإنسانية وأنه لا معنى للتعامل معهم وفق المبادئ الإنسانية.

وفي مقابل ذلك طرحت نظريات في الجانب الإسلامي تراوحت بين التناقض الكامل بين الإسلام والغرب، والانسجام بينهما ، ومحاولات التوفيق.



وقد أنجزت أعمال تحقيقية لها قيمتها الدراسية في هذا المجال.

وقد كانت المحاولات تنصب على عناصر مهمة في مجال تبيين سبب ظاهرة الصحوة الإسلامية، ومنها محاولة الكاتبة (هنتر) إرجاعها إلى مايلي:

١ـ مسألة انقسام المجتمعات الإسلامية إلى خطوط ثقافية ثورية أو رجعية وصراع هذه الخطوط.

٢ـ مسألة سعي الغرب أو الحكومات الموالية له إلى تهميش العنصر الإسلامي والمظاهر الإسلامية.

٣ـ عمل المفكرين الإسلاميين على الاستفادة الجيدة من ظروف الانفتاح الإنساني وحقوق الإنسان لغرض إثارة الحماس في العالم الإسلامي.

وهم بذلك ينقسمون في مجال التعامل الإسلامي الغربي إلى فريقين:

الأول: من يرون أن مجال التصالح بين الغرب والإسلام مغلق، ونفقه مظلم، لأن السر يكمن في أن الإسلام نفسه يرفض الغرب قيمياً ولا يسمح مطلقاً بالتعايش أو ما يسمونه بالانسجام مع الحداثة أو التغريب. وتسميهم الكاتبة شيرين هانتر بالمستشرقين الجدد[١]، أما نحن فيمكن أن نسميهم بفلاسفة (اليأس الحضاري).

ومن هؤلاء مثلاً مارتن كرامر الذي ينعى على مخالفيه تساهلهم في الأمر، ويسميهم (الاعتذاريين)، ويرى أن عملية الإحياء الإسلامي ستقضي على نفسها في نهاية القرن كما يرى أموس برلموتر في مجال العلاقة بين الإسلام والديمقراطية (أن المسألة ليست الديمقراطية، بل الطبيعة الأصلية للاسلام[٢]).

---

(١) مستقبل الإسلام والغرب صدام حضارات أم تعايش سلمي: ص ٩٦ .

(٢) الواشنطن بوست، ١٩ يناير ١٩٩٢ .



ولا نعدم في عالمنا الإسلامي من يصور العلاقة في ثنائية متنافرة تنافر الإسلام والجاهلية.

الثاني: يرى إمكان التعايش نتيجة حيوية الإسلام وقدرة التجربة الإسلامية على التغير والتكيف، كما يرى أن الانبعاث الإسلامي ناتج لا من قدرات الإسلام الذاتية، بل من الحرمان الاقتصادي والسياسي والاستلاب الاجتماعي أيضاً، وهذا ما يؤكد عليه فرانسوا بورغات كما يرى أيضاً بعداً ثقافياً لهذه الحركة كجهد للاستقلال الثقافي ويقول: (نحن نشهد الوجه الثالث لعملية إزالة الاستعمار. فالوجه الأول كان سياسياً ـ كحركات الاستقلال، والثاني اقتصادياً كتأميم قناة السويس في مصر والنفط في الجزائر أما الوجه الأخير فهو ثقافي[١]).

ويدعو هؤلاء إلى سياسة التعامل بإيجابية وتسميهم الكاتبة شيرين هانتر بالعالم ثالثيين[٢]، وأسميهم بـ (مفكري التوافق)، وهناك كثيرون من المفكرين الإسلاميين ينحون هذا المنحى.

وإذا كنت أنعى على الأولين بعدهم عن فهم طبيعة الإسلام المرنة، وفهم حقيقة الصراع الطويل بين العالم الإسلامي والعالم الغربي بكل ما فيه من مد وجزر، فإني أنكر على اتباع الاتجاه التوافقي الغربي اعتبارهم قيم الحضارة الغربية هي الأصل، ومدى قدرة الإسلام على الانسجام معها هو المعيار في حيوية الإسلام.

فهذا برايان في سلسلة مقالاته عن الموضوع في (الايكونوميست) اللندنية عام١٩٩٤ يبدو توافقياً داعياً الغرب إلى شيء من الانحياز إلى المعنويات

---

(١) Paris: Editions La Decouverte 1995), 107.

(٢) مصدر سابق ص ٩٨، من الترجمة العربية.



وداعياً العالم الإسلامي إلى الإيمان بكل القيم الغربية معتبراً أن العالم الإسلامي يمر اليوم في قرنه الخامس عشر الهجري بنفس الحالة التي كان الغرب يمر بها في قرنه الخامس عشر الميلادي، وكما كان الإسلام العامل الخارجي المؤثر آنذاك لحدوث النهضة، فيجب أن يكون الغرب هو العامل الخارجي المؤثر في نهضة العالم الإسلامي اليوم.

وإذا كان هانتگتن وفوكوياما و برناردلويس يختلفون في تحليلاتهم للصراع من حيث ماهو الواقع والأسلوب الأمثل للمقابلة، فإنهم كغيرهم يتفقون على الهدف وهو انتصار الحضارة الغربية في النهاية، واعتبارها القمة في التمدن الإنساني.

وإذا أراد المفكر الغربي أن يلبس لبوس الواقعية؛ فإنه يحاول أن يدعو الغرب إلى شيء من الأخلاقية إلى جانب دعوته العالم الإسلامي للتنازل عن قيمه الاصيلة كلها تقريباً.

وهكذا نجد الكاتبة شيرين هانتر الغربية تدعو الغرب إلى شيء من التدين، وتدعو العالم الإسلامي إلى العلمانية ليتم حل المشكلة[١].

وكأن الأمر يدور بين حالتين فإما أن يتنازل الإسلام عن قيمه ليرضى الطرفان: اليائسون والتوافقيون، أو يوصف بأنه العدو الحضاري على طول المدى للغرب.

ولنصور هذه الثنائية الحدية بشكل آخر، فإما أن يكون معيار الصراع القيم

---

(١) مصدر سابق.



فلا تلاقي في البين، أو يكون المصلحة فهناك آفاق للتعاون والتعايش.

ولكي أنتقل بالبحث من التعامل الإسلامي الغربي إلى التعامل الإسلامي المسيحي واليهودي في حركة الواقع اليوم ـ وهناك من سحب الواقع الغربي على كل الساحة المسيحية ـ أبدي الملاحظتين التاليتين:

الملاحظة الأولى:

إن هناك خلطاً واضحاً أحياناً بين الإسلام يحكم كونه منظومة قيم، والمسلمين باعتبارهم أمة تعتنق الإسلام، فالواقع التطبيقي للإسلام ولمسيرة الأمة لا يعكس في ظروف ليست قليلة حقيقة القيم الإسلامية في حركتها العملية، فلا يمكن مثلاً اعتبار تصرف حاكم معين مثلاً منطلقاً من الثقافة الإسلامية حتماً، خصوصاً وأن الحكم الإسلامي ابتلي بفترات استبداد وبُعد عن القيم يتبرأ منها المسلمون أنفسهم، كما أن القيم الغربية والسلوك الغربي لا يعني بالضرورة رضاً مسيحياً عنه؛ بل إن محاولات التخلص حتى من النَفَس المسيحي معروفة وهكذا قُل عن التصرف السياسي الصهيوني، فهو لا يعبر بالضرورة عن التعاليم اليهودية الأصيلة؛ وإلا كان علينا أن نبرر كل الفجائع التي ترتكبها إسرائيل أموراً يبررها هذا الدين، وهو ما يخالف الواقع.

إلا أننا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن روح القيم الإسلامية هي التي تحرك التيار العام في العالم الإسلامي؛ حتى لو افترضناه علمانياً، كما أن الروح المسيحية تفعل فعلها وتترك تأثيرها الجذري على مجمل الحياة الغربية، وهكذا تترك اليهودية بصماتها بقوة في التصرفات الإسرائيلية .

ومن هنا نجد الفرق واضحاً في مجال النظرة أو في مجال التعايش في



الغرب عنهما في العالم الإسلامي حتى أن المرء لا يحس بكثير من الفوارق بين المسلم والأرمني الإيراني أو القبطي والمسلم المصري.

وبالتالي نقول: إن الحوار الإسلامي المسيحي اليهودي له تأثيره القوي على العلاقة بين الحضارات.

الملاحظة الثانية:

أننا لا نجد أنفسنا محصورين في الزاوية الضيقة، فإما أن نترك الساحة للقيم المتناقضة فالصدام والصراع، أو نلجأ إلى المصالحة، فتُسحق القيم ويتم التعايش ـ والمفروض أن التنازل عن القيم يعني الاغتراب عن الذات ـ .

إن هذه المعادلة باطلة على صعيد العلاقة الإسلامية الغربية وأكثر بطلاناً على صعيد العلاقة الإسلامية المسيحية– اليهودية.

فهناك الكثير الكثير من نقاط الاشتراك بين الإسلام والغرب يمكنهما أن يتفاهما عليها دون التنازل عن القيم. من أمثال (حقوق الإنسان، والديمقراطية، والسلام، والحرب ضد الارهاب، ومقاومة العنصرية والنازية والفاشية ودعم العدالة ورفض الاستبداد ونشر الحرية وغير ذلك).

وهناك المصالح المشتركة التي تزيد العلاقة قوة.

أما المساحات المشتركة بين الإسلام والمسيحية واليهودية ففيها اتساع ملحوظ.

فهناك تراث قيمي مشترك لا يقدر بثمن؛ فإن الملاحظ للنصوص الإسلامية يجد كماً كبيراً من النقل عن عيسى عليه السلام وأمه الطاهرة وموسى عليه السلام؛ نقلاً يوجه الحياة وينقيها.

وقد تحدثت النصوص الإسلامية في مختلف المصادر عن أمور كثيرة منها:



أ – عظمة عيسى المتجلية يوم القيامة.

ب – زهده ومواعظه الكثيرة.

ح – أدعيته ومناجاته.

د – سيرته بين الناس، وفيها تذكر مكارم أخلاقه وخطبه وكلماته.

هـ – ما أوحى الله سبحانه إليه.

و – درر كلامه وحكمه.

ز – قبسات من الإنجيل[١].

تعامل الرسول الأكرم (مع المسيحيين:

من المسلم به أن رسول الله ﷺ كان يتعامل بمنطق الحوار البناء، واكتشاف المساحة المشتركة والتعاون في توسعتها، عبر طرح مختلف الآراء. وهذا بالضبط ما أراده القرآن الكريم حين قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

ولم يكن يخرج عن هذا الخط مطلقاً، فكان يوصي قادته بمسألة الدعوة قبل أي شيء.

والمستفاد من القرآن الكريم أن لقاء الرسول ﷺ بنصارى نجران في المدينة كان مفصلاً ، وربما دام عدة أيام، وقد أكد الطبري في تفسيره أن أكثر من ثلاثين آية من سورة آل عمران تنظر إلى وقائع هذا اللقاء[٢]. في حين أن ابن

(١) يراجع كتاب (المسيح في الروايات المشتركة بين الشيعة والسنة) بإشراف كاتب المقال.

(٢) جامع البيان للطبري ج٣ ص ٢٢٠ .



اسحق يصل بها إلى أكثر من ثمانين آية من هذه السورة[١] وهذا يعني أن حواراً مفصلاً دام بين المسلمين والمسيحيين الذين ضم وفدهم أكثر من ستين شخصية.

ويستطيع المؤرخ المحقق أن يقطع أنه ﷺ لم يتعامل مع المسيحيين تعاملاً خشنا يؤدي إلى صراع ، وربما كان من أسباب ذلك أن المسيحيين كانوا دائماً ملتزمين بعهودهم ومواثيقهم التي عقدوها مع الرسول الكريم ﷺ.

وهكذا أطنبت النصوص في ذكر موسى عليه السلام، وذكره القرآن الكريم في مواضع كثيرة فكانت قصته أكثر القصص[٢]، ولكن تعامل المسلمين مع اليهود يختلف عنه مع المسيحيين لأن اليهود لم يتقيدوا بالمعاهدات.

على أن هناك تلاقياً بين الأديان الإبراهيمية في مجالات كثيرة منها:

- التركيز على عبادة الله ومحاربة الظلم والطغيان.
- الإيمان بالفطرة الإنسانية المبدعة.
- الإيمان بمنظومة أخلاقية تكاد تكون واحدة.
- الإيمان بحقوق الإنسان.
- الإيمان بقيمة التشكيل العائلي.
- الإيمان بضرورة التكافل الاجتماعي.
- الإيمان بقيمة الحياء والعفة الاجتماعية.
- الإيمان بضرورة خدمة الحضارة الإنسانية.
- الإيمان بمنظومة من العبادات والأدعية والصلوات المزكية للنفس.

---

(١) السيرة النبوية لابن اسحاق ج١ ص ٥٧٦ .

(٢) راجع كتابنا (نظرات في علوم القرآن) ص ٢٥٥ فما بعد.



- الإيمان بمنظومة من الاطعمة والأشربة المحللة
- الإيمان بمنظومة من الطهارات والنجاسات

وغيرها كثير كثير.

وهناك مساهمات حضارية مشتركة. على أن المصلحة وهي في نفسها قيمة دينية تقتضي هذا التعايش؛

إن التعاون في الحرب ضد الفقر والمرض والجهل، والعمل لنفي التعصب، والانهيار الأخلاقي، وإشباع الحاجات المعنوية ومقاومة المخططات الشيطانية لتقويض الكيان العائلي والتشكيك في القيم الدينية، ومقاومة الإرهاب بشتى أنواعه، ومنه الإرهاب الرسمي، ورفض أدعياء الدين الذين يخلقون الحروب لمصالحهم الشخصية والفئوية والحزبية، ويتسترون بالدين، ورفض الاستكبار والحروب المدمرة والاعتداء على الآخرين وكذلك رفض أساليب القتل الجماعي بالأسلحة المدمرة إلى ما هناك من مجالات وربما كان من أهمها محاربة المادية وملء الفراغ المعنوي والأخلاقي، وغيرها كلها مصالح تدعو الطرفين للتعاون البناء.

ولايفوتني في الختام أن أنوه بكتاب صدر مؤخراً لأستاذ أمريكي هو ريتشارد بوليت بعنوان (دفاعاً عن مقولة الحضارة الإسلامية المسيحية) طارحاً هذه المقولة في قبال مقولة (صدام الحضارات) مركزاً على المساهمات المشتركة بين الحضارتين في المسيرة البشرية العامة؛ موضحاً أن الفارق الزمني بين بدئهما، والنزاعات المستمرة بينهما لايشكلان مانعاً من تلاحمهما الحضاري، وحتى فارق التطور المادي بينهما ما بين ١٦٠٠ - ١٩٠٠م يتعادل



بتقدم العالم الإسلامي بشرياً بنسبة ٥٠٪ في قبال ٢٠٪ ليخلص إلى النتيجة التالية فيقول: «أما إذا نظرنا إليهما كونها وحدة واحدة ومن ضمن إطار تاريخي، فإن العالم الإسلامي المسيحي لديه ما يجمعه أكثر مما يفرقه - فماضي الغرب ومستقبله لايمكن فهمهما بشكل كامل دون تقدير العلاقة التوأمية التي ربطته بالإسلام طوال أربعة عشر قرناً. والملاحظة نفسها تنطبق على العالم الإسلامي.

إن مسألة الحضارة الإسلامية - المسيحية كونها مبدأ تنظيمياً هو بالنسبة إلى الفكر المعاصر مسألة متجذرة في الحقيقة التاريخية على مر هذه القرون. وقد يتمنى الواحد منا أن يرى مؤرخو الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية قيمة تعديل نظراتهم كي يأخذوا هذه الحقيقة بالحسبان... أن الحضارة الإسلامية المسيحية هي مفهوم نحتاجه بشدة إذا كنا سنحوّل يوماً تراجيدياً مشهوداً[١] إلى لحظة تاريخية للاستيعاب والتكامل الاجتماعي والديني»[٢].

ويقول عنه الأستاذ محمود حداد مترجمه مايلي: (ولم يتفق الجميع مع أطروحة هانتنغتن بل خرج كثير من المثقفين عن هذا الخط الفكري معلنين ضرورة حوار الديانات والحضارات وضرورة التعايش؛ لا التقاتل في ما بينها؛ إلا أن الكتاب... يقول: إن الإسلام والمسيحية شكل حضارة واحدة من الناحية الاجتماعية»[٣]. والكتاب رغم بعض النقاط التي نخالفه فيها جدير بالمطالعة.

---

(١) يقصد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.
(٢) الكتاب المذكور ص ٥٥ - ٥٦ .
(٣) نفس المصدر، ص ١٠ .

استثمار مقاصد الشريعة في الحوار مع الآخر

د. هشام بن سعيد أزهر
الأستاذ المساعد
في جامعة الملك عبد العزيز



المقدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإن علم مقاصد الشريعة الإسلامية يزخر بكثير من القواعد والأسس المقاصدية، التي من شأنها أن تضبط عملية «لحوار مع الآخر» ، وتوجهها وجهة مصلحية صائبة .

ولسلوك هذا المنحى الجديد، لابد من التتبع والاستقراء في كتب علم المقاصد وعلم السياسة الشرعية؛ من أجل جمع المنثور وكشف المستور من الكليات والجزئيات المقاصدية، ذات العلاقة بهذا الموضوع، وهذا ما حاولته في هذا البحث .

وغرضي من ذلك فتح الباب للاستفادة من مقاصد الشريعة، والاستنجاد بها. وتفعيلها في «الحوار مع الآخر» ، وقد ارتأيت أن أقسم البحث إلى الآتي:

- **المقدمة : وهي التي بين يدي القارئ:**
- **تمهيد : وفيه :**
- **أولاً : مفهوم الحوار وأنواعه.**
- **ثانياً : أهمية مقاصد الشريعة في الحوار مع الآخر .**
- **ثالثاً : مقاصد الحوار مع الآخر .**



- **المبحث الأول** : استثمار المقاصد العامة في الحوار مع الآخر، وفيه المطالب الآتية:

- المطلب الأول : مقصد العدل وأثره في الحوار مع الآخر .
- المطلب الثاني : مقصد التغيير والتقرير وأثره في الحوار مع الآخر .
- المطلب الثالث : مقصد السماحة واليسر وأثره في الحوار مع الآخر.
- المطلب الرابع : مقصد تجنب التفريع قبل التشريع وأثره في الحوار مع الآخر .
- المطلب الخامس : مقصد التدرج وأثره في الحوار مع الآخر .
- المطلب السادس :مقصد التبشير ومنع التنفير من الدين وأثره في الحوار مع الآخر .

- **المبحث الثاني** : استثمار قواعد المقاصد في الحوار مع الآخر، وفيه المطالب الآتية:

- المطلب الأول : قاعدة «اعتبار المآلات» وأثرها في الحوار مع الآخر .
- المطلب الثاني : قاعدة «مراعاة فقه الموازنات» وأثرها في الحوار مع الآخر .
- المطلب الثالث : قاعدة «مراعاة فقه الأولويات» وأثرها في الحوار مع الآخر .

- **المبحث الثالث** : استثمار مقاصد الشريعة الخاصة والجزئية في الحوار مع الآخر، وفيه المطالب الآتية :



- المطلب الأول : دفع شبهة تعدد الزوجات بالمقاصد الخاصة والجزئية (أنموذجاً).
- المطلب الثاني : دفع شبهة قطع يد السارق بالمقاصد الخاصة أو الجزئية (أنموذجاً).
- المطلب الثالث : دفع شبهة جعل حصة المرأة على النصف من حصة الرجل بالمقاصد الخاصة أو الجزئية (أنموذجاً) .

- **الخـــاتمـــة** : وفيها أهم نتائج البحث .

وأخيراً ، أرجو أن أكون قد وفقت في وضع اللبنة الأولى في سلك هذا المنحى الجديد، والذي يهدف إلى تأصيل فقه الحوار مع الآخر.

وبالله التوفيق .

تمهيد

أولاً : مفهوم الحوار وأنواعه :

أ - تعريف الحوار :

- الحوار في اللغة :

الحوار مأخوذ من «الحور» ، ومن معانيه : الرجوع والنقصان ، قال ابن فارس : « الحاء والواو والراء ثلاثة أصول : أحدها : لون ، والآخر : الرجوع , والثالث : أن يدور الشيء دوراً ....، والعرب تقول : « الباطل في الحور» أي رجع ونقص، وكل نقص ورجوع حور ...، والحور مصدر حار حوراً : رجع، ويقال : «نعوذ بالله من الحور بعد الكور»، وهو النقصان بعد الزيادة[١].

فالحوار هو المراجعة في الكلام . قال القرطبي: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ (المجادلة: ١) تحاورك أي تراجعك الكلام[٢].

والحوار هو الجواب، والمحاورة المجاوبة، يقول ابن منظور : «كلمته فما رجع إلي حوارا وحورا ، ومحاورة، وحويراً ، ومحورة : أي جواباً»[٣].

ويقول الزبيدي : «المحاورة : المجاوبة، ومراجعة النطق والكلام في المخاطبة، وتحاوروا :تراجعوا في الكلام بينهم»[٤] .

---

(١) ابن فارس ،معجم مقاييس اللغة : مادة (حور) :

(٢) القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن : ١٧/ ٢٧٢ .

(٣) ابن منظور ،لسان العرب : مادة (حور) : ٤/ ٢١٨ .

(٤) الزبيدي ،تاج العروس : مادة (حور) : ٣/ ١٦٢ .



- **الحوار في الاصطلاح :**

المعنى الاصطلاحي للحوار لا يكاد يختلف عن معناه اللغوي ، فبالنظر إلى تعريفاته الاصطلاحية المتعددة، نجد أنها تصب في معنى يفيد أن الحوار عبارة عن : «حديث بين طرفين فأكثر اختلفت نظرتهما حول موضوع محدد، يقصدان به معرفة الحقيقة، أو التوصل إلى اتفاق»(١).

ب - أنواع الحوار :

يجد الناظر في أقسام الحوار تداخلاً بين أنواعه وأساليبه ، فهناك من يصنف أنواعه على أساس الشكل ، وهناك من يصنفه على أساس المضمون، وهناك من يصنفه باعتبار الأشخاص المشاركين فيه ، فكثرت بذلك أنواع الحوار .

ووجدت أحسن تقسيم للحوار ، تقسيمه إلى قسمين :

١ - الحوار مع الذات :

ومن أشكاله :

أ - اللوم والمعاتبة للذات : حيث يدخل الإنسان في حوار مع نفسه بعد الإقدام أو عندما يريد الإقدام على عمل معين في جانب الخير : لم لم تستكثر منه؟ أو جانب الشر : لم فعلته؟ .

ب - التفكير والتأمل والتدبر : فالإنسان إذا أراد أن يصل إلى الحقيقة في أمر ما ليتخذ قرارا صحيحاً ، فإنه بحاجة لتقليب نظره بعرض الحجج والبراهين، أو بالموازنة ما بين الإيجابيات والسلبيات المتعلقة بذلك الأمر،

---

(١) مطيع الله الحربي ،بحث بعنوان :(الحوار والتعايش الإنساني في ضوء الخطاب الإنساني) قدم في مؤتمر مكة المكرمة الخامس الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي ١٤٢٥هـ : ٤٧٠ .



فيدخل بذلك في حوار مع نفسه حتى يصل إلى مراده .

ج- الحوار الداخلي : وهو الحوار الذي يدور بين أهل البيت الواحد أو الأمة الواحدة الذين يتفقون في المنهج ويلتقون في المصير المشترك .

ويدخل في ذلك :

- الحوار بين الفرق والمذاهب الإسلامية .
- حوار أصحاب التوجهات المختلفة من أبناء الشعب الواحد .
- حوار الشعوب مع القادة والحكام .

٢- الحوار مع الآخر : وهو ما يقصد به الحوار مع غير المسلمين ،ويعبر عنه بالحوار بين الأديان ، وحوار الحضارات والثقافات ...، وهذا النوع هو مدار حديثنا في هذا البحث .

ثانياً : أهمية مقاصد الشريعة في الحوار مع الآخر :

من المعلوم - ضرورة - أن لعلم مقاصد الشريعة بالغ الأهمية والأثر في توجيه الفتاوى الفقهية :

- فبمعرفة المقاصد تعرف المصالح التي قصدها الشارع من تكليف العباد بالأحكام.
- وبمعرفة المقاصد يكون فهم نصوص الشريعة وتفسيرها ومعرفة دلالاتها[١].
- ويستعان بالمقاصد في استنباط علل الأحكام الشرعية لتتخذ أساسا للقياس[٢].

---

(١) ابن عاشور ،مقاصد الشريعة الإسلامية : ٤٠ .

(٢) سميح الجندي ،أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية : ١٠٩ .



- ويستعان بالمقاصد في الترجيح بين النصوص والأدلة المتعارضة أو التوفيق بينها(١).

- وبالمقاصد تعرف أحكام الوقائع التي لا نص فيها ولا نظير لها يقاس عليه(٢).

إن ما ذكر يؤيد أن الدين الإسلامي الذي ضم هذه القواعد والمقاصد صالح لكل زمان ومكان ؛ حيث إن قواعده قادرة على إيجاد الأحكام التي تحقق التفاعل مع مختلف البيئات والظروف والأطوار(٣).

وإذا كان للمقاصد هذه الأهمية في المجال الفقهي التشريعي ,فإن لها في المجال الدعوي الحواري النصيب الوافر من الأهمية ؛ لا سيما في عصرنا الحاضر .

إن " حاجة الدعاة إلى معرفة مقاصد ما يدعون إليه .. مما يقتضيه قوله تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف : ١٠٨).

فأول ما يدخل في «الدعوة على بصيرة» هو أن يكون الداعي بصيراً بما يدعو إليه ،ولا يكون بصيراً بما يدعو إليه إلا بقدر ما يعرف من مقاصده ومراميه. وفي قوله عز و جل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل : ١٢٥) ما يقتضي الإحاطة بمقاصد ما ندعو إليه، ومعرفة مواضعه ومراتبه، وما يجوز تأخيره وما لا يجوز ، وما يمكن التسامح فيه حتى حين، وما لا يمكن ... وهذا كله يستفاد من معرفة

(١) ابن عاشور ،مقاصد الشريعة الإسلامية : ابن بيه ،علاقة مقاصد الشريعة بأصول الفقه : ١٠٨ .
(٢) ابن عاشور ،مقاصد الشريعة الإسلامية : ٤٠ .
(٣) ابن ربيعة ،علم مقاصد الشارع : ٣٨ ،الخادمي ،الاجتهاد المقاصدي : ١/ ٥٩ .



مقاصد الشريعة والتمييز بينها وبين ما هو من قبيل الوسائل، والتمييز بين ما هو ضروري، وما هو حاجي، وما هو تحسيني من تلك المقاصد.

كما أننا اليوم - في ظل التحديات الفكرية والثقافية والإعلامية التي تواجهنا وتحاصرنا - أصبحنا أكثر اضطراراً إلى أن نعرض للناس ونشرح لهم مقاصد شريعتنا ومحاسن ديننا . فهذا هو الكفيل بإنصاف ديننا المفترى عليه، وإبرازه بما هو عليه وما هو أهله، وهو الكفيل بدفع الشبهات ورفع الإشكالات وإقامة الحجة كاملة ناصعة، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة»(١).

ثالثاً : مقاصد الحوار مع الآخر :

إن المقصد الرئيسي من الحوار مع الآخر هو «حفظ الدين» والذي يعد أهم المقاصد الضرورية التي جاءت الشريعة الإسلامية من أجل المحافظة عليها .

يقول إمام الحرمين : «فأما القول في أصل الدين ، فينقسم إلى: حفظ الدين بأقصى الوسع على المؤمنين، ودفع شبهات الزائغين ... وإلى دعاء الجاحدين والكافرين ، إلى التزام الحق المبين»(٢).

ولتحقيق هذا المقصد تتفرع مقاصد ، كمقاصد خادمة لمقصد «حفظ الدين» ، وتتمثل في الآتي :

١- تبليغ دعوة الإسلام والتعريف بها، قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ

(١) الريسوني ، مدخل إلى مقاصد الشريعة : ١٨ .
(٢) الجويني ،الغياثي : ١٨٤ .



ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(النحل : ١٢٥) .

٢- تأليف نفس المحاور (المدعو) : قال عز من قائل : ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت :٤٦) فإن الرفق في الموعظة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ .

وبالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح .. يطمئن (المدعو) إلى الداعي، ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهي لا تنزل عن الرأي إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة»(١).

٣- التصدي للباطل، فأهل الباطل لا يكفون عن الجدال بغير حق ، قال تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً﴾ (الكهف : ٥٦) وإذا خلت الأجواء لهم قوي باطلهم ، فيصير الحوار معهم أمراً محتماً .

٤- إقامة الحجة، قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(النساء: ١٦٥). والدعاة يقومون مقام الأنبياء في إقامة الحجة على الناس .

٥- الامتثال لأمر الله وطاعته ، وإبراء الذمة، قال سبحانه : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن : ٤/ ٢٢٠٢ .



إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(الأعراف : ١٦٤).

المبحث الأول : استثمار مقاصد الشريعة العامة في الحوار مع الآخر:

ثبت - قطعاً - أن المقصد الأعلى في التشريع الإسلامي هو " جلب المصالح ودرء المفاسد " ، فقد تضافرت وتواترت على ذلك الأدلة والنصوص الشرعية[١].

وفي ضوء هذا المقصد الأعلى تتفرع المقاصد بأقسامها ومراتبها ، ومن أقسامها : تقسيم المقاصد إلى : مقاصد عامة، ومقاصد خاصة .

فالمقاصد العامة هي: «المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمه، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغايتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها ، ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها»[٢].

فهذه هي المقاصد العامة[٣]، حيث نلحظ أن نطاقها لا يقتصر على نوع معين من الأحكام الشرعية، بل يشمل أو يكاد سائر الأحكام .

وإن المتأمل يجد أن المقاصد العامة يمتد ظلها إلى أبعد من ذلك ؛ فكما تجنى ثمرة المقاصد العامة في الوصول إلى معرفة الأحكام الفقهية ، فإنه من الجدير الاستفادة منها - كذلك - في وضع منهجية مصلحية في الحوار مع

---

(١) ابن عاشور ،مقاصد الشريعة الإسلامية : ٢٠٢ ، اليوبي ،مقاصد الشريعة : ٣٩١ .

(٢) ابن عاشور ،مقاصد الشريعة الإسلامية : ١٨٣ .

(٣) وسيأتي الكلام عن المقاصد الخاصة لاحقاً .



الآخر . وهذا ما سوف نلمسه في صفحات هذا البحث .

ولقد درج علماء المقاصد على جعل المقاصد العامة تتمثل في : حفظ الضروريات الخمس (الدين، النفس، المال، العقل، النسل) ، والحاجيات، والتحسينيات . غير أن هذا لا يعني حصرها فيما ذكر ؛ فهناك العديد من المقاصد يمكن أن ينطبق عليها تعريف ابن عاشور السالف الذكر، كمقصد العدل، ومقصد التسامح، ومقصد الحرية وغيرها من المقاصد التي تعد مقاصد عامة في حد ذاتها «لا تختص ملاحظتها في نوع خاص من أحكام الشريعة» .

ومن الأهمية الاستنجاد بهذه المقاصد العامة في حوارنا مع الآخر، كي يكون حوارنا أكثر رقيا، وأجدى نفعاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(الأعراف : ١٦٤) .



المطلب الأول : مقصد العدل وأثره في الحوار مع الآخر :

أكدت الشريعة الإسلامية الغراء على العدل المطلق ,مع الصديق والعدو، ومع القريب والبعيد .. ، قال عز وجل : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الأنعام : ١٥٢)وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة : ٨).

وكما أن النصوص العامة التي تكشف عن مقصد العدل كثيرة ، فكذا النصوص الخاصة بالأحكام الفرعية، ومن ذلك :

- الأمر بالعدل بين الزوجات، قال تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾(النساء : ٣).

- الأمر بالعدل بين الأبناء : قال عليه الصلاة والسلام : «اتقوا الله، واعدلوا بين أبنائكم»[١].

- الأمر بالعدل في الحكم والقضاء : قال عز وجل :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾(النساء : ٥٨) إن مما ذكر وغيره

---

(١) رواه البخاري،كتاب الهبة،حديث رقم : (٢٣٩٨) ، ورواه مسلم ، كتاب الهبات،حديث رقم : (٣٠٥٥) .

يتبين أن العدل مقصد يتسم بالعموم، حرص الإسلام على تحقيقه في جميع مناحي الحياة.

وفي حوارنا مع الآخر ينبغي - وإن كنا نعتقد جازمين أن شريعتنا هي شريعة الحق - أن يتسم حوارنا بالعدل والإنصاف، فلابد من :

- الإقرار بما هو خطأ في التصرف أو السلوك قد يكون وقع فيه أبناء الإسلام (والإسلام منه بريء) .

إن تبرير هذه الأخطاء بغير وجه حق سيؤدي إلى نتائج سلبية في حوارنا مع غيرنا، ويزعزع ثقة الطرف الآخر في مصداقيتنا ، وإن استنكارها لا يطعن في إسلامنا، بل يظهر عدالته ورفعته .

- ولا بد من إنصاف الطرف الآخر - كذلك - بإقرار صوابه ,إذ ليس من العدل إهمال محاسنه ، وليس من الإنصاف الاستخفاف بما معه من حكمة وحق .

- ولابد من إعطاء الطرف الآخر حقه في الحوار في التعبير عن رأيه بكل حرية، وبدون أي ضغوط أو معوقات قد تؤثر في بيان حقيقة وجهة نظره .

إن العدالة في الشريعة الإسلامية كان لها أبلغ الأثر في احترام الناس للإسلام، وانجذابهم إليه ، واعتناقهم إياه، والتاريخ شاهد على ذلك .

المطلب الثاني : مقصد التغيير والتقرير وأثره في الحوار مع الآخر:

إن مما يرمي إليه التشريع الإسلامي منذ نزوله هو تغيير أحوال الناس الفاسدة، وتقرير أحوالهم الصالحة على حد سواء . وقد كشف عن هذا المقصد الإمام ابن عاشور - رحمه الله - حيث وضع هذا المقصد من ضمن



المقاصد العامة، وعنون مبحثه : (مقصد الشريعة من التشريع تغيير وتقرير) ، وقال : " قد يستكن في معتقد كثير من العلماء قبل الفحص والتغوص في تصرفات التشريع أن الشريعة إنما جاءت لتغيير أحوال الناس . والتحقيق أن للتشريع مقامين:

المقام الأول : تغيير الأحوال الفاسدة وإعلان فسادها . وهذا المقام هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾(البقرة : ٢٥٧)وقوله : ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة : ١٦).

المقام الثاني : تقرير أحوال صالحة قد اتبعها الناس . وهي الأحوال المعبر عنها بالمعروف في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾(الأعراف : ١٥٧).

وأكثر ما يحتاج إليه في مقام التقرير هو حكم الإباحة لإبطال غلو المتغالين بحملهم عل مستوى السواد الأعظم من البشر الصالح كما قال الله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾(الأعراف : ١٥٧).

ويحتاج أيضا فيه إلى دفع ما يعلق بالأوهام من العوارض يخيل إليهم أن الصالحات مفاسد لصدورها من المتلبس بالفساد . فقد سأل حكيم بن حزام رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت أعمالاً كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة وعتق وصلة رحم ، فهل فيها أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أسلمت على ما سلف من خير "[١]....

---

(١) رواه البخاري ،كتاب الزكاة ،حديث رقم : (١٣٤٦) .



وقد قرر الإسلام من أنكحة الجاهلية النكاح المعروف ، وأبطل البغاء والاستبضاع والسفاح ...

ومن رحمة الشريعة أنها أبقت للأمم معتادها وأحوالها الخاصة إذا لم يكن فيها استرسال على فساد " (١) .

إن هذا المقصد لاسيما من جانبه التقريري ، من شأنه أن يضيق فجوة الاختلاف مع الطرف الآخر، ويفتح باباً للتقارب في وجهات النظر، من خلال التقليل من عناصر الخلاف، فتتشكل إلى حد ما أرضية مشتركة تسهم في سلك طريق للوفاق أو ربما الاتفاق.

المطلب الثالث : مقصد السماحة واليسر وأثره في الحوار مع الآخر :

إن النصوص الشرعية التي دلت على هذا المقصد بلغت مبلغ التواتر، سواء من الكتاب أو السنة . فمن الكتاب الكريم قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة : ١٥٨) وقوله عز وجل : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾(المائدة : ٦).

ومن السنة المطهرة : قوله صلى الله عليه وسلم : " أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة " (٢)، وقوله عليه الصلاة والسلام: " إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين " (٣)، وقوله عليه الصلاة والسلام : " رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى " (٤).

(١) ابن عاشور ،مقاصد الشريعة الإسلامية : ٢٩٧- ٣٠٤

(٢) رواه البخاري،باب الدين يسر .

(٣) رواه البخاري ،كتاب الوضوء ،حديث رقم :(٢١٣) .

(٤) رواه البخاري ،كتاب البيوع ،حديث رقم : (١٩٣٤) .

يقول الإمام الشاطبي : " إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع "(١)، فاستقراء الشريعة دل على أن السماحة واليسر مقصد من أكبر مقاصد الدين(٢). وأثره في الأحكام الشرعية بيِّن واضح .

" إن حكمة السماحة في الشريعة أن الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة . وأمور الفطرة راجعة إلى الجبلة ، فهي كامنة في النفوس سهل عليها قبولها . ومن الفطرة النفور من الشدة والإعنات "(٣).

وإذا كانت السماحة تعني : " سهولة المعاملة في اعتدال، فهي وسط بين التضييق والتساهل . وهي راجعة إلى معنى الاعتدال، والعدل، والتوسط "(٤) ، فنحن أحوج ما يكون إليها في حوارنا مع الآخر.

وبذلك أمر الله تبارك وتعالى موسى وهارون عليهما السلام عند دعوتهم فرعون، قال تعالى: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(طه : ٤٤).

وقال سبحانه لنبينا الكريم عليه الصلاة والسلام : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(آل عمران : ٤٤).

ولما نهج المسلمون عبر التاريخ هذا النهج في حوارهم مع الآخر " ، ظهر للسماحة أثر عظيم في انتشار الشريعة ودوامها "(٥).

---

(١) الشاطبي ،الموافقات : ١/ ٣٤٠ .

(٢) ابن عاشور ،مقاصد الشريعة الإسلامية : ١٩١ .

(٣) المرجع السابق : ١٩٢-١٩٣ .

(٤) المرجع السابق : ١٨٨ .

(٥) ابن عاشور ،مقاصد الشريعة الإسلامية : ١٩٣ .



المطلب الرابع : مقصد تجنب التفريع وقت التشريع وأثره في الحوار مع الآخر :

هذا مقصد نفيس، كشف النقاب عنه ابن عاشور – رحمه الله – ينبغي التفطن إليه في حوارنا مع الآخر.

فباستقراء تفريعات التشريع في زمن النبي عليه أزكى الصلاة والسلام ، يجد المتتبع أن معظمها في أحكام العبادات ؛ لأنها مبنية على مقاصد قارة ، لا حرج من دوامها ولزومها للأمم والعصور إلا في أحوال نادرة تدخل تحت حكم الرخصة .

أما المعاملات فهي مسوقة غالبا في النصوص الشرعية بصفة كلية ؛ لوجود الحاجة إلى اختلاف تفاريعها باختلاف الأحوال والعصور(١).

كما أن المتلقي ، حديث الإسلام ، أو من يرجى إسلامه ، لم يكن ليتقبل أحكام الشريعة بتفصيلاتها وتفريعاتها ، فالدين عميق أو متين ،كما أخبر بذلك نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله : " إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق "(٢) .

وشواهد هذا المقصد في النصوص الشرعية كثيرة ،منها قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(المائدة : ١٠١) ،

---

(١) ابن عاشور ،مقاصد الشريعة الإسلامية : ٣٨٩ .

(٢) رواه أحمد ،في باقي مسند المكثرين،حديث رقم : (١٢٥٧٩) .



وقوله عليه الصلاة والسلام : "أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته"(١). وقوله " : إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها"(٢) .

وإذا كان الشارع لم يرغب في التوسع في التفريعات والتفصيلات في زمن التشريع، فإن الحال في "الحوار مع الآخر" لاسيما في زمننا الحاضر كذلك لا يختلف، فدخول المدعو في جزئيات غير مجد ؛ لأن من شأن ذلك أن يفتح عليه تساؤلات عديدة لا يكون مهيئاً لفهم إجاباتها ، ما لم يكن لديه القناعة الكافية بالثوابت والأصول .

المطلب الخامس : مقصد التدرج وأثره في الحوار مع الآخر :

من الأسس التي قام عليها التشريع الإسلامي في عهده الأول ، أن جعل أحكامه تتشكل بالتدرج ، فقد جاء الإسلام والعرب في إباحة مطلقة، يكرهون كل ما يقيد حريتهم ويحد من شهواتهم ،وقد تمكنت من نفوسهم عادات وغرائز متنوعة لا يستطيعون التحول عنها مباشرة، فاقتضت الحكمة الإلهية ألا يفاجؤوا بالأحكام جملة واحدة فتثقل بها كواهلهم ، وتنفر منها نفوسهم ، فلذلك نزل القرآن الكريم منجماً ، ووردت الأحكام التكليفية شيئاً

---

(١) رواه البخاري ،كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، حديث رقم : (٦٧٤٥) ،ورواه مسلم، كتاب الفضائل ،حديث رقم : (٤٣٤٩) .

(٢) رواه الدار قطني ، كتاب الرضاع ، ورواه الحاكم :٤/ ١١٥ .

فشيئاً، ليكون السابق من الأحكام معداً للنفوس ، ومهيأ لقبول اللاحق، وكان أغلب هذه الأحكام ينزل بعد أسباب تقتضيه، فيكون أوقع في النفس وأقرب إلى الانقياد (١).

يقول الإمام العزبن عبد السلام: " ولفضل الإيمان تأخرت الواجبات عن ابتداء الإسلام ترغيبا فيه ، فإنها لو وجبت في الابتداء لنفروا من الإيمان لثقل تكاليفه " (٢).

وشواهد ما ذكرناه عديدة ، منها : تدرج الإسلام في تحريم الخمر، التي تمكنت من نفوس العرب ، فاقتضت الحكمة الإلهية تحريمها على مراحل، فكان بادئ ذي بدء قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾(البقرة : ٢١٩) ففهم من هذا أن الخمر لها من الآثام ما يفوق منافعها ، فينبغي تركها وإن لم تحرم. ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(النساء : ٤٣)، فحرم شرب الخمر تحريما جزئيا أو مؤقتا ، ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة : ٩٠)، فحرمت الخمر بذلك تحريماً عاماً .

وتفصح عن هذا الأمر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: " إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس

---

(١) السايس ، تاريخ الفقه الإسلامي : ٣٢- ٣٣ .

(٢) العز بن عبد السلام ، قواعد الأحكام : ١/ ٩٣ .



إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل : لا تزنوا، لقالوا : لا ندع الزنا "(١).

ولكن ما هي الثمرة المرجوة من هذا المقصد في وقتنا الحاضر وقد اكتمل التشريع؟

يجيب عن هذا السؤال العلامة الدكتور يوسف القرضاوي ، فيقول: "عند تجدد ظروف مماثلة لظروف قيام المجتمع الأول أو قريبة منها ، نستطيع الأخذ بهذه السنة الإلهية" سنة التدرج "إلى أن يأتي الأوان المناسب للحسم والقطع، وهو تدرج في "التنفيذ" وليس تدرجاً في "التشريع" فإن التشريع قد تم واكتمل باكتمال الدين ، وإتمام النعمة وانقطاع الوحي ... وهذه السنة الإلهية في رعاية التدرج ينبغي أن تتبع في سياسة الناس ، عندما يراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة اليوم ، بعد عصر الغزو الثقافي والتشريعي والاجتماعي للحياة الإسلامية "(٢) .

وفي حوارنا مع الآخر (غير المسلم) يتأكد التمسك بهذه السنة الإلهية، فالظروف الحياتية التي عاشها تكاد تماثل في جوانب كثيرة ، تلك الظروف التي سبقت زمن تنزل الشريعة الإسلامية ، فليأخذ حظه إذاً من هذا "التدرج التنفيذي" .

وتطبيق هذا قد حصل بالفعل في زمن الرسالة ، فعندما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن قال له : " إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، حديث رقم : (٤٦٠٩) .
(٢) القرضاوي، السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها : ٣٠٥ .



وليلة ،فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم ،واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب "(١).

المطلب السادس : مقصد التبشير ومنع التنفير من الدين وأثره في الحوار مع الآخر :

وهو مقصد من الممكن أن نقول عنه إنه منبثق من مقصد السماحة والتيسير، وقد ثبت هذا المقصد بأدلة صريحة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : " بشروا ولا تنفروا "(٢)، وآثاره بيّنة في كافة أحكام الشريعة .

ومن تلك الآثار : كراهة الغلو في الأعمال الصالحة بشكل يؤدي بالمرء إلى الملل ،قال عليه الصلاة والسلام : " عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا "(٣) ، ومن ذلك : النهي من الإطالة في صلاة الجماعة : "أيها الناس إنكم منفرون فمن صلى بالناس فليخفف فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة "(٤) ، وفيما يتعلق بالزكاة ،قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل: "وإياك وكرائم أموالهم "(٥).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة ،حديث رقم : (١٤٠١) ، ورواه مسلم : كتاب الإيمان ، حديث رقم : (٢٧) .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم : (٣٢٦٢)

(٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، حديث رقم : (١٠٨٣) ورواه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم : (١٣٠٢) واللفظ لمسلم .

(٤) رواه البخاري، كتاب العلم، حديث رقم : (٨٨) ، ورواه مسلم : كتاب الصلاة ،حديث رقم : (٧١٣).

(٥) سبق تخريجه ص:١٩



ويربط الشيخ عبد الله بن بيه – حفظه الله – هذا المقصد بمقصد ضروري وهو حفظ الدين ، إذ يقول : " المقصد الشرعي : التيسير والتبشير . والمحافظة على الدين مقصد أعلى ، وهو عدم التنفير "(١).

وهذا من أهم المقاصد التي ينبغي أن تؤخذ في حسبان الداعية في حواره مع الآخر، ولابد أن يخرج المدعو من عملية الحوار– على الأقل– بانطباع حسن عن الإسلام . فحسن سمعة الدين لدى الناس سيظل رصيداً يستفاد منه ، إن لم يكن في الحاضر ففي المستقبل .

لذلك على المحاور الداعية أن يتجنب ما قد يتسبب في نفور الطرف الآخر وإن كان حقاً، فقد أبى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام أن يقتل المنافقين خشية أن يقول الناس: إن محمداً يقتل أصحابه ، فينفّر ذلك الناس من الدخول في الإسلام ، ولم يهم عليه الصلاة والسلام بهدم الكعبة ليبنيها على قواعد إبراهيم عليه السلام لحداثة دخول كثير من قريش في الإسلام ، مما قد ينفّرهم من الدين .

---

(١) ابن بيه ، علاقة مقاصد الشريعة بأصول الفقه : ١٥٦ .



المبحث الثاني : استثمار قواعد المقاصد في الحوار مع الآخر :

المقصود بالقاعدة المقاصدية هو " قضية كلية تعبر عن إرادة الشارع وحكمته من تشريع الأحكام ، و تستفاد عن طريق الاستقراء للأحكام الشرعية "(١) .

وهذه القواعد المقاصدية تتسم بأنها قواعد كلية " فهي من الكلية والاتساع بحيث تشمل جميع الأبواب والأشخاص والأحوال والأزمان "(٢) .

وما مر معنا من مقاصد عامة – في واقع الأمر– جزء لا يتجزأ من القواعد المقاصدية من جهة أن المقاصد العامة تتسم بالكلية ، وأنها ثابتة بالاستقراء والتتبع ، غير أن أهمية القواعد المقاصدية تكمن في كونها تضبط علم المقاصد الشرعية .

وإذا كان هذا هو شأن قواعد المقاصد فمن الأهمية بمكان الاستفادة منها في ضبط عملية الحوار مع الآخر . وهذا ما سنلقي الضوء عليه في المطالب الآتية.

المطلب الأول : قاعدة " اعتبار المآلات " وأثرها في الحوار مع الآخر :

يقول الإمام الشاطبي: " النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً ، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة "(٣) " فالمجتهد حين يجتهد ويحكم ويفتي عليه أن يقدر مآلات الأفعال التي هي محل حكمه وإفتائه، وأن يقدر عواقب حكمه وفتواه ، وألا يعتبر أن مهمته تنحصر في إعطاء الحكم الشرعي؛ بل مهمته أن يحكم في الفعل، وهو يستحضر مآله أو مآلاته،وأن يصدر الحكم

---

(١) شبير ، القواعد الكلية : ٣١ ، أزهر ، مقاصد الشريعة عند إمام الحرمين (رسالة دكتوراه) : ٢٢٥ .
(٢) الكيلاني ، قواعد المقاصد : ٥٧ .
(٣) الشاطبي ،الموافقات : ٤/ ١٩٤ .



وهو ناظر إلى أثره أو آثاره .... فإذا لم يفعل، فهو قاصر عن درجة الاجتهاد أو مقصر فيها "(١).

وهذه القاعدة ثابتة بالتتبع والاستقراء لنصوص الشريعة ، حيث ساق الإمام ابن القيم في كتابه "إعلام الموقعين" تسعة وتسعين دليلاً من الكتاب والسنة، كلها تشير إلى هذه القاعدة (٢)، منها : قوله تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(الأنعام : ١٠٨)وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾(النور : ٣١)، فمنعهن الله تعالى من الضرب بالأرجل وإن كان جائزاً في أصله ؛ لئلا يكون سبباً إلى سمع الرجال صوت الخلخال؛ فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن(٣).

ومن السنة : ما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "من الكبائر شتم الرجل والديه ، قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال : نعم، يسب أبا الرجل ، فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه "(٤).

ويدلل الإمام الشاطبي على هذه القاعدة بدليلين عقليين :

الأول : "أن التكاليف مشروعة لمصالح العباد، ومصالح العباد إما دنيوية

---

(١) الكيلاني ،قواعد المقاصد : ٣٦٢ .

(٢) ابن القيم ، إعلام الموقعين : ٣/ ١٣٧ .

(٣) ابن القيم ، إعلام الموقعين : ٣/ ١٣٧ .

(٤) رواه البخاري ،كتاب الآداب ،حديث رقم (٥٥١٦)،ورواه مسلم، كتاب الإيمان ،حديث رقم : (١٣٠) .



وإما أخروية ، أما الأخروية فراجعة إلى مآل المكلف في الآخرة ؛ ليكون من أصحاب النعيم لا من أصحاب الجحيم ، وأما الدنيوية فإن الأعمال إذا تأملتها مقدمات لنتائج المصالح، فإنها أسباب لمسببات هي مقصودة للشارع ، والمسببات هي مآلات الأسباب، فاعتبارها في جريان الأسباب مطلوب ، وهو معنى النظر في المآلات " .

الثاني : " أن مآلات الأعمال إما أن تكون معتبرة شرعا أو غير معتبرة , فإن اعتبرت فهو المطلوب، وإن لم تعتبر أمكن أن يكون للأعمال مآلات مضادة لمقصود تلك الأعمال ، وذلك غير صحيح لما تقدم من أن التكاليف لمصالح العباد ، ولا مصلحة تتوقع مطلقا مع إمكان وقوع مفسدة توازيها أو تزيد ، وأيضا فإن ذلك يؤدي إلى أن لا نطلب مصلحة بفعل مشروع ولا نتوقع مفسدة بفعل ممنوع ، وهو خلاف وضع الشريعة .. "(١).

وإذا كان هذا هو شأن قاعدة " اعتبار المآلات " ، فالعمل بمقتضاها في جانب "الحوار مع الآخر" في غاية الأهمية :

- فهي الضابط الذي يتحدد به الإقدام على الحوار من عدمه : بناء على حتمية وقوع مفسدة من الحوار، أو أن يغلب على الظن حصولها(٢). فقد يكون الدخول مع الآخر في حوار يؤدي إلى نتائج ومآلات تناقض مقاصد الشريعة من الحوار، أو أن يحصل بسبب الحوار مفسدة عامة . فهي بهذا تعد

---

(١) الشاطبي ،الموافقات : ٤/ ١٩٦ .

(٢) السنوسي ،اعتبار المآلات : ٣٥٠ .



طريقاً وقائياً بمنع الابتداء والإنشاء أصلاً[١].

- ولهذه القاعدة دور في الترجيح بين المآلات المتعارضة ,أو الترجيح بين المصالح والمفاسد . وسيأتي الكلام عن هذا الأمر في قاعدة " مراعاة فقه الموازنات " .

- كما أن بهذه القاعدة تتحدد الموضوعات التي من المناسب الخوض فيها مع الطرف الآخر ، والموضوعات التي من المناسب السكوت عنها مراعاة لطبيعة المرحلة .

- وهذه القاعدة تحدد نوعية الخطاب مع الطرف الآخر، والأسلوب الأمثل الذي يحقق المصلحة المتوخاة من الحوار .

المطلب الثاني : قاعدة "مراعاة فقه الموازنات" وأثرها على الحوار مع الآخر :

الموازنات جمع موازنة ، وهي من الوزن، وهو ثقل شيء بشيء مثله، كأوزان الدراهم، ومنه وازنت بين الشيئين موازنة ووزاناً [٢].

وفي الاصطلاح : تعارض مصلحتين ،وترجيح إحداهما[٣]، يقول الإمام الشاطبي: "فالمصالح والمفاسد الراجعة إلى الدنيا إنما تفهم على مقتضى ما غلب، فإذا كان الغالب جهة المصلحة فهي المصلحة المفهومة عرفاً، وإذا غلبت

---

(١) المرجع السابق : ٣٦٢ .
(٢) ابن منظور ،لسان العرب : (١٣/ ٤٤٦) .
(٣) العز بن عبد السلام ،القواعد الكبرى : ١ / ٨٧ .



الجهة الأخرى فهي المفسدة المفهومة عرفاً، ولذلك كان الفعل ذو الوجهين منسوباً إلى الجهة الراجحة، فإذا رجحت المصلحة فمطلوب ، ويقال فيه إنه مصلحة، وإذا غلبت جهة المفسدة فمهروب عنه، ويقال : إنه مفسدة "(١) ، ويقول أيضاً : " فالمصلحة إذا كانت هي الغالبة عند مناظرتها مع المفسدة فهي في حكم الاعتياد فهي المقصودة شرعاً ، وكذلك المفسدة إذا كانت هي الغالبة بالنظر إلى المصلحة في حكم الاعتياد فرفعها هو المقصود شرعاً "(٢).

وأهم ما يقوم عليه فقه الموازنات :

- الموازنة بين المصالح بعضها البعض ..
- الموازنة بين المفاسد بعضها البعض ..
- الموازنة بين المصالح والمفاسد إذا تعارضتا ، بحيث نعرف متى تُقدَّم درء المفسدة على جلب المصلحة، ومتى تغتفر المفسدة من أجل المصلحة(٣).

وأدلة هذه القاعدة كثيرة ، ففي الموازنة بين المصالح ، نجد قوله تبارك وتعالى : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(الزمر : ١٨).

وفي الموازنة بين المفاسد ، نجد قوله عز وجل : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾(البقرة : ٢١٧) فقد

(١) الشاطبي، الموافقات : ٢/ ٢٠ .
(٢) المرجع السابق : ٢/ ٢١ .
(٣) القرضاوي ،السياسة الشرعية : ٢٧٩ ،في فقه الأولويات :٢٥ .



أقرَّ بأن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن لمقاومة ما هو أكبر منه[١].

وفي الموازنة بين المصالح والمفاسد ،نجد قوله سبحانه : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾(البقرة : ٢١٩).

وهذه القاعدة تكمن أهميتها في موضوع الحوار مع الآخر :

- في أنها تُفاضل بين المآلات المتعارضة التي قد تنتج من الحوار ، فقد يؤدي حوارنا مع الآخر إلى تحقق مصلحة، ولكنها ضعيفة بالنسبة لما قد ينتج من مفسدة أو مفاسد من الحوار، فتكون قاعدة فقه الموازنات بمثابة الميزان الذي يرجح جانباً على آخر .

- كما أن لهذه القاعدة أثر في تحديد أي الموضوعات التي تطرح في الحوار أرجح أو أكثر أهمية من الآخر.

ثم بعد ذلك يستعان بقاعدة "فقه الأولويات" الآتي ذكرها ؛ لتحديد مراتب المصالح والمفاسد .

المطلب الثالث : قاعدة " فقه الأولويات " وأثرها في الحوار مع الآخر :

" أولى " اسم تفضيل ، ويطلق على معنيين : الأول : بمعنى أحق، وأجدر، والثاني : بمعنى أقرب، يقال : فلان أولى بهذا الأمر من فلان : أي أحق به، وفلان أولى بكذا أي أحرى به وأجدر . وفي الحديث :

(١) القرضاوي ،السياسة الشرعية : ٢٨١ .



((ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فلأولى رجل ذكر))[١] أي أدنى وأقرب في النسب إلى الموروث[٢].

ومعنى فقه الأولويات في الاصطلاح : " وضع كل شيء في مرتبته، فلا يؤخر ما حقه التقديم أو يقدم ما حقه التأخير، ولا يصغر الأمر الكبير ولا يكبر الأمر الصغير "[٣] وعرف أيضاً بأنه : " العلم بالأحكام الشرعية التي لها حق التقديم على غيرها بناء على العلم بمراتبها وبالواقع الذي يتطلبها "[٤] .

وفي الواقع فإن فقه الأولويات له ارتباط وثيق بفقه الموازنات، فكثيراً ما تؤدي الموازنات إلى أولويات، حيث مما يقتضيه فقه الأولويات أن نعطي كل عمل قيمته في ميزان الشرع، لا نبخسه ولا نشتط في تقويمه، وبهذا نقدم ما حقه أن يقدم ،ونؤخر ما حقه أن يؤخر[٥].

وقد تفرعت من قاعدة " فقه الأولويات " وقاعدة " فقه الموازنات " قواعد شتى ,منها قاعدة : تقديم الفاضل على المفضول، وقاعدة : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وقاعدة : الأكثر مفسدة أولى بالدرء من الأقل مفسدة . وقد تفرعت من كل هذه القواعد قواعد شتى لايتسع المقام لذكرها[٦].

---

(١) رواه البخاري : كتاب الفرائض ،حديث رقم :(٦٢٤٠) ،ورواه مسلم ،كتاب الفرائض،حديث رقم: (٣٠٢٩) .

(٢) ابن منظور ،لسان العرب : (مادة ولي).

(٣) الوكيلي ،فقه الأولويات : ١٥ ،عن كتاب أولويات الحركة الإسلامية ،للقرضاوي :٣٤ .

(٤) الوكيلي ،فقه الأولويات :١٦ .

(٥) القرضاوي ،السياسة الشرعية : ٢٨٤ .

(٦) ينظر في هذا الموضوع: القواعد الكبرى للعز بن عبد السلام ، والموافقات للشاطبي،وأولويات الحركة الإسلامية ،وفقه الأولويات، والسياسة الشرعية للقرضاوي ، وفقه الأولويات للوكيلي .



وما من شك أنه من الضروري الاستظلال بهذه القاعدة في تحديد فقه الحوار مع الآخر :

- فتقدم العقائد على الأعمال .
- وتقدم الفرائض والأصول على النوافل و الفروع .
- ويقدم التيسير والتخفيف على التعسير والتشديد .
- ويقدم حسن التعامل وحسن الحوار مع المسالمين من غير المسلمين على الكفار المحاربين .
- ويقدم دفع الشبهات والدفاع عن الإسلام على التبليغ والبيان .

وقس على هذا ..



المبحث الثالث : المقاصد الخاصة والجزئية في الحوار مع الآخر :

يراد بالمقاصد الخاصة : "الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة ،كي لا يعود سعيهم في مصالحهم الخاصة بإبطال ما أسس لهم من تحصيل مصالحهم العامة، إبطالا عن غفلة أوعن استزلال هوى وباطل شهوة ويدخل في ذلك كل حكمة روعيت في تشريع أحكام تصرفات الناس ، مثل قصد التوثق في عقد الرهن، وإقامة نظام المنزل والعائلة في عقدة النكاح، ودفع الضرر المستدام في مشروعية الطلاق "(١).

أما المقاصد الجزئية فهي: " المقاصد المتعلقة بمسألة معينة دون غيرها "(٢).

إن هذا النوع من المقاصد يظهر مصداقية القول : بأن الشريعة الإسلامية جاءت لجلب المصالح ودرء المفاسد ،حيث يجد المتأمل أثر هذه القاعدة في فروع التشريع وجزئياته.

وقد عني عدد من العلماء بالكشف عن هذا النوع من المقاصد ، فدونوها وملؤا بها كتبهم ،كالإمام الجويني في كتابه "مغيث الخلق" ، والإمام العز بن عبد السلام في كتبه "القواعد الكبرى" ، و"مقاصد الصلاة" ، و"مقاصد الصوم" ، والإمام محمد بن عبد الرحمن البخاري في كتابه "محاسن الإسلام" ، والإمام ابن القيم في كتابه "إعلام الموقعين" ، والإمام الدهلوي في كتابه "حجة الله البالغة" ، والعلامة الجرجاوي في كتابه "حكمة التشريع وفلسفته" ، والإمام الطاهربن عاشور في كتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية" ، وغيرهم كثير .

---

(١) ابن عاشور ،مقاصد الشريعة الإسلامية : ٤٠٢ .

(٢) اليوبي ، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية : ٤١٥ .



ووجه ارتباط هذا النوع من المقاصد بالحوار مع الآخر هو أنه في كثير من الأحيان تثار شبهات وانتقادات على التشريع الإسلامي، في بعض أحكامه بغية النيل منه ، كالشبهات التي تثار على إباحة تعدد الزوجات في الإسلام، أو على جعل حصة المرأة نصف حصة الرجل في الميراث ، أو على وجوب حجاب المرأة المسلمة ، أو على وجوب قطع يد السارق ، وغير ذلك .. ، فتأتي المقاصد الخاصة وتقوي من حُجّة المحاور، مظهرة بذلك محاسن الإسلام، وتميزه على غيره من التشريعات الوضعية..

ومن جانب آخر فإن المدعو قد يجد شيئاً من الغرابة في الإسلام بسبب إلفه أنماطا ونظما غير إسلامية ، فتتوارد في ذهنه تساؤلات عن الإسلام، تحتاج إلى إجابات شافية، من أجل أن تقوّي وترسّخ قناعاته .

ونحن – المسلمين – واثقون بأن شرعنا هو الشرع الأصلح ،وشرع غيرنا على خلاف ذلك ، بحكم إيماننا ويقيننا بأن ديننا هو الدين الحق ، فنسلم بما جاء به الشرع تسليما ، من غير أن نحتاج إلى البحث عن الحكم التي من أجلها شرعت الأحكام . إلا أن غيرنا ممن لا ينتسب إلى الإسلام ، في عالم غلبت عليه فلسفات مادية، لا يفتأ يتساءل: ما الحكمة من هذا ؟ وما الغاية من ذاك؟ .

وهاك نماذج منتقاة من المقاصد الخاصة والجزئية ، لبعض المسائل التشريعية، القصد من ذكرها في هذا المقام بيان أهمية تلك المقاصد في الحوار مع الآخر، خلال الاستنجاد بها في دفع الشبهات، وإقناع الطرف المخالف .



المطلب الأول : دفع شبهة تعدد الزوجات بالمقاصد الخاصة والجزئية (أنموذجاً) :

تثار حول الإسلام شبهة قديمة حديثة وهي مسألة تعدد الزوجات ,من أن الإسلام أهدر كرامة المرأة ولم يراعِ مشاعرها ، وأن الإسلام لم يساوها بالرجل ، وأن في التعدد بسط لنفوذ الرجل، وسبب لتفكك الأسرة، وبذر الشقاق بين الأقرباء ، ونحو ذلك .

هذه شبهة من الشُبه التي قد تثار خلال حوارنا مع الآخر، ومن المهم أن يكون لدى المحاور إطلاعاً كافياً ، لما كتب عن هذا الموضوع من مقاصد شرعية ذات الصلة .

ولهذه الشبهة أو الشبهات ردود تبنى على المقصد الأعظم من التشريع وهو " جلب المصالح ودرء المفاسد " ، وتبنى على " الموازنة ما بين المصالح والمفاسد " و " تقديم الفاضل على المفضول " ، يقول الإمام العز بن عبد السلام : " تزوج الضراّت بعقد أو عقود مفسدة لما فيه من الإضرار بالزوجات ، لكنه جاز أن تضر كل واحدة منهن بثلاث، نظراً لمصالح الرجال[(١)]، وتحصيلاً لمقاصد النكاح .

فإن خيف من الجور عليهن، استحب الاقتصار على واحدة أو سريّة ، دفعا لما يتوقع من مفسدة الجور ، وحرُمت الزيادة على الأربع نظراً للنساء ، ودفعاً لمظان جور الرجال على الأزواج "[(٢)].

(١) ومنها : إعفافه الرجال من الوقوع فيما هو محرم ، حفظا للنسل والعرض .

(٢) العز بن عبد السلام ، قواعد الأحكام : ١/ ١٤٧ .



ولست مستقصياً كل ما يمكن أن يذكر من مقاصد وحكم تتعلق بهذا الموضوع على هذه الشبهات، ولكن غرضي - كما ذكرت - هو بيان كيف يمكن الاستفادة من تلك المقاصد عند الحوار مع الآخر .

المطلب الثاني : دفع شبهة قطع يد السارق بالمقاصد الخاصة أو الجزئية (أنموذجاً) :

من الشبهات التي تثار على الإسلام " حد السرقة " ، وهي شبهة كسابقتها تثار بين فينة وأخرى ، بحجة أن هذه العقوبة - في زعم المخالف - غير حضارية، وأنها عقوبة قاسية لا تناسب روح العصر، وأنها تحطم نفسية المجرم، وتهدر كرامته ... الخ .

وقد تكلم علماء المقاصد عن هذه المسألة ، من وجهة نظر مقاصدية، وتوسعوا فيها قديما وحديثاً[١]، منهم الإمام العز بن عبد السلام : " من أمثلة الأفعال المشتملة على المصالح والمفاسد مع رجحان مصالحها على مفاسدها : قطع يد السارق إفساد لها ، لكنه زاجر حافظ لجميع الأموال ، فقدمت مصلحة حفظ الأموال على مفسدة قطع يد السارق "[٢].

فنجد أن الإمام العز - رحمه الله - دفع هذه الشبهة من منظور مقاصدي ، مبني على فقه الموازنات، وفقه الأولويات . وهذا مما يقوي حجة المحاور .

وما أجمل رد ذلك الفقيه الشاعر على مستهزئ من حد السرقة، إذ قال:

يد بخمس مئين عسجد وُديت لكنها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ونستجير بمولانا من العار

---

(١) من الكتب الحديثة ، انظر : التشريع الجنائي الإسلامي، لعبد القادر عودة ، وانظر : السياسة الجنائية في الشريعة الإسلامية، ونظريات في الفقه الجنائي الإسلامي، لأحمد فتحي بهنسي ، وانظر : المقاصد الشرعية للعقوبات في الإسلام ، لراوية الظهار .

(٢) العز بن عبد السلام ، قواعد الأحكام : ١/ ١٥٦ .



فرد عليه ذلك الفقيه :

عـز الأمـانة أغـلاها وأرخـصـهـا ذل الخيـانة فـافهـم حكمـة البـاري

وهكذا يكون الحوار المصبوغ بالصبغة المقاصدية أقوى أثراً وأظهر حجة .

المطلب الثالث : دفع شبهة جعل حصة المرأة على النصف من حصة الرجل في الميراث (أنموذجاً) :

من الشبهات التي تثار على الشريعة الإسلامية ، شبهة جعل نصيب المرأة في التوارث نصف نصيب الرجل ، بحجة أن في هذا القسم، نفي المساواة بين الرجل والأنثى، وعدم العدالة بينهما، وبالتالي يفضل الرجل على الأنثى .

يجيب الإمام محمد بن عبد الرحمن البخاري : " .. جعل للذكر مثل ضعف ما للأنثى ، وللوالد ما للوالدة ، مع ضعف الأنثى وعجزها عن الاكتساب، إذ جعل الإناث عيالاً للذكور فالذكر يعول الأنثى، والأنثى يعولها الذكر، فزاد في سهم من يعول أنثى سهم أنثى، ونقص من سهم يعولها الذكر سهم أنثى "[1]. فهو – رحمه الله – يريد بذلك أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه وعلى زوجه وعياله، بخلاف الأنثى فإنها ما دامت في بيت أهلها فإنهم ينفقون عليها ومتى تزوجت أنفق عليها زوجها[2].

بهذا الأسلوب في الإقناع تنقلب الشبهة رأسا على عقب عند الطرف الآخر، ويدرك كيف أن الشريعة الإسلامية معللة بمصالح العباد .

---

(١) محمد بن عبد الرحمن البخاري، محاسن الإسلام : ٣٩ .

(٢) عبد الله آل محمود ، حكمة التفاضل في الميراث : ١٧ .



الخاتمة

وبعد هذه الجولة المقاصدية السريعة ، أدركنا أنه من الأهمية بمكان تزود الدعاة بالفقه المقاصدي ، قبل الخوض في غمار بحر الحوار مع الآخر لا سيما في هذا العصر .

فقد بان أثر المقاصد العامة بأضربها : العدل ، والتغيير والتقرير، والسماحة والتيسير، وتجنب التفريع وقت التشريع ، والتدرج، والتبشير ومنع التنفير من الدين، وبان أثرها الإيجابي في الحوار مع الآخر .

وظهرت أهمية القواعد المقاصدية في ضبط عملية الحوار مع الآخر، وتوجيهها وجهة صائبة، مانعة من انحراف الحوار إلى وجهة قد تؤدي إلى نتائج غير مرجوة .

وعرفنا كيف تكون حجة المحاور أكثر قوة وجدوى عند استنجاده بالمقاصد الخاصة والجزئية التي تظهر محاسن الإسلام .

وختاماً ، فهذا البحث ما هو إلى لبنة تأسيسية لمنحى جديد ، من أجل تطوير عملية الحوار مع الآخر بمنهجية مقاصدية .

والموضوع بحاجة إلى المزيد من البحوث، أرجو أن ييسر ذلك المولى عز وجل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



قائمة المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً: السنة المطهرة :

- صحيح البخاري .
- صحيح مسلم .
- مسند أحمد .
- سنن الدار قطني .
- مستدرك الحاكم .

ثالثاً : المراجع العلمية :

- أزهر ، هشام بن سعيد ، مقاصد الشريعة عند إمام الحرمين وآثارها في التصرفات المالية (رسالة دكتوراه) ، الجامعة الأردنية، عمان ، الأردن، ٢٠٠٣م .
- البخاري ، محمد بن عبد الله ، محاسن الإسلام ،مع كتاب مراتب الإجماع،لابن حزم ، دار الكتاب العربي .
- ابن بيه ،عبد الله ،علاقة مقاصد الشريعة بأصول الفقه،مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ،سلسلة محاضرات مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- الجندي، سميح ، أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية ،دار الإيمان ،دار



القمة . الإسكندرية ٢٠٠٣م.

- الجويني ، عبد الملك بن عبد الله ،الغياثي ،تحقيق : عبد العظيم الديب، ط٢، ١٤٠١هـ.
- الحربي ،مطيع الله ،الحوار والتعايش الإنساني في ضوء الخطاب الإنساني،بحث مقدم في مؤتمر مكة المكرمة الخامس ،رابطة العالم الإسلامي ١٤٢٥هـ.
- الخادمي ، نور الدين ، الاجتهاد المقاصدي ،حجيته .. ضوابطه .. مجالاته، كتاب الأمة ،ط١ ، ١٤١٩هـ.
- ابن ربيعة ، عبد العزيز بن عبد الرحمن ،علم مقاصد الشارع ،ط١ ، ١٤٢٣هـ ،٢٠٠٢م.
- الريسوني ،أحمد ، مدخل إلى مقاصد الشريعة ،مطبعة التوفيق .
- الزبيدي ، محمد مرتضى ،تاج العروس من جواهر القاموس،دار مكتبة الحياة ،بيروت،ط١ ،١٣٠٦هـ.
- السايس،محمد علي ،تاريخ الفقه الإسلامي ،دار الكتب العلمية ، بيروت،ط١، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.
- السنوسي ،عبد الرحمن بن معمر ،اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات،دار ابن الجوزي ،ط١ ،١٤٢٤هـ.
- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي ،الموافقات، تحقيق: عبد الله دراز ،دار المعرفة ،بيروت .



- شبير ،محمد عثمان ،القواعد الكلية والضوابط الشرعية في الشريعة الإسلامية ،دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان ، ط١ ٢٠٠٠م، ١٤٢٤هـ
- عاشور ،محمد الطاهر ،مقاصد الشريعة الإسلامية ،تحقيق ودراسة الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة ،طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر ،على نفقة حضرة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر ،ط١ ١٤٢٥هـ ،٢٠٠٤ م .
- ابن عبد السلام ، عبد العزيز ،قواعد الأحكام في إصلاح الأنام ،تحقيق : نزيه حماد ،عثمان ضميرية ،دار القلم ، دمشق،١٤٢١هـ-٢٠٠٠م .
- ابن فارس ،أحمد ،معجم مقاييس اللغة ،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ،١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.
- القرضاوي ،يوسف ،السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها ،مؤسسة الرسالة ناشرون ،لبنان ، ط١ ، ١٤٢١هـ ،٢٠٠٠م .
- القرضاوي ، يوسف ، في فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة ،مكتبة وهبة ،القاهرة ،ط٦ ,١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م .
- القرطبي ،محمد بن أحمد الأنصاري ،الجامع لأحكام القرآن ،دار الكتاب العربي،ط٢ .
- قطب ،سيد ،في ظلال القرآن ، دار الشروق ،ط١ ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م.
- ابن القيم ، محمد بن أبي بكر ،إعلام الموقعين ،تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ،بيروت ،١٩٧٣م .



- الكيلاني ،عبد الرحمن إبراهيم ،قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي : عرض ودراسة ،المعهد العالمي للفكر الإسلامي،دار الفكر ،دمشق ،ط١ ، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- آل محمود ،عبد الله بن زيد ،حكمة التفاضل في الميراث ،دار الشروق, ط١ ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ، دار صادر، بيروت،ط١ .
- الوكيلي،محمد ،فقه الأولويات دراسة في الضوابط ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط١ ١٤١٦هـ ١٩٩٧م.
- اليوبي ، محمد سعد بن أحمد مسعود ،مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية ، دار الهجرة للنشر والتوزيع،ط١ ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

ضرورة الحوار الحضاري من أجل إنقاذ الإنسانية والإنسان

أ.د. وهبة مصطفى الزحيلي

جامعة دمشق- كلية الشريعة





تقديم

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على نبي الرحمة المهداة، وعلى آله وصحبه أعلام الهدى ومشاعل الحق، ومن تبعهم بإحسان، وبعد:

فإن العالم المعاصر يعيش الآن في حالة غليان وتوتر شديد بسبب اشتعال الحروب الساخنة والباردة، وأزمة الغلاء العالمي، بفعل تسلط بعض الأنظمة العنصرية والاستكبارية الطامعة في إخضاع الشعوب المستضعفة لهيمنتها ونفوذها، وأداتهما صندوق النقد الدولي، مع غياب العقل الواعي، ونداءات المباديء الأخلاقية والقيم السامية العليا، مما أدى إلى طحن مصالح الإنسان، وهزّ الوجود الإنساني، والإخاء البشري، والتعاون الحقيقي.

وأولياء الدين الحق والإيمان يجدون ضرورة حيوية لإحياء معالم الحوار الحضاري بين الثقافات والشعوب والحضارات والفلسفات، لأن للدين ونحوه تأثيره الفعال في علاج النزعات الدنيوية، وكبح جماح الأهواء والنزوات العدوانية، فكان من الحكمة ترك اليأس، وعقد الندوات والمؤتمرات المستمرة عن الحوار.

وأجد لزاماً عليّ أن أحدِّد الغاية الأساسية من الحوار ألا وهو إنقاذ البشرية أو الإنسانية، والإنسان ذاته من هذا الظلم والطغيان القائم، والتخلص من آفات السقوط أو الانهيار الحضاري، وما يتبعه من مخاطر كبيرة ومشكلات



كثيرة، وذلك خلال خطة البحث الآتية:

المحور الأول: تكامل الحضارات.

المحور الثاني: تعدد الأديان والمذاهب والثقافات.

المحور الثالث: الحوار من أجل بقاء الإنسان.

المحور الرابع: الحوار من أجل تخفيف ألوان المعاناة الإنسانية.

المحور الخامس: مقومات الحوار الحضاري في ميزان الإنسان.



المحور الأول- تكامل الحضارات:

الحضارة في المفهوم غير الديني ذات بُعْد مادي يعنى المدنية، وساد هذا التصور في تاريخ الحضارات القديمة والحديثة، وهي ذات دورات تقفز إلى السطح والعلو تارة، وتهبط إلى الحضيض تارة أخرى بحسب قوة نظام الدولة وضعفها، وذلك يشمل الحضارة الصينية والكونفوشوسية، والحضارة اليابانية في أقصى الشرق في آسيا، والحضارة الهندوكية في الهند، والحضارة الأرثوذكسية السلافية في روسيا وأوروبا الشرقية الجنوبية، والحضارة الإفريقية السائدة في جنوب الصحراء في القارة الإفريقية. ومنها الحضارة الرومانية والإغريقية (اليونانية) وجاءت الحضارة الغربية الحديثة وارثة للحضارة الرومانية المادية على القوة والتفوق العسكري، وشهدت قفزة عالية متميزة بالابتكارات والاختراعات الجديدة والنهضة الصناعية المتطورة في القرون الثلاثة الأخيرة.

وقد أدت الحضارة الإسلامية بفروعها في آسيا وإفريقيا دوراً مشرفاً في العلوم النظرية والتجريبية، واقتبست الحضارة الغربية منها كثيراً من الفنون والآداب والتجارب، ومنها علوم الطب والفلك والفلسفة والكيمياء والعلوم الرياضية والقوانين والأنظمة الإدارية والتعاقدية والاقتصادية ونحوها. ومن المعروف أن المسلمين هم الذين ابتكروا المنهج التجريبي قبل ((بيكون)). وامتازت الحضارة الإسلامية بأنها قائمة على بُعْدين: بُعد روحي وأخلاقي، وبُعد مادي، فأصبح للحضارة أفق شامل، وهو مجموع المفاهيم عن الحياة الدنيا وعما قبلها وعما بعدها، وهي خاصة في كل أمة من الأمم، على عكس



المدنية التي هي عامة، ولا تختص بها أمة من الأمم، وليس لها علاقة بالعقائد، فوجدت ثماني دوائر حضارية، ولكل منها خصائص ومنها الحضارة الغربية بفروعها الثلاثة: الأوربية، والأمريكية الشمالية، والأمريكية الجنوبية.

والواقع أن الحضارات متكاملة، يأخذ بعضها من بعض، ويكمل بعضها البعض الآخر، لأنها تعتمد في الدرجة الأولى على العلم، والعلم حق مشاع بين الأمم، فلا يعرف عصبية ولا عنصرية.

وهذا يثبت حق الأمم في توارث الحضارات، فكل أمة تقتبس من غيرها لوناً حضارياً، بين تعديل أو نقص أو إضافة، وتلك سنة طبيعية، فلا يصح أن توصف الحضارة بانتماء معين: ديني، أو مذهبي، أو قومي، أو طائفي، وحينئذ يجب استبعاد الصفة العنصرية أو العرقية، وأن تكون الحضارة ذات صبغة إنسانية وشاملة ومتوازنة، وهي الحضارة الإسلامية.

أما محاولة تصدير أمريكا والغرب معها نظرية العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية، فهو إلى حد ما مقبول، في الجانب الإيجابي للعولمة، أما الجوانب السلبية الكثيرة، فهي مثل ترويج الثقافة الغربية وحدها، والتقاليد الغربية، والتصورات الغربية، وتحقيق مصالح الأنظمة الاحتكارية والرأسمالية الكبرى، مما هو مقصور على الجوانب المادية فقط، ومحاولة إذابة الثقافة المحلية والصناعة المحلية، والقيم المحلية، والأفكار الدينية والاجتماعية اللصيقة بالدين، ونحو ذلك، فهذه السلبيات مرفوضة، رفضها أكثر من ثلاثة أرباع العالم.



المحور الثاني- تعدد الأديان والمذاهب والثقافات:

الأديان وما يتفرع عنها من مذاهب وآراء وفلسفات واقع لا يمكن إنكاره، منها الحق وأغلبها في وضعها الحالي باطل بسبب الانحراف عن هدي الوحي الإلهي الذي تضمن نظاماً رفيعاً وسديداً للإنسان ومجتمعه، وتعدد الأديان سنة إلهية عامة، قال الله تعالى في قرآنه واصفاً هذه الظاهرة: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس:٩٩).

وكذلك الثقافات متنوعة، وتعددها أكثر من تعدد الأديان، لأنها نابعة من إفرازات كل مجتمع بحسب ظروفه، ومن المعلوم أن الثقافة – كما جاء في معجم العلوم الاجتماعية وقاموس علم الاجتماع –: هي استجابة الإنسان لإشباع حاجاته المادية والروحية. أو إنها ((تشمل نماذج الحياة الاجتماعية بأُسَرها العائلية والاقتصادية والدينية والأخلاقية والتربوية والجمالية والسياسية واللغوية والعلمية)) فالثقافة تشمل المعرفة والسلوك.

ومن الأسف أن الثقافة الشائعة كالحضارة القائمة مادية بحتة، فهي ترفض الدين، وتردد مقولة: الفن للفن، والعلم للعلم، والعقل فقط، ولا شيء آخر،وهذا مرفوض منطقياً وواقعياً، فلا بد للثقافة والعلم من الروحانيات لتنهض الإنسانية وتتقدم بخطى ثابتة وراسخة ودائمة، ولا بد أن يكون الفن أخلاقياً، لتحقيق السمو وتجنب المخاطر والدنايا والثغرات بل والأمراض الاجتماعية، والدين الحق أصل الأخلاق، ويجب احترام القيم الدينية في مجال الفن، وغيره، وفي تقييم معطيات الأفكار والعلوم ورصد الغايات



وتحديد الأهداف، حتى لا يقع التعثر في نهاية المطاف، ويقع الشلل، لذا فإن الحضارة المادية، والثقافية الضعيفة غير المحاطة بسياج القيم العليا، سرعان ما تنهار، وحينئذ يبحث المثقفون والمفكرون عن البديل السليم، مع أن منظومة الدين في وسائله وغاياته تضع أمام الإنسان تصوراً سليماً منذ البداية، وتطالبه بوضع خطة منهجية محكمة، أو استراتيجية مدروسة سلفاً هي من وضع أحكم الحاكمين، منعاً من كثرة التقلبات، والتجارب وتوفيراً للجهد والوقت.

وأما هذا التنوع والتعدد في الثقافات والأديان والمذاهب، فكان لا بد من الحوار، لمصلحة الإنسان والناس جميعاً، لأن الله تعالى خلق البشرية شعوباً وقبائل (لتعارفوا) لا ليتناكروا ويتصادموا، وليعمهم الخير وثمراته الطيبة، ويتقوا الشر وآثاره الضارة، لذا كان أول ميثاق في العالم في مجتمع المدينة المنورة بعد الهجرة إليها وإبان بدء تكوين الدولة الإسلامية، هو ما نصت عليه (الوثيقة أو الصحيفة) من جعل أتباع الإسلام والنصرانية واليهودية يعيشون على أساس متين في التعامل ، لتوفير الثقة والأمن والاستقرار، ووضع مظلة وارفة من التعايش السلمي والودي والتعاون المثمر، والحوار البنَّاء، وما زال هذا المنهج مستمراً أو مطبقاً في الواقع الإسلامي ومتواصلاً بين أتباع الديانات في دائرة الحضارة الإسلامية – العربية، ينشط أحياناً، ويفتر أحياناً، والغالب هو تحقيق السلامة الأمنية والاجتماعية ما دام أطراف الحوار يلتزمون ببنود الميثاق ويحترمون معطياته. ومنطلقات هذا الحوار الصريح من غير تصادم إذا حسنت النوايا : هو الآية الكريمة الناطقة بوضوح: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ



في مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَات إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة المائدة:٤٨).

وهذا دليل واضح على أن التعدد والتنوع في العقول والأفكار والأديان والشرائع والمذاهب والثقافات سنة واضحة من سنن الله تعالى في الكون، ليكون التسابق في الخيرات أو التسارع فيه الخيرات معبراً عن التنافس الشريف، ولإثبات الذات الإنسانية والظفر بفضيلة جهاد النفس والتغلب على العقبات، في ضوء التوجيه الإلهي والهدي القرآني المعبر عن ختام الأديان والرسل إلى يوم القيامة.



المحور الثالث - من أجل بقاء الإنسان:

إن الحوار الحضاري العام الإسلامي أمر حتمي مع الآخر: وهو كل من كان غير مسلم، سواء أكان يهودياً أم نصرانياً أم وثنياً أم بوذياً أم علمانياً أم مادياً ملحداً أم علمانياً لا يؤمن بدين، أم فكرياً مع العلماء والفلاسفة والحكماء والمفكرين، أم اقتصادياً (رأسمالياً أم اشتراكياَ) أم سياسياً جمهورياً أم ملكياً أم غيرهما، وذلك من أجل إنقاذ البشرية كلها من التشتت والضياع والفناء، ومن أجل الإنسان ذاته ليبقى معبراً عن أكرم مخلوقات الله، ووجوده، وكرامته، وحريتة المسلوبتين في منطق السياسة (التلمودية – العنصرية – المستكبرة) ومن أجل صون أمانه، وتوفير غذائه (الأمن الغذائي) ورعاية صحته (الأمن الصحي) وتحقيق طموحه في السعادة، وتمكينه من ممارسة نشاطه وبذل جهده فيما ينفعه وينفع أطفاله وأسرته وأهله، فكلها أهداف عزيزة وكريمة، لأن أكثر من ثلث سكان العالم يعيشون تحت خط الفقر (أقل من دولار في اليوم) فمن أجل مَنْ تثار الحروب، وتحتل البلاد، وتقتحم حرمة الأوطان، وترتكب أخس وأحط الجرائم الأخلاقية، ويزجّ بالشباب في قيعان السجون، ليعاملوا معاملة أشنع وأحقر وأقسى من معاملة الحيوان مثل (سجن أبي غريب في العراق وأبي زعبل في مصر، وسجون مراكز الأمن تحت الأرض في بلاد كثيرة ومعتقل غوانتا ناموا) وغيرها من قيعان التعذيب والوحشية الداخلية والخارجية.

إن من حق الإنسان أي إنسان أن يعيش حراً عزيزاً كريماً، ومن الحق الواجب على كل إنسان أن لا يكون أداة تخريب وتدمير وإرهاب، وخيانة



لأمته ووطنه بالتجسس والتآمر وكيد المكائد.وإن من حق الإنسان الوطني أن يدافع عن وطنه بعزة وإباء واستشهاد وشرف، وتضحية ووفاء، وأن يجنِّد كل طاقاته لطرد المحتل اللعين والغاصب الذميم.

وإن من الحق على الإنسان أن يعاقب وحده عقاباً فردياً، ولا يعاقب آخرون أو يعاقب الشعب كله ومواطنو الدولة عقاباً جماعياً باحتلال الأرض ونهب الثروات والخضوع لأطماع الكيان الصهيوني العنصري المستبد الذي تحميه قوى الشر والعدوان من أنظمة الغرب (أمريكا وأوربا) والشرق الحاقد على الإسلام والمسلمين، مع أنه صار الآن في طور الشيخوخة.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (سورة المدَّثر:٣٨) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (سورة الإسراء: ١٥).

المحور الرابع - الحوار من أجل تخفيف ألوان المعاناة الإنسانية:

إن الحوار الهادئ والمنطقي والمعقول أشد ما نكون بحاجة إليه لتخفيف آلام الإنسانية المعذّبة، سواء في بلادنا أم في غيرها، للتخلص من ويلات الحروب والكوارث، وفظائع الجرائم ضد الإنسانية، مع ظهور موجات الغلاء والجوع العالمي، وتتحكم ألوان الجنون والطيش في رؤوس القادة، والتأثر بالأهواء والشهوات، ونزعات الاستكبار والاستبداد والطغيان والظلم ومزاولة أخسّ وأحط ألوان العدوان، فإذا ما تحرك الضمير العالمي لإنصاف المظلومين وتخفيف بشاعة المعاناة الإنسانية عن المنكوبين ولو بالقول والمجاملة، ترى أمريكا المستكبرة وحلفاءها يتدخلون لتسويغ جرائمهم،



وإعفاء الكيان الصهيوني من أي مساءلة، بحجة الهواجس الأمنية والدفاع عن المواطنين والمحتلين الغاصبين الذين يمارسون الإرهاب الأكبر، ومع بناء المستوطنات في الأرض العربية، ومصادرة الأراضي ظلماً وبغياً، وبناء جدران الفصل العنصري لتقسيم القرى والمدن إلى كانتونات (تقسيمات هزيلة)، وقتل عشرات ومئات الآمنين العرب في كل مكان.

والصهاينة في الواقع لا يريدون سلماً، ولا إقراراً بحق، ولا تهدئة مع الشعب الفلسطين، وكذلك الأمريكان وحلفاؤهم في أفغانستان والعراق والصومال لا يريدون سلماً ولا أماناً، وإنما يريدون ممارسة أسوأ أشكال التسلط والنفوذ والطغيان على الشعب الضعيف، والتحكم في ثرواته النفطية والمعدنية، بل تحطيم قوى الدفاع الإسلامي والعربي، وسرعان ما تظهر وتفتضح أكاذيبهم شيئاً فشيئاً مع الزمان، كانكشاف أكذوبة القضاء على أسلحة الدمار الشامل في العراق منذ أربع سنوات؟!

إن العرب والمسلمين يعيشون في كنف أخطار متوالية، فهل يفيد الحوار الذي لا يتسم بالجدية والمصداقية شيئاً، بل عدم الاحترام الفعلي للمستضعفين على أساس من الحق والعدل والمساواة، والذي يترفع قادة الحوار في أثناء ممارسته عن سياسة الإملاءات وفرض الشروط، كما هو شأن الغرب عادة، وكما حصل بعد الحرب العالمية الأولى والثانية من فرض الشروط على المنهزم، وهي شروط الحلفاء على ألمانيا النازية، فإن لم تتحقق ضوابط الحوار على النحو المذكور كان أشبه بحوار الطرشان.



المحور الخامس- مقومات الحوار الحضاري في ميزان الإسلام:

الذي تروِّج له أمريكا وسائر الغرب اليوم هو الصراع الحضاري على لسان الرئيس الأمريكي السابق كلنتون وغيره، وإبقاء نظرية التفاوت الإنساني والعنصري، والتميز الطبقي مع المسلمين وغيرهم في دنيا الواقع، وهذا في الحقيقة منشأ إشعال نار الحروب والتدخل في بلادنا في كل صغيرة وكبيرة، وهو ما تركز عليه المشاورات والمؤتمرات السرية بين الصهاينة والحاقدين التلموديين واليمين الأمريكي والأوروبي المتطرف والمتصهين، فهم دائماً في تاريخنا المعاصر نذير شؤم وتآمر، وتورط في قصف ونسف وهدم وتشريد وطرد وتيتيم أطفال، وأسْر شبان، وجعل منطقتنا في غليان دائم ونزيف دماء مستمر، وتقتيل، ومصادرة أموال وأراض.. الخ.

ولا يُذعن هؤلاء جميعاً لنداءات الحق والعدل والمساواة واحترام حقوق الإنسان وعزة الأوطان وترك تدنيس شرف المقدسات التي تجردوا من الإيمان بها أو مراعاتها.

بل إنهم في الواقع لا يريدون حواراً، بل حرباً، ولا سلماً بل فتكاً وضرباً، ولا حرية بل عبودية واستعباداً، ولا أمناً بل زرع الرعب والخوف ونشر الفقر والجوع، وإبقاء التخلف والجهل في ساحات بلاد الإسلام والعروبة.

ونحن من جانبنا ما زلنا نؤمن بالمبادئ والقيم الإنسانية والأخلاقية، والإذعان لدواعي الفضيلة والتحضر، ومعطيات العلم النافع والتمدن الرفيع، واللجوء إلى الحوار البنَّاء القائم على منهج العدل والأمن والسلام، لتعيش البشرية في إخاء وأمن واطمئنان، ولعل ما يفيد عقلاءهم وأصحاب



الضمائر الحية واليقظة الإذعان لمنطق الحق واللجوء إلى مظلة الحوار في تقدير الإسلام وكل دين يحترمه أتباعه، في ضوء المبادئ والقيم الآتية:

١- التزام ركيزة الإيمان الحق:

للإيمان الصحيح إشعاع ونور لا يخبو، فهو يوجِّه الإنسان إلى التزام معالم الحق والعدل والإحسان والفضيلة وإحياء الوجدان والإيمان ببعده السماوي الخالد يحفظ للإنسان الأمل الدائم في حياة طيبة هانئة، ويبعد عنه الهواجس والقلاقل والاضطرابات، وينسِّق بينه وبين بني الإنسان ومع موجودات الكون على أساس التأمل في عظمة الجلال الإلهي وروعة الجمال، ثم صون الإنسان عن العبث، وحفظ أي إنسان، لا إنسان الغرب والصهيونية فقط، بل كل مخلوقات الله تعالى عن التعرض للذل والهوان، لا سيما احترام وجود أصحاب الحق الخالد، وأهل الوطن الراسخ في بلادهم، وتمكينهم من العيش بسلام ووئام.

يجب أن لا يقتصر نداء الإيمان السماوي على مجرد رعاية المصالح الذاتية، والأطماع السياسية والاقتصادية، وإبقاء مناطق النفوذ والاستعلاء في بقاع العالم كله لحساب طرف واحد، أو قطب مستبد واحد، لأن المصلحة الدائمة هي المصلحة المشتركة، والمصلحة الخالدة هي التي تحقق العدل والمساواة والإخاء وتعميم الخير.

إن الحرية والحق في العيش المشترك بأمان وسلام واستقرار، هما جوهر الحياة الصحيحة، وأساس النمو وتنمية طاقات الإنسان وإبراز مواهبه.

ـ إن غياب الحرية يوقع الإنسانية في جحيم لا يطاق، وفي ارتكاب مظالم ومجازر لا حصر لها.

ـ وإن من أسوأ هَجْر مبدأ الحوار والإصرار على بقاء فكر الصراع الحضاري: الوقوع في آفات خطيرة، وانتشار ظاهرة الاستبداد والاستعمار ونشر الإرهاب الفكري، وادعاء الوصاية على الآخرين، واتهامهم بالغباء والجهل وعدم الفهم، وهذه كلها داء العصر الاستعماري الجديد، لفرض الهيمنة على الأفراد والقادة والشعوب، وممارسة أشكال الضغط الاقتصادي والثقافي والفكري تحت ستار العولمة، وزعم العمل من أجل تصدير الديمقراطية ونشرها في العالم، لكن كيف يلتقي الاستبداد والتحكم في مصائر الآخرين مع إيجابيات العولمة ومصداقية الديمقراطية ؟!

الإيمان في البعد السماوي الصحيح كفيل بحل مشكلات الاضطراب العالمي، ورفع الأيدي الظالمة عن كل ألوان المعاناة، وتحرير الإنسان، وصون شرف الأوطان.

ويتطلب الإيمان، نبذ الإلحاد والعلمنة، ومقاومة سياسة الاستعلاء والاستكبار، ومحاربة الأطماع البشرية الجامحة، وإقرار الثقافات المحلية والبعد عن محاولة إلغائها، والتعارف في مجال الدوائر الحضارية المختلفة، لاسيما علاج الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وتفهم هذه الأوضاع، وتكثيف الحوار السياسي والأمني والعقدي، واحترام القيم الإنسانية العليا والمباديء الأخلاقية.



٢- الحفاظ على مبدأ الإخاء الإنساني:

الناس في هذا العالم كلهم سواء، وهم إخوة من أصل واحد، وعليهم أن يلتقوا على صعيد واحد، وآمالهم وآلامهم واحدة، وحقهم في عيش كريم عام حق ثابت خالد، ولا استقرار ولا هدوء في كل بقاع العالم إلا باللجوء إلى الحوار، والتكافل والتعاون على قدم المساواة، وهذا إن كان لا يروق للمتسلطين والمستكبرين، فهو في النهاية مؤدٍّ إلى تحطيمهم وخيبتهم وهزيمتهم عما قريب، وليس للظلمة في نهاية الأمر إلا التراجع والخسران والانحسار وتحجيم الوجود.

إننا نريد أن نذكِّرهم- وهم أصحاب القوة العسكرية الضاربة والتسلط وممارسة الظلم- بشيء من وصايا السماء إن كانوا مؤمنين حقاً بشيء من القيم، ليسود الأمن والاستقرار في عالمنا الواحد ويتقهقر جند الظلم والتسلط على المستضعفين، قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (سورة النساء:١) وهذا تقرير واضح لمبدأ المساواة في الإنسانية.

والمساواة تقتضي العمل الجماعي الشامل، والتعاون المثمر، والحوار الهادئ، والإذعان لما يقتضيه مبدأ الإخاء الإنساني العام، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ...﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

٣- الحب الحقيقي للإنسان :

لا تصفو العلاقات الدولية والإنسانية، ولا تزول أسباب التوتر والغليان في عالمنا إلا بشعور فياض من الحب الصادق لكل إنسان في هذا الوجود،



ومن أحب غيره عامله معاملة نفسه، وكان شعاره معه الإنصاف والعدل والحرص على تحقيق مصالح غيره كما يحب ويرعى مصالحه.

أما أن تبقى النزعة الفوقية مسيطرة على نفوس بعض القادة المتحكمين الآن في مصير العالم المعاصر، ويمارسون تصرفات عدوانية على الضعفاء، فلا أمل حينئذ في الاستقرار والوئام وإشاعة السعادة لكل إنسان.

وهذا يتطلب بحسب أنظمتهم المعلنة تفعيل التوجه إلى احترام حقوق الإنسان في كل مكان، لا أن يظل ذلك مجرد شعارات جوفاء، منذ إعلان الميثاق العالمي لحقوق الإنسان في منظمة الأمم المتحدة في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٨ .

ولا جدوى لأي حوار ما لم تتحقق الرغبة في إنجاحه، والانبعاث من عاطفة الحب الأخوي الإنساني، في ظل المبدأ الإسلامي السماوي الرفيع ألا وهو: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))(١).

٤ - الاعتراف بالآخر:

الآخر في المصطلح العام: كل ما عدا الإنسان المحاور، سواء أكان منتمياً لأي نظام أم دولة أخرى، أم يؤمن بدين آخر، أم من أتباع حضارة أخرى من الحضارات في عالمنا، أم من عرق آخر، أم له فكر مختلف، أم تبعية لأي اتجاه عقدي أم علمي، أم فلسفي أم انتهاج طريقة معينة في الحياة.

وهذا شرط أساسي لأي حوار، أما إن لم يتحقق الاعتراف بالآخرين أو أحس المحاور بنزعة فوقية أو حضارية، فإن الحوار يكون عديم الجدوى.

(١) أخرجه الجماعة (أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه) إلا أبا داود.



وهذه مشكلة العصر حيث لا يرى القوي إلا نفسه ودولته ووجوده، ولا يقيم في الواقع العلمي أي اعتبار للآخرين الذين هم في نظر الأقوياء مجرد ميكروبات أو فيروسات، أو لا يستحقون الحياة، وإنما الحياة للأقوى، وهو ما كان سائداً في الأمم القديمة والجاهلية العربية الذين يرددون: ((وإنما العزة للكاثر)). أي الأكثر أتباعاً، والأقوى اقتصاداً، والأعز منعة وعسكرة وتفوقاً في أي شيء، وهذا عين الفساد والتخلف، وبصراحة أقول: لا أمل في الحوار ما لم يعترف بنا أعداؤنا في الغرب أو في الشرق.

٥ - التقيد بمنهج الحق والعدل والمساواة:

كل حوار لا يتقيد بشرعة الحق والعدل ومبدأ المساواة فهو فاشل أو خائب، لأن منشأ النزاع والقلق هو الباطل والظلم وعدم التعادل، ولا ينجح الحوار إلا بالانطلاق من مسلَّمات ضرورية يحتكم إليها، ليزول الخصام والاضطراب والتوتر وتسوى المنازعات، لأن ملتقى الجميع دون أي إشكال معرفة مبدأ الحق أولاً، فالحق أحق أن يتبع، ولا يتسنى لأحد الاعتراض على النتائج إذا سوِّيت المنازعات على أساس من مراعاة حقوق الطرفين المتخاصمين أو المختلفين، فبالحق دوام الوفاق، وبالباطل يبقى الخلاف، وسرعان ما ينهار أي اتفاق إذا بني على الظلم، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ (سورة الإسراء: ٨١).

والعدل غير الحق كما هو معروف، لأن العدل ضد الظلم، والحق ضد الباطل، وبالعدل قامت السموات والأرض، والعدل أساس لمنح المتحاورين حقوقهما، والوقوف عند مقتضى العدالة بينهما، أما الظلم فمؤذن بالخراب، ولا بد من كون المحاور كالقاضي الذي لا يتحيز ولا يميل لأي طرف على حساب الآخر، قال الله



عز وجل: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ.. ﴾ الآية (سورة النحل: ٩٠).

والمساواة في مراكز الأطراف المتحاورة مرجع الفصل في النزاع، فإذا مالت كفة أحد المتحاورين على حساب الآخر، فلا يتوافر الرضا بشيء، ولا تنطفئ نار المشكلة، والمساواة كالحق والعدل مرجع كل العقلاء والمتعاملين، فلا ينقص شيء تم فيه التساوي، ولا يفسخ عقد تعادل أو تساوي فيه كلا الطرفين في الحقوق والواجبات.

ومن أشهر الأمثلة على مبدأ المساواة: الحوار في أصل الاعتقاد وإعلان مساواة الطرفين في الإقرار بوجود إله واحد، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

٦- عناصر حضارتنا:

الحضارة الإسلامية حضارة متميزة شاملة للحياتين الدنيوية والأخروية، المادية والروحية، لتظل الحضارة خالدة قائمة غير متعثرة، ولا مهددة بالانهيار، كما هو حال الحضارة الغربية المادية البحتة، بسبب اقتصارها على الأبعاد المادية وتخليها عن الأبعاد الروحية، قال الله تعالى مبيناً عناصر حضارتنا الأربعة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص: ٧٧).

ومثلها سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر: ١ - ٣).

دلت الآيات على عناصر الحضارة الإسلامية الأربعة: العمل للآخرة فهو



بمثابة المقوِّم لأعمال الإنسان، والعمل للدنيا وسيلة للآخرة، وإحسان العمل، واجتناب الفساد، فليس في حضارتنا مثلاً إلا تحقيق الخير والصلاح والإحسان في الابتكارات والأعمال، والبعد عن الفساد الذي هو مثل ابتكار آلات الدمار الشامل من قنابل هيدروجينية وذرية وكيمياوية خطيرة.

٧- صون الأمن والسلم الدوليين والمحليين:

إن من أخطر ما تعاني منه البشرية اختلال الأمن والتورط في حروب ظالمة على المستوى الداخلي والخارجي، لأن كل ما يهدِّد الأمن والسلام العالمي يُلحق ضرراً واضحاً بالبشرية والأوطان، فكم عانت البشرية من الحربين العالميتين الأولى والثانية، حيث قُتل أكثر من ستين مليون نسمة، وكم سقط من مئات الألوف بسبب إراقة الدماء في أوروبا، وارتكاب مجازر محاكم التفتيش فيها، انطلاقاً من تعصب ديني مذهبي في فترة القرون الوسطى.

وكم قدَّمت البلاد العربية- الإسلامية من دماء الشهداء لمقاومة الاستعمار، كالجزائر ذات المليون شهيد فأكثر، وغيرها من أجل تصفية الاستعمار البغيض.

وكم تُزْهَق أرواح بريئة طاهرة اليوم في ربع القرن الأخير كالحرب العراقية الإيرانية التي نجم عنها قتل مليون شهيد في إيران، ومثل ذلك الآن من قتل أطفال ونساء وشيوخ في العراق على يد الحلفاء بقيادة أمريكا، وكذلك الشأن في فلسطين وأفغانستان والصومال، وقبل ذلك على يد سفاحي الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا، وتجدُّد ذلك في حروب التحرير في كوسوفو والبوسنة والهرسك وغيرها.

إن دعوة القرآن الكريم إلى إقرار السلم والأمن الدوليين واضحة في آيات



قرآنية، منها قول سبحانه: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

وقوله تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٨١ - ٨٢) كل إخلال بالأمن ظلم واضح واعتداء فاضح.

٨- ضرورة الحفاظ على اللغة العربية:

تحاول بعض الدوائر الغربية، وفي قمتها أمريكا من أجل ترسيخ نظام العولمة إضعاف اللغة العربية، وقصرها على أهل الاختصاص، وإشاعة اللهجة العامية، وإحلال اللغة الانجليزية محلها في سلَّم درجات التعليم كله، وفي ممارسة التجارة، والاستيراد والتصدير، وكذا في الكلام العادي، وفي المخاطبات الرسمية، إلا من عصم الله مثل دولة سورية التي جعلت الحفاظ على اللغة العربية في مؤتمر القمة العربي العشرين الأخير في دمشق أحد بنود المؤتمر وتوصياته الأساسية. وذلك لأن اللغة العربية وعاء القرآن والإسلام، وزاد الثقافة العربية، والحفاظ على هوية الأمة العربية، كما أن من سلبيات العولمة محاولة إذابة اللغات المحلية المختلفة، ولو غير عربية، علماً بأنه قد ضاق الغرب باللغة العربية التي سجلت أعلى ارتفاع لها في نسبة الناطقين باللغات الرئيسية على مستوى العالم، فقفزت من (٧, ٢٪) إلى (٥, ٣٪) عام ١٩٩٢[(١)].

وهذا يقتضي من الدول العربية والإسلامية زيادة العناية بتدريس اللغة العربية، لتوفير مستقبل زاهر لها، فإن اللسان العربي هو أساس صحة صلاة

(١) مجلة التسامح في عمان، العدد الثاني ص ١٨٩ .



كل مسلم، ولتربية ذوق كل مسلم، فمن تعلَّم العربية رق طبعه، كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله.

٩- أهم موضوعات الحوار:

موضوعات الحوار الإسلامي- المسيحي كثيرة أهمها ما يأتي[١]:

- الموقف العقدي من قضايا بعينها، وفي مطلعها: مقاومة العنصرية والتمييز العنصري والعدل الاجتماعي، والحرية والمسؤولية، والسلام القائم على العدل.

- العناية الشديدة بأوضاع الإنسان وتعلقه بأرضه ووطنه.
- التركيز على القضايا الاجتماعية، ومنها الأسرة والزواج والعفة، ومشكلات الشباب، وتحديد مركز المرأة في الأسرة والمجتمع، وتحقيق التكامل بينها وبين الرجل مع مراعاة متطلبات الفطرة الإلهية النقية، والمهام الإنسانية لها في الحياة، والتكافل الاجتماعي، والتعددية في المجتمع.
- علاقة الإنسان بالدولة وبحث قضايا الشورى والديمقراطية والمشاركة السياسية.
- قراءة التاريخ بنظرة فاحصة، وإبراز الصورة الإيجابية للتعايش المشترك والتعاون في الداخل والخارج، وتطلعات المستقبل.

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٢ .

الخلاصـة

يعـيش العـالم الآن في حـالة غليـان وتوتر شـديـد بسبب اشـتـعـال نيـران الحـروب وأزمـة الغـلاء العـالمي، ممـا يجـعل الحـوار الحـضـاري ضـرورة حيـوية لإنقاذ الإنسانية والإنسان ذاته.

وذلك يسـتـدعي بيـان تكامل الحـضـارات القـديمة والمعـاصـرة، حـيث إن الحضارة كالعلم لا وطن لهما، وكل أمة تقتبس من حضارة الأمة الأخرى، مما يثبت حق الإرث الحضاري.

وتكامل الحـضـارات مرتبط بأن المجتـمـعـات الإنسـانيـة مـتـعـددة الأديان والمذاهب والثقافات، كتعـدد الأجناس والأعراق، وكلها تنصـهر في النهـاية في ظل حـضـارة واحـدة، فكان لابد من الحـوار لمصلحـة الإنسـان والناس جميعاً، كما لابد من التعاون فيما بين المجتمعات والتعارف، الذي عبرت عنه وثيقة أو صحيفة المدينة المنورة في العهد الإسلامي الأول، حين بداية تكوين الوجود الدولي للإسلام والمسلمين، فيما بعد الهجرة النبوية، فالتعدد ظاهرة أو سنة كونية من سنن الله تعالى.

والحوار الحضاري والحوار الإسلامي بين الأديان ومع الآخرين أمر حتمي ليتحقق التوافق والتقارب بين المفكرين والفلاسفة والحكماء في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والاعتقاد والمذهب والتمذهب محلياً ودولياً، ولإنعاش الحرية والحفاظ والرخاء، وحينئذ تجتث شجرة الإرهاب، ويبقى فقط حق الدفاع والمقاومة ضد المعتـدين والمحتلين والغاصبين، خلافاً لما نشاهده من وجود إرهاب الدولة، وسحق الإنسان والاعتداء على بعض الدول الإسلامية والعربية



اعتداءً وحشياً وفاضحاً. ولعل الحوار إذا صدقت النيات والعزائم فيه يخفف من آلام الإنسانية المعذبة، ويرفع الظلم عن الضعفاء والمستضعفين.

ومن أهم مقومات الحوار الحضاري في ميزان الإسلام: الانطلاق من قاعدة الإيمان، والحفاظ على مبدأ الإخاء الإنساني لتقوية أواصر الود والحب والسلام، وضرورة الاعتراف بالآخر، والإحساس بمشاعره ومطالبه وآلامه، والتقيد بمنهج الحق والعدل والمساواة، فهو المنهج المتعين في كل حوار، ولا بد من الاستفادة من مقوِّمات الحضارة الإسلامية الأربعة وهي الاستشعار بالحساب الأخروي، والعمل على عمران الدنيا والكون، وإحسان العمل، واجتناب الفساد وكل ألوان الشر والظلم والباطل.

ولا بد من العمل الجاد والدؤوب والمحايد لصون الأمن والسلم الدوليين والمحليين، والتخلص من ظاهرة الإرهاب الدولي والفردي أو الجماعي، وضرورة العمل على إنعاش اللغة العربية - لغة القرآن، ووعاء حضارة قدمت الكثير للعالم كله.

ومواضيع الحوار كثيرة، منها: مقاومة العنصرية والتمييز العنصري، وتفعيل مبدأ العدل الاجتماعي، والحرية والمسؤولية، والسلام القائم على العدل، والعناية بأوضاع الإنسان وتعلقه بأرضه ووطنه، وبحث مشكلات الأسرة والمرأة والشبان والفتيات، وعلاقة الإنسان بالدولة، والتعرف على أخلاق العلم والعمل والتقنية المعاصرة، وقراءة التاريخ بتأمل وحياد، والتخطيط لمستقبل أفضل، وتحقيق تعايش وتعاون أوطد وأمنع وأسلم، والله يحب المحسنين.